

إيلاف قريش

رحلة الشتاء والصيف

فكتور سَحَاب

دكتور دولة في التاريخ - الجامعة اللبنانية
باحث زائر في جامعة جورجنتاون - واشنطن
حائز على منحة فولبرايت للأبحاث

صفحة المكتبة التاريخية اليمنية

<https://m.facebook.com/Yemeni.historical.library>

مختار محمد الضبيبي



المركز الوطني للأبحاث



كوميو نشر

رحلة الشتاء والصيف

- رحلة الشتاء والصيف
- رحلة الشتاء والصيف
- رحلة الشتاء والصيف
- رحلة الشتاء والصيف
- رحلة الشتاء والصيف

إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف

✱ إيلاف قریش، رحلة الشتاء والصيف

✱ تأليف فكتور سحاب

✱ الطبعة الأولى، أيار/مايو 1992

✱ جميع الحقوق محفوظة

✱ الناشر: كومبيونشر والمركز الثقافي العربي

■ كومبيونشر: بيروت - فندق البوريفاج - ص.ب. ١١٣/٥٢٨٣ - ت: ٨٣٢٢٦٣ - فاكس: LE٨٢١٨٦٢

■ المركز الثقافي العربي ● بيروت - ص.ب. 113/5158 - ت: 352826 - نلكس NIZAR 23297LE

● الدار البيضاء - ص.ب. 4006 (الاحباس) - فاكس - 305726 - ت: 271753

مقدمة

الاهداء

الى عرفان شهيد
عربون محبة وامتنان



Digitized by www.scribd.com
www.scribd.com
www.scribd.com

مقدمة

أ- توسلاً إلى تحقيق بعض أغراض هذا المبحث، يلاحظ ما يلي:

١- تتوسط الجزيرة العربية بحرين عظيمين هما المحيط الهندي من الجنوب والشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الشمال والغرب. كذلك تتوسط ثلاث قارات كانت مهد الحضارات منذ القدم ولا تزال محط نشاط إنساني حضاري وسياسي وتجاري كبير، هي آسية شرقاً وإفريقية غرباً وجنوباً وأوروبة غرباً وشمالاً. ويرى باحثون أنه كانت الجزيرة العرب على الدوام مكانة لدى بقية العالم، يضمنها وضعها الجغرافي [هذا]، كفاصل بين بحرين. إذ يختلف مناخ البلاد المطلّة على المحيط الهندي وما والاها شرقاً حتى الصين، اختلافًا كاملاً عما في حوض البحر المتوسط. ولذا اعتدّت منتجات شرق إفريقية والهند وإندونيسية والصين نادرة في الغرب، فارتفعت أسعارها... وألفت بلاد العرب وسكانها اليونان والرومان، وكذلك وقعت جزيرة العرب [في الوقت ذاته] عند عتبة الهند والصين، وأنتجت بضائع غلا ثمنها في أسواق الغرب... وكان الاقبال على اللبان والمر والأفاويه هو الأشد^(١) ولم تكن تلك حالة معزولة في التاريخ. فكأنما كانت البلاد الواقعة إلى الجنوب والشرق من البحر الأحمر تتّجّ منتجات تحتاج إليها البلاد الواقعة إلى الشمال والغرب من البحر الأحمر حاجة ماسة، كانت منطقة الجزيرة العربية وما صاقبها من خطوط بحرية عبر البحر

Husein, Raef T.A.: The Early Arabian Trade and Marketing. *Islamic Quarterly*, vol. 30 (١)

SANLAVILLE, Paul: Des Mers au Milieu du Désert, Mer و انظر أيضاً: (1986), p.109.

Rouge et Golfe Arabo-Persique, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières, I*, sous la direction

.de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon 1988; p.10

الأحمر أو عبر الخليج ونهر الفرات والصحراء السورية، تتحول إلى موضوع صراع دولي بين الدول الكبرى ذات المصلحة في تجارة هذه المنتجات. ذلك كان الحال عندما كانت الأفاويه والبخور والفضة والحريز وما عداها، مواد «استراتيجية» بمقاييس عصرها. وذلك هو الحال اليوم بعد ظهور النفط شرق البحر الأحمر. ومثلما تتأثر أسعار النفط في عالمنا اليوم بالأحداث، صغيرها وكبيرها، كانت تجارة منتجات الشرق تتأثر في الزمان الغابر. حتى قيل إنه لو: «جاءت الأنباء تخبر عن عاصفة هوجاء في المحيط الهندي، لارتفعت الأسعار ارتفاعاً مذهلاً»^(١)، في أسواق الغرب القديم.

٢- في وقت ما، قبل ظهور الاسلام، تسلمت قريش ومدينتها مكة المكرمة، أزمة تنظيم التجارة الدولية بين الجنوب والشرق وبين الشمال والغرب. وكانت تحتاج من أجل بلوغ غايتها هذه إلى جمع جهد القبائل العربية الراغبة في استثمار أموالها في هذه التجارة، وإلى تحييد القبائل التي قد ترغب في غزو القوافل التجارية. كذلك كانت تحتاج إلى دعم زعامتها السياسية والاقتصادية بالوسائل المتاحة، ومنها ضمان نوع من الولاء الديني والعقدي لقريش ولمكة، ومنها أيضاً إشراك ما أمكن من قبائل العرب في المواسم والأسواق المتقلة، حيث يجتمع عامة عرب الجزيرة على مكاسب هذه التجارة، ويتبادلون العلاقات الاجتماعية ويتبارون في محافل الأدب والشعر. فكان جرّاء هذا المشروع الجماعي الخطير، أن أخذت تتجمع من حول هذا المشروع ملامح نزوع وحدوي في مختلف وجوه الحياة.

إذا انطلقنا من هذا التصور المبدئي فسيكون في مَكِنَتنا أن نلج موضوع «إيلاف قريش»، وفي ذهنا أن الإيلاف كان تطوراً بالغ الخطورة على صعيدين: أولهما، صعيد خارجي يختصّ بتسليم العرب أزمة الخطوط التجارية الدولية المارة عبر ديارهم، بين حوضي البحرين العظيمين واستعادة العرب لدور الوساطة التجارية، وهو دور تؤهّلهم له مكانة بلادهم في الجغرافية السياسية للعالم

.Husein, ibid, p 114 (١)

«القديم»، وثانيهما، صعيد داخلي يختصّ بالبذور التوحيدية التي تنشأ من مثل هذا الالتفاف حول المشروع العربي الواحد واحتمالات تطوير أثره الفاعل في كل الميادين السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية. وهما أمران يجعلان للايلاف وفهمه مكانة عظيمة في وعي العرب لتاريخهم الغابر، وفي فهم كثير من حقائق الجغرافية السياسية العربية، التي بقيت لنا منها اليوم عناصر مما سلف من أوضاع، وفي الإيحاء بالسلوك المحتمل الذي يستطيع العرب اليوم أن يسلكوه، لا في استعادة أزمنة دورهم في منطقهم حيال قوى الخارج فقط، بل في الاهتداء إلى مشروع يجمعهم على مصلحة مشتركة ذات أثر توحيدي متعاظم يؤدي إلى التفافهم حول هذا المشروع، ويدعم في الوقت نفسه قدرتهم على المبادرة في ديارهم.

يقول الهمداني: «لولا أن الله عز وجلّ خصّ بلطفه كل بلد من البلدان وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرّب أحد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي، وذهب الشراء والبيع والأخذ والعطاء. إلا أن الله أعطى كل صقع في كل حين نوعاً من الخيرات، ومنع عن الآخرين، ليسافر هذا إلى بلد هذا، ويستمتع قوم بأمتعة قوم^(١). ولعل أعظم «نوع من الخيرات» اختصّ به العرب هو توسّطهم هذا بين البحار والقارات، فتوسطوا في التجارة والثقافة والحضارات، وكانوا وسيلة اتصال بين مختلف الأمم، فبلغوا في هذا ما لم يبلغه كثير من الأمم غيرهم. ولذا يصبح فهم العرب للايلاف فهماً للذات وللمكانة في العالم وللعلقة بمن عداهم من أمم.



ب - ثمة من يعتقد أن ظهور الاسلام قبل أربعة عشر قرناً ونيف، جاء من فراغٍ سياسي واقتصادي وثقافي واجتماعي كامل. إلا أن عدداً من الباحثين في

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ، ص ٢٥١. وانظر حمّور، عرفان محمد: أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٥.

دراسات مختلفة، أثبتوا بجهود دؤوبة، ولو انها موزعة مبثثرة، أن القرن الذي سبق ظهور الاسلام، كان، على الأقل، حافلاً بأحداث غاية في الخطورة في منطقة الحجاز وأطرافها. وهذه الجهود، على كونها تستحق الثناء والتقدير، انفقرت عموماً إلى الرؤيا التاريخية الشاملة والنظرة العامة إلى المسار الذي درجت فيه هذه الأحداث الجسام، في الاتجاه الذي تَوَجَّهَ ظهور الاسلام فيما بعد. فجاءت وفرة التفصيل والوغل في الجزء راجحةً على مساعي البحث في استنباط الرؤيا الشاملة ضمن المسار التاريخي العام.

ولقد تعددت تعريفات العلماء «للايلاف». ورأى عرفان شهيد أن الكلمة اكتسبت معناها المخصوص بعد الاسلام، فقال محمد بن حبيب في «المحبر» إن الايلاف العهود. أما الطبري فقال إنه العَصَم أي المعاهدات التي ضمنت في جانبها العملي تسيير رحلتي الشتاء والصيف. وفيما تناول محمد حميد الله في مقالته «الايلاف» سنة ١٩٥٧، على مدى ثماني عشرة صفحة مسألة نشوء مكة ومحاولة معرفة الملوك الذين عقدت قريش معهم المعاهدات لتجارتهما، انصرف اهتمام ابراهيم بيضون في أربع عشرة صفحة إلى دراسة السلطة السياسية التي أدارت «الايلاف»، عبر دار الندوة، وما اعترى هذه السلطة السياسية في مكة من وهنٍ وواجهها من عقبات واضطرابات. أما ر.سيمون فصرف جل اهتمامه إلى الناحية التجارية والأشهر الحرم. وكتب صالح درادكة في مقالته «إيلاف قريش» سنة ١٩٨٤ رؤياه في النظر إلى «الايلاف». وخصَّص سعيد الأفغاني فصلاً من كتابه «أسواق العرب» بالايلاف. إلا أن هذا المشروع، الاقتصادي في الأصل، يظل في حاجة إلى دراسة شاملة تتناول جميع تفرعاته وآثاره الخطيرة في تطور المسار الوحدوي في الحجاز، وفي تسيير التجارة الدولية عبر الجزيرة العربية وأطرافها قبل الاسلام.

إن الايلاف كان في الأصل مجموعة من العهود السياسية التجارية، غرضها، فيما تكاد تُجمع عليه المصادر، ضمان قيام قريش بالتجارة عبر جزيرة العرب، من الشمال إلى الجنوب، ومن الجنوب إلى الشمال، وهو ما سنصطلح على تسميته: تجارة الشرق أو التجارة الشرقية، تيسيراً للعبارة. لكن الايلاف

كان، في سياقه التاريخي، العمود الفقري الذي قامت عليه حركة تاريخية تعدّت النطاق التجاري. فإذا كان الايلاف أولاً هو البديل الذي وفّره القبائل العربية البدوية، للحلول محل الخطوط التجارية المضطربة بين الشرق والغرب وبين الجنوب والشمال، عبر البحر الأحمر والخليج وامتداداتهما الصحراوية البرية، فإن الايلاف أيضاً أنشأ من حول المشروع التجاري نوى علاقات دينية وسياسية ولغوية واجتماعية بين هذه القبائل العربية، مهّدت لتوحيدها شبه التام لدى ظهور الاسلام.

إن هذه الحركة التاريخية، بمظاهرها المختلفة، وبتحركاتها في سياق الصراع الدولي بين القوى الكبرى في ذلك الوقت، وبخاصة دولة الساسانيين الفارسية، ودولة بيزنطة الرومانية، هو موضوع الدراسة في هذه الأطروحة: «إيلاف قريش». وهي أطروحة أمل أن تسدّ فراغاً في هذا المجال المهم من مجالات التاريخ العربي غير المستقصاة، وأن تلقي ضوءاً على أهم الأحداث التي كان شأنها إعداد القبائل العربية والساحة السياسية للمآل التوحيدي لدى ظهور الاسلام.

يقول شيرنغر إن التجارة الدولية ظهرت لدى العرب قبل الميلاد. وأهلهم لهذه المهمة موقع بلاد العرب الوسيط والبحر الأحمر والخليج، وخصائص الجمل ونوع السلع التي كان يحتاج إليها عالم البحر المتوسط (العالم القديم)، من منتجات شواطئ الهند والصين وإفريقية، ومن منتجات العرب أنفسهم. ولذا كان موقع بلاد العرب الوسيط هذا مجلبة لأطماع القوى الكبرى. وأول ما ظهر من الاهتمام الأوروبي بطرق التجارة الغربية على الأقل، ما بدا من الاسكندر المقدوني الذي أطلّ على المحيط الهندي في فتوحاته. لكن سقوط السلوقيين وانحسار الحكم الاغريقي أعاد الطموح الهليني ثم الروماني إلى حدود الاكتفاء بالبحر الأحمر منفذاً إلى الشرق، حتى كانت محاولة الامبراطور تراجانوس (Trajanus) الفاشلة في الخليج، أوائل القرن الميلادي الثاني. وقد دارت حروب الاغريق مع الفرس، ثم رومة مع الفرس، ثم بيزنطة مع الفرس قروناً طويلة حول محاولة السيطرة على الطرق التجارية عبر بلاد العرب. ويبدو هذا جلياً من

التنظيمات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي وضعها كل من الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية لتنظيم طرق الصحراء وحمايتها، بإقامة سلسلة من الحصون على مشارفها، وعقد مُحالفات مع زعماء القبائل العربية فيحمون القوافل التجارية لقاء مزايا مالية وسياسية أو لقاء حصة في التجارة الدولية. وكان لهذا الدور فضل عظيم في ازدهار ممالك الأنباط وتدمير ودورا والحضر والحيرة وغيرها.

وبعد مضي زمان على استقرار الحدود البيزنطية الساسانية عند نهر الفرات عموماً، أخذت بيزنطة تعزّز محاولتها لتأمين الطريق التجارية عبر البحر الأحمر والسيطرة على ضفتي البحر الاسيوية والافريقية. وكان الاستيلاء الحبشي على اليمن في القرن الميلادي السادس هدفاً مهماً من أهداف السياسة البيزنطية لضمان الخروج الامن إلى المحيط الهندي، بعد اضطراب الحال في بادية الشام وعلى طول الخطوط إلى الخليج، من جرّاء الحرب المزمّنة مع الفرس. غير أن القرصنة في البحر الأحمر ربما، دفعت البيزنطيين وحلفاءهم أحباش اليمن، إلى محاولة احتلال الشريط الغربي من جزيرة العرب، المطل على البحر الأحمر، إحصاكاً للسيطرة البيزنطية على خط تجاري مهم أخذت تتعاظم مكانته في التجارة الدولية، وهو خط القوافل العربية المارّ عبر مكة، لتتصل تجارة البيزنطيين برأ، من الشام إلى اليمن. وكان هذا الخط التجاري هو بالتحديد عصب الخط الذي تنظمه وتقوده مكة بموجب عهود «الايلاف». ولذا يصعب القول إن غزوة أبرهة صاحب الفيل وحليف بيزنطة لمكة، جاءت بالمصادفة فقط، قريبة عهد بغزوة الغساسنة لخير من الشمال. لا ولم تكن مصادفة على الأرجح، أن اليهود في اليمن أيضاً كانوا خصوم الاحتلال الحبشي. ويمكن الركون إلى التفسير الذي يضع هذه المظاهر جميعاً ضمن سياق محاولة بيزنطة للسيطرة على الطريق البري إلى اليمن. بل ان مسعى عثمان بن الحويرث إلى اصطناع المُلْك على مكة باسم بيزنطة يدرّج أيضاً في هذا السّياق.

وأياً كان الاختلاف اللغوي في تفسير الايلاف، إلا أن المصادر العربية تتفق على أنه كان المستند القانوني الذي أتاح تنظيم القوافل العربية عبر مكة في

خط يصل اليمن بالشام والحيرة. وسواء أكان الإيلاف من مآثر هاشم بن عبد مناف، والد جد الرسول، أم لا، فإنه كان قائماً فعلاً، ومعمولاً به في القرن الميلادي السادس. وكانت ثمة حاجة دولية ماسة إلى استمرار قيامه بسبب الحروب الساسانية البيزنطية، وإخفاق الفريقين في إنشاء نظام مستقر يضمن استمرار التجارة وتدفعها (فشل يوسف أسار ذي نواس ثم فشل أبرهة في اليمن، وفشل ابن الحويرث في مكة مثلاً). وقد سمح الإيلاف للقبائل العربية التي كانت تتبادل الغزوات، بالاتفاق على مشروع استغلال مشترك للطريق التجارية، فحظيت القوافل بالمرور الآمن في منازل القبائل العربية التي سارت إليها في القافلة، أو تقاضت مكوساً لقاء حق المرور. وقام بفعل هذا نظام من التحالفات القبلية عظيم الاتساع، أدى إلى إنشاء عيش مشترك بين القبائل المستقلة، تطوّر مع الزمن في ميادين مختلفة، فظهرت معه بذور وحدة اقتصادية ودينية وسياسية ولغوية واجتماعية ناشئة.

ولم يكن الإيلاف أول محاولة لإنشاء عمل مركزي عربي لاستثمار الطرق التجارية. فلعل تدمير وبُصرى وغيرها حاولت ذلك من قبل. لكن إيلاف قريش ربما كان أوضح المحاولات وأكملها وأنجحها وأعظمها أثراً. إذ لم تقتصر آثار اجتماع القبائل حول الإيلاف على الجانب الاقتصادي، بل تعدّتها إلى الأسواق الشعرية والعلاقات الاجتماعية والعقائد الدينية والرابطة السياسية، فكانت المعتقدات والمبارزات الشعرية في المواسم بذرةً ظهرت من حولها النوازع إلى تقارب اللهجات القبلية، فانمّ الإسلام ذلك بالقرآن الكريم. وتحول المكيون في رابطة الحُمس، إلى قيادة «أرستقراطية» ذات حرمة بين العرب، فتزعّموا مسائل الدين والتجارة غير منازعين. وجاءت القبائل إلى البيت الحرام، كل يلبي لصلته في طواف موحد. ولم تكن مصاهرات القرشيين في قبائل العرب قليلة الشأن في هذا المسار التوحيدي، على الصعيد الاجتماعي.

إن ما سلف من دراسات لإيلاف قريش وللتزاغ الساساني البيزنطي حول طرق التجارة الدولية، على جلال الكثير من هذه الدراسات، تناول هذين الأمرين كلاً على حدة، فلم يجمعهما في دراسة شاملة، على رغم ما بين الأمرين من

علاقة وثيقة واضحة. وليس من شك في أن جمعهما في هذه الأطروحة يعمق أبعاد فهمنا لإيلاف قريش في السياق الدولي لأحداث المشرق العربي، ولاسهام الإيلاف في مواجهة مشكلات العرب وتحديات موقعهم بين القوى الكبرى.

وتحقيقاً لهذا الأمر كان لا بد من جمع المصادر العربية الإسلامية التي تناولت تجارة قريش وعصور الجاهلية وأحوال القبائل في الجزيرة قبل الإسلام، والمراجع «الغربية» الحديثة التي استندت إلى المصادر الرومانية والبيزنطية، حتى أمكن النظر إلى أمرين متوازيين في آن: تطور السياسة البيزنطية حيال تجارة الشرق، وتطور رد الفعل العربي على الأوضاع الدولية المحيطة بالتجارة الشرقية.

وإن الحاجة العربية إلى الوحدة اليوم، وأوضاع الطرق التجارية الاستراتيجية الآن حول الجزيرة العربية وغيرها، واضطراب التجارة الدولية على هذه الطرق، واحتمال قيام العرب بدور أساسي في هذا الشأن ضمن أوضاع دولية يتنافس فيها الشرق والغرب على المنطقة العربية لأسباب شبيهة، كل هذا قد يضيف حاجة أخرى، إلى الحاجة العلمية المجردة، لدراسة الإيلاف وعصره، ويجعل منها دراسة مفيدة لعصرنا، علاوة على فائدتها في دراسة الجذور التي سبقت مباشرة ظهور الإسلام.



ج - تَضَمَّنَت المصادر العربية الإسلامية أهم ما جاء فيه ذكر إيلاف قريش، في شكل أو في آخر. ومن هذه المصادر القرآن الكريم أولاً، وفيه سورة قريش التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾... الآية. وهو المصدر الأول في هذا الأمر. ويحفز الباحثين على اتخاذ القرآن مصدراً في هذا الصدد أن الرسول العربي كان من قادة قوافل التجارة المكية قبل الإسلام وأنه عرف معنى السورة معرفة مباشرة لا ريب فيها من الناحية التاريخية. فالقرآن إذن مصدر أول، يليه استنتاجاً تفسير الطبري الموسوم «بجامع البيان في تفسير القرآن»^(١). وهو

(١) راجع ثبت المصادر والمراجع في آخر الكتاب، لمعرفة الناشر والمصدر وتاريخ الصدور.

مستودع ما تجمع لدى المسلمين في العصور الأولى من تفسيرات تاريخية ومن أسباب لنزول الآيات. وقل كذا في «سيرة النبي» لابن هشام. وفيما عدا ذلك تتفاوت قيمة المصادر العربية الإسلامية، ويصدرها قطعاً كتابا محمد بن حبيب البغدادي: «المحبر» و«المنقح»، ثم كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب «الأصنام» لابن الكلبي، وكتاب «الأوائل» لأبي هلال العسكري، و«أنساب الأشراف» للبلادري، و«نسب قريش» للزيري، و«نشوة الطرب» لابن سعيد الأندلسي، و«أخبار مكة» للأزرقي، وغيرها. لقد استخف بعض الباحثين هذه المصادر إما وجدوا في روايات الأخباريين الإسلاميين من تناقضات واضطراب في التواريخ، فجنح بعضهم إلى لفظ كل ما جاء به المصادر العربية الإسلامية، وكأنها جميعاً غير ذات قيمة. إلا أن جهوداً مغدّة في مسار الأبحاث، أثبت بعد طول عناء، أن المصادر العربية، مثل غيرها، متفاوتة القيمة والدقة. فمنها ما يستحق أن يؤخذ به، ومنها ما يستوجب الحذر. وقد أمكن لعدد من ذوي العلم والانصاف والخلد أن يصلوا إلى نتائج مفيدة جداً، من خلال نقد المصادر الإسلامية واصطفاء الجيد منها، وهو وافر، ومقارنته بالمصادر الأخرى الجديرة بالثقة، مثل بعض المصادر البيزنطية أو السريانية أو غيرها. وقد أمكن بذلك استكمال ملامح الكثير من الحوادث التاريخية، على نحو لم يكن ممكناً لو اكتفينا بقطاع وأهمل قطاع.

أما المراجع الحديثة فعلى رأسها أولاً المقالات المتخصصة في موضوع الايلاف، ومنها ما سلف ذكره لحמיד الله ويضون والدرادكة والأفغاني وسيمون. وقد كتب حميد الله ثلاث مقالات قيمة في أمر النسيء، وهو موضوع سنين علاقته بالايلاف في متن الدراسة. واقترح حميد الله في مقالته هذه مقترحات مهمة تهدي الباحثين إلى مسالك لا بد من سلوكها من أجل بلوغ مزيد من الدقة في ضبط تاريخ الاسلام الباكر وما سبقه مباشرة. وشكّلت موسوعة جواد علي: «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» منهلاً لمقدار كبير من المعلومات الضرورية للبحث، فأرشدت إلى عدد كبير من المقالات والأبحاث التي أوعبها الكاتب في موسوعته المذكورة.

أما المراجع «الغربية»^(١) فتضمنت على الخصوص ثلاث فئات من الكتب أو المقالات أولها مقالات في تاريخ الامبراطورية الرومانية لباورسوك وغراف وويل وغيرهم، تناولت بعض ملامح السياسة الرومانية حيال الحدود الشرقية وخطوط التجارة وأسلوب التعاطي مع القبائل العربية وتنظيم القوافل عبر الصحراء. وتناولت الفئة الثانية المرحلة البيزنطية على الخصوص، وأهمها مقالات عرفان شهيد وم. كستر. وقد أوضحت مقالات شهيد الكثير من العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والعرب في بلاد الشام وفي شبه الجزيرة العربية، فيما تخصص بحث كستر برصد أحداث شبه الجزيرة. وتناول سيمون وجاك ريكنمز إحدى حملات أبرهة الحبشي، وهي حملة تناولها كستر أيضاً في بعض ما كتب. أما الفئة الثالثة من هذه المراجع فهي مقالات وكتب تختص بالناحية الفنية في ملاحه العرب في المحيط الهندي والرياح الموسمية واتجاهاتها وأوقات هبوبها، لرغبة في محاولة فهم رحلة الشتاء إلى اليمن فهماً أوضح. ومن هذه: «العرب الملاحون» لعبد العلي، و«تجارة العرب القديمة» لرائف حسين، وكتاب: «بحار الرياح الموسمية» لآلان فيليب، وكتاب مهم آخر هو: «الابحار من لاهو» لثريزنر.



إن مخطط البحث يتضمّن ما يلي:

المقدمة: شرح غرض البحث وموضوعه وفائدته
الجزء الأول:

الفصل الأول: صورة قریش

(المعنى اللغوي، المعنى التاريخي، الفيل وقریش، فائدة واحدة
السورتين، سورة الفيل).

(١) استُخدم هذا التعبير لأن هذه المراجع تضمنت الراوية الثانية للنظر إلى موضوع الأيلاف، وهي راوية الصراع البيزنطي أو الروماني مع الفرس من أجل السيطرة على طرق التجارة وجميع هذه المراجع مكتوبة باللغات الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية. إلا أن بعض الكتاب ليسوا «غربيين».

الفصل الثاني: الغرب وتجارة الشرق

أولاً: العرب بين الشرق والغرب

(الصراع المستمر، فوائد البدو وخطرهم، ضرورة التجارة الشرقية، طرق التجارة البرية).

ثانياً: رومة وتجارة الشرق

(الثمن الاقتصادي والسياسي، الاسكندر و«المياه الدافئة»، سياسة رومة قبل الميلاد، سياسة رومة في القرن الأول، الحدود الشرقية أيام السلم، نموذجان: تدمير والأنباط، ترايانوس يضم مملكة الأنباط، ما بعد ترايانوس).

ثالثاً: عصر تدمير

(الصعود إلى القوة، تنظيم الغزوات التدمرية، العقيدة الدينيّة «المستقلة»، السلوك السياسي الاستقلالي).

رابعاً: ما بعد تدمير

(البحث عن سياسة حدود، سياسة القرن الرابع، القرن الرابع على جانبي الفرات، القرن الرابع في اليمن، القرن الخامس في اليمن، القرن الخامس في فلسطين).

الفصل الثالث: الأحوال الدولية في القرن السادس

أولاً: الحرب في صحراء الشام وجوارها

(سياسة الحدود في القرن السادس، ظهور بني غسان، حروب الوكلاء العرب، عصر المنذر بن النعمان، معاهدة السلام «الأبدي»، أزمة الوكلاء العرب، حروب نهاية القرن).

ثانياً: الصراع في جنوب الجزيرة العربية

(الحبشة واليمن في التاريخ، مسيحيو بيزنطة ويهود فارس، دخول النصرانية اليمن، بداية الصراع في القرن السادس، الغزو الحبشي الأول لليمن، عزل ذي نواس، الغزو الحبشي الثاني لليمن، استيلاء أبرهة على الحكم، ولاء أبرهة لبيزنطة، ثورة سيف بن ذي يزن،

حكم الفرس لليمن).

ثالثاً: الصراع داخل الجزيرة العربية

(النصرانية في الجزيرة العربية، اليهود على طريق القوافل، نفوذ الفرس في جزيرة العرب، ذرائع حملة أبرهة على مكة، أسباب الحملة الحقيقية، عام الفيل، مَنْ قاتل أبرهة ومن ناصره، مكة وبيزنطة، عثمان بن الحويرث).

الجزء الثاني: مقدمة الجزء الثاني

الفصل الرابع: تجارة الايلاف وطرقه وتنظيمه

أولاً: عوامل ظهور مكة

(وادي غير ذي زرع، مكة والتجارة، أسباب التحول إلى غرب الجزيرة، انهيار التجارة اليمنية، أسباب تفوق مكة).

ثانياً: إيلاف قريش

(من التجارة المحلية...، الرواية الإسلامية والشكوك... إلى التجارة الدولية، متى قام الإيلاف؟، أطراف الإيلاف الأربعة، أحلاف قريش القبليّة، إيلاف القبائل العربية، الرفادة والسقاية، تجارة وتدين).

ثالثاً: التجارة والطرق

(البضائع ومصادرها، الحرير والذهب والفضّة، اللبان والفرصة التاريخية، الطيوب والتوابل، رحلة الشتاء والصيف، مكة تتاجر، المال والصيرفة، الأبل وطرق الصحراء، هل سافر العرب بحراً؟ متى الإبحار إلى الهند؟ سرعة الرحلة إلى الهند).

الفصل الخامس: الإيلاف ومؤسساته

أولاً: الوظائف المكية

(قصيّ المؤسس، علاقة قصيّ بالتجارة، السياسة والحرب، لغز الأحابيش، إطعام الحجّاج والتجار).

ثانياً: العقائد السياسية والدينية

(الحرم وحرمة مكة، أهل الجَلَّة والطُّلس، الأشهر الحرم، حروب الفجار، انتصار مَكَّة على الحيرة، الحلف الشخصي والقبلي، المطَّيِّبون والأحلاف، حلف الفضول).

ثالثاً: النسيء

(التقويم القمري والسنة الشمسية، منشأ النسيء عند العرب، نظام النسيء، مطابقة الشهور، تحريم الاسلام النسيء، النسيء والتجارة الدولية، مشكلة رحلة الصيف).

الفصل السادس: المواسم والأسواق

أولاً: ملتقى الأصنام والقبائل

(ارتباط الحج بالأسواق، عمرو بن لُحَي، أصنام وتلبيات، مكة والتوحيد الديني، التوحيد قبل الاسلام، الحنفاء، إسم الجلالة: الله).

ثانياً: أسواق العرب

(تجارة محلية ومرافئ، مواعيد الأسواق ومواقعها، سوق عكاظ، الأسواق وتوحيد اللهجات، آثار الايلاف الاجتماعية، آثار الايلاف السياسية).

الخاتمة:

(النبي وقوافل قريش، من أيلة إلى الحبشة، الايلاف والاسلام والوحدة).

في ختام هذه المقدمة أسجل شكري وامتناني الصادقين لجميع من عاونوني معونة مخلصه في إخراج هذا الكتاب بعد سنوات طويلة من التفكير والتحضير والعمل، وأخص منهم بالذكر:

١ - الدكتور رضوان السيّد، أستاذ الفلسفة الاسلامية في الجامعة اللبنانية، الذي كان أول من فكّر في اختيار هذا الموضوع، وعمل بجِدٍّ من باب الصداقة، في اختيار المصادر الاسلامية وهدايتي إلى طرف خيط في المراجع الأجنبية. وقد

تضخم العمل في هذه الأطروحة في أثناء التعاون مع الدكتور السيد من أجل رسالة الماجستير، فارتؤي تأجيل العمل فيها لمرحلة الدكتوراه. غير أن إسهامه ظل بمثابة عمل تأسيسي لكل ما أنجز فيما بعد.

٢- الدكتور طريف الخالدي، أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت، وقد أشرف وقتاً قصيراً على مرحلة مبكرة من مراحل هذه الدراسة، لكن ملاحظاته القيمة المتعلقة بدقة اختيار العبارة العلمية والتحفظ من العموميات غير المأمونة، كانت مفيدة جداً في كل المراحل اللاحقة. كذلك كانت التوصية التي تكرّم الدكتور الخالدي بها دعماً لترشيح كاتب الأطروحة لنيل منحة فولبرايت الدراسية الأميركية سنة ١٩٨٨، العامل الأول الذي مكّن الكاتب من التفرغ أشهراً للكتابة في مكتبة جامعة جورجيتاون في واشنطن، فيما كانت الحرب في لبنان تشتت اشتداداً لا قبل لكاتب أن يكتب تحت وطأته ما يستطيع أن يكتبه في زمن السلام.

٣- الدكتور إبراهيم بيضون، أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية، المشرف على هذه الأطروحة، الذي فتح بيته لمناقشة موضوع الأطروحة، وأبدى ملاحظات مفيدة لوضع الملامح النهائية في المراحل التمهيدية التي سبقت بدء الكتابة، ثم أبدى ملاحظات أخرى منهجية بعد قراءة النص المكتوب، كانت ضرورية لضبط المنهج العلمي ضبطاً حاسماً.

٤- الدكتور عرفان شهيد، الأستاذ في جامعة جورجيتاون في واشنطن الذي تبرّع بملاحظات مفيدة، لا سيّما في إطار علاقة العرب مع بيزنطة وهو الذي أشرف على مرحلة كتابة الأطروحة.

٥- مجلس التبادل الدولي للباحثين والوكالة الأميركية للاستعلام وبرنامج فولبرايت للمنح الدراسية وجامعة جورجيتاون المرموقة، لقبولهم جميعاً رعاية الكاتب في شهور تفرّغه للبحث والكتابة في واشنطن، والمعاملة الكريمة التي اتسمت بها هذه الرعاية، والمستوى اللائق الذي وفّرتة الجامعة ومكتبها الزاخرة لآخراج هذا الكتاب في أفضل صورة وأكمل وجه مستطاع.

٦- زوجتي سميرة التي تحمّلت عناء رعاية عائلتي وحدها طوال شهور غيايبي في العاصمة الأميركية، بدءاً من أول آذار/مارس ١٩٨٩، أي في المرحلة ذاتها التي استعادت فيها حرب لبنان زخمها القاتل على أشده، فأضيف فضلها هذا، إلى فضلها السابق، وتحملها عناء رعايتي سنوات طويلة لتوفير أسباب الراحة الضرورية للبحث والعمل.

إلى هؤلاء جميعاً وإلى والديّ الحبيبين شكري وامتناني، والحمد لله.

فكتور سحاب

جامعة جورجنتاون - واشنطن

١٦ أيار/مايو ١٩٨٩

The first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the

the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the
the first of these is the fact that the

الفصل الاول
سورة قريش

أ- المعنى اللغوي

قال الله في كتابه العزيز ﴿إِلِيلَافٌ قُرَيْشٍ﴾ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴿فَلْيَبْذُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴿(سورة قريش)﴾ قال أبو اسحق: وفي إيلاف قريش ثلاثة أوجه: لايلاف، ولالاف، ووجه ثالث لإلف قريش، قال: وقد قرئ بالوجهين الأولين^(١). ويتبين من بعض مصادر التفسير والمعاجم أن الوجهين الأول والثالث من معنى واحد. لكن الأول متعد بمفعولين من قولك: «أَلَفْتُ فلاناً الشيء إذا ألزمته إياه، أولفقه إيلافاً»، والثاني متعد بمفعول واحد من قولك: «أَلَفْتُ الشيء وألِفْتُ فلاناً إذا أنست به»^(٢). وقد فسر ابن هشام في السيرة النبوية اللفظة بقوله: «وإيلاف قريش إلفهم الخروج إلى الشام في تجارتهم، وكانت لهم خرجتان: خرجة في الشتاء وخرجة في الصيف... العرب تقول أَلِفْتُ الشيء إلفاً وأَلَمْتُهُ إيلافاً في معنى... والإيلاف أيضاً: أن تؤلف الشيء إلى الشيء فيألفه ويلزمه»^(٣). ولإسقاط القراءة الثالثة سبب واضح. فقولك: لإلف قريش، يعني أن قريشاً أَلِفَتْ رحلة الشتاء والصيف، دون تلميح إلى من

(١) لسان العرب: مادة ألف. كذلك ابن خالويه، الحسين بن أحمد: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م، ص ١٩٥.

(٢) لسان العرب: المصدر ذاته.

(٣) ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ١٩٣٧. تصوير دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج ١، ص ٥٧ - ٥٩. عن الايلاف أيضاً أنظر المصدر ذاته،

آلهم هاتين الرحلتين. ولما كان إيلاف الله لهم هو النعمة التي يدعوه من أجلها إلى أن يعبدوا رب هذا البيت، فإن فصاحة العبارة وبلاغة البيان يقتضيان أن يكون التلميح إلى صاحب الفضل واضحاً. ولعل هذا السبب ذاته يُسقط القراءة الثانية أيضاً، لأنها تضع قريشاً في مثابة فاعل الإلاف، فلا تبقى لنا والحال هذه سوى قراءة: لايلاف قريش، حيث قريش مضاف إليه في مكانة المفعول به الأول، وحيث اسم الله مُضمَرٌ في مكانة فاعل الإلاف، وكأنه يقول: لايلاف الله قريشاً رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت.

غير أن المصادر العربية الإسلامية لم تكتف بهذا التفسير لكلمة الإلاف، بل جعلتها في كثير من الحالات في مصاب اسم عَلم، يشير إلى معاهدات يعينها دون غيرها. فقال البلاذري في «أنساب الأشراف» إن الإلاف هو البعض التي أخذها هاشم بن عبد مناف وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل من ملوك الشام والحبشة واليمن والعراق لتأليف الرحلتين^(١). ويسمى الطبري في تاريخه هذه العهود حبالاً، والجل: العهد والذمة والأمان، كما جاء في «لسان العرب». وبعض المصادر يسمي هذه العهود جلفاً أو ميثاقاً. وقد دُعي أبناء عبد مناف بالموثقين^(٢). ويقول محمد بن حبيب: «والإلاف العهود»^(٣)، ويتفق معه في ذلك السهيلي ويستند إلى كثير من الأسانيد. ويؤيد محمد حميد الله القول إن للإلاف معنى أصلياً أدرجته المعاجم الكبرى، «لسان العرب» و«تاج العروس» وغيرها، ومعنى مخصوصاً لا ينطبق إلا على العهود التي عقدها الزعماء المكيون مع ملوك الأطراف لضمان سير تجارتهم^(٤). ولم يتعد ر. سيمون عن هذا

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، الجزء الأول، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩، ص ٥٩.

(٢) درادكة، صالح: إيلاف قريش، ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام، دراسات تاريخية، العددان ١٧ و١٨، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، آب/أغسطس - تشرين الثاني / نوفمبر، ١٩٨٤، ص ٥٦.

(٣) البغدادي، محمد بن حبيب: كتاب المحبر، تحقيق إيلزه ليختن شتير، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٤٣ (مصورة عن طبعة حيدر آباد - ١٩٤٢)، ص ١٦٢.

(٤) Hamidullah, Muhammad Al-Ilāf, ou les rapports éconómico-diplomatiques de la Mècque (٤) pré-islamique, Mélanges Louis Massignon II (1957), pp. 298 - 299

الرأي كثيراً حين قال: «إن الإيلاف كان حلفاً... وعقدًا ثنائياً من صنف جديد تضمّن بموجبه القبائل القاطنة على طول الطريق التجارية حق مرور قوافل قريش مروراً حراً عبر ديارها، لقاء حمل قريش منتجات هذه القبائل على أن تُعبد لهم رأس مالهم المستثمر في هذه البضائع والربح المجتني. فالإيلاف إذن كان غرضه إشراك القبائل وزعمائها في مكاسب تجارة قريش. وكانت تلك خير وسيلة لضمان مسالمة القبائل هذه»^(١).

ويحاول النيسابوري في تفسيره، أن يجد تعليلاً لبدء السورة بحرف اللام في قوله: «لا إيلاف». فينسب إلى الكسائي والأخفش والقراء أن اللام هي لام العجب، «أي اعجبوا... فإنهم [قريش] كل يوم يزدادون جهلاً وانغماساً في عبادة الأوثان، واللّه تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معاشهم»^(٢). وينسب إلى الخليل وسيبويه أن اللام هذه متعلقة بما بعدها فيقول: «والنقدير: فليعبدوا رب هذا البيت لا إيلاف قريش، أي فليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها، وفي الكلام معنى الشرط، وفائدة الغاء [في فليعبدوا] وتقديم الجار أن نحم الله تعالى لا تُحصى، فكانه قيل: إن لم يعبدوه لساثر نعيمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة»^(٣).

ب- المعنى التاريخي

إلا أن النيسابوري أضاف تفسيراً ثالثاً لهذه اللام، وهو تفسير يرجّح، إذا صح، ارتباط سورة قريش بسورة الفيل التي تسبقها، ويفتح باباً عريضاً إلى التفسير التاريخي لهاتين السورتين. يقول: «والقول الثالث أنها متعلقة بالسورة المتقدمة أي «جعلهم كعصف مأكول» لأجل إيلاف قريش». وبذا يحاول أن

(١) Simon, R.: Hums et Tih, ou Commerce sans Guerre, (Sur la Genèse et le Caractère du Commerce de la Mècque), Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae, XXIII (2)

(1970), p 231

(٢) النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ. ج ٣٠، ص ١٦٧.

(٣) المصدر ذاته، ص ١٦٧، ١٦٨.

يربط حادثتين تاريخيتين ربط السبب بالنتيجة. فسورة الفيل، على إجماع من المفسرين، تروي هزيمة أبرهة الحبشي الذي حاول هدم الكعبة. فإذا صحّ تفسير النسابوري هذا فإن القرآن الكريم إذن يدعو مشركي قريش إلى عبادة الله لأنه هزم لهم الغزو الحبشي ومنعه من هدم الكعبة. قال: «وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَتَّعَلِقَ اللّام بقوله ﴿فَعَلَّ رَبُّكَ﴾ كأنه قال: كل ما فعلنا بهم من تضليل كيدهم وإرسال الطير عليهم حتى تلاحشوا، إنما كان لأجل إيلاف قريش...»^(١).

ثم أدرج النسابوري استنتاجاً منطقياً لهذا التفسير، هو أن سورتي الفيل وقريش كانتا في رأي بعض الصحابة سورة واحدة، فينسب إلى الفراء قوله: «ومما يؤيد هذا القول الثالث ما روي أن أبي بن كعب جعلهما في مُصحفه في سورة واحدة بلا فصل. وعن عُمَر [بن الخطاب] أنه قراهما... من غير فصل بينهما بالبسملة [فيصبح معنى السورتين مجموعتين] أن العبادة مأمور بها شكراً لما فعل بأعدائهم [أحباش اليمن] ولما حصل لهم من إيلافهم الذي صار سبباً لطعامهم ولأمنهم»^(٢). وناسياً على هذا الاحتمال، يعتقد عرفان شهيد أن السورتين تشهدان على «امتداد نفوذ الحبشة في غرب الجزيرة واحتمال سيطرتهم على خطوط التجارة. فإذا كانت أخبار الرحلتين إلى الشام واليمن مقبولة في المصادر العربية، وليس ثمة ما يوحي أنها غير صحيحة، فإن نفوذ الأحباش لا بد وأنه امتد امتداداً عظيماً من اليمن إلى شمال الحجاز... ولعل سبب امتداد هذا النفوذ أن شمال الحجاز كان منطقة نفوذ للفساسة، وكلا الفريقين، الأحباش والفساسة، كان في معسكر بيزنطة السياسي. ولعل نفوذ الأحباش لم يَتَعَدَّ النصف الجنوبي لغرب الجزيرة، ولو صحّ هذا، لَتَضَمَّنَ قَوْلُهُ ﴿لَا لَاف﴾، وليس لإيلاف، أن المكيين كانوا يُسَيِّرُونَ رحلتهم إلى الشمال فقط، لا الجنوب، حتى

(١) المصدر ذاته، ص ١٦٨.

(٢) المصدر ذاته، ص ١٦٨، ١٧٠. انظر أيضاً «اللسان»: الف، وكذلك «تفسير النسفي»، دار إحياء الكتب العربية بمصر، بلا محقق ولا تاريخ، ج ٤، ص ٣٧٨. و«تفسير النسفي»، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ، ج ٣، ص ٧٢٧.

إذا انهزمت الأحباش، أمكنهم المسير شمالاً وجنوباً، جامعين بذلك الرحلتين معاً^(١).

إن في إمكان من يربط السورتين أن يستتج من هذا الربط فهماً مختلفاً لتاريخ كلمة الايلاف^(٢)، فيقول شهيد مثلاً في شأن ما كُتب في هذه الكلمة في المصادر الإسلامية والمراجع الحديثة: «إن ما كُتب افترض أن الايلاف هو عبارة فنية استخدمت قبل الاسلام في تسمية العهود التي عقدها زعماء قريش مع القبائل العربية ومع ملوك القوى المجاورة في الشرق الأدنى. وليس من شك في أن قريشاً عقدت عهوداً مع القبائل العربية، ومثلها مع سلطات الدول المجاورة، لكن استخدام كلمة الايلاف لوصف هذه المعاهدات قبل الاسلام مشكوك فيه، والنصوص التي ظهرت فيها كلمة الايلاف على أنها استخدمت قبل ظهور الاسلام، غير موثوق فيها. وعبرة «الايلاف» القرآنية هي أول ظهور غير مشكوك فيه لهذه الكلمة، وهي عبارة غير فنية، أي انها ليست اسم علم للعهود المذكورة، ولذا أضاف قوله: «ولعل ما أنشأ الاعتقاد أن الكلمة هي عبارة فنية، هو فصل سورة قريش عن سورة الفيل، مما أدى إلى عزل الكلمة»^(٣).

ولا شك في أن صعوبات الاعراب ليست السبب الوحيد في ترجيح وحدة السورتين وهي وحدة قال بها الفراء وسفيان بن عيينة، بل ان قوله: ﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ لا يتصل بأي شيء مفهوم في الرحلتين، وأن ذلك الخوف إنما مصدره مفهوم في سورة الفيل، وهو الغزو الحبشي الذي هزمه الله فأمن قريشاً من خوف^(٤). فإذا أردنا إبطال هذه الحجة بقول الطبري إن الخوف إنما كان خوفاً

Shahid, Irfan: Two Qur'anic Sūras: Al Fīl and Qurayṣ, *Studia Arabica et Islamica, Festschrift* (١) for Ḥusayn 'Abbās, edited by Wadād al-Quljī, American University of Beirut, 1981, p.435.

(٢) لا يبيد شهيد في مقاله Two Qur'anic Sūras، إصراراً على التمسك بلفظة إلاف

(٣) Shahid: op. cit., p.432

(٤) ابن خالويه: إعراب... ص ١٩٦ والسيبوري: غرائب... ص ١٦٧ وما يعد وكذلك

Shahid: op.cit., p.431

من الجُذام^(١)، فليس من علاقة مفهومة بين الجُذام والرحلتين، إذا لم تؤخذ السورتان معاً. وقد أكد الطبري احتمال ارتباط السورتين فيما أراد تأكيد عكسه، حين قال في تفسيره ﴿لَا يَلَابُ قُرَيْشٌ﴾: «وأما القول الذي قاله من حكينا قوله إنه من صلة قوله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَضِفٍ مَأْكُولٍ﴾، فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون ﴿لَا يَلَابُ﴾ بعض ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أي أن تكون سورة قريش جزءاً من سورة الفيل. واستنتاج الطبري صحيح لكنه يفترض أن السورتين منفصلتان لا وراء، وهذا ما يخالفه جمهرة من المفسرين الذين جمعوا السورتين بالمعنى إن لم يجمعوهما بالنص، ومنهم من ذكرنا، ومنهم أيضاً ابن كثير وابن إسحاق وابن زيد بن أسلم^(٢).

ج - الفيل وقريش

ولكن كيف أمكن للسورتين أن تنفصلا لو كانتا موحدتين في الأصل؟ لقد لاحظ ابن كثير، وهو من المفسرين الذين يؤيدون وحدة السورتين، أن فصلهما ربما نجم من خطأ في النسخ أدرج البسملة بين جُزءي السورة. أو لعل الناسخ تعتمد إدراج البسملة ليفصل الجزئين تعظيماً لقريش، فتكون لها سورة على حدة دون ذكر لأصحاب الفيل. وقد تكون المنافسة السياسية بين المهاجرين والأنصار يد في هذا الأمر، وهي منافسة كانت شديدة يوم جمع صحائف القرآن الكريم في عهد الخليفة عثمان بن عفان. أو ربما اصطنع فصل السورتين ناسخ أموي أراد تعظيم آل عشيرته الذين كانت الخلافة فيهم عندما أمر عثمان باعتماد النص في صورته العثمانية^(٣).

فما إن ظهرت السورتان منفصلتين حتى أصبح احتمال جمعهما من جديد متعذراً لأسباب يمكن تخيل بعضها فيما يلي:

(١) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ، ج ١، ص ٣٠، ص ٢٠٠
(٢) المصدر ذاته، ص ١٩٨. وانظر تفسير ابن كثير، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٦، ج ٧، ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٣) ابن كثير: التفسير. وانظر أيضاً 434، 435 pp. cit., Shahid.

١- أن صفة المصدر المعتمد، التي اتخذتها المصاحف في الصورة العثمانية، وجاءت فيها السورتان منفصلتين، ردت المفسرين ولا شك، عن محاولة إعادة توحيدهما.

٢- أن سمعة الطبري ومكانته بين المفسرين رجحنا كفة انفصال السورتين، فتأثر بموقفه هذا معظم المفسرين الآخرين.

٣- اتخذ معظم المفسرين القدامى القرآن الكريم كتاباً مقدساً، ولم يتخذوه مصدراً للتاريخ العربي قبل الاسلام. وما كان من أمر الرغبة في تعظيم قريش، قبيلة النبي العربي والخلفاء من بعده، أن تحفزهم على جمع السورتين. ولم تكن معرفتهم القليلة للتاريخ اليمني الذي كشفت عنه الكتابات السبئية حديثاً، مما يسعفهم في تعزيز التفسير بالمعرفة التاريخية الوفيرة، ولذا انفردت قلة منهم فقط، تستند إلى مبادئ الاعراب، فأيدت وحدة السورتين، وخالفهم الكثرة^(١).

وفي الامكان ان نتحیل أنصار وحدة السورتين يقولون: إن الله دمر أصحاب الفيل حتى يُمكن قريشاً من تسيير الرحلتين بيسر. ولذا فليعبدوا رب هذا البيت. ومثلما تصبح سورة قريش أيسر فهماً بكثير حين تُدمج بسورة الفيل، كذلك تكتسب سورة الفيل قوة وعظيمة لدى دمج السورتين فسورة الفيل وحدها لا تزيد على وصف لقدرة الله التدميرية، ولا تستتبع أي أمثلة أخلاقية من تدمير الدخيل الحبشي في كتاب هو نص مقدس، وليس كتاباً لرواية أحداث، وبخاصة في السور التي أُنزلت في تلك المرحلة، حين كان تشير غير المؤمنين بالله يستند إلى حجج البعع الناجمة من العناية الالهية. إن سورة قريش، بدعوها هذه إلى عبادة الله الواحد توفر تلك الحلقة الوعظية المفقودة، فيما توفر سورة الفيل الأساس التاريخي لما جاء في آخر سورة قريش: ﴿وَأَمَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، وهو ما لا يمكن تفسيره بالعودة إلى الرحلتين المذكورتين في سورة قريش وحدهما، بل لا بد من العودة إلى السورة السابقة، والدخيل الحبشي الغازي، الذي دمره الله

(١) ابن خالويه - اعراب ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ وكذلك p 434 .Shahid op cit

وبذا آمَنَ قريشاً من خوف^(١).

ثم إن وحدة السورتين تُضيف قوة عظيمة إلى معنى مخاطبة الله لنبيه في أول سورة الفيل إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلْ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾. ذلك أن النبي سبَّ تجارتاً على طول طريق التوابل زمناً قبل البعثة النبوية، ولذا فالسورة تخصه مباشرة لأنه استمتع بنعمة الله وكان من الشاكرين وعبد الاله الواحد، فيما جحدت قريش هذه النعمة فلم يعبدوه. وبهذا تصبح السورة واحدة من تلك السور التي يخاطب فيها الله نبيه في أمر مهم من أمور ماضيه... وإن بلاغ محمد إلى قومه قريش، وهو أن يشرهم بالله الاحد، يصبح أوضح معنى، حين يتصل هذا التشير بارتفاع النبي إلى قريش، الذين نعموا بنعمة الهزيمة التي أنزلها الله بالأحباش. وبذا كان النبي في وضع ملائم ليدعو أبناء قومه إلى عبادة الله الواحد^(٢). ولا يستقيم كل هذا إلا إذا افترضنا وحدة السورتين.

د- فائدة وحدة السورتين

فإذا أخذنا السورتين على أنهما سورة واحدة، أو على أنهما على الأقل متصلتان في السياق التاريخي، فلا شك في أن الفائدة التي يجنيها المؤرخ عظيمة، لأنهما تتناولان أبرهة والأحباش ومكة والكعبة وزوال السيادة الحبشية في جنوب الجزيرة، وارتفاع مكة إلى مكانة السيادة من جرّاء سيطرتها على طرق التجارة في غرب الجزيرة^(٣).

إن التفسير التاريخي للسورتين، إذا قرئنا معاً، يعني أن النفوذ الحبشي في اليمن وأجزاء أخرى من جزيرة العرب، كان يحول دون قيام قريش برحلتها على طول خط تجارة التوابل، وأن هزيمة الأحباش كانت بشيراً لبده زوال هذه العقبة من أمام مكة. كذلك يعني هذا أن زوال السلطان الحبشي من اليمن لم يتأخر

(١) النيسابوري: غرائب... ص ١٦٨. الطبري: التفسير، ص ١٩٧، ١٩٨. وابن كثير: التفسير، ص ٣٧٧، ٣٧٨. وانظر أيضاً: Shahid: op. cit., p. 431.

(٢) الطبري: التفسير، ص ١٩١. ابن خالويه: إعراب... ص ١٩٠. وهما يُجمعان على أن النبي هو المخاطب في سورة الفيل. انظر أيضاً: Shahid: op. cit., p. 436.

(٣) Shahid: ibid, p 429.

طويلاً بعد هزيمة أبرهة عند أعتاب مكة. ولما كان متعارفاً على أن مُلْك الأحباش في اليمن قد زال سنة ٥٧٢ للميلاد، فإن وحدة السورتين تزيد تاريخ عام الفيل على ما جاءت به المصادر العربية الإسلامية في معظمها، أي سنة ٥٧٠ للميلاد.

وإذا اتُّخذت السورتان في إطار تفسيري تاريخي معاً، فإن حرف اللام الأول في قوله: ﴿إِلَافٌ﴾ يُصبح لام السببية، أي أن الله جعل أصحاب الفيل كعصفٍ مأكولٍ لِئُولَفَ قريشاً رحلة الشتاء والصيف. وحيثُ يوفّر هذا النص القرآني في رأي أنصار وحدة السورتين: «إثباتاً تاريخياً في إحدى المسائل التاريخية الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى، أي في تحوّل التجارة شيئاً فشيئاً من الطريق الشرقية عبر وادي الرافدين، إلى طريق غرب الجزيرة في القرن السادس»^(١).

غير أن تمام الفائدة التاريخية قد يقتضي في التفسيرات الشتى لسورة الفيل، إيضاح العنصر العجائبي الذي نُسب إلى الحادثة التاريخية. جاء في القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *﴾. (سورة الفيل).

ولكبار المفسرين الاسلاميين روايات تاريخية في تفسير هذه الآية. فالنيسابوري يقول: «رُوي أن أبرهة ملك اليمن من قبل أصحابه النجاشي بنى كنيسةً بصنعاء، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجلٌ من كنانة فتغوط فيها ليلاً، فاغضبه ذلك، وقبل أتبجت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدم الكعبة. فخرج بجيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيماً... فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب [جد الرسول] وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى... فأرسل الله تعالى عليهم طيراً... كالخطاطيف... مع كل طير حجر في منقاره وحجران في رجليه... فهلكوا في كل طريق ومرض أبرهة فساقطت أنامله وآرابه، وما مات حتى انصدع صدره عن

(١) ibid., pp. 435, 436

قلبه... وعن عائشة: رأيت قائد الفيل وسائله أعميين مقعدين يستطعمان... وكان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة... وعن عكرمة: من أصابته [الحجارة] أصابه جُدري^(١).

أما الطبري فكان له تفسيران على الأقل في غزوة أبرهة إذ قال: «ثم إن أبرهة تَوَجَّ محمد بن خزاعي [الذكري ثم السلمي] وأمره على مضر وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس كنيسته التي بناها، فسار محمد بن خزاعي حتى إذا نزل ببعض أرض بني كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له، بعثوا إليه رجلاً من مُذَيْل يقال له عروة بن حياض الملاصي فرماه بسهم فقتله. وكان مع محمد بن خزاعي أخوة قيس بن خزاعي فهرب حين قُتل أخوه فلحق بأبرهة، فأخبره بقتله، فزاد ذلك أبرهة غضباً وحنقاً وحلف ليفزون بني كنانة وليهدم البيت. ثم إن أبرهة حين أجمع السير إلى البيت أمر الحشاش، فتهيأت وتجهزت وخرج معه الفيل، وسمعت العرب بذلك فاعظموه وفظموا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام»^(٢). ثم روى الطبري واقعات المقاومة العربية لأبرهة وتخاذل بعض القبائل العربية، حتى وصل إلى واقعة الفيل. ففي تفسيره للسورة قال الطبري: «ألم تنظروا محمد بعين قلبك كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة، من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم، ألم يجعل كيدهم في تضليل... يعني في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا... قال... عن ابن عباس: في قوله طيراً أبابيل، قال: يتبع بعضها بعضاً... قال: متفرقة... قال: الأبابيل الكثيرة... قال: الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا وتأتي من ههنا، أنتهم من كل مكان وذكر أنها كانت طيراً أُخرجت من البحر... وقال آخرون: كانت خضرها لها خراطيم كخراطيم الطير وأُكِّفَتْ كَأَكْفِ الكلاب... قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤس كروؤس السباع... قال: هي طير سود بحرية في مناقرها وأظفارها الحجارة... قال: طير خضر لها مناقير صفراء... [قال ابن

(١) النيسابوري: غرائب... ج ٣٠، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) الطبري: التفسير... ج ٣٠، ص ١٩٣ - ١٩٤.

عباس]: حجارة من سجيل قال: طين في حجارة... عن عكرمة قال: كانت ترميهم بحجارة معها، قال: فإذا أصاب أحدهم خرج به الجذري، قال: كان أول يوم روي فيه الجذري... قال: كانت مع كل طير ثلاثة أحجار حجران في رجله وحجر في منقاره، فجعلت ترميهم بها... لا يصيب [الحجر] شيئاً إلا هشمه^(١). وأدرج الطبري في تفسيره أيضاً أن سبب سير أبرهة إلى مكة تقوُّط «رجل من النساء، أحد بني فقيم» في كنيسة التي بناها في صنعاء. لكن معظم روايات المفسرين نزلت في تفسيرها النص القرآني، إلى الإيحاء بعناصر عجائبية في حادثة هزيمة أبرهة الحبشي، وهي حادثة تاريخية، فأضعفت المصادر الإسلامية حتى شكك بعض الباحثين المؤرخين في الرواية كلها دون تمييز بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في روايات دخلت فيما بعد على تفسير النص^(٢).

٥- سورة الفيل

إلا أن الطبري نفسه، وهو يروي التفسيرات المتواترة، المعقول منها وغير المعقول، أبدى تحفظاً مما لا يقبله عقله، إذ قال: «فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل»، فأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم، فسقطت أنامله أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعها مدة تمت قَيْحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير [الرواية مقبولة إلى هنا] فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه [الرواية هنا غير مقبولة، ولذا أضاف الطبري]: فيما يزعمون^(٣). ولا بد إذن من أخذ كثير من كتب التفسير على أنها جمعت ما أمكن مما شاع بين الناس من تفسيرات جيدها وفاسدها، فلا يؤخذ الجيد بجزيرة الفاسد، ولا يساق ذلك دليلاً على بطلان الحادثة جملة وتفصيلاً.

وقد بين شهيد أن ما جاء في حرفته النص القرآني لا يتضمن العناصر

(١) المصدر ذاته، ج ٣٠، ص ١٩١ - ١٩٣. وبقي تفسير الآية حتى ص ١٩٧.

(٢) ستناول هذه الشكوك في الفصل المختص بأوضاع الجزيرة العربية في القرن السادس فيما بعد. أنظر تفسير سورة الفيل في ابن كثير والنيسابوري وابن خالويه والطبري.

(٣) الطبري: التفسير... ج ٣٠، ص ١٩٩.

الغرابية التي أُدرجت على بعض التفسير فيما بعد. وأكد أن حادثة الفيل وهزيمة أبرهة الحبشي في محاولته غزو مكة وهدم كعبتها، لا مراء فيهما فقال: «فالمسألة هي في أن هذه الواقعة حادثة من القرن الميلادي السادس تاريخها نحو سنة ٥٧٠، وذكرها لا بد أنها كانت لا تزال حية في أذهان بعض المكّين الذين يخاطبهم القرآن. فلو جاء الوحي القرآني بتفسير غرابي لا يُصدّق لهزيمة الغزاة الأحباش، لما أدى العظة المقصودة»^(١). ولو لم تكن حادثة الفيل وهزيمة أبرهة صحيحتين، لكان غريباً حقاً ألا يستغلّ مشركو قريش ذلك الأمر في مجادلة المسلمين ومحاولة تخفيف رأيهم، وقد توسلوا إلى ذلك كل السبل التي أتحت لهم، وكانوا قريبي عهد بعام الفيل، وكان منهم من كان بالغاً في ذلك العام.

ولكن ما الذي يقوله القرآن في السورة حقاً، وما وجه الغرابة في إسهام الطير الأبايل في هزيمة أبرهة؟

عند التدقيق نلاحظ أن ليس في السورة على الإطلاق ما ينسب إلى الطير أنها دمّرت الغزاة. إن التفسير اللاحقة، بنزوعها إلى عنصر العجائب هي المسؤولة حسيماً سلف عن نشر هذا التفسير العجائبي بين الناس. فالإشارة الصريحة إلى تدمير جيش أبرهة جاءت في الآية الثانية، مصوغة في شكل سؤال بيّاني يؤكد هزيمتهم بفعل الله، لا الطير: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾. أما الأيتان اللتان تُذكر فيهما الطير فتليان هذه، لكنهما ليستا معطوفتين إليها عطفت تكافؤ، ولا عطفت شرح أو تفسير، ولا هما في مثابة جملة في محل حال. إذ انهما معطوفتان بحرف الواو، وهذا يدل على أن مضمون السورتين المذكورتين: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ هو عنصر جديد مزيّد على ما سبق. ولا تتضمن السورتان أي شيء يؤكد صراحة أن الطير هي التي دمّرت الجيش، فيما تُعاود الآية الأخيرة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ بوضوح شديد نسبة الفعل إلى الله، لا إلى الطير. ولذا فالطير ليست أداة العقاب بل هي عنصر مرافق، أو في أقصى الأحوال، سبب مُشارك.

لكن العنصر المعجاني المنسوب إلى الطير في بعض التفسير، لا يني يشير رية من ارتاب، طالما أن الآية تنسب إلى الطير رمي الحجارة. فعلى هذا، في رأي شهيد، احتمالان للتفسير:

أولاً - «تُنسب إلى أبي حنيفة قراءة يَرْمِيهِمْ، بدلاً من تَرْمِيهِمْ، فالفاعل إذن لفعل الرماية هو الله لا الطير. ويؤيد هذا أن جميع أفعال التدمير برمي الحجارة منسوبة في القرآن الكريم إلى الله. فإذا صحت القراءة يَرْمِيهِمْ، فإن لهذا العقاب الالهي مثيلاً في غير موضع في التوراة أيضاً.

ثانياً - «التفسير الآخر يفترض أن القراءة تَرْمِيهِمْ هي الصحيحة، ويستند إلى بعض حقائق العلوم الطبيعية في [تفسير ما حدث و] إزالة العنصر المعجاني، فتنة نوعان من النسور، قد يكون أحدهما هو الطير المقصودة: الأول يقتل برمي العظام أو السلاحف، ويدعى كاسر العظام، والثاني الرُحام، يستخدم بيضة النعامة وفق ما يرويه علماء طيور التوراة، على النحو التالي: «البيضة أقوى من أن يكسرها بمنقاره الضعيف، وأثقل من أن يستطيع حملها. فبدلاً من الطيران بالبيضة ورميها على حجر [لكسرها] يطير بحجر ثم يرميه على البيضة». وكل من هذين التفسيرين يقطع شوطاً بعيداً في... إعادة الصفة التاريخية التي تصف بها السورة، وتأييد الرأي بقبولها القبول الذي تستحق.

«فالطيور إذن لم تكن أدوات تدمير أَلَقَتِ الحجارة أم لم تُلْقِها، بل أنها طارت إلى الميدان كطير قَمَامَة. أما إسهامها في العقاب فمحصور فعلاً، والاشارة إليها غرضه تعظيم الاذلال التام الذي ألحق بالدخيل المهزوم. وهذه صورة تفصيلية مألوقة في الشعر الجاهلي، إذ كان الساقطون في ميدان القتال يُحْرَمُونَ من الدفن المشرف ويتركون لتفترسهم كواسر الطير. ولعل في قوله ﴿مَأْكُولٌ﴾ في الآية الأخيرة من السورة تلميحاً إلى ذلك»^(١).

وعلى أية حال، ومهما كان الرأي البات في أمر إثبات وحدة السورتين أو

(١) حول قراءة: يَرْمِيهِمْ، أنظر ابن خالويه: إعراب...، ص ١٩٣. وكذلك، Shahid. op cit.,

نفيها، فإن فهم سورتي الفيل وقريش فهماً تاريخياً موحداً ضمن إطار علمي مجرد من كل شوائب المعتقدات الشعبية التي لصقت بالتفسير في زمن متأخر، يعزز بما لا شك فيه، احتمالات استفادة المؤرخ من هاتين السورتين.

إلا أن البحث، قبل أن يfokus مزيداً في استقصاء الحقيقة التاريخية في شأن إيلاف قريش وما أُلْمَ به من حوادث، لا بد من أن ينصرف أولاً إلى محاولة رسم صورة واضحة للصراع الدولي القديم الذي شهد تقاتلاً مستمراً للسيطرة على خطوط التجارة الدولية المارة عبر بلاد العرب وفي جوارها، في البحر الأحمر والخليج. إن رسم صورة هذا الصراع القديم، لا غنى عنه في محاولة وضع إيلاف قريش في إطاره في السياسة الدولية لذلك العصر، ويوضح كثيراً من العناصر الدائمة غير المتبدلة ضمن الجغرافية السياسية للمنطقة العربية، ويبين مواقف الدول من المنطقة العربية وارتباط هذه المواقف بخطوط التجارة الشرقية ارتباطاً وثيقاً.

الفصل الثاني

الغرب وتجارة الشرق

أولاً: العرب بين الشرق والغرب

١- الصراع المستمر

قال كيمون: «إن أعظم ما هيمن على كل تاريخ آسية القديمة في العصور الغابرة، هو المجابهة بين الحضارة الاغريقية - الرومانية وإيران، تلك المجابهة التي كانت موضوع الصراع الأكبر في هذه البلاد بين الشرق والغرب»^(١).

كانت الحروب التي نشبت بين الفرس وبيزنطة العامل الأول في السياسة الدولية في القرون الثلاثة التي سبقت الاسلام. غير أنها لم تكن سوى امتداد في حلقات جديدة، للصراع الذي نشب بلا هوادة بين الفرس والرومان. وفيما كان الغرض الأول للسياسة الرومانية في المشرق العربي هو محاولة الاستيلاء على منفذ من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي، يُغني الامبراطورية الرومانية عن دفع المكوس لعدوها الشرقي إيران، وعن ضرورة الارتهان لرغبة هذا العدو في التجارة الشرقية، كان الغرض الأول للسياسة الفارسية في المواجهة مع الغرب الروماني، هو السيطرة على شواطئ البحر المتوسط الشرقية. كان احتلال طرق التجارة العربية وهي تنقل ثروات المحيط الهندي نحو الغرب عبر أسواق سورية ومصر، يلبس، كما يقول لامنس، لبوس الذرائع الدينية. ومن هذه الرغبة في الهيمنة السياسية والاقتصادية نشأ نظام «مناطق النفوذ» في شبه جزيرة العرب

(١) Cumont, Franz: Les Religions Orientales dans le Paganisme Romain, 1929, p. 125

استشهد إدمون رباط في كتابه: L'Orient Chrétien à la Veille de l'Islam, Publications de

l'Université Libanaise, Beyrouth, 1980, p 88

وصفتي البحر الأحمر الذي أضحي ميداناً للصراع بين القوتين، في اختلال مستمر لميزان القوى^(١). ذلك أن البحر الأحمر هو المنفذ الأقرب مثلاً نحو المحيط الهندي، من وجهة نظر قوى الغرب الاغريقية - الرومانية، فيما كان الفرس والساسانيون يرون أن الأصلح والأسهل لهم هو نقل ما يأتي به تجارهم من الصين والهند وسيلان إلى الخليج، حيث لا يلقون أية مزاحمة، فيدفعون بتجارهم في نهر الفرات نحو نصيبين أو إلى بلاد الشام عبر الصحراء السورية، ليعمها إلى البيزنطيين^(٢). ولم يكن الفرس يستيقنون قطعاً أن تستولي رومة أو بيزنطة على البحر الأحمر لأن ذلك كان يجردهم من مكاسب مرور تجارة الشرق عبر أرضهم وتقاضي مكوسهم.

وقد تداولت المنافذ الثلاثة إلى المحيط الهندي، وهي طريق الخليج والفرات إلى بادية الشام، وطريق البحر الأحمر إلى فلسطين ومصر، وطريق القوافل البرية عبر الحجاز إلى بلاد الشام، حالات مختلفة من الحرب والسلام، وفقاً لسياسة الدولتين الكبيرين في حينه. ففي سعي القوى الاغريقية - الرومانية لفتح منافذ إلى المحيط الهندي، نجح الاسكندر المقدوني الكبير في الاستيلاء على طريق الخليج في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، ثم نجح الامبراطور الروماني تراجانوس (Trajanus) (٩٨ - ١١٧ م) في مطلع القرن الميلادي الثاني، في الوصول إلى شاطئ الخليج من ناحية العراق، لكن محاولته لم

(١) Rabbath: L'Orient Chrétien... p. 98 وعن سعي الغرب الدائم إلى تخلي الواسطة في التجارة مع المحيط الهندي، أنظر: SALLES, Jean-François: La Circumnavigation de l'Arabie dans l'Antiquité Classique, dans l'Arabie et ses Mers Bordnières, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; p 98

(٢) يقول جوتز إن الطريق التجارية من مرافئ الفرات إلى تدمر عبر بادية الشام كانت مزدهرة منذ القرن الأول قبل الميلاد على الأقل. أنظر Jones, A.H.M.: The Cities of the Eastern Roman Empire, Oxford University Press, 1971, pp. 219, 227, 265 Charlesworth, أيضاً. M.P.: Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge University Press, 1924, pp. 18-20, 58-63. كذلك جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، دار العلم للملايين، بيروت - دار النهضة، بغداد، ١٩٧٦، ج ٧، ص ٢٨١.

تُعمر. ثم نعمت طريق الخليج إجمالاً بالهدوء فيما بعد، بعدما أقنع الرومان عن هذا الطموح.

أما طريق القوافل البرية عبر الحجاز فكانت صعبة المنال على الجيوش الامبراطورية، علاوة على أن رومة وبيزنطة ما كانتا لترغبان في الاستيلاء على هذه الطريق لو تسنى لهما الاستيلاء على الطريق الثالثة: البحر الأحمر. ولهذا السبب كان الصراع بين الشرق والغرب للاستيلاء على هذا البحر والمناطق المطلة على ضفتيه أمراً جليلاً في رأي قادة الفريقين المتنازعين، فدار كثير من القتال بينهما لهذا السبب.

لقد وقع عرب الجزيرة بين القوتين العظميين^(١)، في خضم هذا الصراع، على طرق أحاطت بديارهم من كل صوب أو مرت عبرها. وقد استجاب العرب لمقتضيات جغرافيا بلادهم فوصفهم شبرنغر بأنهم: «مؤسسو التجارة العالمية في الأزمنة القديمة»^(٢). وكانت الصلات بين العرب والقارات المجاورة، وبخاصة الهند قد بدأت في زمن غير معلوم تماماً لشدة قديمه. ويُعتقد أن العرب احتكروا التجارة الشرقية ونقلوا منتجاتها إلى شواطئ الشام، حيث كان الفينيقيون يكملون نقلها إلى البحر المتوسط^(٣).

(١) القوتان العظميان ليستا دولتين هائلتا، بل مجموعتان من الدول. قالفة الغربية العظمى مثلها الاسكندر ثم رومة فيبرنطة، فيما حكم الباريون دولة الشرق الايرانية، ثم حكمها الساسانيون إلى يوم زوالها بظهور الاسلام.

(٢) L'Orient Sprenger, A.: Alte Geographie Arabiens, Bern, 1875, s.299 ذكره ويّاط في:

Miller, J Innes: The Spice Trade of the Roman Chrétien..., op. cit., p. 128 وانظر أيضاً،

- Empire, Oxford University Press, 1969, pp. 147, 160

(٣) ازدهرت جرش بتجارة الهند وجوب الجزيرة العربية وهي تجارة جامتها عبر البراء في عصر البطالة والمصر الروماني. انظر Jones, pp. 251, 290. وكانت القوافل المحملة بالبضاعة الشرقية تسلك الطرق شمالاً إلى بادية الشام منذ أيام مملكة سبأ، وكان مصدر اللبان والمر الأول هو حضرموت. انظر في هذا: Miller, pp 13, 147, 178. وانظر أيضاً Charlesworth, Cambridge Ancient History, Cambridge University Press, 1951, vol.X, p. 60 وكذلك، ويرى سال أن العرب لا الرومان أبحروا للتجارة في المحيط الهندي قبل الميلاد p. 249. وبعد،

ب - فوائد البدو وخطرتهم

كان البدو عنصراً مهماً في اقتصاد مجتمعات الاستقرار الزراعي. فكانوا يقيمون المواصلات الاقتصادية عبر الصحارى ويوفرون وسائل النقل والقوافل والأدلاء والمرشدين المسلّحين. وكانوا يُمَدُّون المناطق الزراعية بدواب النقل والمواشي المنتجة واللحم والسّماذ والجلد. وكان كثير من قبائل الشمال يعتمد اقتصاداً مزدوجاً يجعلهم في مرتبة متوسطة بين الرّحل والمستقرين. لكن مصالحهم لم تتفق دوماً مع مصلحة المزارعين. إذ تضرّر هؤلاء من جرّاء الحروب بين الفرس وأعدائهم، فيما كان البدو يستثمرون هذه الحروب في أحيان كثيرة. وفي زمن القحط والجفاف كان البدو يغيرون على حقول المزارعين ومواشيتهم ومراعيهم. ولم يكن في إمكان المزارعين أو الدولة التي تحميهم أن يردعوا المغيّرين أو يحتاطوا لغاراتهم. وقد عجزت الدول في الاجمال عن استيعاب مخاطر البدو وحصر نزعاتهم أو تصنيف مواقفهم، فقال المؤرخ السوري أمانوس مارسلينوس (Ammianus Marcellinus: ٣٣٠ - ٤٠٠ م تقريباً) في وصفه لحرب الملك الساساني شهور الثاني على أعدائه سنة ٣٥٤ للميلاد: «إن العرب [البدو] الذين لا نرغب أبداً في صداقتهم ولا عداوتهم، فرعوا البلاد يَمَنَةً وَيَسْرَةً في زمن قصير وأخربوا ما وجدوا إليه سبيلاً، مثل الحداة، ما إن تلمح فريسة من علٍ حتى تنحط عليها وتنتزعها في طرفة عين وترتفع. من هذه القبائل القاطنة أصلاً بين بلاد الأشوريين وشلالات نهر النيل وبلاد النوبة، محاربون متساوون في الرتبة أنصاف عراق، يلحفون باردية تقطيعهم حتى المحاشم، فيتنقلون في مناطق شاسعة على سهوات جيادهم السريعة وجمالهم الخفيفة»^(١). ووصف القديس جيروم (Jerome: ٣٤٧ - ٤١٩ م تقريباً) في روايته لرحلة

Trimingham, John Spencer: Christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times, Longman, (١)

London and New York, Librairie du Liban, Beirut, 1979, p. 148 ومارسلينوس مصدر لكثير

من الروايات المعادية للعرب في تواريخ قدماء الغربيين ومحدثيهم. وقد حلّ دويلاتول بمسئ

أسباب نوازع البدو إلى الغزو وفسرها تفسيراً سكانياً (ديمغرافياً). انظر في هذا، De Planhol،

Xavier: Les Fondements Géographiques de l'Histoire de l'Islam, Cambridge University

Press, 1968, p. 15 sqq

الراهب مالحوس على طريق بين حلب والرّها كيف كان البدو يغيرون في غير زمن الحرب، على المسافرين. بل انه نُسب إلى العرب البدو، أنهم قتلوا الامبراطور يوليانيوس (Julianus: ٣٦١ - ٣٦٣ م) في الحملة التي شنها على الفرس بمعونة بعض القبائل، سنة ٣٦٣ للميلاد، لأنه رفض أن يدفع لهم المال الذي تمّودوا أن يتقاضوه من القادة الآخرين^(١). ومن غزوات البدو الرّحل على أراضي الدولتين البيزنطية والساسانية في أواخر القرن الميلادي الخامس، ما يدلّ على أن البدو كانوا يغيرون بسهولة، فلا تملك الدولتان الاقتصادان منهم إلا بحشد كبير من الجنود، يعاونهم عرب بدو آخرون^(٢).

لم يكن إرضاء البدو ضرورياً فقط لرد أذاهم عن أراضي الاستقرار الزراعي ومدن الدولتين اللتين تقاسمتا السلطة والنفوذ في بلاد الشام والرافدين، بل كان للبدو إسهام وغبث فيه هاتان الدولتان في كثير من الأحيان، منذ أن تعاظمت تربية الجمال فكثر أعدادها، حتى توافر منها ما يكفل الاستثمار المجدي في القوافل التجارية المسافرة من صحراء الجزيرة حتى المناطق الزراعية في فلسطين^(٣). وقد تعززت سيطرة العرب على شبه جزيرةهم وطرق التجارة فيها مع ظهور الخيل وحلولها محل الجمال في مهام القتال في أواسط الجزيرة وجنوبها، واستُخدمت في أطراف الجزيرة الجنوبية سروج جيدة لمطايا المقاتلين وحسنت القبائل مع مرور الزمن أساليبها القتالية فأصبحت قادرة على الفوز المفاجيء والادبار

(١) Lammen, Henri: l'Arabie, أنظر: Trnningham: pp. 148-150. ومن علاقة البدو بالحضر، أنظر: Lammen, Henri: l'Arabie, أنظر: Trnningham: pp. 148-150.

(٢) Occidentale avant l'Hégire, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1928, pp. 70-71.

(٣) الواقع أن الحاجة إلى حماية خطوط التجارة في منطقة ما بين النهرين هي حاجة قديمة كانت قائمة على الأقل منذ أيام السورقيين قبل الميلاد: Jones, p. 215. وأنظر أيضاً: Shahid, Iran: Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, D.C., 1989, pp. 82, 83.

Shahid: Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, D.C., 1989, pp. 82, 83. ونشر فيما يلي إلى هذا الكتاب على الشكل التالي: Shahid: Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, D.C., 1989, pp. 82, 83.

(SC.)

(٣) Dostal, Walter: The Evolution of Beduin Life, Studi Semitici, II (1959), p. 22. وأنظر: Höfner, Maria: Die Beduinen in den Vorislamischen Arabischen Inschriften, Studi Semitici, II (1959), p. 62.

De Planhol, p. 13. وأنظر أيضاً: Semitici, II (1959), p. 62.

السريع، وأصبحت صعبة المنال في الصحارى. ورأى جواد علي أن هذه العوامل أثّرت أيضاً تأثيراً، فلم تَبْقِ القوة العسكرية محصورةً في المناطق الزراعية في جنوب جزيرة العرب، بل انتقلت إلى بقية أنحائها في مواضع الأبار والرياض والعيون، وأصبحت مراكز التجارة، مثل مكة وغيرها قادرة على امتلاك القوة العسكرية^(١)، فلم تعد هذه القوة حكراً على الدول الزراعية أو المجتمعات المستقرة، بل أصبحت في متناول البدو أيضاً. وقُدِّر جاك ريكمنس أن زمن هذا التبدل كان أواخر القرن الثاني بعد الميلاد، ونُسب إليه حدوث اضطرابات سياسية وعسكرية مزمنة استمرت نحو قرن ونصف قرن في اليمن. ذلك أن استخدام البدو للخيّل أدى إلى إيمانهم في الغزو وفي التدخل في شؤون الحكومات، فصار لهم نفوذهم في الأمور السياسية والعسكرية، واضطرت حكومات اليمن إلى أن تحسب لهم حساباً، وأن تستخدمهم في القتال مع الحكومات الأخرى أو في قمع ثورات الأقبال والأذواء الطامعين^(٢). أما في الشمال فلم تكن قدرة الحكومات أفضل حالاً في مواجهة البدو، إذ كان هؤلاء مؤهلين على أفضل وجه لخفارة الصحراء وطرقها. وكانت مهارتهم في استخدام القوس والنشاب من على ظهور جيادهم وجمالهم كفيلة بردع أي قوة تهاجم الصحراء. وكانت وحدات الجيش الروماني الاعتيادية عاجزة أمام قدرة البدو على الحركة ووسائل قتالهم الصحراوي غير المألوف. وقد ظهر السرج لدى بدو شمال الجزيرة وبلاد الشام في القرن الثاني للميلاد أيضاً، فاختارت رومة أن تشكل منهم وحدات عسكرية ضمن جيشها، لكفّ أذاهم ولاستخدامهم في محاربة البدو الآخرين^(٣).

لم تكن تلك وحدها الروادع التي جعلت جزيرة العرب وصحاريهم منيعاً على الاغريق والرومان والبيزنطيين وغيرهم زمنياً طويلاً، بل كانت الروايات

(١) جواد علي، ج ١، ص ٢٠٤.

(٢) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) Graf, David F : The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier, *Bulletin of Amer-*

ican Schools of Oriental Studies, 229 (1978), pp. 16, 17

المخيفة تضيف إلى رهبة فرسان البدو وجفاف الصحراء، رهبة أخرى، تُسهم في تعزيز مناعة خطوط التجارة العربية، وتحمي احتكار السير عليها لأصحابها. يقول هيرودوتس (Herodotus: ٤٨٤ - ٤٢٠ ق.م. تقريباً) مؤرخ الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، على رغم زيارته لجزيرة العرب: «وبلاد العرب في نهاية المعمورة الجنوبية، وفيها وحدها يوجد اللبان والمر والدارصيني واللادن. ويكابد العرب الشدائد في جني هذه النباتات ما عدا المر، فهم لأجل جني اللبان يحرقون تحت أشجاره نوعاً من الصمغ... ليشرّدوا أسراباً كثيرة من الحيات الطائرة المختلفة الأنواع التي تحرس الأشجار... وتنت القرفة في بحيرات قليلة العمق يعيش بالقرب منها حيوانات ذات أجنحة كالخفافيش، وهي تزج العرب بصياحها وأصواتها المرعبة ولكنهم لا يعبأون بها ويدفعونها عنهم ويتقدمون لجني القرفة»^(١).

ج - ضرورة التجارة الشرقية

قفزت باتريسيا كرون قرناً ونصف قرن، من عصر هيرودوتس إلى عصر هيرونيموس الكاردي (Hieronymos de Cardia: ٣٧٠ - ٢٦٥ ق.م. تقريباً) أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، لتجمل بداية تجارة العرب المعروفة مع شواطئ البحر المتوسط في أواخر عهد الاسكندر. وكان من تجاراتهم في ذلك العصر اللبان والمر وأعلى أنواع التوابل الآتية من اليمن. وقد نسبت إلى إراتوستينيس (Eratosthenes: ٢٧٦ - ١٩٤ ق.م. تقريباً) أن هذه البضائع كان ينقلها تجار من معين إلى أبلة في سبعين يوماً^(٢). وكانت هذه المواد، باستثناء التوابل، مصا

(١) Herodotus: The Histories, Translated by Aubrey de Selincourt, The Penguin Classics, Mid-

dlesex, 1963, pp 219, 220. وانظر أيضاً: ولفسون، إسرائيل: تاريخ اللغات السامية، مطبعة

الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩، ص ٢٣٣ - ٢٣٤. وفي شرح البضاعة المذكورة أنظر باب البضائع

ومصادرها في الفصل الرابع فيما بعد.

(٢) Crone, Patricia: Meccan Trade and the Rise of Islam, Princeton University Press, 1987, pp. 18, 19

وكتاب كرون هذا يشكك في تجارة مكة الدولية وفي وجود موسم الحج إلى مكة

قبل الإسلام. وقد عُصّص في نقد هذا الكتاب ملحق بآخر هذه الأطروحة، عنوانه: هل كانت

لمكة تحارة دولية؟

تنتج أشجار مخصوصة تثبت في جنوب جزيرة العرب^(١). وأما الحرير فمن الصين^(٢) وسيلان^(٣)، واللؤلؤ من الخليج، والرقيق والقرود والعاج والذهب وريش النعام والوَجَّ والسُّنا من الحبشة وإفريقية الشرقية^(٤). ولَمَّا ذُكِرَت المصادر والمراجع بضائع الشمال والغرب في التجارة مع الجنوب، مثل المنسوجات المصرية والزجاج والمصنوعات الحرفية السورية^(٥)، ذلك أن أقصى ما كانت تصل إليه هذه البضائع جنوباً في معظم الحالات هو جنوب جزيرة العرب، لاعتبارات قد نختص بالطلب في المجتمعات المطلة على المحيط الهندي من إفريقية وآسية على الأرجح.

وقد يسأل باحثون: وهل تستحق هذه البضائع أن تتصارع لأجلها أقوى الدول؟ إن بليني (Plinius: ٢٣ - ٧٩ م.) نفسه أعرب عن امتعاضه لاضطرار رومة إلى دفع مبالغ طائلة كل سنة في الاتجار مع العرب، فآلفى ببيعته هذا والاذلال الاقتصادي على عواقب النساء الرومانيات في نزواتهن ورغبتهن في التطيب^(٦).

(١) Diodorus Siculus, translated by C.H. Oldfather, the Loeb Classical Library, London and

Rodinson, Maxime: Mohammed. Penguin أيضاً، Cambridge, vol. II, pp. 47, 225

, Miller, pp. 101- 105 وكذلك. Books, Suffolk, Great Britain, 1977, p. 20

(٢) جواد علي: ج ٧، ص ٢٨١. وكذلك: Husein: The Early..., op.cit., p 109

(٣) Smith, Sidney: Events in Arabia in the 6th Century A.D., *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, University of London, XVI (1954), p. 426

(٤) Rodinson: op.cit. p 20, وانظر أيضاً: Smith: op.cit. p. 426 (٤) التجارة الشرقية في الفصل الرابع فيما يلي.

(٥) Husein: op.cit. Charlesworth, pp. 27, 47 وكذلك. Miller, pp. 221, 224, 229 p. 109 وفي بضائع التجارة الشرقية ومصادرها أنظر فيما بعد ضمن الفصل الرابع، باب: البضائع ومصادرها.

(٦) Pliny: Natural History, XII: 84 وكذلك Diodorus vol. II, p. 231 وانظر أيضاً: Lam-

mens, Henri: Les Grosses Fortunes à la Mecque au Siècle de l'Hégire, *Egypte Contemporaine*, VIII, (1917), p. 19 وانظر Miller, pp. 221, 224, 229 وفي شأن فوائد البضاعة

الشرقية والحروب الرومانية للحصول عليها من غير وساطة أنظر: Cambridge Anc. Hist. vol.X, pp. 248 - 250 وكذلك Miller, 5 - 8, 13, 14, 15, 143



أما رائف حسين فارتأى أن هذه البضائع لم تكن كمالية، مثلما قد نظن، فنسب إلى روستوفتسيف قوله: «قد نعجب كثيراً لأن هذه البضائع... هي من وجهة نظرنا منتجات كمالية، وليست من الضروريات: اللبان للآلهة، والمرامح والطور ومستحضرات التجميل للرجال والنساء، وبعض الأصباغ (مثل النيلة)، والتوابل للذواقة، والحجارة الكريمة واللآلئ والحرير الثمين والأقمشة القطنية وما إلى ذلك. لكن لا شك في أن هذه المنتجات لم تكن في نظر قدامى الشرقيين واليونان كماليات صرفاً، بل ضرورات معاشية تقريباً لا بديل منها، على الرغم من كل الجهود التي بُذلت في العالم الهليني لاستنباط بدائل». وأكد لوفه إقبال رومة وبيزنطة على شراء التوابل والحرير^(١). وكان اللبان ضرورياً في المراسم الدينية في كل أنحاء العالم، منذ أزمنة لا يعيها التاريخ. وقد حل محل الأضاحي عند اليونان منذ القرن السادس قبل الميلاد، لاسترضاء الآلهة وتطهير الأمكنة وإزالة روائح الحياة الحضرية البدائية في المدن. وكان الرومان يعدّون اللبان أفضل أنواع البخور، وكان سعره دليلاً على إقبال الناس على شراؤه. أما العبريون فكان دخان البخور يخفي حضور إلههم في الهيكل. وكان المسيحيون يحرقونه في بيعةهم. وأصبح حرق البخور في البوذية جزءاً مهماً في المراسم الدينية.

وكان المرّذا مكانة مرموقة في استحضار العطور ومستحضرات التجميل. والمرّ الصرّف من مرّكبات الزيت المقدّس عند اليهود، على ما جاء في سفر الخروج. أما المرّكبات الأخرى فهي السّنا والقرقة والوّج وزيت الزيتون. وكان اليونان والرومان وشعوب المشرق يستخدمون المرّ بكثرة للأغراض الطّبية.

وقد بدأ استخدام الأفاويه، القرنفل والمطّيبات الأخرى مع القلقل وما شابه من توابل وبهارات، منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد في شواطئ المتوسط الشمالية. وأضحت الموائد منذئذ ناقصة، إذا خلت من هذه الأفاويه. وارتفعت

(١) Husein: op.cit., p.112. وانظر أيضاً Loewe, Michael: Spices and Silk: Aspects of World

, Trade in the First Seven Centuries of the Christian Era, JRAS, 1971 (2), pp. 166-179

أسعار هذه البضائع تيمناً لاشتداد الطلب عليها. فكلما كان مستهلكو الغرب يسعون في طلب الملابس الشرقية أو العطور والتوابل، كان تجار العرب الجنوبيون يرفعون أسعارهم. وكانت تلك الأسعار تتضمن طبعاً بدل المخاطر والمكوس ومشاق السفر، وعواصف الرمل وأنواء البحار وعطش الصحراء وغزوات البدو وما عدا ذلك^(١).

د - طرق التجارة البرية

سلكت قوافل التجارة العربية في البر طريقين كبيرين إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط: أولهما تمتد من جنوبي غربي جزيرة العرب إلى الحجاز وشرق الأردن وفلسطين وسورية، والثانية، وكانت مخصصة ببضاعة الهند في معظم الحالات، تبدأ على شاطئ الخليج وتسلق نهر الفرات صعوداً إلى سوق دورة، وهي تدعى اليوم الصالحية، قرب أبو كمال في سورية. وكانت البضائع تُنقل منها في قوافل عبر الصحراء الشامية إلى تدمر أو إلى متاجر أخرى، فيصل منها ما يصل إلى موانئ المتوسط تمهيداً لشحنه إلى المستهلكين^(٢). وكان يمكن بالطبع سلوك طرق أخرى، إذ إن السفن الآتية من الهند كانت تستطيع أن ترقأ إلى عدد من الموانئ. لكن الأبلّة في شط العرب كانت توفر للساسانيين القدرة على مراقبة التجارة الشرقية، علاوة على اختصار الطريق البرية، باجتياز بعض المسافة في نهر الفرات. أما الطريق بين اليمن والشام عبر الحجاز، فكان يحفز التجار على اعتمادها أمان على الأقل فيما يبدو: أولهما أن عدن ربما كانت أول مرفأ بعيد بعض الشيء عن متناول النفوذ الفارسي، وإن كان الحال غير ثابت على هذا في بعض مراحل التاريخ. والثاني استعداد القوافل العربية

(١) Husein: op. cit., pp. 111-114.

(٢) انظر فيما يلي باب: البضائع ومصادرها، في الفصل الرابع. Diodorus, vol. II, pp. 211-213.

وانظر أيضاً، Gabrieli, Francesco: A Short History of the Arabs, Robert Hale, London, 1965, p. 15.

وأنظر فيما يلي باب: الأبل وطرق الصحراء، في الفصل الرابع. وكذلك

POTTS, Daniel T.: Trans-Arabian Routes of the Pre-Islamic Period, dans L'Arabie et son

Mers Bordières, I, GS-Maison de l'Orient, Lyon, pp. 127-162. والملي، صالح أحمد:-

محاضرات في تاريخ العرب، ص ٣٦ - ٣٨.

الجيد لنقل تجارة الشرق عبر الحجاز، منذ أيام مملكة سبأ^(١). وقد استثمرت سبأ توسطها التجاري بين الشرق والغرب منذ زمن غابر. وكانت تجارة الهند التي تصل إلى عُمان تُنقل بحراً إلى مصر، إلا أن مصاعب النقل البحري عدلت بالتجارة شيئاً فشيئاً إلى طريق البر، من شَبوت في حضرموت، إلى مأرب عاصمة السبئيين، ثم إلى مكة فالبثراء عاصمة النبط، ومنها إلى غزوة على البحر المتوسط^(٢). ولدى زوال مُلك سبأ نحو سنة ١١٥ قبل الميلاد قامت مملكة الحميريين التي امتد سلطانها ليشمل قبائل كثيرة في الجزيرة العربية. فسيطرت على عرب الحجاز واستخدمتهم في نقل تجارتها وحراستها حتى القرن الميلادي الخامس، حين تمكن الحجازيون من الحميريين، وصاروا هم أصحاب التجارة في الجزيرة العربية^(٣).

في تلك الأثناء كان النبط في شمال الحجاز وجنوبي بلاد الشام يمدون خطوط التجارة العربية حتى مشارف شواطئ البحر المتوسط، متممين مهام عرب الجزيرة واليمن. وقد عُثر في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد على نقود نبطية على الطريق بين البثراء وغزوة، فيما تدل الآثار النبطية بين العقبة وغزوة من حصون وصهاريج وبقايا أدوات فخارية على ازدهار أعمالهم التجارية قروناً قبل الميلاد. كذلك اكتُشفت آثار نبطية في الجوف، مما يدل على امتداد الخطوط النبطية شرقاً وجنوباً، عبر وادي مبرحان في وسط الطرف الشمالي لجزيرة العرب، ويؤيد رأي بعض المؤرخين أن هذا الوادي كان ممراً مهماً لتجارة الأنباط من الجزيرة العربية إلى حوران. وامتد نفوذ النبط كذلك إلى مَدْيَن وإلى

(١) نشر ميلر صفحات وخريطة لبيان طرق التجارة الشرقية. أنظر في هذا، Miller, pp 146-151.

Ahmad, Nafis: The Arabs' Knowledge of Ceylon, Islamic Culture, 119 sqq. وانظر كذلك، vol. 19 (1945), p. 224.

(٢) Cambridge Anc Hist, vol. X, pp. 248, 249. وجواد علي: ج ٧، ص ٢٤١. وكذلك

حمّور، ص ٢٦. وقد أفاض الباستون في الحديث على سيطرة العرب طويلاً في المصور

القديم على طرق التجارة إلى الهند. أنظر في هذا: Miller, pp. 147, 178. وكذلك Charles-

worth, p. 60

(٣) حمّور: ص ٢٧، وكذلك Simon: Hums et Har., p. 205.

مدائن صالح (الججر في المملكة العربية السعودية)، وفق ما يُستخلص من المقابر والكتابات النبطية في هذه الأخيرة. ولعل الأنباط كانوا يتولّون التجارة العربية الآتية من الجنوب، عند منطقة العُلا، بالقرب من مدائن صالح^(١).

ويبدو أن الثموديين كانوا على علاقة وثيقة بتجارة الأنباط، فكانوا زُرّاعاً وأصحاب ماشية في الوقت نفسه، فاشتغل بعضهم بالتجارة^(٢). وأكد فان دن براندن هذا الأمر وقال إنهم كانوا مهرة في تجارة القوافل، فخالفه جاك ريكمنس^(٣). غير أن بعث وينث وريد سنة ١٩٧٠ أيدت حلول الثموديين والصفيوين محل الأنباط في قيادة قوافل التجارة عبر وادي سرحان^(٤). أما المبدئيون فأكد اكتشاف جرة من آثارهم في عصيون جابر (في العقبة) أنهم نشطوا في الاتجار بين الجزيرة العربية وخليج العقبة^(٥).

ولا شك في أن الأعراب كانوا يتفوقون على غيرهم في حماية طرق التجارة الصحراوية. فهم سادة البوادي، ويعرفون موقع مخازن الماء والآبار والعيون^(٦). وكانت صهاريج المياه التي برع الأنباط في بنائها وهندستها، من العوامل التي امتازت بها البترا^(٧)، إضافة إلى تربيتهم الابل. وينسب الشريف إلى النشاط التجاري هذا، أنه سبب نشوء عدد من أهم مدن العرب في الأزمنة القديمة

(١) Diodorus: vol.II, p. 43. وانظر Bowersock, J., Cambridge Anc.Hist., vol.X, pp. 248, 249.

G.W.: A Report on Arabia Provincia, *Journal of Roman Studies*, 61 (1971), pp. 221,

222. وانظر كذلك: Huscini: op.cit., p. 109.

(٢) جولاد علي: ج ١ ص ٣٣.

(٣) Van Den Branden, Albert: Histoire de Thamoud, Publications de l'Université Libanaise.

2e éd., Beyrouth, 1966, pp 42, 43, 58. Höfner: op.cit. s.59

(٤) Graf: op.cit., p 8

(٥) Ryckmans, G.: Un fragment de jarre avec caractères minéens à Tell el-Kheleyfeh, *Revue*

. Biblique, 48 (1939), p. 249

(٦) جولاد علي: ج ٢ ص ٦٠٧.

(٧) Diodorus: vol.II, p. 43. وانظر حوَره ص ٢٩.

وازدهارها، من تدمر إلى مكة^(١). ويضيف جواد علي إمارة الحضر وإمارة الرها فيما بين النهرين، والرستن وجمص وسنجان إلى جملة ما نشأ عند العرب من مدن وإمارات وحكومات بفضل التجارة^(٢). بل يُنسب زوال مملكة الأنباط وظهور مدينة تدمر إلى الأسباب التجارية ذاتها^(٣).

غير أن المسارعة إلى القول إن العرب في الجزيرة وأطرافها احتكروا التجارة الدولية بلا انقطاع بين الجنوب والشمال، وبين الشرق والغرب، هو أمر مبالغ فيه. ذلك أن التجارة البرية عبر الجزيرة لم تحرم القرس والرومان أو البيزنطيين القدرة في بعض العصور على استخدام الطرق البحرية مباشرة من الخليج والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي، والعكس. وتقول كرون في هذا: «فمن القرن الأول للميلاد لم يكن سكان وادي الرافدين وحدهم، بل اليونان أيضاً والرومان، يبحرون مباشرة إلى الهند ثم إلى سيلان. وتدل بقايا النقود الأثرية على أن [تجارتهم هذه] كانت في أوجها في القرنين الأولين للميلاد، وأنها ركزت في أواخر القرن الثالث، ونشطت بعض الشيء في الرابع ثم انكفأت فيما بعده». وكانت لهذا الانكفاء أسباب جعلت دور التجارة العربية الدولية عبر قوافل الصحراء يتعاطف. وقد لاحظت كرون أن: «كوسماس (Cosmas) لم يكن اليوناني الوحيد الذي زار سيلان في القرن السادس [للميلاد]، لكن العلاقات المباشرة [بين بيزنطة والهند] أصبحت نادرة على نحو واضح»^(٤). وأيد جوزيف سومرغي في الاجمال هذا التبدل إذ قال: «إن الطريق البرية على طول

(١) الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٦ - ١٩.

(٢) جواد علي، ج ٩، ص ٦٠٥.

(٣) Rabbath: op.cit., p. 134. وانظر أيضاً: Trnningham, op.cit., pp. 29-30, 86.

(٤) Croce: op.cit., p 40. وفيما أحست كرون ملاحظة انكفاء تجارة بيزنطة المباشرة مع الهند، انخفضت في إدراك النتيجة الطبيعية لهذا الانكفاء، وهي أن التجار العرب تولّوا عبر مكة، في القرن السادس، حصة كبيرة من التجارة الدولية. وهو أمر أنكرته كرون بلا سبب واضح. واقترب ميلر من القول إن العرب احتكروا تجارة الشرق في القطاعات المهمة، لتصل عبرهم إلى أسواقها الرومانية والبيزنطية.

Miller, pp. 147, 160

الشواطئ العربية واليمن وحضرموت أقفرت منذ القرن الأول للميلاد، حين تمكن البحارة اليونان من اجتياز المحيط الهندي بفضل الرياح الموسمية التي اكتشفها [لهم] هيبالوس (Hippalos) الاسكندري^(١). لكنه أضاف قوله: «إن طريق القوافل على طول هذه الشواطئ بُعثت من جديد في القرن السادس»^(٢). ومثلما ظلت أحوال التجارة الشرقية عرضة للتبدل، كانت سياسة رومة حيال هذه التجارة تحاول التكيف وفق الظروف.

ثانياً: رومة وتجارة الشرق

أ- الثمن الاقتصادي والسياسي

عندما حاصر ألياريك (Alaric) ملك القوط رومة الحصار الأول في مطلع القرن الخامس طلب من الرومان لقاء فكه الحصار ذهباً وفضةً و... ثلاثة آلاف رطل من الفلفل^(٣). كان الفلفل من أغلى العناصر التي تدخل في الطهي الروماني. وكان أحسن الأنواع في قول غيبون (Gibbon) يباع «بخمسة عشر ديناراً، أو عشرة شلنات الرطل»^(٤). وكان البخور «رأس بضائع العالم الثمينة المطلوبة» في الامبراطورية الرومانية. كان سعره يساوي سعر الذهب في قول بعض المصادر. ولم يكن يشتريه لغلائه هذا إلا رجال الدين، لاستعماله في الشعائر الدينية التي تستنزف القسم الأكبر منه، والملوك الأثرياء، وذلك لحرقه في المناسبات الدينية وفي اجتماعاتهم. ونجد «المؤرخ الكاتب بلينيوس [أي بليني] يشتكي من تبذير نيرون (Nero) عاهل رومة (٥٤ - ٦٨ للميلاد) ومن إسراره

(١) Somogyi, Joseph: The Part of Islam in Oriental Trade, *Islamic Culture*, vol. 30 (1956), p.179. في الفصل الثالث فيما يلي عرض للأسباب الدولية التي عززت دور القوافل العربية البرية في التجارة الدولية في القرن السادس.

(٢) Miller, p. 25. وغيبون، إدوارد: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تعريب محمد علي أبو ريلة (وغيره)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، بلا تاريخ، جـ ٢، ص ٢٠١. وفي شأن حاجة رومة إلى الثوابل والطيوب أنظر: Miller, 1-3, 110.

(٣) يستخدم غيبون هنا اسعاراً تنفق والقوة الشرائية في إنجلترا إبّان القرن الثامن عشر.

في حرق اليخور واللِّبان لاجراء شعائر جنازة زوجه المتوفاة^(١). كذلك اشتكى أوريليانتس (Aurelianus) إمبراطور رومة (٢٧٠ - ٢٧٥ للميلاد) من أن رطل الحرير كان يباع في عاصمة إمبراطوريته باثنتي عشرة أوقية من الذهب. وكانت بعض الأحداث أو عوامل الاحتكار ترفع السعر أحياناً عن ذلك الذي ذكره أوريليانتس، وكان العرض في أحيان أخرى يزداد بما يفوق ازدياد الطلب، فتهبط الأسعار، لكن احتكار تجارة الحرير ظل طويلاً في غير يد رومة ثم ييزنطة. إذ أن الجزء الأكبر من الحرير المستورد كان منشؤه التبت والصين وقال غييون: «كانت القوافل تخترق قلب آسية من بحر الصين إلى شواطئ البحر في سورية في مائتين وثلاثة وأربعين يوماً، وكان الرومان يحصلون على الحرير من التجار الفرس الذين تردّدوا على أسواق أرمينية ونصّيبين»^(٢). لقد كانت طريق البحر من الهند إلى الخليج أو إلى البحر الأحمر أسرع من طريق البر الآسيوية هذه، لكن تجارة الشرق عبر الطريق البحرية كانت هي الأخرى احتكراً فارسياً قبل القرن الأول للميلاد. وكان التجار يجتنبون الطريق الآسيوية في زمن الحروب بين الفرس ورومة. ولعلهم كانوا عندئذ يستخدمون طريق البحر، فكانت قوافل تجار الحرير في الصين في قول غييون: «ترتاد طريقاً أكثر اتجاهاً إلى الجنوب، فكانوا يقطعون جبال التبت ويجتازون نهر الكنجج أو السند ويستطرون متلهفين في ثغور جوزيرات وقلبار وصول السفن التي تفقد... من الغرب»^(٣).

كانت مشكلة رومة مع تجارة الشرق إذن معقدة. فهي مضطرة إلى شراء هذه السلع الضرورية، لكن شراؤها كان يحقق الربح والقوة للعدو التقليدي: الفرس. لم يكن الأمر ليختلف لو كان الفرس قد أصبحوا عدو رومة التقليدي بسبب هذا الاحتكار التجاري، أو لو كان الاحتكار والصراع على طرق التجارة هما نتيجة للعداء التقليدي بين الدولتين، وإن كان الاحتمال الأول هو الأقرب إلى منطق صراع الدول على التفوذ. إذ كانت العُنق الرومانية في هذه التجارة

(١) جواد علي، ج ٢، ص ٦٦، وانظر أيضاً Miller, p. 20.

(٢) غييون، ج ٢، ص ٤٢٣، ٤٢٤. وكذلك Cambridge Anc. Hist., vol. IX, p. 598.

(٣) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٤٢٤، ٤٢٥.

الضرورة مع الشرق، في قبضة الفرس. ولم يكن في استطاعة هؤلاء أن يكسبوا أموال عدوهم فقط، أو يرفعوا السعر متى شأؤوا، بل كانوا في زمن الحروب، وهي كثيرة في تاريخ هذا الصراع، يوقفون تدفق السلع إلى أسواق الغرب. وكان تجار العرب في وسط هذا الصراع يجنون أرباحاً متفاوتة مع تفاوت الحاجة إلى طريق الصحراء. ولم يكن في مكنة رومة أن تجد حلاً إلا محاولة شق طريقها إلى المحيط الهندي عبر البحر الأحمر أو غرب جزيرة العرب، بعيداً عن نفوذ الفرس وقبضتهم. لكن هذا كان يضع العنق الرومانية في بعض الأحيان، في قبضة أسياة الصحراء: العرب. وقد اشتهر بليبي المؤرخ الروماني، بشكواه من العرب وغنائم وامتناعهم عن الشراء إذ يقول: «ومن الغرابة أن تقول إن نصف هذه القبائل [العربية] التي تفوق الحصر يشتغل بالتجارة أو يعيش على النهب وقطع الطرق. والعرب أغنى اسم العالم طراً، لتدقق الثروة من رومة وبارثية [فارس] إليهم، وتكدسها بين أيديهم، فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم. ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك»^(١). وعلى الرغم من شبهة المبالغة القوية في هذه الشكوى، إلا أن المشكلة الاقتصادية والسياسية والعسكرية في معالجة الغرب لتجارته مع الشرق في هذه الأوضاع الجغرافية، لا تبدو عسيرة على الفهم. وقد حاولت قوى الغرب على التوالي: الاسكندر ثم رومة فيزنطة، حل هذه المشكلة بطرق مختلفة.

ب- الاسكندر و«المياه الدافئة»

تبدو مشكلة التجارة الدولية والصراع على طرقها بين الدول في غرب آسية وفي أوروبا موزلة في القدم.

ومن أقدم الدول التي ظهرت في القارة الأوروبية وكانت لها أبعاد دولية معلومة دولة أثينة. وقد لا يكون غريباً أن أول حرب معروفة خاضتها أثينة مع دولة مشرقية هي الحرب التي خاضتها في القرن الخامس قبل الميلاد مع دولة الفرس

(١) Pliny: op.cit., p. 461. وانظر أيضاً حواد علي... ج ١، ص ٢٣٥. وكذلك: Seyrig,

Henri: Antiquités Syriennes-Postes romains sur la route de Médine, Syrie, 22 (1941c),

التي ظلت تمثل الشرق في حروبه مع الغرب أحد عشر قرناً قبل ظهور الاسلام. وعلى الرغم من أن التجارة الدولية كانت أحد عوامل هذه الحرب بين أثينة والفرس^(١)، إلا أن أثينة التي شنت هجوماً بحرياً قاضلاً على مصر في ذلك القرن، لم تكن بعد قد تطلّعت إلى شرق البحر الاحمر، ولا يبدو أن حروبها مع الفرس كانت على أي علاقة بالتجارة الشرقية، بل بالتجارة في البحر الأبيض المتوسط^(٢).

وفي المقابل، فإن الفراعنة قد اتّجروا مع بلاد مِطْلَة على المحيط الهندي منذ زمن سحيق يمتد أكثر من سبعة وعشرين قرناً قبل المسيح، على ما يعتقد البعض. إلا أنه تُؤزّن الأدلة على أن هذه التجارة الشرقية كانت موضع صراع دولي من أي نوع. أما سكان الجزيرة العربية فبدأوا نشاطاً تجارياً واسعاً منذ عهود الدولة المعبّنة في اليمن، التي امتد نفوذها حتى بلغ شمال الحجاز. وظل هذا النشاط مزدهراً من القرن الثامن حتى القرن الثالث قبل الميلاد على الخصوص. وقد عاصرت دولة المعبّنين دولة سبأ بعض الزمن، ثم ورثت مكانتها التجارية^(٣).

لكن وجود عناصر الصراع الثلاثة: الشرق والغرب والتجارة الدولية، لم يُشعل شرارة النزاع المزمّن، إلا في أيام الاسكندر المقدوني، فافتتح المبادرة الأوروبية في هذا النزاع باعتماد الحل الأقصى الذي أقلعت عنه كل الدول الغربية اللاحقة زمناً طويلاً، باستثناء رومة في عهد تراجانوس، وهو غزو منطقة

(١) Amit M.: Athens and the Sea, a Study in Athenian Sea Power, Latomus, Bruxelles, 1965

(٢) Burn, A.R.: Persia and the Greeks, Stanford University Press, Stanford, California, 1984; cf.: Bradford, Ernle: The Year of Thermopylae, MacMillan London Limited, 1980;

also cf.: Grundy, G.B.: The Great Persian War and its Preliminaries, A.M.S. Press, New York, 1969

(٣) Rougé, Jean: في شأن سفر المصربين القداسي بحراً إلى بلاد البُط والمحيط الهندي أنظر: La Navigation en Mer Erythrée dans l'Antiquité, dans l'Arabie et ses Mers Bordières, I,

SALLES, pp 75, والمجلد ذاته، في GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; p 61

و. Gabrieli: op.cit., p. 13 و. 76

الخليج والتوغّل شرقاً فيما وراء نهر الفرات، ووصف جواد علي الحل الذي اعتمده الاسكندر بقوله: «ووضع الاسكندر الأكبر مشروعاً خطيراً... للسيطرة على المياه الدافئة بالسيطرة على سواحل جزيرة العرب... وقد كلف قوّاده الالتفاف حول جزيرة الغرب، وباشروا تنفيذ الأمر بالفعل. وقد رأينا قائده نياركوس (Nearkhos) على رأس أسطول ضخم، لعله أعظم أسطول شاهده الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد... ولو قدّر للاسكندر أن يعيش طويلاً لتحقيق مشروعه الضخم، ولكن القدر قضى عليه مبكراً، فمات مشروعه معه، ولم يكن لخلفائه ما كان لديهم من عزم، فتركوا المشروع ولم يتحمسوا له»^(١).

وقد أكد المسمودي ضمناً في «مروج الذهب»، أن التجارة الشرقية كانت من أهم حوافز الاسكندر الكبير على غزوته التاريخية، إذ قال: «وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تُعرف بسقطرة، إليها يضاف الصبر السقطري، ولا يوجد إلا فيها، ولا يُحمل إلا منها. وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كسب إلى الاسكندر بن فليس حين سار إلى الهند في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطري... فسير الاسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوماخس... في المراكب بأهلهم في بحر القلزم [البحر الأحمر]. فغلبوا على من كان بها من الهند [المسلم اليمن] وملكوا الجزيرة... ويُحمل من جزيرة سقطرة الصبر السقطري وغيره من العقاقير»^(٢).

أما خلفاء الاسكندر البطالسة (Ptolemies)، فحاولوا تخفيّ جزيرة العرب، فمدّوا نشاط أسطولهم في البحر الأحمر، واستبغوا بعض مستوردات تجارة الشرق في أرض مصر^(٣). ومدّوا نفوذهم إلى بلاد الحبشة، فأسسوا قواعد

(١) SALLES, pp. 86-88. وجواد علي: ج ٧، ص ٢٦٧، ٢٦٨. وفي شأن سياسة السلوقيين

والبطالسة خلفاء الاسكندر حيال البيط والتجارة أنظر صالح أحمد العلي، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) المسمودي، أبو الحسن: مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة

البنانية بيروت، ١٩٩٦، ج ٢، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٣) Rodinson: op.cit., p. 34

تجارية على طول شواطئ البحر الأحمر. وأظهرت أعداد اليونانيين الوفيرة أنهم أقاموا علاقات وثيقة مع الأحباش في مملكة أكسوم. وقد ظل نفوذ اليونان مستمراً حتى منتصف القرن الأول بعد الميلاد على الأقل، إذ كتب صاحب «الطواف حول البحر الأريتري»، الذي زار أكسوم في ذلك الزمن، عن أتجار الأحباش مع اليونان المصريين، ولاحظ أن ملكهم كان عارفاً لأدب الاغريق. وكان أثر اليونان ظاهراً في تنظيم التجارة والمرافئ والطرق التجارية والجيش والنظام الإداري^(١).

ج - سياسة رومة قبل الميلاد

ورثت رومة على ما يبدو المسألة ذاتها في سياستها حيال تجارة الشرق. ويُعتقد أن بومبيوس (Pompeius) القائد الروماني، بذل أول محاولة عسكرية رومانية لضم مملكة الأنباط إلى الامبراطورية في حملته على بلاد الشام وفلسطين سنتي ٦٤ و٦٣ قبل المسيح. وقد تمكن من ضم مقاطعة سورية ودخل القدس عنوة، رغم معارضة اليهود^(٢). واستمر تدخل رومة في شؤون المشرق بعد انتصار يوليوس (Julius) قيصر على بومبيوس سنة ٤٨ ق.م. فعين سيد رومة الجديد ملكاً عربياً إيدومياً متهوداً على مقاطعة اليهودية. وقد قُتل هذا الحاكم الايدومي واحد أبنائه في أثناء الغزو الفارسي لفلسطين سنة ٤٠ ق.م.، لكن ابنه الآخر، هيرودوس (Herodes)، استطاع أن يهرب إلى رومة، حيث تولّى صديقه ماركوس أنطونيوس (Marcus Antonius) وأوكتافيانوس (Octavianus) إقناع مجلس الشيوخ بتعيينه ملكاً على اليهودية. وقد شن هيرودوس بمعونة رومة حرباً على آخر الحكام الحشمونيين، واستطاع أن يقتله سنة ٣٧ ق.م. وسقط بذلك الحكم

The Periplus of the Erythraean Sea, translated by Wilfred H. Schoff, Longmans, Green (١)

Trimingham, John Spencer: Islam in Ethiopia, and Co, New York, 1912, p. 23

Frank Cass, London, 1976, p. 35 ويعرف روجيه البحر الأريتري وفق المفاهيم المختلفة

التي اعتمدها له الجغرافيون. Rouge, pp. 59, 60.

Bowersock. A Report..., p 223. وكذلك صالح أحمد العلي، ص ٤٩ وما بعد.

الفارسي^(١). وكان ملك الأنباط في ذلك العصر يُدعى في المصادر الرومانية ماليخوس الأول. وكان خصماً لهيرودوس، لكنه كان في الوقت نفسه مالياً ليوليوس قيصر، ثم لانتونيوس^(٢). ويتبين من هذا أن نفوذ رومة كان يمتد إلى شرق نهر الأردن، وأن الخصم في هذه المنطقة كان الفرس. وقد اعتمد أوكتافيانوس سياسة جديدة في مواجهتهم بعد اعتلائه سدة الحكم منفرداً سنة ٢٧ ق.م.، وتسميه باسم أغسطس قيصر (Augustus Caesar)، إذ لاحظ أن قوة الفرس كانت في دفاعهم، وأنه لن يخشى بأسهم طالما ظلوا في موقف دفاعي بسبب الأزمات التي طالتهم في ملكهم الشاسع واضطراب نظامهم السياسي الداخلي. واتفق أغسطس قيصر مع الفرس على تعيين الحدود بين الدولتين، وسعى كل منهما إلى ردّ مخاطر البدو الرحل بإنشاء منطقة عازلة، فاعترفتا بسلطة بعض الزعماء القبليين^(٣). وعندما اطمأن الامبراطور الروماني إلى أن هذه الترتيبات أعفته من مواجهة الفرس في الشام، اتجه بصره إلى البحر الأحمر جنوباً، علّه يضمن في هذا الاتجاه، ما يمجز عن ضمانه شرق الفرات. لم يكن أغسطس قيصر أقل طموحاً إلى السيطرة على الطرق التجارية من معظم خلفائه، ولذا لم يكن أقل شكوى من «ثراء» التجار العرب. ولكن بدلاً من أن ينتظر التاجر الروماني أو اليوناني أن تأتيه البضائع الثمينة في أسواق مصر أو بلاد الشام محملة على سفن عربية أو على ظهور جمال القوافل وهي بأسعار عالية، كان أغسطس قيصر يرى أن يرئد الرومان أنفسهم البحر الأحمر إلى المحيط الهندي حتى سواحل إفريقية أو جنوب الجزيرة العربية أو الهند وما وراءها، فيشتروا من موانئها وأسواقها ما يريدون بسعر رخيص، فيستفيدوا وتنفيد حكومتهم، ويخسر التجار العرب. وأكد سترابون (Strabo) أن الامبراطور كان يرى هذا كله^(٤)، حين

(١) وثمة دلائل على احتكاك بين رومة والفرس في بداية الشام منذ سنة ٤٦ ق.م. انظر في هذا
Trimingham: Christianity among..., p 38. وقارن: Cambridge Anc. Hist., vol. IX, p. 714.

(٢) Bowersock: A Report..., p. 223.

(٣) يُعتقد أن بومبيوس ثم أغسطس نظما الحدود الشرقية بين الامبراطورية الرومانية والفرس. انظر
في هذا Jones, pp. 219, 220. وانظر ايضا Trimingham: Christianity among..., p. 26.

(٤) Strabo: The Geography of Strabo, The Loeb Classical Library, London and New York, (٤)

قَرَر في سنة ٢٥ قبل الميلاد أن يرسل حملةً إلى داخل شبه الجزيرة العربية لتستولي على التجارة البرية والموانئ اليمنية. وكَلَّف إيلْيوس غالُوس (Aelius Gallus) قيادة الحملة^(١) وطلب إليه أن يتوغَّل في غرب جزيرة العرب انطلاقاً من العقبة. وكان ملك الأنباط في ذلك العهد يدعى في المصادر الرومانية أوْبوداس (Obodas) الثاني^(٢)، وكان وزيره يُدعى سِلَايُوس (Syllaeus)، فحَذَّع القائد الروماني وساقه إلى عمق الصحراء حيث تاه جنده، حسبما روى سترابون فيما بعد^(٣). وقد برهنت حملة الرومان التي واكبتها حملة حبشية على مملكة سبأ، أن صحراء العرب أمتع مما تبدو لوهلة، على رغم أن حكومة «سبأ» وذوي ريدان، لم تكن قوية، ولا كانت تملك جيوشاً منظمة ومدربة تدريباً جيداً. وزعم المؤرخون للحملة من الكتب اليونان، أن الرومان لم يقاتلوا العرب ولم يلتحموا بهم تماماً، وأن الجنود السبئيين لم يكونوا يملكون شيئاً من أسلحة القتال المعروفة آنذاك، بل كانوا يحملون الفؤوس والحجارة والعصي والسيوف. ولكن الرومان لاقوا من الحر والجوع والعطش ما أهلك أكثرهم وأجبر الباقين على العودة أذراجهم^(٤).

ويبدو أن سياسة رومة بعد هذا الفشل التام قد تبدلت أو تكيفت، دون أن يتغيَّر الطموح إلى بلوغ المحيط الهندي، فلم يُعدَّ أغسطس قيصر يفكر في غزو الجزيرة العربية غزواً برياً مباشراً، بل انكفأ إلى تقوية أسطوله في البحر الأحمر وتحسين علاقاته بسلطة القبائل العربية للمحافظة على مصالح رومة الاقتصادية

= vol. VII, p. 355. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٧، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(١) Strabo: ibid., pp. 353, 355. وانظر أيضاً: Pliny: op cit., p. 459. وكذلك Trimmingham. Christ.

(٢) Rougé, p. 69. Janity among..., p. 39.

(٣) Bowersock: A Report..., p. 223.

(٤) Strabo: op.cit., p. 357.

(٤) Strabo: ibid., pp. 361-363. وانظر جواد علي: ج ٧، ص ٢٦٠، ٢٦١. ويبدو أن أغسطس

قيصر قد دأب على سياحتين واحدة عسكرية تقضي محاولة السيطرة على الشاطئ الشرقي الجنوبي من البحر الأحمر، والثانية تجارية تقضي تنشيط الاتجار من شواطئ مصر المطلّة على البحر الأحمر، إلى الهند مباشرة لتحبب الوساطة العربية. انظر في هذا الشأن Miller, pp. 14, 15, 143.

وقد رتتها على بلوغ المحيط الهندي. ووجه أنظاره إلى سواحل إفريقية وحكومة الحبشة، فمعدت اتفاقات صداقة وتحالف مع حكام أكسوم الأحباش، وأخذت رومة من هناك تضغط على مملكة سبأ، وهو أسلوب استُعيد مرات فيما بعد، وفي القرن السادس على الخصوص، في العصر البيزنطي. ويروي صاحب «الطواف حول البحر الاريثري» أن الرومان عقدوا معاهدة تحالف كذلك مع ملك ظفار الحميري^(١). ويُعتقد مع ذلك أن رومة لم تخرج صفر اليدين تماماً من مغامرة إيليس غألوس، بل استولت على ميناء لوكي كومي (Leucô Comé : حوارة)، على الشاطئ الشمالي للحجاز، حيث كان الموظفون يجيئون المكوس. وكانت التجارة الآتية إلى الميناء تُنقل من هناك براً في القوافل إلى البتراء. لكن تاريخ الاستيلاء على هذا الميناء غير مؤكد^(٢). وكانت المهمة السياسية الأولى في الجزيرة العربية هي تنظيم حلفاء لرومة والحبشة لمقاومة مملكة سبأ التي كانت تسعى إلى إبقاء التجارة البرية في يدها ويد حلفائها. ولم يكن الحميريون وحدهم مناسين لهذه المهمة الملائمة لمصالح رومة، بل كانت قبيلة «نجرن» [لعلها نجران] ثائرة على ملك السبئين بتحريض من الحبشة. كذلك ثارت على الملك السبي مدينة «ظرين» [ظريان؟]، التي حظيت هي أيضاً بتأييد الأحباش. واشتبه جواد علي استناداً إلى هذه الحوادث، اشتباهاً قوياً، باحتمال اتفاق رومة مع الحبشة لدعم العصيان داخل مملكة سبأ، بعدما فشلت حملة إيليس غألوس^(٣)، فيما كانت سياسة سبأ تقضي السيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشام ما أمكنها ذلك، فأستت مواضع لحراسة القوافل من قطاع الطرق وتحرش القبائل. ولعل القبائل البثرية التي يرجع بها النسب إلى اليمن، هي من القبائل التي أسكنتها سبأ في هذا الموقع من أجل حماية القوافل الطاعنة إلى الشام^(٤).

(١) Periplus, p. 30. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٢، ص ٥٩، ٦٠.

(٢) Graf: The Saracens..., pp. 3, 4. وحول موقع ميناء لوكي كومي أنظر Farable et ses Mers

Bourdès, pp. 186, 187

(٣) جواد علي، ج ٢، ص ٤٣٨ - ٤٤١.

(٤) المرجع ذاته، ج ٧، ص ٢٤١.

٥٥- سياسة رومة في القرن الأول

لم تنتهِ طموحات أغسطس قيصر عند حدوده الادارية والعسكرية إذن، بل تطلّع إلى السيطرة بوسائل مختلفة على طريق البخور العربية فيما وراء تلك الحدود. ولم يكن لمصالحه التوسعية، بعد فشل إيلْيوس غالُوس، أن تشق طريقها إلى الجزيرة العربية، لولا معونة الأنباط له في مواجهة مملكة سبأ وحلفائها. وقد أكد باورسوك أن أغسطس قيصر اغتمس في شؤون مملكة الأنباط ومسائلها الداخلية بعد مكيدة سبلايوس، وأرسل حملة عسكرية ثانية يقودها غايوس (Gaius) قيصر في السنة الأولى للميلاد. وُستدل من نصوص لبليني أن مهمة غايوس وحملة بلغت ما سماه «الخليج العربي»، وهو ما يعني على الأرجح خليج العقبة. ولم يتعدّ غايوس منطقة الخليج، ولم يغل في داخل الجزيرة العربية، بل قاتل قبائل عربية في داخل مملكة الأنباط. واستبعد باورسوك أن تكون الحملة موجهة لقتال الأنباط على رغم صمت المصادر في شأن ذلك. ونسب إلى سترابو ويوسيفوس (Josephus) المؤرخين أن الأنباط لم يهادوا رومة في ذلك الزمن. ولذا رجّح أنّ الحملة قاتلت قبائل عربية كانت تندفع نحو الشمال إلى داخل الأراضي النبطية^(١). ويؤيد غراف هذا التفسير لحملة غايوس، ويضيف أن حملات القبائل الصفوية في حوران وجنوب سورية أخبرت المواصلات الرومانية، وأدت غزوات بدوية أخرى في فلسطين إلى تدمير بعض القرى، فدفع ذلك رومة إلى شن الحملة. وأشار غراف إلى أن رومة تعمّدت في أواخر القرن الأول قبل الميلاد أن تنقل مرور طريق تجارة التوابل والبحور الشرقية من مرفأ لوكي كومي، على ضفة البحر الأحمر الشرقية، إلى الضفة المصرية ومنها عبر البر إلى ميناء الاسكندرية^(٢). ولذا يمكن الاشتباه في أمرين، دون أن تكون ثمة أدلة قاطعة عليهما، وهما أن هذه الغزوات القبلية على أراضي الأنباط، شتتها القبائل الحجازية الشمالية بإيعاز من سبأ، أو أن القبائل

(١) جعل ميلر حملة غايوس قيصر السنة الأولى قبل الميلاد لا بعده. أنظر Miller, p. 15. وكذلك

Strabo: Bowersock: A Report..., p. 227. وأنظر أيضاً Pliny: op.cit., p. 459. وكذلك: Strabo:

op.cit., pp. 355, 356

Graf: The Saracens..., p. 6 (٢)

التي تضررت من جراء نقل التجارة من أرضها إلى طريق أخرى ارتأت في تلك الغارات تعويضاً من خسارتها وانتقاماً من الرومان وحلفائهم الأنباط معاً. لكن هذه الغارات وحملة غايوس لردعها، ظلت إلى الآن غامضة، ولم تفصح المصادر المتوافرة عما يزيد بها وضوحاً، سوى ما جاء باختصار شديد عن إجهاض الحملة المذكورة^(١)، هي الأخرى.

وقد بقيت سياسة رومة على هذا إلى أن مات أغسطس قبصر سنة ١٤ للميلاد، ففُتِرت وصيته في مجلس الشيوخ علناً، فإذا به قد أوصى خلفاءه من بعده نصحاء أن تبقى الامبراطورية الرومانية داخل تلك الحدود التي قال غيرون إن الطبيعة نفسها قد جعلت منها حصوناً وحدوداً ثابتة دائمة للامبراطورية^(٢)، أي المحيط الأطلسي غرباً والراين والدانوب شمالاً والفرات شرقاً وصحراء العرب وصحراء إفريقية جنوباً^(٣).

ويبدو أن الرومان التزموا وصية أغسطس قبصر بعض الوقت، على الخصوص في شأن جزيرة العرب، إلا حادثة الاستيلاء على مرفأ عدن، وهي حادثة يختلف في تعيين زمنها المؤرخون، بل يختلفون كذلك في شأن اشتراك رومة فيها. ويحتمل أن تكون أحلاف رومة والحبشة في جنوب الجزيرة العربية قد سمحت للأسطول الروماني باحتلال عدن من البحر، حين كان الغزو براً قد فشل تماماً. وينسب جواد علي إلى صاحب «الطواف حول البحر الاريثري» أن «القيصر» استولى على عدن «منذ زمن غير بعيد» عن زمانه، وتصور باحثون أن ذلك وقع في عهد كلاوديوس (٤١ - ٥٤ للميلاد)، أو في سنة ٢٤ للميلاد، وتصور آخرون أن احتلال عدن حدث في أيام نيرون. واشتبه بعض الباحثين في التاريخ الروماني في أن «القيصر» الذي نسب إليه استيلاؤه على عدن، ليس إلا

(١) Seyrig: Antiquités Syriennes..., p. 222

(٢) يلاحظ أن أغسطس أنشأ الأسطول لرومة. انظر في هذا رستم، أمجد: حصر أوغسطس وخلفائه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥. وفي شأن سياسة أغسطس الشرقية انظر المرجع نفسه ص ١٢١، وحملة ليلبيوس غالوس ص ١٦٤ - ١٦٦. وفي شأن وصية أغسطس انظر غيرون، المرجع السابق، ج ١، ص ٦٦.

كلمة محرّفة في النسخ، وأن الأشعرين هم الذين دَمَرُوا العِراقَ. لكن المعروف أن السفن الرومانية واليونانية أخذت تتراد مياه المحيط الهندي ابتداء من القرن الميلادي الأول، بعدما اكتشف هيبولوس سرّ الرياح الموسمية وإمكان الذهاب إلى شواطئ الهند والعودة منها في زمن قصير. وقد أمكن للتجار الرومان بعد إنشاء حامية رومانية في عدن، الاستراحة فيها والاقلاع منها إلى الهند والسواحل الأفريقية والعودة إليها. وجَهَّز الرومان بعض سفنهم بالرماة لمقاومة القرصنة. وكان في عدن صهرج ماء ضخّم أمَدَ التَّجَارَ بمياه الأمطار^(١). في مثل هذه الأوضاع كان الرومان يتولّون التجارة الشرقية بأنفسهم، من أجل تجنب احتكار الفرس لهذه التجارة، أفي زمن الحرب أم السلم.

١- الحدود الشرقية أيام السلم

في هذه المرحلة من تاريخ رومة يبدو أن ملامح سياستها الحدودية في الحفاطعات الشرقية أيام السلم قد أخذت تظهر. وهي ملامح تبدّلت في بعض الأحيان، لكن مبادئها الكبرى ظلت أساس السلوك السياسي والعسكري لرومة ثم لبيزنطة في القرون التالية. وقد وصف سترابو، المؤرخ الذي توفّي سنة ٢٤ للميلاد، هذه السياسة بقوله: «يشكّل الفرات والأرض التي خلفه حدود الامبراطورية البارثية. لكن الأرض المتاخمة للنهر في هذا الجانب يملكها الرومان وشيوخ العرب حتى بابل، وبعض هؤلاء الشيوخ يميل إلى البارثيين والبعض الآخر إلى الرومان، الذين يجاورونهم». ووصف سترابو القبائل التي لا تلتزم أي ترتيبات مع الرومان أو الفرس بأنها قبائل من «الغزاة العصاة». وقد ظل العرب مستقلين عن الدولتين استقلالاً نسبياً بفضل قدرتهم على الحركة. وكانوا محايدين يخدمون مصالحهم الخاصة في كثير من الأحيان، فيعقدون الأحلاف ويساعدون الجيوش والحملات العسكرية. وكانت الدولتان البيزنطية والفارسية

(١) في شأن سبب الخلط بين «الفيسر» و«الأشعر» أنظر Periplus, pp. 32, 115. وانظر أيضاً Von

Wissmann, Hermann: Himyar Ancient History, Le Muséon (1964) (3-4), pp. 480-481.

وقد جعل هذا الغزو الروماني لعدن بين العامين ١٩٧ م و١٩٩ م. انظر كذلك جواد علي،

ج ٢، ص ٦٠، ٦١، ٦٢.

تفاوضان مع القبائل التي تمر في منازلها طرق التجارة، من أجل ضمان الأمن والمرور الحر للقوافل. ويقول سترابو: «إن طريق المسافرين من سورية [المقاطعة الرومانية المتاخمة لاسكندرونة اليوم] إلى سليقية [مدينة على نهر دجلة] ويابل تمر في بلاد قبائل «سكيتيه» [اسم لبعض العرب]... عبر صحرائهم... ونستغرق الطريق من وقت اجتياز النهر [الفرات] حتى [مدينة] «سكيتيه» خمسة وعشرين يوماً. ونجد على هذه الطريق جمّالين يتوقفون في أماكن مجهزة أحياناً بمخازن الماء، وهي في العموم صهاريج، مع أن الجمّالين يستخدمون في بعض الأحيان مياهاً يحضرونها من أماكن أخرى. والسكيتيه مسالمون ومعتدلون حيال المسافرين في تحصيل الضريبة، ولذا يتجنب التجار الأرض المتاخمة للنهر ويخاطرون بالسفر عبر الصحراء، مخلفين النهر عن يمينهم ثلاثة أيام تقريباً. ذلك أن الشيوخ المجاورين للنهر من الجانبين [أي المجاورين للطريق الملكية] الفارسية... يتقاضون ضريبة لا يُستهان بها»^(١).

ويصف المؤرخ الروماني في نصّه هذا تربيّات ظلت قائمة على هذا النحو أو ذاك قرناً، لا تبدل إلّا في زمن الحرب، حين كانت التجارة عبر الحدود بين الفرس والرومان أو البيزنطيين تتوقف. وقد وصف ويل القوافل في الصحراء السورية حين كانت تدمر تتولى هذه التجارة في القرنين الثاني والثالث على الخصوص، وصفاً دقيقاً^(٢).

أما حماية الحدود فأمر آخر. لقد أدركت الحكومات أن عليها أن تدفع مبالغ وعطايا سخية لسادة القبائل لقاء حراستهم الحدود، ولم يكن في استطاعة هذه الحكومات أن تقوم بالمهمة بنفسها، ولا سيما إذا احتاجت إلى تعقب الأعراب في البوادي. ولذا صارت لسادة القبائل جماعات سنوية وامتيازات لاسترضائهم واتخاذهم درعاً ترد القبائل الأخرى. وجعلت الحكومات لدى القبائل حاميات من جيوشها، يقودها سياسيون أو عسكريون، لمراقبة سادة القبائل

(١) Strabo: op.cit., pp. 233 237. وانظر أيضاً Trimingham: Christianity among..., pp. 27, 28.

وكذلك جواد علي، ج ٢، ص ٦٠٧، ٦٠٨.

(٢) Will, Ernst: Marchands et chefs de caravanes à Palmyre, Syria, 34 (1957), pp. 262 - 277.

ومعاونتهم على القبائل الأخرى إذا لزم الأمر، وأقامت لهم مساح حصينة تُسكن فيها قوات البادية وتُخزن المؤن والذخائر والأسلحة، وحفرت لهم آبار مياه. وكان قادة المساح عيون الدولة وأدواتها في استرضاء شيوخ القبائل وتوزيع الأرزاق عليهم أيام الشدة والقحط، من أجل كبح جماحهم واستخدامهم في كبح جماح الآخرين^(١).

ولم تكن سياسة رومة في شمال الحجاز تختلف كثيراً عن سياستها في بادية الشام. لكن الآثار الرومانية في عمق الجزيرة العربية أوجت لبعض الباحثين المحدثين أن الإدارة الرومانية والجيش الإمبراطوري أوغلا جنوباً، فأكدت الدراسات الأحدث أن الحدود الجنوبية الرومانية لم تكن ثابتة، بل كانت مرهونة بقوة ملوك الأنباط. فالامتداد الروماني إذن كان امتداداً بالوكالة ولم يكن وجوداً رومانياً مباشراً ومستمراً. وفيما نزع بعض الباحثين إلى القول إن مدائن صالح كانت عند الطرف الجنوبي للحدود الرومانية، أثر هاموند فكرة «مناطق النفوذ» على فكرة الحدود الإدارية الواضحة. فكانت مدائن صالح سوقاً مزدهرة للأنباط في القرن الميلادي الأول. أما الملا فليس من دليل قاطع على أنها كانت ضمن أراضي مملكة الأنباط. ولم يُعثر في شمال الحجاز على نظام حصون دفاعية نبطية كالذي عُثر على آثاره في صحراء النقب وشرق الأردن. ولذا يُعتقد الآن أن الأنباط كانوا يراقبون الحجاز لحساب رومة، بواسطة علاقاتهم بسادة القبائل، ولم يكن الدفاع عن هذه الحدود يعتمد أسلوب المواقع الحصينة التي اعتمدت في عهدي ترايانوس (Trajanus) وديوكليسيان (Diocletianus) فيما بعد إلى الشمال من الحجاز، في فلسطين وشرق الأردن والصحراء السورية حتى القرات. ويقول موزيل إن رومة نظمت حلقاتاً للقبائل العربية شمال وادي القرى وأمدتها بالأموال لقاء حمايتها الحدود الجنوبية الشرقية. وفي هذه المنطقة إذن استخدم أسلوب المنطقة العازلة. وقد حاول بوادبار أن ينفي هذه النظرية بالقول إن الصحراء السورية كان يحميها نظام حصون حدودية، إلا أنه أقر أن هذا النظام في المناطق

(١) جواد علي: ج ١، ص ٥٤٩ - ٥٥١. ويرى تشارلز وورث أن بادية الشام كانت أصعب مشكلات الحدود في الإمبراطورية الرومانية. Charlesworth, p. 36.

التدمرية كانت تقوم عليه القبائل العربية. وهذا يرجح نظرية موزيل أن الدفاع عن الحدود الرومانية الشرقية والجنوبية في أيام السلم، في مواجهة القبائل البدوية، لم يكن قائماً فقط على هذه الحصون المنيعة حيث يعسكر الجند الروماني، بل على نظام سياسي من المحالفات مع القبائل العربية أيضاً^(١)، أو على كليهما معاً، وفق الامكان.

- و- نموذجان: تدمير والأنباط

لا يُلغ المؤرخُ الحقيقةَ التاريخية، إذا تصوّر أن هذه السياسة الرومانية حيال الحدود الشرقية كانت جامدة. ذلك أن العلاقة بين الرومان والفرس كانت تحتمل الحرب والسلام وبعض الحالات الوسيطة بينهما. كذلك لا بد من إدراج قدرة القبائل العربية في المناطق المازلة، على القيام بهما، أو إخفاها في ذلك، ضمن الاحتمالات القائمة، ولا بد من الاقلاع عن الظن أن الحروب الرومانية الفارسية كانت مستمرة لا تتوقف. ذلك أن السلام عمّ الحدود بينهما حقاً طويلاً، فكانت الخطوط التجارية بينهما تعمل عندئذٍ على نحو طبيعي. وكانت تدمر في الصحراء السورية، والخضر فيما بين النهرين، وفولوغاسية (Vologasia: بابل)، أكبر مدن قوافل الصحراء، تقيم علاقات بالفرس أو الرومان أو كليهما. وفي عهد طيباريوس (Tiberius ١٤ - ٣٧ للميلاد) عقد ابنه بالتبني جيرمانيكوس (Germanicus) محادثات مع زعماء تدمر سنة ١٨ بعد الميلاد، أدت إلى تعيين معتمد روماني في المدينة، نظم بعثة تدمرية إلى ميسان (الكرخ، في شط العرب)، لإنشاء علاقات مع زعماء القبائل العربية الذين كانوا يقودون القوافل التجارية. وكانت لتدمر حاميات في فولوغاسية وفي دُورة أورويوس (Dura Europos: الصالحية، قرب أبو كمال في سورية اليوم) وفي غيرهما، حتى عندما كانت تدمر ضمن منطقة النفوذ الرومانية والمدن المذكورة ضمن منطقة نفوذ الفرس. فقد كان العرب يتصرفون بشيء من الحياد بين الدولتين في تنظيم القوافل التجارية، وكانت الدولتان تسعيان إلى استمرار تدفق التجارة

(١) Graf: op.cit., pp. 4,5

الشرقية بينهما^(١). وقد أخذت رومة تعين في أواخر القرن الميلادي الأول ضباطاً من جيشها، حكماً على الحصون الصحراوية وتعزز التنظيم والوجود العسكري على الحدود بينها وبين الفرس^(٢). ويُعتقد أن الامبراطور الروماني تراجانوس (٩٨-١١٧ م.) هو الذي أخذ يعزز الحدود الرومانية في الصحراء السورية استكمالاً لعمل والده، عندما كان الأخير لا يزال قائداً عسكرياً في أواخر القرن الأول، على نحو واسع، حتى فكّر في الاستيلاء على مدينة الحضر العربية فيما بين النهرين، وكانت ضمن منطقة نفوذ الفرس. وقد حوصرت الحضر مدة لكن الرومان ارفضوا عنها^(٣).

غير أن الخطوط التجارية نحو الجنوب كانت على ما يبدو تشغل بال الساسة والقادة الرومان، أكثر مما شغلها الخطوط عبر الصحراء السورية. كانت مملكة النبط قد بلغت أوجها من الازدهار في عصر الملك الحارث الرابع (٨ ق.م. - ٤٠ ب.م.)، الذي ذكرت الكتابات الأثرية أنه «رحم عمه» أي أحب شعبه^(٤). ولكن الطريق بين البتراء وغزة اختفت من خريطة القوافل التجارية في القرن الأول للميلاد^(٥). وفي هذا القرن تحول الأنباط إلى الاستقرار الزراعي، حين تحولت الطريق التجارية إلى لوكو ليمن (Leuko Limen: مرفأ في مصر يقابل لوكي كومي في الحجاز) ومنه إلى كوبتوس (مدينة في مصر العليا قرب النيل) ثم إلى الاسكندرية^(٦). وصادف بدء ضعف الأنباط بدء تعاظم قوة اللحيانيين في الثعلا وجوارها شمال الحجاز^(٧). وقد أخذت قبائل عربية يُعتقد أنها ثمودية تشن غزوات من أطراف الجزيرة العربية على شرق الأردن وصحراء

Bowersock, G W.: Syria under كذلك . Trimmingham: Christianity among ... p. 30 (١)

-Vespasian, Journal of Roman Studies, 63 (1973), p. 136

.Scyrig, Henry: Inscriptions grecques de l'Agora de Palmyre, Syria, 22 (1941 b), p. 240 (٢)

(٣) جواد علي: ج ٢، ص ٦١٣، ٦١٤.

. Bowersock, A Report... p. 223 (٤)

. Ibid., p. 225 (٥)

. Ibid., p. 228 (٦)

. Gabrieli: op.cit., p.17 (٧)

النقب في منتصف القرن الأول للميلاد^(١). ووصلت هجمات الصفويين إلى الحرة شرق حوران والصفاء. بل يشير بعض الكتابات إلى تمرد قبيلة على سلطة رومة هناك، وإلى شن قبيلة أخرى هجمة على العسكر الروماني وإبادته. وفهم وبت من نصوص بعض الكتابات النبطية والصفوية، أن ثورة نشبت في مدائن صالح على السلطة النبطية في سنة ٧١ م. وثمة أدلة على أن قائد إحدى الثورات القبلية هذه كان من الطامحين إلى عرش الأنباط^(٢). وهذا يفسر ثورته، ولكن لا يفسر ثورة القبائل معه. ولا شك في أن تحويل الرومان خط التجارة الشرقية إلى مصر وانتزاعه من أيدي القبائل الثمودية واللحيانية والصفوية، لم يكن مما يساعد الأنباط على فرض سلطانهم على هذه القبائل. وقد لاحظ باورسوك أن صعود جرش صادف صعود تدمر في السياسة التجارية الرومانية، فيما كانت البتراء قد أخذت تفقد مكانتها، وذلك ابتداء من الربع الثاني من القرن الأول. كذلك لاحظ أن موضع النقل النبطي انتقل من البتراء إلى بُصرى، مع تبدل خريطة طرق التجارة النبطية. وقد ربط هذا التبدل باكتشاف هيبالوس للرياح الموسمية وبدء الاستفادة البحارة اليونان والرومان منها للتجارة مباشرة مع الهند وسيلان. وفيما كان قسم كبير من الأنباط ينتقل إلى حياة الاستقرار الزراعي، بعد خمول الطريق التجارية عبر البتراء، ازدهرت طريق بيرة أخرى لا تنافسها الطريق المصرية التي اعتمدها الرومان. أما الطريق النبطية الصاعدة هذه فهي تسلك وادي سرحان من دومة الجندل (الجوف في السعودية اليوم) إلى بُصرى الشام. وقد تعاظم نشاط المدن النبطية الشمالية في التجارة الرومانية في أثناء حكم آخر ملوك الأنباط بين ٧١ و ١٠٦ م.^(٣)، بفضل هذه الطريق.

في هذه الأثناء كان الامبراطور فسبازيان يُعدّ المشرق لمرحلة جديدة في سياسة رومة حيال تجارة الشرق. وكان معتمده الأول في هذا الاعداد هو قائده العسكري تراجانوس (Trajanus)، والد الامبراطور تراجانوس. وقد اعتمد تراجانوس

(١) Graf: op. cit., p. 6.

(٢) Ibid.: pp. 5, 6.

(٣) Bowersock: Syria..., pp. 137-139. وانظر كذلك: Bowersock: A Report..., p. 222.

الأب سياسة حفز المدن العربية على العبادرة في الأعمال الدفاعية، فشيدت تدمر سورها، وأعيد تخطيط جرش وأحييت هي أيضاً بسور، وأنشئت القناطر في بصرى، وشُقت طرقٌ عسكرية، في مساعٍ بدت متفرقة، إلا في ذهن مَنْ يُشَبِّه في أنه مُنْسخها. وكان تريانوس الأب نفسه، على ما يبدو، قد نظَّم قبدوقية (Cappadocia) من قبل، بعدما ضَمَّت رومة بعض المناطق فيما بين النهرين. وذَرَج ضمن هذا المخطط بلا شك عزلُ الأسرة العربية المالكة في حمص بين سنتي ٧٢ و٧٨ م.، لازالة نفوذها من على مفد الطريق التجارية المارّة من تدمر إلى البحر المتوسط^(١).

وبعد هذه الاجراءات والتعديلات كانت خطة رومة العسكرية والسياسية جاهزة للخطوة التي سيفتح تريانوس الامبراطور بها القرن الميلادي الثاني: ضمّ مملكة الأنباط إلى الممتلكات الرومانية.

= و- تريانوس يضم مملكة الأنباط

في أواخر القرن الميلادي الأول أصبحت غارات البدو على بلاد الشام وفلسطين، تشكل خطراً على سياسة رومة حيال تحارة الشرق. ذلك أن هذه الهجمات جعلت تجارة الشرق الرومانية عُرضة للخطر لدى نشوب أي حرب مع الفرس في الصحراء السورية^(٢). وكان استيلاء رومة على مملكة الأنباط استيلاء عسكرياً مباشراً يضع المدخل الشمالي إلى البحر الأحمر في يدها^(٣). وقد أصدر تريانوس الامبراطور أمراً سَمَّى مملكة الأنباط «المقاطعة العربية»، سنة ١٠٥ م، وأرسل الموفد القنصلي كورنيليوس بالما (Cornelius Palma) سنة ١٠٦ م، ليستولي استيلاء عسكرياً على المقاطعة، وقد جعل البتراء عاصمة لها^(٤). وتوفي الملك النبطي الذي تسميه المصادر الرومانية رَبَّل (Rabbel) الثاني في السنة ذاتها بعدما

(١) Bowersock: Syria..., p 140

(٢) Graf: op.cit., p. 7

Anani, Ahmad: Gulf Relations with the West: an Historical Survey (Part I), Islamic Cal- (٣)

... vol. 60 (1966), Oct., p. 34

(٤) Gabrieli: op.cit., p. 16

حكم مملكته سنة وثلاثين عاماً. واتفق غراف وباورسوك على أن استيلاء الرومان على بلاد النبط حدث من غير قتال^(١). وترك الرومان لخليفة الملك النبطي، واسمه مالخوس (Malchus) الثالث، إدارة منطقة إلى الجنوب والشرق من البحر الميت، فحكمها حتى سنة ١٢٦ م. فلما مات اندثرت الأسرة الحاكمة.

وتدل أعمال ترايانوس اللاحقة على أنه استولى على بلاد النبط لأنه أراد أن يتخطى الفرات شرقاً لمحاولة بلوغ شاطئ الخليج، وشاء أولاً أن يدعم مواقعه الجنوبية حتى لا يأخذه الفرس أو القبائل العربية على حين غرة^(٢)، وقد شق لهذا الغرض ما يُسمى «طريق ترايانوس»، وهي طريق صحراوية حصينة تبدأ بالعقبة وتساير البتراء ويصري وتنتهي بنهر الفرات في الصحراء السورية مروراً بأم الجمال وخربة سمرا، وهي مواقع كانت مهمة على طريق القوافل، وقد وُجدت فيها آثار رومانية ونبطية وبيزنطية. ويظهر من الصهاريج والآبار في هذه المواقع أنها كانت مراكز لتجمع القوافل وتربية المواشي^(٣). وعثر بروتوف ودوماشفسكي شرق هذه الطريق على خط آخر من التحصينات^(٤). كذلك اهتم ترايانوس بميناء أيلة فأصلحه وأقام فيه إدارة جمركية رومانية لجباية الضرائب، ثم أصلح القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر بعدما تراكمت فيها الأتربة حتى سدت مجراها، وحفر قسماً جديداً من طرفها الغربي أوصلها بالنيل عند بابليون، موضع القاهرة القديم. وبذلك نشط ميناء القُلْزَم (السويس اليوم) حيث كانت القناة تلتقي البحر الأحمر^(٥).

لكن ترايانوس لم يكتب بحماية طريق رومة نحو المحيط الهندي، وقد بدا ذلك غرضه في إجراءاته الأولى، بل أخذ يخرج على مبادئ سياسة أغسطس قيصر في وصيته الشهيرة، خروجاً صريحاً، حين ضمَّ أرمينية سنة ١١٤ م. ثم

(١) Graf: op.cit., pp.6,7; Bowersock. A Report..., p 228

(٢) Trimmingham: Christianity among..., p. 49

(٣) جواد علي، ج ٢، ص ٦٥، ٦٦.

(٤) Graf: op.cit., p. 1

(٥) جواد علي، ج ٧، ص ٢٧٨، وكذلك Crone: op.cit., p. 25

حذِيب (حذِياب)، وأتبع نهر دجلة في زحفه نحو طَيْسَفُون عاصمة البارثيين، فدخلها، ثم واصل زحفه إلى ميسان (المحمّرة أو كرخا، في شط العرب)، فحظي بشرف كونه أول قائد وآخر قائد روماني يصل إلى شاطئ الخليج. كانت المحمّرة، وهي تقع عند التقاء نهري دجلة وقارون (الايروني)، مرفأ السفن الآتية من الهند. وقد حظي تراجانوس بالأمجاد الرسمية التي طمح إليها، فاستقبله الملوك، وسرّح بصره بمياه الخليج، مثلما فعل الاسكندر الكبير من قبله، فيما كان مركب شراعي يبحر نحو الهند. ولكن قيل إن تراجانوس تنهّد متحسراً، فالتدمريون كانوا هناك منذ حقبة طويلة ينظّمون تجارة القوافل، ولم يكن في مكتته هو البقاء، لأن غزوته هذه كانت جهداً ضائعاً، إذ ثار عليه الأهليون، فاضطر إلى الانسحاب ومات في طريق عودته إلى رومة. وقد سارع خليفته هادريانوس (Hadrianus 117 - 138 م.) إلى ترك كل مكاسب هذه الحملة الفاشلة باستثناء منطقة الرّها شرق الفرات، وعاد إلى اتخاذ النهر في العموم حدوداً مع بلاد الفرس، الذين عقد معهم تسوية سلمية سنة 122 م. وقد ظل نهر الفرات حداً فاصلاً بين رومة والبارثيين حتى زالت دولتهم سنة 226 م. باستيلاء الساسانيين على الحكم، باستثناء بعض الحملات المتبادلة التي لم تُعْمَر^(١). وأبقى هادريانوس الوضع في المقاطعة العربية (مملكة الأنباط السابقة) على ما ورثه من تراجانوس.

- ح - ما بعد تراجانوس

زالت دولة الأنباط، لكن سكانها ظلّوا يمارسون التجارة وقيادة القوافل، على رغم انصراف الكثير منهم إلى الزراعة. وقد وُجِدت كتابات نبطية على طرق التجارة، في طور سيناء ومصر وأماكن أخرى. ودلّ وجودها على استمرار تجارة الأنباط بين مصر والجزيرة العربية بعد استيلاء رومة على بلادهم^(٢). وسرعان ما اكتشف الرومان أن وجودهم العسكري المباشر ليس كافياً للدفاع عن المقاطعة

(١) فيون: المرجع نفسه، ج ١، ص ٧١، ٧٢. وأنظر كذلك Tringham: Christianity

among..., p. 27. وكذلك Seyrig: Inscriptions..., pp. 258, 259.

(٢) جواد علي، ج ٢، ص ٤٩، ٥٠.

وطرق التجارة، فاضطروا إلى معاودة السياسة الأولى، وهي عقد أحلاف مع زعماء القبائل، واستخدام رجالهم في الجيش الإمبراطوري. أما تدمير، التي فشلت حملة تريبانوس على الخليج في الاستثناء عن دورها فأخذت تتميزز مكانتها بصفتها منطقة عازلة ومستودعاً لمقاتلي الصحراء في الجيش الروماني. وقد ظلت تدمر مستقلة رغم تحالفها مع رومة، فيما كانت دّورة (الصالحية) في فلك الفرس، على رغم احتفاظ التدمريين بحامية عسكرية فيها، لخفارة قوافل التجارة^(١). بل إن التدمريين حملوا رتباً عسكرية مرموقة في جيش الرومان، وبخاصة في وحدات الرماة^(٢).

واختلفت أقوال الباحثين فيما إذا كان الرومان قد أقاموا قوات عسكرية دائمة في الجزيرة العربية، أم أنهم وصلوا إلى هناك بفضل تحالفهم مع القبائل العربية. فقال لامنس إن حدود المقاطعة العربية وصلت إلى ديدن (الغلام) ومدائن صالح (الحجج)^(٣). أما سايريف فأكد بحذر أن أحداً لم يستطع أن يثبت وجود الرومان وجوداً دائماً جنوب الخط المحصّن المحتد من بصرى إلى العقبة مروراً بعمان. إلا أنه أثبت وجود وحدات عسكرية بين مدائن صالح والعلما في النصف الثاني من القرن الثاني^(٤). وأما بار فاشار إلى وجود عسكري روماني بين مدورة وتبوك، وهما تقعان على جانبي حدود الأردن مع السعودية اليوم^(٥). وجعل باورسوك حدود المقاطعة العربية عند القرية، على ١٥٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من أيلة. ودفع غراف هذه الحدود مائة كيلومتر أخرى نحو الجنوب، في عمق جزيرة العرب^(٦). وقد تكون جميع هذه الأقوال صحيحة معاً، من وجهة النظر التي يرى فيها الباحث مفهوم الحدود. فلا شك في أن رومة كانت تنشط

(١) Trumphant: Christianity among..., pp. 87, 88

(٢) Seyrig: Inscriptions..., pp. 229, 230

(٣) Seyrig: Antiquités..., p. 223 وانظر أيضاً Lammens: L'Arabie..., pp 310, 315

(٤) Seyrig: op.cit., pp 218-223

(٥) Parr, P.J.: Exploration archéologique du Hedjaz et de Madian, Revue Biblique, 76,

(٦) (1969), pp. 391, 392

Graf: op.cit., p. 3

نشاطاً سياسياً يتخطى حدود وجودها العسكري في المقاطعة. فالنص الذي اكتشفه موزيل في رَوَافَة، على نحو ثمانين كيلومتراً جنوب بَوك، يدلّ على أن رومة رعت بعد منتصف القرن الثاني بقليل^(١)، مصالحة وتحالفاً بين القبائل الثمودية. ومعلوم أن الجنود الرومان تركوا أثراً على وجودهم في مدائن صالح والعلّا، ولو أن امتداد المقاطعة العربية امتداداً إدارياً رسمياً إلى هناك ليس مؤكداً. ويُفترض أن حماية القوافل التجارية ومواكبها كانت من مهام هؤلاء الجنود الرومان في القرن الثاني للميلاد.

أما النفوذ السياسي الروماني فقد تكون ثمة شبهة قوية على امتداده حتى إلى اليمن بواسطة حلفاء رومة الأحباش الذين اجتازوا باب المندب مرة أخرى ليحتلوا السواحل العربية فيما بين الستين ١٥٠ و ٣٠٠ للميلاد^(٢). وليس من سبب يدعو إلى الظن أن رومة رغبت في محالفات سياسية في الحبشة واليمن، وأحجمت عن التطلع إلى محالفات شبيهة في الحجاز المتاخمة مباشرة لمقاطعاتها العربية. وقد أدت مناطق النفوذ السياسي الممتدة إلى ما وراء الخطوط الدفاعية الحصينة دوراً مهماً في سياسة الحدود الرومانية، بخاصة لما تبين أن احتلال مملكة الأنباط لم يُجْزِد في ردع هجمات القبائل البدوية. ودلّت جهود رومة التي بُذلت في تعزيز خطوطها الحدودية الحصينة، على أن هذه القبائل ظلت قادرة على شنّ الغزوات الناجحة على خطوط التجارة، حتى الحقبة الرومانية المتأخرة في القرنين الثاني والثالث للميلاد. كذلك دلّت أعمال رومة العسكرية في الحجاز في أواخر القرن الثاني على أن الإمبراطورية لم تفقد اهتمامها بطريق التجارة البرية عبر الجزيرة، على رغم تحوّل خط التجارة الشرقية الأساسي إلى مصر. وقد عاودت رومة اعتماد السياسة التقليدية وهي التودد إلى القبائل الكبرى والتحالف معها من أجل اصطناع مناطق عازلة تردّ غزوات القبائل الأخرى. وقد كان التعاقد الروماني مع حلف القبائل الثمودية عماد السياسة الحدودية في شمال

(١) Seyrig, Henry: Sur trois inscriptions du Hedjaz, Syria, 34 (1957), pp. 260 261

(٢) جواد علي، ج ٢، ص ٢٥٣. ويحيل فون فيسمان إلى أن الاحتلال الحبشي هذا حدث سنة

١٠٠ م أو ١٥٠ م. أنظر Von Wissmann: op.cit., pp. 472, 473

الحجاز في المرحلة التي سبقت ولاية ديونكليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م.). وقد يكون استخدام فرسان الصحراء الثموديين في الكتابات الرومانية تفسيراً مقبولاً لعدم العثور على آثار من خطوط رومة الحصينة في هذه المنطقة، بخاصة في وادي زَم والجسسى. فليس من أثر لوجود روماني هناك، بل كانت القبائل الثمودية هي التي تخفر المنطقة. وكانت القبائل الأخرى تتقاضى مكوساً لئذَغ قوافل التجارة الرومانية تمر بسلام. ويعتقد غراف أن هذه السياسة ظلت قائمة في القرن الثالث^(١)، حتى جاء عصر تدمير فبذل الأحوال.

ثالثاً: عصر تدمير

أ- الصعود إلى القوة

كان القرن الثالث عصر العرب في الامبراطورية الرومانية. ويصف شهيد مطولاً في كتابه «رومة والعرب»، مظاهر الحيوية العربية في هذا القرن ابتداء باستيلاء أسرة ماويزوس (Severus) السورية نصف العربية على العرش الامبراطوري في أواخر القرن الثاني وسيطرة الأمهات العربيات على أبنائهن الأباطرة، ثم صعود فيليبوس (Philippus) العربي إلى سدة الامبراطورية (٢٤٤ - ٢٤٩ م.)، وأخيراً تعاظم قوة تدمير في الربع الثالث من هذا القرن^(٢)، حتى تحدث رنيه غروسيه عن: «وَضَعَ العرب يَدَهُم على جزء من الشرق الهليني»^(٣)، خلال الحرب التدمرية الرومانية. غير أن تدمير لم تصعد إلى مركز القوة هذا بين ليلة وضحاها، لأن تجار المدينة كانوا منذ زمن طويل قد خبروا طرق التجارة الشرقية عبر الصحراء السورية ونهر الفرات. وقد شاهدتهم تريانوس في أول القرن الثاني يتجرون في ميسان عند شاطئ الخليج^(٤). ولما فشل

(١) Graf: op.cit., pp. 8 - 12, 19, 20.

(٢) Shahid, Irfan: Rome and the Arabs, A Prolegomenon to the Study of Byzantium and the Arabs, Dumbarton Oaks, Washington, 1984.

(٣) Rabbath: L'Orient chrétien..., pp. 134, 135.

(٤) GAWLIKOWSKI, Michel: Le Commerce أيضاً. Seyrig: Inscriptions..., pp. 259, 260 (٤) de Palmyre sur terre et sur eau, dans l'Arabie et ses Mers Bordières, I, GS-Maison de l'Orient, Lyon, 1988; pp 166, 167.

تريانونوس في حملته الشهيرة، بذل هادريانوس (Hadrianus) خليفته عنايةً كبيرة بتدمير، لحاجة الامبراطورية إلى الاتّجار مع الفرس على أية حال. ولذا سعى هادريانوس في الوقت نفسه إلى تحسين علاقاته بالفرس والمحافظة على أمن البادية، وأوصل حامياته إلى ضفة الفرات الغربية، بل أنشأ في النهر، على ما يُقال أسطولاً تجارياً. وقد أحسّت تدمير الاستفادة من مسالمة هادريانوس وخليفته أنطونينوس بيوس (Antoninus Pius: ١٣٨ - ١٦١ م)، فأقامت معبداً في بابل ووسّعت تجارتها عبر الفرات^(١). وساعدها في هذا الأمر أن التدميرين، رغم انتماهم المعلن للمعسكر الروماني، كانوا يقيمون علاقة وثيقة بقبائل العرب في منطقة النفوذ الفارسية، بل بالفرس أنفسهم. وكان يسهّل هذا الأمر أن جميع الأطراف كانت بحاجة إلى تجارة الشرق، على هذا النحو أو ذاك. بل إن جرمانيكوس (Germanicus) القائد العسكري الروماني في أوائل القرن الأول للميلاد أوفد مبعوثاً تدمرياً في مهمة سياسية إلى بلاد ميسان (كرخا، عند شط العرب)^(٢). وكانت لتدمير مكانة في الشبكة التجارية منذ أيام السليوقيين، غير أنها لم تأخذ في الازدهار حقاً، إلا عندما أدمجت بالنظام التجاري النبطي، وفتح الفرات الأسفل للملاحة بين الامبراطوريتين البارثية والرومانية، اللتين اتفقتا على ضرورة هذه الوساطة التجارية عبر الحدود^(٣). وقد أبدت رومة اهتماماً سياسياً بالمدينة منذ النصف الأول للقرن الثاني بعد الميلاد^(٤)، خصوصاً بعدما أخذت البتراء تفقد مكانتها. لتحوّل التجارة عنها إلى مصر وإلى طريق الفرات^(٥). وكانت تدمر في زمن السلم بين الفرس والرومان تستقطب جزءاً مرموقاً من تجارة الشرق، لامتياز طريقها على الطرق الأخرى بالقصر وسرعة النقل. ويقول باورسوك إن صعود تدمر أفزع إدعاً وشلّ يُصرى اللتين كانتا مصباً لطريق التجارة

(١) جواد علي، ج ٣، ص ٨٧، ٨٨.

(٢) Seyrig: *Inscriptions...*, pp. 252-258.

(٣) Trnningham: *Christianity among...*, p. 31.

(٤) Seyrig: *Inscriptions...*, pp. 243, 244.

(٥) Kirkbride, Diana: *Le Temple Nabatéen de Ramn, son évolution architecturale*, *Revue*

Bibliothèque, 67 (1970), pp. 86, 87. وانظر كذلك: حنّور، ص ٣٠.

الشرقية الآتية من جزيرة العرب عبر وادي السرحان^(١).

ويمكن الاستنباط بأن مظاهر الحيوية العربية في القرن الثالث داخل الامبراطورية الرومانية، لم تكن مظاهر منفصلة بعضها عن البعض. ذلك أن هلاقة أسرة ساويروس، التي استولت على العرش الامبراطوري منذ سنة ١٩٣ للميلاد، بمدينة حمص، التي كانت تتحكم بالمنفذ الوحيد لطريق تدمير المباشرة إلى البحر المتوسط، واهتمام هذه الأسرة الحاكمة بتحسين مكانة الوحدات العربية في داخل الجيش الامبراطوري، مثل الرماة والهجانة، وكذلك اهتمام فيليبوس العربي بالمقاتلين البدو، قد لا تترك مجالاً لافتراض الصدقة وحدها في تعاطف الحيوية العربية. ففي سنة ٢٠٨ م، أي في عصر سبتيميوس (Septimius Sauro) بالذات، ظهرت الوحدات التدمرية بقوة في نظام الحاميات الرومانية عند نهر الفرات^(٢). وقد يكون في هذا تفسير لبعض العوامل التي رافقت صعود تدمير إلى القوة.

وقد صادف هذا الصعود، على الجانب الآخر من نهر الفرات، الانقلاب في دولة الفرس، وهو انقلاب حدث سنة ٢٢٦ م. وانتقل فيه الحكم من البارثيين الذين أصابهم الوهن، إلى الساسانيين الذين أخذوا يبدلون الأوضاع ويعيدون لحروب أفضت إلى نهاية القوة التدمرية^(٣). ويبدو أن ساويروس الكسندر (Severus Alexander)، الامبراطور الروماني (٢٢٢ - ٢٣٥ م.) هياً للأسرة الساسانية فرصة عاجلة لاختيار حكمهم الجديد في المجابهة مع رومة، إذ سعى الكسندر إلى بلوغ الخليج مرة أخرى، أسوة بسميه الأكبر المقدوني، وسلفه تراجانوس، فزحفت قواته سنة ٢٣٢ م. عبر الفرات، وبلغت البطائح، لكن الساسانيين ردوها على أعقابها^(٤). وانتقم الساسانيون أولاً بإزالة مدينتين عربيتين

(١) Bowersock: A Report..., p. 234. وعن تدمير عموماً انظر أحمد صالح الملي، ص ٤٦ وما

يحد.

(٢) Graf: op.cit., p. 18, cf. Seyrig: Inscriptions., pp. 232, 233. (٣)

(٤) جواد علي، ج ٣، ص ٩٠.

(٥) المرجع ذاته، ج ٢، ص ٦٨.

من مدن تجارة الشرق المارة عبر الفرات وهما الحضر ودورة. فحاصروا الحضر أربع سنوات، ثم حوّلوا عنها طريق التجارة، غديلت وسقطت في بضع سنين. أما دورة فقد دُمّرت واندثرت سنة ٢٦٠ م. وكانت الحضر ضمن ممتلكات الفرس، لكنها أقامت علاقات جيدة بالرومان قبيل الانقلاب الساساني، وكانت فيها حامية تدمرية، على ما سلف. أما دورة فكانت محطة قوافل بارثية، ثم تحوّلت إلى معسكر روماني. وقاومت تدمير بسهولة هجمات الساسانيين، غير أنه يُعتقد أن شبكتها التجارية تضررت من جراء هذه الحرب، وهي التي لا يناسبها سوى السلم بين الفرس والرومان^(١). وقد انتهز الأعراب هجمات الفرس في السنوات ٢٤٣ و ٢٥٦ و ٢٥٩ م. وأسّر الامبراطور الروماني فاليريانوس (Valerianus) سنة ٢٦٠ م.، فأُخذوا يَغزون المدن ويهاجمون المواقع الرومانية، وازدادت بذلك حاجة رومة إلى تدمير وقوتها العسكرية وقدرتها على ردع قبائل الصحراء، فألفت كتائب عربية للقتال في البوادي^(٢).

ب - تنظيم القوافل التدمرية

إن جُلّ ما يهتمنا من تاريخ تدمير وحربها مع رومة في إطار هذه الدراسة هو دور تدمير في تنظيم تجارة الشرق وأثر الحرب في هذه المسألة، واحتمال كون تدمير مثلاً اتخذت عليه مكة فيما بعد في إيلافها. ولا بد إذن من التمرّج على العوامل التي جعلت تدمير مؤهلة لتأدية هذا الدور، إضافة إلى موقعها الجغرافي الذي قيل فيه الكثير.

لقد تنبّه شلومبرغر إلى عامل أساسي من عوامل قوة تدمير التجارية، وهو قدرتها على تربية الخيول والجمال اللازمة لتنظيم القوافل وخفارتها ممّا^(٣). ولذا درس المواقع المحيطة بالمدينة وبخاصة منطقة جبلية شمال غرب تدمير، فأخرج المدينة من عزلتها في الصحراء ووضعها وسط بيئة زراعية رعوية تمد سكانها

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب المصرية، ج-٧، ص ٦١ - ٦٣. وانظر أيضاً جواد علي... ج-٧، ص ٦١٤. وكذلك: Tommingham: Christianity among... pp. 30 - 31.

(٢) جواد علي، ج-٧، ص ٦٩. وكذلك: Grat: op. cit., p 13.

(٣) استشهد به ويل. Will op. cit., p. 271.

بما يلزمهم من المطايا. ففي جانب مراعي للخليل، وفي جانب مملكة الابل في الصحراء. ولذا نمت تدمر بموقع مثالي، ولم يُعوزها الجمالون ولا المغاتلون، إذ كان سكانها مؤهلين للمهنتين معاً. فلم يكن التدمريون ذلك الصف من أهل الطور الذين يفتلون أبواب مدينتهم لنعما من البدو، بل كانوا أسداً في الصحراء وفنونها وأسلوب عيشها، رغم تفرسهم في شيء من المش الحضري. ولا شك في أن سمعة التدمريين العسكرية في الجيش الروماني تنمى بما كان لهم من مهابة في هذه البيئة الصحراوية^(١). ويقول لرنست ويل في مقالته الممتازة عن التجار وقادة القوافل في تدمر، إنه يجد هنا ألا نعتقد أن شيوخ تدمر وتجارها، إنما كانوا أصحاب متاجر يعيشون في مدينة صحراوية في حماية الجيش الروماني، بل أنهم كانوا شيوخاً قبلين أتوا المدينة وظلوا على صلة بمواشيهم ورجالهم في الصحراء. لقد كانوا تجاراً فعليين يجتازون معظم لروثهم من تجارتهم، لكنهم كانوا صنفًا خاصاً من التجار، إذ كانوا قلدة قوافل. وهو صنف مزيج يتكيف فيه البدوي التقليدي بمهنة المدينة: فهو ينظم القافلة، وهو يقردها في الصحراء، ثم يتولى المفاوضات السياسية مع القبائل أو مع حكومة الفرس^(٢).

أما الطريق التي كانت تسلكها القوافل التدمرية إلى بلاد ما بين النهرين فهي ليست واضحة المعالم، إلا أنها تجتاز الحدود عند نقطة ما بين تدمر وحمث عند الفرات. وفيما بين أراضي الإمبراطوريتين كانت القوافل تمر في أرض محايدة. وأغلب الظن أن حراسة هذا الخط التجاري بواسطة حاميات تدمرية تمسك في حصون منتشرة على طول الطريق، لم تكن حراسة مجدبة، لانقلال القافلة من دولة إلى دولة، ولأن هذه الحاميات لا حول لها ولا طول إلا في جوار حصونها. وبذا فإن أي حجة يدعى على القوافل فيما بين الحصن والحصن تُبطل الحاجة إلى هذه الحاميات. ولم يكن يمكن إذن أن تُحصى القوافل، إلا أن نواكبيها حماية مسلحة. ولما كانت تدمر ثابتة للمسكر الروماني، فإن هذه

(١) IDAG., pp. 271, 272. وانظر أيضاً: DAWLIKOWSKI, pp. 143-144.

(٢) IDAG., pp. 264, 273, 274.

الحماية المسلحة لا يمكن أن تكون جيشاً تدمرياً وسياً ويُسمح لها بدخول أرض
الفرس. وتشير المصادر إلى أن هذه الحماية كان يتولاها مواطنون تدمريون،
تستند قدرتهم في الأساس إلى مفاوضات يقدونها، ثم يدعونها بالسال. وفي
هذه الحال يمكن أن نتصور الحاجة إلى مواكبة عسكرية غير رسمية، تبهيها
تقاليد الصحراء، ولا نخشاها الجيوش النظامية.

ويرى روستوفسيف أن مهمة قادة الحرس كانت حماية القوافل من مخاطر
غزوات البدو. ويعتقد أن هذه المهمة كانت مهمة تخصص لها محترقون توارثوها
كأبراً عن كابر، ولم يكن التجار يختارون واحداً منهم لتوكلي القيادة، مثلما يظن
البعض. كان قائد القافلة المحترف يجمع مئات الدواب اللازمة للقافلة وفق
حاجة التجار، ويستخدم المال للعناية بهذه الدواب، والمقاتلين الذين سيواكبون
القافلة. أما المال اللازم للانفاق على الرحلة، فكان يدفعه من سُموا وحمة
القافلة. وقد حفظت لنا الآثار أسماء بعض حمة القوافل من منتصف القرن
الثالث للميلاد. وكان هؤلاء من أصحاب التجارة لو حتى من أصحاب
المصارف. ولعل بعض قادة القوافل من أصحاب الثروات، كانوا يتولون بأنفسهم
أيضاً الانفاق عليها. وأظهرت الكتابة الأثرية الموسومة بكتابة أم القصد أن أحد
حمة القوافل كان أولاً صاحب فندق للتدمريين في منطقة بابل^(٦٦).

وتزيد الكتابات التي خلفتها لنا آثار تدمر أن الجيش الروماني لم يكن
يساهم على الأرجح في مهمة حماية القوافل، إلا بعد مغادرتها تدمر باتجاه البحر
المتوسط^(٦٧). ويبدو أن هذا الاستقلال النسبي الرحب الذي نعمت به تدمر، كان
أيضاً استقلالاً سياسياً وعقدياً، على نحو ما.

ج - العقيدة الدينية المستقلة

إن ما نسبه والحدود الشرقية، للإمبراطورية الرومانية، يدعوه ميلر ومسالمة

(٦٦) على ما ذكره ويل. Wil pp. 267-271. وانظر أيضاً GAWLIKOWSKI, p. 167. ومن

جميع تدمر القائل حولها أنظر GAWLIKOWSKI, p. 165. وصالح أحمد الطلي. ص 81.

(٦٧) Boyce, Inscriptions... p. 242. وانظر كذلك: Wil: op. cit. pp. 263, 264, 266. وتحدث

جورج عن استقلال تدمر النسبي ضمن إطار السيطرة الرومانية. Jones, p. 266.

خيالية تمثل حالة دبلوماسية ملائمة في زمن ما، وتُفرضها توزيع بعض الجنود وموظفي المكوس في بعض الأماكن. لكن هذه الحدود قلما كانت تؤثر في سلوك السكان أو تحركهم على الجانبين... وشهد لوقيانوس (Lucianus) بأن القريين في أحد معابد منج، شمال شرق حلب، على الجانب الروماني من سورية غرب الفرات، كانت تأتي من أماكن عديدة بينها منطقة بابل. وكانت حركة الأفراد تسلك الاتجاهين. ومهما أُطلق من صفات على الأماكن، فلا شك في أن اللغات «السامية»، وبخاصة الآرامية ولهجاتها المختلفة، ظلت مستخدمة من نهر دجلة حتى شاطئ المتوسط. وبقيت المنطقة وحدة ثقافية لا تتأثر بمناطق نفوذ رومة أو الفرس^(١).

استناداً إلى هذا «التجانس» الثقافي النسبي، يبدو أن ملكة تدمر الزبارة التي دعاها الرومان زنوبية، آمنت عقيدة دينية مسيحية ودعمت رمزها الكنسي، بطريك إنطاكية بولس الشيشاطي. وإذا كان لهذا الأمر أن يُبحث في هذا المقام، فليس بين: أولهما أن ثورة تدمر على الحكم الروماني لم تكن ثورة طموح رضاء ضحلة الأعماق، بل كانت تستند إلى عناصر ذات علاقة بالبيئة الفكرية والعقيدية التي تحدث عنها ميلر. ولذا فلا مفر من الاشتباه في أنها كانت على الأرجح تعبيراً سياسياً عن هذه البيئة ومحاولة لتحويل الوعي العقدي المستقل إلى كيان سياسي مستقل. والسبب الثاني، هو أن هذا الجانب الديني في المحاولة الاستقلالية التدمرية ينسب بنهوض شبه استند هو الآخر فيما بعد إلى وحدة العقيدة الدينية، لتنظيم العقيدة السياسية، لدى ظهور الاسلام. وإذا ما قرنت هذه العقيدة الدينية «المستقلة»، بالسلوك السياسي الاستقلالي الذي سلكته تدمر حيال الفرس تارة ورومة طوراً، فقد تتضح في أحضان التاريخ العربي تلك النوازع التي جاء الاسلام لتتوجهها، على رأس حركة الاطلاف التاريخية، بعد ثلاثة قرون ونصف قرن، برفض الخضوع لكلا الامبراطوريتين الشرقية والغربية.

كان اسم زنوبية «بت زبينه» أي بنت الناجر. وكانت على معرفة بالمقديتين

(١) Millar, Fergus: Paul of Samosata, Zeno and Aurelian: the Church, Local Culture and Political Allegiance in Third Century Syria, *Journal of Roman Studies*, 61 (1971), p. 1.

اليهودية والمسيحية. وقد اتخذت المبادئ المسيحية من لونجينوس (Longinus) الفيلسوف الفينيقي، أحد تلاميذ أوريجنوس (Origen)، ومن بولس الشمشاطي الذي تبوأ كرسي بطريركية إنطاكية بعد استيلاء أذينة ملك تدمر على الساحل السوري، إثر انتصار الفرس المهين على الرومان وأسرههم الإمبراطور فاليريانوس (Valerianus). وكان بولس قد نشأ في مدرسة الرُّها اللاهوتية المرموقة، وعُلم أن السيد المسيح مخلوق، وأن الآلوهة أنت إله من الله بالتحاد المثبته ووحدة المحبة. وقد عُقد مجمع في إنطاكية سنة ٢٦٤ م. وحته على تبديل إيمانه هذا، فلما رفض اجتمع ثمانون أسقفاً مرة أخرى وعزلوه من السنة البطريركية. غير أن زنوبية التي تسلمت الحكم في تدمر باسم ابنها وهب اللات، بعد مقتل زوجها أذينة، امتنعت عن التدخل في قرارات المجمع، لكنها تركت بولس في منصبه، ثم هتت رئيساً روحياً ودنياً على الانطاكيين^(١).

ورّد أخصام بولس على آرائه باتهامه باليهودية. ولم تكن التهمة صعبة التصديق. فالمعتقد المسيحية الأولى احتوت على الكثير من المبادئ التي تشبه اليهودية، خصوصاً تلك المفاهيم التي أنكرت ألوهة المسيح. ويقول أحد متقدي بولس إن أنصاره ما كانوا يختلفون عن اليهود إلا في عدم لزومهم السبت واختنائهم. وثمة روايات أخرى عن نزوع زنوبية نفسها إلى اليهودية، وعن تهودها على يد بولس. غير أن تلمود اليهود يروي عن كبرائهم أنهم ناشدوا زنوبية في أحد شؤونهم فكان ردّها عداًياً. ويقول ميلر إن زنوبية لم تكن يهودية مطلقاً. ففي تدمر عاش يهودي اسمه زنوبيوس، ونُقش اسمه سنة ٢١٢ م. غير أن هذا الاسم كان شائعاً في المدينة، وليس من سبب لادّعاء أن في ذلك دليلاً كافياً على تهود الملكة التدمرية. بل إن ثمة دليلاً على الضد. فالمصادر اليهودية لا تشير إلى زنوبية على أنها يهودية. ولو كانت كذلك لكان إغفال الأمر في المصادر اليهودية المذكورة أمراً يدهش إلى المحج^(٢).

(١) Trencham: Christianity among... pp. 61, 62. ولطرد كذلك، حوله على، ج ٣، ص ١٠٩.

١١٩، ١١٢، ١١٠.

Miller, op cit., pp. 12, 13 (٢)

وخاية ما في الأمر أن تاريخ العداء الروماني اليهودي، ربما أوحى إلى أعداء زنوبية في إنطاكية، أن اتهامها باليهودية يبرز أسباب تأليب الدولة الرومانية عليها. وقد كانت الخصومة بين تدمر وإنطاكية خصومة تقليدية ونموذجية، وكذلك الخصومة الرومانية اليهودية.

ويرى باحثون أن أهل تدمر كانوا خليطاً من تجار ومزارعين، أما أطرافها وحواليها فكانوا أعراباً ورحاة. وكانت مدينة يونانية، ولكنها لم تكن مثل المدن الأخرى المتأثرة بالهيلينية في الشرق، ولم تخضع لنظام المدن اليونانية، وكانت خاضعة للرومان وبها حامية رومانية، ولكن خضوعها كان في الواقع صورياً، كما أن الحامية لم تكن شيئاً تجاه أهل المدينة والقبائل المحيطة بها. كانت المدينة، بالرغم من الطابع الهيليني - الروماني الذي يبدو عليها، مدينة شرقية، الحكم فيها في يد الأسر ذات السلطان في البلدة^(١).

أما إنطاكية فكانت فيها جالية يونانية كبيرة كانت تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين عليهم. وكان لهذه الجالية النفوذ والكلمة في المدينة. وكان عزل الامبراطور الوثني أوريليانوس (Aurelianus)، لبولس السيمساطي عن أسفنته لدى سقوط المدينة في يد الرومان سنة ٢٧٢ م. تنفيذاً لرغبة هذه الجالية المتوالية للرومان، في مواجهة أنصار لتدمر كانوا في المدينة أيضاً^(٢).

وقد بالغ البعض في التعبير عن هذه الحال بقولهم في بولس السيمساطي: «إنه كان ذا ميول وطنية [كذا] وقد تحالف مع القوى الوطنية في زمانه ضد التسلط الأجنبي الممثل آنذاك بالحكم الروماني. من القوى الوطنية التي تحالفت معها أسرة أذينة في تدمر وخاصة الملكة زنب التي طمعت إلى تكوين مملكة مستقلة عن الفرس ورومة، تضم سورية ومصر والعراق وآسية الصغرى. وجمعت هذه الملكة العظيمة حولها رجالاً صلاحي الوطنية واجهي العقل مثل لونجينوس (Longinus) الفيلسوف الفينيقي وغيره. وعضدت بولس السيمساطي^(٣) وأوصلته

(١) جواد علي، ج ٤، ص ٨٣.

(٢) المرجع ذاته، ج ٤، ص ١١٩، وكذلك: Miller, op.cit., p. 14.

(٣) بالسبن المهملة، كما يكتبه البعض.

إلى كرسي البطريركية الانطاكية وشئت أزره وبادلها هو الدعم والتأييد، والتفت حوله العناصر الوطنية الآرامية السريانية والقبطية. ونشأ عنه حزب مؤلف من اليونانيين والرومانيين وأتباعهم السوريين المتعلمين وكل من آيد رومة والحضارة اليونانية الرومانية. وكان معظم هؤلاء من سكان المدن وخاصة إنطاكية. رأى هؤلاء في بولس... عنصراً خطراً... فاتفق مجمع في إنطاكية لمحاكمته... وأيد بولس الوطنيون وجميع أعداء رومة والنضوة الأجنبية أي الهيليني الروماني^(١).

إن في هذا القول لغةً عصريةً في غير عصرها. إلا أنه لم يتعد كثيراً في الجوهر، عن رأي لونغينوس الذي قال بلغة عصره، في حكم الرومان: وقد تبلى أطراف الأطفال حبيسةً منكسة كل الانكماش، ومن ثم تقف عن النمو ويصبح الأطفال أقراماً. وهذا هو حال عقولنا الفضة وهي مكبلة بقيود من حزازات الاستعباد وعاداته، فإنها تصبح عاجزة عن التفتح والانتاع وعن بلوغ مستوى العظمة التي كنا نعجب بها في الأقدمين الذين عاشوا في ظل حكومة شعبية وتمتعوا بحرية القول والفعل معاً^(٢). لقد عززت عداوة عدد من الوثنيين البارزين ذوي الثقافة اليونانية لبولس الشمشاطي، الرأي القائل إن العقيدة الدينية لم تكن وحدها موضع الصراع، بل كانت الحوافز السياسية لذلكي النار بين مؤيدي الثقافة والسياسة الرومانية - اليونانية، والثقافة الآرامية - العربية، وما يحتمله هذا الصراع من عتق سياسي وتشعبات دينية وتاريخية. وأما قرار الامبراطور الوثني أوريليانوس التدخل في نزاع بين مسيحيين - وعزل بولس بعد دخول القوات الرومانية إنطاكية سنة ٢٧٢ م. فلم يكن شأنه أن يزيل شبهة الطابع السياسي عن هذا النزاع العقائدي^(٣).

٣- السلوك السياسي الاستقلالي

كانت الامبراطورية الرومانية أمام موقف صعب كذا أن يطيح بجناحها

(١) صمو، الأب بطرس: تاريخ الحوارة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧، ج ٢، ص ٦٥.

(٢) نقل عن لونغينوس: المرجع السابق، ج ٢، ص ١١٥، ١١٦.

(٣) Miller: op.cit., p. 10.

الشرقي في الأزمة التدمرية. لحماية حدودها الشرقية كانت تحتاج إلى إشراك
 العرب في نظام دفاعي يمتلكون عناصره ويمسكون بأزمته. ولقد كانت هذه
 الحاجة مدخلهم إلى الجيش الروماني والإدارة الرومانية، حتى بلغوا السلطة
 الامبراطورية نفسها. ولو شاء العرب أن يسلكوا سلوكاً استقلالياً يُعرض عن خدمة
 الامبراطورية ونشئ مشروعاً سياسياً عربياً منفصلاً، لأصبح حُماة الحدود
 الرومانية هم مشكلتها في الوقت عينه. كانت تلك على الأرجح هي مشكلة رومة
 حين بدا في سنة ٢٦٠ م. أن تدمر قد أخذت فعلاً تلك هذا السلوك
 الاستقلالي. ففي تلك السنة هزم شهور الأول ملك الفرس إمبراطور رومة
 فاليريانوس وأسرته. وإذا كان سارع أذنته ملك تدمر إلى سد الفراغ الروماني. كان
 أذنته لدى احتلاله العرش سنة ٢٤٧ م. قد فاتح إمبراطور الفرس الفتي شهور
 الأول في أمر التحالف، غير أنه لقي صدّاً. كانت تدمر في حاجة إلى مصادقة
 شهور لرواج تجارتها. ثم عاود أذنته على ما يبدو عرضه الأول في هجوم شهور
 على سورية سنة ٢٥٨ م. بعدما قهر الفرس ديرة وحاصروا الحضر واجتاحوا
 نصيبين وحران وإنطاكية. ويروي أنهم: دارسلوا إليه عند استخوانه على سورية
 وفوداً وهدايا نفيسة راغبين في موالاته. فالتقى سابور [شهور] الهدايا في النهر
 ومزّق الرسالة التي دفعها الوفد إليه وقال إنه لا يريد موالاته بل خطراً مطلقاً
 لسلطته... فاستشاط [أذنته] من معاملة سابور لوفده وبث بين قومه أن الحرب
 ضربة لازب لاصلاح شأنهم وإنحام ثلثة شرفهم. واستدعى شهور العرب
 وذكرهم بتخريب سابور عطرة [الحضر على الأرجح] مدينتهم، وأفصح لهم في
 بيان ضياع حريتهم وفروقتهم، إن قوّي سابور على تقليص سلطة الرومانين من
 سورية... لعلّأوه وتألبوا إليه وتضافروا على حرب الفرس، وكان في تدمر حامية
 رومانية لفضتها أذنته إلى رجاله وإلى جيش العرب ولحق بهم كل من فر من
 سورية حتى كان لأذنته جيش عرمرم زحف به نحو معسكر الفرس من جهة
 الجنوب... فوجس سابور وسار بجيشه نحو الفرات تاركاً وراءه حاميات أبادها
 أذنته بهجافله... وكان أذنته مُجهداً في لحاق الفرس، والرجال من بلد وحضر
 يزدحمون إليه من كل فج... وسوّلت إليه نفسه أن يسترد ما بين النهرين، فمال

ما أمل وتنبَّح آثار تراهانوس وسينيموس ساويروس إلى طيسفون حيث كانت له وقعة مع الفرس استحوذ بها على جانب من خزائن سابور وسى بعض حرمه على أنه لم يستطع أن ينقل فللرهانوس من الأسره^(١).

ونحن من هذا أن أذينة كان يستند إلى شيوخ العرب، وأن مدينتهم الحضر كانت محل تأثر بين العرب والفرس. ولعل تدمير التي جعلت من مدن العرب فيما بين النهرين جزءاً من نظامها التجاري، كانت تريد استرداده دورها التجاري الذي يبدو أن الفرس دمروا أدواته ومرافقه شرق الفرات. فإذا صح ذلك فإن مفاتيح أذينة لشهور في احتمال عقد تحالف تدمري - فارسي، حفزتها رغبة تدمير في حماية هذا الدور التجاري وجعله في مأى عن النزاع بين رومة والفرس. وقد تمكن أذينة فعلاً من تحرير الجزيرة الفراتية ونجح نصيبين وحران، ولستره إنطاكية ودخل عاصمة شهور: طيسفون. وبدا ازدادت حاجة رومة إلى تدمير وازدادت تدمير إدراكاً لقوتها ومكانتها.

ولعل ثقافة زنوبية اللغوية والفلسفة والتاريخية^(٢) زوّدت زعامة تدمير بالطموح السياسي الضروري لاكمال مشروع الاستقلال. وكان هذا المشروع أعمق جذوراً وأبعد نظراً من مجرد الطموح إلى السيطرة، الذي ذكره فلاوم^(٣). كانت ثقافة زنوبية عربية ومصرية فوق معرفتها اللاتينية واليونانية. وهذا الأمر يشجع على الاشتباه في أن النظرة التاريخية إلى الصراع مع رومة لم تكن ضحلة أو خالية من الحوافز السياسية العليا. يبدو أن استيلاء زنوبية على المقاطعة العربية ودخول جيشها مدينة بصرى، ثم دخوله مصر، إنما كان دخولاً في

(١) المبرس، المطران يوسف: من تاريخ سورية المموي والعباسي. لا يشر ولا يحدد ولا تاريخ، مضمون من الطبعة الأصلية. ج ١، ص ٢٧، ٢٨. وأيضاً كذلك: حوت علي. ص ٢٠٠. ج ٢ ص ١٩٨، ١٩٩، و ٢٠٠، ٢٠١. *Triumphism. Christianity among ...* pp 60, 61. ومن العربي، أبو الفرج غفريردوس الملقب: تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت. بلا تاريخ ولا سطوح. ص ٧٦.

(٢) فيون: ج ١، ص ٢٦٥.

(٣) Pflaum, H G: La Fondation de la ville d'Adraha d'Archie (250 - 260, à 274 - 275).

, d'après des inscriptions récemment découvertes, Syria 20 (1952), p. 323

المجال الطبيعي الذي يوافق هذا الطموح السياسي ويناسبه. فأعلنت زنوبية أنها مصرية من نسل كليوباترة، وساعدتها حرب مصر ساعدت كبيرة، ولا سيما فيما جرى من قتال حول حصن بابلون الذي عُرف بالفسطاط فيما بعد. ويظن بعض الباحثين أن تيماجنس الذي كان من زعماء الحزب التدمري في مصر، كان هربياً واسمه تيم الجن، وكان مُبغضاً لرومة. وقد استندت زنوبية في تشكيل جيوشها إلى العرب أصلاً، حتى قال الامبراطور كلاوديوس (Claudius) في رسالته إلى مجلس الشيوخ ومدينة رومة، وهو في طريقه لمحاربة تدمر: «إن جيجني ليندي خجلاً كلما تذكرت أن جميع الرماة بالقسي هم في خدمة زنوبية». ولما حاصر الامبراطور أورليانوس زنوبية وطلب إليها الاستسلام عند أسوار تدمر رقت عليه بقولها: «ها أنا في متظرة عقد الفرس والأرض والعرب... لكسر شوكتك»^(١). وقد أخفق فلاوم في فهم جلود النزاع حين قال: «إن سنوات السيطرة التدمرية لم تشهد مواصلة أعمال التحصين في المقاطعة العربية، وهي أعمال لم تُستأنف إلا في عهدي أورليانس وبروبوس (Probus) الامبراطورين الممتازين اللذين اهتمّا بحماية سكان المدن من هجمات الأعداء»^(٢). فلم يقل من هم سكان المدن ولم يقل من هم الأعداء، ولو دقق في هذين الأمرين لتبين أن زنوبية لم تكن تسعى إلى مشروع سياسي يجعل حصوناً عند المقاطعة العربية، لأن جانبي هذه الحدود كان يسكنهما العرب. ولم تكن تلك هي الرؤيا السياسية الرومانية بالطبع.

وعلى الرغم من أن اتصال زنوبية بالفرس طلباً للمساعدة^(٣) قد يوحي أن اعتمادها على العرب يمكن أن يؤخذ في سياق الاستعانة بمن يمكن، إلا أن شبه الاجماع العربي حل إسنادها بكاد لا يترك شكاً في أن مشروعها السياسي كان

(١) جواد علي، ج ٢، ص ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، وكذلك: Seyrig Les Inscriptions de Boursa, Syria, 22 (1941 a), pp. 46, 47

(٢) Pflaum: op.cit., p. 324. ويختلف خلاف قول فلاوم إن التحصينات توقفت في عصر السيطرة التدمرية. انظر: Graf: op.cit., p. 13

(٣) جواد علي، ج ٢، ص ١٢٥.

يرمي إلى إنشاء دولة عربية مستقلة^(١). وفيما يعتقد غيرون وهو يذكر حقراً
الامبراطور أورليانس من سكان إنطاكية أن الذين ناصروا زنوبية، إنما ناصروها
وكرهاً بحكم الضرورة، لا طواعية واختياراً، فإن غيرون نفسه ينفي صفة
الاضطرار في قوله إن العرب كثيراً ما اخلوا بزعمون أورليانس في الصحراء بين
حمص وتدمر، لدى توجهه من إنطاكية إلى تدمر، وأنه لم يكن يستطيع حماية
جيشه^(٢). بل ينفي هذا الأمر أن ثورة حدثت في مصر على حكم الرومان، بعد
وصول نبا سقوط تدمر سنة ٢٧٣ م. وتتمكن زعيم هذه الثورة من تشكيل جيش
واستولى على الاسكندرية. لم تكن تدمر حتماً في حالة تسمح لها بفرض حكم
والكره والضرورة آنذاك على المصريين، بل كانت تحمل على الأرجح راية
مكسورة لمشروع استقلالي مبهض، لم يكتب له أن يتصره في ذلك العصر.

وكان سقوط تدمر إلهاداً بيده رومة مرحلة جديدة في سياساتها حيال حدودها
مع الفرس وخطوط التجارة الشرقية. ولعل دراسة رد فعل السياسة الرومانية على
المشكلات التي واجهتها في مسألة ضمان النافذ الأمانة إلى خطوط التجارة
الشرقية، واضطرابها إلى تبديل هذه السياسة وفقاً للظروف المتغيرة، ولعل دراسة
هذا الترق العربي الغامض الساعي إلى الاستقلال بوسيلة لو بأحرى، والتروء بين
الامتثال لرغبات القوتين الكبيرتين وبين الشعور أحياناً بالنفث والقوة إلى درجة
الطموح إلى الاستقلال، لعل في هذه الدراسة كشفاً من حذور مشروع كامن ظل
يتمثل في نفوس العرب في بادئة الشام والحزيرة العربية، فهو حياً وستر
أحياناً، حتى استطاعت مكة أن نعد بالآلاف صيغة يمكنها أن تجنب
النكسات القاتلة.

إن أفضل ما يمكن لهذه العروة إلى عصور ما قبل الألف أن تضعه، هو
استكشاف المصور السالفة ومحاولة العثور على بلور ماضية لذلك الصراع الكبير
بين بيزنطة والفرس، وعلى بلور أخرى للمشروع العربي المظلّم لم يقبض لها

.Gubrich op cit. p 10. of Trismingham Christianity among... p. 6 (1)

(٢) غيرون: ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١.

أن تنمو، فوئلت باكراً. ذلك أن مقارنة تلك البلور بالبلور التي زرعها الإلهاف،
قد تنطوي على تفسير لاختلاف نتائج كل منها.

وأباً: ما بعد تدمير

١- البحث عن سياسة حدود

يعتقد بعض الباحثين أن انهيار الدول المتاخمة للصحراء السورية، دولة
الأنباط سنة ١٠٦ م، والدويلات التجارية فيما بين النهرين سنة ٢٢٧ م، وأخيراً
دولة تدمر سنة ٢٧٣ م. قد أحدث نزوحاً إلى البداوة بين عدد من سكان المدن.
ويرى كاسكل أن هؤلاء السكان الذين استقروا في المدن التجارية أصلاً ليشكلوا
فريق العمل اللازم لتجارة القوافل، عادوا إلى التبدّي بعد تفكك طرق التجارة
وانهيار الدولة التي قامت عليها، فانصرفوا إلى النهب والسلب لضمان عيشهم،
فنشأ من هذا «بُدُوَّة» المقاطعة العربية، أي إعادة دمج المزارعين إلى البداوة،
بعدما حدث عكس هذا في القرن الأول، عندما حوّل الرومان التجارة، من الخط
الحجازي - النبطي إلى الخط المصري. ويؤيد هذه النظرية أن الرومان باثروا
بعد سقوط تدمر شنّ حملات على القبائل البدوية، ودعم نظام الحصون
الحدودية^(١).

ولما كانت تدمر قد جندت وحدات عديدة من الرماة والفرسان، وشكّلت
منطقة حازلة ترد هجمات الفرس أو تخفف اندفاعها، اضطر أورليانس في أولي
مهامه العسكرية بعد سقوط تدمر، إلى تعزيز الدفاع عن الحدود الشرقية، التي
أضعفها الصراع. فأمر بوضع وحدتي الخيالة العربيتين على الطريقين المُفضّلتين
من تدمر إلى كلٍّ من حمص ودمشق وضمن بذلك السيطرة على أهم الطرق
السورية. ولا شك في أن وضعه الوحدة التمودية في منطقة النقب في جنوب
فلسطين كان يرمي أيضاً إلى إعادة الهيبة إلى السلطة الرومانية هناك بعد الأزمة
التمدمرية. ونُقل الخيالة التموديون المعسكرون في مصر إلى حدودها لتعزيز
الدفاع في مواجهة القبائل. ولعل نقل إحدى الكتائب من القدس إلى أيلة ووضعه

كتيبة أخرى في اللّحون (شمال شرق القدس) في المقاطعة العربية، كانا يدرّجان ضمن هذه الخطة العسكرية أيضاً. ولم يستمدّ غراف أن يكون أورليانس قد فكّر، بعد انهيار نظام الشبكة التجارية التدمرية عبر الفرات، في إحياء طريق التجارة عبر الجزيرة العربية من جديد^(١).

لم تكن هذه الإحراءات كافية بالطبع لطمأنينة الفلقة الرومان على حدود الإمبراطورية الشرقية. بل أخذت نشط أعمال تحصين المدن في المقاطعة العربية. وتُسبب بعض الباحثين هذه الأعمال إلى رغبة رومانية في مواجهة الهجمات الفارسية قبل سقوط تدمر. إلا أن اتحاذ الهجمات الفارسية صوب الجزيرة الفراتية وشمال سورية قبل السقوط، واستمرار أعمال التحصين بعد سقوط تدمر يرجحان الرأي أن هذه الأعمال كان غرضها حماية المواقع الرومانية من هجمات القبائل العربية^(٢).

وتابع الإمبراطور پروبوس (Probus: ٢٧٦ - ٢٨٢ م.) سياسة سلفه أورليانس هذه، فعزّز تحصين درعا وبُصرى^(٣)، لكن ديوكليتيوس هو الذي ثبت نهائياً سياسة الحدود الشرقية فأشاد خط التحصينات المعروف باسمه واستراتا ديوكليسيانا (Strata Diocletiana) بعدما قضى على حملات البدو في سنة ٢٩٠ م.^(٤) ويعتقد غراف أن قوة رومة (ثم بيزنطة) ضَعُفت في شمال الجزيرة العربية، لهما ضعفت قوة الدول البسيّة في حوضاء بين الفرتين الثالث والسادس، بسبب هذه «البُذُونَة» التي أعادت كثيراً من العرب إلى الصحراء. ويرى أن هذا التطور ابتلع دولة لحيان في شمال الجزيرة العربية ونشر القتاتل الرحل بكثافة على تخوم المدن في الصحراء السورية. ولذا كان على بيزنطة ودولة الفرس أن تعملوا بكل الوسائل المتاحة لهما، من أجل استيعاب الوضع

(١) Ibid. p. 19. وفي شأن موقع اللّحون التي سمّاها عرب Bishmo، انظر Barb-Sarraf، في

New & New School Atlas of Universal History, Liverpool, 1953

. Pflaum: op cit., p. 322 (٢)

. Ibid. p. 321 (٣)

. Trencham: Christianity among ... pp. 88, 93 (٤)

الجديد ومحاولة احتوائه^(١). وسياسة الحصون المحدودة لم تجد كثيراً في الماضي، ولم يكن ممكناً أن تكون كافية بعد هذا التحول الخطير. لقد عادت رومة بعد انهيار تدمر إلى مواجهة المشكلة المحيرة: فإداة ردع قبائل العرب لا يملكها ويحسن استخدامها إلا العرب أنفسهم، وأثبتت تدمر أنها قادرة على أن تحتوي القبائل الخطرة، وعلى أن تتحول هي نفسها إلى مصدر خطر على رومة، حالما تصبح قادرة على الدفاع عن رومة. كانت رومة تريد تشكيل القوة القادرة على الدفاع عن حدودها الشرقية دون أن تشكل هذه القوة خطراً على هذه الحدود. وكان هذا الحال المثالي مستحيلاً. فعادت رومة مضطرة، إلى اعتماد الحل الخطير: أي ردع البدو بواسطة «دولة» عربية تحت وصايتها، ويبدو أن الفرس أيضاً لم يجدوا حلاً أفضل. وكان ذلك الحل منشأ دولة المناذرة اللخمين في الحيرة تحت سيطرة الفرس ورعايتهم^(٢)، ومنشأ «دولة» امرئ القيس صاحب نقش النخاعة الشهير في الصحراء السورية، الذي توفي سنة ٣٢٨ م.، بعدما مدَّ سلطانه على «جميع العرب» على ما أقر في نقشه، فأخضع أسداً وتوخ وقبائل نزار واجتاح ديار ملجج، وانتصر في نجران وطوق مَعْدَا^(٣)، فامتد ملكه في القبائل من الفرات إلى تخوم اليمن، إذا صحَّ ما أقامه النقش الأثري.

إضافة إلى تعزيز الحصون المحدودة واعتماد سياسة الدول الركيلة، التي يتولاها «ملوك» معتمدون، من العرب الرتل أو أشباه الرتل، اتخذ ديوكلسيانوس سلسلة إجراءات إدارية لتعزيز رقابة الإدارة الرومانية على الحدود، فضم إلى مقاطعة فلسطين ما كان يشكل جنوبي غربي دولة الأنباط البائدة، وهذه منطقة لا يقطنها سوى العرب، ومنها مدن سواحل سيناء. أما المقاطعة العربية لغوضها من هذا الاقتطاع بضم جزء من سهل دمشق إليها. ودعم هذه الإجراءات الإدارية

(١) Graf: op.cit., pp. 17, 18

(٢) Rablath: L'Orient Chrétien..., p. 136

(٣) Shahid, Irfan: Philological Observations on the Namara Inscription, Journal of Semitic

Trimingham: Christianity among ... وانظر أيضاً Studies, vol 24, No.1, 1979, pp 33 - 42

ويرى بعض الباحثين أن امرئ القيس هذا هو نفسه امرئ القيس البديع بن

عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر مؤسس دولة الحيرة اللخمية.

بمناقلات عسكرية عززت الإشراف على جنوبي فلسطين. لتحسين مراقبة رأس الخط التجاري إلى البحر الأحمر، وكذلك مراقبة تحرك القبائل العربية، في شمال الحجاز^(١).

ب- سياسة القرن الرابع

كانت بداية القرن الرابع إلذاناً بمرحلة جديدة في سياسة الحدود الشرقية، الرومانية - البيزنطية، امتدت بشكلٍ أو بآخر، حتى القرن السابع، قبل ظهور الإسلام. ففيما عادت رومة في عهد ديوقلسيانوس اعتماد سياسة «الدولة العربية الوسيطة»، تميزت المرحلة الجديدة بتدخل رومة، ثم بيزنطة، تدخلاً أوثق بشؤون هذه «الدولة الوسيطة». كانت دولة الأنباط، ودولة تدمر «مناطق عازلة» بين رومة والفرس، وبين رومة والعرب البدو، وكانتا تتعمدان باستقلال واسع النطاق في كثير من الأحيان. لكن هذه المناطق العازلة أزيلت، وحلت محلها «الدولة الوكيعة»، الخاضعة لإشراف الإدارة الرومانية من كتب، ضمن حدودها الإدارية. لقد نعم امرؤ القيس التوخي صاحب نقش النخوة، الذي عاصر قسطنطين الأول، بالاستقلال الذي تمت به «دولة المناطق العازلة». لكن هذا الاستقلال لم يمازس إلا خارج حدود الامبراطورية، حيثما امتد سلطان امرؤ القيس في صق جزيرة العرب. أما سلطته داخل حدود الدولة البيزنطية، فظلت محدودة جداً. ويبدو أن اعتناق امرؤ القيس المسيحية بفتر جائباً من حوافز هذا الملك العربي على خدمة الدولة الرومانية خارج حدودها، وكذلك بفتر انتقاله إلى الجانب الروماني، وهو ملك الحيرة اللخمي^(٢). لكن ثمة أدلة على أن كلاً من الإمبراطورين الفارسية والرومانية سعى إلى خدمات هذا الملك اللخمي. واستمر الفرس على هذا مع خلفائه بعد وفاته، أما الرومان فآثفوا لأنفسهم ملوكاً آخرين تولوا على مهنة حكم «الدولة الوكيعة» حتى أوقف جستينوس (Justinus) الثاني في النصف الثاني من القرن السادس العمل بهذه

(١) Graf, op. cit., p. 19. وانظر أيضاً: Tringham, Christianity among ... p. 89.

(٢) Shaked, Iran: Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, (٧).

Graf, op. cit., p. 16. وانظر أيضاً: Washington, 1926, pp. 31 - 33.

السبب^(١) بعض الوقت، بسبب خلافه مع الملوك الفساسة. وليس من شك في أن جميع «الدول» العربية الوسيطة التي اصطفتها رومة، ثم بيزنطة، في مناطق الحدود بينهما وبين دولة الفرس، كانت تنعم بمقدار من الاستقلال، براوح بين الاستقلال الكامل الذي بلغته تدمر في إحدى مراحل صراعها مع رومة، وبين الوكالة المقيدة التي تتميز بها حال دولة الفساسة في أواخر القرن السادس. وكان مقدار الاستقلال مرهوناً بعدد من العوامل، منها سياسة الإمبراطور، وحال الحرب مع الفرس، وحيوية الأسرة العربية الحاكمة، وقلة رومة أو بيزنطة على تقليص مجال تحرك هذه الأسرة، وحالة القبائل العربية في مناطق الحدود، وما إلى ذلك. لكنه لا ريب في أن الطابع العام الغالب على الدول العربية الوسيطة قبل سقوط تدمر، كان أشد ميلاً إلى الاستقلال الذاتي، فيما ازداد تدخل رومة وبيزنطة في شؤون هذه الدول العربية الوسيطة بعد سقوط تدمر. ولعل هذا هو الفارق الأول الذي حدث في سياسة الحدود الشرقية ابتداء من القرن الرابع.

أما الفارق الثاني فهو أن اطمئنان رومة لقام دولة مثل تدمر، ترد ضربات الفرس، وتنظم التجارة معهم، وتتحول من حين لحين إلى مصدر خطر على الدولة الرومانية في الشرق، دفع بهذه الدولة إلى عدم الركون إلى هذا النمط من الدولة العربية الوسيطة وإلى البحث عن شبكة تجارية أخرى لتسيير تجارة الشرق إلى الأسواق الرومانية. وقد نشأ من هذا التبدل في السياسة الرومانية أن الاهتمام بالبحر الأحمر الذي شهد ركوداً في عصر تدمر تعاضد من جديد في القرنين الرابع والخامس. فتعزز دفاع الرومان ثم البيزنطيين عن الحدود الشرقية في شمالي الحجاز وشرق الأردن، من أجل توفير الحماية لمداخل البحر الأحمر من الشمال. كذلك ازداد اهتمام رومة ثم بيزنطة باليمن وبالتحالف مع الأحباش من أجل ضمان مداخل البحر الأحمر من الجنوب، وتجنب احتمال قيام دولة معادية، أو متحالفة مع الفرس، في هذه المنطقة. وقد تحول الصراع السياسي في هذا الشأن إلى صراع مسيحي - يهودي تولى فيه المسيحيون في اليمن إجمالاً الدفاع عن مصالح رومة وبيزنطة، ومال اليهود إلى مناوأة هذه المصالح دائماً، ومخالفة

الفرس أحياناً. وقد بدأ هذا الصراع السياسي يتخذ ملامحه هذه منذ مطلع القرن الرابع، ولكنه وصل إلى ذروته السياسية والدينية في القرن السادس، على ما سنرى لاحقاً.

ولا بد هنا، بعد هذا التحول نحو البحر الأحمر في سياسة رومة حيال تجارة الشرق، من أن نلاحظ أثر هذا التحول في طبيعة «الدولة العربية الوسيطة» التي اصطنعتها رومة ثم بيزنطة في بلاد الشام، بعد سقوط تدمر. لقد كانت دولة الأنباط في عصر ازدهار البتراء، ثم في عصر ازدهار بصرى، وكانت دولة تدمر، دولتين ذواتي طابع عسكري دفاعي وطابع تجاري في آن. وكانت لكل منهما شبكات تجارية تولّت في زمن من الأزمان تسير تجارة الشرق إلى أسواق رومة، فأنت هرضين كبيرين على الأقل، هما الدفاع عن الحدود الشرقية ثم تنظيم وتسيير التجارة الشرقية. فلما تحولت أنظار رومة بعد سقوط تدمر، صوب طريق البحر الأحمر التجارية، وأقلعت إلى حد بعيد عن الاعتماد بطريق الفرات نحو الخليج، تقلّصت مهام «الدولة العربية الوسيطة» في الصحراء السورية، من مهمتي تنظيم الدفاع والتجارة، إلى المهمة الدفاعية وحدها تقريباً، فقلبت عليها الصفة العسكرية. ولعل في هذا تفسيراً لازدهار العمارة ومظاهر الفنى في دولة الأنباط ودولة تدمر، مما لم يظهر في دولتي سلجق وبني هاشم في القرنين الخامس والسادس، إذ رجعت في هاتين «المملكتين» صفة الغزو والقوة العسكرية، وضمير إسهامهما في التجارة إلى أدنى الحدود.

ج - القرن الرابع على جانبي الفرات

لم تكن سياسة مراقبة «دولة العرب» من كتب إيلدانا يروضخ البدو للفرس والرومان، وحل مشكلتهم، بل كانت بالأحرى دليلاً على تعاطف هذه المشكلة وغروج الأعراب على الطرق الذي كانت تدمر تحترقهم فيه. ولعل من أهم الظواهر العسكرية في مطلع عصر «البتونية» الذي سلف ذكره، غزوة عربية كبيرة اجتاحت بلاد الفرس حين كان شهور ذو الأكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩ م.) صيفاً في المهد. وقد روى الطبري هذه الغزوة بقوله: «وكانت بلاد العرب أدنى البلاد إلى فارس وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من تعاطيهم وبلادهم لسوء

حاليهم وشظف عيشهم، فصار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية بلاد
عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أنشأوا على ليوانشهر وسواحل أردشير خُرة
وأسياف فارس، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعايشهم وأكثروا الفساد
في تلك البلاد فمكثوا على ذلك من أمرهم حيناً لا يمزوهم أحد من الفرس
لعمدتهم تاج الملك على طفل من الأطفال وقلة حيلة الناس له... حتى تمت له
ست عشرة سنة وأطاق خُمَل السلاح وركوب الخيل واشتد عظمه... فلوقع بمن
انتجع بلاد فارس من العرب وهم غارون، وقتل منهم أبرح القتل وأسر أعنف
الأسر وهرب بقيتهم، ثم قطع البحر [الخليج] في أصحابه فورد الخط واستقرى
بلاد البحرين يقتل أهلها ولا يقبل فداء ولا يخرج على شهامة، ثم مضى على
وجهه، فورد هجر وبها ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فافشى
فيهم القتل وسفك فيهم من الدماء... ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد...
ثم أتى اليمامة فقتل بها مثل تلك المقتلة... ثم أتى قرب المدينة فقتل من وجد
هنالك من العرب وأسر ثم عطف نحو بلاد بكر وتغلب فيما بين مملكة الفرس
ومناظر الروم بأرض الشام فقتل من وجد بها من العرب وسبى^(١). وقد أكد
غيبون هذه الواقعة إذ نسب الهجمة إلى ملك «يمني أو عربي يدعي ثيرة وروى
انتقام شهبور»^(٢).

غير أن العرب عاودوا الظهور في تاريخ الفرس والرومان بعد نحو من عشر
سنوات أو ثلث، ضمن جيوش كل من الإمبراطوريتين، عندما شنَّ شهبور هجمته
على حدود الروم في الجزيرة الفراتية وما يليها، سنة ٣٣٧ م.^(٣) ولعل العرب
الذين كلفهم شهبور معاونته في حربه الطويلة مع الرومان كانوا من حرب الحيرة
الذين استرضاهم لتجنيدهم في جيشه. كذلك اجتمع للرومان في جيشهم عدد
غفير من المقاتلين العرب «للانتقام من شهبور وما كان من قتله العرب» حل قول
الطبري. وقد دخل الرومان عاصمة الفرس طيسفون بمعونة العرب، لكن يُقال إن

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٩٦، ٩٧.

(٢) غيبون: ج ١٦، ص ٥٥٣.

(٣) ابن المبري: ص ٨١.

وصاة من العرب أيضاً قتلوا الإمبراطور الروماني يوليانيس (Julianus: ٣٦١ - ٣٦٣ م.) وهو في عزّ حكمه هذه، فسارع الإمبراطور الجديد يوليانيس (Jovianus: ٣٦٣ - ٣٦٤ م.) إلى مهادنة شهور ونسليمه نقيضين. ونُسب إلى العرب أنهم قتلوا يوليانيس لأنه أوقف دفع الأعطيات إلى زعماء قبائلهم، وقال مقالته الشهيرة التي أودت به: «الإمبراطور الشجاع المقدم قوته في الحديد لا الذهب»^(١).

ويذكر المؤرخ أميانوس مارسلينوس أن يوليانيس لما بلغ الفرات ليلحق بالأسطول الذي بناه هناك وسير لمحاربة الساسانيين وينقل جيشه إلى حيث يلاقي جيشهم، قُتِلَ له قاتل عربية فروض الطاعة، وأضاف قوله: «إلا أن هؤلاء أناس لم يكونوا يُعرفون هل هم أعداء أو أصدقاء، ولذا صر الروم على حلبي شديد منهم، خشية الانقلاب عليهم عند الشدائد»^(٢).

ويستدل من هذه الروايات عن تلك الحرب التي استمرت من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٦٣ م. أن مشكلة الإمبراطوريتين مع القبائل العربية لم تتحل في القرن الرابع، وإن تبدلت سياستها حيالها. فالقبائل العربية كانت تحارب إلى جانب كلا الفريقين، لكنها لم تكن معقودة الولاء لأي منهما، إلا فيما تقتضيه مصلحتها. وقد درج المؤرخون في ذلك الزمن، وبخاصة الرومان والبيزنطيون وعلى رأسهم أميانوس المذكور، على وصف القبائل العربية بالفخر وما شابه، لأن الرومان ومن بعدهم البيزنطيون كثيراً ما كانوا يحجزون بوسائلهم عن حماية الحدود، فيُضطرون إلى استئجار قبائل العرب، ويتوقعون من هذه القبائل أن تُهزبهم النصر. ثم تُقبل مختارة على الرضوخ والخضوع لتلك الدولة التي ما انتصرت إلا بفضلهم. ولذا رلحت سياسة رومة ثم بيزنطة. وسيلة الفرس

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٦٧ - ٧٠، وابن المقري: ص ٨١، ٨٢، ريب في القري
 لقل يوليانيس إلى الفرس وحالته الآخرين. وصيون: ج ٢، ص ٨٨، وجراد علي: ج ٢، ص ٦٦١ - ٦٦٣، وانظر أيضاً: p. ٩٤ ... *Trammaham. Chrestomathy arabica*.

(٢) جراده علي: ج ٢، ص ٦٦٢، ٦٦٣.

كذلك، بين التوقد للعرب واسترضاء لباثلهم تارة، والحق عليهم ومحاربتهم تارة.^(١)

ولم تكن النظرة إلى العرب في الجانب الغربي والجنوبي من الصحراء السورية مختلفة. وقد وظف الرومان طوال هذا القرن الرابع على محاولة تحسين دفاعهم في حوران وشرق الأردن وفلسطين من أجل ضمان خطهم التجاري عبر البحر الأحمر. وفي سنة ٣٥٨ م، كان جنوب فلسطين كله قد اقتطع ليشكل منطقة إدارية على حدة وكان يسكنها العرب وحدهم وبهم قائدها في الخلصة، جنوب بئر السبع. كان معظم السكان في هذه المنطقة من البدو، لكن بعض مدنها كانت كبيرة نوعاً، ومنها الخلصة نفسها وأيلة والبراء. وضمت المنطقة كذلك قرى زراعة عديدة^(٢).

وشهدت هذه المنطقة في النصف الثاني من هذا القرن، وعلى وجه الدقة بين ٣٧٥ و ٣٧٨ م.^(٣)، حرباً كبيرة يشبهها بعض المؤرخين بحرب تدمر على رومة. ذلك أن قائد هذه الحرب وهي امرأة تدعى «ماوية» تولت زعامة القبائل العربية بعد وفاة زوجها، وجمعت من حولها عرب المنطقة، وشنت حرباً ظالمة على جيوش رومة، بعدما يزيد قليلاً على مائة سنة، منذ الحرب التدمرية. وقد أفرغ شهيد في كتابه: «بيزنطة والعرب في القرن الرابع» صفحات كثيرة لإمالة اللثام عن تاريخ هذه الملكة العظيمة. واشتبه في احتمال أن يكون زوجها أو تكون هي نفسها من أسرة امرئ القيس صاحب نقش النمارة، لقيام سلطانتها شرقي حوران في الأصل. لكنه لم يستبعد أن تكون ماوية هي أرملة الحواري، آخر الملوك التنوخيين المذكورين في المصادر العربية الإسلامية. وقدّر أن ملكه كان قائماً سنة ٣٦٠ م. حتماً، وربما كان قبل ذلك^(٤). وقد بدأت ماوية ثورتها المسلحة على رومة بعد موت زوجها. لكن هذه الثورة التي امتدت إلى شرق

(١) Shahid: Byzantium and the Arabs... pp. 239 - 283

(٢) Tronningham: Christianity among... p. 89

(٣) Shahid: Byzantium and the Arabs... pp. 183, 184

(٤) Ibid., pp. 141, 142

الأردن وفلسطين ولبنان (أي الصحراء السورية غرب الفرات)، ومصر، وقطعت خطوط التجارة الرومانية إلى مداخل البحر الأحمر. لم تتخط مع ذلك طابع حرب تجارية^(١)، بل ظلت في كل مراحلها حرباً دينة الحواضر والأغراض على ما يبدو. فكانت مأوية من أنصار مجمع نيقية في شأن الإيمان المسيحي، فهما كان الإمبراطور فالنس (Valens) أرويسياً. فلما انتصرت على جيوش رومة فرضت شروطها للصلح، ومنها تعين الراهب موسى أسقفاً على العرب. ولم تتضمن الشروط الأخرى ما يوحي أن المسائل التجارية أو الولوج إلى البحر الأحمر، موضع نزاع في هذه الحرب^(٢). هذا على المدخل الشمالي إلى البحر الأحمر. أما على المدخل الجنوبي فكان الوضع مختلفاً.

٥- القرن الرابع في اليمن

بدأ القرن الرابع في اليمن باجتياح حبشي. وتختلف تسميات المصادر للملك الحبشي الذي كان التزول في اليمن في أيامه. فمن قاتل إن اسمه قذبة^(٣)، ومن قاتل إنه شمر بهر عش^(٤). وقد يكون غلبه هو ملك الحبشة الذي استعان به شمر ذو ريدان بين سني ٣٠٠ و ٣٢٠ م. حتى قيام ثورة يمنية ضد الأحباش، قادها ملك سبأ الشرح (بحضب، سنة ٣٢٠ م) وملك كندة، فاستدعت تدخل امرئ القيس بن عمرو، وهو التدخل الذي ذكره هذا الملك متأخراً على شاهد قبره في النجارة. وعلى رغم صعوبة الوصول إلى رأي قاطع في شأن التواريخ الدقيقة والأسماء، بما يتوافر إلى الآن من عاصر البحث التاريخي الذي يتناول هذه الحقبة من تاريخ اليمن، إلا أنه لا شك في أن الحبشة في ذلك العهد كانت على صلات حنة بالرومان من الجانبين السياسية والتجارية. ولذا لا يُستبعد أن يكون الإمبراطور قسطنطين الأول قد أوعز إلى

(١) Ibid., p. 149.

(٢) Ibid., pp. 142, 143. وانظر أيضاً حماد علي: ج ٢، ص ٣٩٥-٣٩٧.

(٣) حماد علي: ج ٣، ص ٤٥٥. وحمل ترجمته تاريخ الفضل الحبشي هذا في اليمن من

٢٧٧ م. و ٢٩٠ م. أنظر: Trimmingham (Christianity among ... p. 36.

(٤) Trimmingham: Ibid., p. 94.

حليفه العربي امرى القيس أن يهتب إلى نصرة النفوذ الحبشي والبيزنطي في
 المحنة التي ألمّت به^(١). وفي هذا الأمر تفديراً مخالفاً لرأي جواد علي الذي
 ارتأى احتمال اصطدام امرى القيس بشمر يهرش^(٢)، وهو احتمال ضعيف،
 بل مستبعد، لأنه لا يأخذ في الحبان المحالفة الثلاثة بين امرى القيس
 وبيزنطة والأحباش في ذلك العصر.

ويعتقد ريكمنس أن الأحباش عاودوا احتلال اليمن نحو سنة ٣٣٥ م. ودام
 احتلالهم حتى سنة ٣٧٠ م.^(٣) وفي أثناء هذه المرحلة من الحكم الحبشي
 تنصّر ملك الحبشة عزيانا، على يد المبشر فرومونتوس (Frumentius) الذي أوفده
 الإمبراطور قسطنطينوس (Constantius) الثاني (٣٣٧ - ٣٦١ م.)، في العقد السادس
 من ذلك القرن. وفرض الملك الحبشي النصرانية على الأحباش وأعلنها ديناً
 رسمياً لمملكته ولليمن. وقد نصّر ثيوفيلس (Theophilus) اليميني في سنة
 ٣٥٤ م. تقريباً، أي في زمن تنصّر الحبشة، وأنشأ كنيسة في ظفار. وصار رئيس
 أساقفة ظفار يشرف على الكنائس التي أنشئت في اليمن ومنها كنيسة في نجران
 وكنائس أخرى انتشرت حتى الخليج. وذكر فون ليهمان أن الملك اليميني ذمر
 علي بهجر الذي حكم جنتير بين سنة ٣٤٠ م. وسنة ٣٦٠ م.، دخل في النصرانية
 بتأثير من ثيوفيلس. ولكن حفيده ملكيكرب بها من ثار على الأحباش في أوائل
 الربع الأخير من ذاك القرن وطردهم من اليمن. وقد لوحظ أن معبداً لآلهة سبأ
 القديمة قد أهمل سنة ٣٧٨ م. تقريباً، فارتدّي أن الناس أخذوا منذئذ ينصرفون

(١) ذكر جواد علي نصراً مطوّلاً لانتقال امرى القيس من مملكته التي أنشأها في الحيرة، إلى
 الولاة الروماني - البيزنطي، فقال إن بعض الباحثين يرون أن امرأ القيس كان من حزب بهرام
 الثالث الفارسي فلما وقع الخلاف بين الفرس على العرش وانصر نرسي خرج امرؤ القيس من
 العراق وقصد بلاد الشام ومال إلى الروم فأنزله على حرب بلاد الشام. أنظر جواد علي:
 ج ٣، ص ١٨٩.

Ryckmans, J: L'Institution Monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam (I) Louvain, (٢)
 1951, p. 338.

(٣) Ryckmans: *ibid* وكذلك جواد علي: ج ٢، ص ٥٥٣، ٥٦٩. وصالح أحمد العلمي،
 ص ٧٨.

إلى المسيحية أو اليهودية^(١). ولم يُعرف الدين الجديد لأن البنين أُغلبوا
 بتعبُدون للإله «ذسموي»، وهو رب السماء. إلا أن المعروف أن أبا كرب أسعد
 ابن الملك ملككرب بينهم، دخل في اليهودية. وقد عُرف عند الإخباريين
 الإسلاميين باسم أسعد تَبَّع، وقبل إنه نشر اليهودية بين البنين^(٢).

ونعيل إلى ترجيح صحة روايات الإخباريين الإسلاميين في هذا الشأن،
 لأن ثورة ملككرب بينهم على الأحباش ونهوء ابنه أسعد تَبَّع، يتفقان مع سياق
 التاريخ اللاحق على ما سرى في القرنين الخامس والسادس. ففي القرن
 الخامس أخلت تظهر بوضوح علاقة اعتناق المسيحية بالولاء السياسي للحبشة
 وبيزنطة، وعلاقة اليهودية بمناهضة هذا الولاء. وفي القرن السادس وصل الصراع
 بين المسيحية التي ساندتها الحبشة وبيزنطة، وبين اليهودية التي كانت تسمى إلى
 مساندة من الفرس، وصل هذا الصراع إلى ذروته المبكرة على اليمن، المدخل
 الجنوبي للبحر الأحمر. وسنعرض لهذا في حته.

- هـ - القرن الخامس في اليمن:

يمتدّ العرب أن جُمُوعاً كانت تعبد الشمس إلى أن تغلب الملك سليمان
 على بليقيس، فتهوّد أهل اليمن^(٣). لكن ثمة معتقدات عربية أخرى تحظى
 بإسناد تاريخي أفضل، ومفادها أن اليهودية اعتنقت في اليمن في مطلع القرن
 الخامس، أيام أسعد تَبَّع. ويقول الأندلسي إن الملك الحميري دعا البنين إلى
 اتباع اليهودية، وفاتفت حمير على اليهودية من ذلك الزمان وهدموا بينهم الذي
 كانوا يعبدونه^(٤). ويروي ابن هشام في سيرة النبي قصة مرود تَبَّع بمكة وطوافه

(١) Von Wismann: op cit., p. 498. وانظر أيضاً: حراد علي: ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٥٣.

٢، ١٥٦٩ وج ٣، ص ٤٥٦.

(٢) Von Wismann. op cit., pp. 461, 492, 493. وكذلك حراد علي: ج ٢، ص ٥٢٦، ٥٦٧.

٥٦٩.

(٣) ابن سعيد الأندلسي: نشوء الطرب في للريح جاعلة العرب، لطيف صرحت عبد الرحمن.
 مكتبة الأنصبي، عمان، ١٩٨٢، ص ٧٥.

(٤) الأندلسي: نفرة... ص ١١٩.

بالبيت وأنه أول من كسا البيت وأوصى به ولأئمة من جرّهم، وأمرهم بتطهيره... وجعل له باباً ومفتاحاً. وهي رواية شبيهة برواية الأندلسي في نشوء الطرب^(١). وما لا شك فيه أن ما بيّته الأبحاث التاريخية من علاقة لليمنين بتجارة قريش في القرن السادس، يعزز أسباب تصديق هذه الرواية، وإن كان الإخباريون قد أضافوا لتجميلها ما لا يلزم قبوله بالتفصيل. ويثبت الكتابات الأثرية أن تبع وابنه حسان بهمن جرّداً حملة على أرض مَعَنَ، ساهم فيها جمع من كندة، واستطاع تبع أن يبلّغ ملكه البحر الأحمر والمحيط الهندي وجنوب نجد، وربما استولى أيضاً على جزء كبير من الحجاز^(٢). ولا تفسح المصادر الإسلامية من مواقف خلفاء أسعد تبع من الصراع على اليمن. غير أن حسان بن تبع وأخاه قمرأ لا يبدیان تبديلاً لسياسة والدعهما الذي اعتنق اليهودية ولذا كان مناهضاً للمبشة. لكن عبد كلال بن مثوب الذي خلفهما كان، على قول الطبري^(٣)، على دين النصرانية الأولى وكان يُبَيِّرُ ذلك من قومه. وكان الذي دعاه إليه رجل من غسان قدم عليه من الشام فوثبت حمير بالغساني فقتله. ويوحى قول الطبري هذا، أن حمير كانت لا تزال على دين اليهودية الذي اعتنقته في عهد تبع، وأن محاولات سرية ربما بُدِلَتْ لتبديل دين الملك الحنني، بمعونة عربية نصرانية، وربما بإيعاز بيزنطي، دون جدوى. غير أن خليفة عبد كلال، تبع بن حسان أرسل، على ما يقول الطبري، جيشاً عظيماً إلى بلاد مَعَنَ والبحرة وما والاها، فسار إلى النعمان بن امرئ القيس فقاتله فقتل النعمان وهُزِمَ أصحابه^(٤). وبذلك تكون هذه الحوادث على مقربة من سنة ٤٣٠م. وقد أبدى الطبري في جنة سني ملك المناذرة في هذا القرن دقة مذهبة توحي الثقة في روايته هذه. ويحفظنا على

(١) ابن هشام: سيرة النبي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٣٧. ج ١، ص ١٩-٢١.

(٢) جواد علي: ج ٢، ص ٥٧٤، ٥٧٥.

(٣) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٨٦. ويشر على القول شكاً لأن زمن عبد كلال سبق عهد الفساسة في الشام. لكن كون مُضَرَّ عبد كلال غسانياً ليس مسألة خطيرة في هذا السياق، ولا يتبدّل من الأمر كثير إذا كان الرجل المذكور من غير غسان.

الاشتباه بأن غزوة تُبَّع بن حِسان هذه للحيرة، إنما كانت صراعاً بين اليمن والحيرة، بالوكالة عن الحِبة (ومعها بيزنطة)، والفرس قول الطبري إن بهرام الخامس ملك الفرس (٤٢٠ - ٤٣٨ م)، بعد فراقه من أسرو... ملك الروم، مضى إلى بلاد السودان من ناحية اليمن، فلو قع بهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة وسبى منهم خلقاً ثم انصرف إلى مملكته^(١). ولا شك في أن تاريخ هذه الغزوة الفارسية لليمن يحتاج إلى تدقيق لمعرفة سنوات حكم الملوك وسنوات غزواتهم وحروبهم، وهي سنوات تشكو كثيراً من الاضطراب، ولا بد هنا من تناولها بالتحفظ الشديد. على أن الأمر الذي يمكن التكوين إليه بعض الاطّشان هو أن اليمن كان مداولة بين المسيحية واليهودية وبين الحشة حلفاء بيزنطة وحمير تساندها الفرس أحياناً^(٢). وفي بعض الحالات، بل ربما في كثير منها كان الأحباش يلتصقون اليمن مع الحميريين، فلا يقدروا أحد منهما على طرد الثاني من ملكه هناك، وكان ذلك الحال سنة ٤٦٠ م. إذ كان الأحباش يحتلون بقعة ضيقة من اليمن يحاربون منها حكومة جُفْر، وهي القبة الباقية من عهد الاحتلال السابق^(٣). وظلت اليمن مداولة بين حمير والحش حتى ظهور الإسلام. وكان القرن السادس فصلاً من أهم فصول هذا النزاع. وستأوله في حقه.

٥- القرن الخامس في فلسطين

أما في فلسطين، فقد ظلت تحارة بيزنطة تصل ملا حقات تذكر عبر البحر الأحمر حتى حوادة أحد سادات الفاتل واسمه امرؤ القيس (أو عمرو بن قيس) سيرة سبج صاحب القس الشهير في السارة، فانقل من لرض دولة الفرس إلى المقاطعة العربية، حتى بلغ البحر الأحمر واستولى على جزيرة يوتابه (أي تيران عند مدخل خليج العقبة) وهي جزيرة مهمّة كان الروم قد أخفوها مركزاً لجميع الغزائب من السفن الآتية من المناطق الحارة الصحرة إليها. وكانت تلك محلبة أرواح عظيمة للمخزومة البيزنطية. فلما استولى امرؤ القيس على يوتابه، طرد الحبة

(١) الطبري: التاريخ، ج ٤، ص ٨١.

(٢) الأندلسي: نشوء... ص ١٥٣. وكذلك حوادة علي: ج ٢، ص ٥٥٦، ٥٥٧.

(٣) حوادة علي: ج ٢، ص ٥٥٥.

البيزنطيين، وصار يجمي المكوس لنفسه، وجمع ثروة عظيمة، حتى استطاع أن يوسع ملكه ويغزو أعالي الحجاز والمقاطعة العربية الرومانية، بل مناطق النفوذ الساسانية. ولما بلغ امرؤ القيس من القوة مبلغاً، أراد أن يفاوض الروم ليحترفوا به ويتحالفوا معه. وشير ملخوس (Melchus) الفيلادلفي إلى أن الإمبراطور الذيفاوضه امرؤ القيس هو الإمبراطور ليو (457 - 484 م). وتجعل التقديرات الحديثة تاريخ استيلاء امرؤ القيس على الجزيرة على مقربة من سنة 470 م. أما سعيه إلى الإمبراطور ليو ففي سنة 473 م.^(١) وقد أوفد امرؤ القيس رجلاً من رجال الدين اسمه بطرس إلى القسطنطينية ليمرض على الإمبراطور وحثه في التنصر واعتزاف بيزنطة به عاملاً على العرب في المقاطعة العربية، ثم قابل ليو بنفسه فأكرمه الإمبراطور ومنحه لقب عامل (فيلارخ) على الأرض التي استولى عليها. وظهر من تاريخ ثيوفانس (Theophanes) أن يوتابه كانت في سنة 490 م. في أيدي الروم، استولى عليها حاكمهم في فلسطين بعد قتالٍ شديد. ويدل هذا على أن الروم استردوا الجزيرة من امرؤ القيس أو خلفائه بعد سنوات قليلة، وبذلك عاد مدخل البحر الأحمر الشمالي إلى حوزة بيزنطة.

وقد أثبت شهيد أن القبائل التي قاتلتها بيزنطة لاسترداد يوتابه هي قبائل الغساسنة التي كانت لتوها قد دخلت فلسطين من الحجاز، وأخذت تحاول فرض نفسها على الإدارة البيزنطية للحلول محل بني سليح الغساسنة في ترواس العرب ضمن نطاق النفوذ البيزنطي. وجعل دخول الغساسنة أرض فلسطين ما بين

(١) لم تكن لدى كتابة هذا البحث مطالعة كتاب شهيد: *Byzantium and the Arabs in the Fifth Century*. Dumbarton Oaks, Washington, D.C., 1989. ويضمن هذا الكتاب إشارات مفيدة جداً لبعض المسائل التي أثير إليها في هذا الباب. وقد حرصنا على ألا يتناقض ما في بحثنا مع ما جاء به كتاب شهيد هذا الذي اصطلاحنا على تسميته بعبارة *Shahid: Byzantium and the Arabs in the Fourth Century*. ولما كان استيلاء امرؤ القيس على يوتابه انظر جواد علي: ج ٢، ص ٦٥٢ - ٦٥٥. وكذلك: *Arabes-Parces et Arabes-Romains* Lebl-Devroese, Robert.

١٨٨٤ م. و١٩٤٤ م. وهو ما اصطُح على اختصاره سنة ١٩٩٠ م. تقريباً^(١).

ولم يلاحظ أن حقبة تولي بني سليح الجمالة البيزنطية في المقاطعة العربية وفلسطين لم تُحظ بدراسات كافية عند الباحثين، على الرغم من امتداد هذه الحقبة نحو قرنين إذ بدأت في سنة ٤٠٠ للميلاد تقريباً^(٢)، وانتهت سنة ٦٠٢ م.^(٣)

ونلاحظ أيضاً أن ستة حوادث خطيرة حدثت منها اثنان في العقدين السابع والثامن من القرن الرابع، والأربعة الأخرى في أواخر القرن الخامس الميلادي، فحظيت باهتمام متفاوت لدى الباحثين. ولكن كلاً منها بُحث على حدة، ولم يحاول الباحثون إدراجها معاً في سياق موحد من الأحداث، على الرغم من احتمال تقدّم كبير في تاريخ العرب قبل الإسلام، لو أُحظت هذه الحوادث معاً، وهي:

- ١ - حرب ماوية على الروم، في حدود ٣٧٥ - ٣٧٨ م.^(٤)
- ٢ - تولي بني سليح الجمالة البيزنطية على العرب سنة ٤٠٠ م. تقريباً.
- ٣ - استيلاء امرئ القيس على جنوبي فلسطين بين ٤٧٠ و٤٧٣ م.
- ٤ - دخول الفساسة أرض فلسطين وبلاد الشام نحو سنة ٤٩٠ م.

١ - Rudes et Ghannades, *Revue Biblique*, II (1942), pp. 249, 270. ولا يترجم ديفيس طريح

امرئ القيس هذا ويصفه بأنه «غير نبل». راجع للمطالعة: (Shahid: Byzantium 3c) وعصراً المضافات ٥٩ - ٩١.

(١) الأنغليسي: نقلاً... من ١٧٧. وكذلك، Shahid, *Irfan: The Last Days of Self*, Arabien, و

V (mai, 1958, 3), pp. 130, 132, cf. Van Gronenbourg, GE: *The Nature of the Arab Unity*, Before Islam, Arabien, X (1963), p. 3.

(٢) رأى شهيد في: *The Last Days of Self*، أن بداية صلاص سليح كانت في عهد الإمبراطور

الانس (٣٦٤ - ٣٧٨ م)، لكنه يميل الآن إلى حمل هذه البداية سنة ٤٠٠ م. تقريباً. أنظر:

Shahid, *The Last...*, op. cit., p. 147

Shahid, *Irfan: Ghannades and Byzantium. A New terminus a quo*, *Das Islam*, XXXIII (1958), (٣)

pp. 232 - 233

(٤) Shahid: Byzantium and the Arabs..., p. 184

٥ - عودة الإدارة البيزنطية إلى يوتابه وجنوب فلسطين نحو سنة ٥٠٠ م.

٦ - زوال إمالة بني سليح وانتقالها إلى الفساة، سنة ٥٠٢ م.

ويزيد من الحاجة إلى إدراج هذه الحوادث ضمن سياق معاً أنها حدثت في إطار جغرافي واحد هو فلسطين وشرق الأردن. فإذا جُمع الحدثان الأولان فإنهما يطرحان سؤالاً لم يجب عنه الباحثون بعد: إلى من كانت تنتمي ماوية؟ وسجن الباحثون إلى نسبتها إلى اللخمين أو التوخين، لكنهم لم يطرحوا احتمال كونها من بني سليح.

وإذا نُظر في الأحداث الأربعة الأخيرة لأمكن طرح غير سؤال، قد يكون الجواب عنه مفيداً جداً في جلاء كثير من الغموض عن تاريخ بني سليح وبده عهد الفساة، وعلاقة ذلك بخطوط التجارة والصراع عليها. لما كانت علاقة بني سليح بامري القيس، وهل كان الفريقان على تنافس أم تحالف. وهل دخل الفساة في الصراع من ضمن إطار زعامة امري القيس، أو خلفائه الذين فقدوا يوتابه، وهل كانت هاراتهم على فلسطين وشرق الأردن، رداً على استعادة البيزنطيين للجزيرة، وهل كان إسناد بيزنطة لبني سليح في مواجهة الفساة، ضمن خطة بيزنطة لمحاربة امري القيس ومحاولة استرداد يوتابه؟.

إن هذه جميعاً لا يسهل الرد عليها إذا لم يُنظر في المصادر، في محاولة لرؤية هذه الأحداث المذكورة آنفاً، ضمن سياق موحد، طالما أنها حدثت في المكان ذاته، والزمان ذاته تقريباً. وقد يؤدي هذا الأسلوب في إعادة بحث تاريخ هذه الفترة، إلى إثارة جزء مهم، لا يزال غامضاً من تاريخ خطوط التجارة الشرقية، ومن تاريخ بني سليح، ورد فعل القبائل العربية على السياسة الرومانية البيزنطية، التي أدت إلى زوال مملكة الأنباط في القرن الثاني للميلاد، ومملكة تدمر في القرن الثالث للميلاد.

الفصل الثالث

الأحوال الدولية في القرن السادس

أولاً: الحرب في صحراء الشام وجوارها

أ- سياسة الحدود في القرن السادس

لاحظ دارسو القرن السادس في بلاد الشام أن دولتي الساسانية والفرس اللتين حلّت محل تدمر والحضر، مناطق عازلة بين بيزنطة والفرس، لم تؤد بها سوى المهمة العسكرية. ولم يكن لهما إسهام كبير في تنظيم قوافل التجارة الدولية بين الشرق والغرب^(١). كانت بيزنطة لا تزال ترى أن العدو الأكبر هو دولة الفرس، التي أحدثت على الدوام للبيزنطيين أحوالاً مقلقة على امتداد الحدود الطويلة بينهما. فكان لا بد من إضعاف هذا العدو، وتدمير تحارته الدولية باتخاذ طرق التجارة الحارة في غرب جزيرة العرب^(٢). وقد تميّزت العلاقات بين الإمبراطوريتين في قرون، بالمروحة بين الحرب الشاملة والسلام، فتوقفت التجارة بينهما واستبعدت تدفّقاتها مرات وفق الأحوال. لكن القرن السادس تميّز عما سبقه بحروب شبه مستمرة بينهما، فأدى هذا الأمر إلى ركود الخط التجاري من الخليج إلى صحراء الشام عبر الفرات، وفقدت المنطقة صفاتها التجارية، وبغيت لها الصفة الحدودية العسكرية، فكان تحويل طريق تجارة الشرق إلى غرب الجزيرة العربية أو البحر الأحمر أمراً لا مفرّ منه. ولم يكن هذا التحويل مسألة سهلة، ولذا لم تأس بيزنطة من احتمال تعزيز موقفها التجاري باستمالة منطقة ما

(١) Crone: op.cit., p. 45

(٢) Devroome: op.cit., p. 274

بين النهرين. أما الفرس الذين كان تحويل التجارة الدولية إلى حرب الجزيرة العربية يُفقدتهم عنصراً مهماً من عناصر قوتهم، فكانوا يتطلعون على الدوام إلى سورية ومصر، لاستعادة أمجاد داريوس، ومعها السيطرة على المنفذ الآخر لخطوط التجارة الشرقية الآتية من الجنوب^(١). وكانت هذه هي حوافز الدولتين في حربهما طوال القرن السادس. لقد سعى كل منهما إلى تعزيز قبضة على طرق التجارة، وكانت سورية هي مفتاح جميع الطرق المتاحة، ولذا كانت مركز الصراع الأول بين القوتين^(٢). وقد كان لهذا النزاع في القرن السادس أثره في جميع المجتمعات العربية من أقصى شمال الصحراء السورية إلى أقصى جنوب جزيرة العرب^(٣). وكان التحرير في ذلك القرن قد أصبح واحداً من أهم عناصر التجارة الشرقية وأثمنها، حتى أخذ احتكار الفرس لتجارته يثير قلق البيزنطة ورغبتها في البحث عن حل، فيما كانت تجارة مصر عبر البحر الأحمر قد انحطت، وما كان في إمكانها أن تكون هي الحل^(٤). كانت بيزنطة تستورد التحرير بعمال الخزينة لصناعتها، ولا تترك لصناعة النسيج الخاصة إلا ما ينقص من حاجتها. وكانت معظم مكاسب الفرس من هذه التجارة تُنفق على الجيش الساساني. ولذا حاول جستنيانوس (Justinianus: ٥٢٧ - ٥٦٥ م.) أن يقلص هذه المكاسب، فجعل سعر الرطل من التحرير خمس عشرة قطعة من الذهب، وودّ عليه الفرس بتقليص المبيعات. وعاود جستنيانوس تخفيض السعر إلى ثلثي قطع ذهباً، فأفلس التجارون وأضحت صناعة نسيج التحرير حكرًا على الدولة البيزنطية. وعلى الرغم من أن شرنقة التحرير قُرّبت سرّاً إلى بيزنطة سنة

(١) Rodinson: op.cit., p. 26. وتحدث مبكراً عن انقطاع طرق القوافل التجارية زمن الحروب وتحولها إلى الشمال أو الجنوب. Miller, p. 32.

(٢) Charlesworth pp. 35 - 56. وكذلك Miller, p. 120. وكلاهما يصف الشام بأنها مفتاح طرق التجارة بين الشرق والغرب. وفي هذا أيضاً انظر Chapot, Victor: le monde romain, ذكره:

Rabbath: L'Orient Chrétien..., op.cit., p. 68.

(٣) البكري، عبد العزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٩.

(٤) هيرن: ج ٢، ص ٤٧٧.

٥٥٢ م. أو بعدها بقليل، إلا أن الإنتاج البيزنطي لم يأخذ مداه قبل القرن السابع، وظلت تجارة الحرير عظيمة الشأن طوال القرن السادس^(١)، وكذلك تجارة المواد الأخرى.

ولهذه الأسباب ظل جوهر الصراع بين الدولتين تحارباً في جانب أساسي منه، لكن الاستعانة بالوكلاء العرب على جانبي الحدود انحصر عن الوكالة التجارية وانحصر في الدور العسكري. تواصلت الدولتان اتخاذ حلفاء من البدو أو أشباه البدو رأس حربة في الصراع، فأسبنا على الحليف ألقاباً وأمدتاه بالسلاح والتمال وأحياناً بالحماية السياسية والوصاية العسكرية. وكانت الوضع، على قول أبي البقاء^(٢)، وحدات عسكرية فارسية من الأساورة، تعددها نحو من ألف مقاتل، يرسلها إمبراطور الفرس إلى الحيرة، فتمكث في الحيرة سنة، وتبدل بعدها بألف آخرين. وكان هؤلاء بمضد ملك الحيرة على رعيته ومضنون ولاءها له وولاه لدولة الفرس. وكان الروم يميلون كذلك، فيقبلون القبائل العربية القوية على حكم القبائل الأخرى لسيطروا على المناطق الحدودية، حيث لا يستطيعون أداء المهمة بفوتهم الذاتية. ولم تكن دولتا العاقرة والفسانة مناطق عازلة فقط، ولا كانتا دولتي مقاومة ومعاينة عسكرية فحسب، بل كانتا مرحلة انتقالية بين حالتَي الحضارة والبدو أيضاً، ومنطقاً لتسلل نفوذ الدولتين إلى داخل جزيرة العرب، عبر العقيدة الدينية والمذهبية التي استخدمت على نطاق واسع للأغراض السياسية في هذا القرن السادس^(٣).

(١) Rabboth L'Orient Chrétien..., pp. 68 - 69 و op. cit. p. 426 و سطر كذلك:

الشرقي: مكة والمدنية... من ١٥١ - ١٥٢، وحول علي: ج ٥، ص ١٦٩ - ١٧١.

(٢) أبو البقاء، حبة الله الحلي: السائب الزيدية في أخبار الطوائف الأربعة، نطق صالح هادكة

ومحمد غريبات، مكتبة الرسالة المدنية، ص ١٩٨١، ج ١، ص ١٠٦، ١٠٧، واطر

أيضاً، Koser, M J: Al-Uthm, some notes on its relations with Arabia, Arabia XV (1948),

p. 167, cf. Lewis, Bernard The Middle East and the West, Harper and Row, New York,

Shahed Dyanismم، سطر أيضاً ١٩٨٥، كذلك حول علي: ج ٥، ص ١٦١، واطر أيضاً

(3c.), pp. 82, 83

Gahrabi: op. cit., p. 16 (٢)

كانت الأوضاع العسكرية في بلاد الشام أواخر القرن الخامس سائبة. إذ غلبت بادية الشام بين حوران والفرات أي على امتداد خمسمائة كيلومتر، من أمة جيوش بيزنطية، وتغلّى الروم عن الحزام الحصين الممتد بين دمشق وتدمر، وهو المعروف باسم سراط ديوكليانوس. لم تعد تدمر آنذاك سوى تجمع يتحصن خلف الأسوار، ويخشى فتح أبوابه تحسباً لهجمات البدو. وغلبت المواقع التي كانت قبل قرن تحرس الحدود على طول نهر الفرات حتى قصر الحيرة، غلبت تماماً من الجند. وتراجعت الحدود البيزنطية إلى مثلث الرقة وسورا والرافقة. أما خط الغابور فضُفّ عنده الدفاع وتغلّى البيزنطيون عنه مثلما تغلّوا عن سراط ديوكليانوس الذي يشكل هذا الخط امتداداً له نحو نهر دجلة. وتراجعت خطوط الدفاع البيزنطية إلى الشمال الغربي فامتدت من قلعة المطبق شمال غرب حاة إلى باشان فسروج، ودعمها خط ثان يمر في الرها وعامد وشمشاط. ولم يكن الدفاع عن هذه المنطقة محكماً على الإطلاق. فعلى امتداد ثلاثمائة كيلومتر بين النهرين، لم يكن البيزنطيون ولا الفرس يعرفون الحدود تماماً. بل كانوا يقيمون هنا وهناك صباتٍ يسكنها بعض البدو فيستونها خطأً دفاعية^(١).

في هذه الظروف العسكرية، استطاع بنو غسان، وكانوا لثوّم قد دخلوا بلاد الشام آتين من شمال الحجاز، أن يفرضوا سلطانهم على بني سليح وكلاء الروم، ثم على الدولة البيزنطية نفسها، التي أركلت إليهم مهمة الخفارة العسكرية لحوران وشرق الأردن وبعض فلسطين، بعدما كانت الخفارة في يد بني سليح الضجاجة. وبيّنت دراسات حديثة أن ظهور الملوك الفساسة، بعد دخولهم أرض الشام كان في نحو سنة ٤٩٠ م.، فيما عُقدت المحالفة بينهم وبين الدولة البيزنطية سنة ٥٠٢ م.^(٢) على ما أسلفنا آنفاً.

(١) Devroese: op.cit., pp. 270, 272, 273

Byzantium (5c), وشاهد: The Last Days... and Ghassan and Byzantium... (Y)

p. 284 sqq. ويعمل صالح أحمد المثل دخول الفساسة فلسطين سنة ٤٩٧ م. انظر صالح أحمد

المثل، ص ٥٧.

وكانت سلب على ما ترويه المصادر العربية الإسلامية، يجون من نزل
 ساحتهم من مضر وغيرها للروم. ويقول ابن حبيب: إن غسان أبلت في جمع
 عظيم يربدون الشام، حتى نزلوا بهم، فقالت لهم سلب: إن أقروتم بالخروج
 وإلا قاتلتكم. فأبوا عليهم فقاتلتهم سلب، فرضيت غسان بداء المخرج، فكانوا
 يجبونهم لكل رأس ديناراً وديناراً ونصفاً ودينارين في كل سنة على أقدارهم،
 فلبثوا يجبونهم، حتى قتل جلدع بن عمرو الغساني جاني سلب فتناحت سلب
 وغسان كل بشعاره فالتفوا بموضع يقال له «المحفف» فأبترتهم غسان. وخاف
 ملك الروم أن يميلوا مع فارس عليه، فأرسل إلى ثعلبة زعيم غسان فقال: أنتم
 قوم لكم بأس شديد وعدد كثير، وقد قتلتم هذا الحري، وكانوا أشد حبي في
 العرب وأكثرهم عدة، وإن جاعلكم مكانهم، وكاتب بيني وبينكم كتاباً: إن
 دفعكم دهم من العرب أمددتكم بأربعين ألف مقاتل من الروم بلادهم، وإن
 دفعنا دهم من العرب فعليكم عشرون ألف مقاتل على أن لا تدخلوا بيتا وبين
 فارس، فقبل ذلك ثعلبة وكتب الكتاب بينهم، فسلكت ثعلبة وتوجه^(١). وعلى
 الرغم من أن المصادر الإسلامية تختلف في بعض التفاصيل، فيحمل المصنفون
 القتل من الروم لا من سلب، ويسميه البعض سيطاً والمعض الآخر سيطرة، إلا
 أن المصادر متفقة على أن الحلف بين غسان وبيزنطة كان عسكري الطابع، ليس
 فيه ما يشبه أنه أن غسان نظمت شبكة تجارية ما ضمن طرق تجارة بيزنطة
 الشرقية.

وقد جعلت الدراسات الحديثة ثورة غسان على حكم سلب، ومحطات
 القبائل العربية على فلسطين فيما يشه الثورة العامة، سنة ٤٩٧، حين كان ملوك
 الحيرة يشتون عند منقلب القرنين هجمة على منطقة القرات السورية. ولم يكن
 الغساسنة وحدهم يقدون القبائل في جنوب بلاد الشام، بل ظهر زعيم بدوي آخر
 اسمه الحارث بن عمرو الكندي، أرسل ولده حمر بن الحارث، ومعه يكر ب بن

(١) المحبر، ص ٣٧٠ وما بعدهما الأصلي: بشوا... ص ١٩٩، ١٢٠٠ المصنف: ح ١٠
 ص ٢٠٦ و ٢٠٧، وأيضاً ابن خلدون: كتاب العمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٧، ص
 ٤٣، ص ٥٨٣، وحوله علي: ح ٣، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

الحارث، على رأس قبائل عربية أخلت نهباً في أملاك الروم ونشئ الفارات على جزيرة يوتابه وفلسطين، وفنيقية وسورية سنة ٥٠١ م. دون أن تملك البيزنطة وسيلة حاسمة للرد عليها. وكان لا مفرّ لإمبراطور بيزنطة أنستاسيوس (Anastasius)، وقد أخذ الفرس يُعدّون المدة لهجوم كبير فيما بين النهرين، من أن يُرضي سنة ٥٠٢ م. صاحبي السلطان الحقيقيين في جنوب بلاد الشام الحارث بن عمرو، وذعيم القبائل الفُسائية^(١). فافر الأول عاملاً لبيزنطة على جنوبي فلسطين ومناطق من سيناء، وعقد مع الثاني الحلف العسكري الذي ذكره الإخباريون، على ما سلف. وقد فهم أن أمن يوتابه والجبهة البيزنطية فيها والمدخل التجاري إلى البحر الأحمر كان عاملاً مهماً من العوامل التي دفعت البيزنطيين إلى هذه الأحلاف الجديدة، تحسباً لتوقّف التجارة الآتية من الفرات، لما كان يُعدّ الفرس لمنطقة ما بين النهرين. ففي أواخر صيف ٥٠٢ م. هاجم قباذ ملك الفرس (٤٨٧ - ٥٢٩ م.). والنعمان الثاني بن أسود ملك الحيرة (٥٠٠ - ٥٠٣ م.)، شمال الصحراء السورية، فحاصر قباذ آمد (دهار بكر)، وتوغل النعمان إلى حرّان وأتجه صوب الرّها. واضطرت الجيوش البيزنطية إلى الانسحاب من أمام الجيوش الفارسية والعربية، وسقطت آمد في المأثر من كانون الثاني/ يناير ٥٠٣ م. ثم اقتديت بالمال. وفي صيف تلك السنة بدأت أحكام الحلف البيزنطي مع الفُسائية تُطبّق، إذ ردّ المقاتلون الفُساتيون حرب الحيرة عن منطقة الخابور وتابعوا هجومهم حتى وصلوا إلى الحيرة نفسها. ولما حاول النعمان من جديد مهاجمة الرّها أصيب بهرجح مات من جراحه، فعين قباذ أبا يعفر بن علقمة (٥٠٣ - ٥٠٦ م.) خليفة له من غير المناذرة اللخمين. وبعد حصار الرّها في أيلول/ سبتمبر ٥٠٣ م. بدأ البيزنطيون هجوماً مضاداً أجبر قباذ على عرض السلم. ولهما كان البيزنطيون والفرس يتفقون على شروط هدنة جديدة، كان العرب المناذرة والفُسائية يواصلون القتال. وفي سنة ٥٠٥ م. أنهى قباذ وأنستاسيوس الحرب. وكانت تلك أول حرب خاضها الفُسائية في صف

بيزنطة^(٢).

(١) Devroome: op.cit., p. 274. وانظر كذلك: Smith: op.cit., p. 443.

(٢) Devroome: ibid., pp. 275 - 276.

ج- حروب الكلاء العرب

وُستدل من أنباء بعض المصاحرات بين كبراء الحيرة وكندة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس، أن الصراع الفارسي البيزنطي ربما أخذ يوجل في داخل الجزيرة العربية من طريق اتخاذ الزوجات، فتروي المصادر أن أسود بن المنذر ملك الحيرة تزوج ابنة عمرو بن حُجر زعيم كندة، ثم عاود حفيده المنذر بن النعمان (٥٠٦ - ٥٥٣ م.) هذه المصاهرة باتخاذ ابنة الحارث بن عمرو بن حُجر زعيم كندة زوجة له، على الرغم من أن الحارث كان قد تعاهد على حلف مع بيزنطة في أوائل القرن السادس^(١).

وقد وُقّيَ الفرس بملك على الحيرة، بدأ مُلكه سنة ٥٠٦ م. أي سنة بدء نفاذ الهدنة بين قباد وأنستاسيوس، وهو المنذر الثالث بن النعمان، الذي ملك نحواً من خمسين سنة، وكان رأس الحربة التي شغلت بيزنطة وجيوشها عقوداً طويلة في هذا القرن السادس. وقد كُتب لبيزنطة أيضاً أن تحظى بقاتل حربي كبير على الجانب الفارسي، وهو الحارث بن جبلة الذي ملك أربعين سنة (٥٢٩ - ٥٦٩ م.). وقد جعلت صولات هذين الملكين حروب بيزنطة والفرس تبدو في المأثورات العربية حروباً خاصة لهما، لشدة ما احتدم القتال واستمرت حتى المنافسة الشخصية بينهما، بين ٥٢٧ و ٥٥٨ م.

وقد دامت الهدنة بين الإمبراطوريتين من سنة ٥٠٦ إلى سنة ٥٢٨ م. طالما ظلت بيزنطة تدفع أتاوة بالذهب للفرس لقاء حراستهم حدود القفقاز من هجمات الهباطلة^(٢). لكن هذه الهدنة لم تلزم الفرس والمناصرة، الذين ظلوا يتبادلون الغارات، إما بمبادرة كانت الدولتان تفضيان الطرف عنها، أو بمبادرة كانتا توشيان بها إذا ارتأتا حاجة إلى ذلك. ومن هذا أن جستينوس (Justinus) الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م.) حين تولّى الحكم، تاباً في دفع الأتاوة إلى الفرس، علّوهز قباد إلى المنذر لتحرض بيزنطة، لغزو أراضيها وأسر اثنين من قادتها^(٣).

(١) Tringham, Christianity among ..., pp. 191 - 193

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٩٥ - ٩٨، وكذلك Devereux, op cit. p. 277

(٣) Tringham: Christianity among..., p. 193، وحوله علي: ج ٣، ص ٢١٩

إلا أن الحرب بالوكالة لم تكن تخلو من خلافات بين الحلفاء، إذ قيل إن الفساسة امتنعوا عن الاشتراك في الغزو الحبشي لليمن، سنة ٥٢٥ م. تقريباً. وقد أوعزت بيزنطة بهذا الغزو وأرسلت سفنها لنقل الجيش الحبشي الغازي. غير أن الفساسة الذين كانوا من أنصار الطبيعة الواحدة في المسيح وكانوا يرهبون ولا شك في نصرة يعاقبة نجران، أبناء عمهم ونظرائهم في المذهب لم يتمكنوا من ذلك لأسباب، منها ولا شك خوفهم من أن يطعنهم الإمبراطور جستينوس في الظاهر، وهو الذي بدأ عهده بطرد الأساقفة اليعاقبة من أبرشياتهم^(١). كذلك يقيم من مؤتمر الرملة الذي عُقد في مطلع سنة ٥٢٤ م. على مقربة من الحيرة، أن المنذر بن النعمان كان قد تحول بفضل مؤهلاته العسكرية، إلى عامل ذي وزن في العلاقات الدولية ذلك العصر، إذ اجتمعت لديه وفود من بيزنطة واليمن والدولة الفارسية، لبحث أوضاع الحدود بين الإمبراطوريتين. فتاب عن بيزنطة أبراهام الذي كان والده قد اشترك في مفاوضات سنة ٥٠٧ م. وأرسل قباضة ولداً من يعاقبة مملكته وأسقفاً نسطورياً. وأرسل ذو نواس ملك اليمن اليهودي ولداً حاول إقناع المنذر بمساعدته في حربه ضد الأحباش ويطرد المسيحيين من مملكته^(٢).

وقد ظلت الإمبراطوريتان تستغلان الاستغلال النسبي الذي تمتع به حليفاهما، وتوهران إليهما بالتحرش بالخصم حين تشاءان، وتذهيان البراءة. وفي الوقت نفسه أخذ الوكيلان العربيان، وقد تسنى لهما قائدان عسكريان محتكان هما المنذر بن النعمان والحارث بن جبلة، يكتسبان ثقة بالنفس عززتها حاجة الإمبراطوريتين إليهما، إلى أن بدا على كل من البيزنطيين والفرس التلذذ من هذه الثقة العربية بالنفس، بخاصة في معاهدة السلام التي عقدت سنة ٥٦١ م. وقد خصصت مادة على حدة بإلزام الوكيلين العربيين الهدنة التي يلتزمها البيزنطيون والساسانيون بموجب المعاهدة^(٣). وبدأت العلاقات تسوء بعد هذه

(١) Shahid, Irfan: Byzantino-Arabica, the Conference of Ramla, A.D. 524, *Journal of Near*

Eastern Studies, XXXIII (1964), pp. 128, 130

(٢) Devroeyne: op.cit., pp. 277, 278 (٧)

(٣) Shahid, Irfan: The Arabs in the Peace Treaty of 561, *Arabica*, III (1956), pp. 181 - 213 (٧)

المعاهدة بين الفرس وملك الحيرة، وبين بيزنطة وملك الفلستان، وهي علاقات لم يَتَسَنَّ لها أن تعود إلى ما كانت عليه حتى ظهور الإسلام.

٥-٥ عصر المنذر بن النعمان

يُتَوَخَّسُ في رواية الوقائع العسكرية التي تَمَيَّزَ بها القرن السادس فائدتان: الأولى هي تبيان الطابع العسكري الذي اتخذته دول المنطقة العازلة على الحدود بين بيزنطة والفرس، ونضال الطابع التجاري الذي كان بادئاً على كيانات هذه المنطقة ذاتها في المصور السابقة، (على ما سلف في أوب أعلاه). أما القائدة الثانية فهي أن غلبة الحروب على معظم سنوات هذا القرن السادس في منطقة بادية الشام وما بين النهرين دفعت بخطر التجارة الشرقية إلى غربي جزيرة العرب، فانتقل دور البتراء ويصري وتدمر لتلقفه مكّة بعداً عن مناطق الحرب المباشرة، على نحو ما سنبيّن لاحقاً، في تفسير العوامل الملائمة التي أحاطت بالإهلال وعززت نماءه.

ولعل المنذر بن النعمان يصحّ أن يكون عنواناً لحروب هذا القرن في بادية الشام وما بين النهرين، على الجانب الفارسي، لمساهمة الكبيرة في الجهد العسكري وظهور كفاءته في خوض الحروب. وعلى رغم أنه تَسَمَّى مُلْكُ الحيرة سنة ٥٠٦ م، إلا أنه أخذ يكتب مهابته وشهرته بعد سنة ٥٢٥ م. حين انتهزت الهدنة بين الإمبراطوريتين، وعاود أوار الحرب استماره بينهما. وقد أخذ تلكؤ بيزنطة في دفع أناة حماية الففاز فريضة لشن الحرب من جديد. أما السبب الحقيقي لحق الفرس، فلعله ثرّب البيزنطيين لغزو الحبشة اليمن سراً. وكان المنذر قد أحجم عن نحدة ذي نواس الملك اليمني، حين استنجد في مؤتمر الرملة، وآثر عروض البيزنطيين السلمية^(١). وقد يكون قاذو بعدما غزا الأحباش اليمن، قد أراد تعويض هذه الخسارة الفادحة بتقدم بحرزه في بادية الشام، فأطلق يد المنذر بين النهرين، ورد البيزنطيون بهجوم مضاد أدى إلى عقد هدنة

قصيرة، عاود المنذر بعدها الهجوم على قلعة المضيق وحصص^(١).

ولما مات جستينوس سنة ٥٢٧ م.، واعتلى جستينانوس عرش الإمبراطورية البيزنطية، وقعت حوادث في جنوبي فلسطين، إذ اختصم الحارث الكندي، مع حاكم فلسطين العسكري، ثم هرب إلى خارج الحدود البيزنطية في الجزيرة العربية. وإذاك انطلق المنذر في أثره وقتله. وقد تصبب تفسير قتل المنذر، وهو حليف الفرس، الحارث الكندي والذي زوجته، خصوصاً بعد خصومة مع قائد بيزنطي. لكن تفسير هذا ليس متعللاً تماماً. فقد روى الطبري كيف كان الحارث الكندي يستثمر إغارة الأعراب على أراضي الفرس، ليحصل من قباز على أتانة، إذ قال: «فلما رأى الحارث ما عليه قباز من الضعف طمع في السواد [العراق] فأمر أصحاب ماله أن يقطعوا الفرات فيغيروا في السواد. فأتى قباز الصريح وهو بالمداين ف... أرسل إلى الحارث بن عمرو أن لصوصاً من لصوص العرب قد أغاروا وأنه يحب لقاءه، فلقبه، فقال له قباز: لقد صنعت صنماً ما صنعه أحد قبلك، فقال له الحارث: ما فعلت ولا شعرت ولكنها لصوص من لصوص العرب ولا أستطيع ضبط العرب إلا بالمال والجنود. قال له قباز: فما الذي تريد، قال: أريد أن تطعمني من السواد ما أتخذ به سلاحاً، فأمر له بما يلي جانب العرب من أسفل الفرات»^(٢). وهذه الرواية تجعل الحارث منافساً للمنذر في جباية الأموال من عرب الحيرة ومناطق نفوذها، وقد تؤثر لنا تفسيراً معقولاً لمقتل الكندي.

وبهذا جستينانوس عهد. باسترداد تدمر ودفع حلفائه حتى دخلوا أرض الفرس وحادوا بسبي وغنائم. وفي مطلع سنة ٥٢٨ م. فيما كان الجيش البيزنطي يجتاز الجفجفان ويتقدم في الصحراء لأخذ مدينة نصيبين من الخلف، داهمه جيش الفرس وألحق به خسارة كبيرة. وعاود الفرس وهرب الحيرة يلوذهم المنذر، مهاجمة الجيش البيزنطي في ربيع سنة ٥٢٩ م. وهزمه مرة أخرى. وارتأى قباز أن يهاجم أرمينية، لكنه استمع إلى نصيح المنذر وتوجه بقواته إلى

(١) Devroey: op.cit., p. 281. يلاحظ أن ديفريس قبل رواية بلح المنذر ١٠٠ رابطة على بلح

القرى في حصص، بلا نقاش.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٨٩، ٩٠.

إنطاكية لبلغها بلا مقاومة تُذكره، وسى وغنم ثم تراجع دون أن يلقى الجيش البيزنطي. وبدوا أن تعاظم صوت المنلو وهيت بين العرب، دفع الإمبراطور البيزنطي إلى محاولة اصطناع قطب يوازن به ملك الحيرة، فاختار لهذه المهمة الفسائي الحارث بن جبلة وجعله عاملاً على العرب سنة ٥٢٩م.

وعرض قباض على البيزنطيين عقد هدنة، لكن الهدنة لم تُعقد بعد خلاف. وفي ربيع سنة ٥٣١م، عاود الفرس والمنلو مهاجمة الأرض البيزنطية وبلغوا مرقعاً يتوسط المسافة بين قسرين ونهر الفرات. وحاجم البيزنطيون بوحدات ضمت نسبة كبيرة من العرب بقودهم الحارث بن جبلة. وعلى الرغم من مقتل النعمان بن المنلو في الموقعة إلا أن المنلو والفرس ألحقوا بالبيزنطيين هزيمة ماحقة، وهرب بلزارهوس (Bessaricus) قائد الروم إلى الرقة، فاجتث الفرس منطقة الرها ودخلوا المدينة وهدموا فيها نيسان/ابريل ٥٣١م. وخشي جستنانيوس أن تنهار محالفات بيزنطة من فعل هذه الهزيمة، فأسرع إلى حث مملكة أكموم الحبشية على شن هجمات على مناطق النفوذ الفارسية من جنوب الجزيرة العربية، انطلاقاً من اليمن التي احتلها الأحباش قبل ست سنوات^(١). وفي الوقت نفسه عمد إلى مسالمة الفرس وإلى دعم جملة الفلاسفة على العرب^(٢).

٥- معاهدة السلام الأبدية

أرسل قباض عبر المنلو، مقترحات سلام جديدة في حزيران/يونيو ٥٣١م. وفيما كان جستنانيوس يُحسِّن استقبال المبعوث الحبري، مات قباض، فخلفه كسرى أنو شروان، فتابع مفاوضات السلام على ثلاثة مبادئ: أن تدفع بيزنطة تعويض حرب للفرس، وأن تسحب قيادة قواتها فيما بين الهيرين من دارة (التي تبعد عن نصيبين نحو ١٢ ميلاً) إلى كونسططينة، (على منتصف الطريق إلى الرها)، وأن تتولى حماية الفرس لسمرات الففلاز. وقبل جستنانيوس شروط

(١) سنعرض لأوضاع اليس في هذا الفصل في باب لاحق.

Devonand, op. cit., pp. 281 - 284, Montgomery - Watt, W.: Muhammad at Mecca, Oxford (7)

, University Press, 1953, p. 12

كسرى ووقع في نيسان/ إبريل ٥٣٢م. على الهدنة التي سميت بمعاهدة السلام الأبدي^(١).

لكن هذا السلام «الأبدي» استمر سبع سنوات فقط. واستعادت الحرب في سنة ٥٣٩م. بسبب صراع بين المنذر والحارث على مراعى للغنم^(٢). ويؤكد ديفريس ذلك بقوله إن جفافاً عظيماً أصاب وادي الفرات الأسفل، فاضطر المنذر إلى إرسال قطعاته إلى ما وراء تدمر لترعى، فواجهه الحارث بن جبلة ليمنعه، فتجادل الرجلان. وقال المنذر إن معاهدة السلام الأبدي لم تُعرض عليه ولم يكن العرب بين الموقعين عليها بل إن قانوناً قديماً كان يخوله جباية ضريبة ممن ترعى ماشيته في تلك المنطقة. ورد الحارث بقوله إن الأرض هذه رومانية، تدل على ذلك تسميتها باسم البراط، وهي لفظة لاتينية أصلاً (Strata). وما إن علم جستنيانوس بالتزاع حتى بعث برجلين من خاصته، فارتأى الأول في التزاع فحماً لا بد من فضحه، وارتأى الثاني أن الأرض المتنازع عليها لا تستحق خرق الهدنة. غير أن كسرى الذي لاحظ أن القوات البيزنطية منهكة في قتال على الحدود الغربية، لم يشأ أن يفلت الفرصة، ولعله أراد أن يحسن شروط الاتفاق مع جستنيانوس، فاتهمه بخرق الهدنة ومحاولة إغراء المنذر بالمال، وبتهريض البرابرة على غزو مملكة الفرس. ونوقشت كذلك مساعي بيزنطة لتأليب بلاد شرقي البحر المتوسط والبحر الأحمر على الفرس. وأمضت الدولتان شتاء تلك السنة في هذا الجدل. وفي أوائل الربيع سنة ٥٤٠م. بدأ كسرى نزعة عسكرية اجتاحت خلالها بلاد ما بين النهرين ومقاطعات سورية والرها ووادي الرافدين دون أن يلقى مقاومة تذكر. واجتاز الفرات جنوب قرقسية ووصل إلى سورة (على نهر الفرات غرب الرقة)، ثم إلى إنطاكية^(٣). وقد سجل الطبري هذه الغزوة بكثير من التفصيل والدقة فقال: «فاستعد كسرى فغزا بلاد يخطيانوس [جستنيانوس] في بضعة وتسعين ألف مقاتل فأخذ مدينة دارا ومدينة الرها ومدينة منبج ومدينة

(١) Devreesse: op.cit., p. 286

(٢) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 199

(٣) Devreesse: op.cit., pp. 286 - 288

قنسرين ومدينة حلب ومدينة إنطاكية وكانت أفضل مدية بالشام ومدينة فامية ومدينة حمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدائن واحتوى على ما كان فيها من الأموال والعروض وسبى أهل مدينة إنطاكية ونقلهم إلى أرض السواد، وأمر فُئيت لهم مدينة إلى جنب مدينة طيسون على بناء مدينة إنطاكية... وهي التي تُسمى الرومية^(١). وأكدت المصادر الكلاسيكية كثيراً من ذلك، إذ ذكر فيها أن كسرى نهب سورة وأحرقها، وتجنب منج هذا المصير بدفع فدية، واستسلمت حلب بسرعة، أما إنطاكية فحاولت المقاومة ولكنها سرعان ما اضطرت إلى الاستسلام، فأُحرقت وسُبي أهلها إلى مكان قرب طيسفون. وطلب جستنيانوس شروط المهادنة، فطلب كسرى مبلغاً كبيراً من المال، ثم أتاة ستوية للفرس، وأجرة حراسة ممرات القفقاز من هجمات البرابرة^(٢).

وفيما كان جستنيانوس ينظر في هذه الشروط، كان كسرى يواصل حولاته، فأدرك البحر المتوسط مرة أخرى عند سليوابة (السويدية، قرب إنطاكية) واجتاح قلعة المضيق (شمال غرب حماة) وقنسرين، وعادوا اجتياح منطقة الرها فاجتاز نهر الفرات تكراراً وهدد مدينة الرها بالحصار، فدفعت له فدية، فاستدار إلى حران وكونسطنطينية، ولم يتمكن من دارا. إذًاك أبلغه جستنيانوس قبول شروطه. لكن الإمبراطور البيزنطي ظن في ربيع ٥٤١ م. أن الوقت حان ليثأر، بعدما انتهى قائده بليزاريوس من حربه في إيطاليا، فحشد جيوشه وفي مقدمها فرسان العرب يقودهم الحارث بن جبلة، ووضع خطط اجتياح يادية الشام لاسترداد ما انتزعه كسرى. وبعد مداولات أعرب فيها بعض القادة البيزنطيين عن خشيتهم من احتمال أخذ المنذر فلسطين وسورية على حين غرة، وهم منشغلون في ملاحقة كسرى، اتفق على بدء الهجوم المضاد، فتقدم الحارث بن جبلة حتى وصل إلى نهر دجلة، وتحلّفت القوات البيزنطية عنه، فعاد إلى حوران محملاً بالغنائم، فيما كان البيزنطيون يظنون المظان به ويتهمونه بالتخلي عنهم من أجل الاستتار بالغنم. وفي ربيع ٥٤٢ م.، عاد كسرى من جبهة أرمينية واجتاز الفرات وضرب

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٢١. وانظر كذلك ابن العبري: ص ٨٧ - ٩١

(٢) Devreesse: op.cit., p. 288

حصاراً حول الرصافة، لكنه طلب في الوقت نفسه مفاوضات بيزنطيين لوضع شروط السلام، ثم انسحب بعدما هاجم الرقة وسبي جمعاً من سكانها. وفي سنة ٥٤٣م. تجدد القتال على جبهة أرمينية، وفي السنة التالية رجع كسرى إلى اجتياز الفرات، وضرب حصاراً غير مُجدٍ حول مدينة الرها، فانسحب وتبادل السفراء مع جيتيانوس حتى اتفق في سنة ٥٤٥م. على شروط هدنة خمس سنوات^(١). وقد ذكر الطبري تلك الشروط بقوله: وأما سائر مدن الشام ومصر فإن يخطيانوس ابتاعها من كسرى بأموال عظيمة حملها إليه وضمن له فدية يحملها إليه في كل سنة على أن لا يفزو بلاده. وكتب لكسرى بذلك كتاباً وختم هو وعظماء الروم عليه، فكانوا يحملونها إليه في كل عام^(٢).

-و- أزمة الوكلاء العرب

ظلت علاقات الفرس والبيزنطيين بوكالاتهم العرب في القرن السادس جيدة، طالما كانوا يحتاجون إلى أداة عسكرية يستخدمونها في الصحراء، أو يختبئون خلفها حين يبتغون عملاً عسكرياً لا يلزمهم ولا يورطهم سياسياً. لكن هذه العلاقة أخذت تتبدل، وبدأت الدولتان الكبريان تبديان مظاهر الامتناع من الحليفين اللخمي والغساني، خصوصاً في معاهدة السلام التي عقدها سنة ٥٦١م. ويبدو أن الطابع العسكري شبه الصرف الذي طبع دولتي المنافرة والفساسة فيما يزيد على نصف قرن من المواجهة بينهما، والإنهاك الاقتصادي الذي أصاب بيزنطة والفرس من طول الحرب بينهما بلا توقف منذ بداية القرن السادس، وحاجتهما إلى تنشيط خط التجارة التي توقف دققها، فتوقف ريعها بينهما، وعجز الدولتين العربيتين الوكيلتين عن تولي شؤون الخط التجاري المنشود، لافتقارهما إلى الشبكة اللازمة لتسيير هذا الخط، قد جعلت الدولتين الكبيرين تنفقان، ولو على نحو مؤقت، على محاولة لجم الوكلاء العرب. وقد تطورت العلاقة بين بيزنطة والفساسة فمحض الروم حليفهم أولاً الدعم والثقة، وتطلعوا بعطف إلى نمائه وتعاظم قوته. وبدأت المرحلة الثانية حين أخذ الروم

(١) Devreesse: op.cit., pp. 288 - 291

(٢) الطبري: التاريخ، ج٢، ص ١٢٢.

يشعرون أن حليفهم يقلقهم في علاقتهم بالفرس، من جراء حربه مع نظيره اللخمي وكيل الفرس، ويقيدهم ويحصر حرية عملهم^(١). وقد بدأت مظاهر هذا التدمير تبدو على الفريقين البيزنطي والفارسي معاً، على نحو رسمي واضح، في معاهدة السلم التي عقدها سنة ٥٦١ م.، بعدما سار كل من المنذر والحارث أشواطاً بعيدة في مغامراتهما العسكرية، أحدهما ضد الآخر، وتحولت هذه المغامرات إلى سجال شخصي خارج على نطاق حاجات الدولتين ومصالحهما. فبعد هدنة ٥٤٥ م. استمرت نار الحرب بين الرجلين سنة ٥٤٦ م.، فالتقى فيما يقال إنه يوم حليلة الشهر في أيام العرب، وقُتل المنذر ابن الحارث، لكن الملك الفساني انتصر في ذلك اليوم انتصاراً عظيماً، كاد فيه أن يأسر اثنين من أبناء المنذر. وقد امتنع كل من جستينانوس وكسرى عن التدخل في هذه الحرب. وعاود الخصمان اللدودان القتال سنة ٥٥٤ م. حين أغار المنذر على جوار قنشرين، فلقية الحارث وقتله، فيما يُقال إنه عين أباغ^(٢). ويُستدل من المواد العسكرية في معاهدة ٥٦١ م.، أن الفريقين البيزنطي والفارسي سعيًا، وهما بضعان نص المعاهدة، إلى تجنب استخدام المناذرة أو الفساسنة الحجة التي استخدمها المنذر سنة ٥٣٩ م. حين أغار على جوار تدعر، وتفرع بأن معاهدة سنة ٥٣٢ م.، لم تأت على ذكر العرب. فجاء في المعاهدة الجديدة أن على العرب حلفاء كل من الدولتين، أن يلزموا هم أيضاً أحكام المعاهدة، فيمتنع العرب حلفاء الفرس عن حمل السلاح ضد الروم، ويمتنع العرب حلفاء الروم عن حمل السلاح ضد الفرس^(٣)، وقد تطورت هذه المرحلة من العلاقات بين الروم والفساسنة (والفرس والمناذرة) في أواخر القرن السادس إلى قرار بيزنطي لإلقاء العيالة الفسانية بعض الوقت، على الرغم من أن الحرب مع الفرس لم تتوقف، وعلى الرغم من أن التجارة الشرقية لم تستبد نشاطها عبر

(١) Shahid: the Arabs in the Peace Treaty.... p. 212.

(٢) الأندلسي: نشوة...، ص ٢٧٧. وانظر أيضاً Devresse: op cit. p. 294. وكذلك جواد علي:

جد ٣، ص ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٧.

(٣) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty.... p. 197.

الفرات، مثلما كان يؤمل. ولعل استعراض المادة الخامسة في معاهدة ٥٦١ م.، وهي تتناول تنظيم التبادل التجاري، يمهد السبيل إلى فهم بعض أسباب فشل محاولة الدولتين في هذا الشأن، ويسهل بالتالي فهم بعض جوانب الحالة الدولية التي ساهمت في انتقال دفق التجارة إلى طريق القوافل المكيّة.

لقد نصت المادة الخامسة على أن يُحضّر العرب تجارتهم إلى دارا على الجانب الفارسي، ونصّيين على الجانب البيزنطي من الحدود، وألاً يهربوها، لثلاً يُعاقَب المهربون وتصادر بضاعتهم. وقد ذكرت المعاهدة العرب بالاسم في هذه المادة، فأكدت مكانتهم في الوساطة التجارية. ويتفق غرض المادة الخامسة هذه مع غرض المادة الثالثة التي دعت إلى إحكام عمل الأجهزة الجمركية بين الإمبراطوريتين لتحسين دخل خزintيهما. وقد أظهر كسرى في شروط السلم التي كان يعرضها في حروبه، إصراراً على جباية أتاوات من البيزنطيين، لملء خزintه، فيما كانت بيزنطة راغبة في تحسين دخلها للإتفاق على المباني والحروب التي خصّص جستنيانوس معظم موازنته بها. ولم يكن تهريب البضائع مفيداً لأي من الدولتين، لأن الفرس كانوا على الخصوص يرغبون في إحكام احتكارهم لتجارة الحرير الشرقية، أما بيزنطة فكانت تجارتها الشرقية تجارة امتيراد فقط، وكانت الجمارك هي الكسب الوحيد المتاح لها من هذه التجارة، ولذا احتلت جزيرة يوتابه (تيران، على مدخل خليج العقبة) مكانة رفيعة في السياسة البيزنطية التجارية والعسكرية. ضمن هذا الإطار يصبح فهم موقف الدولتين متاحاً. لكن أثر هذه المادة على المدى الطويل، لم يكن محسوساً تماماً. وقد دفعت أحكام المادة الخامسة بتجارة الشرق إلى إتخاذ طريق القوافل عبر الجانب الغربي من جزيرة العرب في الإجمال^(١). ذلك أن هروب التجار العرب من الأسواق الرسمية التي عيّنتها معاهدة ٥٦١ م.، وأتباعهم طريقاً أخرى كان يُفترض ألا يفيدهم كثيراً، لأنهم في نهاية الأمر لا بد من أن يحملوا هذه التجارة إلى سوقهم

(١) Devreesse: op.cit.، وانظر كذلك: Shahid: The Arabs in the Peace Treaty...., pp. 192 - 196

الكبرى: السوق البيزنطية، حيث سيدفعون المكوس على أية حال. ولا مفر إذن من هذه السوق، وإلا اكتفوا بتجارة محلية في جزيرة العرب، وبطلت تجارتهم الدولية. لكن بيزنطة كانت تنفيذ من تحويل هذه التجارة العربية إلى طريق مكة، لسبب بسيط، هو أن البضاعة الآتية عبر الفرات كانت تُدفع مكوسها مرتين: مرة للخبزينة الفارسية ومرة للخبزينة البيزنطية. ولذا أبدت بيزنطة تشجيعاً واضحاً لتجارة القوافل المكية غير مرة، على نحو ما سنبينه لاحقاً، في هذا الفصل. وكان هذا يناسب التجار العرب لأنه جعلهم يدفعون المكوس مرة واحدة بدل مرتين.

فإذا أخذ في الحسبان مضمون المادة السادسة من معاهدة ٥٦١ م.، وهي مادة تحظر على القبائل العربية اجتياز الحدود من أراضي دولة إلى أراضي أخرى^(١)، يتضح في نهاية الأمر أن بيزنطة والفرس إنما سعيا في هذه المعاهدة إلى إحكام سيطرتهم مباشرة على العرب، في بادية الشام وجوارها، وإلى تقليص الدور العسكري المستقل الذي اضطلعت به دولتا الوكلاء المناذرة والغساسنة. وفيما كان يؤمل أن تؤدي المعاهدة إلى تنشيط الخط التجاري عبر الفرات، أضيفت أحكام المادة الخامسة في الواقع إلى الحروب المستمرة معظم سنوات القرن السادس، لتدفع بتجارة الشرق إلى غرب جزيرة العرب. وهكذا أخفقت دولتا العمالة العربية في أداء الدور التجاري المطلوب، وفي الاحتفاظ بقوة دورهما العسكري الذي كان مسوغاً لوجودهما أصلاً، وكان حتماً أن تبدأ أزمة وجودهما التي انتهت بقلوصهما والاستغناء عن دولة المناذرة عند مطلع القرن السابع، فيما كان الخط التجاري يُحدث في مكة الازدهار الذي أحدثه من قبل في البتراء وتدمر وغيرهما، بعيداً عن متناول القوتين الكبيرين اللتين حاولتا عبثاً ضبط الخط التجاري المكي وترويضه ضمن إطار نفوذهما.

ج- محروب نهاية القرن

لم تترد العلاقات البيزنطية مع غسان، والفارسية مع الحيرة فجأة، ولا

(١) Shahid: The Arabs..., pp. 196, 197. وانظر كذلك: Devresse, op. cit., p. 295. وجواد علي:

تردّت في الوقت ذاته. بل كان التردّي تدريجياً، وساءت علاقة الروم بحلفائهم قبل حدوث مثل هذا الأمر بين الفرس وحكّام الحيرة بما يزيد على عشرين سنة. ففيما بدأ البيزنطيون تقييد المُلك الفُسّاني بعد أسر المنذر بن الحارث سنة ٥٨١ م.، ثم ابنه النعمان بن المنذر سنة ٥٨٢ م.، لم يبدأ حكم الفرس المباشر لعرب الحيرة قبل سنة ٦٠٤ م.، عندما أخذ كسرى يعيّن حكاماً من غير أسرة المناذرة اللخمين. وقد بدأ اضطراب العلاقة يظهر منذ سنة ٥٨٠ م.، حين عيّن كسرى سهراب حاكماً للحيرة. لكن حكم سهراب لم يُعمر سوى أشهر، عاد الحكم بعدها للمنذر الرابع بن المنذر (٥٨٠ - ٥٨٣ م.).

لم يكن لجم الفرس والبيزنطيين للعرب في معاهدة ٥٦١ م.، دليلاً على رغبة صادقة في السلام، مقدار ما كان دليلاً على رغبة في استخدام الوكيلين العربيين في الحرب والسلام، وفقاً لمصالح الدولتين الكبيرين، لا مصالح الوكيلين وحدهما. وقد أثبت كسرى، فيما لا يتعدّى الأربع السنوات بعد المعاهدة، أنه لا يزال يوعز إلى حليفه لمهاجمة أراضي الروم، ويتظاهر هو بعدم خرق شروط السلام. ففي سنة ٥٦٦ م.، أرسل عمرو بن المنذر (٥٥٤ - ٥٦٩ م.) الذي تولّى الملك في الحيرة بعد مقتل والده، أخاه قابوساً ليهاجم بلاد الشام. وكانت حجة عمرو في ذلك أن جستنيانوس الإمبراطور البيزنطي كان يدفع له كل سنة مائة رطل ذهباً منذ عقد المعاهدة، فلما مات جستنيانوس وتولّى العرش جستينوس الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨ م.) أوقف دفع هذه الأتاوة، ثم فشلت المفاوضات لاستئناف دفعها. أما الذي جعل كسرى يفضّ بصره عن هجمات المناذرة، فهو أن جستينوس كان يحاول كسر احتكار الفرس لتجارة الحرير، بعقد عهدة تجارية مع خان التتر. كذلك أوقف الإمبراطور البيزنطي دفع ثلاثين ألف دينار كان سلفه يدفعها كل سنة لكسرى^(١). ويبدو أن جستينوس لم يكن حريصاً في دفع ماله للفرس والمناذرة وحدهم، بل لحلفائه الفُسّاني أيضاً، إذ يرى ابن العبري أن سبب القطيعة التي كانت بين المنذر الفُسّاني وجستينوس هو مطالبة

(١) Devreesse, op.cit., p. 295. والديس: ج ٤، ص ٤٤٦. وجواد علي: ج ٣، ص ٢٥٤.

و Trimmingham: Christianity among..., p. 198.

المنذر بالمال ليتمكن من إعداد جيش قوي منظم يستطيع الوقوف به في وجه الفرس^(١). وهذا يؤكد ما سلف، أن بيزنطة كانت منهكة بفعل استمرار الحرب، وكانت تسعى إلى تعزيز موارد موازنتها، فلا تستطيع ذلك بمواصلة الدفع للأعداء والحلفاء، ولا بوقف الدفع والمخاطرة بغرض حرب أعظم كلفة من السلام الذي يُشترى بالمال. وعلى الرغم من أن قابوس بن المنذر اللخمي كان قد بدأ الحرب في عهد أخيه عمرو سنة ٥٦٦ م، إلا أن الفرس لم يشتركوا علناً بالحرب إلا في سنة ٥٧٢ م، وقد استمرت عشرين عاماً. كان البيزنطيون يتنمرون من دفع الاتاوات ومن غزو الفرس اليمن وهو منطقة كانت بيزنطة تُدخلها في عداد مناطق نفوذها منذ أن غزاها الأحباش قبل نحو من نصف قرن^(٢).

بدأت الحرب بهجمة بيزنطية عبر الحدود الفارسية عند الجفجاء في خريف سنة ٥٧٢ م. وردّ كسرى باجتياز الفرات في الاتجاه الآخر، مستفيداً من ضعف الدفاع البيزنطي والخلاف مع القساسنة، فوصل إلى أفامية (شمال غرب حماة) فأحرقها وعاد أدراجه، دون أن يلقى مقاومة، فيما كان الجيش البيزنطي يحاول عبثاً محاصرة نصيبين، ثم ينسحب إلى ماردين متخلياً عن دارا. وعُقدت هدنة قصيرة ومفاوضات للسلام، لكن الفرس اجتاحت وادي الخابور الأعلى وساروا إلى أرمينية وقبدوقية، ثم انسحبوا^(٣).

وفيما كان المنافرة يشطون مع الفرس، حدثت القطيعة بين المنذر الفسائي وبيزنطة. ويعتقد روتشتاين أن هذه القطيعة التي توسّطت الحرب ودامت ثلاث سنوات، انتهت سنة ٥٧٨ م^(٤) واغتنمها قابوس ليشن هجمات على بلاد الشام. وعاود الفريقان التفاوض في سنة ٥٧٦ وسنة ٥٧٧ م، لكن الحرب استمرت. وهجمت قوات بيزنطية يقودها موريقيوس (Mauricius) الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد (٥٨٢ - ٦٠٢ م) على الفرس فيما بين النهرين، وردتهم حتى سنجار، واستؤنفت مرة أخرى مفاوضات السلام. وفيما كانت معاهدة

(١) ابن العبري: ص ٨٧. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٣، ص ٢٥٩.

(٢) Devroeme: op.cit., pp. 293 - 297.

جديدة قيد الإعداد مات جستينوس الثاني (في تشرين الأول/ أكتوبر ٥٧٨ م). ثم مات بعده كسرى (آذار/ مارس ٥٧٩ م). وحل طياربوس (Tibarius: ٥٧٨ - ٥٨٢ م). وهرمزد الرابع (٥٧٩ - ٥٩٠ م) محلهم، فلم يُفلح في الاتفاق. وفي هذه الأثناء كان المنذر القسائي قد عاود القتال إلى جانب الروم بعدما صالحه طياربوس. لكن التبعات بفشل الحملة التي قادها موريقوس لاجتياز الفرات بمعونة العرب الغساسنة، ألقيت على عاتق المنذر الذي اتهمه القائد البيزنطي بالخيانة. وكان اعتقال المنذر سنة ٥٨١ م، وسوقه مخفوراً إلى جزيرة صقلية أيداناً لبدا ثورة عربية على بيزنطة يقودها النعمان بن المنذر القسائي. وفي سنة ٥٨٢ م. أحرق الفرس الرها، ثم أخذ ميدان القتال ينتقل إلى الشمال، حتى تطورت الأمور على نحو غير مرتقب في سنة ٥٩٠ م. حين حدث تمرد فارسي على كسرى، إمبراطور الفرس الجديد، فلجأ هذا إلى عدوه موريقوس طالباً بمعونته. فلما عاد كسرى إلى عرشه كافأ الإمبراطور البيزنطي سنة ٥٩١ م. بمعاملة حسنة الشروط، وكان لا شك مسروراً بنقضها حين قُتل موريقوس سنة ٦٠٢ م.، فاتخذ الفرس مقتله ذريعة لشن الحرب من جديد. لكن هذه الحرب كانت حرباً بلا وكلاء عرب في الجانب الفارسي، فيما عاد الغساسنة إلى الصف البيزنطي. وقد بدأت حينئذ تظهر في الأفق نذائر حرب شاملة^(١)، فسقطت بيد الفرس دمشق (٦١٣ م). ثم القدس (٦١٤ م). ثم مصر (٦١٩ م)، وشن هرقل (Heraclius) إمبراطور الروم الجديد (٦١٠ - ٦٤١ م) هجومه المضاد، فيما كان العرب يدركون ذروة جديدة في أزمة الولاء، بينما كان مشروعهم المستقل في داخل جزيرة العرب، يشق طريقه شيئاً فشيئاً إلى البزوغ.

ثانياً: الصراع في جنوب الجزيرة العربية

١- الحبشة واليمن في التاريخ

إذا لاحظنا أن أهم طرق التجارة الشرقية الآتية من المحيط الهندي وسواحله إلى

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٣٦ - ١٤٠. وابن المبري: ص ٩٠. والديس: ج ٤، ص ٤٥٩، ٤٥٢. وكذلك Devresse. op.cit., 297, 298, 299, 305, 306. وجواد علي: ج ٣، ص ٤١٢ - ٤١٩.

البحر المتوسط، هي طريق الخليج إلى الفرات فبادية الشام، وطريق البحر الأحمر إلى جنوب فلسطين ومصر، وطريق القوافل البرية في الجزيرة العربية، فإن اليمن يتحكم باثنتين من هذه الطرق. ولذا كانت السيطرة على اليمن عاملاً من أهم عوامل السياسة الدولية حيال تجارة الشرق منذ أن بدأ الصراع الدولي في هذا المجال. ومثلما ارتبط تاريخ الشام ارتباطاً وثيقاً بتاريخ اليمن، لوقوعهما على الطرفين الشمالي والجنوبي لبعض هذه الطرق، ارتبط تاريخ اليمن أيضاً بتاريخ الحبشة لتقاسمهما الإطلال من الضفتين على المدخل الجنوبي إلى البحر الأحمر. وقد زاد من وثوق العلاقة بين اليمن والحبشة أن شعوب المرتفعات اليمنية عبر العصور الغابرة وظبت على الهجرة إلى شمال الحبشة فنقلت معها ثقافتها وحضارتها السامية، وامتزجت بالقبائل الكوشية وتوحدت معها، لكنها ظلت على ما يبدو تتطلع إلى موطنها الأصلي. وكانت المصالح السياسية والتجارية تميل ميلاً شديداً إلى استثمار هذا التوق كلما بدت فرصة وظهرت حاجة إلى ذلك. وقد التفت رومة منذ القرن الأول للميلاد على الأقل، صوب مملكة سبأ ومدنها التجارية، وتحالفت مع الأحباش لتحقيق مصالحها في اليمن، بعدما اعترض اليمنيون السفن الرومانية. واستولى الأحباش على اليمن، ثم استولى الرومان أنفسهم على بعض المواضع في اليمن أيام الإمبراطور كلاوديوس (Claudius : 41 - 54 م.) على الأرجح^(١). وكان الغرض الذي سعى إليه الرومان، ثم البيزنطيون والأحباش بسياستهم الاقتصادية والتجارية هو إنشاء اتصال تجاري مع الهند من غير وساطة العرب الجنوبيين أو الفرس^(٢). ولم يكن بلوغ هذا الغرض ممكناً في جميع الظروف.

فقد تبين من استعراض تاريخ بلاد الشام، منطقة للصراع السياسي والعسكري بين بلاد الفرس وكل من رومة وبيزنطة، على تجارة الشرق، فيما مضى من هذا الفصل، أن «الغرب» كان في كثير من الأحيان يضطر إلى مسالمة الفرس والاتجار معهم عبر خط الفرات والصحراء السورية. لكن سقوط تدمر في

(١) Devresse: op.cit., p. 278

(٢) Shahid: The Conference..., p. 127

أواخر القرن الثالث للميلاد، واتصال الحروب الفارسية البيزنطية طول القرن السادس تقريباً، جعلاً استمرار تدفق التجارة عبر الطريق الفراتية أمراً صعباً إن لم يكن متعذراً. وكان منطقياً أن تتطلع رومة ثم بيزنطة إلى الطرق الأخرى، وبخاصة البحر الأحمر.

لقد غزا الأحباش اليمنَ غزوتين كبيرين، ولم يكن صدفة أن الأولى حدثت في أواخر القرن الثالث، أي بعد سقوط تدمر، وأن الثانية حدثت في الربع الأول من القرن السادس، أي في زمن توقف خطوط التجارة الآتية من الفرات واشتداد الحاجة إلى خطوط البحر الأحمر والحجاز. فلقد حفظ لنا نقش أدوليس (إحدى مدن مملكة أكسوم الحبشية)، وهو نقش يُقدَّر زمنه بما بين سنتي ٢٧٧ و ٢٩٠ للميلاد^(١)، ذكر غزوة شنّها الملك الحبشي آنذاك من «لوكي كومي» (الحوراء، على شاطئ البحر الحجاز)، لاحتلال اليمن. ولم تعرف بالضبط بعد سنة هذه الغزوة، لكنها حدثت حتماً بعد سقوط تدمر، وبقيت آثارها طويلاً، ولم تكن قتالاً عابراً مثل كثير من المجابهات اليمنية الحبشية، بل استمرت نحواً من قرن. وفي هذه المرحلة لُقّب النجاشي الحبشي أفيلاس بملك أكسوم وحمر وريدان والحبشة وسبأ وسلحين وتهامة والبراءة. وبلغت المملكة الحبشية ذروة مجدها واتساعها في عهد الملك عيزانا (٣٢٠ - ٣٤٢ م. تقريباً)، وكان أول ملك حبشي يعتنق المسيحية. وبعده أخذت قبضة الأحباش على اليمن نهْ، بسبب ثورة نشبت في جنوب الحبشة. وقد حاول الإمبراطور البيزنطي قسطنطينوس الثاني أن يُنجد الاحتلال الحبشي والنفوذ البيزنطي في اليمن، فأرسل سنة ٣٥٤ م. تقريباً تيوفيلوس الهندي (Theophilus Indus) من جزيرة سُقُطرى للتفاوض مع الأمراء الحميريين، في مهمة ظاهرها ضمان حرية العبادة للنصارى الروم القاطنين في اليمن. ويُعتقد أن جوهر المهمة هو ضمان حسن معاملة اليمنيين للتجار الروم، واتخاذ موقف محايد بين الفرس وبيزنطة. غير أن المهمة فشلت

(١) Trimingham: Islam in Ethiopia..., pp. 36, 37 وكذلك Devreese: op.cit., pp. 278, 279.

وانظر أيضاً: Trimingham: Christianity among..., p. 288. والصولي، إبراهيم محمد: قصة

أصحاب الأخدود، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٣ - ١٥، ٣٦ - ٣٨.

لأن الأقبال الجعفرين كانوا يرون أن بيزنطة كانت تساند الحبشة، عدو حمير التقليدي. وفي سنة ٣٧٥ م، ثار الملك الحميري ملكي كرب يهأمن على الاحتلال الحبشي، وطرد الأحباش في غضون ثلاث سنوات^(١).

أما الغزوة الحبشية الكبرى الثانية لليمن فحدثت في الربع الأول للقرن السادس، في الزمن الذي شهد بدء الحروب البيزنطية الفارسية الطويلة. وهي حروب لم تتوقف إلا بظهور الإسلام (سيُفرد لهذه الغزوة باب خاص في هذا الفصل)، ولا شك أن النزاع بين الأحباش واليمن لم يقتصر على هاتين الغزوتين الكبيرتين^(٢)، وأن غزوة القرن السادس كانت بإيعاز بيزنطة وتعصيدها على ما سنبين، فيما يوحى انطلاق الغزوة الأولى من مرفأ لوكي كومي، الذي كان بعد سقوط تدمر ضمن مدى النفوذ الروماني، بأن رومة لم تكن معارضة لهذه الغزوة، بل ربما كانت هي الموحية بها.

ب- مسيحيو بيزنطة ويهود فارس

يتفق المؤرخون على القول إن بيزنطة استخدمت العقيدة المسيحية في اليمن لخدمة أغراضها التجارية، فيما كانت اليهودية معقلاً للنفوذ السياسي الفارسي هناك. ويقول سميت: «ليس من سبب للاعتقاد أن هذه العقائد الدينية لم يكن اعتناقها مخلصاً. ذلك أن فكرة حصر الحوافز في تلك الحقبة بواحد فقط من أصل الحوافز الدينية والسياسية والاقتصادية، هي فكرة ساذجة، قد تؤدي بنا إلى عدم فهم الدوافع الاقتصادية لدى الدول المتورطة في الصراع. فالحبشة مثلاً ولم تكن مهتمة بالتجارة الهندية، على ما يبين بروكوبيوس»^(٣) ولو لم تكن الحبشة حليفة لبيزنطة، لأسباب أخرى، بعضها ديني وبعضها سياسي، بل واقتصادي، لما استقام لهما أن يبادرا إلى مشروع مشترك لغزو اليمن غير مرة.

(١) يمدد جواد علي مختلف أعمال الأحباش في اليمن منذ قيام النصرانية. انظر جواد علي: ٣٤، ص ٤٥٢ وما بعدها.

(٢) Smith: op.cit., p. 463. وأيد بيضون فكرة الحوافز السياسية لدى المبشرين. انظر بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٨، ٥٩.

لم تكن الحدود البيزنطية الجنوبية قد تبدلت كثيراً منذ العصر الروماني، فبقيت عند تخوم المقاطعة العربية على مشارف الحجاز الشمالية. وكان للبيزنطيين الجزر في خليج القلزم وخليج العقبة، حيث اتخذوا مراكز لجباية الضرائب من أصحاب السفن ولحماية البحر من قراصنته. وكان ميناء القلزم (قرب السويس في مصر اليوم) بحوزتهم، وفيه كان يقيم وكيلهم التجاري لمراقبة السفن والتجارة وإصدار التعليمات. لكن تجار بيزنطة وغلوا جنوباً حتى وصلوا إلى أدوليس (قرب ميناء مَصْرُوع) ولم يُبحروا أبعد من ذلك في معظم الأوقات، بل كانوا يتعاونون حاجتهم هناك من التجار الهنود أو العرب أو الإفريقيين^(١).

كانت للبيزنطيين مصالح تجارية وسياسية ودينية في الحبشة. وكانت هذه المصالح كثيراً ما تلتقي ببعض المصالح الحبشية، أو يجمعهما. بل كثيراً ما كانت المصالح السياسية والاقتصادية والدينية منسجمة تمام الانسجام، إذ كان نشر الديانة المسيحية عند ملوك الروم وسيلة لنشر استعمارهم وترسيخ أقداسهم في بلاد أعدائهم على ما يراه ولفنسون الذي يضيف: «وكان الروم يحسبون حساباً كبيراً للحبشة، إذ كانت على طريق تجار الهند من ناحية، كما كانت على تخوم بلاد مصر من ناحية أخرى». ولا ييدي ولفنسون، وهو يهودي، شخفاً بما حاولت بيزنطة أن تفعله في اليمن إذ يقول: «وقد اجتهد الروم في نشر المسيحية في بلاد حمير، فأرسل قسطنطين هدايا إلى ملوك حمير فوُثق إلى تعمير ثلاث كنائس لتجار الروم في اليمن. على أن الغرض الحقيقي من هذه الكنائس كان ترسيخ قدم الاستعمار الرومي في تلك البلاد»^(٢). غير أن اليهودية أيضاً سعت إلى أن تفعل ما سعت إليه بيزنطة والحبشة، فقال الدوري: «حاولت المسيحية واليهودية أن تغلغلا في الجزيرة العربية وكانا متصلتين بالصراع السياسي، إذ بدت كل منهما حليفة لإحدى الدولتين الطامعتين»^(٣). ولم يكن اليهود وحدهم متحالفين مع الفرس في تطلمعهم إلى اليمن والشواطئ المطلّة على المحيط الهندي، بل

(١) Rodinson: op.cit., p. 29. وجواد علي: ج ٢، ص ٦٥٧.

(٢) ولفنسون: ص ٢٦٠.

(٣) الدوري: مقدمة في التاريخ الاقتصادي... ص ٩، ١٠.

انتشر النفوذ الفارسي على شواطئ الخليج، مع انتشار الكنائس المسيحية النسطورية^(١). وكان انتشار اليهود جيداً على شواطئ البحر الأحمر حتى النيل، من مصر إلى الحبشة، فيما امتد وجود اليهود في الجزيرة العربية من خيبر وشرب جنوباً حتى اليمن. وكان هذا الانتشار على جانبي البحر الأحمر وعلى طول طريق القوافل البرية حتى فلسطين ملائماً جداً لجعلهم بضائعهم بمهام خطيرة في الصراع السيامي على طرق التجارة الشرقية، بخاصة لعدم افتقارهم إلى الخبرة التجارية ورأس المال اللازم والحواجز السياسية المناهضة لرومة ثم بيزنطة^(٢). وقد يكون امتداد اليهود على طول الطريق من فلسطين إلى اليمن قديماً جداً، إذ إن إحدى كتابات القبور في جنوب شرق حيفا ذكرت عن «منحمة قولن حمير»، أي مناحيم قبل حمير، أنه جاء إلى فلسطين لزيارة العلماء اليهود، فمرض ومات هناك. ورجح أن يكون تاريخ الكتابة قريباً من سنة ٢٠٠ م^(٣). وهذا قد يدل على أن اليهودية دخلت اليمن قبل عهد الملك أسعد أبي كرب في أوائل القرن الخامس^(٤). إلا أن النقوش التي ذكرت التحول الديني عن الوثنية في أواخر القرن الرابع، إلى دين يقول الإخباريون إنه اليهودية، هي أول دليل أثري على أن اليهودية ربما أصبحت ديناً «رسمياً» في اليمن. وقد نسب ولفسون هذا التحول إلى حوافز سياسية حين قال إن «سبأ اتحدت مع جميع العناصر القومية في اليمن وطردت الأقباش من ديارها تحت قيادة الملك كرب، وكان قد تهودت ذريته حوالي ٤١٠ بعد المسيح واستمر حكم هذه الأسرة الحميرية المتهودة إلى عهد ذي نواس الذي انهزم أمام الحبشة سنة ٥٢٥ بعد الميلاد»^(٥).

ج- دخول النصرانية اليمن

أما النصرانية فدخلت اليمن في أعصر مختلفة ومن مصادر مختلفة، ولذا

(١) Rodinson: op.cit., pp. 7, 8.

(٢) Trimmingham: Islam in Ethiopia, pp. 35, 41. ويضون: الحجاز... ص ٧٥.

(٣) جراد علي: ج ٦، ص ٥٣٩.

(٤) Von Wissmann: Himyar Ancient Hist., pp. 492, 493. وانظر أيضاً الصلوي: ص ١٨.

(٥) Von Wissmann: ibid. وكذلك ولفسون: ص ٢٤٠.

تتباين الروايات العربية والسريانية والحشية والبيزنطية في هذا الشأن. والثابت أن النصرانية دخلت اليمن من الشام والعراق من طريق القوافل التجارية، ومن الحبشة في ظل المبشرين والتجار والجنود^(١). وطبيعة البلاد المفتوحة وإقبال أصحاب المصالح عليها من أجل التجارة، جعلها مرفأً قاتناً، بين عدن وحضرموت، مركزاً مبكراً للمسيحية إذ جاءه المبشرون والتجار من بيزنطة والحبشة والخليج^(٢). والشائع لدى كثير من المؤرخين السريان، أن أول من دعا إلى النصرانية في اليمن والحجاز، هو الرسول برتلمئوس، وأنه نصر خلقاً كثيراً من اليمنيين، وبخاصة اليهود منهم، وترك لديهم نسخة من إنجيل متى باللغة الآرامية، فوجدها لديهم الفيلسوف الإسكندري بنتينوس (Pantaenus) أستاذ المدرسة الإسكندرية اللاهوتية الذي أوغل في تلك البلاد مبشراً في أواخر القرن الثاني. وقد اشتد الصراع بين الروم والفرس على اليمن في أواخر عهد الاحتلال الحبشي يُعَدُّ منتصف القرن الرابع في عهد الإمبراطور قسطنطينوس الثاني الأريوسي، الذي حاول تعزيز التحالف اليمني مع الحبشة وبيزنطة وأرسل ثيوفيلوس الهندي على ما سلف، إلى بلاط حمير ليتوسط من أجل بناء ثلاث كنائس للتجار الروم، واحدة في عدن وثانية في ظفار وثالثة في مُرْمَز على الأرجح. لكن المهمة التي نجحت في ذلك بعض الوقت فشلت في تثبيت التحالف السياسي طويلاً، فنار اليمنيون على الأحباش وطردوهم^(٣) لتحل اليهودية محل المسيحية في موقع عقيدة الدولة. إذ كان اليمنيون يرون على ما يبدو أن النصرانية هي دين أجنبي أحضره أغراب. ولا غرو لو نظر اليمنيون إلى معتنقي هذا الدين، ضمن تلك الظروف التاريخية، نظرتهم إلى مَنْ انحاز إلى المحتل الحبشي^(٤). وقد سلفت الإشارة إلى ما ذكرته بعض الكتب المسيحية عن رجل، قالت إنه من غسان، وقد إلى اليمن في النصف الثاني من القرن

(١) Von Wisnann, p. 492. وانظر الصلوي: ص ٢٤.

(٢) Shahid, Irfan: Byzantium in South Arabia, Dumbarton Oaks Papers XXXIII, 1979, Dum-

barton Oaks Center for Byzantine Studies, Washington, p. 49.

(٣) Von Wisnann, p. 493. وانظر الصلوي: ص ٣٦.

(٤) Devreesse: op.cit., p. 279 (٤)

الخامس، وتمكّن من تنصير ملكها عبد كلال بن مثوب، وكيف وأن حمير وثبت عليه وقتله^(١). كذلك، روت بعض التواريخ الدينية عن كاهن نصراني يدعى أوزير كان يقيم في نجران، فدعا أهل تلك المدينة إلى النصرانية، فأمر ملك حمير شرحبيل ينكف بحبسه، فأفلت من السجن وعقد جمعاً كثيراً ثم قُتل مع ثمانية وثلاثين من أتباعه. وقد أصبحت نجران كرسياً أسفياً لأنصار الطبيعة الواحدة في العقد الثاني من القرن السادس، أي في عز اشتداد الصراع الحميري الحبشي. وكان طبعاً أن يلقى انتشار النصرانية مقاومة شديدة، لارتباط الدين ارتباطاً وثيقاً بالمصالح السياسية والاقتصادية، ولأن بيزنطة أبدت نشر النصرانية على افتراض أن نشرها يمهد السبيل إلى بسط النفوذ السياسي والاقتصادي^(٢). بل إن مجرد مجيء المسيحية مع التجار والمبشرين من الحبشة، كان يصيغ هذا الدين بالصيغة التي تثير شبهة الحميريين ومقاومتهم، بخاصة بعدما أصبحت المسيحية عقيدة رسمية للحبشة في منتصف القرن الرابع بفعل التغلغل البيزنطي التجاري والسياسي والديني، وبفعل جهود المبشرين السورثيين فرومونتوس الصوري وإديسيوس (Aedesius)، اللذين بشرا الملك الحبشي^(٣). وقد تطوّرت المقاومة اليمنية للمسيحية إلى صراع يهودي - مسيحي شامل في القرن السادس، على ما سنرى.

وأما اختلاف روايات دخول النصرانية في اليمن فسيبه على الأرجح أن كلاً من بيزنطة والنساطرة والعرب والأحباش أنصار الطبيعة الواحدة (الذين سُمّوا فيما بعد اليعاقبة)، أراد أن ينسب إلى ذاته شرف هذا الأمر. وتروي المصادر العربية عن رجل اسمه فيميون دعا الله أن يرسل على نخلة كانوا يعبدونها ريحاً صرصراً،

(١) الطبري: التاريخ، جـ ٢، ص ٨٦.

(٢) في شأن بيزنطة ونجران وبيزنطة وحمير انظر. Shahid, Byzantium (5c), pp. 360 sqq. 376 sqq. وكذلك الصلوي، ص ١٦، ٣٦ - ٣٨. والصلوي يشهد والكتب النصرانية التي تحدثت

عن أوزير ونصاري نجران.

(٣) Trimingham: Christianity and Trimingham: Islam in Ethiopia..., pp. 22, 38 وكذلك.

among..., pp. 288 - 293.

فأتت الريح عليها واهتدى الناس وآمنوا بدين فيميون. ونسب إخباريون دخول المسيحية اليمن إلى العربي الذي قالوا إنه نصر الملك عبد كلال في النصف الثاني من القرن الخامس. والقول إن هذا الرجل كان من غسان قد يعني أنه كان من أنصار الطبيعة الواحدة. ومن روايات العرب في تنصير اليمنيين قصة عبد الله بن النائم في نجران^(١) وكانت النصارى في نجران على مذهب الطبيعة الواحدة أيضاً. وتجعل المصادر النسطورية دخول المسيحية إلى اليمن في مطلع القرن الخامس، في عهدي أسعد أبي كرب ملك اليمن الذي تهوّد، ويزودج الأول إمبراطور الفرس. وتنسب هذه المصادر الفضل في ذلك إلى تاجر من أهل نجران اسمه حيّان أو حنان سافر إلى القسطنطينية ثم إلى الحيرة ونشر النصرانية في حمير. وهذه رواية معقولة، إذ إن النفوذ الفارسي في هذه المرحلة من تاريخ اليمن كان في تعاظم^(٢).

وردى البيزنطيون بالطبع رواية مختلفة، تنسب الفضل في تنصير اليمنيين إلى قسطنطينوس الثاني، الذي أرسل ثيوفيلوس الهندي إلى ملوك حمير في أوائل النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد، ونسب الأحباش سبق التنصير إلى حلفائهم في نجران^(٣). وتؤكد الأبحاث التي تناولت النصرانية في اليمن ومنها وشهداء نجران^(٤)، أن نصارى اليمن كانوا في معظمهم من أنصار الطبيعة الواحدة قبيل غزوة الأحباش سنة ٥٢٥م. وهذا يوحي بقيام علاقة وثيقة بينهم وبين الأحباش الذين كانوا على هذا المذهب أيضاً، وبينهم وبين بلاد الشام والفسانة ربما. لكن المذاهب الأخرى كانت قائمة أيضاً، إذ إن النسطورية انتشرت في شرق جزيرة العرب على الخصوص، ويُفترض أنها تعززت بعد

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٣. وكذلك سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٣٤.

(٢) جواد علي: ج ٩، ص ٦١٤.

(٣) جواد علي: ج ٩، ص ٦٠٨-٦٢٢. ويلاحظ أن المصادر اليونانية نسّيت اليمنيين والأحباش هنوداً. وتدعو هذه التسمية إلى الحذر سبب احتمال الخلط.

(٤) Shahid, Irfan: The Martyrs of Najran, New Documents, Société des Bollandistes, (٤)

Bruxelles, 1971. وفي هذا الكتاب انظر ص ٢٥٢-٢٦٠، في شأن ارتداد ملوك الحبشة عن

المسيحية وعودتهم إليها أوائل القرن السادس.

إجلاء الأحباش عن البلاد في سنة ٥٧٢م. كذلك يعتقد كل من شهيد وسميث أن أبرهة الحبشي الذي حكم اليمن نحواً من أربعين سنة كان خليفدينيًا، على الأرجح ولم يكن يعقوبياً على مذهب قومه، لارتباطه السياسي ببيزنطة^(١). ولذا تحوّل كثير من نصارى اليمن على ما يُفترض إلى المذهب البيزنطي الرسمي في أيامه، قبل الثورة اليمنية التي أعادت النفوذ في البلاد إلى الفرس.

د- بداية الصراع في القرن السادس

كانت أرض اليمن في بداية القرن السادس مهددة تماماً لامتداد الصراع البيزنطي الفارسي إليها. فقيما كانت بيزنطة تعزّز تحالفها مع الأحباش وتساند نفوذها ونفوذ المسيحيين في اليمن، كان الفرس يفضلون التعامل مع اليهود والمذاهب المسيحية المناهضة للروم، مثل النسطورية. وقد استطاع اليهود أن يحكموا اليمن، من أول القرن الخامس إلى أواخره تقريباً، وتمكنوا، على قول هارتمان، من تولّي الوظائف المالية في حكومة حمير ومن تنظيم موازنتها، فسيطروا على المراكز الحساسة. ويرى سميث أن سلطة اليهود استمرت في اليمن قوية خلال حكم السلالة الحميرية، منذ عهد تَبَّان أسعد أبي كرب في أول القرن الخامس، حتى عهد الملك مرثد ألن في أواخره. وكان جميع الملوك متهودين (بامتثناء عبد كلال بن مثوب بُعيد أواسط القرن)، ويتصلون اتصالاً وثيقاً بيشرب، مركز اليهود الأقوى في جزيرة العرب. ولكن نفوذ اليهود أخذ ينحسر ونفوذ النصارى يتعاظم بدعم الأحباش، حتى أصبح النصارى هم الحكام الحقيقيون في عهد الملك معديكرب يعفر الذي أوصله نصارى نجران إلى العرش في أوائل القرن السادس. وعاد وجود النصرانية في اليمن إلى الاقتران بالنفوذ الحبشي وصار يرمز إلى الخضوع له وللنفوذ البيزنطي^(٢). وانتشرت الكنائس، لا سيّما في نجران وظفار ومارب وحضرموت وهجرين^(٣). ولم تكن الخلافات بين الأسر الحاكمة سوى عامل من عوامل تشجيع القوى الخارجية

(١) Shahid: Ibid, p. 205. وكذلك: Smith: op.cit., p. 462.

(٢) Smith: Ibid (٢) وانظر الصلوي: ص ١٩، ٢٠.

(٣) الصلوي، ص ١٧، ٥٥.

على محاولة استغلال الصراع الديني لأغراض تتعلق بالمصالح التجارية والأحزاب السياسية^(١). وكانت نجران مناسية لهذا الاستغلال لأسباب عديدة، منها التجاري، ومنها الديني. فنجران هي ملتقى الطريقين إلى الشمال، فمنها تمر الطريق الممتدة من صنعاء ومأرب ومعين إلى الشام عبر الحجاز، والطريق الأخرى إلى وادي الدواسر واليمامة فالبحرين والحيرة^(٢). وكانت في نجران جاليات دينية مختلفة، تستطيع أن توفر أي فريضة لأي تدخل خارجي. ففيها أكبر تجمع مسيحي في اليمن، حول بيت العبادة الذي سمي بكعبة نجران، وكان بنو عبد المذان بن الديان الحارثي قد أقاموها مضاعفة للكعبة^(٣)، وارتأى فيها بعض الدارسين ما يوحى منافستها لمكة، إلا أنها كانت لرؤساء النصارى^(٤). لكن محمد بن حبيب روى أيضاً أن عبدة الأوثان كان لهم صنم في نجران، إذ جاء في «المحبر»: «روي أن الصنم يثوث كان لمذبح كلها، وكان في أنعم، فقاتلهم عليه غطيف من مراد، حتى هربوا به إلى نجران، فأقروا عند بني النار من الضباب، من بني كعب واجتمعوا عليه جميعاً^(٥)». بل إن نجران كانت كذلك من المستوطنات التي نزل بها اليهود في اليمن، فعاشوا فيها مع غيرهم من نصارى وعبدة أوثان.

وكانت شرارة الصراع أن الملك الحميري معديكرب يعفر اعتنق المسيحية، في بلاد كانت السلالة الملكية قد نشرت فيها اليهودية نحو قرن من الزمان. ولم تحجم بيزنطة عن إبداء رغبتها في انتهاز الفرصة للتدخل، فأرسل الإمبراطور أناستاسيوس (Anastasius) سنة ٥١٣ م. أسقفاً لنجران. ولم تكن تلك حادثة منفردة، إذ درج الروم على تعيين رجال الدين النصارى وإرسالهم إلى

(١) Smith: op.cit., p. 462.

(٢) Trimingham: Christianity among..., p. 294. وكذلك جواد علي: ج ٧، ص ٥٠٧، ٥٠٨.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٤١٧.

(٤) Fahd, Toufic: Le Panthéon de l'Arabie Centrale à la veille de l'Hégire. Librairie Orientale.

liste Paul Geuthner, Paris, 1968, p. 121.

(٥) المحبر، ص ٣١٧.

نجران، حتى أخذ النجرانيون ببعض من الثقافة الرومية. ورُوي أن الأعشى استمع في نجران إلى الغناء الرومي، مما يدل على وثوق اتصال هذه المدينة اليمنية وجوارها بالإمبراطورية البيزنطية^(١). وقد صادف تنصّر الملك الحميري أن نشبت الحرب بين بيزنطة والفرس في أوائل القرن السادس، وأخذت حاجة بيزنطة إلى طريق البحر الأحمر وطريق القوافل البرية عبر الحجاز تشتد. وعلى الرغم من أن المصادر العربية تروي عن الملك اليهودي زرعة ذي نواس (يوسف أسار يثا)^(٢)، أنه استولى على الحكم بعد قتله الملك الفاسق ذي شناتر، إلا أن النقوش الحميرية تؤكد أن ذا نواس كان من أسرة الملك النصراني معديكرب يعفر، وأنه خلفه بعدما مات، وتهوّد بعد تولّيه الحكم وكان مسيحياً قبل ذلك^(٣). ويؤيد «المحبّر» النقوش الحميرية في أن ذا نواس كان مسيحياً، إذ يقول محمد بن حبيب: «وملك بعده، ثم تهوّد ودان باليهودية ودعا الناس إليها»^(٤). فقولُه: ثم تهوّد، يعني أنه اعتلى العرش الحميري وهو يدين بالمسيحية. وليس من سبيل الآن إلى التيقّن من الترتيب الزمني الدقيق لتسلسل بعض الحوادث، فقد اعتلى ذو نواس العرش وتهوّد. وشن الأحباش على اليمن غزوتين. وحدثت حادثة الأخدود التي قتل فيها الملك الحميري جمعاً من المسيحيين. وتروي المانورات المسيحية أن سبب الغزوة الحبشية هو قتل ذي نواس نجران. لكن حادثة الأخدود الشهيرة، التي يُفترض أنها حدثت في الخامس والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر سنة ٥٢٠ م^(٥)، وقعت حتماً بعد الغزوة الحبشية الأولى. وفي مقابل ما ترويه المصادر المسيحية عن سبب الصراع والغزوة، تروي مصادر هرية أن سبب الصراع أو شرارته الأولى كان قتل نصارى نجران جماعةً من

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٥٤١، وج ٩، ص ٩٣. وانظر كذلك Trimingham: Christianity

among..., p. 296

(٢) عن أساء الملك ذي نواس أنظر: Shahid: The Martyrs..., pp. 260 - 266

(٣) Ibid., pp. 266 - 268

(٤) المحبّر، ص ٣٦٨

(٥) Shahid: The Martyrs..., pp. 235 - 242

اليهود هم أبناء رجل يهودي من المدينة يدعى ذوساً^(١). وفي أية حال فإن الصراع كان سوف يقع، لأن بيزنطة كانت تسعى إلى ضمان طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر. ولو لم يجد الطرفان ذريعة لما أعوزتهما الحيلة للقتال. وقد رأى المؤرخ بروكوبيوس (Procopius) ذلك بوضوح إذ ذكر أن المسألة كانت مسألة منع طرق التجارة الشرقية من السقوط في أيدي الأعداء الذين ما إن يسيطروا على هذه الطرق حتى يطلبوا ذهباً مقابل بضاعتهم الثمينة النادرة^(٢). ويعبر ديفريس براءة عن هذا بقوله: «وجرت محاولة ثانية لتتصير البلاد في عهد أنستاسيوس فأرسل إلى الحميريين أسقف اسمه سيلفان (Sylvanus). وفي الوقت نفسه استعيد الاتجار مع جنوب الجزيرة العربية»^(٣).

هـ - الغزو الحبشي الأول لليمن

تُجمع المصادر والمراجع على أن الحبشة شنت غزوتين عسكريتين على اليمن في الربع الأول من القرن السادس. وتجمع المصادر المسيحية على أن نصارى اليمن قد اضطهدوا مرتين ولذا شنّ الأحباش هاتين الغزوتين لوقف هذا الاضطهاد. وقد أمكن حصر تاريخ الاضطهاد الثاني، وهو الاضطهاد الأكبر، ويسمى في المصادر الإسلامية وقعة الأخدود، في سنة ٥٢٠ م. كذلك تبين أن الغزوة الحبشية الأولى التي كانت أصغر من الغزوة الثانية، حدثت في سنة ٥١٨ م. فيما تؤكد معظم المصادر والمراجع أن الغزوة الثانية حدثت في سنة ٥٢٥ م. على الأرجح. وبناءً على إشارات تدلّ على أن نجاشي الحبشة في الغزوة الأولى كان وثنيّاً، وكان في الثانية مسيحياً، اشتبه في أن صاحب الغزوتين هو الملك «إلّا أصبح»، الذي تنصّر بعدما نذر أن يعتنق دين المسيح إذا آتاه نصراً في غزوته الأولى. ويُفهم من هذا أن ملوك الحبشة الذين تنصّروا في القرن الرابع، لم يكتفوا على النصرانية، وعادوا إليها في الربع الأول من القرن

(١) العسكري، أبو هلال: الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٥، ج ١، ص ٢٨. وكذلك الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) Rodinson: op.cit., p. 31

(٣) Devreesse: op.cit., p. 279

السادس لدى احتدام حربهم مع اليمن، واشتداد حاجتهم إلى الدعم البيزنطي في هذه الحرب^(١). ويظهر من الدراسات الحديثة التي استندت إلى نصوص النقوش الأثرية التي عثر عليها ريكمنس وفيلبي أن مواجهة الملك المنهود يوسف أسار للغزوة الحبشية الأولى كانت مرة. ويُعتقد أنه عجز عن جمع حمير لمؤازرته فأثر المراوغة. وأيدت هذه الدراسات على نحو غير مباشر ما جاء في بعض المصادر العربية الإسلامية حول هذا الأمر. إذ يروي أبو هلال العسكري في «أوائله» سبب نشوب الصراع بقوله: «وكان لدوس - رجل من يهود نجران - ضيعة يخرج بنوه إليها ليلاً. فيجرون فيها الماء أكثر مما يخصها، فاجتمعت نصارى نجران فقتلوهم وطلبوا أباهم دوساً فأعجزهم... فسار حتى قدم على ذي نواس - وكان تهود - فشكا إليه ما أصيب به، فخرج إلى أهل نجران فحاصرهم، ثم عاهدهم، فلما تمكن منهم، أوقع بهم وهم مفترون، فلم ينتج منهم إلا الشريد، فلحق بعضهم بالنجاشي ومعه الإنجيل قد أحرق أكثره، فلما رآه ساءه، فكاتب ملك الروم بذلك، واستدعى من جهته سفناً يحمل فيها الرجال إلى اليمن^(٢)». وأما عن مقاومة ذي نواس لهذه الغزوة الأولى، فقال أبو هلال: «وبلغ ذاك ذا نواس، فصنع مفاتيح كثيرة، فلما دنا منه جيش الحبشة أرسل إليهم بها وقال: هذه مفاتيح خزائن اليمن، فخذوا المال والأرض وأنا طوع لكم، فاطمأنوا وتفرقوا في المخاليف يجيئون، فأرسل ذو نواس إلى المقاول: إذا كان يوم كذا فاذبحوا كل ثور أسود فيكم، فعملوا الذي أراد، فقتلوهم، فلم يبق منهم إلا القليل^(٣)». أما الطبري فاختلفت روايته في بعض التفاصيل لكنها لم تختلف في الجوهر إذ قال: «إن السفن لما قدمت على النجاشي من عند قيصر حمل جيشه فيها فخرجوا في ساحل المندب، قال: فلما سمع بهم ذو نواس كتب إلى المقاول يدعوهم إلى مظاهرتهم وأن يكون أمرهم في محاربة الحبشة ودفعهم عن بلادهم واحداً. فأبوا وقالوا: يقاتل كل رجل عن مقوله وناحيته. فلما رأى ذلك

(١) Shahrīd. The Martyrs... pp. 252 - 260

(٢) الأوائله، ج ١، ص ٢٨، ٢٩.

صنع مفاتيح كثيرة ثم حملها على عدة من الإبل وخرج حتى لقي جمعهم، فقال هذه مفاتيح خزائن اليمن قد جئكم بها فلکم المال والأرض واستبقوا الرجال والذرية. فقال عظيمهم: أكتب بذلك إلى الملك، فكتب إلى النجاشي، فكتب إليه يأمره بقبول ذلك منهم، فسار بهم ذو نواس حتى إذا دخل بهم صنعاء قال لعظيمهم: وجه ثقات أصحابك في قبض هذه الخزائن، ففرق أصحابه في قبضها ودفع إليهم المفاتيح. وسبقت كتبُ ذي نواس إلى كل ناحية أن اذهبوا كل ثور أسود في بلدكم، فقتلت الحبشة فلم يبق منهم إلا الشريدة^(١). إن مقارنة هذه الرواية بخلاصة ما استنتجته بعض الدراسات الحديثة، تعزز الرأي أن المصادر العربية هي أجزل المصادر بالمعلومات عن قصة نجران في هذه المرحلة^(٢). إذ روى ديفريس أن النجاشي إلا أصبح انتصر في غزوته الأولى ثم تنصّر وأقام على حكم اليمن نائباً للملك، وأن ذا نواس تمالك قواه واستجمع أنصاره وعاود مقاتلة الحبشة، وأن شتاء ٥٢٢ - ٥٢٣ م حال دون قيام النجاشي بحملة ثانية. ولذا اضطر نائب الملك إلى طلب نجدة المنذر ملك الحيرة. غير أنه مات، فاستعاد ذو نواس سيطرته على البلاد^(٣). ويبدو أن النجاشي أقام نحواً من سبعة أشهر في اليمن بعد غزوته الأولى. فبنى كنائس عديدة وشجع النصارى على الإقامة والعبادة الحرة، وأخضع البلاد للجزية وجعل حاميات حبشية لتعزيد حكم نائبه وحراسة الكنائس، ثم عاد إلى الحبشة ومعه عدد من الأسرى والمناوئين لحكم الحبشة^(٤)، وكذلك معظم جيشه. وقد يكون إلا أصبحه اطمأن إلى إحكام سيطرته على اليمن، أو قد يكون احتاج إلى جيشه في مكان آخر غير اليمن، فسحب معظم جنوده^(٥). ويُعتقد أن ذا نواس انسحب إلى الجبال تجنباً للقتال، حتى إذا لحظ انكفاء الاحتلال الحبشي إلى بعض حاميات على السواحل في الأشاعر وحضرموت ومُخَا، وفي ظفار ونجران، هاجم

(١) الطبري: التاريخ، ج ٧، ص ١٠٨.

(٢) Shahid: Byzantium in South Arabia..., p. 28.

(٣) Devresse: op. cit., p. 280.

(٤) الصلوي: ص ٥٤.

(٥) Rodinson: op cit., p. 31.

هذه المواقع فأحرق في ظفار العاصمة، الكنيسة الكبرى التي التجأ إليها مائتان وثمانون من الأحباش، فيما تولى قاتله شراحيل ذو يزان مدهمة مرفاً مُخاً، ثم أتجه ذو نواس إلى نجران معقل النصارى الأكبر في اليمن، ومركز قوة حلفاء الحبشة والبيزنطيين، حيث قتل مقتله الكبرى التي اشتهرت في التاريخ^(١)، باسم وقعة الأخدود^(٢).

٥- عزل ذي نواس

بدأت بيزنطة والحبشة الإعداد للغزوة الثانية إعداداً عسكرياً وسياسياً. كانت بيزنطة ترغب على ما يبدو في اعتماد طريق التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر أو الجانب الغربي من جزيرة العرب بعد اضطراب طريق الفرات، ولم يكن هذا أمراً مضموناً مع بقاء اليمن في يد ملك يهودي معاد لبيزنطة. وكان الإعداد لحملة اليمن الحبشية يحتاج إلى تسكين مواقع الصراع الأخرى، خصوصاً في بادية الشام، وإلى محاولة عزل ذي نواس عن حلفائه المحتملين (ملوك الحيرة والفرس). وكان مؤتمر الرملة، جنوب شرق الحيرة، سنة ٥٢٤م. فرصة ممتازة لتحقيق هذين الغرضين. ولا شك أن هذا المؤتمر كان من أهم الحوادث في الملف الدبلوماسي للعلاقات البيزنطية العربية قبل ظهور الإسلام. ففي سنة ٥٢٣م. أوفد جستينوس الأول سفيره أبراهام (Abraham) بن أفراسيوس (Euphrasius)، وهو خبير في الشؤون العربية، ليفاوض المنذر ملك الحيرة في شأن عقد صلح بين بيزنطة والفرس. وكان المنذر قد أغار قبل سنوات على أراضي الروم وأسر اثنين من كبراء بيزنطة هما تيموستراتوس (Timostratus) بن سيلفانوس (Sylvanus) ويوحنا بن لوقا. وأسفرت المهمة عن نجاح المفاوضات في وضع معاهدة سلام في شباط/ فبراير ٥٢٤م. وفي إطلاق سراح الأسيرين البيزنطيين المرموقين لقاء فدية عظيمة، وفي تعهد المنذر أن يعامل المسيحيين

(١) Devreesse: op.cit., pp. 279, 280. وكذلك: Rodinson: op.cit., p. 31. والصولي: ص ٢٣.

اليعاقبة وغيرهم معاملة حسنة^(١).

وفي أثناء مؤتمر الرملة، الذي حضره ممثلون لملك الفرس قباز، حضر من اليمن مبعوث أرسله ذو نواس لحث ملك الحيرة والملك الفارسي على اجتثاث المسيحيين من أراضيها. هل كان حضوره مصادفة، أم ان كلاً من بيزنطة وذي نواس كان عالماً بنية الآخر؟ لا ندرى. لكن وصول المبعوث اليمني حول مجرى المؤتمر إلى نزاع دبلوماسي حول مستقبل المدخل الجنوبي للبحر الأحمر. كانت بيزنطة تستعد لإرسال سفنها عبر البحر الأحمر إلى الحبشة لمساعدتها في نقل جنودها في إنزال كبير للاستيلاء من جديد على حكم اليمن. وجاءت مساعدة غير متوقعة للموقف البيزنطي من مسيحي الحيرة الذين كان مبعوث ذي نواس يحاول تحريض المنذر عليهم، فقام أحدهم، زيد بن أبوب، ليوتخ المنذر على نزوحه إلى قبول مقترحات ملك اليمن اليهودي، وارثات البعثة البيزنطية أن المجتمع المسيحي في الحيرة قادر على أداء مهمة بيضة القبان في ترجيح إحدى الكفتين وردع المنذر عن التحالف مع ذي نواس. وكان تأييد بيزنطة لليعاقبة اليمنيين الذين مثلهم في المؤتمر سمعان الأرشامي، صاحب الرسالة الشهيرة عن شهداء نجران، يؤدي هذا الغرض السياسي في المؤتمر. وقد يكون الإمبراطور البيزنطي الخلقيدوني جستينوس قد تأثر لقتل اليعاقبة في نجران، مع إنه لم يحسن معاملتهم في إمبراطوريته، إلا أن حافزه الأول لا بد وأنه كان خوفه على مصالح الإمبراطورية من الضياع بسبب خروج حكم اليمن من أيدي حلفاء بيزنطة. هذه كانت أغراض البيزنطيين في مؤتمر الرملة.

أما ذو نواس، فعلى الرغم من أن استعادته للحكم في اليمن كانت تبدو مطلقة، إلا أن استقرار حكمه والولاء الديني الجديد الذي أنشأه، لم يكونا مضمونين. وفيما كان ذو نواس يتوقع الدعم بطبيعة الحال من الحيرة، كانت الحيرة مصدر قلقه أيضاً، لأنها صدرت إلى نجران والجزيرة العربية المسيحيين الناطقة ثم اليعاقبة. وكان القضاء على مسيحي الحيرة ضرورياً لاستقرار حكمه. ولذا لم تكن دعوة ذي نواس المنذر إلى إبادة المسيحيين في مملكته

(١) Shahad: The Conference of Ramla.... p. 115

دعوة موتور متعصب، على ما جاء في الوثائق المسيحية المتعلقة بشهداء نجران، بل كانت دعوة حاكم بعيد النظر، يخوض صراعاً مصيرياً مع أعدائه^(١). وقد حاول ذلك بحنكة ظاهرة. ففي بعض ما خاطب به ملك الفرس، أشار ذو نواس في الرسالة التي حملها مبعوثه، إلى الشمس على أنها عنصر مشترك في معتقدات الزرادشتيين واليهود. ومع أن الشمس لا مكان لها في دين اليهود، إلا أن المعنى السياسي للتلميح ليس خافياً. ولم يكن قباز يجهل أن الفرس واليمنيين اليهود، وإن كانوا مختلفين في الإيمان، إلا أنهم يتفقون في مناهضة العقيدة المسيحية، أو على الأقل الدولة البيزنطية التي تتخذها ديناً رسمياً.

هل كانت دولة الفرس في حاجة إلى سلام مع بيزنطة في جبهة بادية الشام، أم أن إغراء الفدية التي دُفعت للإفراج عن المسؤولين البيزنطيين كان شديداً، أم أن قباز والمندر كانا غافلين عن خطة بيزنطة لغزو اليمن وشيكاً؟ لقد تخلص المندر وقباز لسبب لا نعلمه عن ذي نواس وحقق أبراهام مبعوث بيزنطة أعظم مآثره الدبلوماسية في مؤتمر الرملة، فعقد صلحاً مع الفرس واستطاع الإفراج عن الأسيرين، ثم سَجَّل أن بيزنطة دافعت عن مسيحي الحيرة رغم أن معظمهم نساطرة. وحال دون تحالف المندر مع ذي نواس، ونجح بذلك في عزل الملك اليمني عن القوى الوحيدة المؤثرة التي كانت تستطيع نجلته. فلما عاد إلى القسطنطينية أقنع الإمبراطور جستينوس بقبول تحليله السياسي لاحتمالات تطور الوضع في الجزيرة. وهكذا كان الحال مناسباً لغزوة اليمن الثانية^(٢).

٣- الغزو الحبشي الثاني لليمن

«فخرج رجل من أهل نجران حتى قدم على ملك الحبشة... وأتاه بالإنجيل قد أحرقت النار بعضه، فقال له: الرجال عندي كثير، وليست عندي سفن، وأنا كاتب إلى قيصر في البعثة إليّ بسفن أحمل فيها الرجال. فكتب إلى

(١) Shuhid: Ibid, pp. 115, 119, 120, 125, 127

(٢) Shuhid: Ibid, p. 130

قيصر في ذلك وبعث إليه بالإنجيل المحرق فبعث إليه قيصر بسفن كثيرة^(١). هكذا وصف الطبري مشروع الغزو البيزنطي الحبشي المشترك ومساهمة كل طرف فيه. لم يكن التفسير الديني مقبولاً في تسويغ التحالف بين مملكة مسيحية تعتق المذهب اليعقوبي، هي الحبشة، وإمبراطورية تتخذ المذهب الخلقيدوني مذهباً رسمياً، بل تضطهد اليعاقبة. وقد تنبّه مونتغمري وات إلى هذا الالتباس فقال إن جستنيانوس، الذي كان أهم مستشاري جستينوس في السياسة الخارجية، ولم يكن قد اعتلى العرش بعد، وافق حتماً على غزو الحبشة لليمن على الرغم من عقيدته الخلقيدونية، ذلك أنه كان يفضل وجود اليعاقبة في اليمن، على وجود اليهود أو النساطرة المتصلين بالفرس^(٢).

وقد أيدت المصادر الأخرى وصف الطبري لمساهمات الحليفين البيزنطي والحبشي في غزوة اليمن الثانية، فلا بيزنطة كانت قادرة على إرسال العدد اللازم من الجنود، ولا الحبشة كانت تملك وسيلة الإنزال الكافية. ولذلك استخدم أسطول بيزنطي في نقل الجنود الأحباش عبر البحر الأحمر من ضفته الغربية إلى ضفته الشرقية^(٣). وحفظت لنا رواية استشهاد الحارث النجراني ثبناً مهماً للسفن التي استخدمت في الإنزال: خمس عشرة من أيلة، عشرون من القلزم، سبع من يوتابه، اثنتان من برنيس (Berenice جنوبي الشاطئ المصري المطل على البحر الأحمر)، سبع من فرسان (Farsan: جنوبي البحر الأحمر)، تسع من إنديكه (Indice: في إريتريا على الأرجح)، أي ما مجموعه ستون سفينة. وكان معظم السفن بيزنطي، وبعضها استؤجر من بعض التجار، أما النجاشي فأضاف إلى هذا الأسطول عشر سفن بناها لهذه المهمة^(٤).

ولا تكتمل صورة الغزو الحبشي لولا المراجع الإسلامية في روايتها المعروفة. فيقول أبو هلال العسكري: «وبلغ النجاشي ذلك، فجهّز إليهم سبعين

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٦.

(٢) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca, p. 12.

(٣) Shahid: Byzantium in South Arabia, p. 25.

(٤) Rodinson: op cit., p. 32. وكذلك Shahid. The Conference of Ramla, p. 129.

ألفاً عليهم أبرهة ونزكي بن حزام وأمرهم ألا يقبلوا صلحاً [وفي ذلك تلعيح إلى الصلح الذي تُدع به الأحباش في غزوتهم الأولى]، فعلم ذو نواس أنه لا قبل له بهم فركب حتى أتى البحر، فأقحم فرسه فيه حتى غرق، وملكت الحبشة اليمن^(١). وجاء في سيرة ابن هشام: «فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة، وأمر عليهم رجلاً منهم يُقال له أرياط، ومعه في جنده الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان، وسار إليه ذو نواس في جحيم، ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس ما نزل به ويقومه وجهه فرسه في البحر، ثم ضربه فدخل به فخاص به ضحضاح البحر، حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيه وكان آخر العهد به. ودخل أرياط اليمن فملكها»^(٢). وروى الأندلسي رواية شبيهة^(٣). وجاء في محبّر ابن حبيب عن ذي نواس: «وبسببه جاءت الحبشة إلى اليمن فغلبت عليها لما فعل بالنصارى. وإن ذا نواس لما واقع الحبشة ففَضُّوا جيشه، اعترض بفرسه البحر فغرق خوفاً من أن يؤسر، فكان آخر العهد به»^(٤). أما الأزرقى فقال: «فلما قدم [دوس] على النجاشي بعث معه رجلاً من الحبشة يقال له أرياط وقال: إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها وأخرب ثلث بلادها، فلما دخلوا أرض اليمن تناوشوا شيئاً من قتال ثم ظهر عليهم أرياط وخرج زرعة ذو نواس على فرسه فاستعرض به البحر حتى لجج به فماتا في البحر وكان آخر العهد به، فدخلها أرياط»^(٥). ولعل أدق ما جاء في المصادر العربية عن هذه الواقعة ما رواه الطبري إذ قال: «فلما قدم دوس ذو ثعلبان بكتاب قيصر على النجاشي صاحب الحبشة بعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم من أهل الحبشة يقال له أرياط وعهد إليه إن أنت ظهرت عليهم فاقتل

(١) الأوائل، ج ٩، ص ٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٣٦، ٣٧.

(٣) الأندلسي: نشوة... ص ١٥٦.

(٤) المحبّر، ص ٣٦٨.

(٥) الأزرقى، محمد بن عبد الله: أخبار مكة وما حدها من الآثار، ف. فستلند، غوتغن،

١٨٥٨، ص ٨٦.

ثلث رجالهم وأُغرب ثلث بلادهم وأسبِ ثلث نسايتهم وأبنايتهم، فخرج أرياط ومعه جنوده. وفي جنوده أبرهة الأشرم، فركب البحر ومعه دوس ذو ثعلبان حتى نزلوا بساحل اليمن، وسمع بهم ذو نواس، فجمع إليه حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فاجتمعوا إليه على اختلاف وتفرق لانقطاع المدة وحلول البلاء والنقمة، فلم يكن له حرب، غير أنه ناوش ذو نواس شيئاً من قتال ثم انهزموا، ودخلها أرياط بجموعه، فلما رأى ذو نواس ما رأى مما نزل به ويقومه وجّه فرسه إلى البحر ثم ضربه فدخل فيه فخاص به ضحضاح البحر حتى أفضى به إلى غمره فأنجمه فيه فكان آخر العهد به^(١).

ويتضح من الرواية العربية أمران مهمّان، تلمّح إليهما المصادر تلميحاً وينفرد الطبري بالتصريح بهما، وهما: أن الحميريين كانوا على خلاف فيما بينهم وتفرّق، فلم يخوضوا الحرب مع ذي نواس مجتمعين. وهذا يفسّر الأمر الثاني وهو أن القتال لم يكن شديداً وأن الحبشة انتصرت على ما يبدو بسهولة. ولعل في شعور ذي نواس بالخذلان مرتين، مرة حين استنجد الحيرة والفرس فلم ينحدروا، ومرة حين أخفق في جمع كلمة حمير في قتال الأحباش، تفسيراً لبقية ما جاء في المأثورات العربية من قصة ذات سمة أسطورية، أن ذا نواس أغرق نفسه يأساً بعدما رأى خسران المقاومة التي حاول تنظيمها ضد الاحتلال الحبشي سنوات.

- حـ- استيلاء أبرهة على الحكم

بروي بروكوبيوس (Procopius) المؤرخ البيزنطي (حوالي ٥٠٠ - ٥٦٥ م.) رواية دقيقة لاستيلاء أبرهة الأشرم على حكم اليمن يقول فيها: وفي الجيش الحبشي، كان كثير من العبيد وجميع الراغبين في السلوك مسلّكاً غير قانوني، لا يرغبون في أتباع الملك على الإطلاق. وإذا تركوا هناك، مكثوا رغبة في الاستيلاء على أرض الحميريين، لأنها غنية جداً. وبعد زمن قصير تمرد هذا الرعاع مع آخرين على إسمي فايوس [Esimiphaïos: السُمَيْفَيْح] وحسبوه في إحدى قلاع تلك البلاد وعيّنوا ملكاً آخر على الحميريين اسمه أبراموس. وكان أبراموس

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٠٦، ١٠٧.

هذا في الحق مسيحياً، لكنه كان عبداً لمواطن روماني [بيزنطي] في مدينة حبشية، أدوليس، كان يقيم هناك لأجل تجارته في البحر. فلما سمع هِلَسْتايوس [Hellesthesios: إلّا أصبحه]، أراد حقاً أن يعاقب أبراموس والمتمردين على معاملتهم لإيسقايوس، فأرسل جيشاً من ٣٠٠٠ رجل إليهم وواحداً من أقاربه، حاكماً. ولما أعرض جنود هذا الجيش عن أداء مهمتهم ورفضوا العودة إلى بلادهم ورغبوا في البقاء في هذه البلاد الغنية، بدأوا التفاوض مع أبراموس في غفلة من الحاكم، واتفقوا مع الأخصام. ولما انصرفوا إلى العمل قتلوا الحاكم والتحقوا بجيش العدو وظلّوا معه. وغضب هِلَسْتايوس كثيراً فأرسل جيشاً آخر إليهم، وقاتل هذا الجيش جماعة أبراموس، ولكن بعدما لحقت به هزيمة ماحقة في المعركة عاد إلى بلاده على الفور. ولم يرسل الملك الحبشي، بسبب خوفه أي حملة على أبراموس. فلما مات هِلَسْتايوس رضي أبراموس أن يدفع جزية للملك الذي خلفه على عرش الأحباش، وبذلك ضمن لنفسه حكماً شرعياً. ويستند سميث إلى هذا وإلى وثائق حبشية عن تاريخ موت الملك هِلَسْتايوس، أي إلّا أصبحه، ليخلص إلى أن الاعتراف بحكم أبرهة حدث بين الستين ٥٣٥ و ٥٤٠م^(١). وأما ادعاء أبرهة مُلْك اليمن فيرجح سميث حدوثه في سنة ٥٣٣م^(٢). وتلقي بعض التواريخ ضوءاً على السميع أشوع، الذي نصبه الأحباش ملكاً على اليمن بعد الغزو فتشير إلى احتمال كونه يهودياً يمينياً اعتنق المسيحية وانحاز إلى الحبشة^(٣). وهذا الأمر يذكرنا بسلفه ذي نواس الذي قيل إنه كان مسيحياً وتهود، وكان لتهوده حافز سياسي. ولعل هذا الأسلوب في الانحياز السياسي إلى فريق دون آخر، شاع بين الأسر الحاكمة في اليمن، في تلك الحقبة.

غير أن المصادر التاريخية ظلت غامضة في مسألة لا تزال تنتظر الحل

Procopius, translated by H.B. Dewing, Loeb Classical Library, Cambridge and London, (١)

.Smith: op.cit., pp. 431, 432 وانظر كذلك 1979, vol. I, pp 189, 191

Smith: ibid., p 451 (٢)

.Rodinson: op.cit., p. 32 (٣)

الحاسم. وهي أن اسم الملك الذي منه إلا أصبحه على اليمن هو أبرام، فيما تشير الأدلة الأثرية والتواريخ غير الكنتية إلى أن أبرمة (أبرام) تولى الحكم بعد السمينع أشوع. وثمة احتمال لتفسير هذا التضارب استناداً إلى رواية استشهاد الحارث النجراني. فقد جاء في الرواية أن السمينع اختار اسم أبرام للمحمودية، وهذا الأمر التيس على المؤرخين لذلك العصر، فجمعوا أبرمة هو أول حاكم لليمن بعد غزوة الأحباش^(١).

وتنشأ بسبب المصادر العربية وروايتها لحكم الأحباش في اليمن مشكلة أخرى هي أنها تجعل اسم أول ملك حبشي أرياط، مع أن اسم السمينع أشوع ليس مغفلاً في هذه المصادر. ولما كان أبرمة قد انتزع إمرة الأحباش من أرياط، فإننا نصبح إذًا أمام شخصين في منصب واحد: السمينع وأرياط، وكلاهما أزيح من هذا المنصب ليحل أبرمة محله. غير أن التدقيق في المصادر العربية قد يوحى بتفسير لهذا التناقض الظاهري. إذ يقول أبو هلال العسكري: «ونزل أبرمة صنعاء في قصر عُمدان، فكتب إليه النجاشي: من نزل منزل الملوك تجبر»^(٢). فلو كان ذلك في معرض قتل أبرمة أرياط لفُسر عل أن النجاشي أراد أن يستكر اغتصاب أبرمة الملك من أرياط. لكن الموقع الذي جاءت فيه هذه العبارة، بعد موت ذي نواس، لا يوحى إلا أن أبرمة قائد عسكري نزل في قصر للملوك. ومن المنطقي أن يكون النجاشي قد استكر هذا الطموح لدى أحد ضباطه، إذا كان الملك الحبشي يرغب في اصطناع ملكٍ يمني، أو إذا كان قد اختار فعلاً أحد الأمراء اليمنيين لاصطناعه ملكاً. ولذا ثمة احتمال أن يكون أرياط وأبرمة كلاهما «أمراء» على الجيش الحبشي، في بلاد يحكمها «ملك» هو السمينع. وهذا الاحتمال يؤيده قول ابن هشام: «فلما بلغ النجاشي [قتل أبرمة لأرياط] غضب غضباً شديداً وقال: عدا على أمري فقتله بغير أمري»^(٣)، والأمور عند المسلمين غالباً ما يكون قائداً عسكرياً. وتستخدم مصادر إسلامية أخرى

(١) Shaked: Byzantium in South Arabia, pp. 34, 35.

(٢) الأوائل، ج ١، ص ٢٩.

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٢.

كلمة المُلْك، في الإشارة إلى أرباط وأبرمة، لكنه مُلك الحبشة في اليمن وليس مُلك اليمن. وقد يعني هذا إمرة الجيش الحبشي في اليمن. إذ يقول الأزرقى: «لما ظهرت الحبشة على أرض اليمن كان مُلكهم إلى أرباط وأبرمة. وكان أرباط فوق أبرمة». وهذه العبارة ترجّح استخدام كلمة المُلْك هنا للإعراب عن الإمرة العسكرية، بخاصة إذا لاحظنا أن الأزرقى في بقية روايته يشدّد على أن الصراع بين الرجلين كان صراعاً على إمرة الجنود الأحباش وحدهما، إذ يقول: «وأقام أرباط باليمن ستين في سلطانه لا يتازعه أحد، ثم نازعه أبرمة الحبشي المُلْك، وكان في جند من الحبشة، فأنحاز إلى كل واحد منهما من الحبشة طائفة، ثم صار أحدهما إلى الآخر، فكان أرباط يكون يصنعاه ومخالفها، وكان أبرمة يكون بالجند ومخالفها، فلما تقارب الناس ودنا بعضهم من بعض أرسل أبرمة إلى أرباط: إنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضهم ببعض فتضها يثاء»^(١). ثم باقي قصة أبرمة وقتله أرباط وانفراجه بإمرة الجيش الحبشي. ولعل هذا حدث بعد الغزوة بستين، على ما قال الأزرقى، فيما يكون استيلاء أبرمة على عرش اليمن، لا على إمرة الجنود الأحباش، في مرحلة تالية، على ما سلف.

ط - ولاء أبرمة لبيزنطة

كان استيلاء أبرمة على الحكم في اليمن مسألة مهمة في نظر بيزنطة، لأن ولاء الحكام الجدد في اليمن هو الذي يفضي إلى الحكم بنجاح العهد البيزنطي الذي بُدِّل في الغزوة، أو فشله. كان ولاء أبرمة للحبشة مهماً لملك أكسوم من أجل توسيع ملكه وتحسين موقعه لدى القسطنطينية. لما ولاؤه لبيزنطة فكان ذا أبعاد دولية أوسع لأنه يعني أن البيزنطيين حققوا غرضهم المنشود وهو السيطرة على المدخل الجنوبي إلى البحر الأحمر. وقد نجح أبرمة في الاستقلال، لكنه لم يكن مجاهداً في الصراع الدولي. فعلى رغم تسرّده على ملك الحبشة وحصوله على الاعتراف بحكمه بعد استرضائه الحاشي، وهو استرضاء مصري لأنه كان يعرف أن الحبشة لم تكن تملك على أية حال وسيلة لسلوك آخر معه، ظل أبرمة ضمن المعسكر البيزنطي، وأقام لهذا المعسكر حكماً حليفاً جعل

البحر الأحمر يبدو عقوداً بحيرة مسبعة^(١). ولعل أبرهة وجد في حساباته السياسية أنه قادر على الاستقلال عن الاثمار بأوامر النعاشي، لكنه كان يحتاج لضمان هذا الاستقلال إلى التحالف مع بيزنطة. وبيزنطة بحاجة إليه ضمن مشروعاتها الذي أعدت له طويلاً من أجل التحكم بمداخل البحر الأحمر ومخارجه. والتحالف مع بيزنطة قد يضمن له نوعاً ما، أن تحول القسطنطينية دون محاربة مملكة أكسوم له. وعلى الرغم من سلطان بيزنطة العظيم، فهي بمعية عنه. والتحالف معها يتيح له استقلالاً أكبر من الاستقلال الذي يتبعه التحالف مع الحبشة القوية. وإذا كان يُفترض أن أبرهة قد حب هذه الحسابات السياسية، فإن لولائه لبيزنطة جلوداً في نفسه اكتسبها منذ أن كان عبداً لتاجر رومي في مدينة أدوليس كما قبل. وهذه الجلود تسهل ولاءه السياسي لبيزنطة وولائه العقائدي للمذهب البيزنطي الرسمي، المذهب الخلقيدوني. ومع أن الأحباش كانوا على المذهب الحقوقي، مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، إلا أن أبرهة مال في اليمين إلى المذهب الخلقيدوني على ما يُعتقد. وهذا يرمز إلى تولية وجهه صوب بيزنطة بدلاً من الحبشة. وقد كان الأسقف الذي تولّى رئاسة الكنيسة اليمينية في عهد أبرهة خلقيدونياً، وليس مستغرباً أن هذا الأسقف غريغنتيوس (Gregentius) لا ذكر له بين القديسين في سجلات الكنيسة الحبشية الحقوقية^(٢).

وقد روى بروكوبيوس ما قد يوحي أن بيزنطة لم تكن في الأصل لتعارض خلق السميع أشوع عن حكم اليمين، ولعلها أكبرت ذلك لي أبرهة سراً، إذ يقول: وفي الزمن الذي كان فيه جلسنايوس ملكاً على الحبشة وإسحقايوس ملكاً على الحميريين، أوفد الإمبراطور جوستنيانوس [سنة ٥٢٩ م.] سفيره جوليانوس (Julianus) لیسألهما أن يتفقا مع الروم، بسبب الإيمان المشترك، على محاربة

(١) Shahid, Byzantium in South Arabia, p. 25

(٢) Shahid: Byzantium in South Arabia, pp. 27, 32, 81. واطر Procopius: op cit., vol. I, p. 191

وكذلك Smith: op cit., p. 462 واطر أيضاً: Simon, R: L'inscription RY 54th et la pré-

histoire de la Mecque, Acta Orientalia, (Hungaria), XX (1967), p. 330

الفرس. فالأحباش بشرائهم الحرير (الباتكا) من الهند وإعادة بيعه للروم يكتسبون ثروة كبيرة، ولا يستفيد الروم إلا في أنهم يكتفون عن الاضطراب إلى دفع جزء من أموالهم إلى عدوهم... واقترح كذلك على الحميريين أن يهدوا تنصيب الهارب فيس عاملاً على منفذ، وأن يهزوا الأرض الفارسية بحرب كبير من الحميريين أنفسهم والعرب من منفذ. وكان فيس هذا... بلزماً في الحروب، لكنه بعد قتله أحد أقارب إسفابوس هرب إلى نواح منفرة من الناس. وقبل كل من الملكين [الحبشي والبيتي] الطلب وتمهد القيام به وصرف السفير [البيزنطي]، لكن أباً منهما لم يلزم وعده. فالأحباش ما كان يمكنهم شراء الحرير من الهند مباشرة، لأن التجارة الفرس كانوا في المعتاد يشترون كل الحمولة، إذ يمكنهم في الموانئ حيث تصل البواخر الهندية أولاً... والحميريون أيضاً ارتأوا أن مهمتهم [لو شتوا الهجوم المفترج على الفرس، ستكون] صعبة إذ كانوا سيحتاجون بقاءاً صحراوية شلحة ويحتاجون إلى وقت طويل لشحن حملة على رجال يفضلونهم كثيراً في القتال.

وبذا يتضح أن السمين لم يكن يقضي حاجة بيزنطة، التي استثمرت أموالاً طائلة لغزو اليمن. فإذا أضف إلى هذا انقلاب أبرهة على السمين، ثم انقلابه من الولاء للحبشة إلى الولاء لبيزنطة، فإن انتهاء بيزنطة سرّاً لحلول أبرهة محل السمين يصبح موقور الأسباب. على أن المصلحة هي أفضل ضمان للتخالف. فأبرهة نفسه الذي كان رجل بيزنطة في أحداث الغزوة الحبشية الثانية لليمن، لم يعد يخشى التدخل الحبشي، بعدما فشل هذا التدخل مرتين في إزاحته. ولذا لم يعد شديد الحاجة إلى إستاند بيزنطي، فأضحي قادراً على تعزيز استقلاله. ويقول بروكوبوس في ذلك: وحتى أبراموس، حين ضمن استقرار حكمه تماماً فيما بعد، وعلى رغم أنه كثيراً ما وعد الإمبراطور حوستيانوس باجتياح أراضي الفرس، إلا أنه بدأ في مرة فقط هذه الحملة ثم انسحب فوراً^(١). ولا شك في أن بيزنطة التي رأت إحكام حلفائها واحداً بعد الآخر عن

(١) 193 - 195 pp. Principum op cit. وانظر أيضاً 427 p. عند سميون وكذلك Rodman

.. p. 32 op.cit. و 329 p. Semon L'Inscription ..

المضي إلى آخر المدى في تفهد مأربها، اضطرت إلى الاكتفاء من أبرهة بئنه
أخرج اليمن من قبضة الفرس. ولم يكن هذا بالأمر السهل ولا المكسب
الضئيل.

وقد أبدى أبرهة ولا شك في كثير من الأحيان سلوكاً سياسياً وعسكرياً
يخدم مصالح بيزنطة، مثل محاولته غزو مكة (وسبكون لهذه الغزوة باب في
الجزء الثالث من هذا الفصل)، إلا أن حوافزه الخاصة ربما كانت تفسر هذا
السلوك، أكثر مما يفسره التحالف مع بيزنطة، ولذا كان يمكن له أن يستظل في
بعض الأوقات مجموعة من السفراء بينهم سفير لمملك الفرس، وسفير آخر للملوك
ملك الحميرة^(١)، عندي حليفه البيزنطي. وقد التقت مصلحة بيزنطة بمصلحة
أبرهة لأن كليهما كان يريد الاستيلاء على طرق مكة التي كان الإلاف على ما
يبدو قد بدأ يستغلها بنجاح بحرك المطامع.

ي - ثورة سيف بن ذي يزن

زال ملك الحبشة عن اليمن بُعيد سنة ٥٧٢ م. . بعدما نكس مروقي بن
أبرهة ثلاث سنوات، وشكفه وأخوه غير الشقيق يكسوم بن أبرهة ستين. وهذا
يعني أن أبرهة مات قبل سنة ٥٧٠ م.^(٢) وأتبع خلفنا أبرهة سياسة أشد معاداة
للفرس. وكان جستينوس الثاني يحاول أن يتخطى الفرس للحصول على
الحرير، من طريق برية أسبوية شمال الأراضي الفارسية، وسمى إلى السيطرة
على مناطق توفر له مقاتلين مرتزقة. وكان مساعد الترك قد أخذ يشتد في أواسط
آسية، فعقد معهم كسرى أنوشروان تحالفاً ليقضي الفرس والترك على مملكة
الهياطلة التي حكمت تركستان شرق فارس وبلاد الأفغان، وانضم الحليفان
المملكة المهزومة. وفي سني ٥٦٧ و٥٦٨ م. تبادل جستينوس الثاني وخاقان
الترك الغربيين السفراء. وكان الخاقان يريد بيع الحرير إلى بيزنطة مباشرة متخطياً
حليفه الفارسي. لكن كسرى رفض أي تسوية أو اتفاق في هذا الشأن، فتحالف

الترك مع البيزنطيين، وأعلن جستينوس الحرب على الفرس سنة ٥٧٢م. (١).

في هذه الأثناء كان الفرس في جنوب الجزيرة العربية يشنون هجوماً لاسترداد اليمن من أيدي الأحباش. ويتفق تاريخ إعلان جستينوس الحرب مع ما ذكرته المصادر الإسلامية، في تعيين موعد دقيق للثورة التي ألزمت حكم الأحباش. فالمصادر الإسلامية تشير إلى أن الفرس انحسروا سيف بن ذي يزن وأنصاره في عهد مسروق، الذي بدأ في رأي البعض سنة ٥٧٢م. وانتهى في سنة ٥٧٥م. بالهزيمة. وتروي هذه المصادر قصة سيف، فيقول ابن هشام: «فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن الحميري، وكان يكنى بأبي مرة، حتى قدم على ليصر ملك الروم. فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرجهم عنه ويوليهم هو، ويبحث إليهم من شاء من الروم، فيكون له ملك اليمن، فلم يشكبه. فخرج حتى أتى الحمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحشة، فقال له الحمان: إن لي على كسرى وفادة في كل عام، فأقيم حتى يكون ذلك، ففعل. ثم خرج معه فأدخله على كسرى... ثم قال له [سيف]: أيها الملك غلبنا على بلادنا الأخرية... فحشك لتصرني ويكون ملك بلادك لك... فجمع كسرى مرازبته فقال لهم: ماذا ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له؟ فقال قائل: أيها الملك، إن في سجونك رجالاً قد حبسهم للقتل، فلو امتك بعثهم معه، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا كان ملكاً لزمنته، فبحث معه كسرى فمن كان في مسجونته وكانوا ثمانمائة رجل... فخرجوا في ثمان سفائن، ففرقت سفينتان ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن، فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه، وقال له: رجلي مع رجلك حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً. قال له وهرز: أنصفت. وخرج إليه مسروق بن أرملة ملك اليمن وجمع إليه جند فارسل إليهم وهرز ابناً له ليقاتلهم فيخرب قتلهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حقاً عليهم... وبقيت القصة حتى انتهزام الحشة ودخول وهرز صنعاء. وروى

الأندلسي في نشوة الطرب رواية مماثلة لا تنافس هذه في شيء^(١). أما
المسعودي فروى القصة ذاتها لكنه جعل مدهكرب بن سيف بن ذي يزن محل
والده^(٢). إلا أن جوهر الأمر لم يتبدل. وروى الطبري رواية تكاد تطابق رواية
ابن هشام في العبارات والكلمات، إلا في قول ابن هشام: «فجمع سيف إلى
وهز من استطاع من قومه»، فجاء عبد الطري: «قال وهز لسيف ما عندك»، قال
ما شئت من رجل عربي وفرنس عربي^(٣)، وهو ما عبر عنه أبو الفرج الأصفهاني
في الأغاني بقوله: «وجعلت أمداد العرب تنوب إلى سيف»^(٤)، مما يدل على أن
الحشة لم يخرجوا من اليمن بفعل ستمائة فارسي، بل كان خروجهم بفعل أمداد
عربية اجتمعت حول سيف. ولا ينبغي أن يكون هذا الرجل الذي حوِّله روايات
العرب إلى أسطورة، قد استطاع فعلاً أن يجمع حوله من العرب ما لم يستطع أن
يجمعه ذو نواس.

بقي أن نضيف بعضاً من التفاصيل المهمة التي وردت على الروايات
العربية لثورة ابن ذي يزن، ومنها أن مسروقاً بن أبرهة آخر الملوك الأحباش قد
مات في القتال مع العرب والفرس، وهذا إذا صحّ قد يحمل المعركة في سنة
٥٧٥ م^(٥)، ومنها أيضاً أن مسروقاً كان ابن ويحانة امرأة ذي يزن أم سيف^(٦). وقد
يعني هذا أن أبرهة حين ملك اليمن اتخذ من إحدى زوجات الأعيان المهزومين زوجة
له، فكان لهذا حصة في الخصومات السياسية، بحاسة إذا صحّ أن سيفاً كان
يهودياً، مثل ذي نواس، على ما ذكره أبو الفرج، إذ قال: «فخرج سيف إلى
قهرم ملك الروم، فكلّمه أن ينصره على الحشة فأبى وقال: الحشة على ديني
ودين أهل مملكتي، وأنتم على دين اليهود»^(٧). والملح شهد إلى أن اسم سيف

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٦٥ وما بعد. والأنطلسي: نشوة... ص ١٦٠-١٦٢.

(٢) المسعودي: ج ٢، ص ٢٠٣-٢٠٨.

(٣) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٥-١١٨.

(٤) الأصفهاني: أبو الفرج: الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ج ١٧، ص ٣٠٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٦٧. والطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٧.

(٦) الأغاني، ج ١٧، ص ٣٠٧.

(٧) الأغاني، ج ١٧، ص ٣٠٨. وفي شأن اسم سيف انظر Al-Bishr: The Martyr... p 281.

لا سابق له في المأثورات العربية، ولعله محترقاً من اسم يوسف اليهودي، الذي تشدد الكسرة على السين فيه. وقد تكون ثمة علاقة نسب بين سيف بن ذي يزن وشراحيل ذو يزان الذي قاد حمود يوسف ذي نواس، على ما جاء في باب الغزو الحبشي الأول لليمن، فيما سلف.

ك - حكم الفرس لليمن

على الرغم من أن بعض الشواهد تدلّ على أن بيرطة لم تُفزع تماماً في تحقيق مأويها التجارية للسيطرة على مدخل أس إلى المحيط الهندي بينها عن الوساطة التجارية الفارسية أو الفرشّة، خلال حكم الأحاش لليمن، بحاصة فيما يخصّ تجارة الحرير الشرقي، فإن حراسها الحليف الحبشي في اليمن كان ضربة قوية لمصالحها، لأن أبرهة وولده صمّا لبيرطة على الأقلّ إبعاد الفؤد الفارسي الذي عاد بثورة سيف بن ذي يزن. وقد أدى هذا الأمر ولا ريب إلى مصاعب إضافية للميزنطينيين في البحر الأحمر ولحلفائهم الأحاش في المحيط الهندي. ولا بد أنه ترنّب على هذا أن بيرطة أصبحت ابتداء من سبعينات القرن السادس أشدّ اضطراراً إلى الاعتماد على قوافل التجارة المكّة في التجارة الشرقية.

وقد روى الطبري تسلسل أحداث حكم الفرس لليمن الذي امتد تقريباً من سنة ٥٧٥م. حتى ظهور الإسلام، فقال عن هرمز: «فلما ملك اليمن ونفى عنها الحبشة كتب إلى كسرى: إني قد صطقت لك اليمن وأحرحت من كان بها من الحبشة، ونفّث إليه بالأموال، فكتب إليه كسرى يأمره أن يُسلّك سيف بن ذي يزن على اليمن وأرضها، وفرض كسرى على سيف بن ذي يزن حزمة وخرجاً يؤدّيه إليه في كل عام، معلوم يُبعث إليه في كل عام. وكتب إلى هرمز أن ينصرف إليه، فأنصرف هرمز، وسلّك سيف بن ذي يزن على اليمن، وكان أبوه ذو يزن من ملوك اليمن». ولم يقل الطبري كم سَ امتد حكم سيف، لكن الأحاش على ما يبدو قتلوا الملك الحبشي الجديد بعد مدة، فعاد هرمز إلى اليمن ومعه أمر من كسرى أن يقتل الأحاش. فيقول الطبري: «أقبل هرمز حتى دخل اليمن

ف فعل ذلك، لم يترك بها حبشاً إلا قتله ثم كتب إلى كسرى بذلك، فأمره كسرى عليها، فكان عليها وكان يجيئها إلى كسرى حتى هلك، وأمر كسرى بعده ابنه المرزبان بن وهز فكان عليها حتى هلك، فأمر بعده البهجان بن المرزبان بن وهز فكان عليها، ثم أمر كسرى بعده خرخرسه بن البهجان بن المرزبان بن وهز فكان كسرى على خرخرسه فلهول: «وكان للمروزيان [أي البهجان] ابنان أحدهما تعجبه العربية ويروي الشعر يقال له خرخرسه والآخر يتكلم بالفارسية ويتدهقن، فاستخلف المروزيان ابنه خرخرسه وكان أحب ولده إليه على اليمن وسار حتى إذا كان في بعض بلاد العرب هلك... ثم بلغ كسرى تعرب خرخرسه وروايته الشعر وتأديبه بأدب العرب فعزله وولى بأذان [أخاه]، وهو آخر من قدم اليمن من ولادة المعجم^(١). ومعتدداً بعدد الجنود الفرس الذين يروى أنهم ساءموا في إنهاء حكم الحبشة لليمن (على رغم أن الروايات في المعتاد تميل إلى المبالغة في زيادة الأعداد لا تقليلها)، أن حكم الفرس كان صورياً ورمزياً، وأنه اقتصر على صنعاء وما والاها. أما المواضع الأخرى في الأقاليم فكان حكمها لأبناء الأسر المالكة قديماً والأقواء والأقوال^(٢). وهذا قد يفسر سهولة التلقب بلقب الملك هناك في تلك الحقبة.

ويلاحظ بمقارنة احتفال المصادر العربية بحكم سيف بن ذي يزن وروايتها قصص وفرد العرب إليه وتخليها له. وعدم احتفالها بحكم الفرس، أن الحكم الفارسي غير المباشر لليمن، على الرغم من وطأته الخفيفة على ما يبدو، إذا ما شُبه بالغزو الحبشي، لم يكن مما يتعمّاه العرب، فلم يعربوا عن ترحيبهم به في أي من المأثورات، مثلما أعربوا عن ابتهاجهم لحكم سيف. وقد حكت أساطير عن بطولة سيف ومآثره. وقولوا أمية بن أبي الصلت شعراً في حضرته، لا شك في أنه منحول، إذ يروي الأصمغاني أن ابن أبي الصلت قال لسيف وهو ابن يدي^(٣):

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٢، ١١٦، ١٥٧.

(٢) جرد على: ج ٣، ص ٥٣٠.

أتى جرجل وقد شالت نعماته فلم يجد عنده الضر الذي ساله^(١)

ذلك أن العرب سمّت الأباطرة البيزنطيين هراقلة، على اسم الإمبراطور الذي تسّم التاج الإمبراطوري سنة ٦١٠ م. ولم يكن جرجل معاصراً لسيف. ولذا يمكن أن يكون الشر منحولاً، وُضع بعد الحادثة بزمان طويل لتحميل قصة سيف وتعظيم أسطوره، أو أن أمة قاله فعلاً، ولكن بعد سنوات، ولم يُلْقَ به بين يديه^(٢). وفي أية حال فإن هذا يدلنا على نزوع عدد من الإخباريين إلى الاستراحة في قصة سيف. فروى الأزرقى والطبري وغيرهما أن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد الرسول كان في الوفود العربية التي وفدت على سيف. وهذا أمر ليس ممكناً فقط، بل أنه مرجح، لما كان لمكة من مصالح تجارية وسياسية مع اليمن، وبخاصة بعد محاولة أبرهة هدم الكعبة، ومواجهة عبد المطلب له، ولما يكن قد مضى على ذلك سنوات طويلة. وكان مرجحاً أن ترتب مكة بأحداث اليمن وأن يسعى ساداتها إلى عقد آصرة التحالف مع الحكم الجديد. لكن ما روي عن الحديث الذي جرى بين الرجلين في هذا الاجتماع، وتنبؤ سيف بظهور نبي من نسل عبد المطلب، والتنافس في توارب موت والد النبي ووالدته وغير ذلك من التفاصيل، تجعل الرواية مرفوضة في بعض جوانبها، ومطلوبة في بعضها ومرجحة في البعض الآخر^(٣).

تبقى الإشارة إلى عصر النصرانية في اليمن في إبان الحكم الفارسي، فليذكر الإخباريون أن أبا حارثة بن علفمة أحد بني بكر بن وائل أسقف النصارى وحبرهم في نجران قبل الإسلام كان قد شُرف فيهم وصار مرجعهم الأكبر وكانت له حظوة عند ملك الروم، حتى أنه كان يرسل له الأموال والفضة لينوا له الكنائس. وكان له أخ اسمه كوز بن علفمة. وقد أسلما مع من أسلم من الناس بعد السنة العاشرة من الهجرة. غير أن النصرانية التي ظلت قائمة في نجران بعد هزيمة الحبشة انحسرت في معظم الديار اليمنية الأخرى، من دون أن يؤتى على

(١) الأغاني، ج ١٧، ص ٣١٢.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ١٧، ص ٣١٢، ٣١٣. ولأزرقى: ص ٩٤-٩٥. وكذلك المحتر.

ذكر أي اضطهاد جديد^(١).

ضمن هذا الإطار من الصراع الدولي على طرق التجارة الشرقية لم تستطع الدولتان البيزنطية والفارسية أن تمدا نفوذهما عميقاً داخل الجزيرة العربية إلا لمأماً، على ما سنبين. ولما يلي ستناول امتدادات الصراع البيزنطي الساساني في القرن الميلادي السادس. وهي امتدادات وصلت في بعض الأحيان إلى يثرب ومكة وحكاظ وغيرها، لكنها لم تستطع أن تتدبّر الإهلال التي استطاعت، رغم المخاطر والمصاعب، أن تخلق للحرب طريقاً مستقلة بين القوتين العظميين.

ثالثاً: الصراع داخل الجزيرة العربية

أ- النصرانية في الجزيرة العربية

اختارت بيزنطة أن تجعل حدود الانتماء الديني مطابقة لحدود الانتماء السياسي. فكان من شروط اعتزلها بالزعماء البدو عملاً في مناطق نفوذها، أن يعتنقوا الدين المسيحي. ذلك ما كان لها مع سلاح ثم مع الفأس وغيرهم. وقد اكتسب النزاع اللاهوتي مع النساطرة صفة سياسية، فأنحاز الناطرة إلى القرس، وحوصلوا على هذا الأساس. أما اليهود في جنوب الجزيرة العربية فكان نزاعهم مع بيزنطة مؤسساً على أن التبشير البيزنطي بالمسيحية كانت ترافقه وفود التجار الروم، وأحياناً جيوش بيزنطية أو حليفة لبيزنطة. فهل كان الأمر كذلك في داخل الجزيرة العربية؟ لعل دراسة الانتماء الديني في داخل الجزيرة العربية في القرن السادس، توضح الكثير من ماجربات الأحداث السياسية التي وقعت في هذا القرن، وتلقي الضوء على علاقة هذه الأحداث بما كان يجري في أطراف الجزيرة، الشمالية في الشام، والجنوبية في اليمن.

كان الميل إلى اليهودية أو المسيحية منتشرًا أيضاً في داخل الجزيرة العربية^(٢)، وكانت الدولتان الفارسية والبيزنطية تحاولان التحكم في طرق التجارة

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٥٥٣، وج ٤، ص ١٩٠.

(٢) في شأن انتشار النصرانية في الجزيرة العربية انظر: Shahidi: Byzantium (Sc), p. 405 seq.

وانظر أيضاً: Fahd: Le Panthéon..., p. 3.

عبر الخليج والفرات، أو عبر البحر الأحمر، أو عبر جزيرة العرب^(١). وقد توسعت بيزنطة في استخدام القاتل العربي لهذا الغرض، أسوة برومة^(٢). وكان الحميريون، حتى الغزو الحثي لليمن، يسيطرون، بنحائهم مع كندة، على الجانب الغربي لجزيرة العرب، ويتمكنون بمعظم طريق التجارة العربية غربي الجزيرة، وطريق تجارة البخور. وفيما كانت طريق الحرير الآسيوية بد المرس في معظم الأحيان، وطريق البحر الإريثري والمحيط الهندي لغنى إلى الشواطئ الفارسية، تحولت الجزيرة العربية إلى عامل أساسي في الصراع على تجارة الشرق^(٣). كان التبشير مسألة عقيدة نهتم لها بسرعة ولا شك، فترسل إلى داخل الجزيرة وأطرافها القصبة من يهتم لهداية البدو العرب. لكنها لم تهمس عنها في الوقت نفسه عن الفوائد السياسية والتجارية التي كان يمكن أن تحبها من فعل هذا التبشير.

ولم يكن التبشير البيزنطي وحده مصدر انتشار المسيحية في الجزيرة بالطبع، لكن الصراع الطويل مع اليهود أحال الانتماء الديني إلى ما يشبه الانحياز السياسي إلى إحدى الفئتين الكريسي على أية حال. ولاحظ عهد تأثير النصرانية في مكة نفسها عند الفتح^(٤). بل ذهب كزبل إلى ملاحظة تأثيرات جبلية في الوثنية العربية وعبادة الصنم ذي الشرى^(٥). وكان بين فرشتي مكة نصارى قبل الإسلام، لكن معظم النصارى هناك كانوا من الروم أو الرقيق الإثريقي المتأثر بالنصرانية الحثية، أو السوراني «اليونانيات»^(٦). لما الفريشون النصاري فكانوا قلة، تجمع المصادر على أنهم كانوا أربعة لا عبر، ورقة من نوزل

(١) الدوري: ص ١٠.

(٢) *Cisal. op. cit.*, p. 3

(٣) *Sinua. op. cit.*, p. 329

(٤) *Feld Le Pantheon ...*, pp. 173, 251

(٥) *Kreft, Leideff Über die Religion der Vorkristlichen Araber*, (Oriental Press, Amster-)

dam, 1972 (Neudruck der Ausgabe Leipzig, 1883), no. 48, 49)

(٦) الأزرقي: ص ١١٠، ١١١. وسيرة ابن هشام ج ١، ص ٢٠٩ وما بعده والأصفي: ج ٢

ص ١١٩ - ١٢٢، ج ١، ص ١٢٩ - ١٢٣ وحول علي ج ٦، ص ٨٢٩، ٦٠٢ - ٦٠٩.

وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل^(١). وحفظ لنا الشعر الجاهلي بقايا من التأثيرات المسيحية في داخل جزيرة العرب، منها أبيات لامرئ القيس ولورقة بن نوفل وغيرهما، وإن كان الأب لويس شيخو ميالاً إلى اعتداد كل الموحدين والأحناف قبل الإسلام مسيحيين^(٢). وكان تغلغل النصرانية إلى مكة يُعزى في معظمه إلى أسفار المكيين إلى بلاد الشام أو مجيء الروم والأحباش إلى مكة، على ما حدث لدى بناء الكعبة في عهد محمد قبل مبعثه، حين غرقت سفينة رومية عند شاطئ جدة.

أما النصرانية في أطراف الجزيرة، وبخاصة في الشمال الغربي والشمال الشرقي وفي اليمن، فكان انتشارها بفعل تماس مباشر ونفوذ سياسي وعسكري. ففي الشمال الشرقي للجزيرة كانت النصرانية في إهاد في الحيرة وامتداداتها الصحراوية. فظل معظم نصارى الحيرة على مذهب النسطورية، حتى أخذ المذهب اليهقوبي ينتشر هناك قبيل الإسلام. وفي الأحساء جنوب الحيرة كانت النصرانية منتشرة في ربيعة وبكر. وإلى غرب الأحساء انتشرت في تعيم، وكان كثير منهم مجوساً. وإلى جنوبه الغربي في اليمامة انتشرت في بني عجل. وكانت تغلب على الدين النصراني أيضاً، وكانت ديارها بين الحيرة والشام في أقصى شمال جزيرة العرب. وكذلك كندة التي كان موطنها الأول حضرموت. وكانت هذه القبائل معظم الأحيان ضمن نطاق النفوذ الفارسي، يشد تارة وينحسر طوراً وفق الميزان العسكري، ويستقر أحياناً ويضطرب أحياناً أخرى تبعاً لقرب

= وانظر أيضاً: Lammens, Henri: l'Arabie Occidentale avant l'Hégire, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1928, pp. 1 - 49.

- (١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٤٢ - ٢٥٠. وكذلك المحجّر، ص ١٧١.
 (٢) شيخو، لويس: شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٢. والطبعة الأولى لمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٦. وانظر أيضاً الأغاني، ج ١، ص ١٢٧، ٢٦٠، ٢٦٤، وج ٣، ص ١٢٥. وكذلك أوليري، ديلاسي: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، تعريب تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٩٤.

القبيلة من بلاد فارس أو بعدها عنها^(١).

وفي الغرب كانت غسان في يادية الشام وجنوبها، وبعض قضاة في شرق أيلة، وجذام (من لخم) ومنازلها بين تبوك ومدين وعُدرة وبهاء، على النصرانية أيضاً. فيما كانت اليهودية في حمير على الخصوص، وفي كثير من كندة في حضرموت، وفي وادي القرى ويثرب. وكان سائر قبائل العرب من عبدة الأوثان^(٢). ويلاحظ أن النصرانية في غرب الجزيرة، امتدت حتى العلا ومدائن صالح، ولم تنتشر إلى الجنوب من هذه الديار في وادي القرى، إلا انتشاراً محدوداً. وقد كانت العلا ومدائن صالح في الوقت ذاته أقصى حدود الوجود العسكري والإداري الروماني والبيزنطي في الجزيرة العربية زمناً طويلاً. لكن الفاسنة استطاعوا مع ذلك أن يقيموا اتصالاً سياسياً وقبلياً بأبناء يثرب، مستندين إلى النسب المشترك. أما النصرانية فكانت ضعيفة في يثرب. كذلك كانت لبني عذرة علاقة بقریش، على ما يروى عن رزاح العذري ومساعدته أخاه لأمه قصي بن كلاب زعيم قریش الأول، في صراعه مع قبيلة خزاعة. كذلك امتدت النصرانية إلى طيء، وكان عدي بن حاتم زعيمها نصرانياً عند ظهور الإسلام. ولكن طيئاً لم تكن كلها نصرانية، فكان منها من تعبد لثلاثة أصنام هي الفلس ورضى وسهيل، وفيما بين نجران ووادي القرى، نادراً ما ذكر وجود مجتمع مسيحي، سوى أفراد هنا وهناك، على نحو ما كان من أمر نصارى مكة. فلم يذكر مثلاً في الطائف من نصارى غير نفر من الموالي والرقبيق^(٣).

ب- اليهود على طريق القوافل

لم يكن تعداد اليهود في داخل الجزيرة العربية عظيماً، لكن حسن

(١) في شأن المسيحية العربية قبل الاسلام في الحيرة وجوارها راجع مقالة الأب فيه: الأسقفيات

السريانية الشرقية في الخليج الفارسي. Fiey, Jean Maurice: Diocèses syriens orientaux du

Golfe Persique, Mémorial Mgr Gabriel Khouri-Sarkis, Louvain 1969, pp. 177 - 219

(٢) المسحّر ص ٢٣٨. وابن قتيبة: المعارف، طبعة عكاكشة، دار الكتب، مصر، ١٩٦٠،

ص ٩٢١. وحمّور: ص ٩٢٢.

(٣) جواد علي: ج ١، ص ٦٠١ - ٦٠٣، ٦٠٧، وجد ٤، ص ٢٢١، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٥٤.

وكذلك Lammens: l'Arabie..., p. 48.

انتشارهم من فلسطين إلى اليمن على جزء مهم من طريق القوافل، واتصالهم
 بيهود حمير ويهود طبرية، عند طرفي هذه الطريق، واعتمادهم الخاص بالتجارة
 والأعمال المالية، ضاعفت قوتهم السياسية. ولم يَر سميت ثمة سبباً لاستبعاد ما
 روته المأثورات العربية أن تُبعأ أبا كُرب أسعد ملك اليمن في أوائل القرن
 الخامس، اعتنق اليهودية في يثرب وأن الملوك الذين خلفوه كانوا على هذا الدين
 أيضاً. ويُعتقد أن استيلاء اليهود على السلطة في يثرب عاصرَ تعاضُّمَ الجالية
 المسيحية في نجران. وكانت الجالية اليهودية التجارية في جزيرة يوتابه قد
 استقرت هناك قبل سنة ٥٠٠م.، وحتى سنة ٥٣٠م. وليس من شك في وثوق
 العلاقة بين يهود يثرب ويهود السامرة وطبرية. ويقول ديفريس في يهود طبرية
 هؤلاء إن بيزنطة كانت تخشى جانبهم لعقدتهم صلات متينة بأبناء دينهم في عمق
 الجزيرة العربية، فيما كان يهود يوتابه ينعمون بحرية الحركة، ولذا سارعت
 بيزنطة، بعد استيلاء الحبشة على اليمن سنة ٥٢٥م. وقتلها الملك اليهودي
 يوسف، ذا نواس، إلى تعيين أبي كُرب بن جبلة المنتصر عاملاً على جنوب
 فلسطين وعلى جزيرة يوتابه. وعند نشوب الحرب مع الفرس ثار السامريون
 اليهود، على الحكم البيزنطي^(١). فلا يمكن والحال هذه ألا نرى علاقة بين
 ماجريات تلك السنوات واتصال بعضها ببعض، على طول طريق القوافل، من
 اليمن إلى بادية الشام. وإذا استمر الصراع البيزنطي المباشر مشتدداً طوال القرن
 السادس وردحاً من القرن السابع، استمر في الوقت نفسه تهالك الوكلاء من
 الشمال ومن الجنوب، لمحاولة السيطرة على طريق القوافل عبر جزيرة العرب.
 ويُعدَّ استيلاء الأوس والخزرج على أزمة السلطة في يثرب، وحصرهم اليهود في
 حصونهم، خطة محكمة أصابت خط المستوطنات اليهودية بضربة قوية. وكان
 الغساسنة هم الذين نصروا الأوس والخزرج على اليهود. ومن المرجح أنهم
 حينما عزموا على ذلك، لم يغيب عن بالهم أنهم عجزوا في سنة ٥٢٥م. عن
 تجلدة يعاقبة نجران، لأسباب منها امتناع اتصالهم باليمن برأ بسبب اعتراض يثرب

(١) Smith: op.cit., pp. 428, 462, 463. cf. Devreesse: op cit . p. 274

وغيرها من مواطن اليهود طريقهم إلى هناك^(١).

وثمة خلاف حول زمن وقعة استيلاء الأوس والخزرج على يثرب، إذ يجعلها أبو الفرج الأصفهاني في عهد الملك الغساني أبي جبيلة^(٢). فيقول الشريف استناداً إلى سبديو وبعض المصادر العربية، إنها حدثت سنة ٤٩٢ م.^(٣) أما مونتغمري وات فيستند إلى فلهاوزن في القول إن انتزاع الأوس والخزرج السلطة من يهود يثرب كان في أواسط القرن السادس^(٤). ونميل إلى الرأي الثاني، لأسباب أهمها:

١- أن يثرب سنة ٥٢٥ م. لم تكن بعد في أيدي الأوس والخزرج، ولا لما حالت اليهود فيها دون مرور النجدة الغسانية إلى نجران.

٢- أن الاطمئنان إلى قول المصادر العربية إن الحرب بين الأوس والخزرج التي نشبت بعد استيلائهم على يثرب، قد استمرت مائة وعشرين عاماً حتى ظهور الإسلام هو اطمئنان يبدو متسرعاً بعض الشيء.

٣- أن أبا جبيلة هذا قد لا يكون سوى الحارث بن جبلة الذي ملكه البيزنطيون على العرب من سنة ٥٢٩ م. إلى سنة ٥٦٩ م. وليس مستغرباً أن يعمد زعيم قبلي عربي إلى تسمية ابنه على اسم أبيه، وأن يكون اسم الجد جبلة ويكون اسم الحفيد تصغيراً له: جبيلة^(٥) ولا يُستبعد حتى أن يكنى الحارث بن جبلة بهذه الكنية من غير أن يكون له ولد بهذا الاسم، فتلك مسألة غير نادرة بين العرب، بخاصة إذا كان الجد من أصحاب الشأن الذين اشتهروا بفعال ارتأى

(١) أبدى شهيد هذا الرأي في تعقيبه على عدم اشتراك العساة بالعملة الحشية على اليمن سنة ٥٢٥ م.، خلال حديث خاص. وعن يثرب ويهودها أنظر ييرون: الحجاز... ص ٣٩.

٤٥. وعن انتشار اليهود بين الحجاز والشام أنظر 54 p. Lammens l'Arabie.

(٢) الأغاني، ج ٢٢، ص ١١١ - ١١٣.

(٣) الشريف: مكة والمدينة... ص ٣٢٩ - ٣٣١.

(٤) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca... p. 141.

(٥) Shahid: Byzantium in South Arabia... p. 83.

الناس أنها مجيدة. وقد استدُلَّ الشريف على أن المسألة لم تكن مما يصحّ اعتداده خطة سياسية غسانية ضد اليهود، بقوله إن الأمر لو كان كذلك، لفتك الغسانة «بالجماعات اليهودية في خيبر ووادي القرى وهم منهم أقرب»، وفاته أن يهود يثرب استجدوا فعلاً بيهود خيبر، على ما جاء في نشوة الطرب^(١)، وأن الغسانة غزوا يهود خيبر فعلاً في غضون سوات قليلة على ما يبدو. إن عدم التسرع في الاستنتاج فضيلة عند المؤرخين، لكن عدم التعمق في رؤية الخيوط الخفية التي قد تربط الأحداث المختلفة بعضها ببعض ليس فضيلة حتمياً. كانت الحرب سجالاً بين اليهود والنصارى في الجزيرة العربية، وكان الصراع السياسي من أهم أسبابها. فمن الحوافز المحتملة لقتل ذي نواس شهداء نجران مثلاً، أن هذه المدينة النصرانية كانت تعترض طريقه إلى يثرب مركز اليهودية في الحجاز، وأن وقعة الأخدود قد لا تدرج ضمن الاضطهاد الديني مقدار ما تدرج ضمن العمل السياسي المدبر^(٢). ولا مسوّغ إذن لاستبعاد احتمال الحافز السياسي عن الغزوات الغسانية للممدن اليهودية في الحجاز.

ومما يزيد في تأكيد صلة هذا الصراع الغساني اليهودي بالصراع البيزنطي الفارسي، أن ابن خردادبه يقول في كتابه «المسالك والممالك» إن مَرْزَبَانَ البادية الذي عينه الفرس عاملاً على يثرب كان يجمع الضريبة للفرس، وكان النضير وقريظة من يهود يثرب، تجمع له الخرج من الأوس والخزرج. وفي هذا قال الشاعر:

تؤدي الخَرْجُ بعد خراج كسرى وخرج من قُريظة والنضير
فإذا كانت قريظة والنضير تجمع الضريبة للفرس، وكان الفرس على حرب مع بيزنطة حلفاء الغسانة، فلا يملك المؤرخ سوى وضع المسألة ضمن إطارها العام، بخاصة إذا تبدت له في مكان آخر وربما زمان آخر، مظاهر تثبت أن

(١) الأندلسي: نشوة الطرب... ص ١٨٨. وربط بيصون اصطهاد يهود الحجاز بغزو الحبشة

اليمن. أنظر بيصون: الحجاز... ص ٤٣، ٤٤.

(٢) Shuhid: The Conference of Ramlā... p. 124

الصراع البيزنطي الفارسي كان مستمراً وشاملاً.

وعلى رغم زوال حكم اليهود عن يثرب، فإن الفرس لم يعلموا وسيلة للعمل مع الأوس والخزرج، حين كان ميزان القوى يسمح لهم بمقد نفوذهم. فالأوس والخزرج على نسب مع اللحميين، وإن كان نسباً أبعد من نسبهم مع الفساسة. وقد أبدى ثابت بن المنذر، والد حسان بن ثابت في إحدى قصائده، انتقاده لتعيين النعمان بن المنذر الحيري عمراً بن الإطابة الخزرجي ملكاً على المدينة، فقال:

أَلَيْكُنِي إِلَى النُّعْمَانِ قَبُولاً مَحْضُهُ وَفِي النَّصْحِ لِلْأَبَابِ يَوْماً دَلَائِلُ
بَعَثَ إِلَيْنَا بَعْضَنَا وَهُوَ أَحْمَقُّ فَيَا لَيْتَ مِنْ غَيْرِنَا وَهُوَ عَاقِلٌ^(١)

وليس في وسعنا أن نتخذ انتقاد ثابت على أنه دليل على انتفاء الصراع السياسي بين الفرس وبيزنطة في يثرب، بل الضد هو الأخرى، إذ إن ابن الإطابة كان عاملاً للحيرة، وكان حسان من أنصار الفساسة، ولعله ورث هذا الولاء عن والده.

ضمن هذا الإطار من الصراع البيزنطي الفارسي، الذي انخرط فيه العرب النصارى واليهود، يمكن إدراج ثورة اليهود على بيزنطة في فلسطين مرة أخرى سنة ٥٥٦م.، ثم غزوة الفساسة لخبر اليهودية، وقد ارتوى أنها حدثت في سنة ٥٦٧م.^(٢)، وهو تاريخ قريب جداً من تاريخ غزوة أبرهة الحبشي الفاشلة لمكة، على ما سيأتي لاحقاً.

(١) الأندلسي: نشوة... ص ١٩٩. وانظر ابن خردادبه: المسالك والممالك، مطبعة بريل،

ليدن ١٣٠٦ هـ، ص ١٢٨. وانظر أيضاً ١٤٦، ١٤٥، ١٤٦. Knter. Al-Hira .. pp

(٢) ابن الأثير: الكامل... ج ١، ص ٦٥٩ - ٦٧١. وكذلك ولفسون: ص ١٩٢. وجواد

علي: ج ٦، ص ٥٩٤، وج ٨، ص ١٧٧، ٥١٩. وقد استمر الصراع طويلاً حتى انتخذ بعض القبائل من بعض اليهود في يثرب حلفاء. انظر في هذا ييصوص: الأنصار والرسول،

معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٩، ص ١٣ - ١٦.

ج - نفوذ الفرس في جزيرة العرب

لم تكن محاولات بيزنطة وحلفائها الوضول في جزيرة العرب دليلاً على غفلة الفرس عن ذلك، بل العكس. فبعد غزو الحبشة لليمن أخذ النفوذ الفارسي في وسط الجزيرة يتهاوت، ونفوذ الحيرة يتعاظم. فلم تمض السنين من القرن السادس حتى كانت الحيرة، وكيالة الفرس، تمتد سلطانها على كثير من القبائل العربية. وكان تولدكه قد شك في قول الطبري إن ملك اللخمين قد امتد إلى وسط الجزيرة في القرن الرابع، عصر امرئ القيس، وأواسط القرن السادس. عصر المنذر الثالث. لكن اكتشافات ريكمنس الأثرية أثبتت على نحو مقنع صحة قول الطبري، إذ جعل كسرى أنوشروان حامله المنذرين النعمان ملكاً على جميع العرب بين عمان والبحرين واليمامة والطائف والحجاز^(١). وقد سلفت الإشارة إلى أن اللخمين مدوا نفوذهم حتى يثرب في أواسط القرن السادس تقريباً. بل إن سيمون يشبه في أن هذا النفوذ امتد حتى إلى مكة نفسها، استناداً إلى الأصفهاني في أغانيه، حيث روى قصة مصالحة المنذر الثالث قبائل بكر وتغلب، ثم قال: «إن المنذر أخذ من الحين أشرافهم وأعلامهم فبعث بهم إلى مكة». فاستنج سيمون أن مكة كانت تحت سلطة المنذر. لكن الاستنتاج بعيد^(٢). تضعفه روايات أخرى صريحة، من عهد قباذ الذي عاصر حكمه حكم المنذر ستاً وعشرين سنة (٥٠٥ إلى ٥٣١ م). إذ جاء في «نشوة الطرب» للاندلسي: «وكان [عبد مناف بن قصي] في زمن قباذ سلطان الفرس الذي تزندق وأتبع مذهب مزدك وعزل بني نصر عن الحيرة، لأنهم انفوا من ذلك المذهب» وولّى عليها الحارث الكندي جد امرئ القيس الشاعر. وأمر الحارث أن يأخذ العرب المزدكية من أهل نجد وتهامة بذلك. فلما انتهى إلى مكة راسل قريشاً في الزندقة، فيمنهم من تزندق... ومنهم من امتنع، وكان رأس الممتنعين عبد مناف، جمع قومه. وقال: صارت الأديان بالملك، وأذهبت نواويس الأنبياء

(١) Simon: L'inscription..., pp. 331, 332 وكذلك: Smith op.cit., p. 442. وانظر أيضاً: Sha-

hid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 194

(٢) Simon: L'inscription..., p. 333 (٧)

والشرائع! أنا لا أتبع ديناً بالسيف وأترك دين إسماعيل وإبراهيم. فبلغ ذلك الحارث فكتب به إلى قباذ فأمره أن ينهض إلى مكة ويهزم البيت ويحرق عبد مناف عنده ويزيل رياسة بني قصي. ففكر ذلك الحارث، ودانخلته حمية للعرب فدارى عنهم، وشغل قباذ بغيرهم^(١). وإذا صحت شبهة معترضين أن نسبة الأمر إلى أحد أجداد الرسول قد تدل على رغبة في تعظيم أجداد النبي العربي، فإن هذه النسبة لا تكون ذات فائدة لو لم يكن تمرد مكة على أمر قباذ صحيحاً. على أن اقتراب النفوذ الفارسي من مكة في ذروة تعاظم سلطان المنذر الثالث، هو أمر لا شك فيه، فقد عملت الحيرة لحصر نفوذ تميم ولبسط سلطان غطفان شرق مكة^(٢). ولعل في ذلك تفسيراً لغزوات أبرهة داخل الجزيرة العربية، وهي غزوات قبل إنها موجّهة ضد الحيرة، وهي قطعاً موجّهة ضد حلفاء الحيرة في وسط الجزيرة، لأن حظ ملك اليمن الحبشي في بلوغ الحيرة نفسها في حملة عسكرية ناجحة، لا يبدو مقنعاً. وكان غرض الحيرة، وغرض أبرهة على الأرجح، هو السيطرة، بالمحالقات أو القدرة العسكرية، على طريق القوافل البرية القرشية التي أخذت تتعاظم حصتها في تجارة الشرق مع اشتداد الصراع العسكري. وقد أنشأ ملك الحيرة اللخمي نظام الرداقة تقريباً لشيوخ القبائل والردف هو شيخ يحلس عن يمين الملك في بلاطه. وكان للملك اللخمي أرواف في ضبة تميم وسدوس (من شيان) وتعلب وغيرها. وأنشأ ملك الحيرة أيضاً نظام ذوي الأكال، وهو أشبه بالإقطاعيات، وكان ذوو الأكال من وائل^(٣).

وكانت طريق القوافل العربية التي تصل الحيرة بنحرا ن أقل شهرة من «طريق المطورة» في غرب الجزيرة. لكنها لم تكن أقل شأنًا في حسابات بلاد فارس والحيرة، لأنها وصلتهما باليمن والسوق الحشية، وكانت مدخلًا للنفوذ السياسي إلى جنوب غرب الجزيرة. ومحورًا لتاريخ من المحالقات السياسية

(١) الأندلسي: نشوة الطرب ... ص ٣٢٧ وقال ابن قتيبة إن الرداقة امتدت إلى قريش. ابن

قتيبة: المعارف، ص ١٦١

(٢) Kaster: Al-Hira... p. 144

(٣) Ibid pp. 149, 150

والاتصالات المقلدية والدينية والحملات العسكرية والمواصلات الثقافية في أن^(١)، وعلى طول هذه الطريق عند الفرس تحالفاتهم، وعلى هذه الطريق حاول أبرهة أن يترفع الولاء له وليزنطة. لكن ابن حبيب وضع معظم قبائل مضر فوق أي انحياز، فوصف هذه القبائل بأنها لفاح، أي أنهم لا يدينون للملوك^(٢).

وفيما وظبت قريش على ألا تدين بدين الملوك، رغم محاولات الفرس مد نفوذهم إليها، افترقت كتلة، ذلك التحالف القبلي الذي كان له شأن فيما بين الحيرة وبادية الشام واليمن، بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس، افترقت منذ البداية إلى عنصر التماسك الضروري، وصرفت فيما بعد كل اندفاعاتها في تعقيدات كثيرة مع حمير والفرس ويزنطة. وفيما كانت كتلة تبحث عن ولاء يعطيها مكاناً في الساحة بين الفئتين المظلمين، خاصمت بيزنطة لتتزع احترامها، وحالفتها ثم خاصمتها. وانقلبت في الحيرة من حليف للفرس إلى خصم لهم. أما في اليمن فكانت حليفة لحمير حين كانت في الشمال تحالف بيزنطة، وحين غزا الأحباش اليمن ازداد موقف كتلة لغوياً واضطراباً، وظلت على هذا الغموض حتى انقرض عنها قبل منتصف القرن السادس^(٣).

٥- فرائع حملة أبرهة على مكة

يحثل أبرهة الحبشي رأس حرية المسيحية الحبشية في الصراع مع يهودية حمير. ويمكن للدراسة مسلكه السياسي حيال القبائل العربية وخطوط التجارة في وسط الجزيرة العربية وعلى جوانبها أن تميظ اللثام عن كثير مما جرى بين الدولتين الكبيرتين وامتداداتهما في الصراع على تجارة الشرق، ومن الظروف التي أحاطت بصعود مكة إلى مصاف القوى المؤثرة في مسار هذه التجارة.

(١) Shahed: The Conference of Ramlah..., p. 130

(٢) المحبر: ص ٢٥٣، وانظر أيضاً Kater: Al-Hira..., p. 120 وكذلك Dinkler: vol II, p. 43

(٣) Shahed: Oman, Van Wiamann: History Ancient History..., pp. 487, 488

إن غزوة أبرهة الفاشلة لمكة هي ولا ريب أخطر الحوادث التي واجهتها مكة في مرحلة صعودها هذه. ولعلها أخطر الحوادث التي تعرض لها الإيلاف في تطوره ومساره المستقل. ولا بد في استعراضنا لأسباب الغزوة، من التحيز بين الأسباب الحقيقية التي يتحرك بدافعها المسيهون والغلاة، والذرائع والمسوغات التي يتخللها لأجل التحرك. وقد حفلت المصادر العربية بتفصيل هذه الذرائع، حتى أصبحت قصة أبرهة وفيه من الماتورات الإسلامية الشعبية الرائجة.

فلذكر الأزرقى أن أبرهة بعث إلى الحاشي بكتاب وعده فيه بأن يصرف حاج العرب إلى الفلبس الذي بناه في اليمن لينزكوا الحج إلى بيتهم في مكة. وقال: «فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة بذلك إلى الحاشي، غضب رجل من النساة أحد بني لقيم من بني مالك بن كنانة فخرج حتى أتى الفلبس ففقد فيها - أي أحدث فيها [يعني أنه تروّز فيها] ثم حرج حتى لحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقبل له: صنعه رجل من العرب من أهل البيت الذي تحجّ العرب إليه بمكة لما سمع بقولك أصرف إليها حاج العرب، فغضب فجاءها ففقد فيها أي أنها ليست لذلك بأهل، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه»^(١).

وقال الطبري إن أبرهة لما بنى الفلبس وأمر الناس لمحقوه، لمحقه كثير من قبائل العرب سنين ومكثت فيه رجال يتعبون ويتألمون، ونسكوا له. وكان ثقل الخنثمي يؤرض له ما يكره، فلما كان ليلة من الليالي لم ير أحداً يتحرك، فقام فجاء بقبيلة [غايط] فلطخ بها قلته وجمع حفاً فالتفأها فيه فأحر أبرهة بذلك فغضب غضباً شديداً وقال: إنما فعلت هذا العرب غضاً لئهم»^(٢).

وقال أبو هلال العسكري: «فانصنع ملك اليمن لأبرهة وبنى كنيسة

(١) الأزرقى: ص ٩٩.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١١٤.

صنعاء على حلوة من خمدان، فاشتغل ببنائها عشر سنين، فلما أتمها رأى الناس شيئاً لم يروا مثله قط، وأراد صرف حجاج العرب إليها، حتى يدخلها نفر من بني كنانة من قريش فأحدثوا فيها فغضب أبرهة، وعزم على غزو مكة وهدم الكعبة^(١).

وروى ابن هشام رواية شبيهة إذ قال: «فخرج الكناني حتى أتى القليس فقمع فيها... ثم خرج فلحق بأرضه فأحبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا؟ فقبل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب إليه بمكة، ما سمع قورك: أصرف إليها حج العرب، فغضب فعاد فقمع فيها، أي أنها ليست لذلك بأهل... فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليهربن إلى البيت حتى يهنهن»^(٢).

وقال محمد بن حبيب: «كان من حديث الفيل أن نفراً من كنانة خرجوا قبل اليمن فلما دخلوا صنعاء إذا هم ببيت قد بُني كنيان الكعبة بناء أبرهة الأشرم الحبشي وسماه قليس، فدخل أولئك النفر ذلك البيت فتخوَّط بعضهم فيه فارتحلوا فانطلقوا، فوجد ذلك الأثر فغضب أبرهة وقال: من فعل هذا؟ قالوا له نفر من أهل بيت العرب، فحلف بدينه أن لا يتركهم حتى يخرَّب بلدهم ويهضم بيتهم»^(٣).

ويلاحظ في جميع هذه الروايات، رغم تبدل التفاصيل فيها، أن الخصومة التي لا تتبدل هي خصومة أبرهة لمكة. فكانة التي ينسب إليها ملطخو القليس هم من أحلاف مكة، بل إن قريشاً تمدَّ فرعاً من كنانة. والنساء هم قوم من كنانة لم يمتروا بصلة نسب مشترك إلى قريش فقط، بل كانوا يتولون النسب، وهو من المهام التي سنبين فيما بعد أنها كانت ذات شأن في تحارة مكة وفي الحج إليها.

(١) أبو ملال الصكري: المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠، ٣١.

(٢) سير ابن هشام: ج ١، ص ٤٦.

(٣) البهزادي، محمد بن حبيب: المستوفى، تحقيق حورشد أحمد عارف، دار المعارف الطرابلسية، جلد اول، الهند، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ص ٦٨.

وقد أدرج البلاذري في الأنساب رواية مختلفة لنقمة أبرهة على مكة، لكن هذه الرواية أكدت أن للخصومة علاقة بنحارة مكة وإيلانها، إذ جاء فيها: «منهم الحارث بن علقمة بن كندة بن عبد مناف بن عبد الدار وهبة قريش عبد أبي بكوم [أبرهة] الحبشي حين دخل مكة قوم من نخارهم في حطمة كانت فوثب أحداث على بعض ما كان معهم فانتهموه، فوثقت بينهم ماهرة، ثم اصطلموا بعد أن مضت عدة من وجوه قريش إلى أبي بكوم وسأله ألا يقطع نخار أهل مملكته عنهم فذبح الحارث وغيره وهبة». وثمة رواية للمسويدي مفادها أن سب غزوة أبرهة هو سب شخصي، ونفذ الرواية أن حفيد أبرهة، أكوم بن الصباح الحميري خرج حاجاً، فلما انصرف من مكة نزل في كبة نحران، فعدا عليها ناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحلبي وأخذوا مناع أكوم، فاتصرف إلى جده مضطرباً^(١). وذكر إخباريون آخرون أن هبة من قريش دخلوا القليس فأجحوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه ريح شديدة، فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فغضب أبرهة، وأقسم ليتقم من قريش يهدم معدهم كما تسوا في هدم معده الذي باهى النجاشي به^(٢).

وقد توحي هذه الروايات أن الإحصاريين المسلمين اتسموا بالذخاعة في فهم أسباب غزو أبرهة لمكة. لكن التدقيق في هذه الروايات وفي اقتران مواسم الحج بالأسواق وطرق القوافل، ورفض تعاطف مكة وسجنها بين العرب بهزيمة أبرهة يجعلان من هذه الروايات مادة تاريخية مكتوبة بلغة عصرها وقائلة لأن تفسر بلغة عصر آخر. وقد ارتأى ماحنون أن قول الروايات إن ملطخي القليس من النساء والخمس هو قول ذو دلالة مهمة، ولم يروا فيها ساءاً للشك في صحتها^(٣).

Koser, M J The Campaign of Hishām: a New Light on the Expedition of Abreha, Le (١),
Museum, 70 (1964), pp. 429 - 432 ولم يحتر على النص في ضمه لأسببه المذكورة في

مصادرنا.

(٢) جواد علي: ح ٣، ص ٥١٠

Koser M J Some Reports Concerning Abreha from Jathirah to Islam, Journal of the Geo-

name and Social Library of the Orient, XV (1972), pp. 63 - 64

هـ - أسباب الحملة الحثيئة

لقد كان لبيزنطة أسبابها الحافزة على غزو جزيرة العرب ومحاولة كسب مساهمة الحبشة وأبرهة في الجهد العسكري ضد الفرس هناك، خصوصاً بعدما استقر نفوذ الساسانيين عقوداً طويلة، وأصبح واضحاً أن هذا النفوذ الذي وصل إلى الحجاز يهدد الطرق التجارية التي كانت بيزنطة تعتمد عليها في حرب جزيرة العرب والبحر الأحمر.

ونعلم أن الإمبراطور جوستينانوس أرسل سفارات عديدة لمحاولة إقناع نجاشي الحبشة ثم ملوك حمير النصارى، منذ الغزو الحبشي لليمن، بأن يشنوا حملات عسكرية أو غير مباشرة على الفرس. ويقول بروكوبيوس إن أبرهة نظم فعلاً حملة على الفرس، لكنها لم تبلغ مقصدها. وسمح بعض البعثات الذين درسوا الأمر إلى الاعتقاد أن النفوذ الذي عثر عليه ريكمنس، وزوشتة، وري ٥٠٦، إنما يروي هذه الحملة التي ذكرها بروكوبيوس. ويقدّر البعض تاريخ الحملة بما بين ٥٤٣ و ٥٤٦ م، وهذه السنة الأخيرة هي السنة التي بدأ فيها العمل بهدنة بين الفرس وبيزنطة تعززت بمعاهدة السلام سنة ٥٦١ م.^(١) لكن السلام بين الدولتين انهار سنة ٥٧١ م، أي بعد التاريخ الذي تجعله المصادر العربية لغزوة أبرهة بسنة واحدة. وقد تكون الغزوة بين الأسباب التي جعلت معاهدة السلام تنهار. ولا بد من أن نلاحظ أن المعاهدة لم تكن تلزم أبرهة ودولته، ولا كانت مكة منطقة نفوذ فارسي ضمن المناطق التي تخضع لأحكام المعاهدة، ولذا حدثت غزوة الفيل، دون أن تكون انتهاكاً للمعاهدة. وليس مستبعداً أن البيزنطيين والساسانيين الذين كانوا يوعزون لحلفائهم بالتحرش العسكري، قد استخدموا الوسيلة ذاتها هذه المرة أيضاً فأوعزت بيزنطة لأبرهة أن يشن حملته، لأن استخدام الغناسة للتحرش بالفرس لم يعد ممكناً بعدما نصت معاهدة ٥٦١ م. على تحريم ذلك، على ما سلف.

(١) Procopius: op.cit., vol I, p. 195. وانظر أيضاً Ryckmans, Jacques: Inscription de Murnighan

ولقد كان أبرهة أيضاً سبباً الحافز للاستجابة للدعوة المسيحية، إذا كان من دعوة بيزنطية، أو لشئ حملته على مكة حتى من غير أن يحث أحد على ذلك. كانت الحوافز الذهبية والاقتصادية تعمل في الاتجاه ذاته، فبرز بعضها البعض. ويبدو أن أبرهة رُوِّع للتوفيق التجاري المتعاضد الذي أصابته مكة، والمكاسب المالية التي كانت تحققها في الأنحار، حتى من الأحاسيس والدور، ولا شك في أنه أدرك مقدار مساهمة منطقة الحرم المكي في شروق مكة هذا الملح من النجاح. فإذا كان لا بد من حصر نفوذ مكة والاستيلاء على مصدر ثروتها، فلا بد من تدمير الحرم المكي وحمل العرب يحشون حرمًا آخر بدلاً منه، ولا بد من اجتذابهم إلى مركز تجاري جديد. وإذا كانت المصالح عامة في العموم عن الأغراض التجارية لحملة أبرهة فإن الأوضاع الدولية، وخصوصاً حرب هذه الحملة من زمن غزوة الفساة لخبره، تبرز الشبهة كثيراً، في أن الحملتين كانتا بوحى بيزنطي للاستيلاء على الإبلان وتجارته.

كان أبرهة يرى، على ما يبدو، أن كل العناصر الثلاثة - لصرف حاج العرب عن مكة إلى بلاده، مناصرة لديه. في شهادته نهران الذهب نلتهم الملك اليهودي يوسف أساره، قصة تصح أن تكون محور معتقدات شعبة تحيط بها الأساطير والمعجزات وكل ما يلزم لمخيلة الناس. ومفاهيم الشهادته تحولت فعلاً إلى مزارات، لا يحتجها النحراثيون وحدهم، بل العرب في الحولار أيضاً. وكان متوقعاً وطبيعياً أن تتحول المزارات إلى مؤسسات توفر الطعام وغيره من الحاجات للحجاج الآتي من خارج نهران. وبذلك أصبحت الضيافة واجباً من واجبات سدنة المزار، تماماً مثلما كانت رفادة الحجاج المكي من واجبات قريش^(١). وكان سدنة هذه المزارات يستطيعون توفير هذه الضيافة، طالما أن الحج والتجارة كانا ينشطان معاً.

غير أن هذه الاحتمالات المطلقة نمورها ثغرة مهمة، وهي أن أبرهة حين بنى القليس الذي أراد أن يجعله محطة العرب، بناء على ما قيل في صنعاء، لا

في نجران حيث كان مقام الشهداء. ولم تكن لصحاء علاقة خاصة بالنصرانية وشهادتها. إن بعض المصادر العربية تبيح لنا الشك في أن القليس لم يكن في صنعاء نفسها. فياقوت الحموي في «معجم البلدان» ينقل إلينا من المأثورات أن صنعاء الإسلامية كانت فيما مضى طُفَارَ، أما الدهوري فيقول إن صنعاء التي نعرف كانت تُدعى فيما مضى دُمار. ولا تهما في سياقنا هذا صحة قولنا فياقوت والدهوري أو عدم صحتها، بل مجرد الشك في موقع عاصمة أرمه، وهو شك يتيح لنا النظر في الاحتمالات الأخرى. ومما يحتمل حدوثه أيضاً أن أرمه، سعياً إلى جمع ولاء جديد من حول حكمه، ربما تحبب المشاهد التي ارتبطت في أذهان الناس بالولاء للحكم السابق، فبنى القليس في صنعاء ثم نقل إلى كعبته الجديدة هذه رفات بعض شهداء نجران، وأضفى على كعبته صفة المزار، ما دام أنه أحرب صراحة عن رقبته في صرف الحجيج إليها. أو لعله بنى صروحاً عديدة في مدنٍ مختلفة ليحتجها العرب، فأصبحت المصادر العربية كل هذه المزارات بمزار واحد وجملته في صنعاء. ولا يمكن التقدم في حل هذه المشكلة والوصول إلى اليقين فيها من غير تنقيب أثري. غير أن الأزرقي الذي يصف القليس، يدعم فكرة المزار، بقوله أنه كانت له «قبة»، وكان فيه تمثالان من حطب يمثلان على الأرجح اثنين من الشهداء. ولعلهما شهيدا نجران الشهيران الحارث ورُحيمة اللذان يُفترض أن قبة القليس ارتفعت فوق رفاتهما، أكان المكان في صنعاء أم في غيرها. وثمة شبه بين اسم أحد التمثالين وكعبه واسم الشهيد المذكور، وهو الحارث بن كعب. وقد يكون اسم كعب اختصاراً لاسم الشهيد الذي كان اسم والده كعباً، فسمي بتصغير اسم والده دروجاً على عادة العرب في ذلك^(١).

وبذا أراد أرمه تجهيز نفسه بكعبة ينافس بها مكة. لكن تجارة مكة كانت ناشطة

(١) الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج ٣، ص ٤٢٥، مادة صنعاء. وكذلك الدهوري، أبو حيفة أحمد بن داود: الأبحار الطوال، تحقيق عبد المصم عامر، مكتبة المثني، بغداد، بلا تاريخ، ص ٦٢. وانظر أيضاً الأزرقي: ص ٩٠. وأيضاً:

على طرق قوافلها ومن حول حرمها وهي مونسها وأشهرها الحرم. وكان على أجرة إذن أن يسئلي على طريق القوافل الشمالية^(١٦). وكانت الحوام متوافرة. فجهاته المناسبة لتلبية رغبة حلقه الأقوى برضة. بعدما وصل مصر المصلحة لمدة نفوذهم في أواخر سنيها ذلك القرن إلى حبر ويتر. أما الفرقة فحاه بها الكتاني الذي قيل إنه صلح في الفلس.

٥- عام الفيل

يقول البلاذري: «وكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل، يوم الاثنين لعشر ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول، ويقال للبطين حلقاً منه... وذلك لأربعين سنة مضت من ملك أبرشوان كسرى بن قبادس فيروز... ملك الفرس وكان ملك أبرشوان سناً وأربعين سنة وثمانية أشهر. وكان على الحيرة يوم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن المقدس امرئ القيس، وهو عمرو بن عبد، وذلك قبل ولاية النعمان من السمر المعروف بأبي قابوس الحيرة نحو من سبع عشرة سنة»^(١٧).

إن هذه الرواية الدقيقة في «الأساب»، عن مولد الرسول تستحق توثيقاً وتأملاً، ذلك أن المصادر الإسلامية، وإن كانت تجمع على أن الهجرة حدثت سنة ٦٢٢م. وكان لرسول الله آنذاك نحو ثلاث وخمسين سنة، ولذا فإن مولده كان سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠م. «لأنها لم تجمع على عام الفيل وقد صرح كوزنراد في صفتين جميع ما استطاع من روايات عربية إسلامية عتقة عن عام الفيل، فقال إن محمد بن سعيد الكلبي حمله ١٥ سنة بعد مولد النبي، وحمير بن أبي المغيرة ١٠ سنوات قبل المولد، وشعب بن إسحق ٢٣ سنة قبل المولد، والزهرى وموسى بن علف من ٣٠ إلى ٧٠ سنة قبل المولد، ومقاتل والمدائني ٤٠ سنة قبل المولد. أما محمد بن محمد الحرري فعلم عام الفيل وعام المولد

(١٦) Lathisch pp 27, 28. وأحد الأماني أن يحرر أرمه عن محاسنه ملكه كانت بحرقه الأعني.

سعيد: أسواق العرب في الحاضرة والإسلام، النسخة المصححة، ١٩٣٧، ص ٢٢.

(١٧) البلاذري: أساب الأشراف، مطبع حيد الله، ص ٩٢.

معاً في سنة ٥٤٧م. السنة السابعة عشرة من حكم أنوشروان^(١). واتخذ كونراد وكثير رواية الزهري مستنداً بنحو الثقة، لأن الزهري لم يرم من عام الفيل بحام المولد، ولأنه جعل عام الفيل سنة ٥٤٢م.، السنة التي تطابق عام الفيل وفقاً لاستنتاجات بعض الباحثين. إلا أن هؤلاء الباحثين يخطئون ولا شك في عدم من المسائل، أهمها أنهم مصرّون من غير دليل، على أن أبرهة شن حملة واحدة على الجزيرة العربية، مستندين بذلك إلى المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الذي انتهى تاريخه في سنة ٥٥٢م.، وأن هذه الحملة هي التي سجلها نقش الترهان الذي وسمه ريكمنس: ٥٥٦، وقدر تاريخ الحملة هذه على حُلبان بما بين ٥٤٤م. و٥٥٢م. واختلف سميت مع ريكمنس في هذا التقدير^(٢). وبناء على جميع التقديرات هذه، على اختلافها، خطأ الباحثون المصادر العربية الإسلامية التي قالت إن النبي وُلد في عام الفيل.

ولكن قبل مناقشة هذا الأمر لا بد من وضع الأمور الواضحة في نصابها، والبحث في الغوامض فقط. فمما لا شك فيه أولاً أن النبي العربي هاجر إلى يثرب في سنة ٦٢٢م. ومما يرجّح أنه كان آنذاك في الثالثة والخمسين تقريباً. ولو قيل إنه كان في الخمسين أو الخامسة والخمسين آنذا لكان الأمر مقبولاً. فالخطأ في تقدير الأعمار يحتمل هذا الهاشمي، ولكنه لا يحتمل هوامش كبيرة، كأن يخطئه شاهد حيّان في تقدير عمر النبي بعشرين سنة مثلاً. وقد كانت غزواته في هذه السن مقبولة منطقياً. وبناء على هذا نستطيع أن نؤكد، استناداً إلى سنّ الرسول يوم مُهاجره من مكة، أنه ولد على مقربة من سنة ٥٧٠م. ثم نترك هامشاً لا يتعدى السنوات الخمس. ولكن هل كان مولده في عام الفيل، أي هل صادفت غزوة أبرهة لمكة ذلك العام حين ولد الرسول؟ إن معظم الروايات

Conrad, Lawrence I : Atraha and Muhammad, Some Observations Apropos of Chronolo- (١)

gy and Literary TO DOI in the Early Arabic Historical Tradition, BSOAS, vol. 50 (1985).

. pp. 234 - 235

Kiser: The Campaign of : واطهر أبداً: . Smith: op.cit., pp. 436, 437. وكذلك: (٢)

. Simon: L'inscription..., pp. 326 - 328 و Huleban, p. 427 - 428

العربية الأساسية التي صاوها كوبراد معبرها، ومنها على سبيل المثال سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومعارف الوافدي وطقات ابن سعد ومروج المسمودي ومختبر ابن حبيب، وجميعها من صف المصادر الأساسية في التاريخ الإسلامي، تُجمع على أن عام المبل هو عام مولد النبي. أما العصر الذي أفرجه اللانزي في أنساب الأشراف، وسلمت الإشارة إليه، فهو سودج على أن النافس بين المصادر العربية لا يترجأ أبداً استعادها جميعاً، بل يترجأ فقط الحاجة إلى نقد هذه المصادر وتصنيف الدقيق منها عن غير الدقيق، واعتناء ما يستحق الاحترام وإسقاط ما عداه. ففي نص اللانزي المذكور من الملائم على الدقة ما يثير الاحترام لهذا المؤرخ ولا شك. فهو إذ يقول إن عام المبل هو عام مولد النبي، أي إن أبرهة حاول غزو مكة على مفرقة من سنة ٥٧٠ م، أصاف، وذلك لأربعين سنة مضت من ملك أبوشروان كسرى. وقد بدأ منك كسرى سنة ٥٣١ م. فهذا تأكيد أول من مصدر مستقل على دقة تقدير اللانزي. وأصاف فيما بعد: «وكان ملك أبوشروان سماً وأربعين سنة وثمانية أشهر» ومعلوم من المصادر غير الإسلامية أن كسرى ملك من سنة ٥٣١ م. إلى سنة ٥٧٩ م. وهذا تأكيد مستقل آخر على دقة رواية اللانزي الذي أصاف قوله: «وكان على الحيرة... عمرو بن هند». ويذكر أن حكم عمرو من هند استمر في الحيرة حتى سنة ٥٦٩ م. وهذا يحصر هامش الخطأ الذي تسمح به رواية اللانزي بستين (٥٦٩ - ٥٧١) م، وهو هامش ضيق جداً. ومثل هذه الدقة في بعض الروايات الإسلامية يستحق من الباحثين ولا شك، سولماً أفضل من موقف رفضها جميعاً، بحجة أنها تعارضت وتناقضت ولم تنقل على رواية واحدة.

وإذا كنا لا نملك من الأدلة الإيجابية ما يؤكد أن عام المبل هو عام مولد النبي، فإن الأدلة السلبية تسمح بقول احتمال صحة الرواية الإسلامية الأساسية، أي أن النبي وُلد في عام المبل. ذلك أن النبي العربي، في دعوته للإسلام في مكة قبل الهجرة، إنما كان لا يزال في أواسط عمره. وكان من شيوخ قریش من المشركين من كان يذكر غزوة أبرهة ولا شك. لو كانت هذه الغزوة قد حدثت سنة ٥٧٠ م. تقريباً. وسورة قریش وسورة المبل مكتوبة، من عهد الدعوة المبكرة

إلى الإسلام. ولو لم تكن غزوة أبرهة آنذاك حجة في الإدهان لضُفَّت تأثير حجةها في مقارعة أعداء النبي. ولو كانت المصادر الإسلامية أرادت جعل غزوة الفيل ومولد الرسول في عام واحد، سحبا إلى تعظيم الرسول العربي وإظهار معجزة وافقت مولده إثباتاً لنبوته، لصح لنا أن نشك في صحة رواية هؤلاء المؤرخين الإسلاميين. لكن هذه المصادر لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى أي أثر عجائبي يربط مولد النبي بهزيمة أبرهة على أبواب مكة. بل إن المسلمين قاموا قروناً النزعة إلى اعتداد مولد النبي يوماً يستحق الاحتفال السنوي به^(١). وقد ظهرت المصادر الأساسية الإسلامية التي تجعل عام المولد النبوي هو عام الفيل قبل أن يدرج المسلمون على الاحتفال بعيد المولد.

لقد اتَّسَّع معظم الباحثين شكوكهم بالمصادر الإسلامية الأساسية وروايتها لعام الفيل، على افتراض أن نقش المربغان يشير إلى حملة وحيدة شنها أبرهة^(٢) ولم يشن غيرها. غير أن سميت أكد أن تدخل عمرو بن هند لمساندة القبائل العربية المتحالفة ضد أبرهة، في وسط الجزيرة في الأفلاج إلى الشمال الشرقي من مكة، يوحي أن تلك الحملة كانت حرباً رئيسية على الحيرة، التي كانت قبائل مُعَدَّة تدعى بالولاء لها^(٣). وهذا يعني على الأقل احتمال قيام حملة أخرى تختلف أغراضها عن أغراض الحملة على مكة. ذلك أن كل المأثورات العربية التي ذكرت حملة الفيل على مكة، لم تشر إلى الغنميس الحيرة، أو اشتراك عمرو بن هند بهنّها أو المشاركة في محاولة ردّها. وهذا يعني أيضاً أن قيام حملتين أمر محتمل ولا يستلزم استبعاد لمجرد رغبة في متابعة أول من اعتقد أن الحملتين ليستا إلا واحدة. وامتداد حكم أبرهة نحو خمس وثلاثين سنة، والتزامه جانباً من جانبي الصراع الدولي المحتدم لا يجعلان شأن حملات في داخل جزيرة العرب أمراً منطقياً وحسب، بل أمراً متظّراً أيضاً. وقد نُسب إلى

(١) Conrad: op.cit., p. 329

(٢) Ibid., p. 326. وكذلك: Kiser: The Campaign of Mu'ibben... pp. 426, 427

(٣) Ryckman: Inscription..., p. 339. وكذلك: Smith: op.cit., p. 436

المُغلطائي قوله في الزهر الاسم، إن أربعة شن حملتين فعلاً، واحدة لم تلغ مكة وثانية كُنت بعد سنة أو سنتين، بلغت مكة مدخل بعض الحدود المطية لكن الحملة انتهت إلى كاذبة حلت بالجيش الحنسي^(١١). وهذا كان أربعة قد شن حملتين على مكة أو جوارها، فلم تسجل المانوروات العربية معها سوى واحدة، فالأخرى أن نشك في أن احتمال عدم تسجيل المانوروات العربية حملة أخرى بعيدة عن مكة، هو احتمال قائم، خصوصاً أن المانوروات العربية كُنت بعد الإسلام، ولذا اهتمت بمكة أكثر مما اهتمت بغيرها.

وإذا برى سميت أن أربعة مات سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠ م، فإن هذا الرأي يحرز مقالة المصادر العربية إن النبي وُلد في عام المبل. فرواية الحملة في هذه المصادر تنتهي إلى أن المرض أصاب الجيش الحنسي وأربعة معه، وإن هذا شُمل إلى اليمن حيث مات. وقد سلفت الإشارة في الفصل الأول إلى نفي الصفة المجالية عن هزيمة أربعة أمام أبواب مكة وتأكيد الصفة السطمية لها. فإذا كان أربعة قد شن فعلاً حملة على مكة ولزمت مهروماً من غير قتال، فلا مبر من تصديق رواية ابن هشام الذي قال في السيرة: «إن لو أن ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام... وقال ابن إسحق... عن عائشة رضي الله عنها قالت: لقد رأيت قائد المبل وسائيه بمكة أعصم مطيبي يستلعمان الناس»^(١٢).

وعلى رغم أن سيمون يدمج حملة حنات وحملة مكة في واحدة، استغناءً إلى عدم ذكر المصادر العربية غير حملة المبل. وعدم ذكر مروكوبوس غير الحملة التي سجلها جيش اليرهمكان، فإن هذه الحقبة الضعيفة، لا تلت أن تزاد ضعفاً بقول سيمون نفسه إن أربعة حاول ليل حملة القبل أن يمد نفوذهم على القبائل العربية في وسط الجزيرة مرتين على الأقل^(١٣). وقول هذا يعني واحدة الحملتين.

Enter Same Reports Concerning Mecca, p. 71, 72 (١)

سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥٥، ٥٩ وكذلك ٤١٤، p. ٤١٤ (٢)

Simon & Montipont, pp. 331 - 337 (٣)

ز - من قاتل أبرهة ومن ناصره؟

توسعت المصادر الإسلامية توسعاً واسعاً في رواية واقعات حملة أبرهة الحبشي على مكة في عام الفيل. ولئن نصيف جديداً في سياقها هذا، إذا رقدنا ما جاءت به هذه المصادر من حوادث وأسماء. إلا أن إعادة النظر في مختلف الروايات لمحاولة معرفة القبائل والأحلاف التي قاتلت أبرهة في غزوته هذه. وتلك التي ناصرتها، يمكن أن نعرّز معرفتنا بالعلاقة بين هذه الغزوة والصراع الدولي على طرق التجارة الشرقية، ومكانة المتقاتلين بين الفرس وبيزنطة وما كان من أمر مكة في هذا الصراع.

لقد واجه أبرهة على طول طريقه من اليمن إلى مكة قبائل عربية أثارتها الحميّة للدفاع عن الكعبة التي كانوا يحشّون. فبدأت مقاومتهم من اليمن نفسه، إذ قام ذو نفر الحميري، وهو من الأعيان، وجمع حوله الرجال وارتأى أن مجاهدة أبرهة لردعه واجبة. وتقول المأثورات الإسلامية إن أبرهة هزم الرجل وأسرته^(١). وقد روى الأزرقى قيام العرب في اليمن لمجاهدة أبرهة بقوله: «فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وإلى مجاهدته عن بيت الله سبحانه وما يهد من هدمه وإخراجه». فأجابه من أجابه إلى ذلك ثم عرض له، فقاتله فهزم ذو نفر فأل به أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيما الملك لا تقتلني فمسي أن يكون مقامك معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحسبه^(٢). ويلاحظ في هذه الرواية التي وردت على سيرة ابن هشام أيضاً^(٣)، أن ملكاً من ملوك اليمن وأعيانهم أخذت به الحميّة في الدفاع عن مكة. وهذا أمر، إذا صحّ بين مكانة مكة في ذلك العهد، لا عند الأعراب وحدهم، بل عند الحضرة أيضاً. وقوله: «ومن أجابه من سائر العرب»، قد يشير إلى أن بعض البدو اجتمعوا مع قوم ذي نفر في هذه المحاولة للدفاع عن مكة. وقد أكّد حسن العلاقة مع قريش لول ابن هشام، لدى وصول جيش أبرهة

١. Kaser: Same Reports Concerning Mecca..., p. 67 (١)

(٢) الأزرقى: ص ٩٣.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٧.

إلى جوار مكة إن عبد المطلب بن هاشم جد الرسول وسأل عن ذي نضر، وكان صديقاً له^(١).

كذلك واجه أبرهة لدى خروجه من اليمن قاتل أخرى. وقال الأزرقى: وحتى إذا كان في أرض خشم غرض له تغلب بن حبيب الحمصي في قتال العرب، لقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له تغلب أسيراً فأتى به فقال له تغلب: أيها الملك لا تقتلني فإني ذليلك بأرض العرب وهاتان يداي على قتال خشم شهران ونأصس بالسمح والطاعة، فأعفاه وخلق سبيله وخرج به معه يداً^(٢).

ويشير ابن خلكان إشارة مهمة إلى أن أبا الحر الذي يروي عن الإخباريون المسلمون أنه حارب أبرهة، إنما هو يزيد بن شرحبيل الكندي، وهو أيضاً أبو الجبرين عمرو من آل الحون^(٣). فهل كانت كفة في صف مغتلي أبرهة؟ إن فون فروبنوم يبرز هذا الاحتمال، إذ يقول إن مملكة كفة التي كانت في وسط جزيرة العرب دعماً لليمن في عهد يوسف أسار في نواص زالت بزوال دوك، إذ سقط ذو نواص سنة ٥٢٥ م.، واضمحلت الوجود الكندي بين سنة ٥٢٨ م. ولواتل الثلاثينيات^(٤). ولكن القتال التي شكلت الحلف الذي قامت عليه مملكة كفة لم تزل بالطبع. وقد تكون فروعها الحضرمية قد ظلت على ولائها الأول، وعلى حدائنها لأبرهة. فلما حانت الفرصة حاولت محاربه مع جمع آخر من القبائل.

أما في مكة فيقول ابن هشام: وهبنت لربيش وكناة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك^(٥). وهذا القول يدل على أن المواقف التي حفزت القبائل العربية لم تكن ست ساعنها، بل إن لها

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥٠.

(٢) الأزرقى: ص ٩٣.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨، ج ٦.

ص ٣٥٥. وانظر أيضاً ٤١٥ - ٤٣٣ pp. Kaser: The Campaign of Hishām.

(٤) Von Urnshelm: op.cit., p. ٤ (٤).

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٤٩.

سوابق وجذورا، فكانت هذيل من الخمس حلما قرش الأفرين^(١). ويلاحظ أن المتهم بتدنيس قلنس أبرهة كاسي. أما هذيل فلها سائفة مماثلة في مقاومة أبرهة، حين حاول قبل حملة الفيل أن يترج محمداً بن خزاعي ملكاً على قبائل مَعَدَ الضُمرية، فقام عروة بن حِصَّاص الملاصي من هذيل، إلى ابن خزاعي وقتله^(٢). وقال ابن هشام إن عبد المطلب حين ذهب لمفاوضة أبرهة، وافقه كل من «يُحمر بن نفاثة بن عدي بن الدُّثُل بن بكر بن مائة بن كنانة، وهو يومئذ سيد بني بكر [من كنانة]، وخويلد بن وائلة الهذلي، وهو يومئذ سيد هذيل. فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع صهم لا يهدم البيت»^(٣). ووجه الخطورة فيما جاء به ابن هشام، هو التحالف السياسي الواضح بين قرش وهذه القبائل العربية الكبيرة، واستعداد تهامة، وهي ما هي في ديار العرب، لاقتداء مكة بثلث أموالها. ومن شبه المؤكد أن هذه الحرص على مكة لم تكن تحفز الحوافز الدينية وحدها، فالساسة والنحاة كانوا نحاطان الدين، مخالطة مواسم الحج للأسواق. ويتبين إذن أن الذين حاربوا أبرهة كانوا صنفين من العرب على وجه الاحتمال: مكة وخميسها وحبيحها العربي في البدو والحضر، وبعض القبائل التي كان ولاؤها يربطها بالحيرة أو بدولة ذي نواس المندثرة. وموضع هؤلاء في الصراع على طرق تحارة الشرق بين الفرس وبيزنطة معلوم في الحالتين.

أما الذين حاربوا مع أبرهة، فيقول الطبرسي في مجمع البيان إن معظمهم كانوا من عكّ وأشعر وخثعم (بعدما هُزم زعمهم). فلما وصل جيش أبرهة إلى مكة كسر الأشعريون والخثعميون سيوفهم وسهامهم وأعلنوا أنهم أبرياء من أي فتن لهدم البيت^(٤).

(١) ستناول موضوع الخمس في فصل لاحق.

(٢) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٣١. وانظر أيضاً p. ٦١ Simon I. Inscription.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥١.

(٤) الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.

ج ٣٠، ص ٢٣٤ - ٢٣٧. وكذلك p. ٦١ Kister Some Reports Concerning Arabia.

وثمة نمط آخر ممن ساءروا أبرهة في مسعاه محملة أو تزلفاء، مثل
المُطَلَّب بن مالك ومسعود بن معتب التميميين وأبي رغال الذي عمل دليلاً لأبرهة
ومات فُرْجَم قبره، فقال جرير:

إذا مات الفرزدق لم أحصوه كما ترمون قبر أبي رغال^(١)

وهؤلاء لا يملك ما يجعل لمحاولتهم أبرهة معنى سياسياً محتملاً في إطار الصراع
الدولي. غير أن ثمة نمطاً ثالثاً من الجماعات التي باصرت أبرهة دونما اضطراب
على ما يبدو. إذ يقول محمد بن حبيب في المُنْتَقِ: «فجمع [أبرهة] فُتَقَّ
العرب وطخاريرهم وكان أكثر من نعه حنعم، وكانوا لا يحشون البيت ولا
يحرمون الحرم، ونامه أيضاً بو مئة من كعب من الحارث من كعب وكانوا لا
يحرمون الحرم، ولا يحشون البيت، وكان منهم الأسود بن مفضو الذي يقول:

يا فرس اهدي يمينه إذا سمعت النبله

وكان قبل ذلك يقطع على الحاج والعمار صلهم»^(٢).

وقوله «إن أكثر من نعه حنعم، وكانوا لا يحشون البيت ولا يحرمون
الحرم»، يعني أن محاولتهم في الدابة أن يفلوموا أبرهة، لم تكن بفعل حسنة
للحرم المكي. ولعل الصداقة بين شعبهم فُهَيْل بن حبيب الخثعمي
وعبد المطلب بن هاشم، التي ذكرها الأزرقي، إما كانت صداقة تحلوة مشتركة
مع قريش. أما إذا كانت لفيل وليكن لها ولاه لفي بواس أو للحيرة، فذلك ما
ليس من دليل عليه. أما قوله: «ونامه أيضاً بو مئة من كعب من الحارث بن
كعب وكانوا لا يحرمون الحرم ولا يحشون البيت»، فإن هؤلاء يتسبون إلى
شهيد نجران الصرائي، فإذا كانوا يصارى مثله، وهذا هو المرجح، فإن
اشتراكهم بحملة أبرهة وعدم حبسهم البيت في مكة أمران معهودان. ذلك أنهم
أبناء شهيد نجران الذي من أبرهة الفليس لبزوي به رعاته. وقد انضم أبرهة أن

(١) الأزرقي: ص ٩٣. وسيرة ابن هشام ج ١، ص ١٩.

(٢) المُنْتَقِ: ص ٦٨.

يصرف جميع العرب من مكة إلى الفلّس. وكان هدم الكعبة في نظر بني كعب بن الحارث إذن خطأً بالثأر، أو تنهيداً لسياسة الاستيلاء على الخط التجاري، وإحلال صنعاء محل مكة مثابة للعرب وصحبة لهم.

ولا يزيد قوله: «وكان منهم الأسود بن مقصود» إلى قوله: «يقطع على الحاج والعمار سبلهم»، سوى تأكيد لذلك الإصرار على تخريب مكانة مكة بقطع طرقها وغزو قوافل الحجاج الميمنة شطر البت الحرام.

أخيراً هل كان عبد المطلب بن هاشم يمثل في مفاوضات أبرهة قلة من قريش كما قال مونتغمري وات^(١)، أو هل كان يسمي إلى نصرة من أبرهة على منافسيه القرشيين الآخرين، مثلما اشتبه رودانسون^(٢)؟ إن هذه الشكوك لا تقاوم في كل مرة يفاوض فيها صاحب الأرض غازياً من الغزاة. غير أن أول من بدأ مقاومة أبرهة في اليمن هو صديق عبد المطلب ذو نضر الحميري، إذا صح قول ابن هشام. ولعله شريكه في التحارة أيضاً. وذهب عبد المطلب مع زعيم كنانة وهذيل، ليس ذهاب من ينوي ترتيب مسمى انفرادي على حساب الآخرين. ولا تبدو من بقية الحوادث التي أعقبت هزيمة أبرهة عند أبواب مكة أي إشارات تدل على أن أحداً من المكّيين اشتبه فيما اشتبه فيه مونتغمري - وات ورودانسون. وتجمع المصادر العربية الإسلامية على أن العرب «أعظمت قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم»^(٣). ولو كان عبد المطلب حليفاً محتملاً لأبرهة، أو بدا منه ما يوحي رغبته في ذلك، لانتظمت منه قريش بعد هزيمة أبرهة.

ج - مكة وبيزنطة

عندما انتهزت محاولة الأحباش لغزو مكة، واستولى الحميريون من جديد على الحكم في اليمن بمساعدة الفرس، لم تكن - بيزنطة عن محاولة الفاذ من

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., pp. 31, 32 (١٩)

(٢) Rodinson: op.cit., p. 43 (٢)

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٥٩. والطبري: التاريخ، ج ٢، ص ٩١٥. والأزرقي: ص ٩٨.

جده في داخل الجزيرة العربية. كانت الحرب شائعة مع الفرس، وليس من معهود الحروب الشاملة أن نجتب أطرافها أي جهة متاحة للقتال، إلا إذا أعوزتها الوسائل. ولذا كان تبديل الأداة والوسيلة متوقفاً، بعدما خسرت بيزنطة، في معركة مكة، الأداة العسكرية بنشئت حيث أبرهة. ولم يكن استخدام الدين المسيحي جديداً ضمن بدائل العمل السياسي البيزنطي. وقد سبقت الإشارة إلى انصراف ولاء اليهود إلى الفرس والمسيحيين إلى بيزنطة، في معظم الحالات، ضمن الصراع الطويل بين الدولتين على طرق التجارة الشرقية. وقد لا يبدو مستغرباً أن مكة التي حاولت أن تتخذ لنفسها موقفاً سياسياً وسطياً ومحايداً، كانت في الوقت نفسه مستغراً لدين ثالث، جمعت له القبائل العربية أصنامها حول الكعبة^(١). وقد ظل الحجاز عصياً على المسيحية، ويقول الأندلسي إن مكة لم يكن فيها بيت ليس له صم^(٢). وكانت امتدادات مكة الدينية تصل إلى اليمن. بل إن الفاكهي لاحظ كتابة على الحجر الأسود فدونها رسماً، وكانت فيها حروف من أبجدية عربية حوية قال كسرت إنها حميرية، وإنها تدلّ على أن القبائل اليمنية كانت تتخج مكة في الحاملية^(٣). وأن العلاقات بين مكة واليمن كانت وثيقة. لكن مكة التي حرصت على إنشاء علاقات بجميع أطراف الجزيرة العربية في الجنوب والشمال تهرباً لتعارضها، كانت حريصة على عدم الترام أي معسكر من المعسكرين المسيحي - البرطي أو اليهودي - الفارسي، وعلى تجنب معاداة أي منهما صراحة أيضاً. وقد بنيت تحربة غزوة أبرهة وما أظهره تصنيف الأحزاب والولاءات فيها، أن أصل علاقات مكة لم تكن مع نصارى اليمن، بل مع أولئك الذين كانوا يحثون البيت على ما يبدو. فهؤلاء كانوا وحزب مكة إذا صح التعبير، ولم يكونوا مسيحيين ولا يهوداً وإن كان اليهود قد أبدوا تضامناً موقفاً مع مكة حين حسمتهم بها حصوة أبرهة ونصارى اليمن.

(١) الدوري: المرجع السابق، ص ١٠. وانظر أيضاً p. 27. Pinedi.

(٢) الأندلسي: ص ٧٨. وانظر أيضاً p. 31. Pinedi. Le Pouchou.

(٣) شخص كيمرطالة بهذه الكتابة. Kemer. 34 J. Moudon Doulain, a Stone with an Inscription.

لكن محاولات بيزنطة للسيطرة على مكة لم تلبس جميعها لبوس النصرانية. بل إن ثمة ما يهدو إلى الاشته بأن عمرو بن لحي، الذي تنسب إليه المصادر الإسلامية أنه جمع أصنام العرب في مكة، إنما فعل ذلك ضمن معنى نبطي لتحسين الروابط بالحجاز^(١). ولا يستبعد أن تكون رومة أو بيزنطة^(٢) قد أوعزت له أن يبادر إلى ما يبادر إليه، لأغراض تتعلق بالصراع على النفوذ في هذه المنطقة، إذا صح أن هذه الأصنام أحضرت من بلاد الشام.

وإذا كان ثمة غموض يكتنف تاريخ عمرو بن لحي وأعماله وحوافزه، فإن قصي بن كلاب الذي استولى على مكة وجعلها لقبيلة قريش، وطرد منها خزاعة^(٣)، يهدو لنا أوضح في ملامحه وأجلى في مراميه. وقد أضاف ابن قتيبة سبباً وجيهاً لإدراج أحداث مكة لدى استيلاء قصي عليها، ضمن الصراع الدولي بين بيزنطة والفرس. ففي معرض شرحه استيلاء قريش على مكة من خزاعة، قال ابن قتيبة: «دولت خزاعة البيت، فلم يزالوا ولاته واشتدّت شوكتهم، وعظم سلطانهم حتى أحدثوا أحداثاً، ونصبوا أصناماً. ثم سار قصي إلى مكة فحارب خزاعة بمن تبعه». وأضاف ابن قتيبة كلمتين لا تزالان موضع تخمينات المؤرخين: «وأعانه قيسره ثم قال، وبهذا: «صارت ولاية البيت له ولولده، فجمع قريشاً»^(٤). وعلى الرغم من أن مونتغمري وات قد أعرب عن دهشة لقول ابن قتيبة «وأعانه قيسره»، فإنه لم يستبعد أن تكون خُتان وحلفاء آخرون لبيزنطة قد أعانوا قصياً فعلاً. وأكد أن شبح قريش الأول كانت له علاقات مع بني عُذرة، وهي قبيلة نصرانية أقامت شمال وادي القرى وكانت لذلك قريبة من نفوذ بيزنطة. واستنتج مونتغمري وات أن استيلاء قصي على مكة كان غرضه على

(١) الشريف: مكة والمدينة، ص ١٦٠.

(٢) عمرو بن لحي لا يزال عصره مجهولاً، ولا نعرف إذا كان قد أدرك العصر البيزنطي أم لا.

(٣) Hartman, Martin: *Unas*, *Zeitschrift für Assyriologie*, XXVII (1912), no. 43-49.

ويضون: الحجاز، ص ٣٦.

(٤) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم: المعارف، تحقيق لروث مكشاة، دار المعارف بمصر.

الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص ٦٥٠، ٦٥١.

الأرجح متصلاً بتطوير التجارة بين مكة وبلاد الشام^(١).

إن التفسيرات المغايرة لعصر قصي من كلاب، مائة على سلسلة السب التي تربطه بالرسول العربي، ومؤشرات أخرى تأتي على ذكرها فيما بعد، توحي أن قصياً عاش في أوائل القرن الخامس الميلادي. في ذلك العصر، كانت بيزنطة قد خسرت نفوذها في اليمن، باستثناء ملككروب يهلمن ثم ابنه ثبان أسعد أبي كرب على البلاد، ونهوض هذه السلالة. ويمكن أن نتخيل أن بيزنطة قد حاولت أن تجد سبيلاً إلى التوصل من حارثها هذه، فاستعنت بطموح قصي وقوة قبيلة الصاعدة، من أجل محاولة اتحاد موطنه قدم في الحجاز، أهم المسالك البرية إلى اليمن وطريق التجارة الشرقية. ولما فشل على أن بيزنطة تصرفت حيال مكة تصرفاً مماثلاً في ظروف مماثلة تماماً، إذ إنها بعد حارثها اليمن عندما ثار الحميريون على حكم الأحاش الموالين لبيزنطة، في سنة ٥٧٥ م. تقريباً، حاولت أن نصب ملكاً على مكة يلزم حائنها، ويحوصها من غصارة اليمن، وهذا الملك الذي لم يتوج هو عثمان بن الحويرث.

ط - عثمان بن الحويرث

يرى باحثون في تاريخ مكة أن محاولة نملك عثمان بن الحويرث، كانت ردة فعل بيزنطية على خروج الجرس من نطاق المود البيزنطي^(٢)، ونعذ رواية ابن هشام لحادثة عثمان هذا من أولى الروايات في المصادر الإسلامية حول أمره. والتدقيق فيها يمكن أن يهبط اللثام عن حجابها لا بد من بحث مزيد لتبيان حقيقتها.

(١) Montgomery-Wall Muhammad at Mecca ... p. 13 وكذلك حروف صني ح ٤٠ ص ٢٩.

١٤٠، ٥٩، ٥٨، ١١٧ ويحمل بصور عصر قصي لوسط القرن الميلادي الخامس
ببغداد: الحجاز، ٤٠ ص ٣٧ وقد صالح شهيد علاقة قصي مكة من خلال علاقة قصي
بأحوال المنصورين. Byzantium (١٠٠) pp 270 - 282, 1941

٢ مكة أنظر المرجع نفسه ص ٣٩٠ وما بعد

(٢) Montgomery-Wall Ibid., p. 13 وكذلك ببغداد: الحجاز، ٤٠ ص ٣٩.

يقول ابن هشام: «كان من شأن عثمان بن الحوirth بن أسد بن عبد العزى أنه انطلق حتى قدم على ابن جفنة ملك الشام. فقال له: هل لك أن تدين لك قريش، قال: نعم، قال: فاكتب لي ملكتي عليهم... فكتب له وملكه وجعل له خرجاً على كل قبيلة. فأقبل بكتاب ابن جفنة حتى قدم مكة، فلما قدم على قريش أنكرت ذلك، فركب منهم رجال إلى ابن جفنة، فلما قدموا عليه كلّموا وقالوا: إن عثمان امرؤ سفيه، وليس مثلك يصنع بما مثل هذا الذي صنعت» ونحن عارفون بحقك ونحن أهل حق... فعمد ابن جفنة فأخرج عثمان وطرقه. فانطلق حتى قدم على قيسر فأراد كلامه، فبلغ ذلك ابن جفنة فبعث إلى البواب والترجمان [أن] لا يُدخلا ولا يُخبرا قيسر أمره، وأمرهما أن يخالفا بكلامه حتى لا يرفع به رأساً... فلما رأى عثمان الذي صنع به لم يدر كيف يصنع^(١).

ثم يروي ابن هشام، كيف استطاع ابن الحوirth أن يكلم قيسراً، فقال له: «إني من أهل الكعبة ومن أهل بيت الله الحرام الذي تحج إليه العرب، وإني كلمت ابن جفنة أن يجعل لي على قومي سلطاناً فأقبرهم على دينك، فبني عليّ رجال من قومي، فرشوه، فأخرجني، وإني جئت إليك... فإن كتبت لي كتاباً وجعلت لي عليهم سلطاناً فسرت لك العرب حتى يكونوا على دينك. فكتب له قيسر عند ذلك وكساه وحمله على بغلة مرسجة بسرج من ذهب وقال له: لا سلطان لابن جفنة عليك، ودفع إليه كتاباً مختوماً، وقال أشعاراً بأرض الروم هلكت وأشعاراً يروى بعضها منها قوله:

«لما دنونا من مدينة قيسر أحسّت نفوس القوم بعض التوساوس

«فأقبل عثمان بالكتاب حتى قدم على ابن جفنة فدفعه إليه، فقال ابن جفنة: خل من وجدته هنا من قومك، فأخذ رجالاً من قريش منهم سعيد بن العاص بن أمية وأبو ذئب بن أبي ربيعة أحد بني عامر بن لؤي أخذهم تجاراً بالشام فسجنهم، فأما أبو ذؤيب فمات في الحديد، وأما سعيد فمكث حتى

(١) سورة ابن هشام: طبعة طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٦٠ هـ.

اختداه حنبل بن ربيعة بن عبد شمس... ومات هشام بن الحوirth من قبل أن يخرج من عند ابن جفنة. فقال كثير من الناس: سقاه سماً وحسده وظن أنه غالبه على مُلكه... واسم الملك الحنفي عمرو بن أبي شُمره^(١).

ليست خطورة هذه الرواية في وفرة تفاصيلها، بل في دقة بعض التفاصيل ومغازها المحتمل. فمن الواضح أن قرشاً رفضت تملك هشام بن الحوirth عليها وسعت إلى منع هذا التملك. ولذا يحتد رضوان السِّد أن الفرشين هم الذين قتلوا ابن الحوirth^(٢). ويكتفي الأدلسي بأن قرشاً قتلت إلى عمرو بن جفنة ملك عرب الشام أن يربحهم به فوضع له من شئ... ولما رجع إلى الشام صنع له بنو جفنة طعاماً ووضعوا السم لسمه، فلم يتصرف إلا وقد وجد أثره وأيقن بالموت^(٣). ومع أن ابن هشام لا يشارك قرشاً في قتل ابن الحوirth، إلا أن الأمر هنا سيان، ففرش رفضت تملكه، بل أعاها التي سعت في تبديل موقف ابن جفنة به. وقد أيقن ابن الحوirth ذلك، فاتهمهم بأنهم «رُفُوهُ»، أي إن قرشاً دفعت للغساسنة مالاً يفوق ما كان يُمكن أن يتوقعوا تقاضيه من ملك مكية غير المتزوج. ولهذا حتماً، إذا صحت تهمة الرُفوة، علاقة بنظم مكة وحلاتها التجارية، وسعيها إلى إرضاء ملوك الأطراف من أجل تسهيل هذه التجارة.

ويلاحظ كذلك أن ابن الحوirth سعى في إغراء البيزنطيين باللغة التي يفهمون، فتقول رواية ابن هشام إنه قال لقيسر: «فإن كنت لي كتاباً جعلت لي عليهم سلطاناً قُضِرْتُ لك العرب حتى يكونوا على دينك»، وهذه عبارة أوضح من تلك التي سبقتها وقال فيها: «فأفسرهم على دينك». وفي كلا الحالتين يهرب

(١) راجع هامش الصفحة السابقة

(٢) السِّد، ورضوان: سجلات العزل والخل والنسبة التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي. مجلة الفكر العربي، العدد ١٥، أيار وحزيران/ مايو ويونيو، بيروت، ١٩٨٠، ص ٨٣.

(٣) الأدلسي: نشرة الطرب، ص ٣٥٠، ٣٥١.

ابن الحويرث عن عزمه على إغراء بيزطة بما يُفْرِها، أي ضمان مصلحتها التجارية من طريق الاعتماد الذهني، وهو ما بدا واضحاً للغاية في رواية المصعب الزبيري الذي ربط الانتماء الذهني بالانتماء السياسي بلا أي التماس، إذ قال: وإن عثمان خرج إلى قصر فسأله أن يملكه على قريش وقال: أحببهم على دينك فدخلون في طاعتك^(١).

وفي هذا أيضاً شبه نزاع مذهبي ربما حاول فيه ابن الحويرث أن يفري البيزنطيين بجمل المكيين نصارى على المذهب البيزنطي الرسمي، لا على مذهب الفساسة الهامقية، فاستجاب البيزنطيون، وكنتوا لابن الحويرث في كتاب اعتماده: «لا سلطان لابن جفنة عليك»، على ما سلف.

وحاول ابن الحويرث، وقد خاطب بيزطة بلغة تفهمها، أن يخوف مكة فيما نخشاه، وهو تجارتها، وقدره قبصر على إخراجها: «وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتاجرهم من بلاده»، فقال للقرشيين وهو يحاول إقناعهم بقول تمليكه: «قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصبون من النجارة في كفه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يخنق منكم الشام فلا تحمروا به وينقطع مرفقكم». فلما رفض المكيون بعد تردد قصير كتب قبصر إلى عمرو بن حنيفة بأمره أن يحبس لعثمان من أراد حبه من تجار قريش بالشام، ففعل ذلك عمرو^(٢). وبذلك ردت بيزطة على مكة بما رأت أنه يوجبها: التجارة. وقد حير الزبيري عن رفض مكة الرضوخ، وإثارتها الموقف المستقل المحاذ على الانحياز إلى بيزطة، بما نقله عن ابن عم عثمان بن الحويرث، عن أبي زمعة الأسود بن المطلب، الذي صاح والناس في طواف: «إن قريشاً لفأخ لا تملك ولا تملك! وأصاف قائلًا: «فانتفعت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له، فمات عبد ابن حنيفة»^(٣).

(١) الزبيري، مصعب: نسب قريش، تحقيق: إ. نقي - بروكسل، دار المعارف للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٥٣، ص ٢١٠.

(٢) al-Fāf: Die Chroniken der Sam. H. 225 p. 225. ملأ عن الناس من كتاب. Stadt Mekka, herausg. von F. Wattenfeld. Band II, (Leipzig 1859), ss. 143 sqq.

(٣) الزبيري: المصنف لكه، ص ٢١٠.

وقد لاحظ مؤنعمري . وان هذه الرعة المكنة في الحبلاء، ونسها إلى خشية القرشيين من الانقراض في الحرب البرطبة الفارسية وهي في أوج احتدامها، إذ قدّر أن واقعة عناد من الحويرث حدثت في تسعينات القرن السادس. وواقعه سيمون في هذا الأمر ولعل ما يدعيه هذا أن ملك الفرس في هذه الواقعة كان عمرو بن حمزة العنابي، الذي حكم في مرحلة ما بعد حبس المنذر ثم العماد ابنه، نحو سنة ٥٨٢م^(١).

وقد انحلت الحادثة عن رصوح برطبة للأمر الواقع، في هذا الشأن. فاستمر تسير الرحلات المكنة التجارية إلى الشام، لأن البرطبة اعتقروا إلى أية بدائل أخرى، خصوصاً بعد سقوط البس حصر طاق العودة الفارسي. إلا أن الإدارة البيزنطية المالية في بلاد الشام أحدثت تغير على التاجر المكني، ولذا لم يستغرب حميد الله أن الإسلام ردل العنابيين ردلاً شديداً^(٢).

(١) الأندلسي: مشوا الطرق ص ٢٥٠ والبربري: المصدر السابق، ص ٢١٠ ونظر أيضاً

Samir Isma'il et al. *Montgomery Watt: Muhammad at Mecca* .. p. 16

p. 225

Hamidullah Muhammad *Les voyages de Prophète avant l'islam*, B.E.O., XXIX (1977), (٢)

pp 221, 224

4

4

2

4

4

4

4

4

4

4

4

مقدمة الجزء الثاني

في الفصل الأول، تناولت هذه الدراسة الشرح النعوي والتاريخي للمصدر الأول الذي أشار إلى إيهاف فريش، وهو سورة فريش في القرآن الكريم. وقد كان لا بد من وضع القاط على الحروف في هذا الشأن قبل المسطرة إلى التوسع في الموضوع. ولذلك جعل الشرح للنعوي والتاريخي المصل الأول في الدراسة.

ولما كان الإيهاف هو النظم الذي تولت فريش مسوغة نسيم أحد خطوط تجارة الشرق الدولية، ارتضى أن ولوح الموضوع لا يهي الإيهاف حق، ولا يهضم في مرتبة الخطيرة ضمن سياق تاريخ الصراع الدولي في المنطقة، إذا لم يسبقه عرض تاريخي وافي للصراع على طرق تجارة الشرق، فكانت تلك مهمة الفصل الثاني.

أما الفصل الثالث فقد أتاح الخوص في التطورات التي حدثت على صعيد الصراع المذكور، في القرن السادس الميلادي، القرن الذي شهد نشوء الإيهاف وتطوره وتحوله من مشروع تجاري صرف إلى عامل أساسي في عوامل نشوء نزعة إلى الوحدة الاقتصادية والسياسة والدينية والتموية والاجتماعية بين القبائل العربية. وقد مهد الفصل الثالث بذلك لمهم أساس تناظم دور مكة في التجارة الدولية، وهو الأمر الذي لم يكن متاحاً لها قبل القرن السادس.

وستتناول الفصول الثلاثة المقبلة دراسة الإيهاف نفسه في تفاصيله التجارية والجغرافية والمالية والاجتماعية والدينية والنظمية والسياسة، في محاولة لفهم الدور الذي أداه إيهاف فريش في حصر عوامل الوحدة بين القبائل العربية، على الصعيد السياسي والديني والاجتماعي واللعوي.



الفصل الرابع

تجارة الإبل وطرقه وتنظيمه

أولاً - هوامل ظهور مكة

١- واد غير ذي زرع

لا يتصور بعض الدارسين قيام مكة من غير التجارة وهذا أمر ليس صحيحاً تماماً، لأن مكة، إذا حلت من أي نشاط راعي أو رعوي، على نحو ما جاء في وصفها في القرآن الكريم «وواد غير ذي زرع» (إبراهيم: ٣٧)، كانت لها على الأقل صفة المحطة مد أعصر لا نجها المذاكرة. لكن الحج والمواسم التجارية اقترنت معاً زماناً طويلاً ولذا عهد رهبان اودعاه مكة ينظرون التجارة ليس خاطئاً تماماً أيضاً، خصوصاً لاسيما في مندأ كل من الأمرين. فيرى سمون أن اعمار مكة لمؤهلات المدينة الراحية أو الرعوية لا يبيح لنا افتراض ظهور مكة قبل ظهور الوساطة التجارية. وهو يعتقد أن هذا الافتراض كان حافزاً على امتحان التجارة، فيما كانت للطائفت ولشرب ظروف ماحبة أفضل أثلتها للاعتاش من مصدر آخر ولا يصل سمون إلى القول: لا مكة بلا تجارة، لكنه يرى أن مكة قبل الانحمار ما كان يمكن أن تكون سوى محطة ومحطة صغيرة لقوافل طريق الحور من اليمن وسورة^(١)، على الأكثر.

والنقار مكة ووادها إلى الزرع حتم اتجاه المكش إلى التجارة، وكذلك أحاطت الطبيعة المدينة وحوارها سطفة عارلة محترمة على الموتة الأحبة، حتى خلا تاريخها زماناً طويلاً من دكم لسلطان أي دولة عليها، لومرة المسالك إليها وجفاف الصحراء من حولها، على سحر حمل أضي الدول نحر من العاذ في

(١) *Islamic History of Trade*, pp. 208, 209 وكذلك الشرح المرحع لسانه، ص ٢٥٦ - ٢٦١.

٣٧٨ - ٣٧٩. واطر بصود. المحار. ص ٩٨

الصحراء الحجازية. وقد افتخر المكيون لهذا وارتأوا أن من شرف مدبتهم أنها كانت لقاها^(١)، أي أنها عصية ولا تدب لدين ملوك ولم يؤذ أهلها إتالة ولا نلتها ملك قط من سائر البلدان. نعت إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فديون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والافتداء بآثارهم مفروضاً وشرقاً عندهم عظيماً، بل إن أهل مكة في رأي بالقوت كانوا دأمنين يخزون الناس ولا يخزون ويُسبون ولا يُسبون، ولم تُب فرشة قط فخرطاً فخرها^(٢). وجعل هذا مكة مدينة حرة مستقلة، لا لأن النظام القبلي لا يسمح بقيام سلطة مركزية محلية تربط الأطراف بعضها ببعض فقط، بل لأن ظروف الصحراء الصعبة أيضاً حطرت على أية سلطة مركزية خارجية. أن تمد سلطانها المباشر إلى داخل الجزيرة العربية، على الرغم من أن خطورة المصالح الدولية ورغبة الحكومات في هذا الأسر، جعلاً الحجاز على الخصوص مطمحاً دائماً للدول في مختلف العصور^(٣).

وقد ارتقت مكة إلى مرتبة الزعامة السياسية في أعين العرب الذين أعظموا قريشاً خصوصاً بعد هزيمة أبرهة الحبشي، لأنها أثبتت أنها قادرة على أن تكون لقاها، لا تذل لمن لملك ولا تأمر لأمر سلطة خارجية. غير أن انتصار الفرس في اليمن بعد موت أبرهة جعل مكة في حاجة أمس إلى إظهار استقلالها، حتى لا تبدو كمن انحاز فنصر جانباً على جانب. وقد كانت الأوضاع مناسبة لهذا، لأن الفرس تردوا قبل أن يرسلوا جنودهم إلى اليمن، فأرسلوا ستعانة فقط، وكان هؤلاء حوثاً معنوياً كافياً، بعد اندثار جيش أبرهة بالمرض الذي أصابه. ولكن الجنود الفرس الذين أرسلوا إلى اليمن بحرراً، لم يشكّلوا قوة كبيرة في جنوب الجزيرة العربية، فظلت بقية أجزاء الجزيرة خالية تقريباً من نفوذ أي من الدولتين الكبيرتين المباشر، وبدا تاحت لمكة فرصة لتعزيز هيبتها وتحسين مكانتها عند

(١) لسان العرب: مادة لقيح.

(٢) مادة مكة في معجم البلدان.

(٣) الشريف: المرجع السابق، ص ٩١.

العرب. وسبب فيها بعد أن حرب الفجار التي شنت بعد طرد الأحاسن من اليمن، كانت حرباً مكّنة لا مسزغ لها سوى تمكن الفرس في قضيته على أزمة التجارة، بعد محاولة الحيرة مد السلطان العارسي إلى الحجاز، من أجل عقد اتصال بري مباشر مع اليمن العارسي^(١). لقد رفضت مكة كلا الفوذيين الفارسي والبيزنطي، فمرة رفضت الترتيق في أيام قباء ملك الفرس، ومرة رفضت تمليك النصراني عثمان بن الحويرث على ماسلف، فتأملت النسك مدين إبراهيم والآباء الأوائل، كما قالوا، مع ما شاب هذا الدين من تعدد للأوثان. ولما جاءها أبرهة غازياً لهدم البيت ارتد مهروماً أمام مرأى العرب وعلى سمعهم.

لم تكن مكة تحتاج من الساحة المصرية إلى غير هذا حتى تستحق الصدارة بين العرب. ولكن ما كان لهذه الزعامة أن تدوم وتتميز لولا أن مكة كانت أيضاً قد سيطرت على خطوط التجارة في حرب حيرة العرب^(٢). وقد صادفت هذه السيطرة قبلاً لدى الدولتين الكريين صحن إمكاناتهما المتاحة في هذا القطاع من طرق تجارة الشرق. فبزنطة قبل سقوط أرملة كانت ترغب في سوق جزء من هذه التجارة عبر قوافل الحجاز، لأن صحوبات الإحمر في البحر الأحمر كانت ربما تحفزهم على اختيار مسلك آمن، لا تستطيع أن تصل إليه سفن الفرس أو القراصنة^(٣). وكان اليمن حليفاً لبزنطة، وكانت مكة ملتزمة، بالإبلان، بإصال تجارة الشرق إلى أسواق بزنطة الرسمية في بلاد الشام. ولم تكن الفرس تستطيع أن تبطل من هذا الحال شيئاً، لأن الفاتل العربية على طريق القوافل كانت هي أيضاً متعاملة بموجب الإبلان مع مكة، على نحو ما ستن فيما يلي.

أما بعد سقوط أرملة فكان الفرس راضين نوعاً منطوية مكة لتقاضيتهم مكوسها في اليمن، ولعدم قدرتهم على تحرير قضيتهم على الحجاز، على ما

(١) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca... p. 14 (١) وكذلك الترتيق الترمج الشرق.

ص ٩٧، ويضون: الحجاز... ص ٢٨

Shahid: Two Qur'anic Sources... p. 429 (٢)

Shahid: The Arabs in the Desert... p. 219، وطير: Dandaneh vol II, p. 379 (٣)

Peace Treaty... pp 189, 190 ويضون الحجاز... ص ٥٦، ٥٧، ٦١، ٧١

ظهر في حرب الفجار. ولم يكن لسيطرة ندعة من قبل النخاعة المكيّة، بعيداً
انتفض وجود حلفائها وتخلص نفوذها على طول الجانب الغربي من جزيرة
العرب.

لقد كانت مكة مزعومة في كل شيء؛ لتنظيم نخاعة الشرق، وكانت الظروف
الدولية ملائمة تماماً لاضطلاعها بهذه المهمة.

ب - مكة والنخاعة

ثمة أدلة أثرية تحفز باحثين على القول إن قبلة قريش انتهت النخاعة
حتى قبل أن تستولي على مكة في أوائل القرن الخامس الميلادي تقريباً. ففي
نقش وعقلة الذي يقدّر علماء الآثار أن تاريخه يراوح بين ٢٧٠ و ٢٧٨ م، ذكر
لمن يدهوهم وقريشته ضيوفاً على ملك حضرمي، ومعهم ممثلون لمن دعاهم
النقش وتلقف وكشد وعنده^(١). وتشته كرون بأن قريش من نساء من قريش،
وبأن الآخرين هم تدمريون وكلدان وهود ممن ينحاطون النخاعة. فإذا صبح هذا
فإنه يعني في نظرها أن قريشاً كانوا نخاعة ذوي بعض الشأن منذ القرن الثالث
الميلادي، أي قبل استقرارهم في مكة بقرن ونصف. ومع أن كرون على حق في
قولها إن امتحان قريش التجارة في ذلك الزمن لم يكن مرهوناً بالحرم المكي
ومواسم الحج، وإن الحرم كان يمكن أن يقوم قبل قيام النخاعة في مكة^(٢)، إلا
أنها تتجنب الاستنتاج الواضح الذي لم ترغب في استنتاجه، وهو أن نخاعة قريش
ازدهرت أيما ازدهار بعد اوتهاها بالحرم المكي، وأن مكانة مكة الدينية بين
القبائل العربية تعاضمت عندما أخذت مواسم الحج ورحلات القوافل المكيّة تد
أرباحها على زعماء القبائل وتجارها. وقد أشار بيضون إلى قدم التجارة في مكة
وميز بين أئجار المدينة بالتجارة المحلية وأئجارها بالنخاعة الدولية، والصح إلى
احتمال تطور هذه الوساطة المكيّة على نحو تدريجي^(٣) وهذا على الأرجح هو

(١) Crone: op cit. pp. 169, 170

(٢) بيضون، إبراهيم: الإبل والسلطة في مكة قبل الإسلام، دراسات، السنة الثانية عشرة،
العدد ١٨، كلية التربية، الجامعة الشامية، بيروت، ١٩٨٥، ص ٩ وكذلك Dunner, Fred
Mcgraw: Mecca's Fried Suppliers and Muhammad's Boycott, JESMO, vol. XX, part III,

الذي حدث، من فعل تداخل الاستعدادات المكّبة والظروف الدولية وحالة العرض والطلب على طرفي خطوط التجارة الشرقية.

وإذا كان ثمة من يعرف أن مكّة تحلّ أو لا تحلّ موقفاً مهماً على طرق التجارة الدولية، تلقي هذه الخطوط، فإن بيزنطة كانت في متانة أهم الراغبين في معرفة ذلك، لأن حزمها خطيراً من سياساتها الحارّجة حيال الشرق، كان متصلاً بتسيير تجارة الشرق ولذا أمّصل الشروط والظروف. وقد سبقت الإشارة إلى محاولة بيزنطة تملك أس الحويرث على مكّة بعد سقوط أرملة وخلفائه، وكذلك سبقت الإشارة إلى محاولة مماثلة، إذ ساعد حلفاء بيزنطة المنفيون النصاري، وربما بنو سلج أيضاً، استيلاء قرهمن وزمحمها نصري من كلاب على مكّة، بعد سقوط اليمن في أيدي حكام نهجودوا أواخر القرن الرابع ولوائل القرن الخامس الميلاديين. ولا يغفل أن تكون بيزنطة قد سمّت كل هذه المساعي، لو لم تكن مكّة فعلاً عقدة مواصلات مهمة في تجارة الشرق.

لقد احتلت هذه المدينة موقفاً على إحدى أهم الطرق الدولية لتجارة الشرق، وتنبّه لها التجار وقادة القوافل، وصطفت إلى حظوة موقعتها الدول منذ أزمنة قديمة. وكانت منحآت الهدد واليمن تمر عبرها إلى سورية ورومية والقسطنطينية. ولم يكن مثل هذا المرور ممكناً لولا مواطنة المكسي، الذين كان كبرلاؤهم يطولون في البلاد ويقيمون الاتصال السياسي والتجاري مسؤولي الديار المجاورة^(١).

ولا شك في أن قلّة من الكتاب ملّموا مرنة الإنفاع في حديثهم على مكّة وموقعها من خطوط التجارة. وهذا مدوح من مألوف ما يحده في هذا الشأن، إذ يقول الشريف: «في منتصف الطريق الممتد للقوافل من اليمن والشام تقوم مكّة في وادٍ منبسط من أودية حال السراة، تحيط به الحال الحرداء من كل جانب وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة ماضد، يصله أحدها بطريق اليمن ويصله الثاني بطريق قرهمن من البحر الأحمر عد مرمياً حفّة، ويصله الثالث بالطريق المؤدي إلى

فلسطين... والثابت أن واديهما أخذ من قبل أن تُبنى، مؤثلاً لراحة رجال القوافل القادمة من الشمال والجنوب، بسبب ما كان من العيون، فعلى طول طرق التجارة عبر الصحراء وجدت بقعة أماكن مبعثرة اتخذها التجار المسافرون مؤثلاً لراحتهم، وبالتدريج أصبحت منازل الراحة هذه مستودعات للتجارة، وصار بعضها مقاماً للهاكل والمحارب يتابع التاجر في حمايتها تجارته ويلجأ الحاج إليها لالتماس المون منها^(١). إن وصف مكة وموقعها من طرق التجارة أمر ضروري ولا شك، لكن هذا الوصف التقليدي الشائع ليس مقنعاً وحده في تفسير مكانة مكة التجارية. إذ إن يثرب مثلاً تقع مثل مكة على مفاصل طرق التجارة نفسها، ولا تختلف عنها في هذا الشأن، ولم تبلغ مع ذلك ما بلغت مكة. ولعل خطأ هذا الأسلوب هو في أنه يفترض في مكة حالة دائمة، ملائمة للتجارة، قد تبدل فيها الأمور «بالتدريج» دون تفسير لهذا التبدل أو أسبابه، ودون محاولة لربط هذا التبدل بالظروف المعاصرة والأحوال الدولية المحيطة. ومثل هذا التفسير اللاتاريخي الجامد يوحي أن الأحوال والظروف ملائمة دائماً لتجارة مكة، فيما توحي كرون في تفسير لا تاريخي جامد آخر أن الأحوال والظروف غير ملائمة لهذه التجارة في كل ظرف وحال. ولا علاج لهذه المحمودين إلا برؤية تبدل الظروف المؤثرة في هذه التجارة، وما الذي حمل الأحوال غير ملائمة لها في حين وملائمة في حين آخر.

ويحق للباحث أن يشبه في أن محيـة قبلية امتنعت التجارة، إلى بلدة احتضنت حرماً دينياً يحجُّه العرب أو كثير منهم، فمن أن يحدث تفاعلاً متصاعداً بين النشاط التجاري والمواسم الدينية، فيتهزأ الصحيح سائحة محيـة الموسمي من أجل كسب بعض الربح بما يحضره من نتاج قبيلة، ويشجع التاجر من ربحه ليعاود الحضور في موسم الحج التالي. ويحول محيـة السنوي إلى مراسم مقدّسة، تختلط فيها فرحته بخير التجارة العميم مع إيمانه بالبركة التي تحل عليه من صنعه الذي تعب له وطاف به. ويشجع الباحث على الاشتباه في هذا التطور

(١) الشريف: المرجع ذاته، ص ٩٥، ٩٦.

المتلازم للتجارة والحرم الديني أن اختار الحج بالتجارة كان المفائدة في جزيرة العرب، على ما جاء في دراسة سرحت في هذا الخصوص^(١)، وأن استيلاء قريش، هذه القبيلة الناجرة، على مكة، راضه تنظيم عصي زعيمها لمراسم الحج ووظائفه المختلفة^(٢). إلا أن الاعتقاد أن مجرد القضاء الشرطي، التجارة والحج في مكة، قد دفعها على الدور إلى مصاف مطمي التجارة الدولية، هو اعتقاد خاطئ. إذ إن هذا الالتقاء حمل مكة مؤهلة لنفوذ مهمة في التجارة الدولية، لكنه لم يكن كافياً ليعود المدينة إلى المكانة التي احتلتها فعلاً. وكان لا بد من انتظار تطورات الظروف الدولية في القرن السادس لتكتل الشروط التي أتاحت لمكة أن تتسلم أمانة حصة حليلة من التجارة الدولية. وأهم هذه التطورات ما أشار إليه سيمون: «الوضع التاريخي الملائم وانتقال مفاصل وعوامل التجارة الخارجية بسبب الصراع المستمر بين الدول الكبرى»^(٣). وهذا رأي آتية شهد بقوة.

ج - أسباب التحول إلى غرب الجزيرة

لقد فضل شهد هذا الوضع التاريخي الملائم الذي أتاح انتقال طرق تجارة الشرق إلى غرب جزيرة العرب، محملها في حصة أسب، نستحق الذكر هنا بالتفصيل:

١ - السب الأول هو نشوب الحروب الطويلة بين الإمبراطوريتين السبئية والفارسية في أوائل القرن السادس، في عهد أستاخيوس (٤٩٩ - ٥١٥ م)، وهي حروب لم يخل منها أي من عهود الأباطرة الذين حكموه: جستنوس وجستينيانوس وجستينوس الثاني وطياربوس وموربانوس، وقد بلغت ذروتها بالفوزة الشاملة التي قادها كسرى فاتحاً بها الشرق كله، ونجحها هجوم الإمبراطور هرقل المضاد. وكان أثر هذه الحروب في طريق الحلب عبر الفرات مؤزناً جداً.

(١) See R. B. Harman and Harman, *The Sacred Emire in Arabia, Mecca and The Hijaz*, vol. 1, 1922, pp. 41 - 50.

(٢) راجع تنظيم الحرم المكي فيما بعد.

(٣) Harman, *Harman et al.* ... p. 308.

خصوصاً لأن الحملات كانت تُشن على محطات هذه الطرق بالذات: دارا ونصيبين والرقّة، التي كانت تؤوي دور المكوس. وكان الفرس يشنون حملاتهم العسكرية ويعرقلون في الوقت نفسه تجارة الحرير التي كانوا يحتكرونها. وتشهد سفارات جستنيانوس إلى الأحباش ومفاوضاته مع الفرس بشأن الحرير على المراقيل الخطيرة التي اعترضت التجارة الشرقية عبر طريق القرات. وقد ربط يعضون أيضاً انتقال خطوط التجارة الشرقية من الفرات إلى غرب جزيرة العرب بالحرب البيزنطية الفارسية المزمّنة.

- السبب الثاني هو ظهور المملكة العربية الوكيلة، التي أنشأها جستنيانوس ليوازن بها وكيل الفرس اللخمي. لقد أدى ظهور الغساسنة إلى تاجيح النزاع ولم يُتيح للتجارة عبر طريق القرات أن تزدهر، إذ كان نفوذ كل من هاتين المملكتين العربيتين يمتد على قطاع مهم من قطاعات هذه الطريق. وكان سبب الحرب بين بيزنطة والفرس من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٥٤٥ م.، نزاعاً بين السندر والحوارث بن جبلة الصّاني على منطقة السراط، على ما أسلفنا، من أجل مرعى بين دمشق وتدمر. وكان أسوأ ما أحدثه نزاع اللخمين مع الغساسنة في شأن عرقلة سير التجارة عبر طريق القرات، أن الحوارث والسندر كلنا يواصلان مناورتهما في أثناء السلم بين بيزنطة والفرس. وليس هذا بالأمر الغريب إذ إن الصفة العسكرية غلت على الوكيلين العربيين، ولم تكن لهما الصفة التجارية التي اتصفت بها تدمر أو البتراء. وقد ظل الفرس يستخدمون المنذر الثالث خمسين سنة في ترويع المقاطعات البيزنطية من القرات إلى فلسطين، فكانت حروبهم حافزاً قوياً على تحويل طريق التجارة إلى غرب جزيرة العرب.

- السبب الثالث هو اشتراك الأحباش في مجال السياسة الدولية في القرن السادس. وقد بدأ اشتراكهم في عهد جستنيانوس الأول، وتماظم في عهد جستنيانوس بفزو اليمن في ٥٢٤ - ٥٢٥ م. وتدل سفارة الإمبراطور يوليانيس إلى النجاشي في شأن تجارة الحرير، على أن الأحباش كانوا بحارة قادرين على منافسة الفرس في احتكارهم لتجارة الحرير. لكن النشاط البحري الحبشي كان

يركز على الخصوص شطر القارة الإفريقية. وحين غزا الأحباش اليمن استعانوا بسفن يزنطة لنقل جنودهم، بسبب قلة سفنهم. أما الغزوة فليست كل آثارها واضحة في نطاق تطور أوضاع طرق التجارة. لكن المؤكد هو أن الحميريين الذين ازدهرت على أيديهم طريق البخور طوال عصور من الزمان، أصبحوا شعباً مغلوباً على أمره. وكان أبرهة حبشياً غريباً في اليمن، وكان عليه أن يحمي حكمه من الأقبال المهزومين، ومن القبائل العربية، وكذلك من ملك الحبشة نفسه الذي تمرد على سلطته. ولذا كان على أبرهة أن يظهر صفاته العسكرية ويستغلها بتوسّع، فأنصف حكمه بالاضطراب والسمة العسكرية. ويمكن القول بنسبة جيدة من الاطمئنان إن النشاط الاقتصادي ما كان ليزدهر، وإن الذين سيطروا في الماضي على طريق البحور أخذوا يفقدون هذه السيطرة شيئاً فشيئاً، ويضمحل نفوذهم التجاري بعد استيلاء الحبشة على بلادهم.

أما السبب الرابع فهو الأهم، وهو صعود مكة وتمرسها في تنظيم التجارة، بسبب الغزو الحبشي وأثره في ضرب التنظيم الحميري. لقد كان سقوط اليمن فرصة مكة. واتفق شهيد ويضون وغيرهما على أن تجارة مكة، قامت على أنقاض الشبكة التجارية الحميرية. فقد استغل المكيون هذه الفرصة استغلالاً تاماً، وأصبحت مدينتهم مركز التجارة الأول في غرب الجزيرة العربية. وأبلغ دليل على النجاح الذي أحرزته مكة في صعودها هذا، هو حملة أبرهة. ففي أواخر القرن السادس كانت قد أصبحت ملتقى ثلاث طرق رئيسية لتجارة الشرق، أولاها من شرق الجزيرة والثانية من الجنوب والثالثة من البحر الأحمر ناقلة البضائع من الحبشة فالأولى أتبع وادي الرمة ووادي الدواسر، وكان هرب البحرين وعمان يأتون عليها بتجارة الشرق بعيداً عن طريق العرات التي أضحت الرسوم عليها باهظة بما فرصته الدولتان المتحاربتان هناك. أما الثانية فهي الطريق من الجنوب اليمني وقد بدأ المكيون في هذا القرن السادس ينظمون عليها رحلة الشتاء، بعدما كانوا يعاونون تحار اليمن بقواتهم. وكانت الطريق الثالثة هي طريق البحر التي حملت من القارة الإفريقية إلى الشاطئ المجاور لمكة على ضفة البحر الأحمر منتجات الأحباش وتجاراتهم من أسواق الشرق.

ولم يكمل البحارة الأبحاش إبحارهم إلى النصف الشمالي من البحر الأحمر، لأسباب سنائي على ذكرها. وقد حُبرّت هذه الطريق الثالثة أكثر من الآخرين من حيوية التجار المكيين الذين استطاعوا أن يجتلبوا إلى الشاطئ الأسوي تجارة إفريقية، ليسوقوها عبر قوافلهم، في أسواق فلسطين وبلاد الشام.

- وفي السبب الخامس الذي أدى إلى تحويل طرق تجارة الشرق إلى غرب جزيرة العرب، أن نظام مراقبة التصدير والاستيراد الذي فرضت الدولتان على الحدود بينهما في بداية الشام، جعل التجارة تتخذ لنفسها طرقاً تُجنبها المراقبة الشديدة، أو توفّر عليها بعض المكوس^(١).

د- انهيار التجارة اليمنية

لقد فُتّن كثير من الباحثين بفكرة نقول إن انهيار النظام التجاري اليمني بفعل الغزو الحبشي، قد أتاح لمكة سبيل الاستيلاء على أزقة تجارة الشرق فتركوا البحث في الأسباب الأخرى لتعاظم تجارة قريش. فاستعرض أحدهم مساهمة حضرموت والشعر وظفار في الانحجار منذ القدم مع الهند وجاوة، وتاريخ معين وسبأ وحمر، وأكد أن مكة كانت مركزاً تجارياً للحميريين^(٢). وارتنى آخر أن الغزوات التي تعرّض لها اليمن في القرن السادس دمرت تجارته، وأن احتراب الدول أضعفها، فاشتد ساعد الزعماء القبليين فتعاظمت مساهمتهم في التجارة البرية. وقد أرسلت الحملات العسكرية لإخضاعهم لكن أثر هذه الحملات كان مؤقتاً^(٣). كذلك ربط ثالث ضعف اليمن بقوة مكة فقال: «وفي الوقت الذي شهدت خلاله اليمن انهياراً لحضارتها ووقوعها تحت نير الاحتلال الحبشي، كانت مكة قد بدأت تبرز مجتمعاً حضارياً عربياً مهماً في الجزيرة العربية، حيث تمكّنت من استغلال فرصة القتال الدائم بين الفرس والروم وتمثّل طرق التجارة وضعف الدولة الحميرية في أواخر عهدها، فكانت

(١) Shaked, The Arabs in the Peace Treaty..., pp. 185 - 192. ويضربون: الحجاز...

ص ٣٠، ٥٧، ٥٨، ٧٦، ٨٢.

(٢) حضرموت: ص ٢١ - ٢٣.

(٣) Rodinson: op.cit., p. 33.

بالخدمات التجارية التي كانت المميز الأساسي لاقصود الجزيرة العربية^(١).
 ولاحظ سيمون أن اليمن الذي أحد بضعف في القرون الميلادية الأولى فقد كل
 موانعه التجارية والسياسة في العقود التي نلت العزو الحشوي^(٢). ولم يخرج
 الشريف عن هذا حين قال إن سقوط اليمن تحت الاحتلال الحشي ثم الفارسي
 وإلزام الخلافات الداخلية، أديا إلى ظهور البديل في مكة^(٣).

أما شهيد فغفر إلى المسألة نظرة أقل تبسطاً، فافتراض احتمال انتهاء
 الغزوة الحبشية لليمن بفهم سلطة الحاشي الموحدة على طرفي باب المندب.
 وقال إن هذا كان شأنه ربما أن يحد إنشاء دولة سامية قوية في هذه المنطقة، لكنه
 أضاف أن هذا الدور كان مفقوداً للحرب الشمالية (أي مكة) لأن أبرهة أفضل
 المسمى الحشي واستولى على اليمن لعه. ولذا أتاح لمكة أن تتقدم إلى
 صدارة القوة. ولولا ذلك لعادت مكة في رأيه إلى حالتها الأولى تابعة للحبوب
 العربي القوي، فكان استمرار الفوضى في حوض الجزيرة العربية ضرورياً
 لتواصل مكة نماءها^(٤). لكن سبل الافتراضات سبب دو حدير. فتولة أبرهة الحشي
 قضت فعلاً على دولة الحميريين، ولو لم ينفرد أبرهة لتكثرت مملكة أكسوم
 بتسقيها الحشي واليهمني أقوى ولا شك. ولو تعاطفت قوة الدولة في اليمن، لما
 كان الحال مريباً لنماء مكة وتجارها. ولكن هل ساعد نفوذ أبرهة على ملك
 الحبشة التجارة المكية فعلاً؟ إن الحزم في هذا الأمر شديد التعقيد والصعوبة.
 فأبرهة حين أحبط قيام سلطة موحدة على حاشي باب المندب، إنما عقد مع
 مملكة تحالفها أخطر أثراً ربما على مكة من الدولة الأكسومية الموحدة. وإذا قلنا
 إن دولة أكسوم الحبشية - اليمنية المفترضة كانت هي الأخرى ستتحالف مع
 مملكة، فإن دولتي أبرهة وأكسوم تحالفتا معها فعلاً، كل على حدة. ولو قامت
 دولة حبشية موحدة على حاشي باب المندب فتنة احتمال للاعتقاد أن قوتها كانت

(١) الضلوي: المرجع السابق، ص ١٢٥

(٢) Simon, I. *Manuscript* ... p. 330, 331

(٣) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥١

(٤) Shuhud, The Arabs in the Peace Treaty... p. 189

كفيلة أن تغنيها عن الحاجة إلى كسب ود بيزنطة، وإن نُصِرَ لها بالتالي عن مضايقة مكة في تجارتها، وهو الأمر الذي حاوله أرمه وربما بإيعاز، ولكن حتماً بترخيب من بيزنطة.

لكن ضعف اليمن أو ضعف الدولة المسيطرة على اليمن وانهايار التجارة هناك لم يكن هو السبب الوحيد لصمود مكة قطعاً. لقد سيطر الساسانيون في سنة ٥٧٢م. تقريباً على البحرين وعمان واليمن وكان لهم نفوذ في نجد وسيطروا على مرافئ عدن وحُماح ودبا^(١)، وفي مرفأ دبا كان يجتمع تجار الهند والسند والصين والشرق والغرب^(٢). وكانت دولة الساسانيين قوية، فلم تتزعزع من أيدي المكيين تجارتهم.

هـ - أسباب تفوق مكة

والواقع أن عدداً من العوامل أدت إلى انتقال التجارة إلى مكة بالذات، بعدما انتقل محور تجارة الشرق إلى غربي جزيرة العرب، وفق ما سلف. إن الحرب الساسانية البيزنطية المتصلة تقريباً على مفرقة من طريق الخليج عبر الفرات، عطلت هذه الطريق وأخرجتها تماماً من المنافسة. ولم يبق من منافسة سوى منافسة طريق البحر الأحمر المباشرة إلى فلسطين ومصر، للطرق البرية عبر مكة. ويعتقد مونتغمري - وات أن البحر الأحمر في القرن السادس لم يعد مطروقاً للأسباب غير واضحة^(٣). ولكن بعض الكتاب اشتبهوا في عدد من الأسباب التي أخرجت البحر الأحمر من المنافسة، فوصف صاحب الطواف حول البحر الإريثري، خطورة الإبحار في البحر الأحمر في العصور القديمة. وقال حاجي حسن: «إن البحر الأحمر بين أهلة وأدوليس [في الحبشة] كان المنافس الوحيد لتلك الطريق [طريق مكة]. إلا أن البحر الأحمر، بعد نهافت البحرية البيزنطية وعمول التجار الإبحار في أقصى الشمال، لم يعد يشكل أي

(١) Crone: op cit., pp. 48, 49

(٢) البغدادي: المصدر، ص ٢٦٥.

(٣) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 12

تهديد حقيقي لمكة. وكان معظم تجارة المواد الماهرة التي تطلها بيزنطة يعتمد على مكة، وخاصة في أثناء الصراع البيزنطي العارسي^(١٩). وتحدث بروكوبوس عن كثرة المرجان في شمال البحر الأحمر، وإرنأي حثور أن البحر... لم يكن طريقاً آمناً، فالتجأ التجار إلى الطرفات الرّبة يسلكونها^(٢٠). وسب ديودوروس الصقلي (Diodorus Siculus) صعوبة الإبحار إلى الفرصة، وقال الشريف: «وكان الطريق البحري عبر البحر الأحمر قد حُلا من سفن الروم، ولم تقو البحرية الحبشة على سد الفراغ فيه، وأصبح مديناً لسفن الفراعنة، فوق صعوبة الملاحة نفسها في هذا البحر بسبب الرياح الشمالية التي تعاكس السفن في إبحارها نحو الشمال، ولوجود الشعب المرجانية وحلو شواطئه من الرافىء الصالحة لرسو السفن وحمايتها وقلة الماء والمؤن على حافته»^(٢١). وبعض هذه التفسيرات متبع وصحيح، وبعضها غير متبع وغير كاف. وقد لحث كرون بعد المجز عن تفسير سب انتقال التجارة إلى مكة، لحث إلى حل المعضلة بغير انتقال التجارة إلى أيدي المتكسب أصلاً، طالما أنها لم تعد نسيراً لهذا الانتقال. وأصرّت على أن الاحباش في القرن السادس هم الذين كانوا يسيرون معظم تجارة الهند البيزنطية، على الرغم من أن كرون لاحظ أن المصادر البيزنطية خلطت بين الهند والحبشة. ولاحظت كذلك أن آخر ذكر لسفن حبشية آتية من الهند (أي من اليمن أو من الحبشة نفسها) كان في سنة ٥٧٠ م... ولم تقل

(١٩) Hap Hassan Abdullah Abou, *The Arabian Commercial North*, Parisian... p. 30. واطر أيضاً *Periplus*... p. 30. ground in *Pro Islamic Times Islamic Culture*, vol 61 (1987), Nr 2, p. 77. وكذلك يقول:

المجلد... ص ٥٦، ٥٧، ٥٨

(٢٠) *Periplus* vol II, p. 179. واطر حثور: المرجع السابق، ص ١٩

(٢١) *Herodotus* vol II, p. 215. واطر الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٤. وتحدث ثيودوروس عن أسباب عديدة لصعوبة الإبحار في البحر الأحمر، خصوصاً في شمال *Charlemaigne* pp 21, 63, 66. وقد نُحِثت صعوبات البحر في البحر الأحمر على وجه في *F. Andrieu* on *Mers Bordières* من عند الصعوبات كثرة المرجان وحضره. والرياح الشمالية طول السنة، شمال خط العرض العشرين وغير ذلك. أطر في الكتب المذكورة مفتحي *Roulet*.

ص ٦٧ و ٦٨، و *ANAVILLE*، ص ١٤ و ١٥ و ١٦

كروْن من تولّى هذه التجارة بعد ذلك التاريخ. وفُتِرت تطوّر الأمور بقولها: «وفي القرن السادس، عندما أصبح غير مألوف أن يقوم اليونان برحلة إلى الشرق فهاًباً وإياباً بأنفسهم، فقد يُحتمل أن يكون العرب الجنوبيون قد شاركوا في نقل البضائع الشرقية من سيلان إلى عدن مع الأحباش. رغم أن هذا ليس سوى افتراض بحث^(١). وسنّ أنكرت كرون أي احتمال لوجود اعتماد ذاتي لدى العرب لتنظيم تجارة الشرق وتسريها، أم أهمل غيرها اتخاذ هذا الاعتماد عنصراً مهماً من عناصر الموقف، فإن الفُتِرات أخففت في إدراك جدلية العاملين الأساسيين: الظروف الدولية الملائمة والاستعداد الذاتي المناسب». لقد لاحظ شهيد انهيار جميع منافسي مكة في المهمة التي كانت تطمح إلى القيام بها في التجارة الدولية. ولكنه تنبّه إلى أن هذا الانهيار بفعل الحروب كان العامل «الخارجي» في توفير أسباب نجاح مكة. ولاحظ يعضون انهيار اليمن وتجارته وتدهور أحوال الحيرة، لكنه لاحظ أيضاً عوامل القوة التي نهضت بتجارة مكة^(٢).

كان اعتماد مكة الذاتي مسألة في غاية الخطورة، حسمت المنافسة لصالحها حين توافرت الظروف الخارجية الملائمة. فحين دعا جستنانيوس مملكة أكسوم، بعد هزيمة الرّقة في بادية الشام سنة ٥٣٩ م، إلى شن حرب بمساعدة اليمن على الفرس، من أجل محاولة الاستيلاء على تجارة الحرير الشرقي^(٣)، فشل في مساعاه. لم تكن الرغبة ولا القوة وحدهما كافيين للاستيلاء على خطوط التجارة. فالحروب أوقفت التجارة على خط القرات، ولم تحفزها. ولها كان الآخرون يحترّبون كانت مكة تنظّم السلام بين القبائل العربية. والخطوط التجارية بطبيعتها تتجنب بؤر الحرب وجوارها. وحين سيطر أبرهة على اليمن

(١) Crone: op.cit., p. 40. وتحدث ميلر عن «السفن العربية» في التجارة الشرقية حتى مع إفريقيا.

Miller, pp. 147, 190

(٢) Shahid: The Arabs in the Peace Treaty..., p. 182. ويهون: المحاز: ... ص ٦٩ - ٨١.

وانظر أيضاً للمبارنة: دراذكة: ص ٥٤. وكذلك حواد علي: ج ٤، ص ١٥٢.

(٣) Devocasso: op.cit., p. 284

وعزز قبضته العسكرية على بعض القبائل العربية في وسط الجزيرة، لم يخلع في انتزاع أزمّة تجارة الشرق من المكسيك. وكانت هرونة لمكة دليلاً على هذا الفشل وتوجهاً له في آن، ذلك أن تنظيم خط بحاري كالذي سطته مكة لا يحتاج إلى صهطرة عسكرية قدر حاجته إلى رأس مال بحاري ووسائل نقل مطمعة وعمود كالتي عقدتها قرينش مع القبائل العربية وملوك الأطراف، من أجل ضمان المرور الآمن والاتجار السلمي. وهذه جميعاً عناصر داتية توافرت لمكة ولم تنافر لغيرها.

كذلك اتسم موقف مكة من الصراع السياسي والعسكري في القرن السادس بالحيداد بين الفونين المطمئنين. وكانت لتعزز مصطنعة أن يشتري المبكرون بضائع تجارتهم الشرقية، وكانت لتهبط رغبة في شراء هذه البضائع. فلما حاول كل من الغربين الاستيلاء على مكة وخرطها ومثل، لم يجد بداً من ترك التجارة المكثبة تسير مسارها الطبيعي، فلم يكن ثمة مدخل من مكة، والحرب سجالاً بينهما.

لقد كان إيلاف قرينش، الذي نظم رحلة الشتاء وال الصيف، وحشد لها وسائل النقل اللازمة، ورصد لها المال البحاري الضروري، وسخر لها المصير البشري المنظم، وعقد لها العهد مع القبائل لضمان المرور الحر الآمن، ووثق لها الموائيق مع ملوك الأطراف لتيسر التجارة الحرة^(١)، هو المصير الذاتي المهم الذي فشلت كل من الحنة والبس والحيرة وغيرها في توفيره، فانتصرت مكة في المنافسة، واستطاعت وحدها، دون غيرها من المنافسين، أن تستفيد من الأوضاع الدولية الملائمة.

ثانياً: إيلاف قرينش

١- من التجارة المحلية...

إذا كان ملوك حبيش اليهود قد استولوا في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن

(١) يهون: الإيلاف. ص ٦. لاحظ ماركويسكي في بحثه عن بحيرة غمر أن الظروف الموضوعية الملائمة وحدها لا تكفي، وأن لا بد من استعداد ذاتي لدى البشر للقيام بعمل الخط البحاري. وهذا مظهر سليم يظهر أيضاً على مكة ١٤٤. *Journal of the Royal Asiatic Society*.

الخامس على الحكم في اليمن، فإن هذا الوقت مناسب للاشتباه في أن البيزنطيين الذين خسروا موطنهم قدم لهم في حروب جزيرة العرب، قد يحاولون تعويض خسارتهم بمساعدة حليف لهم في الاستيلاء على مكة. وإذا كان ذلك، فليس الروم قد «هاون» قضبان كلاب في الاستيلاء على مكة، على ما قاله ابن قتيبة. في روايته لطرد قريش خزاعة من مكة على ما أسلفنا، فإن هذه الحادثة ربما حدثت في أوائل القرن الخامس أو بعد ذلك بقليل، رداً على تطورات الأوضاع في اليمن. إن سلسلة انتساب النبي العرب إلى قصي تزيد هذا الاشتباه، إذ إن من محمد بن عبد الله إلى قصي بن كلاب ستة أجيال، أي ما يمكن أن يبلغ بالسنوات نحواً من قرنين، مما يجعل قصياً وجلاً في الثلاثين تقريباً في سنة ٤٠٠ للميلاد، على افتراض صحة النسب وسلامة تقدير عدد السنوات.

إن الرواية العربية الإسلامية التقليدية لاستيلاء قصي على مكة قد تُعينا في محاولة تصوّر ما حدث في ذلك الزمن، في إطار الصراع الدولي على طرق التجارة، وفي ضوء ما سلف ذكره من عناصر هذا الصراع وعوامله. نقول رواية الطبري وابن هشام في هذا الشأن إن أم قصي تزوجت برجل من بني عدرة بعد وفاة كلاب بن مرة والد قصي، فحملها العلوي إلى قبلته عند أطراف بادية الشام شمال وادي الفُرى، فأخذت معها ابنها الطفل زهداً الذي لُقّب قصياً لجمده عن دار قومه. ونشأ قصي في كنف زوج أمه حتى شب وعلم بحقيقة نسبه، فعاد إلى قومه واستقر بمكة، وأظهر فيها من النبالة والهمة ما جعله يصير إلى زعيم خزاعة حليل بن حبشية فيتزوج ابنته خنيس. وأخذ مال قصي وولده يكثران في مكة، ومركزه يعلو، وطموحه يشتد، حتى أخذ يرتب للاستيلاء على سدانة البيت، وهي مركز سياسي خطير في الحرم. فأتصل سراً بعشائر قريش وبطونها وكانت متفرقة في تهامة وحول مكة، فوحد كلمتها وجمعها من حوله وحالف بطون كنانة، ثم راسل أخاه لأمه وزاح بن ربيعة بن حرام العلوي الفضاعي لئسده إذا لزم الممدد. فلما تم له كل هذا، استنح صانعة موت حميه الذي كانت بيده سدانة الكعبة، فاستولى على مفتاح البيت الحرام، وأعلن أنه أحق بالولاية. واعترضت خزاعة وأبت أن تُخلّي لغيرها منصباً من مناصب خدمة البيت الحرام. فاستنفر قصي

قريباً وكثافة واستمد أحاد، فقدم إليه ليس استطاع استقارهم من قصاعة، وأنزل هزيمة بخزاعة وحلفائها من بني بكر وأحرحهم من مكة. ثم فرض قصي سلطانه على بطون كنانة التي كانت تلي بعض طفوس الحج، وأرسل قريشاً مكة وقسمها بينهم، فأقر له القوم جميعاً بالملك عليهم، واحتضنت مناصب مكة كلها في يده^(١).

وتتضح من هذه الرواية أمران: أولهما أن رواية شوه قصي في غير قومه، وعودته إليهم ليستولي على الحكم، هي آفة سير أساء الملوك الذين يُخْبَلُونَ في طفولتهم في كنف ملاح، فإذا شؤوا وعزموا نسهم حرحوا من محنتهم ليستولوا على الحكم. ولقد س زهيمود فرويد في كتابه موسى والنوحيد، أن هذه الرواية الشعبية عرضها أساع الصفة الشرعية على من يستولي على الحكم من أهله، وإثبات حقه وانتمائه إلى بيت الملك إذا كانت هذه أسطورة وضعت بعد الإسلام، فقد ترمي عندئذ إلى إصغاء السمة الشرعية على دعوى قبلة الرسول مدينة مكة. أما إذا كانت من المأثورات التي سلفت الإسلام وناقضتها الآلسن حتى كتبها أصحاب السير والتواريخ الإسلامية، فقد نفي أن استبلاء قريش على مكة لم يكن مجرد حركة فلبية يحل فيها قوم محل قوم، بل كان حدثاً سياسياً ذا شأن ومغزى في حياة الناس في حبه وليس من سبل لتبني من أي الاحتمالين هو الصحيح. لكن الاحتمال الثاني لو صح، لكان حارماً آخر على الاشتباه في أن الصراع الدولي كان له بعض الأثر في هذه الحركة الفلبية.

أما الأمر الثاني الذي نتج هذه الرواية، فهو أن مكة كانت حرماً ومحنة قبل أن تستولي قريش عليها، خلافاً لما يظنه بعض الباحثين. ولقد سلفت الإشارة إلى اقتران حج المقامات بمواسم التجارة في حريرة العرب، وهذا الأمر يعزز فكرة قيام حركة تجارية ما في المدينة وحولها، ويؤيد بالتالي احتمال طموح بيزنطة إلى السيطرة عليها، من طريق حلماها لها.

(١) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٨١-١٨٥. وكذلك سوه ابن خنيم ج ١، ص ١٣٠.

وأنظر الطبري: التاريخ، ج ١، ص ١٠٢، ١٠٤.

إلا أن تجارة مكة ظلت شبه محمية في عهد قصي وأبنائه، حتى جاءهم هاشم بن عبد مناف بالإلاف، إذ يقول أبو حلال العسكري: «كانت قريش تجاراً وكانت تجارتهم لا تمدو مكة وما حولها»^(١). وأكد محمد بن حبيب من ناحية ثانية أن تجارة الشرق كانت بيد الفرس آنذاك، إذ قال «كان من حيث الإلاف أن قريشاً كانت تجارة وكانت تجارتهم لا تمدو مكة، إنما يقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ثم يتاجرون بهم ويبيعون من حولهم من العرب، فكانت تجارتهم كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام...»^(٢). وإذا صحّ تفديرنا لزمان استيلاء قصي على مكة، فإنه يوافق تولي ملوك حمير اليهود ملك اليمن، فيكون قول محمد بن حبيب إن الأعاجم هم الذين كانوا يأتون بالتجارة إلى مكة، قولاً منطقياً. ولم تنسح خطوط التجارة المكية كثيراً في ذلك العصر. إذ كان المكثرون يشركون أهل الطائف في بعض تجارتهم. وكانت صلاتهم التجارية يهرّب جيدة، فيشترون من تمرها ويشترون كثيراً من الحلي والصلاح مما يتجته اليهود فيها. وكانت لمكة سوق دائمة للتبادل التجاري مع القبائل القريبة منها، فتشتري الجمال والخيول والحمير والسنن والجلود، ثم تباعها لمن شاء من الأعراب. كذلك كانت تباعهم من مستوردات تجارتها الملابس والأطعمة والمشروبات التي كانت تروج بخاصة في موسم الحج^(٣).

وكانت مواسم التجارة مواسم محلية وأسواق العرب أسواقاً قبلية تتولى فيها كل قبيلة تنظيم سوقها في ديارها، فتأتيها القبائل الأخرى شاربة أو بالعة^(٤). ولم تغفل جزيرة العرب طبعاً عن قوافل التجارة الدولية، لكن هذه القوافل لم تصح تجارة مكة إلا بالإلاف.

(١) الأوائل: ص ١٨.

(٢) المنشق: ص ٣١، ٣٢. وكذلك: الفاي الهندلي، أبو علي: الأسامي، دار الأمل الجديدة،

مضوية عن طبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٦٨، ج ٣، ص ١٩٩. وأيضاً الأوائل، ص ٨.

(٣) تشريف: المرجع السابق، ص ٧١١.

(٤) Ibid.: Same et Diff... pp. 214, 215.

جاء الرواية الإسلامية والشكوك

والإبلان، حسبما تزوي المصادر الإسلامية، لم يتم في رأي محمد بن حبيب: وحتى ركب هاشم من حد صاف إلى الشام مرل بغيره، واسم هاشم يومئذ عمرو، فكان يذبح كل يوم ثلثاً فصيح حمرة ثوب ويدعو من حوله ياكلون، وكان هاشم [فيما] يزعمون أحسن الناس عصباً وأصله، فذكر لقصر وقيل: وهنا وجعل من قريش بهشم الخير ثم يصب عليه المرق ويخرج عليه اللحم، وإنما كانت الأعاجم تطبخ المرق في الصحاح ثم تأتدم بالحمز فذلك سمي عمرو هاشماً. وبلغ ذلك ليصراً فدعا به فلما رآه وكنهه أصعب به [وكان] يرسل إليه فيدخل عليه، فلما رأى مكانه من لال له هاشم: أيها الملك! إن لي قوماً وهم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لهم كتاباً تؤمهم وتؤثر نجاتهم فيطعموا عليك بما يستطرف من أدم الحمار وثيابه فيكفوا ببحره عديم، فهو لرئيس عليهم، فكتب له كتاباً بأمان من أتي منهم. فأقبل هاشم بذلك المكتف فحمل كلماً مراً يحيى من العرب طريق الشام أحد من أشرفهم إيلافاً. وإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، وإنما هو لغز الناس وعلى أن قرباً تحمل لهم بضائع فيكونهم حملاتها ويرفون إليهم رأس مالهم ورجوعهم. فأخذ هاشم الإيلاف ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم بمنزورهم وبوصيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، فلم يرح بوقتهم ذلك ويجمع بهم وبين أشرف العرب حتى ورد بهم الشام وأسلمهم لقراءه، فمات في ذلك السفر مرة من الشام... فلما مات هاشم خرج المطلب بن عبد صاف إلى البحر فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تخر قلوبهم من قريش، ثم أقبل بأخذ الإيلاف ممن مر به من العرب، حتى أتى مكة على مثل ما كان هاشم أخذ، وكان المطلب أكثر ولد عبد صاف وكان يسمى الغنص. وحمل المطلب بردها من البحر وهو راجع من البحر. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة، فأخذ منه كتاباً وعهداً لمن تخر قلوبهم من قريش، ثم أخذ الإيلاف ممن بينه وبين العرب حتى بلغ مكة، وحمل عبد شمس بسكة ظفر بالحجون، وكان أكبر من هاشم وخرج بول من حد صاف، وكان أصغر ولد

د مناف، وكان لامر وحده، وامه واقفة بنت أبي عدي من هوازن بن
 صر... فخرج إلى العراق، فأطع عهداً من كسرى لتخار قريش، ثم أقبل
 على الإيلاف ممن مر به من العرب، حتى قدم مكة، ثم رجع إلى العراق فمات
 لمعان من أرض العراق. وكان بنو عبد مناف هؤلاء أول من رجع الله به قريشاً لم
 العرب مثلهم قط أسح ولا أحلم ولا أحمل ولا أجمل^(١).

لقد شك كثير من الدارسين في هذه الرواية لأنهم ارتأوا فيها محاولة من
 أخباريين الإسلاميين لتعظيم أسلاف النبي العربي. وكان موضع شكهم هو أن
 بنة إنشاء الإيلاف إلى والد جد الرسول، هاشم بن عبد مناف، إنما تثنى
 زوع إلى حصر مفاخر المكثين ومآثرهم في أسرة النبي وحدها. وقد أثبت
 رجنت في مقاله المهمة «الحرم والحوطة»^(٢)، أن الحرم لم يكن وجوده تلعواً
 به جزيرة العرب قبل الإسلام، تماماً مثل الحوطة في أهانا هذه. وبين سرجنت
 كل حرم كان يخص جماعة قليلة ما، تقوم على حراسته وخدمته والاعتماد
 للحجاج إليه. وكان أهل الحرم في المعتاد مقاتلين مسلحين، هم الأشراف، أما
 الآخرون من تجار وصناع ومزارعين يهيمون في جوار الحرم وحماته، فكانوا
 دعون الضعفاء. ولا شك في أن قريشاً كانوا أشراف مكة. ولم يكن في ذلك
 ي تعظيم استثنائي لثانهم. وقد ظلوا على هذه الصفة حتى ظهور الإسلام.
 تؤزغ المسلمون في أول عهد الإسلام، وتؤزغ بنو هاشم في كثير من الأمور قبل
 تنصار الإسلام، ولكنهم لم يثأروها في شأن هاشم والإيلاف، على الرغم من أن
 الإيلاف درج في شجيج القرآن الكريم على المشركين بسبب إتيان القرآن على
 أكره في المرحلة المبكرة، وفي شأن الدعوة إلى عبادة رب البيت. ولو
 كان معارضو النبي، وعلى رأسهم زعماء عبد شمس، يعرفون أن جدهم هو
 صاحب الفضل الأول في الإيلاف، لا هاشم، لرقوا على النبي بالدعوة إلى عبادة

(١) المنقذ، ص ٣١ - ٣٦، والمختبر، ص ١٦٢، ١٦٣. ولان أيضاً: الأرائل، ص ١٨ - ٢٠.
 والأنلسي: نشرة... ص ٣٣٠. انظر أيضاً: جواد علي: ج ١، ص ٦٥ - ٦٩، وكذلك

صنور: ص ٣٦، ٣٧.

منهم، ولما كان لسكونهم في هذا الشأن من سرور، خصوصاً إذا لاحظنا أن
عبد شمس كان أكبر من هاشم ساً.

ويمكننا أن نلاحظ حسب رواية ابن حبيب أيضاً أن آباء عبد مناف وفق
ترتيب أعمارهم، هم: المطلب، ثم عبد شمس ثم هاشم فوفل. والرواية ترتب
خروجهم لأخذ الإبلات، على النحو التالي: هاشم، الثالث عمراً، ثم المطلب
الأول، ثم عبد شمس الثاني، فأصغرهم نوفل. ولو كانت القصة ملققة لكان
أحرى أن يكون ترتيبهم بحسب ترتيب العمر. ولو كان مقصوداً نقل هاشم من
المرتبة الثالثة عمراً إلى المرتبة الأولى بين الحارحين للإبلات، لتعظيم شأنه
وتقليل شأن عبد شمس، لكان أحرى أن يُنقل عبد شمس إلى المرتبة الأخيرة، أو
ربما ألا يُذكر على الإطلاق ضمن هؤلاء الذين وصفهم ابن حبيب بقوله السالف
إنهم «لم تر العرب مثلم قط أسح ولا أحلم ولا أعفل ولا أجمل». لقد كان
الصراع السياسي بين آباء عبد شمس الأموي وآباء هاشم العلويين والشيعة في
القرنين الأولين للإسلام، يفرص تلميحاً أشد صراحةً بأنه -لِئلاَّ حطتْ عبد شمس-
لو كانت القصة محولة أو ملققة أو محوذة. وحاصر الصف عبد في حجة من
يقولون بالتحوير، تعظيماً لوالد جد الرسول، لا نفي أن رواية ابن حبيب
والإخباريين الإسلاميين معصومة تماماً عن أسباب الشك ومقتضيات التدقيق،
لكنها تعني على الأقل أن الشكوك يجب أن تكون أقوى حجة وأحسن سنداً مما
تعلمه حتى الآن في نقد الرواية الإسلامية للإبلات، حتى نحظى بالقبول.

-ج- ... إلى التجارة الدولية

ونلاحظ من رواية ابن حبيب السالف ذكرهما، التي اتفقتاها نموذجاً
لروايات الإسلاميين للإبلات، ما يلي:

«في قول ابن حبيب: «إن قريشاً كانت تخرأه، احتمال إشارة إلى ما قبل
المرحلة المكنة من تاريخ قريش، ويصف هذا الاحتمال كثرة قوله: «وكانت
تجاراتهم لا تعدو مكة»، إذ يعني أنهم كانوا يهاجرون في مكة وحوازمها. وإذا
تصغف بقوله هذا احتمال الإلحاح إلى تاريخ قريش قبل تعلمهم على حراة

واستقرارهم في مكة، ينعز من ناحية أخرى، بفضل هذا القول نفسه، الاعتقاد بأن قريشاً لم تخض غمار التجارة الدولية قبل الإيلاف. وهذا أمر منطقي تماماً؛ فالتجارة المحلبة تحتاج إلى حرم وإلى أحلاف، لأن الحزم يحمي القبيلة وسوقها السنوية، كما يحمي زوار هذه السوق الوافدين إليها من القبائل العربية الأخرى. والأحلاف تحمي أبناء القبائل عند حلفائهم فقط ولا تؤهلهم لحركة أكبر. أما التجارة الدولية، أي نقل البضاعة من فريش إلى فريش خارج جزيرة العرب، فتتطلب أماناً على طول الطرق التجارية حيثما تمر في ديار القبائل العربية، وأماناً عند طرفي الطريق حيثما تشتري البضاعة وحيثما تباع. وهذا ما جاء به الإيلاف.

وقد لاحظ البعض هذا الفارق فقال الشريف: «وبعد أن كانت تجارتها [قريش] قاصرة على التجارة الداخلية مرتبطة بالحرم، فتح لها هاشم وإخوته مجال التجارة الخارجية». وقال يعضون إن الإيلاف كان بداية خروج قريش إلى العالم في القرن السادس^(١). وخطط البعض الأمرين فجعل حتم الإيلاف حلفاً آخر بين الأحلاف^(٢)، وهو مختلف في جملة من الوعود. فالإيلاف مرهون بفرض واحد هو مرور القافلة مروراً آمناً. وهو ينتهي لدى مرورها، فلا تلتزم قريش دفاعاً مشتركاً عن شريكها في الإيلاف، ولا ينفر الشريك إلى الحرب بالضرورة إذا نفرت قريش إليها. والحلف علاقة مبادلة بالمثل، فكلا الحليفين يأخذ ما يأخذه حليفه ويعطيه ما يعطيه. أما الإيلاف فهو عقد تأخذ فيه قريش أمراً لا يأخذه الآخرون، وهو أن يأمّنوا عندهم بغير حلف، وإنما هو أمان الناس، وتعطيهم في المقابل ثمناً لذلك الأمان أن «نحمل لهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويرقون إليهم رأس مالههم وربحهم». وفي علاقة الإيلاف فريش أول ثابت لا يتغير هو قريش، وشركاء ثانويون عديدون هم قبائل العرب على طريق القوافل المكيّة. ولا شك في أن قريشاً لم تكن تحتاج إلى عقد الإيلاف مع حلفائها، لكن طريق القوافل لم تكن كلها لحلفاء قريش، ولذا احتاجت قريش إلى «كتاب

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧. ويصرون: المحار، ص ٧٦.

(٢) حنود: المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٧.

أمان يؤمنهم بغير حلف. على ما قاله أبو هلال العسكري^(١). كذلك يتحصن الإبلان عهداً بين قریش وقرين غير عربي هو الروم في الشام. وأمرقاء آخرين هم ملوك الحيرة في العراق وملوك البس وملوك الحنة. وهذه اليهود هي إجازة للتجارة وليست تحالفاً من أي شكل. إذ كيف كان يحور لمكة أن تكون حليفة للروم وللحيرة في آن، في حرّ الحرب البريطة المارسة.

- في قول ابن حبيب السالف: «هل قدموا عليك بما يستطرف من آدم الحجاز وثيابه»، ما أوحى لبعض الدارسين أن تحارة الإبلان القرشية لم تعد يوماً الطابع المحلي. وهذا رأي لا يحتمل كثيراً من الصحة. لأن معاوضة هاشم للبيزنطيين لم تكن اقتصر على الصانع التي كانت تحتها جزيرة العرب أولاً، ثم توسعت التجارة فيما بعد لتكتسب السمة الدولية ثم إن قريناً أحنباً واحداً في التجارة، يكفي لإسباغ هذه السمة الدولية عليها. وإن كان الثالث، على ما سنبين لاحقاً، أن قريناً تولت حصّة من تحارة الشرق طوال عقود من الزمن، من باليمن من خارج الجزيرة وشاربين من حارحها أيضاً.

- في قول ابن حبيب: «فيكونوا يحمون عدكم فهو أرحم من عليكم»، تلميح واضح إلى أمر من اثنين. إما أن هاشماً كان يقصد بقوله هذا أن تحصل قافلة قرين إلى بلاد الشام متحات الحرية العربية، بدلاً من أن يحملها تحار الروم، فيعني بهذا أن كلفة النقل الصحراوي الذي كانت تتولاها قرين أقل رسماً من الكلفة التي كان يتحمّلها تحار الروم. أو أن يكون هاشم قد قصد أن تنقل قرين التجارة الشرقية، بدلاً من مرورها عبر العراق. فلا يدفع البيزنطيون مكوساً للفرس. وهذا الاحتمال الثاني أشدّ إغراءاً للبريطانيين. إذا ما لاحظنا أن فرض المفاوضات كان إغراءهم بقول تحارة قرين. فلر كان هاشم يقصد الاحتمال الأول لضخف عنصر الإغراء فيها اقترحه على البريطانيين لأن هؤلاء قد يفضلون استمرار نقل تجارتهم لصاعة الشرق. ولو دفعوا لذلك ثمناً أعلى من النمن الذي يتقاضاه قرين. لأن مكاسب التحار الروم لم تُحسب حسرة على سريطة. أما لو

كان يقصد الاحتمال الثاني لاشتد عنصر الإغراء في حرص السماح بالتجارة
الفرشيين، لأن بيزنطة تكب فارق السعر، ويخسر الفرس، فيكون الكسب
مضاعفاً، علاوة على الكسب السياسي، بحسرة الفرس قدرتهم على ابتزاز
بيزنطة في تجارتها الشرقية.

- في قول ابن حبيب: «على أن قريناً تحمل لهم بضائع فيكفونهم
حملاتها ويرقون إليهم رأس مالهم وريحتهم»، خلاصة المشروع الذي عرضته
قرين على العرب فاشركتهم فيه وجعلتهم يتكافلون وينضامون في إنجاحه.
فلقاء السلام والأمن الذي طلبه قرين لفافلتها، أعطت القبائل العربية أن تنقل
لها في القافلة تجارة، وترد عليها رأس مالها وريحتها من غير أن تكلفها عنه
الرحيل. وبهذا أحلت قرين السلام الذي لا تجارة مستقرة من دونه، فيما كان
جميع الأطراف يخوضون حرباً أفقت الكثير من الأسواق وحولت طرقها، وليس
من شك في أن هذا الإيلاف مع القبائل العربية هو من الأدلة القوية على أن
التجارة التي حملتها قوافل قرين كانت تجارة دولية، لأن التجارة المحلية لم تكن
تحتاج إلى مثل هذه المعهود، وكانت الأسواق تُعقد كل سنة من دونها في أية
حال.

٢- متى قام الإيلاف؟

لا يشك حميد الله في أن هاشماً هو منشئ الإيلاف، استناداً إلى إجماع
المصادر العربية الإسلامية على ذلك. ويرى أن هذه المصادر لا تعين زمناً دقيقاً
لنشوء الإيلاف، وأن تعيين هذا الزمن ليس حسيماً^(١). والواقع أن تعيين زمن
إنشاء الإيلاف أهم كثيراً من تعيين منشئه. لأن زمن نشوء الإيلاف لا يمتنا في
رسم الصورة الدولية التي أحاطت بهذا المشروع الخطير منذ بدايته فقط بل
يساعدنا كذلك في فهم حوافز الحكام والملوك الذين عاصروا نشوء هذا

(١) المحبر، ص ١٧٤. وأيضاً سيرة أس هاشم، ج ١، ص ١٨٠ وكذلك Hamidullah

٣٠٣، p. The... ونزهد الموسوعة الإسلامية شكوكاً في أن يكون حد المطلب قد مات في

سنة المائة والعشر، وتقدر عدد الإيلاف في مطلع القرن السادس الميلادي تقريباً انظر

Encyclopedia of Islam، مادة: The.

المشروع. وقد انطلق حميد الله من عمر عبد المطلب حد الرسول لدى وفاته. ليحاول تقريب تاريخ هاشم ووفاته. فقال إن عبد المطلب من هاشم توفي نحو سنة ٥٧٨ م. وكان للرسول ثمان سنوات. ونشر روايات مختلفة إلى عمر عبد المطلب لدى وفاته: ٨٢ سنة، ٨٨ سنة، ١١٠ سنوات (في قول الواقدي)، وحتى ١٤٠ سنة (في قول ابن حبان وغيره). ويحمل حميد الله نفس القضية ١١٠ سنوات، على أنها الزعم الأوسط بين مختلف الظهورات. وعلى أن عبد المطلب قمي من تقدمه في السن في أواخر عمره. لكن استخدام سن ١٤٠ سنة وهي بعيدة الإمكان، لمؤارة سن ٨٢ سنة وهي مطونة جداً. هو أمر غير مقنع. وينتهي إلى نتيجة بعيدة الإمكان أيضاً. إذ أدى هذا الاحتمال بحمد الله، إلى جعل الإطلاف سنة ٤٦٧ م^(١). أي أن هاشماً عند الإطلاف مع سرقة في عهد الإمبراطور ليون الأول الذي سالم العرس، واستمرت النخلة في عهدده معهم على وضع جيد ومستقر، ولذا لم يكن في حاجة ماسة إلى نخلة فرينش الدولة. أما لو افترضنا أن عمر عبد المطلب لدى وفاته كان ٨٢ سنة، وهو رقم مقبول جداً ولا يؤثر أي مقدار من الشك، فإن ولادته تكون سنة ٤٩٩ م. تقريباً. ولا كانت المصادر العربية تشير إلى أن شوه الإطلاف وولادة عبد المطلب ووفاته هاشم كانت قريبة عهد إحداها من الأخرى، فإن الإطلاف شأنه ذلك على مفرقة من مطلع القرن السادس. فهل ناسب هذه المرحلة احتمال سري سرقة إلى تحسين تجارتها الشرقية عبر جزيرة العرب؟

إننا لا نملك مستندات مكتوبة في هذا الشأن. ولا ذكرت المصادر العربية نصوص الكتب التي قبل إن الملوك كسرها للفرينش لتسبر لمخاربه. ولا ذكرت حتى أسماء هؤلاء الملوك حتى يتمكن من تقدير زمن عهد الإطلاف. لكن أغلب الظن إن الاتفاق التجاري مع الإدارة البيزنطية جرى في زمن غير زمن الانشقاق مع اليمن أو الحبشة أو الحميرة. والمصادر العربية بعضها توحي أن هاشماً قد يرحل إلى الشام

وفي ذمته عقد الإيلاف، بل استحسن المكرة بعدما رأى نفسه تمكن حده
 قصير، على ما سلف. وهذا منطقي. فليس متوقفاً ولا مرجحاً أن تكون قريش
 قد عطلت للمشروع في كل تفاصيله، ثم لوئدت مودتها الأربعة كلاً إلى جهة
 في المهمة ذاتها، بل نمتد أن حاشاً لوام تحسين وضع التجار القرشيين لدى
 الإدارة البيزنطية في الشام، فأطلع في ذلك. ولما رأيت قريش نجاح الفكرة سعت
 إلى توسيع تجارتها وتحسين شروطها مع ملوك الأطراف الآخرين. لوئدت إخوة
 حاشم كل إلى مكان تجارتهم لترتيب الأمر. وهذا يعني أن الإيلاف لم ينشأ كله في
 سنة واحدة، بل تكون نظمه واتسع نطاقه تدريجاً.

إن قبول الرواية التي تؤكد أن حاشماً أخذ الإيلاف من غير ويلات بعد
 زمن قصير، يجعلنا نرجح أن هذا حدث في أوائل القرن السادس، ليس لأن
 حساب عمر عبد المطلب بن حاشم يحفزنا على هذا لفظ، بل لأن الأوضاع
 الدولية كانت آنذاك مناسبة تماماً لهذا التطوير أيضاً. ففي أوائل القرن السادس
 بدأت الحروب البيزنطية الفارسية التي اتصلت تقريباً طول قرن وثلاث قرن إلى ما
 بعد ظهور الإسلام، وهي الحروب التي سلف القول إنها حولت طرق التجارة
 عن المسرب الفراتي إلى المصربين الأساسيين الآخرين: البحر الأحمر وطريق
 القوافل المكية، ولذا كانت بيزنطة في حاجة إلى تنظيم هذا الشأن الخطير
 لضمان تدفق سلع التجارة الشرقية. ولم تكن المائدة المتعلقة بتنظيم المكوس
 والأسواق في معاهدة ٥٦١ م. مع الفرس، سوى محاولة لصد الصافد التي كانت
 تتسلل منها التجارة غير الشرعية، ولضغط المكوس وتحسين جبايتها. وليس غريباً
 لذا أن تعرض التجار عن طريق الفرات، مما يبرز تجارة مكة ويحسن لغوتها
 على المنافسة^(١١).

(١١) انظر: أزمة الركلاء العرب في الفصل الثالث أعلاه. لما في هذا لتاريخ أصل الإيلاف، فعلى
 الرغم من جودة أبحاث كثير صوماً، إلا أن أصل روايته بمثابة الأرب في أصل الفرس والعرب،
 على جميع ملامتها، وهي تنسب إلى حاشم أنه أصل الإيلاف بين ملوك الحبشة واليمن والفرس
 والشام، وليس في هذا الخلاف، لكن الرواية التي لم يرد ذكر أي شكوك حدها، للفرض.

وقد نساءل بحق: إذا كانت تلك التجارة المكية مخصصة للمصالح البيزنطية، فما هي مصلحة الفرس فيها؟ وهذا تسأل جدي، لكن الرد عليه ليس سهلاً. ففني ذلك لا بد من التفريق بين التجار الفرس الذين كانوا يملكون تجارة الشرق، والإدارة الفارسية الرسمية. كانت مكاسب التجار في بيع سلعهم وتسيير تجارتها في الأسواق. أما الإدارة الفارسية التي كانت على حرب مع بيزنطة فكانت تسعى أحياناً إلى وقف الاتجار مع البيزنطيين، ونسعى أحياناً أخرى إلى ضبط التجارة وتحسين مداخل تجارتها مع السوق البيزنطية في أصل الأحوال، وكلا الأمرين لا يتفق تماماً مع مصالح التجار. ولذا بحق لنا أن نشبه بأن جميع القطاعات في المجتمع الفارسي لم تكن بالضرورة متفقة على موقف واحد حيال التجارة مع بيزنطة. ويمكننا أن نتخيل رغبة التجار الفرس الأتني بعضهم من الهند في تسريب بضائعهم إلى السوق المحلية حيث يتظعم الناس المحلي، فلا يمزون بالرقابة الفارسية الرسمية. ويمكننا كذلك أن نتخيل نفوذ هؤلاء التجار في البلاط الفارسي، وسعيهم فيه إلى صرف أنظار المسؤولين أو مساعدتهم في غش النظر عن تجارتهم مع فريش، خصوصاً إذا كانت الإدارة الفارسية لا تملك وسيلة لمنع التجار الفرس من نقل بضائعهم من الهند وسيلان مباشرة إلى اليمن، ولا فتح فريش من نقل هذه البضاعة إلى الشام. ولا بد من أن نلاحظ في هذا الصدد أيضاً، أن كثيراً من تجارة فريش كان يأتي من جزيرة العرب نفسها وكذلك من الحبشة. ولم تكن للفرس نفوذ على مراقبة هذه المصارف ومنع تجارتها مع القوافل المكية وأصحابها، حتى بعد استيلاء الفرس على اليمن، على ما بينته

أيضاً أن ملك اليمن أيام حاشم كان أربعة الحشوي. وهذا احتمال جيد جداً، وأن ملك الشام كان جبلة بن الأيهم، وهذا خطأ فادح، لأن جبلة بن الأيهم لم يكن إسلامياً. ولذا لا بد من تأنيق النص من أصل تصنيف الروايات الإسلامية وتعيين الحق فيها. حتى لا يخطئ العهد بجزيرة السادس. انظر: *Knowl. Sans. Reports*, pp. 82, 83. ويؤيد الشريف تقريب نشوء الإبلاخ من أول القرن الميلادي السادس الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٩، ٢٠٣، ٢٠٤. أما حقور إبراهيم ذلك على سبيل غير مباشر إذ يرى أن حاشماً ولد نحو سنة ٤٦٨ م. حقور: المرجع السابق، ص ٣٤. ولا يارده يحقون في جعل نشوء الإبلاخ في مطلع القرن الميلادي السادس. وهذا هو ترجيحنا. يشهد: الحمجاز، ص ٣٦.

كانت الروم تعثر من دخل منهم بلادهم^(١) لكن هذا لا يعني في الروم كانوا ينظمون قوافل هم أيضاً لتسيير بحارة الشرق إليهم^(٢). بل اصعدوا في القافل على التجار المكسيك الذين كانوا يملكون وسائل النقل والقدرة على اجتياز الصحراء بسلام بين القافل، والوصول إلى الأسواق الخارجية في حوض الخليج. وجميع هذه متوفرة على يدهم، على الرغم من أن مكة لم تخل من التجار الروم، الذين كانوا قادرين على شراء الصانع، لكنهم لم يكونوا قادرين على تنظيم القوافل وهي الأصل والأساس في تسيير بحارة الشرق.

وعلم القدرة على الحصول محل قريش في نظم بحارة الشرق بوضوح كذلك في مصر أمهنة، إذ أن هذا الحدي الحدي الذي اصطحب معه فنتكاً، لم يكن يقتصر فقط إلى القدرة على اجتياز الصحراء، على حرمها قد توجه حقلته الفاشلة على مكة، بل كان يمتد أيضاً إلى ما بعد القافل المصرية عن الطريق التجاري، مثلما افتر إلى مصر الشرقي الذي استطاعت مكة أن تسيطر حول حرمها، وإلى العلاقات الحيدة مع تجار العرب وبخارها فساد والخليج الذين كانوا يؤثرون الخاب الفارسي والعربي من يرضه وحفاته مما يبدو أنه نكر حيلة أمهنة على مكة نوعاً فقط لقتله في الحصول محل مكة في تسيير بحارة الشرق، بل إننا لهذا القتل وللهذا عليه أيضاً، حتى لو فسر لحسنه أن تنهي إلى النجاح، وتؤكد المصادر العربية أن قريشاً انخرط في البحر بصرح رسي من حاكمه الحثري، إذ يروي أن أمهنة حين علمه بخطط الفلبس قال: وهذا عيسى قريش لعصمهم ليهبم الذي نصح إلى العرب. وكان يصعد بخار من قريش فيهم هشام بن العيرة فأرسل إليهم أمهنة فأتوا حتى دخلوا فيه طاق لهم: ألم أطلق لكم البحر في أرضي وأمرت بحفظكم وإكرامكم؟^(٣) وهذا صبح أنه قال هذا فإنه يعني أن أمهنة عند قريش إلهافاً بحرم لهم الانتشار في

(١) الأديبي: ص ١٠٧، واط أيضاً: ص ٢٢٤

(٢) جواد علي: ص ٩٠، ص ٩٣

(٣) جواد علي: ص ٩٣، ص ٩٤

اليمن، أو أنه أجاز ما كان خلفه بحريه لهم فيه. لكن ما لا ريب فيه هو أن هزيمة أبرهة سنة ٥٧٠ م. تقريباً أمام مكة كانت فاتحة عهد جديد وصل بمكة إلى ذروة نفوذها في اليمن وبين سائر العرب بعد فشل أعظم محاولات إخضاعها وأخطر مخططات الاستيلاء على تجارتها وانتزاع الزعامة الدينية والسياسية والاقتصادية منها.

أما الحجة فيشكك سيمون في أن مكة عرفت معها إيلافاً أسوأ بالاطراف الثلاثة الآخرين، وبني شكه على أن الإبحار في البحر الأحمر كان خطراً جداً بسبب الشواطئ الصخرية والمرجانية والصحراوية وأعمال القرصة، وأن الجزيرة العربية كانت تفتقر إلى الخشب والحديد اللازمين لصنع السفن، وليست لها أنهر أو موانئ ترفأ إليها السفن الأجنبية، وكان الإبحار في البحر الأحمر حكراً للبيزنطيين والأحباش. ويستنتج من هذا أن قريشاً لم تكن لها تجارة منتظمة مع الأحباش، بل كانوا على الأكثر يتلقون التجارة الحشية الأتية إليهم، ولذا فلم يكن ثمة إيلاف مع الحشية^(١). لكن إشارات القرآن الكريم الكثيرة إلى البحر وذكره دليل على أن القرشيين الذين حاطهم الله بملتهم، كانوا ملحقين بالملاحة. وأقرب ملاحظتهم قطعاً كانت إلى الحشة عبر البحر الأحمر. وإن حجة خطورة الملاحة في البحر الأحمر تحوز على الأحباش والبيزنطيين وقريش معاً ولا يمكن أن تجوز على هؤلاء دون أولئك. بل إن هذه الحجة تجوز أكثر على الفريق الأشد اعتدالاً على البحر الأمل استعدداً للمصراع. ولما حجة الضفاف الصحراوية الغفراء فلا تصح إطلاقاً في قريش، وهي حجة من الحقائق الأساسية في وجه حركة الأحباش والبيزنطيين. أما أن جزيرة العرب تفتقر إلى الخشب والحديد فإن قريشاً لم تبحر إلى الهند بسمها، وكانت التجارة تأتيها بسفن غيرها على الأرجح، ولم تَحُلْ ذلك دون عطفها إيلافاً مع اليمنين. وهذا يعني أن قريشاً كان يمكنها أن تستأجر سفن الأحباش لتل تجارتها من الحشة إلى ميناء الحشية القريب من حدة. وكانت تستخدمه لهذا الغرض قبل

الإسلام^(١). وقد أكد المحقق أن لربناً كانوا يستعملون سفناً لحملهم لفل
 التجارة بينهم وبين الحبشة^(٢) لما لهذا لا تاجر الحبشة بضعا، بل تبع
 بضاعتها للبرش، فليس محتمل، لولها أن التاجر البرشية التي تحمل
 الإبحار في البحر الأحمر مطراً، نكثراً سملاً، وزولي لربش ظل الصاعة الحبشة
 إلى الأسواق الشمالية يكثر الإبحار هذا المطر ولما لم الثاني فهو أن
 الحبشة لم تكن تستطيع ظل ضاعتها إلى البرية والبرش لا جا نظرت إلى
 وسائل النقل عبر الصحراء، ولما كانت من حلفاء يوزعة التي كانت على حرب مع
 القروس. ونشر البرية الإسلامية الأولى إلى الحبشة، إلى أن القروس كانوا
 يعرفون الحبشة معرفة جيدة ويعلمون علاقات حسنة مع الإبحار^(٣) وروى
 الأصفهاني في الألفي عن تشارا صلالة من الولد السروسي وعمره من العاصم من والي
 السهمي في الحبشة واتصالها بالساحل^(٤)، يعني بذلك أن لربناً كانت تنظر لتجارة
 الإبحار أن تصل إليها، على ما قاله سهرن

ولا شك في أن خلاف مملكة أكسوم مع أرضها، ثم تسلياً القروس على
 اليمن كان لها تأثيراً تحسب حالة التجارة المتكئة مع الحبشة عبر في العمل الأول
 الذي جعل المتكئين أسبغ التجارة الشرقية في ذلك الزمن ولا ريب هو حلفهم،
 فيما كان الآخرون يحترقون سواك طراً

لما الطرف الرابع في إلفاف لربش فهو مملكة الحبشة، ومن حينها
 القروس، الذين كانوا يسيطرون على تجارة الحرير الآتية من الشرق من طريق البحر
 والبحر، ويقول سهرن إن البرية أصبحت على لائق ليس صلالة، وهي لائق
 كانت تسيطر على سوق عكاظ شرق مكة، لتتحد حصناً من تجارة القروس، حتى

(١) مصمم البلدان، مادة القصة الطري الفرج، ج ٢، ص ٢٦٩، وذكر القروس الفرج
 السابق، ص ٢٧٢.

(٢) الجبلية: بلاد اليمن، مادة السروسي، الفرج، ج ٢، ص ٢٧٢، وذكر أيضاً القروس:
 الفرج، مادة، ص ٢٦٠، وسهرن المصمم، ص ٢٦١.

(٣) القروس: الفرج، مادة، ص ٢٦٠، ٢٦١، وذكر أيضاً القروس:

(٤) الألفي، ج ٢، ص ٥٥ وما بعد

السبعينيات من القرن السادس. وأخلت حصن الحيرة في هذه التجارة تشاءل، حتى استطاعت قریش أن تنولي عليها تماماً في أثر حروب الفجار، حين ألحقت الهزيمة بقبيلة الهوازن حلفاء الحيرة. ويستند سيمون إلى كتاب الأغاني لينفي قيام إيلاف قرشي مبكر مع الحيرة، إذ يقول إن أبا سفيان بن حرب كان يقود قافلة من التجار القرشيين والنقفين إلى الحيرة، فقال لهم في بعض الطريق: «إن من سيرنا هذا ألقى خطراً ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القدوم عليه وليست بلاده لنا بمنزلة»^(١). وفي رأيي أن سيمون تسرع في استنتاج ذلك، فقول أبي سفيان قد يكون لاحقاً لحروب الفجار التي انتصرت فيها إرادة مكة على إرادة الحيرة. وقد يكون ذلك هو سبب تخوف أبي سفيان. أما افتراض أن إيلاف قریش مع الحيرة لم يثنأ إلا في أوائل القرن السابع، لأن قریشاً سيطرت في ذلك الزمن على كل التجارة مع الحيرة، فهذا يعني أن سيمون لم يدرك معنى الإيلاف وأخله حل أنه احتكار مكة للمحطوط التجارية. وليس هذا صحيحاً. إذ إن مكة حتى بمادن قاتل العرب وتضمن ولاهم وسلام مرورها في أرضهم، أشركتهم في التجارة. ولا شك في أن مكة كانت تسيطر على هذه التجارة، إلا أنها سيطرة الشريك الأكبر، الذي يشارك الجميع، لا سيطرة المحتكر الذي لا يشرك أحداً. ولم يكن ذلك حال الحيرة، لأنها لم تكن تنافس مكة على حصن من الحصص، بل على قيادة المشروع وزعامة العرب، يدفعها الفرس وبما، مثلما دفعت بيزنطة أرملة لمحاولة مماثلة لحسابها. والإيلاف إذن لا يشترط زوال نفوذ الحيرة، بل يمنع لاشتراكها في تجارة مكة.

وقد لاحظ باحثون أن تجارة مكة مع الحيرة لم تكن عطية الشأن مثل تجارتها مع الشام، وذلك تفسيره بغيره، إذ إن العرس والحيرة كانا على اتصال مباشر بتجارة الشرق الآتية من المحيط الهندي ومن منطقة الخليج وربما حضرموت واليمن، ولم يكن لدى مكة ما تنقله إلى الفرس والحيرة سوى التجارة الحبشية التي تفحصت اللادن ودرش الشام والماع والرقيق^(٢). وكان ملوك

(١) الأغاني، ج ١٣، ص ٢٠٦. وانظر أيضاً ص ٢٢٥. Simon, *History of Islam*.

(٢) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧، ٢١٠.

السامتين يرسلون قوافلهم إلى حوض الجزيرة العربية بحرهما وكلاهما متصل إلى العراق وأسواق فارس متحات تلك المناطق. لما امتدت الأحشاء، يمكننا أن نفهم سبب عدم وصولها إلى المرس مباشرة في عهد أرملة، الذي عني القوس، وفي عهد ذي يزن وحلفائه الذين عاشوا الحنة. والراجح إذن أن البضاعة الحبشية كانت تصل بحراً إلى مياه النجدة، فتولى قوافل مكة بموجب الإبل، نقل ما تيسر منها إلى الحيرة، وفقاً لحاجة المرس من هذه البضاعة. وكان تخارمكة يقدون على المدائن ويتصلون بشيوخ كسرى ويتخلطون هناك في البيع والشراء. وكان في الحيرة سراً عساري اشتركوا مع سرقة قریش في تجارتهم مثل كعب بن عدي النخعي، وكانت له شركة في الحاضرة مع حمزة بن الخطاب في تحارة الزبالة. ويحتمل أن تحارة قریش مع الحيرة تعاطفت حين تهاقت مكانة الملوك اللخميين في بلاد كسرى، لأن الفاتل العربية أخذت تهاجم قوافل القوس، وأما قوافل ملوك الحيرة فلم ترسل متساكنة ترسل كل عام، واستغلت مكة من ذلك وأعلنت السوق لملها خصوصاً بعد مقتل النعمان بن المنذر وانتصار العرب على المرس في يوم ذي القعدة. وقد تميز موقف قریش في الإبل على كل الأطراف الآخرين، بأنها لم تصبح أية فرصة، وكانت تحل كل فراغ شاعر في تحارة الشرق. فاستمرت بذلك ثباتاً ثابتاً على أزمته.

١٠- أحلاف قریش القبلة

أختمت قریش بالسلام مع الفاتل العربية ولها بهاء اعتنقها بالعبودية التي أخذتها من دول الأطراف الأربعة وانتهت نهجاً بجمع المسألة والمصلحة المشتركة في تطويع الفاتل العربية صر إظهار مشروعيها. وكانت قریش تخشى اضطراب حل الأمر على طرفها البحارية، يوم اعتدى الفرسيون

(١) جواد علي: ج ٩، ص ٩٧٧، و ج ٩، ص ٩٩٩.

(٢) الشريف: المرجع السابق، ص ١٩٦. وكذلك The Book of the Tribes of the Arabs.

and Published in Northampton Angling on the Eve of Islam Studies Initiative, 80 Fawcett St.,

على أبي ذر الغفاري لإشهاره إسلامه، صاح بهم العباس بن عبد المطلب قائلاً: «ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام»، وكان قوله رادعاً كافياً^(٢). وقد فهم المكيون علاقة السلم بالتجارة وحاجتهم إلى إشراك جميع القبائل الضاربة على طريق القوافل وبقرها، مثلما فهموا حاجتهم إلى الحياد بين الفرس والبيزنطيين^(٣). ولم تكن طرق القوافل وحدها بحاجة إلى سلام قريش بل أسواق العرب المحلية أيضاً. وكانت قريش تشجع القبائل على حضور أسواقها بمختلف الوسائل، فكانت تميم التي تسلمت الإشراف على سوق عكاظ بعد حروب الفجار تمتنع من جباية أي مكوس من التجار. وكانت قريش توعد إليهم ألا يَمْكُوا أحداً لجذب العرب إلى السوق، وتضمن السلام والأمن حتى لا يُكَلَّف أحدٌ بكلفة العشور والخفرة ولا يُهان أو يُعتدى عليه. كذلك استخدم سادة قريش حنكتهم التجارية والسياسية النادرة في وجوه مختلفة لربط القبائل بمعهود ومواثيق ومصالح، حتى أضحت التحرش بقافلة تجارية مكية أمراً من أصعب الأمور وأندرها، فاستمالت زعماء القبائل إلى جانبها بشتى الوسائل^(٤). وكان الأصل في أمن الصحراء النظام القبلي، ذلك أن التبعات التي تلقى أعمال البدوي على عاتق قبيلته كانت تردعه في معظم الأحيان عن إتيان ما لا يُرضي القبائل الأخرى. وكان الحلف بين قبيلتين نوعاً من الأمن الجماعي يردع القبائل بعضها عن البعض^(٥). وكانت لقريش علاقات طيبة مع قبائل ضاربة على طرق قوافلها، مثل جُهينة ومُزينة وغطفان وأشجع وسليم وبني سعد وبني أسد، وكان لها في هذه القبائل حلفاء يقيمون في مكة مقام أهلها. وكان من الطائفت ثقفيون كثر بلغ بعضهم مبلغ السيادة في بطون قريش نفسها مثل الأخنس بن شريق حليف بني زهرة، وكان مُطاعاً فيهم. وكان بين الثقفين من

(١) البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل: صحيح البخاري، دار الجليل، بيروت، ج ٥، ص ٥٩. وانظر فداكة: المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) الشريف: المرجع السابق، ص ١٤٠ - ١٤٢.

(٣) جواد علي: ج ٧، ص ٣٧٩، وجد ٤، ص ٣٨٨.

(٤) Montgomery-Watt, W. Economic and Social Aspects of the Origin of Islam, Islamic

Quarterly I (1954), p. 91

يشارك في كثير من أمور قريش، فكان عروة بن مسعود الثقفي أحد الرسل الذين مثلوا مكة في مفاوضاتها مع النبي في الحديبية. ولم تقتصر علاقات قريش بقبائل العرب على ثقيف، فأصهر هاشم بن عبد مناف إلى بني النجار الخزرجيين في يثرب وظل ابنه عبد المطلب على صلة وثيقة بأخواله هناك. وكان أمية بن خلف الجمحي صديقاً لسعد بن معاذ الأشهلي زعيم الأوس. وكان العاص بن وائل السهمي وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وغيرهم على صلات طيبة بأهل يثرب^(١). ولذلك كانت قوافل مكة الطائفة شمالاً آمنة، فإذا قصدت دومة الجندل ظلت آمنة لأنها تمر ببلاد مضر، ولا يتحرش مضرى بمضرى. وإذا مرت بديار كلب كانت مطمئنة أيضاً لأن لكلب حلفاً مع تميم، وتميم من مضر وهي حليفة لمكة. وإذا مرت ببني أسد فهم من مضر كذلك. أما إذا دخلت ديار طيء فهي آمنة لتحالف طيء مع بني أسد^(٢). والواقع أن تحالف قريش مع تميم يضمن لها سلامة المرور من وادي الرمة عقدة المواصلات شمالي الجزيرة العربية، حتى وادي الباطن عند الطرف الشمالي الغربي من الخليج، ذلك أن تميماً كانت كبرى القبائل العربية شمال شرق مكة. كذلك كانت تميم على علاقة رداقة مع ملك الحيرة، والردف هو زعيم قبيلة يتخذ ملك الحيرة نائباً عنه. وقد ضمنت قريش بذلك جزءاً كبيراً من طريق قافلتها إلى الشام وإلى الحيرة معاً، فيما كان تحالف تميم مع بني كلب يضمن أمان الطريق من أعالي الحجاز إلى مشارف يادية الشام، حيث تنتشر قبائل كلب. وقد أشركت مكة تيمماً، لمكانتها هذه، في تنظيم سوق عكاظ وأعطتها الحكومة في السوق، وكذلك أشركتها في الإشراف على الإجازة والإفاضة من ضمن وظائف تنظيم الحج. وفي ذلك قال أوس بن مقرن السعدي التميمي، في طبقات الشعراء:

(١) الأغاني، ج ٢، ص ٢٤٢، ٢٤٣. وسيرة ابن هشام. ج ١، ص ١٤٨. والشريف: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨. ويؤكد يعضون أن الطوائف تولت تجارة مكة اليمنية. يعضون. الحجاز، ص ٣٩.

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ٢٠٨. ويعضون: الحجاز، ص ٤٧، عن انتشار كلب حتى بصرى.

ولا يَريمون في التمرّيف موقفهم حتى يُقالَ أُجيزوا، آل صفوان

وكانت بطون قضاة وجذام المنتشرة شمال مكة على الطريق إلى الشام، على صلات بمكة وطُدها الإيلاف. وإلى شرق مكة كان من غطفان وهوازن وبني هلال حلفاء لمكة يقيمون فيها. وإلى جانب البحر جنوباً كانت بطون كنانة التي تعدّ قريش منها مثل القين وغفار وبلحارث ومدلج وبكر. وإلى الجنوب من مكة كانت تنائر قبائل على طول الطريق إلى اليمن مثل قبيلة خثعم التي قاتلت أبرهة دفاعاً عن مكة، وكانت تقيم في الهضبة الممتدة من الطائف إلى نحران على طريق القوافل المكيّة^(١). ويقول ابن حبيب في المحجر، إن بني آكل المرار في حضرموت كانوا حلفاء مكة وكانوا يخفرون قوافلها، وإنها نصرتهم على جميع القبائل الأخرى^(٢). وكانت لقريش تحالفات عسكرية أيضاً فكانت قريش الطواهر تغزو وتغير دفاعاً عن مصالح مكة. وكان ممن تحالفت معهم قريش ليقاتلوا معها في الحروب القارة والحدود والمصطلق وبنو الحارث بن كنانة^(٣). غير أن لجميع هذه القبائل حدوداً، ما كانت تتعدّاها. فقد جاء في رواية يوم الصفقة أن نفوذ هوزة بن علي الحنفي لم يكن بعيداً، ولم يكن يمثل نفوذ آل غسان أو ملوك الحيرة. فلما طمع في الجعالة التي كان الفرس يعطونها لمن يتولّى خيافرة قافلتهم التجارية الآتية من الحيرة أو الذهاب إليها، ووافق الفرس على إعطائه ما أراد فسار مع القافلة خفياً من هجر حتى نطاع، وبلغ بني سعد ما صنع، خرجوا إليه وأخلوا ما كان في القافلة وأسروه حتى اشترى نفسه منهم بثلاثمائة بعير^(٤).

لم تكن أحلاف مكة تستطيع أن تعتمد لتضمن المرور الآمن على طول الطرق التجارية. وكان لا بد من نظام إضافي. كان لا بد من إيلاف القبائل.

(١) سيرة ابن هشام. ج ٢، ص ٢٥٨، وج ٣، ص ٣٦١، ٣٦٢. وانظر أيضاً درادكة: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٦٠. والشريف: المرجع السابق، ص ١٤٦ - ١٤٨.

(٢) المحجر، ص ٢٦٧. وانظر أيضاً Hamudullah: Al Tāif..., p. 306

(٣) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٢٧. وانظر أيضاً درادكة: المرجع السابق، ص ٦٠.

(٤) الطبري: التاريخ، ج ٢، ص ١٦٩. وانظر أيضاً جواد علي: ج ٤، ص ٢١٥.

٣- إيلاف القبائل العربية

تروي المأثورات الإسلامية أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يرسل كل سنة لطيمةً تحمل تجارته إلى أسواق العرب وإلى اليمن، فيبيع وتشتري. واللطيمة قافلة سنوية كانت تخفرها بعض القبائل لحساب ملك الحيرة. وجاء في رواية المصادر العربية لحروب الفجار أن شرارتها كانت نزاعاً على خفارة إحدى لطائم ملك الحيرة. وقد أثبتت حروب الفجار التي سنأتي على ذكرها في فصل ثالث، أن الجعل الذي كان يدفعه أصحاب التجارة للخفر الذي كان يرافق قوافلهم كان حرياً أن يُشعل حرباً بين متنافسين، وأن القوة العسكرية التي كانت الحيرة تمتاز بها نظرياً على القبائل العربية، لم تكن كافية لقرض هيبتها بعيداً في الصحراء^(١). وهذان الأمران مفيدان جداً لفهم إيلاف قريش القبائل العربية، إذ أن زعامة مكة لم تسلك إلى تنظيم قوافلها سبيل القوة العسكرية، بل سعت بالأحرى إلى إشراك القبائل بوسائل شتى في فوائد التجارة. وهذا الإشراك هو الذي جعل لمكة تلك القوة التي أبدتها في حروب الفجار.

وقد شرحت المصادر مضمون اتفاق مكة والقبائل، إذ قال ابن حبيب في «المنطق»، في روايته لحديث الإيلاف: «فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مرّ بحي من العرب بطريق الشام، أخذ من أشرافهم إيلافاً... إلى آخر القول^(٢)». فلما أصبح شيوخ القبائل العربية شركاء في تجارة مكة على هذا النحو، أصبحت مهمة ردع ذؤبان العرب وضعاليكها وطلاب الغنائم وأصحاب الغزوات، مهمة يسعى إليها هؤلاء الشيوخ من غير حاش ولا محترض، لأن تجارة قريش باتت تجارتهم هم أيضاً.

غير أن ذلك لم يكن الأسلوب الوحيد الذي اتبعته قريش في إيلاف قبائل

(١) جواد علي: ج ٣، ص ٢٧٧.

(٢) المنطق، ص ٣٢. وكذلك الغالي في ذيل الأمالي. انظر فوادكة: المرجع السابق، ص ٥٤.

ووصف يصفون اليهود مع القبائل بأنها أقامت أم الإيلاف لا الأمن العسكري. يصفون: المعجاز... ص ٧٧، ٧٨.

العرب، لأن بعض هذه قد لا يرغب أو لا يقدر على الاشتراك في التجارة، وقد تكون له القدرة على عرقلة قوافلها. فلجأت مكة إلى مصانعة هؤلاء بدفع إتاوات المرور لقاء حق المرور الآمن. وكانت هذه الإتاوات مصدر دخل ثابت لكثير من البدو^(١). وكانت القوافل الطاعنة شمالاً وجنوباً في حاجة إلى خدمات أخرى غير الحماية والأمن، فكان البدو أدلاء وحراساً، لكن بعضهم لا بد وأنه عمل لمد القوافل بالماء والمؤن. ولذا كان شيوخ القبائل شركاء لمكة في قوافلها على هذا النحو أو ذاك، يرون مصلحتهم في مصلحتها، ورخاءهم في رخائها. ويرون أن خسارتها خسارة لهم أيضاً^(٢). ولم يكن هذا تبديلاً طفيفاً في أخلاق الصحراء وعاداتها. فالغزو من مآثر البدو، لأنه مصدر رزق نادر المثال. وقد عُهد في جوار المناطق الزراعية أن المزارعين وسكان الحضر كانوا يعقدون المعهود مع البدو المجاورين فيدفعون لهم الخوات لقاء الكف عن غزوهم وردع البدو الآخرين عن ذلك^(٣). فإذا افترضنا أن تجار تدمر واليمن كانوا يدفعون خوات للقبائل من أجل حق مرور القوافل، وأن العلاقة بين بيزنطة وبني سليج ثم بني غسان، والعلاقة بين الفرس ومملكة الحيرة، كانت شيئاً من هذا القبيل، فإن إيلاف قريش كان أول مجموعة عهود بهذا الاتساع، إذ امتد إلى خارج الجزيرة العربية وكاد أن يشمل كل قبائل العرب، في مشروع نُطِفَتْ ومقرّه عمق جزيرة العرب، لا أطرافها.

ولقد تسنى في الماضي لقبائل عربية أن تشترك مع تدمر وغيرها ربما في مشروع تجاري كبير كهذا، لكن إيلاف قريش كان أول مشروع يهدف العمل

(١) القاضي البغدادي، أبو علي: ذيل الأمازي، منشورات دار الأفاق الحديدية، بيروت، بلا تاريخ، ص ١٩٩. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٢) المصعب الزبيري: نسب قريش، تحقيق إ. ليفي بروفيسال، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ١٤ - ١٨، ٩٨، ٩٩، ١٢٣، ١٢٦، ٢٢٩، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٢، بروي مصاهرات قريش في القبائل العربية. انظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣) Lammens. l'Arabic. .. Montgomeri-Watt. Muhammad at Mecca..., p. 2 (٣) وانظر أيضاً.

المشترك بعقيدة دينية مشتركة تزيد الإحساس بانتماء مشترك، حتى أدرك شيوخ قبائل العرب أن أصنامهم كانت في مكة، ومصالحهم كذلك^(١).

وقد بلغ إدراك شيوخ العرب لمصلحتهم في نجاح تجارة مكة، أنهم كثيراً ما كانوا يردّون الجمل الذي تقاضوه لقاء المرور الآمن، إلى أصحاب القافلة، إذا ما تعرّضت لاعتداء لم يتمكنوا من رده. فازدادت الثقة بهذا النظام، وازداد إحساس القبائل بالتبعات الملقاة على عواتقهم. فاستخدموا علمهم بالصحراء ومساكنها، ومواقع الأمن والحذر فيها، وحسّوا قدرتهم على عناء السير والسرى وحرارة الصحراء وجفافها^(٢). وأضحى الإيلاف قيمةً يفاخر بها، حتى تُسب إلى مطرود بن كعب الخزاعي قوله:

يا أيها الرجلُ المحوّلُ رحله هلاً نزلت مآل عبد منافع
هبتك أمك لو نزلت بحتهم ضمنوك من جوع ومن إقرايف
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والمطيّمون إذا الرّياح تناوحت حتى تغيب الشمس في السرجاف
والخالطون غنيهم بغيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي^(٣)

وفي نسبة هذا الشعر وحدها ما يعني على الأقل، أن العرب قبل الإسلام كانوا يجلبون الإيلاف في قيمته الخلقية، وفي مآثره في بث الرخاء والأمن.

وليس من شك في أن حرمة المكّين ما كانت لتكسب ذلك الإجماع شبه الكامل، وما كان للمكّين أن تكون لهم تلك الهيبة الأشبه بالقدسية في قوافلهم^(٤)، لو أن مصلحة القبائل العربية كانت مخالفة لمصلحة المشروع الذي نظّم

(١) Montgomery-Watt: *ibid.*, p. 11. ونحدث سارجت عن ترتيب مماثل للفواصل المشتركة بشا

في اليمن. أنظر: Serjeant. *op.cit.*, p 55.

(٢) حقود: المرجع السابق، ص ٦١.

(٣) البلاذري: الأنساب... تحقيق حميد الله، ص ٦٠. وانظر أيضاً يعضون: الإيلاف...

ص ١٣.

(٤) Serjeant: *Haram and Hawa*..., p. 55 (٤)

حقده الإيلاف. ولكن المال وحده لم يكن كافياً لجمع شمل القبائل معاً، فمكة لم تكن وحدها تملك المال، لكنه تسنى لها أن يكون رجالها في هذه المرحلة من التاريخ ذوي جلم وحكمة، ومن يكظمون مشاعرهم في مداراة مصالحهم. وهذه صفات رجال الدولة الذين قادوا قريشاً، فمكّنوها من قيادة قبائل العرب من غير منازع ولا منافس جذي^(١).

٢- الرفادة والسقاية

من ضمن جميع وظائف القيام على خدمة الحرم المكي، كانت الرفادة والسقاية أوثقها علاقة بسعي قريش إلى جمع قبائل العرب من حول حرمها. وكانت الرفادة، على قول ابن هشام «خرجاً تُخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع به طعاماً للحاج، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش... فكانوا يُخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً فيدفعونه إليه فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه، حتى قام الإسلام»^(٢). وكانت السقاية ملازمة للرفادة في مهمة تهوين مشاق الحج وعناثه. أما الوظائف الأخرى في خدمة الحرم المكي، فكان معظمها يجنح إلى صفة التنظيم الداخلي للقيادة المكية، ولم يكن على علاقة مباشرة بالحجيج، أو تسهيل حجّهم. فكانت الوظائف في الملأ المكي الذي أنشأه قصي في دار الندوة على ما نقوله المصادر الإسلامية، ست وظائف في البدء، ثم ازدادت بعد موت قصي، وهي: السقاية وكانت لبني هاشم، واللواء والبيدانة والحجابة والندوة وكانت لبني عبد الدار، والعقاب أي راية قريش في الحرب وكانت لبني أمية، والرفادة وكانت لبني نوفل، والمشورة لبني أسد، والأشناق وهي الديات والغرم لبني تيم، والقبة والأعنة، فالقبة كانوا يضيرونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فما كان على خيل قريش في الحرب، وكانت لبني مخزوم، والسفارة لبني عدي، والإيسار وهي

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 11

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤١، ١٤٢. وأنظر Serjeant: Haram and Hawra..., p. 53

الأزلام يستقسمون بها قبل القيام بأي أمر يروونه خطيراً، وكانت لبني جُمح، والأموال المُخْبِجَة التي خَصَّوا بها آلَهمم وكانت لبني سهم. وقد جمعت الراية والقيادة معاً بعدما كانتا منفصلتين^(١).

وعلى الرغم من أن المصادر الإسلامية تُجمع على أن الحرم المكي والحجَّ إليه كانا قائمين قبل استيلاء قصي وقريش على مكة، إلا أنها مجمعة أيضاً على أن قُصياً هو الذي أنشأ الوظائف الست الأولى. وقد يعني هذا واحداً من أمرين: أن تكون خِزاعة بعدما ضعف أمرها في مكة، قد أهملت هذه الوظائف، فأعاد قصي تنظيمها وتوسيع نطاقها، أو أن قُصياً ارئى أن يُنشئ هذه الوظائف ليعزِّز مكانة مكة ويجمع من حولها من الحجاج وقبائل العرب ما لم تكن تجمعه في السابق. ويدعم الاحتمال الثاني أن قُصياً، لو صحَّ أن قيصرأ أعانه في الاستيلاء على مكة حقاً، لحقَّ لنا أن نشبهه في سعة طموحه السياسي.

على أن المنعطف البارز في تكوين الشخصية التجارية لمكة، على ما قاله يعضون^(٢)، حدث في عهد حفدة قُصي، أبناء عبد مناف. ذلك أنهم هم الذين أنشأوا الإيلاف على الأرجح، في أوائل القرن السادس، أو على مقربة من ذلك. وهذا يعني أنهم هم الذين حولوا التجارة المكيَّة من سوق محلية لقبائل العرب، إلى تنظيم لخط التجارة الشرقية. والتجارة المحلية أقل قدرة على تحمُّل أعباء الرفادة والسقاية، من التجارة الدولية، ولا بد من أن تكون الأرباح التي تجنيها قريش من قدوم العرب وتجارهم إليها، أو مرور قوافل التجارة الشرقية عبرها، كبيرة جداً، حتى تستطيع أن تُخرج في كل موسم خراجاً من أموالها لإطعام الحاج. وثمة أقوال في المصادر الإسلامية إن السقاية لم تقم في عهد قصي، بل في عهد حفيده منشئ الإيلاف، هاشم بن عبد مناف الذي يُقال إنه حفر بئر زمزم، أو في عهد عبد المطلب بن هاشم الذي قال ابن هشام إنه «أقام سقاية

(١) ابن عبد ربه: المقد المريد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٢، ج ٣، ص ٣١٥-٣١٧. وانظر يعضون: الإيلاف... ص ١١٠ و١١١.

(٢) يعضون، المرجع نفسه، ص ١٢.

زمرم للحجاج^(١). وليس من سبب للإحجام عن تصديق الرواية التي تنسب إلى منشاء الإيلاف حفر البئر. فالأمران منسجمان تفكيراً وغرضاً. وكانت البطون القرشية في مكة تحتفر آباراً لنفسها، فحفر أمية بن عبد شمس الحفّر، وحفر بنو أسد بئرهم سقيّة، وحفر بنو عبد الدار أمّ أحراد، وبنو جُمح السنبلة، وبنو سهم الغمّر، وكانت آبار أخرى. لكن الأمر الذي لا توفر المصادر الإسلامية أسباباً كافية للاشتباه فيه، هو أن تكون الرفاة قد أنشئت أيضاً في زمن نشوء الإيلاف أو بعده، لا أيام قصي. فهل كانت التجارة المحلية قادرة على إكساب قریش ما يكفي لتمكينها من إطعام الحجيج في المواسم؟ إن هذه مسألة قد يجيب عنها ما قاله المسعودي في مروج الذهب: «وكان عبد المطلب أول من أقام الرفاة والسقاية للحاج، وكان أول من سقى الماء بمكة عذباء»، وتخالفه مصادر أخرى، إذ يكفي ابن هشام بأن عبد المطلب بن هاشم «ولي... السقاية والرفاة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس، وأقام لقومه ما كان آبؤه يقيمون قبله»^(٢). وفي رأينا أن الرفاة والسقاية أنشئت سابقاً، لإطعام الحجيج فيما كانت تجارة مكة لا تزال محلّية، وكان حجيجها قليل العدد إذا ما قورن بما أضحي فيما بعد. وليس مستبعداً أن يكون إيلاف قریش قد زاد عدد الراغبين في حجّ مكة وزيارتها للتجارة، فازدادت بطبيعة الحال قدرة مكة على الإطعام والإسقاء.

ط - تجارة وتدين

لكن الإطعام والإسقاء لا يفسران كل حوافز العرب على حجّ مكة. ولو كان ذلك كافياً لاصطنعت مدنٌ أخرى سقاية ورفادة تصرف بها الحج إليها بدلاً من البيت الحرام. لقد كانت مكة قبلة العرب، وفيها أقيمت أسواقهم وإليها هوت أقتداتهم، فازدادوا حماسة لها مع تعاظم نفوذها وازدياد مكاسبهم معها، ولم يكن ارتباط التجارة بالتدين مما يُعَلِّب به العرب أو يُعيّيون. بل كانوا يؤمنون بأن الكسب نعمة من الله منذ أن نُفِد الماء فكادت هاجر وولدها إسماعيل يهلكانه

(١) سيرة ابن هشام: ج ٩، ص ١٥٨. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١٣١.

وذلك: Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 30.

(٢) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٥٤. وانظر سيرة ابن هشام: ج ٩، ص ١٥٣.

فانفجرت عين زمزم وأقامت عندها معه، تَرَدُّ عليهما القوافل في رحلاتها، فينالان من العيش ما يكفيهما. وفي سورة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، ما فيها من رجاء الازدهار المرهون بإقبال الناس على حج مكة^(١).

ويصعب أن نتصور أن عمرو بن لُحَيٍّ، الذي يُنسب إليه أنه أول من نصب الأصنام في الجزيرة العربية وجمعها في الحرم المكي^(٢)، إنما كانت تحفزه حوافز دينية فقط. ذلك أن زعيم قبيلة خزاعة هذا عمل لتنشيط الحج إلى الكعبة، بعدما كان أمر مكة قد تدهور، والحج إليها قلَّ، بسبب ما قال ابن هشام إنه بغني جرحهم واعتداؤها على القوافل والتجار والحجاج المارين بمكة أو الوافدين إليها للمتاجرة والحج. ويقول ابن كثير إن ابن لحي أخذ بقيم موائد الطعام في موسم الحج ويسر جلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة. وجلب الأصنام وأقامها حول الكعبة حتى يُرغب القبائل العربية، وبخاصة قبائل الشمال في الحج، فلفي استجابة وموافقة لفعله بين القبائل العربية البعيدة والقرية^(٣). وكان جمع أمري التجارة والتدين هو الذي ميز في الواقع مكة على ما سبقها من مدن عربية خاضت غمار تنظيم التجارة الدولية من قبل.

وقد نسب الجاحظ ميل قريش للتجارة واشتغالهم بها، إلى تحمسهم في دينهم، فقال في كتاب البلدان: «وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس

(١) الأزرقي: ص ٣٣ وما بعد. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٥٤ - ١٥٧. والطبري: التاريخ... ج ١، ص ٢٥٥ وما بعد. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ٩٧، ١٠٠.

(٢) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام: كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، المكتبة العربية، مطبوعة عن نسخة دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤. ص ٨، ١٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٢٥. وابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٧. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ١٠٢.

والتشدد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغنوب، فلما تركوا الغزو لم تَبَقْ مكسة سوى التجارة فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم وإلى النجاشي بالحشة وإلى المقوقس بمصر وصاروا باجمعهم تجاراً خلطاء^(١).

ولا شك في أن ثمة رابطاً منطقياً بين التجارة والتدين في هذه الحال، لكن إعادة ترتيب السبب والنتيجة أمر ضروري لإدراك الحوافز التي تحرك المسار التاريخي في بعض الأحيان. فمكة كانت تستطيع أن تتحمس وحدها للدين، وما كان هذا قادراً على جمع قبائل العرب عندها. وسمي عمرو بن لُحَيّ إلى جمع الأصنام في الكعبة بنم عن طموح تجاري وسياسي، أكثر مما بنم عن حماسة دينية. إن النجاح يستتبع الرغبة في استمرار النجاح. وقد أدرك المكيون أن التجارة تحتاج إلى الأمن، ولذا كان لا بد من صمام يضمن الأمن لهم ولتجارتهم، فكان لا مفر من مخاطبة كل بلفته. فالأصنام لعموم العرب الراغبين في رمز ومحجة ومثابة تستقطب انتماءهم وتشد قلوبهم إلى مستقر يجمعها. والتجارة لمن يفهمون لغة المال والكسب. ولم لا يرتهن واحدهما بالآخر؟ وما الذي يحول دون قدوم التاجر بتجارته فيبيع ويشتري ثم ينزع ثياب الإحلال ويلبس لبوس الإحرام، فيشكر لآلهته ما يظن أنها أكسبه في تجارته هذه. وقد يشتد إيمانه كلما أحس أن هذا التدين عاد عليه بالمنفعة. ولم يكن التدين سبباً للميل إلى التجارة إذن، ولكنه كان مرادفاً للربح، حتى ازداد الناس حماسة كلما ازدادوا ربحاً، تخوفاً من انتقاص أصنامهم عليهم، ورغبة في استمرار هذه النعمة. وكيف يمكن لقبائل العرب أن تنكر ما اعتقدت أنه فضل أصنامها عليها، وهي ترى خيرات التجارة القرشية تعم وتنماظم في كل موسم؟

ولم يكن تنظيم قريش لإيلافها وتجارتها ومواسم حجها، موضوعاً على نحو يخفف هذه الصلة الوثيقة بين التجارة والتدين في أذهان القبائل، حتى خاطب

(١) الجاحظ: كتاب البلدان، نشر صالح أحمد العلي، مستلة من مجلة كلية الآداب، مطبعة الحكومة ببغداد، ١٩٧٠، ص ٤٧٢. وكذلك حواد علي: ص ٧، ص ٢٨٧.

القرآن قريشاً بلغتها التي تفهمها، إذ دعاها إلى عبادة رب البيت لأنه أطعمها من جوع، حين أمكن لها أن تؤلف رحلة الشتاء والصيف. ونسأ الكنانيون أحلاف قريش الشهور في ختام موسم الحج، لا لسبب ديني معلوم، بل لأسباب نعتقد أنها تجارية على ما سنبين لاحقاً في الفصل الخامس. كذلك استخدمت قريش حرمتها الدينية لدى القبائل للمحالة دون الاعتداء على قوافلها، بوسائل شتى منها أن الرجل منهم كان يتقلد قلادة من لحاء شجرة من شحر الحرم، ثم يذهب حيث يشاء فيأمن بذلك، وإن أهل مكة كانوا يفعلون ذلك في تجارتهم، فيضعون القلائد في أعناقهم وفي أعناق بهائمهم، فلا يعرض لهم أحد بسوء، إذ كانوا يرون الوفاء بالميثاق عهداً في أعناقهم وديناً يلزمهم الوفاء في أحكامهم^(١). بل يعتقد سرجنت أن تسيير قريش قوافلها ما كان ممكناً لولا قداسة الحرم المكي وهيبة القبيلة التي كانت تقوم على مبادئه^(٢). ويرى مونتغمري وات أن نماء المركز التجاري في مكة كان مديناً لوجود الحرم حيث كان الناس لا يخشون اعتداء^(٣).

ثالثاً: التجارة والطرق

١- البضائع ومصادرها

قلما احتوت المصادر والمراجع على ثبت يجمع بضائع التجارة الشرقية ويصنفها ويعين مصادرها. ولذا يصعب على الباحث أن يهتدي إلى دليل في هذا الشأن، ويتمين عليه في كل مرة أن يجمع ما يريد من هنا وهناك، فلا يضمن أن يفوته إحصاء ما قد لا يجوز إغفاله. وسنحاول في التبت التالي جمع ما أمكن جمعه من المصادر والمراجع، في ترتيب أبجدي لا يحتوي قطعاً على كل ما كانت تنجر به مكة وإن كان يفني عن التفتيح بعض الشيء، في شأن أهم بضائع التجارة القرشية:

(١) مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٤٩. والطبري. التفسير، ج ٦، ص ٣٧ وما بعد. وحواد علي:

ج ٦، ص ٢٢٦.

(٢) Serjeant: Harem and Hawa..., p. 55 (٢)

(٣) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 3 (٣)

المادة	وجه استخدامها	مصدرها
الأبنوس الآدم	خشب نعين للآثاث الفاخر جلود للملابس وغيرها	الحبشة جزيرة العرب والشام والعراق والحبشة
الأدوات والأسلحة	أدوات معدنية وسيوف وملحقاتها	عدن والشام وعمان والبحرين حضرموت والحبشة وسيلان
البخور والعطور	أغراض دينية وتبرج	اليمن
البود	ملابس	جنوب الجزيرة العربية
البلسم	دواء	العراق وهجر والبحرين
التمر	طعام	الهند والجزيرة العربية والحبشة
التوابل	تحسين الطعام	جزيرة العرب
الجبين	طعام من حليب الإبل والمواشي	الشام
الحبوب	طعام	اليمن والبحرين وقارس وسيلان
الحجارة الكريمة	التبرج والتزيق	الهند والصين
الحرير	الحياكة والملابس	اليمن
الخطر	خضاب	الشام وغزة والحيرة وهجر
الخمور	مشروب	سقطرى
دم الأخوين	دواء وصباغ	الجزيرة العربية وإفريقية
الذهب والتبر	النقود والحلي والمعابد	الحبشة والشام
الرفيق والجواري	الاسترقاق والاستخدام	الحبشة وإفريقية عموماً
ريش النعام	الطنافس والتزيق	جزيرة العرب
الزبدة	طعام	جزيرة العرب والشام
الزبيب	طعام	الشام وقلسطين
الزجاج	الأواني والتزيق والعمارة	الهند
الزنجبيل	توابل لتحسين الطعام	الهند
الزيت	طعام وطقوس وصناعات مختلفة	الشام
السكر	طعام	الشام
الشنا أو القرفة	دواء	جزيرة العرب والصين وإفريقية
الصينية		

المادة	وجه استخدامها	مصدرها
السنبل	عطر ودواء	الهند
الصبر	دواء	سُطرى
الصمغ	صناعة	جزيرة العرب
الصندل	خشب نمين للمفروشات وغيرها	الهند
الطحين	طعام	الشام
العاج	الأواني والحلي والتزيين	إفريقية
العنبر	بخور وحجارة كريمة	فارس وسيلان والشحر
الغار	نبات طيب الرائحة	اليمن
الفضة	النقود والحلي والمعابد	اليمن وإفريقية
الفلفل	من التوابل	الهند وإفريقية واليمن
القرفة	من التوابل	جزيرة العرب وإفريقية
القرنفل	من التوابل	اليمن
القطن	الحياكة والملابس	مصر والشام
القماش	الملابس	الشام
الكافور	دواء	الهند وسيلان
الكُشت	بخور ودواء	كشمير - الهند
الكُنْدُر	دواء	اليمن
اللِّبان	أفخر أنواع البخور	سُطرى
الحر	دواء	اليمن وجزيرة العرب عموماً
المسك	من أشهر أنواع البخور والتوابل	فارس وسيلان
المقل	عطر ودواء	الهند وفارس وجزيرة العرب
الزُّورس	صبغ	اليمن ويُعالج فيه حجر
الْيَسْجُوج أو الكباء	بخور	الهند والصين وماليزيا ^(١)

(١) الأصفهاني: أسواق... ص ١٦٦ - ٣٢٩ ويصوّل: الحجار... ص ٦٩، ٧٠. والشريف:

وفي إمكاننا أن نصنّف هذه البضائع إلى أصناف تختلف في قيمتها ومكانتها من التجارة الدولية. فالتجارة المحليّة هاهنا، هي تلك التي لم يكن لجانب من جانبي الصراع البيزنطي - الفارسي احتكاراً ما في إنتاجها، كالطعام والملابس، ولذا كان أُنّجار قريش بها، في معظم الحالات على ما يبدو، للاستهلاك المحليّ، فلا يتعدى انتقال السلعة حدود بلاد الشام وجزيرة العرب، ابتداء بالمنتج وانتهاءً إلى المستهلك. وهذا يعني أن شراء الزيت في بلاد الشام وبيعه في جزيرة العرب، يُعدّ في هذا الإطار تجارةً محليّة، على الرغم من أن المنطقتين لم تكونا تحت حكم دولة واحدة. وأما التجارة الدولية فهي التي كانت في معظم الحالات موضع الصراع.

- التجارة المحليّة: هي تجارة كانت على الأرجح قائمة في أزمنة سبقت الإيلاف، لأن الحاجة في جزيرة العرب إلى التبادل التجاري داخل الجزيرة ومع بلاد الشام، كانت قائمة. غير أن هذه التجارة المحليّة ازدهرت، على ما يُفترض، مع ازدياد دخل القبائل من التجارة الدولية، فاشتد إقبالهم على شراء الطعام والملابس وغيرها كالزجاج والرقيق، وما إليها. وكانت القوافل تحمل

= المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٥٩، ٢٠٥، ٢٠٦. وحمّود: المرجع السابق، ص ١٥، ١٦، ٢٤، ٣٦، ٣٧. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٥٩، ٥٧، ٦٢، ٦٣. وجواد علي: ج ٤، ص ٢٢٤، وج ٧، ص ٣٠٧. وغيبون: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٠، ١١١. وكذلك Lammens, Henri: Les Grosses Fortunes à la Mècque au Siècle de l'Hégire. *Egypte Contemporaine*, VIII (1917), p. 25, Husein. The Early..., pp. 110, 111; Somogyi: The Part..., pp. 179, 180; Haji Hassan: The Arabian..., pp. 78, 79; Peters, F.E.: The Commerce of Mecca Before Islam, in: A Way Prepared, Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder, Edited by Farhad Kazemi and R D McChesney, New York University Press, New York and London, 1988, p. 7; Crone: Meccan Trade..., pp. 12, 13, 27, 33, 37, 54- 71, 98, 99; Rabbath, Edmond: Mahomet, Prophète arabe et fondateur d'État, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1981, p. 115; and Hourani, George Fadlo: Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Princeton University Press, 1951

التمر من العراق إلى جزيرة العرب، لكن تمر هَمَر والبحرين كان أفخر التمور، ولذا كان تداوله ضمن أسواق العرب في الجزيرة ضمن التجارات المحلية^(١). وكانت البدو تصنع الجبن والزبدة وتشتري بدلاً منها الحبوب والطحين والحبوب من الشام. ويقال إن عبد الرحمن بن عوف ارتاش واغتنى من هذه المبادلة، وهي مبادلة تقليدية قديمة العهد بين منتجات البداوة والرعي وبين المجتمع الزراعي المستقر^(٢). وكان مما تستورده القوافل من الشام ومنتجاتها الغذائية: الزيت والمكرو والزبيب^(٣). وكانت ضمن التجارة المحلية أيضاً تجارة النسيج والادم، وكانت البُرْد اليمنية مشهورة، وكان آل مخزوم القرشيون يفاخرون بإكساء الكعبة من القماش اليمني الفاخر الذي كان سبباً من أسباب ثرائهم العظيم^(٤). لكن القوافل كانت تحمل من الشام القطن والصوف تحيكاً أو مخططاً، ومن مصر الأقطان المختلفة. بل إن منسوجات الشام كانت تستخدم الحرير، فتحمله القوافل في طريق عودتها إلى جزيرة العرب^(٥). أما الادم فهو أهم ما كانت تصدره قریش من نتاجها الخاص. ويُعتقد أن هاشماً بن عبد مناف أنشأ الإيلاف مع ملك الروم في الشام من أجل الاتجار بالادم المكي. وكان الادم هو هدية عثمان بن الحويرث إلى القيصر حين سعى إلى تملكه على مكة، وهدية مشركي مكة حين سعوا لدى النجاشي إلى طرد المسلمين في الهجرة الأولى إلى الحبشة. وكان النبي نفسه وعُمر بن الخطاب وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف يتاجرون بالادم. وكانت الطائف مشهورة بدباغة الجلود، وفيها الأُهب الطائفية المعروفة،

(١) Husein: op.cit., p. 110. وحمور: المرجع السابق، ص ١٦، ٣٦.

(٢) Crone, op.cit., p. 98. وكذلك: Haji Hassan, op.cit., pp 78, 79. و Somogyi: op.cit.,

pp. 179, 180. ونظر أيضاً حمور: المرجع السابق، ص ١٦، ٢٤، ٣٧. ودرادكة: المرجع

السابق، ص ٦٢، ٦٣.

(٣) أضف إلى مراجع الهامش السابق درادكة: المرجع السابق، ص ٥٦. و Husein op.cit.

p. 110. وكذلك: Hourani, op.cit., p. 33. و Donner: Mecca's Food ... p. 254.

(٤) Lammen: Les Grosses..., p. 25. وكذلك: Haji Hassan op.cit., p. 79. وجواد علي: ج ٧،

ص ٣٠٧.

(٥) حمور: المرجع السابق، ص ٣٧. و Hourani op.cit., p. 29.

تُدبغ وتُلبّن ويُزال ما بها ثم تُصدّر^(١). لكن الجلود لم تكن تُصدّر فقط من جزيرة العرب، بل كانت تُستورد إليها أيضاً، من الحبشة والشام والعراق^(٢). ويُعتقد أن حياة البداوة المعتمدة اعتماداً كبيراً على الإبل والمواشي كانت تؤهل جزيرة العرب لصناعة جلود مزدهرة. غير أن الشعوب المحاورة، خصوصاً الحبشة والقطاعات الزراعية وشبه البدوية في الشام والعراق كانت هي أيضاً مؤهلة لمثل هذا. ولم تكن الجلود احتكراً في أي حال، وكانت تجارتها خارج إطار الصراع الدولي على تجارة الشرق بلا ريب.

- التجارة شبه الدولية: وهي تجارة كان يمكن لبضاعتها أن تكون جزءاً من التجارة الدولية، لأن مصدرها من خارج جزيرة العرب في معظم الحالات، وشاريها كذلك. لكن سبباً من الأسباب أخرجها من إطار الصراع بين بيزنطة والفرس على التجارة الشرقية. فالزجاج الشامي الذي كان يحمله التجار من الشام لم يكن يمكن أن يحدث نزاعاً لأن تجارته لم تكن على ما يبدو مطلوبة فيما يتعدى جزيرة العرب^(٣). وكانت بيزنطة قادرة على شراء الرقيق الحبشي وجواري الشام الذين كانت تجارة مكّة تنقلهم في الاتحامين شمالاً وجنوباً^(٤). ولم يكن الفرس في المقابل يفتقرون إلى الرقيق فكانوا يتخذونه من مصادره الآسيوية، ولذا كانت هذه التجارة أيضاً على ما يبدو غير مُتنازع عليها حقاً. وفي هذه الفئة تُدرج أيضاً الأدوات المعدنية والأسلحة، كالسيوف والتروس ورؤوس الحراش والرماح وما شابه، لأن هذه كانت تُصنع في اليمن والطائف^(٥)، وفي

(١) Crone, op.cit., pp 98,99. وحمّور: المرجع السابق، ص ٣٩. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وجواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧. وأيضاً Somogyi: op.cit., p 179.

(٢) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧. وحمّور: المرجع السابق، ص ١٦. و: Haji Hassan: op.cit., p. 78. و Hourani: op.cit., p. 30.

(٣) Huscini: op.cit., p. 110. وحمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٤) Lammens: op.cit., p. 25. و: Haji Hassan: op.cit., p. 79. و Somogyi: op.cit., p 179.

و درادكة: المرجع السابق ص ٦٣، والشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 30.

(٥) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٦. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وجواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧.

الشام أيضاً، ومنه قول الشاعر:

صَفَانِحُ بَصْرَى أَخْلَصَتْهَا قِيَرُهَا وَمُطَرِدًا مِنْ نَجْرٍ دَاوُدَ مُحْكَمًا^(١)

ويبدو ألا مفر من إدراج العاج والأبنوس^(٢) ضمن هذه الفئة، لسببين مهمين: أولهما أن كلا الدولتين الكبيرين كان قادراً على ضمان مصادره الخاصة من هاتين المادتين بعيداً عن الآخر. فالعاج الحبشي في متناول بيزنطة، والعاج الهندي لا يقربه إلا الفرس. والسبب الثاني هو أن المادتين ثقيلتان، ولو حملت منهما القوافل المكّية، فلن تحمل المقادير التي يحتمل أن تجعل تجارتها عبر الطريق البرية غرب جزيرة العرب مجزية وأساسية في التجارة الشرقية. وهذا يسوقنا إلى حديث البضاعة التي خُفّ حملها وغلا ثمنها، وهي سمة التجارة الدولية التي ازدهر بها الإيلاف ودار من حولها صراع الفرس والبيزنطيين على الخصوص.

- ب - الحرير والذهب والفضة

يصطلح البحّالة على أن صنوف التجارة الشرقية التي تنازع الشرق والغرب طويلاً للسيطرة على خطوطها تتضمن أربع فئات من البضاعة إجمالاً هي: البخور والأفاويه والفضة والحرير. وهذا صحيح عموماً، لكن هذا التصنيف هو بسيط في الواقع، لأن جميع هذه الفئات كانت تتضمن أشكالاً ولواناً من البضاعة، لا تختلف في جودتها وثمنها وقيمتها التجارية فقط، بل تختلف في مصادرها، وبالتالي في موقعها من الصراع السياسي والعسكري أيضاً.

- الحرير، الذي سبقت الإشارة إلى مكانته في سياسة بيزنطة، خصوصاً في عهد جوستينيانوس، يضعه غيرون ضمن بضائع التجارة الشرقية الفاخرة التي يصفها بأنها «ثافهة وعديمة النفع». ويقول غيرون إن الحرير كانت «لا تقل قيمة

(١) لسان العرب: مادة بصر، وانظر درادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وكذلك: Haji Hassan:

op.cit., p. 179 و Somogyi: op.cit., p. 79.

(٢) أضف إلى مراجع الهدش السابق الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧، و Crone: op.cit.

p. 78. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 30.

الرطل منه من قيمة رطل من الذهب»^(١). ولا شك في أن غيرون الذي حاول أن يستعير المقاييس والقيم الاستهلاكية التي كانت رائجة في عصره، لقياس عصر آخر، فاته أن ارتفاع ثمن الحرير في الزمان الغابر إنما كان يعبر عن شدة الطلب عليه وقلة وفرته في السوق الدولية. وهذا في ذاته ينفي عن تجارة الحرير صفة التناهم وعدم النفع التي أسبغها غيرون ببعض الغضب على التجارة الشرقية الفاخرة، مخالفاً على ما يبدو نظرة الأباطرة الرومان والبيزنطيين إليها، ابتداءً بترايانوس مروراً بجوستينيانوس. لقد كانت هذه التجارة، وفي صميمها الحرير وغيره، من العوامل الكبرى التي شكلت أحلام الإسكندر في توطئه إلى الشرق، هو وخلفائه الإغريق والرومان والبيزنطيين. كانت ملابس الحرير أفخر الملابس. ولم يهتد الغرب إلى وسيلة استخدام خيط الحرير، ولا اهتدى إلى تربية شرنقته قبل القرن السادس الميلادي، على ما أسلفنا. ولم تُجد تربية الشرنقة في الغرب البيزنطي على الفور، لأن الإنتاج لم يكن كافياً على الإطلاق. ولا شك في أن الخبرة أيضاً كانت تجعل الحرير الشرقي أجود من الأصناف المصنوعة في المزارع البيزنطية الحديثة العهد. وكان الحرير كله قبل ذلك يأتي من الهند^(٢) أو الصين^(٣) أو سيلان^(٤). ولم يكن ثمة مصادر أخرى للحرير، وإن كانت الشام تحيك بعض الأقمشة الحريرية^(٥). ولذلك كان الحرير باهظ الثمن، وتجارته إلى الغرب معظمها في يد الفرس أو العرب، ولم يسقط يوماً من حساب الصراع الدولي على طرق التجارة الشرقية قبل الإسلام، بل كان عنصراً مهماً من عناصر هذا الصراع.

وكان الذهب والفضة والأحجار الكريمة من البضاعة الفاخرة التي نقلتها

(١) غيرون: المصدر السابق، ج ١، ص ١١١. وسنرى يعضون تجارة الحرير والتوابل والبخور تجارة واستراتيجية. بيرون: الحجاز... ص ٥٤.

(٢) Hauram: op.cit., p. 29. وكذلك: Crone: op.cit., p. 81.

(٣) Hajj Hassan: op.cit., p. 79. وكذلك: Somogyi: op.cit., p. 179.

(٤) Husein: op.cit., p. 111.

(٥) حنور: المرجع السابق، ص ٣٧.

قوافل قريش إلى أسواق الغرب على الخصوص، وإن كان هذا النوع من البضاعة مطلوباً في كل مكان. ولنا نملك دليلاً على أن العرض في أسواق الشرق، أي الهند والحبشة وفارس واليمن، كان يفوق العرض في أسواق الغرب البيزنطي فيما يخص الذهب والفضة، لكن مصدر الأحجار الكريمة المحصور تقريباً في أسواق الشرق وحدها كالبحرين واليمن وفارس والهند وسيلان، ووفرة إنتاج الذهب والفضة في جزيرة العرب وإفريقية والهند، يبيحان لنا الاعتقاد أن معظم هذا الصنف من التجارة كان تجارة استيراد في الغرب وتصدير في الشرق. وكان الهميتيون يصدرون مثلاً نوعاً ثميناً من الحجارة الكريمة يدعى البقران، والنوع المثلث منه كان ثميناً جداً، وهو ذو وجه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود^(١). وذكر الأصمعي وغيره أن اليمن كانت كذلك تصدر العقيق من ضمن الحجارة الكريمة^(٢). وأما البحرين فكانت شهيرة باللؤلؤ، وكان جزءاً ثميناً من تجارة الشرق^(٣). لكن الحجارة الكريمة والجواهر كانت تَرد من بلاد فارس والهند وسيلان أيضاً^(٤).

وكان الذهب والتبر يأتان من الحبشة وإفريقية عموماً^(٥)، وكان التبر، وهو تراب يُستخلص منه الذهب، بضاعة حبشية في الغالب. لكن جزيرة العرب كانت ضمن المناطق المنتجة للذهب والتبر هي أيضاً^(٦)، وقيل إن عسير أمدت الملك صليمان بالذهب فيما غبر من الزمان^(٧). وكانت في اليمن مناجم يُستخرج

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) حمّور: المرجع ذاته، ص ٣٦. والشريف: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٣) الشريف: المرجع ذاته، ص ٢٠٦.

(٤) Hourani: op.cit., p. 29. وغيره: المرجع السابق، ص ١١١. وهاذكة، المرجع السابق.

ص ٦٣. وكذلك: Hourani: op.cit., p. 29.

(٥) Somogyi: op.cit., p. 179. Haji Hassan, op.cit., p. 78. Crone: op.cit., p. 78.

المرجع السابق، ص ٢٤.

(٦) Diodorus: vol. II, p. 49. وانظر أيضاً Husein: op.cit., p. 110. وجواد علي: ج ٧،

ص ٣٠٧.

(٧) Crone: op.cit., p. 78.

منها الذهب^(١).

وتذكر المصادر العربية الفضة على أنها أعظم تجارة قريش في السنوات الأولى للهجرة قبل فتح مكة^(٢). وكانت أهم مصادر هذا المعدن اليمن وإفريقية^(٣).

ج - اللبان والقرصة التاريخية

يُعَدُّ اللبان أخطر عناصر التجارة الشرقية أثراً في مهجة الوساطة العربية التي اضطلعت بها قوافل العرب الصحراوية عبر العصور وذلك لسببين أساسيين:

الأول، هو أن اللبان كان أفضل أنواع البخور على الإطلاق وأغلاها ثمناً، وأفضل اللبان هو ما تنتجه منطقة ظفار في وسط الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية، وهو يفوق اللبان الهندي والصومالي جودةً وكميةً^(٤). ولشدة الطلب على هذه المادة التي كانت تستخدم في المواسم الدينية وحرق الموتى وتعطير البيوت والتبرج منذ أزمنة وأغلة في القدم، ولاحتكار جنوب الجزيرة العربية إنتاج أفضل أنواعها، استطاعت القبائل العربية على مرّ العصور أن تتمرس في تجارة القوافل الصحراوية وتجهز نفسها بما يلزم لهذه التجارة من وسائل نقل وخبرة بشرية. فطريق القوافل هي أقصر الطرق مسافة لنقل اللبان من ظفار وجوارها إلى بلاد الشام ومصر. وفي إمكاننا إذن القول إن تجارة اللبان على الخصوص كانت عاملاً أساسياً في حماية القوافل الصحراوية من الاندثار، لأن هذه التجارة ظلت مجدية على الدوام، وظلّت طريق القوافل عبر الصحراء أفضل طرقها إلى الأسواق وأقصرها مسافة.

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ٢٢٤.

(٣) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤. و Haji Hassan op.cit., p. 78.

(٤) يصرّح بليني بوضوح أن اللبان العربي كان للتصدير. Pliny: Natural History, vol.II, p. 455.

وانظر Abercrombie, Thomas J.: Arabia's Frankincense Trail, National Geographic, vol. 168, No. 4, October 1985, pp. 482, 484. وذهب هيرودوتس إلى أن جزيرة العرب وحدها تنتج

اللبان. Herodotus. The Histories, p. 219. وارتأى ميلر أن أفضل اللبان هو الحضرمي

والقطري Miller, p. 103.

الثاني، هو أن الحروب والتبذلات السياسية لم تستطع أن تغير الوضع الجغرافي في تجارة اللبان. كان يمكن للسلام أن يفتح طريق التجارة الشرقية عبر القرات للبضائع الآتية من الهند، وكان يمكن للحرب أن تقفل هذه الطريق، فتحول التجارة الشرقية إلى طريق البحر الأحمر أو طريق القوافل الصحراوية. وكان يمكن للحروب الحميرية الحبشية أن تعرقل النقل عبر البحر الأحمر. أما اللبان فإن مصدره الأول في جنوب جزيرة العرب، جعل طريق القوافل الصحراوية شبه إلزامية لنقل هذا الجزء المهم من بضاعة التجارة الشرقية، حتى إذا ما اضطربت طرق التجارة الأخرى بسبب الحرب الساسانية البيزنطية، أو بسبب الحروب أو حملات النقل البحري عبر البحر الأحمر في القرن السادس، على ما سنبين، كانت طريق القوافل الصحراوية جاهزة، بفضل اللبان، لا لنقل هذا التاج الثمين فقط، بل لنقل البضائع الأخرى الآتية من الهند والصين وإفريقية بعد تحويلها عن الطرق الأخرى. ولعل في هذا جواباً عن السؤال الذي حير بعض الباحثين: ما الذي أهل طريق القوافل الصحراوية للقيام بهذه المهمة الخطيرة في التجارة الدولية؟ لقد كان اللبان هو البضاعة التي مؤلت القوافل وأبقت على طريق الصحراء قيد العمل، حين كانت الطرق الأخرى ناشطة في نقل البضائع الأخرى. فتمرت القبايل التي توالى على تنظيم القوافل في هذه المهنة وهذه الطريق، حتى إذا ما أهل القرن السادس وتمطلت طرق التجارة الشرقية عبر القرات والبحر الأحمر للأسباب التي سلف ذكرها في الفصل الثالث أعلاه، استطاعت طريق القوافل الصحراوية أن تتطور وتنمو وتقوم بمهمة الشريان الأكبر لهذه التجارة، خصوصاً عندما استطاعت قيادة مكة في الوقت المناسب أن تلحظ اشتداد الطلب على وساطتها، فتتهد الفرصة التاريخية وتعتد الاتفاقات اللازمة، لتطوير الأدوات المتوافرة لديها، من مهمة نقل التجارة المحلية، أو من مهمة نقل جزء محصور من التجارة الدولية إلى مهمة الاضطلاع بجزء كبير، وربما بالجزء الأكبر من هذه التجارة الدولية. والمرجح أن طريق القوافل ما كان مقدراً لها أن تتمكن من انتظار الفرصة التاريخية، لولا اللبان وموقع إنتاجه الأول وغلاء أسعاره في الأسواق.

لقد استخدم قدامى المصريين وعطر الآلهة لمراسم عبادتهم ولصنع الطيوب منذ آلاف السنين. وأول ما ذُكر اللبان فيما بقي لنا من آثار، كتابة على قبر الملكة حتشبسوت عمرها يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، إذ أرسلت بعثة لإحضار اللبان من أرض البُط (لعلها الصومال). وفي نحو سنة ٤٥٠ قبل المسيح ذكر هيرودوتس الطيوب العربية وقال «إن بلاد العرب كلها تضرع بهذه الطيوب ذات الرائحة الزكية». وكان الرومان يستخدمون اللبان لإحراقه مع جثث موتاهم، لتغليب الرائحة الزكية. وقيل إن نيرون أحرق نتاج سنة كاملة من اللبان العربي في جنازة خليلته بوبية (Poppaea). بل إن بعض المدن القديمة كانت تستخدم اللبان لتطيب رائحة شوارعها^(١).

وشجر اللبان على أنواع. وهو صغير ويؤثر في أيلول/ سبتمبر من كل سنة، لكن استخلاص اللبان ممكن في كل فصول السنة تقريباً، إذ يُكسَط اللحاء بآلة حادة فيسَل سائل أبيض كالحليب قطعاً صغيرة. ويؤمى النتاج الأول، ويعد أسابيع يؤمى النتاج الثاني، ولا يُعد لباناً جيداً إلا ما يُجمع في المرة الثالثة. وقلة النتاج وجودته وشدة الطلب جعلت سعر اللبان يرتفع، حتى قال بليني الأكبر «إن أقصى إجراءات اليقظة لم تكن كافية» لمنع السرقات في مشاغل تصنيع اللبان في الإسكندرية، «ولم يكن يُسمح للعمال بالمغادرة قبل أن يخلعوا جميع ملابسهم»^(٢). وقدّر النتاج السنوي الذي كان يُصدّر إلى رومة واليونان في القرن الميلادي الثاني، الذي سبق اندثار الديانة الرومانية وحلول المسيحية مكانها، بنحو ثلاثة آلاف طن^(٣). وعلى الرغم من أن كرون تعتقد بأن سوق اللبان كسدت بعد اعتماد المسيحية ديناً رسمياً للدولة أيام قسطنطين سنة ٣٣٠ م، إلا

(١) في شأن نقل اللبان الحضرمي بالقوافل عبر الصحراء انظر Periplus p. 32. أما قول هيرودوتس المذكور فتحده في Herodotus: The Histories, p. 221. وانظر أيضاً: Abercrombie: ibid.,

pp. 483 - 488.

(٢) Abercrombie: ibid., p. 484.

(٣) تحدث سترابو عن اللبان في جنوبي جزيرة العرب، Strabo: The Geography, p. 311. وانظر

Abercrombie: ibid., pp. 484, 487.

أنها تنفُض هذا الاعتقاد بقولها إن المسيحيين الذين كرهوا أولاً استخدام البخور واعتنوه من مراسم العبادات الوثنية، عادوا فيما بعد واستخدموا البخور لأغراض مختلفة، حتى أصبح هذا جزءاً من مراسم الدين المسيحي في القرن الخامس ثم السادس. ولذا تقول كرون إن استهلاك البخور كان مؤهلاً للازدياد في عصر ازدهار التجارة القرشية، لكن هذا الازدياد لم يحدث، لأن مقدار البخور الذي أحرق لدى موت جستنيانوس ولم يزد إلا قليلاً عل الإنتاج السنوي من اللبان العربي^(١). وتوحي حجة كرون هذه أن إنتاج العرب من اللبان كان يحتاج إلى موت إمبراطور بيزنطي كل سنة لضمان تصريفه. والحجة تُغفل طبعاً استخدام اللبان في ألوف الكنائس والمعابد في طول الإمبراطورية البيزنطية وعرضها، وتغفل كذلك أي استخدام آخر للبان في أغراض الطيب والتبرج. واستخدام اللبان في الأغراض الطبية لم يتأثر قطعاً بأي تحوّل ديني. وفي رأي أن مجرد القول إن كل التاج العربي السنوي من اللبان قد استُهلك في احتفال واحد، هو جناية الإمبراطور، دليل على ندرة اللبان وشدة الإقبال عليه في ذلك الزمن، وليس دليلاً على العكس.

د- الطيوب والتوابل

لم يكن اللبان هو البضاعة الوحيدة المهمة في تجارة الطيوب والبخور العربية، إذ كانت ثمة أنواع أخرى من الطيوب، مثل الحُقل، وهو مادة صمغية معطرة، تتجها الجزيرة العربية والهند وبلاد فارس أيضاً، والسنبُل الهندي الذي يُصنع منه زيت مُطيب. والكُشت أو القُشت وهو عُشبة كشميرية زكية الرائحة، واليَنْجُوج أو العود الهندي ويسمى الكباء أيضاً وهو معطر للنفم ويُذخن به ويُحرق بخوراً، والعنبر الفارسي والسيلاني وهو معروف، وكذلك الصلْك، والغار اليمني الطيب الرائحة، والصندل وهو خشب هندي رائحته زكية أيضاً. ومن طيوب تجارة الشرق أيضاً الكَمْكَم وهو سائل يُستخلص من لحاء شجرة في الجزيرة العربية، والضُرو أو الضُرو، واللادن أو اللاذن، والآخران عطران من نتاج جنوب

(١) Crone: op.cit., p. 27. وقارن: Peters: op.cit., p. 7.

الجزيرة العربية، والإدخير أو الخَمْض وهو عطر نباته يكثر في مكة وجوارها،
والوَج وهو نباتٌ عطر الجذور، والبَلَّان وهو نبات يُستخلص منه عطر ثمين،
ومنه نوع في الجزيرة العربية يُسمى البَشام^(١).

ودرجت في تجارة الشرق أيضاً المواد الطيبة، وكان كثير منها غالي الثمن
خفيف الوزن.

وكان المُرّ أهم هذه المواد الطيبة، وهو من نتاج جزيرة العرب. وقد ذُكر
ضمن الهدايا التي حملها الملوك المجوس إلى السيد المسيح في مهده، وكانت
تُعطّر به مومياوات الفراعنة ويُصنع منه الزيت المقدس عند اليهود. وقد استُخدم
المُرّ أيضاً دواءً، ويُقال إنه كان يُعطى للنساء على الخصوص لتنظيم دورتهن.
وشجرته تنبت في جزيرة العرب والصومال والهند. ومنها أنواع. وبعض أنواعها يُنتج
في الهند المُقَلّ الذي أنف ذكره. وعلى الرغم من أن جزيرة العرب لم تحتكر
إنتاج أفضل المُرّ، إلا أن هذه المادة كانت تُعدّ أهم ما تنتجه الجزيرة العربية بعد
البَلَّان في تجارة الشرق^(٢). ولم يكن المُرّ دواءً فقط بل كان يُستخدم أيضاً
بخوراً. ومن الأدوية الأخرى التي كانت تنقلها تجارة الشرق الصَّبْر وهو من جزيرة
سُقطرى المجاورة لرأس الصومال^(٣)، والسنا أو القرفة الصينية وهي دواء ينبت
رغم اسمه في الجزيرة العربية والصومال^(٤)، والكُنْث الذي أنف ذكره مع
الطُيوب، وهو دواء أيضاً^(٥)، والكُنْدُر اليمني وهو صمغ شجرة شائكة ورقها

(١) Crone: *ibid.*, pp. 12, 54 - 75, 98 و Lammens: *op cit*, p. 25. و Hasein: *op.cit.*, p. 110.

وكذلك: دراذكة: المرجع السابق، ص ٥٦، ٦٣. وحمّور: المرجع السابق، ص ٢٤، ٣٦.

والشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧، ٢٠٦. وغيون: المرجع السابق، ص ١١١.

والأفغاني: أسواق... ص ٢١٤، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٣.

(٢) Abercrombie: *op.cit.*, pp. 483, 486. وكذلك: Crone: *op.cit.*, p. 13, 67. وحمّور: المرجع

السابق ص ٢٤.

(٣) Crone: *op.cit.*, p. 59.

(٤) Crone: *ibid.*, pp 37, 66.

(٥) Crone: *ibid.*, p. 73.

كالأس، ويُعلِّك الكُنْثُر وهو نافع جداً لقطع البلغم^(١)، والبلسم وهو نبات طيب اشتهرت به اليمن أيضاً وأصبح اسمه اسماً لكل دواء من شدة انتشاره على ما يبدو^(٢).

واحتوت هذه التجارة موادَّ أخرى غير الطيوب والأدوية، كالتوابل والأصبغ وغيرها. وكان معظم التوابل يأتي من الهند^(٣). لكن الجزيرة العربية^(٤) والحبشة^(٥) كانت أيضاً تُنتج بعض الأنواع. وكان أهم التوابل وأشهرها على الإطلاق الفلفل الهندي الذي كان يُستخدم في رومة بكثرة لتطيب الطعام^(٦). وكان من التوابل المطلوبة الكافور، ومصدره البلاد الآسيوية^(٧)، والزنجبيل وهو من الهند^(٨)، والقرنفل اليمني^(٩) والقرقة العربية والإفريقية^(١٠).

ومن الموادَّ الأخرى لا بد من ذكر ريش النعام الحبشي الذي كان يُستخدم في تزويق المنازل وملء الطنافس^(١١)، والصمغ العربي^(١٢)، والورس وهو صباغ كفي أصفر اللون، يُستخرج من نبات يشبه السم، ويُتخذ منه الزعفران^(١٣).

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٦.

(٢) حمّور: المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٣) Ham: Hassan: op.cit., pp. 78, 79. و Somogyi op.cit., p. 179. وحمّور: المرجع السابق،

ص ٢٤.

(٤) Husein: op.cit., p. 110. وأيضاً Ham: Hassan: op.cit., p. 78, 79.

(٥) الشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٦) Crone: op.cit., p. 77. وكذلك Hourani: op.cit., p. 78, 79. و Ham: Hassan: op.cit., p. 78, 79.

(٧) Husein: op.cit., p. 110.

(٨) Crone: op.cit., p. 76.

(٩) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(١٠) Hourani: op.cit., p. 30. و Crone: op.cit., p. 37. وحمّور: المرجع السابق، ص ٢٤.

(١١) حمّور: المرجع السابق، ص ٢٤. والشريف: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(١٢) جواد علي: ج ٧، ص ٣٠٧.

(١٣) حمّور: المرجع السابق، ص ٣٦.

ودم الأخوين وهو دواء وصباغ أحمر من سقطرى^(١)، والخطر وهو خضاب يعني^(٢).

ويلاحظ من هذا الاستعراض لبضاعة التجارة الشرقية أن نسبة كبيرة من التوابل والأدوية والأخضبة كان مصدرها جزيرة العرب. وأهم المواد ولا شك كان عربي المصدر: اللبان يليه المر، ثم الفلفل (وجله من الهند). وهذا الأمر يعزز المهمة التي أداها اللبان في تنشيط طريق القوافل العربية، وفي تمريس القبائل في تجارة الشرق والقيام بجزء كبير منها. وأما في شأن البضائع التي كانت جزيرة العرب تشترك مع الهند والصومال والحبشة في إنتاجها، فإن قرب موقع جزيرة العرب من الأسواق البيزنطية وقصر الطرق منها إليها، بالمقارنة مع طرق الهند والحبشة إلى هذه الأسواق، واضطراب الأحوال على الطرق من الهند والحبشة في القرن السادس على الخصوص، بالمقارنة مع السلام الذي عمّ القبائل العربية وطريق قوافلها بفضل إيلاف قريش، واشتراك معظم القبائل في التجارة القرشية، قد رُوّجت للنتائج العربية وسهّلت تصريفه قبل نظيره الأتي من بلاد أخرى. وهذه العوامل، إذا ما أُضيفت إلى العوامل التي أضرت بالطرق البحرية، لا بدّ وأنها ضخّمت تجارة القوافل العربية وزادت حصتها من تجارة الشرق، وحسّنت أرباح القبائل العربية وزادت ثقتها بمشروعها المشترك.

هـ - رحلة الشتاء والصيف

جاء في القرآن: ﴿إِلَّا بِلَافٍ قُرَيْشٍ * إِيْلَانِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (قريش: ٢ و ١). والقرآن الكريم هو النص الذي لا شك في صحته التاريخية، ولذا فهو المصدر الأول لتأكيد رحلة الشتاء والصيف. وفوق هذا يقارع المشركين بحجّتهم ومنطقهم، ولو كان المشركون يعرفون خلاف ما جاء في السورة لما امتنعوا عن استخدام ذلك حجّة على المسلمين. وهذا لم يحدث. واستناداً إلى هذا، فليس من شك أن قريشاً سيّرت على الأقل رحلة في الشتاء ورحلة في

(١) Origene: op.cit., p. 60 (١)

(٢) حمور: المرجع السابق، ص ٣٦.

الصيف، فأجلهما القرآن الكريم بصيغة المفرد، ليُظهر فضل الله في تمكين تجار مكة من تسيير الرحلتين معاً. ذلك أن الرحلتين معاً كانتا تعنيان أن مكة وسعت تجارتها وانتقلت من مرحلة التجارة المحلية التي كانت قائمة على أية حال منذ أزمنة غير معروفة، إلى مرحلة التجارة الدولية التي كانت تتطلب ربط السوقيين: سوق المحيط الهندي وسوق البحر المتوسط، بـشُرَيان القوافل الصحراوية. وتوضح سورة قريش، إذا دققنا النظر فيها، بعض أبعاد رحلة الشتاء والصيف ومقتضياتها. إذ يرمي القرآن إيلاف الإيلاف الرحلة بإطعام الله قريشاً من جوع وإيمانه إياهم من خوف. ويؤكد هذا أن قريشاً حين عقدوا الموائيق لتسيير القوافل إلى الشام وغيرها، اتسعت تجارتهم وازداد دخلهم وتحسن مكسبهم. ويؤكد كذلك أن هذه الموائيق ضمنت لقريش السلام بين القبائل وأمان الطريق. وبدا يرسم الخط الفاصل القاطع بين ما كان قبل الإيلاف من تجارة محلية لا تخرج إلى أطراف جزيرة العربية جميعاً، ولا تتعدى مواسم الأصنام القبلية، ولا تزيد على بعض المبادلات ضمن نطاق الاستهلاك المحلي، وبين ما صار، بالإيلاف ومن بعده، من تسيير الرحلتين ونقل التجارة الدولية واتخاذ الأمان من القبائل لإجازة مرورها، وما نتج من ذلك من خيرٍ نعمت به قريش والقبائل معاً. كان الإيلاف هو هذا الخط الفاصل.

لكن التجارة التي سبقت الإيلاف لم تكن كلها محلية في جزيرة العرب. وقد سبق القول إن تجارة اللبان ظلت قائمة من ظفار وغيرها، وكان سوقها خارجياً في معظمه. فلماذا تُرهن الرحلتان بالإيلاف وحده؟ ألم تكن هناك رحلتان لتجارة اللبان التي سبقت الإيلاف؟ وكيف كانت قوافل اللبان تنقل بضاعتها من غير رحلتين إحداهما إلى اليمن في الشتاء والثانية إلى الشام في الصيف؟ إن لهذا جواباً أبسط مما يتوقعه المرء. فاللبان كان يُجمع في كل فصول السنة تقريباً، ولم يكن جمعه وخزنه ونقله مرهوناً بموسم ما في السنة الشمسية^(١). وكانت تجارة اللبان على الدوام في يد الدولة المسيطرة على شرق اليمن، من أيام معين وسبأ وحمير ثم الأحباش والفرس. ولذا لم يكن أسلوب

نقل اللبان هو أسلوب تأليف القبائل العربية وإشراكها في التجارة، على ما اتبعته قريش في إيلافها، بل كان أسلوب الدولة الذي اتبعته بيزنطة وغيرها من جفارة واستتجار مقاتلين بدو واستصناع أحلاف من العرب على طريق القافلة، لردع القبائل عن غزو القوافل.

وتكاد المصادر العربية تُجمع على أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن، ورحلة الصيف كانت إلى الشام. وجاء في طبقات ابن سعد^(١) أن رحلة الصيف كانت إلى بلاد الشام، وتتجه إلى غزة، وقال باحثون إنها وصلت حتى إلى أنقرة^(٢). ويدل ذهاب القافلة إلى غزة على أن جزءاً مهماً من البضاعة على الأقل كان معداً للتصدير بحراً إلى رومة وبيزنطة، وربما صُدر بعضها براً من غزة إلى مصر. وفي «أنساب» البلاذري^(٣) إشارة مهمة إلى أن رحلة الشتاء كانت إلى اليمن والحبشة والعراق معاً، ورحلة الصيف إلى الشام وحدها. وليس في إمكاننا استنتاج الكثير من جمع اليمن والحبشة في رحلة واحدة، إذ قد يؤخذ الأمر على أنه جمعٌ لبلدين قريبين في رحلة واحدة، توفيراً للوقت والجهد. لكن إجمال العراق في رحلة الشتاء قد يوحي بنظرة مختلفة إلى هذا الأمر، وإن كان الحر في الصيف والبرد في الشتاء قد يفسران اتجاه الرحلتين وموعدهما. فبيان البضاعة التي كانت تنقلها التجارة الشرقية، يبيح لنا القول إن تجارة الشرق كانت في الإجمال تجارة استيراد لبيزنطة. أما البضاعة التي كانت تشتريها قوافل قريش من الشام وفلسطين ومصر، فمعظمها استهلاك في تحتاج إليه القبائل والمجتمعات في جزيرة العرب، ولا يُنقل إلى الهند أو الحبشة أو بلاد فارس، إلا القليل اليسير منه. ولذا غلبت عليها سمة التجارة شبه المحلية التي لم يداخلها صراع بين الشرق والغرب. ويلاحظ كذلك أن البضاعة التي كانت سبب الصراع على الخصوص، وهي اللبان والتوابل والفضة والحرير، إنما كان مصدرها ما نصلح على تسميته الشرق، وسوقها ما أجملناه بلفظة الغرب. وتشترك الحبشة واليمن

(١) الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) درادكة: المرجع السابق، ص ٦٣. وأيضاً Hamidullah: Al-Īlāf..., p. 300.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، ص ٥٩.

والعراق في أمرين معاً: أنها مقصد رحلة الشتاء القرشية، حسبما يقول البلاذري، وأنها تنتمي إلى البلاد المنتجة لبضاعة الشرق. وهذا قد يعني أن رحلة الشتاء كانت تجمع تجارة الشرق الدولية من البلاد الثلاثة. لتُصرفها رحلة الصيف في مصرفها الأكبر: السوق البيزنطية. واستطراداً لهذا الاحتمال، فإن جمع اليمن والحبشة في رحلة واحدة هي رحلة الشتاء، ليس سببه بالضرورة قرب البلدين أحدهما من الآخر، بل تشابه غرض الرحلة إلى البلدين، وهو استيراد بضاعة الشرق. ونستطيع أن نفترض إذن أن القافلة الطاعنة لإحضار تجارة اليمن، لم يكن ضرورياً أن تكون هي ذاتها القافلة التي كانت تُحضر تجارة الحبشة. وهذا أمر قد تؤكدُه الأخبار النادرة عن ميناء الشعبة^(١) الذي كانت تستخدمه مكة لاستقبال سفن النقل الآتية من الحبشة. وليس منطقياً أن تُذكر رحلة الشتاء إلى الحبشة على حدة، إذا كانت رحلة الشتاء إلى اليمن هي التي تُحضر تجارة اليمن والحبشة معاً. ذلك أن ذكر الحبشة عندئذ كان يفترض أيضاً ذكر الهند وسيلان. ولذا نرجح أمرين: الأول هو أن الرحلة الشتائية لإحضار تجارة الحبشة كانت مستقلة عن رحلة اليمن، وإن كانتا قد أُجملتا معاً في المصادر باسم رحلة الشتاء، والثاني هو أن طريق الرحلة إلى الحبشة كانت طريقاً مختلفة عن الطريق إلى اليمن. وبذلك تكون رحلة اليمن هي القافلة التي تعود بتجارة اليمن ونتاج الهند وسيلان وغيرهما، مما تأتي به السفن إلى اليمن.

وإذا استقر الرأي على أن رحلة الشتاء تغلب عليها سمة استيراد البضاعة الشرقية، فإن هذا قد يؤثر في المعالجة اللاحقة لموعد رحلة الشتاء، لأن هذا الموعد لا بد عندئذ، من أن يرنهن بمواعيد وصول السفن من الهند وسيلان.

٥- مكة تاجر

انتقلت قريش في مكة من الاقتصاد البدوي الرعوي إلى الاقتصاد التجاري حسبما يقول مونتغمري وات^(٢). لكن الانطباع الذي توحى كتابات عدد من الباحثين،

(١) Flaji Hassan: op cit., p. 80

(٢) Robinson, op cit, p. 35 وكذلك Montgomery-Watt: Economic and Social..., p. 81

هو أن هذا الانتقال كان قريباً من ظهور الإسلام أو ملازماً لنشوء الإيلاف في أوائل القرن السادس. وفي اعتقادي أن الانتقال كان سابقاً لذلك. فإقامة الأسواق المحلية في مواسم الحج قديمة العهد. وإذا كان يحق الاشتباه في أن قريشاً كانت تجاراً قبل استقرارها في مكة، فإن موعد انتقالها من البداوة الرعوية إلى الاستقرار التجاري يصبح قريباً من بداية القرن الخامس على الأقل، زمن قصي بن كلاب حسب تقديرنا السابق. واشتغال مكة في التجارة قبل استيلائها على مكة معقول ومحمّل، لا لأن التجارة المحلية كانت ناشطة في الجزيرة العربية فقط، بل لأن تجارة اللّبان المزدهرة منذ عصور غائرة كانت أيضاً تستخدم القبائل في تسيير القوافل المحمّلة بالبضاعة الثمينة. واكتشاف النقش السبئي المعروف باسم نقش العقلة، الذي ذكر قريشاً ضمن وفود كانت في اليمن في أواخر القرن الميلادي الثالث^(١)، يُعزّز الاشتباه في أن قريشاً كانت حتى من القبائل التي عملت على تسيير قوافل اللّبان لحساب السبئيين والحميريين فيما بعد. وقد لا يكون استيلائها على مكة مجرد غزوة بدوية غير محسوبة، خصوصاً إذا نظر إلى هذا الاستيلاء ضمن إطار الصراع الذي كان شديداً في أوائل القرن الخامس في اليمن حين استولى اليهود الحميريون على الحكم وطردوا الأحباش. وقد سبقت الإشارة إلى «قيصر» ومعاونته قُصياً. كانت قريش على ما يبدو إذن، متمرسة في التجارة منذ زمن أبعد من المُعتَقَد. فلما استقرت في مكة في مطلع القرن الخامس على الأرجح، لم تكن تفتقر إلى الخبرة في تنظيم القوافل، وإن كان تنظيم القوافل لا يعني بالضرورة تسيير التجارة الدولية. فقد يكون عمل القوافل محصوراً في التجارة المحليّة والانتقال من سوق إلى سوق للبيع والشراء. ويمكن أن تكون قريش قد عملت بواسطة قوافلها، في نطاق التجارة المحلية، وربما شاركت كذلك في نقل اللّبان اليمني إلى الأسواق البيزنطية وحتى الفارسية، قبل أن يعقد القرشيون عهد الإيلاف في أوائل القرن السادس

(١) Crone: op.cit., p. 169. وقد استشهد جاك ريكمنس أن يكون أحد الوفود المذكورة هروقد

قريش، رغم وجود وفد ندمري. وتدمر مدينة عربية تجارية أخرى، ولذا فالشبهة بالحضور القرشي تتعزّز.

ويوسّعوا نشاطهم التجاري ليشمل حصة كبيرة من تجارة الشرق الدولية كلها.

كان تنظيم القوافل في موافقتها المعلومة يحدث حُصَى في الجمهور المتجمّع في ساحات مكة وجوارها. وكانت قافلة البضاعة تُدعى طليمة، وقافلة الأطلعمة تُدعى ركاباً. وأما رحيلها وعودتها فكانا حدثين يهتم لهما الناس، لأن قُطّان مكة كانوا جميعاً منخرطين على نحوٍ أو آخر بتجارة القوافل. بل إن القافلة كانت تظل على اتصال بمكة طول الطريق، بواسطة بريد يدوي لا ينقطع رواحه وقُدُوه^(١). وكانت القوافل إلى الشام تُلزم أسواقاً رسمية معينة في بعض المدن، إذ كانت الإدارة البيزنطية تجبر كل التجارة الأجنبية على ارتياد الأمكنة المخصصة بالغرض، لتظل قيد الرقابة المنشودة. وكان غرض هذه الرقابة جباية الضرائب وحصر التجارة بأصحاب الامتياز فيها. وكان المراقبون البيزنطيون كذلك يلحظون حركة الأغراب للاشتباه في أن بعضهم كانوا جواسيس. ولم تكن بيزنطة تمتنع عن دسّ عيونها بين التجار لترصد أخبار الساسانيين، حتى ذكر هذا الأمر ضمن بنود اتفاق السلام بين الفرس وبيزنطة سنة ٥٦١ م.^(٢) أما عودة القوافل فكانت أشبه بالاحتفال، إذ تلوح بشائر الظنن في الأفق وتتقدم الجمال منهادية في اتجاه المدينة وعلى ظهر كل منها نحو مائتي كيلوغرام من البضاعة، وكانت تلك هي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة. ونادراً ما كان الرجال يصلون أصحاء، بل متعبين ومنهكين وقد لَوّحت وجوههم الشمس وشقق العطش شفاههم^(٣). وكان وصول السفن من بحارها البعيدة شبيهاً بوصول القوافل، إذ كانت سلامة العودة نادرة وعزيزة المنال. وكان النساء والرجال يتجمعون لاستقبال التجار العائدين، فتأخذهم حماسة توقب الأرباح. فإذا حط الرجال غاصت مكة في ضجيج المحاسبة والمساومة والأخذ والعطاء، وارتفع رنين النقود والسبائك من كل وزن ومعدن تتبادلها أيدي العارفين المتمرسين، وذلك ما وصفه سترابو حين قال «إن

(١) Encyclopaedia of Islam, first edition, Leiden and London (1913 - 1934), vol. III, p. 440

وانظر أيضاً Haji Hassan. op.cit., pp. 78, 79

(٢) Haji Hassan: ibid., p. 79

(٣) Husein: op.cit., p. 116

كل عربي وسيط أو تاجر^(١). في مثل هذه الأوقات كانت مكة تمكس البضاعة المارة عبرها أو تعشرها، إذا كانت لتاجر أجنبي، أو لتاجر لم يحط بجوار لدى عين من أعيان المدينة، أو بطن من بطونها. وكان هؤلاء التجار يدفعون كذلك رسوماً مختلفة لدخول المدينة والتجوال فيها والمكوث وعبور بضائعهم والاتجار والمقادرة. ولم تكن تلك ضرائب تعسف، بل كانت معاملة بمثل ما يلقاه التجار المكثرون في بلاد هؤلاء. وقد طوّر التجار المكثرون أعرافاً غير مكتوبة للتعامل فيما بينهم، أو بينهم وبين المزارعين في يثرب مثلاً، فتحوّلت هذه الأعراف إلى قوانين استوحي بعض عناصرها من تشريعات البلدان المجاورة. وثمة من يعتقد أن البيع والشراء في مكة كان بدائياً، لكن هذا الاعتقاد غير صحيح، إذ كان التجار المكثرون يستخدمون في تجارتهم الوثائق المكتوبة، خصوصاً من جرّاء احتكاكهم الدائم بالبلاد المجاورة، بعد نشوء الإيلاف. وقد اتخذوا عادة قيد حساباتهم، من الأسواق الفارسية والبيزنطية واليمينية. وكانت عادة استحضار شاهدين سابقة للإسلام، وكان التجار يتبعونها أسوة بما كان متبعاً في اليمن^(٢). وعرف التجار الصكوك يقيدون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم وحقوق غيرهم عليهم. ومما حُفظ لنا من هذه الصكوك ما ذكره ابن النديم في الفهرست أنه كان في خزانة المأمون كتاب خُط في جلد أدم ذكر فيه «حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة» على حميري من أهل صنعاء، وبألف درهم فضة كيلاً بالحديدة، ومتى دعاه بها أجابه^(٣). وقد اشتهر عبد الله بن أبي ربيعة، والد الشاعر عمر بن أبي ربيعة، بالاتجار بالعطّر اليمني، وكان يبعث إلى أمه في مكة من هذا العطّر، وكانت تبيعه نقداً أو ديناً، فإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب^(٤).

(١) Strabo the Geography, p 355. وانظر أيضاً p. 172. Rabboth: L'Orient Chrétien.

(٢) Haji Hassan: op.cit., pp. 80 – 83.

(٣) النديم، أبو الفرج محمد: الفهرست، طبعة رضا تجدد، طهران، ١٩٧١، ص ٨. وانظر أيضاً حمور: المرجع السابق، ص ٤٢.

(٤) الأغاني، ج ١، ص ٦٤ وما بعد. وأيضاً جواد علي: ج ٧، ص ٢٩٣. ودرادكة: المرجع السابق، ص ٥٦، ٥٧.

وقد دخلت التعابير التجارية إلى اللغة العربية في مكة، واستخدمت في الحياة اليومية، فمنها الرهن والصفقة والعُهدَة والمكس والعُمري والرُقبي والمَلَسى^(١). والرهن ما وُضِع عند الإنسان مما يُتوب مناب ما أخذ منه. والصفقة الضرب باليد على اليد عند وجوب البيع. والعُهدَة كتاب الحلف والشراء وهو أشبه بكفالة البضاعة. والمكس دراهم كانت تُؤخذ من البائع في الأسواق. والعُمري أن يدفع الرجل إلى أخيه داراً فيقول: هذه لك عُمرك أو عُمري، أيًا مات دُفِعت الدار إلى أهله. والرُقبي: أن يقول إن يثُ قبلك فهي لك وإن يثُ قبلي فهي لي. والمَلَسى: أن يبيع الرجل الشيء ولا يضمن عُهدته.

واشتبه في أن فعل دَلَس الذي يفيد نوعاً من الغش في البضاعة التي تُباع، مُتَّخَذ من كلمة لاتينية^(٢)، ولو صحَّ ذلك لكان الأرجح أن التجار العرب سمعوا العبارة في أسواقهم البيزنطية، فاقبسوها.

ويبدو أن كثيراً من التجارة المكيّة كان جماعياً، يشترك فيه الأغنياء ومتوسطو الحال وحتى الفقراء، حتى أضحت هذه التجارة هماً مشتركاً يتعاون في حمل أعبائه المالية وغير المالية كثرة من الناس، ولذا استطاعت قريش أن تسيّر قوافل كبيرة الحجم كثيرة الإبل. ولولا التجارة الجماعية لربما عجزت هذه المدينة الصحراوية عن تنظيم رحلة الشتاء والصيف، وأخفقت في حماية مصالحها التي تشعبت من جرّاء هذه الرحلة^(٣). فإلى جانب المصرفي الفاحش الغنى والممولّ الثري اللذين كانا يخاطران بمالهما على نطاق واسع، في هذا العمل التجاري المعقّد، الذي كان يقتضي معرفة بالمخاطر والأسعار الدولية وميزان العرض والطلب، وقدرة على المرونة المالية، كان صغار التجار وأصحاب الحوانيت والناس غير الميسورين يجربون حظهم أيضاً ويسهمون ببعض ما أمكنهم من

(١) لسان العرب: المواد: رهن وصفق وعهد ومكس وعمر ورقب وملس. وكذلك: Haji Hassan.

op.cit., pp. 82, 83

(٢) من استخدام الدنانير والذهب في تحارة قريش أنظر الواقدي: المازي، طبعة حوزة، ص ٢٧.

وجواد علي: ج ٤، ص ٦٩، وج ٧، ص ٢٩٠. وأيضاً: Haji Hassan. op.cit., pp. 76, 80

والشريف: المرجع السابق، ص ٢١٢.

مال. وكان الحرفيون من حدادين وثنّاجين يشتركون أيضاً في التجارة. وكان الشريك المضارب غير نادر الوجود في مكة، حتى أمكن الاشتراك في التجارة بما لا يزيد على نصف دينار، وكان يُسمى النّش. ومن لم يشترك بماله اشتغل دليلاً للقوافل أو سائقاً أو خفياً يرد أذى الغزاة. وانخرطت المرأة في التجارة أيضاً. وقد ذُكر من نساء قریش اللواتي تاجرن، خديجة بنت خويلد زوج الرسول، وأسماء بنت مخزبة أم أبي جهل المخزومي الشهيرة بالحنظلية، وكانت تتاجر بالعلطور اليمينية، وهند بنت عتبة زوج أبي سفيان الذي كان يبيع تجارته لبني كلب في الشام^(١). وقد شبّه لامنس هذه التجارة الجماعية بالجدول الصغيرة التي تنصب في الأنهر الكبيرة، ووصف تجمع صغار الممولين وتحلقهم بحماسة حول أبي سفيان لدى عودة لطيمت من الشام، وسدهم الطرق الضيقة حول دار الندوة حيث كان مجلس شيوخ مكة. فمن هذه الجموع كان العبيد وغير الميسورين، الذين جاءوا قبل تفريغ حمولة الجمال يسألون عن مصير رأس مالهم الصغير ليتقاضوا حصتهم من الربح، وكانت نسبته في الغالب عالية^(٢).

٣- المال والصيرفة

تداول التجّار المكيّون الدينار الذهب البيزنطي والدرهم الفضة الفارسي والحميري، وأحضروا معهم هذه النقود إلى مكة. وكان تمييز هذه النقود يحتاج إلى خبراء متمرسين في معرفة العيار والوزن وما إلى ذلك. وكان الفش بالنقد ممكناً. والدينار الذهب كان هو العملة المعتمدة عند سكان الشام ومصر البيزنطيتين، ويسمّيهم القرشيون أهل الذهب. وكان العراق بلاد العملة الفضية، وأهله يسمّون أهل الزّوق (أي الدراهم الفضة المضروبة). وكانت النقود في حقيقة الأمر رائجة عند المكيّين، أي أنهم كانوا كثيراً ما يمتنون الصيرفة، فيستثمرون أموالاً في تنظيم القوافل الكبيرة بخاصة إلى الشام واليمن. وكانت في

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٠٣. والواقدي: المغازي، ص ٨٩. وانظر حمور: المرجع السابق، ص ٢٠. وكذلك: Haji Hassan: op.cit., pp 77, 78.

(٢) Lammens: Les Grosses fortunes..., p. 27.

مكة بيوتات مال ومؤسسات مكوس. وكان الربا فاحشاً لكنه كان يُعد عملاً مقبولاً من أعمال إغارة رأس المال والتسليف. وكان التاجر يستطيع أن يدفع المال في مكة ليشتري بضاعة في بلاد بعيدة أو ليرسل بضاعة إلى بلاد بعيدة. وكان البعض يؤمن التجارة التي يعرف أنها ستجتاز طرقاً خطيرة. بل إن أعمال المقايضة على نطاق واسع كانت تُعقد على بضاعة التجارة الدولية^(١). وكان الربا والتأمين ممكنين لأن أرباح القوافل كانت كثيرة.

لمن ناحية، كانت نفقات القافلة لا تتعدى استئجار المطايا من جمال وخيول ودفع أجرة الخفر والعُدّة وبعض الضرائب والهدايا لزعماء القبائل على الطريق^(٢). وتذكر المصادر الإسلامية الأرباح الطائلة والمكاسب التي كانت تجنيها التجارة المكية. فكان الصرافون يعمدون بمكسب يبلغ خمسين في المائة من رأس المال، لترغب التجار في الاقتراض. ولم يكن في هذا مبالغة في الواقع. إذ يؤكد لامنس أن نسبة الخمسين في المائة كانت معتادة، بل شرعية لدى السلطة الرسمية في إيطالية وفلاندرية، وهما البلدان الأولان في التجارة الأوروبية في القرنين الميلاديين الثالث عشر والرابع عشر. وبرهن لامنس نسبة الأرباح العالية، بالمخاطر العظيمة التي كان يلقاها التجار في الصحراء وما كانوا يؤدونه من إنثاوت للقبائل لدفع هذه المخاطر. ويستتج أن المنفعة بين الصيارفة لكسب المفترضين من التجار كانت منافسة شديدة. فإذا كانت الضرائب البيزنطية في سنة من السنوات معقولة، ونجت القافلة من صعاليك الطريق الصحراوية، فإن المكسب قد يبلغ مائة في المائة. وقد بلغ في أحيان مائتين في المائة على ما جاء في النصوح: لكل دينار ديناران^(٣). وكان البلاذري يُعدّ بلوغ المكسب مائة في المائة أمراً اعتيادياً إذ يقول: «وكانوا يربحون للدينار ديناراً»^(٤).

(١) الأغاني، ج ١، ص ٦٤، ٦٥. والواقدي: المغازي، ص ٢٧، ٢٨. وانظر أيضاً: Haji Hassani, op. cit., pp. 76, 77. والشريف: المرجع السابق، ص ٢١٢، ٢١٥.

(٢) Haji Hassani: op. cit., p. 79.

(٣) Rodinson, op. cit., p. 35. وكذلك للمقارنة: Lammens: Les Grandes fortunes..., pp. 20, 27.

(٤) البلاذري: الأنساب، تحقيق حميد الله، ص ٣١٢.

وكانت المضاربات مفرطة على أسعار الصرف وعلى حمولة قافلة لم تصل أو حصاد لم ينضج أو نتاج لا يزال في بطون النوق بعد. وقد نشكّلت الشركات الوهمية فعقدت عقود البيع أو استلّفت المال للتّجار، فأنلست بيوتات وأغنت أخرى بين ليلة وضحاها، ونحا صفار التّجار نحو كبارهم في المضاربة، ولم تخلُ الصفقات أحياناً من غشٍ. رذله القرآن الكريم^(١).

وقد أمكن تقدير قيمة بعض اللطائم بفضل ما رواه الواقدي في مغازيه عن غزوة بدر الكبرى التي كان سببها حودة قافلة تجارة مكّية من الشام ومروها إلى الغرب من يثرب. إذ كان ما استثمره أبو أحичة بن سعيد بن العاص بن أمية وحده في هذه اللطيمة ثلاثين ألف دينار، قُدِّرَ لامنس قيمتها بنحو مليون فرنك فرنسي سنة ١٩١٧^(٢)، فيما استثمر مصرف مكّي أموي آخر يملكه أبو سفيان عشرة آلاف دينار، إضافة إلى ما ساهم به صفار المساهمين في اللطيمة، والبيوتات المالية المكيّة الأخرى. ولم تكن تلك سوى قافلة واحدة من قوافل الشام واليمن والعراق والحبة. وهذا الأمر يدعو إلى تخيّل الثروات الضخمة التي كان يملكها المكيّون ويستثمرونها في تجارتهم. وكان آل مخزوم القرشيون أغنى أغنياء مكّة، وكانوا يفوقون الأمويين ثراءً. ولم تكن مساهمتهم المالية في لطائم الشام سوى جزء من ثروتهم، إذ لم يكن متوقعاً أن يعتمد تجار متمرّسون عالمون بمخاطر الصحراء إلى استثمار رأس مالهم كله في رحلة تجارية واحدة^(٣).

وكان عبد الله بن جُدعان النيمي القرشي قد كسب ثروات طائلة من تجارة الرقيق الحبشي، فكان يشرب في كأس ذهبية ولقّب حاسي الذهب^(٤). وكانت

(١) سورة المطففين (١-٦) وسورة الأنعام (١٥٢) وسورة الأعراف (٨٥) وسورة الاسراء (١٨١) وسورة هود (٨٤-٨٥). وانظر Haji Hassan op.cit., p. 77. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٢) الواقدي: المغازي، ص ٢٧. وكذلك: Lammens: Les Grosses fortunes..., p. 19.
(٣) الأغاني (طبعة بولاق - ١٢٨٥ هـ). ج ٨، ص ٢-٤، ولم نثر على هذا في طبعة دار الكتب. وانظر الأندلسي: نشوة...، ص ٣٥٤. وكذلك: Lammens: ibid., pp. 19, 20, 23. والشريف: ص ٢١٣.

تجارة الرقيق مجزية، وكان كثير من المكين يتماطونها. وكان من المخزوميين المشهورين بالثراء الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبي ربيعة الشاعر. وقد لُقّب عبد الله عدل قريش، وكان متجره إلى اليمن. وقد بلغ المخزوميون من الثراء ما مكّنهم بلا عناء من إكساء الكعبة كل سنة، بعدما كانت قريش كلها تشترك في الكسوة. واشتبه لامنس في أن المخزوميين الذين كانوا يتاجرون بالقماش اليمني الفاخر إنما كانوا بذلك يروجون بضاعتهم لدى العرب الذين كانوا يأتون في كل موسم حج «يتعلقون بأستار الكعبة». بل إن بعض المصادر نسب إلى أبناء عبد مناف نصيباً جيداً من الثراء، إذ ذكرت أن جد الرسول عبد المطلب بن هاشم كُنّن لدى موته في حُلل قيمتها ألف مثقال من الذهب وطُرح عليه المسك حتى ستره^(١). إلا أن هذا المقدار من الثراء ليس مما عُهد في جد الرسول، لأن عبد المطلب مات وكان الرسول في الثامنة من عمره. ولم يكن من الفقراء، ولكنه لم يكن أيضاً من الأغنياء. وهذا، وإن درج احتمالاً في باب رغبة المؤرخين الإسلاميين في تمجيد جد الرسول، لا ينبغي ما ذُكر في المصادر عن ثروات المكين الآخرين، خصوصاً أولئك الذين تزعموا المشركين من آل مخزوم وآل أمية، قبل الإسلام. لقد كان واضحاً أن أعمالاً مالية معقدة جداً كانت تُدار من مكة، يديرها مصرفيون أكفأ متمرسون في استثمار الأرصدة والمضاربة، يعملون في منطقة تمتد من عدن إلى غرة دمشق. وقد نسجوا حول التجارة المكيّة شبكة دُرَج في خيوطها جميع المكين وعدد كبير من أعيان القبائل المجاورة أيضاً. وتدل لغة القرآن الكريم على أن الخطاب لم يكن موجّهاً إلى جهلة هائمين في صحراء، بل إلى جماعة عالمية بفنون النجارة وإدارة المال^(٢).

ح - الإبل وطرق الصحراء

استطاع عثمان بن عفّان وحده أن يُمَدّ جيش المسلمين في غزوة تبوك

(١) الأغاني: ج ١، ص ٦٤. وكذلك Lamens: op.cit. p. 25. والشريف: ص ٢١٣

(٢) من الألفاظ المتصلة بالتجارة في القرآن. أنظر: هداية الرحمن للألطا وآيات القرآن، طبعة

محمد صالح البنداق، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١. انظر Montgomery-Watt

. Muhammad at Mecca..., p. 3

بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً. وهذا يدل على نماء الثروة الحيوانية في الحجاز في ذلك الزمن، الذي لم يكن بعيداً بعد عن الجاهلية. وكان ما يملكه أهل يثرب المسلمون من الإبل والدواب والخيول قليلاً بالقياس إلى ما كانت تملكه مكة أو القبائل البدوية. وعلى سبيل المقارنة، كانت الإبل التي خرج عليها المسلمون يوم بدر سبعين بعيراً يعتقها ثلاثمائة رجل، بينما خرجت قريش ومعها سبعمائة بعير يعتقها تسعمائة وخمسون رجلاً. وكانت خيول المسلمين فرسين، بينما كانت خيول المكّين مائة فرس^(١). وقلة الإبل في يثرب منطقية في الواقع، لأن المدينة هي أكبر مجتمع زراعي في الحجاز. واعتمادها على الزراعة يخفف بالتأكيد اعتمادها على تربية المواشي والإبل، وإن كان لا ينفي تماماً. ولذا استطاع عبد الرحمن بن عوف، وهو ثري آخر من أثرياء الصحابة، أن يجهز سبعمائة ناقة، ولما يمض على الهجرة سوى سنوات^(٢). فإذا قيل إن تجار مكة، بما اجتمع لهم من إبل بعد تمرّس طويل في مهنة تنظيم القوافل، وبما اجتمع لديهم من إبل القبائل الأخرى المشاركة في التجارة بموجب الإيلاف، قد سَـبَـرُوا قوافل بلغ تعدادها ألفين وخمسمائة بعير، فإن العدد لا يبدو غريباً ولا مضحكاً^(٣). وذكر الطبري عن قوافل كان تعدادها ألفاً وخمسمائة بعير^(٤). وكان عدد التجار والأدلاء والخفراء يراوح بين مائة شخص وثلاثمائة شخص، وقد يفوق ذلك العدد. فإذا قُدِّرَ وزن حمولة كل بعير بنحو مائتي كيلوغرام في الرحلات البعيدة، على ما أسلفنا، لبلغت حمولة قافلة كبيرة تضم ألفي بعير، نحواً من أربعمائة طن من البضاعة الثمينة وهذا قليل إذا اقتصرنا رحلة الصيف الشامية مثلاً على قافلة واحدة، وهو أمر غير محتمل. ولذا نعتقد أن رحلة الشتاء والصيف لم تكن متعددة القوافل في وجهة سيرها فقط، بل كانت متعددة القوافل

(١) الواقدي: المغازي، ص ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٣٩. وسيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٥٣. وانظر أيضاً الشريف: ص ٣٦٢، ٣٦٣.

(٢) Lammens: Les Croisades fortunes..., p. 22 (٢)

(٣) Haja Hassan: op.cit., p. 80. وكذلك الشريف: ص ٢٠٥.

(٤) الطبري: التاريخ... ج ٢، ص ٤٢٢، ٤٢٥. وكذلك حمّور: ص ٢٠.

إلى الوجهة الواحدة في السنة ذاتها أيضاً. وليس قوله تعالى: ﴿رَحَلْنَا الشَّامَ وَالصَّيْفُ﴾، سوى ذكر للجمع في صيغة المفرد، على ما نرى. ولا بد أن رحلة الصيف إلى الشام كانت تسير قوافل عديدة. وكذا رحلة الشتاء إلى اليمن وغيرها.

أما الطرق التي كانت تتبعها القوافل عبر جزيرة العرب في جميع الاتجاهات التي كانت سالكة قبل الإسلام، فقد أجملها أطلس تاريخ الإسلام في تسع هي:

١ - الطريق النهامية وهي الطريق الساحلية الموازية تقريباً لساحل البحر الأحمر، من العقبة إلى عدن. وتصل إلى غزّة وتمرّ بأيلة ومذنب شُعيب والحفة ومكة والليث والقنفذة والحديدة ومخا وعدن.

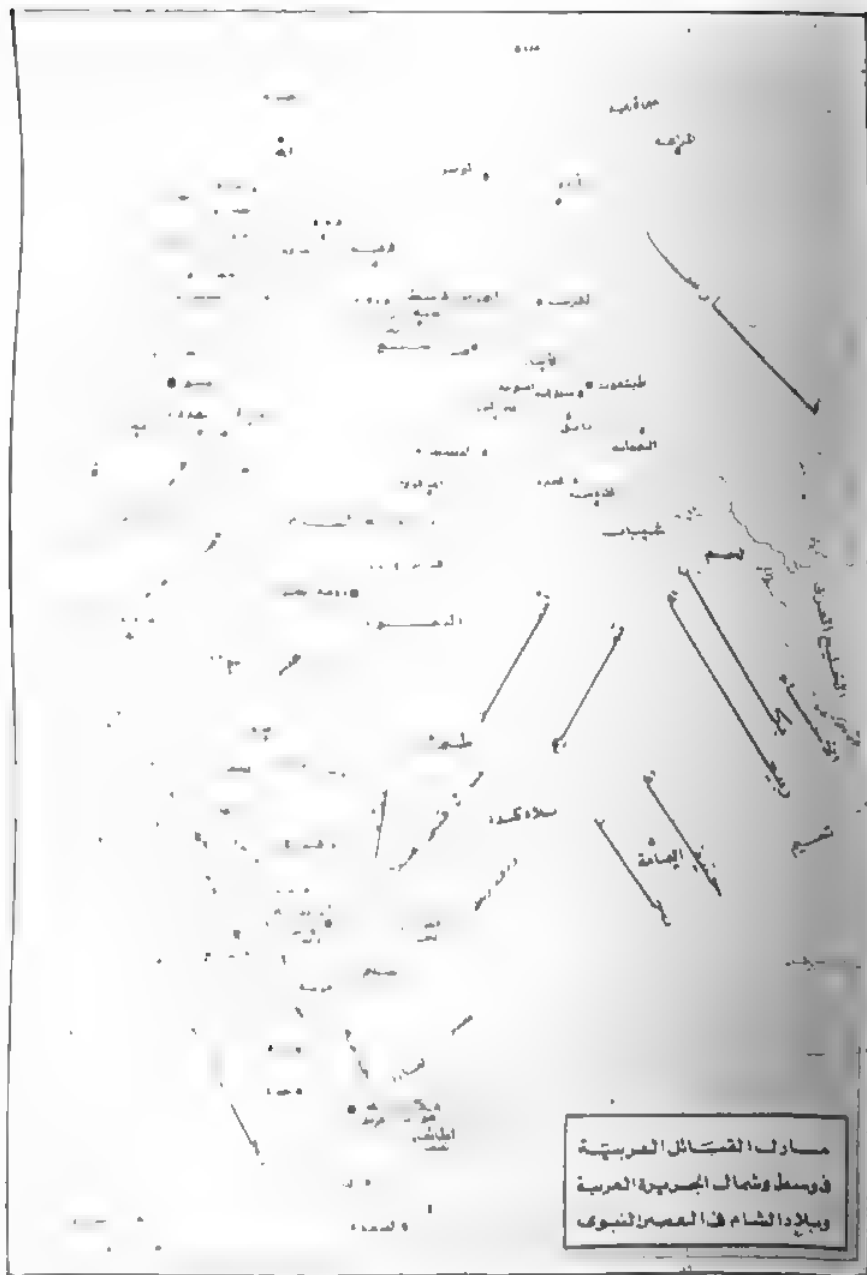
٢ - الطريق من مكة إلى فلسطين، وقد سمّاها مؤنس «التوكبة»، وتمرّ قريباً من المدينة المنورة، وكان المسافرون يسلكونها للسفر من مكة إلى المدينة قبلاد الشام أحياناً. وهي تمر في مكة وخيبر وتيماء وتمرّ غرب دومة الحذل إلى وادي سرحان، حتى بصرى.

٣ - طريق الجاذة، من مكة إلى المدينة، وهي في الحقيقة مجموعة طرق كثيرة تمرّ في الوديان وكلها توازي طريق الجاذة. وقد تسمى «غرب التوكبة»، وهي تمرّ بديار أسلم ثم بين سليم ومزينة، وتدخل المدينة من الحانب الحوي العربي.

٤ - الطريق الجانبية من المدينة إلى مكة، وهي تسير غرب طريق الحاذة أي قريباً من ساحل البحر الأحمر، وتساير الحاذة من المدينة إلى الروثة ثم تنفصل عنها وتمرّ في إقليم العرج ثم في إقليم الفرع حتى تصل إلى الحفة، وهناك تلتقي من جديد مع طريق الحاذة إلى مكة، في ديار أسلم.

٥ - الطريق من المدينة إلى العراق، وهي تمرّ في فُذك ونحناز ديار غطفان وطى وأسد وتلتقي بطريق أيلة - الأهواز، شرق دومة الحذل.

٦ - الطريق الداخلية بين مكة وعدن، وهي تمرّ بمكة والطائف وحاشة



ونجران وصعدة وصنعاء وتعز والمعافر، حتى تصل إلى عدن. وهي طريق جبلية.

٧ - الطريق الجبلية وهي تبدأ في مكة وتمرّ بوجرة ومران وخربة وجديلة وطخفة والتاج والحفير وكاظمة وتصل إلى الأبلّة في جنوبي العراق. وقد عُرفت فيما بعد الإسلام بطريق زبيدة على اسم زوجة الخليفة هارون الرشيد التي عُنيّت بها وعمّرتها بحفر الآبار وإنشاء المحطّات لراحة المسافرين. وكانت تنفرع منها إلى الشمال من فهد طريق إلى جنوبي الشام وتسمّى الحوشية.

٨ - طريق الاسوار وهي طريق طويلة تبدأ من هجر وتسير بحذاء ساحل الخليج مارةً بالمشقرّ حتى تصل إلى مسقط وقربات في عُمان، ثم تسير جنوبي الجزيرة حتى تصل إلى عدن. والمدن والبلدات التي تمرّ بها هي: الهفوف وهجر والمشقرّ وبينونة وصحار والحابورة ومطرح ومسقط وقربات وراس مدركة وريسوت وظفار ومهرة وتاريم وشبام وشبوة وأرب ثم عدن.

٩ - طرق أخرى كثيرة داخلية أو ساحلية لها أسماء متعددة، أهمّها الطريق بين مكة ومران واليمامة والقطيف^(١).

(١) مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، دار الرماء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧. ص ٩٩. وتغن وصف هذه الطرق، والخريطتان ٣٥ و٣٦، ص ٥٩ و٦٠ في هذا الأطلس مع المصادر على النحو التالي:

١ - الطريق النجاشية: تاج المروس للزبيدي، مواد بك وجار وسبع. وكتاب: الحراج لقدامة بن جعفر، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٨٨٩، ص ١٩١.

٢ - الطريق التبركية (أطلس، خريطة ٣٦) تطبق فيما بين المدينة ومكة على تاج المروس، ملدني ريد وقما، وقدامة ص ١٨٦، وإسالك والمعالك لابن خردادشه، تحقيق دي غويه، ليدن، ١٨٨٩، ص ١٣٧.

٣ - طريق الجاشنة: ينطبق وصفها على ما جاء في رحلة ابن بطوطة تماماً، في وصفه مراحل الطريق من تبوك إلى البحر والملا والمدينة والروحاء والصفراء وبدر ورايح وخلص وعسفان ويطن بر ومكة. رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، بلا تاريخ، ص ٨٧ - ٨٩. وكذلك ينطبق على ما جاء في طريق عودته ص ١١٧

٤ - انطبقت خريطة الطريق الجاشنة هذه تماماً مع ما جاء في صفة بلاد اليمن ومكة وبعض

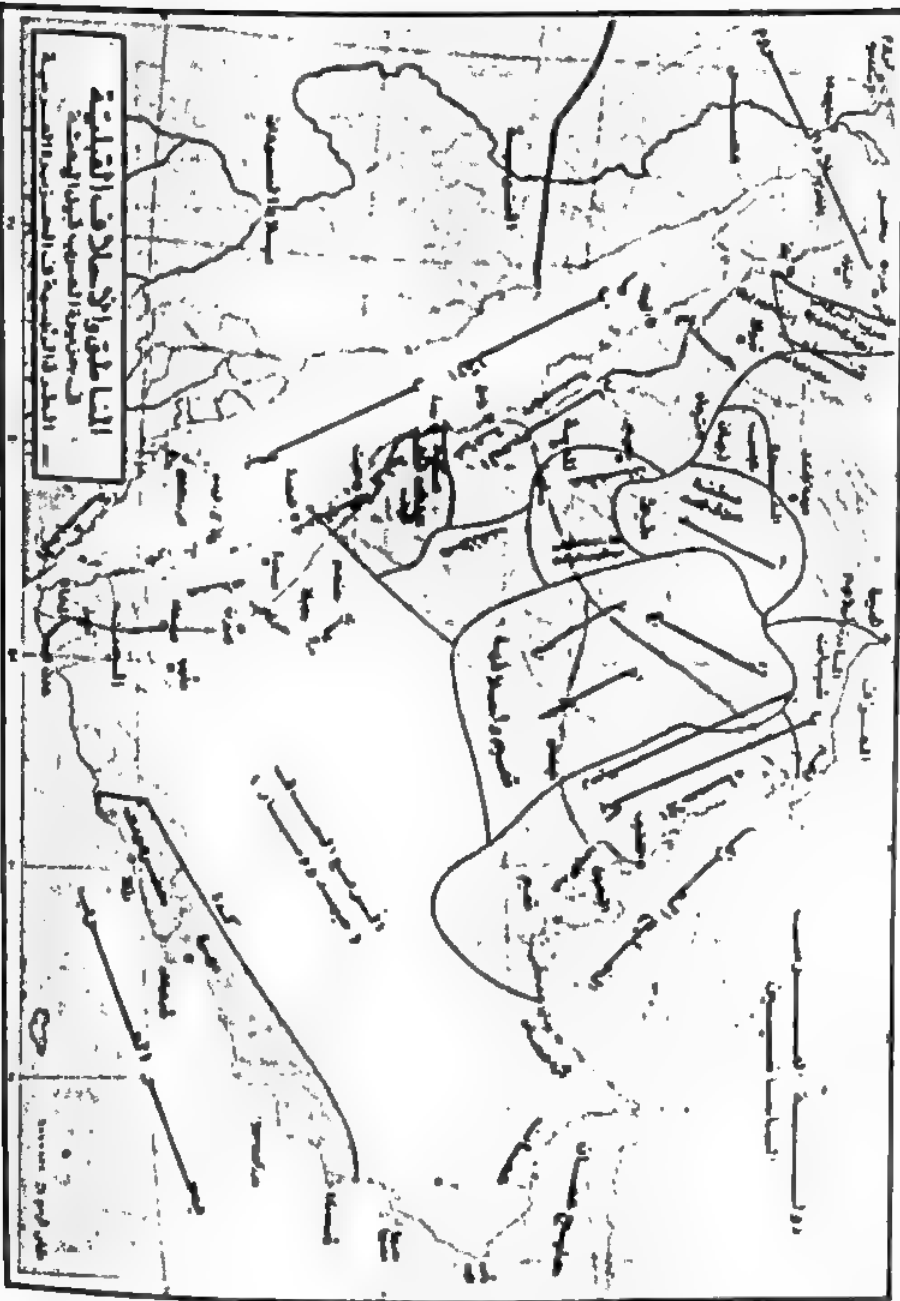
وتُعد الطرق إلى الشام قطعاً أهم طرق التجارة المكيّة في القرن السادس، لأنها كانت في الغالب الطرق التي كانت تنسوق معظم تجارة الشرق التي تستوردها بيزنطة. وكانت معظم القوافل تدخل الأراضي البيزنطيّة في أيلة عند رأس خليج العقبة، حيث نهاية الطريق من البحر الأحمر إلى فلسطين. لكن بعض القوافل كانت تواصل سيرها إلى غزة حيث كانت الضاعة الشرقيّة تتخذ طريقها إلى موانئ البحر المتوسط الأخرى. وكانت قوافل أخرى تقصد بصرى حيث كان التجار المكيّون يسلمون بضاعتهم لمشتريين رسميين يتيهم الدولة البيزنطيّة. وكانت المدن الثلاث: أيلة وعزّة وبصرى هي الأسواق الكبرى للتجارة المكيّة^(١).

أما سرعة القوافل على طرق الصحراء فإن الإمكان احتسابها، إذ يقول

- = الحجاز لابن الجولود، استشهد جواد علي: ج ٧، ص ٣٣٩ وما بعد.
- ٥- طريق المدينة إلى العراق منه تطبيق مع المسالك... ص ١٢٥ إلى ١٢٨، في وصف ابن خردادبه لطريق تمر في أسد وطى. وكذلك قدامة، ص ١٨٩.
- ٧- يزواج مؤنس في وصفه هذه الطريق، طريقين: التجديبة من الأيلة إلى مراك، وثانية من مراك إلى البامة. وكذلك يعق هذا الوصف مع وصف ابن خردادبه لطريق من الأيلة إلى البامة: ص ١٥٩. انظر أيضاً بلاد العرب للحسن بن عبد الله الأصبهاني، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، ١٩٦٨، ص ٣٧١. وكذلك تاج العروس، مواد نجش وحضر وخرج وسع وتيج، والمسالك... ص ١٤٩ وما بعد. وقدامة، ص ١٩٠.
- ٩- أهم الطرق الأخرى التي جاءت في خريطة الأطلس ٣٥ (ص ٥٩)، طريق شامية، تربط تبوك بالمدينة عبر السهراء ووادي القرى والمجمر. وينطبق وصفها على ما جاء في: تاج العروس، مواد سرخ وجن وسجر. وبلاد العرب، ص ٣٩٥-٣٩٧، ٤١٣، ٤١١. والطريق، المصدر السابق، طبعة دار المعارف، ج ٣، ص ١٠٠ وما بعد.

(١) قول البندادي في: المحرر، ص ١٦٢: «كان متجر هشام إلى الشام مهلك بنزّه، وقول ابن هشام في: سيرة النبي، ج ١، ص ١٩٤: «إن أبا طالب خرج في ركب تاجر إلى الشام... فلما نزل الركب بصرى، يدلّ على أن قوافل فريش قصدت هذه الأسواق الكبرى في البلاد التي تحكمها بيزنطة. انظر أيضاً: Hoß Hasson: op.cit., pp. 79, 80. والألماني: أسواق... ص ١٦٩، ١٧٢، ٣١٤.

المناطق والأحلاف القبلية
 في منطقة الجنوب قبليها
 المنطقة القبلية في المنطقة القبلية



١٠٠
 ٢٠٠
 ٣٠٠
 ٤٠٠
 ٥٠٠
 ٦٠٠
 ٧٠٠
 ٨٠٠
 ٩٠٠
 ١٠٠٠

حميد الله إن رحلة الذهاب من مكة إلى يثرب استغرقت وقت متأخر النبي النبي
عشر يوماً^(١). ويقول ابن هشام في السيرة: فلما دخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذو القعدة تحفّر للحج ولمر الناس بالجهار له. قال [ابن إسحاق]:
فحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد عن عائشة زوج النبي
صلى الله عليه وسلم قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحج
لخمس ليلٍ يقين من ذي القعدة^(٢). ولما كان الطواف بالبيت تسع مضين من
ذي الحجة، فإن قول حميد الله إن المسافة بين المدينة ومكة تستغرق اثني عشر
يوماً هو قول مقبول.

إن المسافة بين المدينتين تبلغ نحو أربعمائة كيلومتر، وبذا يبلغ معتدل ما
يجتازه الجمل في اليوم على هذا الموال. ٤٠٠ كلم: ١٢ = ٣٣.٣ كلم. وفي
تقدير آخر لسرعة سير النبي إلى يثرب من مكة، قال ابن الكلبي: وخرج
[النبي] من الغار يوم الإثنين أول يوم من ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة
لثنتي عشرة منه، وكانت بين مكة أوسط ألبم التشريق. وهذا تأكيد آخر للقول
إن المسافة بين المدينتين تستغرق اثني عشر يوماً. وقد اختلفت الآراء في تاريخ
مغادرة مكة والوصول إلى يثرب، لكن الاختلاف غير مهم، لأن ما يهمنا في هذا
المقام هو سرعة الجمل في الصحراء، فأياً كان تاريخ المغادرة والوصول فإن ابن
الكلبي كان يعلم قطعاً أن المسافة تستغرق اثني عشر يوماً في أمة حال. وثمة
تقدير ثانٍ لسرعة الجمل في الصحراء يؤيد هذا، إذ يقول حميد الله في وصفه لأسواق
العرب، إن زوّار المواسم كانوا يمشون المشق في لول وجب ويصلون إلى
صحار في العشرين منه. وفي خريطة أطلس تاريخ الإسلام (رقم ٣٥) تقدر هذه
المسافة بنحو ٧٠٠ كيلومتر، وسرعة سير الجمل في اليوم تبلغ إذن
٧٠٠ : ٢٠ = ٣٥ كيلومتراً. وهذا تقدير قريب جداً مما سلف. ويقول مؤنس في
الأطلس إن سير الإبل تقدر سرعته بأربعة كيلومترات في الساعة. فإذا سارت

والهند والصين، مثلما انخرط تجارتهم في سيرة التوابل الصحراوية بين الشام والخليج^(١). ويرى نفيس أن أول عهد للعرب بزيارة حلوة في أقصى شرق المحيط الهندي ليس معروفاً، وأن العرب كانوا يهرلون جزر التوابل قروناً قبل المسيح، وأن مستعمرة عربية كانت موجودة على الشاطئ الغربي لسمطرة عند بداية القرون المسيحية وأن تجارتها ناشطة بالملفل والذهب والفضة والفضدير كانت قائمة بين سيلان والعرب آنذاك. وكان العرب يتأخرون على نطاق يمتد بين سمطرة ومدغشقر في نحو سنة ٢١٠ قبل المسيح. ويقل عن بليني أن التجار العرب استقروا في سيلان في سنة ١٠٠ بعد المسيح تقريباً. ولا مفر من أن تقتصر أن العرب إذن كانوا يهرلون الرياح الموسمية ممرقة جيدة. وعندما استولى اليونان سنة ٢٠٠ قبل المسيح على منطقة النيل الأسفل، انتزعوا القطاع الغربي من طرق العرب التجارية هذه، لكنهم لم يستطيعوا انتزاع السيطرة على المحيط الهندي من البحارة العرب^(٢). وقد استطاع الإسكندر بعد انتصاره على داريوس ملك الفرس في خريف سنة ٣٣٣ ق. م. أن يسيطر وقتاً قصيراً على شواطئ الخليج وما صافها من شطآن مطلة على المحيط الهندي. وفي سنة ٣٢٦ - ٣٢٥ ق. م. أمر أحد قادة جيشه نهارخوس (Nearchos) أن يبحر موزياً للشاطئ من نهر الهندوس إلى الخليج. وعلى رغم خطورة هذه الرحلة فإنها فشلت في إقامة اتصال فعلي مباشر بين الغرب والشرق^(٣).

ويعتقد نفيس أن ثمة ما يدعو إلى الانتباه في أن أساطيل البطالسة في مصر لم تبحر إلى ما وراء المياه العربية، وأن رحلاتها في ذلك الزمن كانت نادرة، وكان البطالسة يشترون الضامة الهندية في أسواق اليمن، تجنباً لمخاطر الإبحار في أعالي البحار الشرقية. وقد سبقت العرب العمانية الإسكندر في المحيط الهندي، واستمر إبحارها هناك بعد فشل محاولته. ولها بعد أجمع هيالوس البحار، وكاتب: الطواف حول البحر الإريتري، المجهول،

(١) Semugyl, op cit, p. 179

(٢) Nafia, op cit, pp 224, 225

(٣) Salles, pp. 84 - 86 وكذلك Anand (Jull Relations..., p. 33

وأغاثارخيدس (Agatharchides) وليس مكتبة الإسكندرية، وكتب رحلة لأمبولوس (Lambulus) على أن العرب كانوا تتجار المحيط الهندي وتحتلته. ويستفهم إلى بليني الذي عاش في القرن الميلادي الأول، قوله إن العرب كانوا كثيراً في ساحل مالابار في الهند، وإبهم كانوا في سيلان من الأكثرية ما حملهم أسياح الساحل. وقد تسبدوا المرفق في المحيط حتى سيلان على الأقل في ذلك الوقت. وكانت هذه الحرية موضع اتصالهم مع مالبرية ونصب وشجارة اليهود الذين كانوا يحرقون شرقاً^(١). وقد ظل التجارة العرب بعد الإسلام يستعملون الصواري والأشرفة والسفن التي كانوا يستعملونها قبل الإسلام. بل قبل المسيح. ولذا فإن وصولهم إلى أقصى الشرق بعد الإسلام شئت ما دتهاء بدل على أنهم كانوا قادرين على الوصول بهذه السفن إلى ننت التجارة قبل الإسلام^(٢). وكان السهاليون وهم كثرة السكان في سيلان يستقون المسلمين اسماً يعني في لغتهم: التجارة. ويستدل على هذا على أن السهاليين كانوا يؤكدون بذلك الصفة التي علت على العرب، في أنهم أول التجارة الذين حملوا تجارة الهند. وقال إبهم صلوا في هذا القوس واليهود والنصبيين والمصريين واليونان والرومان، وأبهم الشعب التوحيد الذي كان به بتجارة وتجار في المحيط الهندي في آن، ونسب ذلك إلى مرفهم البحراني. ولورثي أن أول ذكر لهم في التاريخ أشار إلى صفتهم تجاراً وتجارة، ومفهم أنهم كانوا كذلك قبل إتيان المؤرخين الأوائل على ذكرهم^(٣). وقد حنف لما رخلان صبيان من أوائل القرنين الخامس والسابع بعد الميلاد روايات لرحلاتهما. وفي ذلك الزمن أيضاً كان التجار العرب يشتطون في سفريات تجارية على شواطئه آسية الجنوبية حتى سوطرة وحارة^(٤).

(١) Ptolemy, pp. 28, 31, 34. وانظر p. 229.

(٢) Ab. Abad The Arabs in Southern Indian Culture, vol 34 (1931), No. 4, p. 211. وانظر

عثمان شوقي عبد البري. تجارة المحيط الهندي في عصر قبل الإسلام. مجلة عالم

البحر، الكويت، تموز/يوليه ١٩٩٠، ص ٩١٧ وما بعد

(٣) Ptolemy, pp. 223, 224.

(٤) Ptolemy, p. 223.

وربّ مسائل: لماذا ترك الفرس وهم على مقربة من الهند، يطلّون على شواطئ المحيط الهندي، أمر الإبحار والتجارة البحرية الشرقية للعرب في كثير من الحالات، على الرغم من تفوّقهم على العرب قوةً وسلطاناً، وعلى الرغم من رغبتهم الأكيدة في السيطرة على تجارة الشرق؟

لم يكن الفرس يوماً أمةً بحرية ذات شأن، وسبب أن هذا لافتقارهم إلى المرافئ المناسبة على الشواطئ الجنوبية المطلّة على المحيط الهندي، أم كان لافتقارهم إلى الوحدة السياسية والنمساك الإداري في أقاليمهم الجنوبية. لقد أبدى العرب في الخليج تفوّقاً حاسماً على الفرس في البحار. بل يقول فون فيسمان إن الحميريين ملكوا أفضل أسطول على شاطئ المحيط الهندي في القرون التي سبقت الإسلام مباشرة^(١). ولذا تولّى العرب بأنفسهم شؤون الأسطول الفارسي. وأمكنوا للإمبراطورية الساسانية أن تسيطر بواسطتهم على خطوط التجارة في الخليج وتنافس في البحر كلاً من سيرة والأكاش^(٢). حتى قال كوسماس الهندي في أواسط القرن الميلادي السادس، الذي بهتأ ها هنا أكثر من القرون الأخرى، إن العرب كانوا العامل الأنشط في التجارة عبر سيلان^(٣). وكان وجودهم في الجزيرة يجعل التجارة الهندية والتجارة الصينية معاً في متناول أيديهم^(٤).

ولم يكن إبحار العرب إلى إفريقيا أقل نشاطاً من إبحارهم شرقاً، إذ كانوا يتجهون من البحر الأحمر إلى شاطئ الحبشة ويصلون إلى سُفالة (الي الموزمبيق اليوم) ومرافئ جنوب إفريقيا. وكانت حرية زنجبار من متاجرهم، وكذلك مدغشقر. وقد وصف السمودي هذه البلاد في مروج الذهب. أما السفن والبحارة فكان كثير منهم من سمراف. وقد انتمى البحارة إلى الأزدي على

(١) Anon. op cit. p. ٩٤ وانظر أيضاً Von Wismann History Ancient History... p. 444

(٢) An: op.cit. p. 212

(٣) Neft: op.cit. p. 225

(٤) Subhi, J. Lebn: The Islamic Expansion and the Persian Gulf in Indian Ocean, Das (٤)

Islam, Band 58, Heft 1, s. 150

الخصوص. وكانت محطاتهم التي يلمدونها من سراب وحمّان، زبلج وعذاب وصواكين وزنجبار وبربرة، وكانوا يرحمون بها بالذهب والسير والضاغة الإفريقية الأخرى^(١).

ولذا يمكن القول إن العرب كانوا رواد التجارة الحرة في تلك المناطق فاستقروا في شواطئ المحيط الهندي، بل دخلوا الصين متأخرين منذ القرن الميلادي الثالث. ومعرفة العرب للبحار ظاهرة ولا شك في الشعر الجاهلي، ومنه ما يقوله طرفة بن العبد الذي عاش في أواخر القرن السادس، في مطلقته:

كَأَنَّ حُدُودَ الْمَالِكِيَّةِ مُدْرَةٌ حِلَابُهَا مِنْهَا بِالْوِصَافِ مِنْ قَدَمِ
حَذُولِيَّةٍ أَوْ مِنْ مِنْهَا ابْنِ يَاسِرٍ يَحْمِلُهَا الْمَلَأُخُ طَوْرًا وَتَقْنِيْدِي
يَتَّقُ حُبَابَ الْمَاءِ خَيْرَ وَثْمِهَا كَمَا لَمْ تَرَافُ الْمُنَاقِلَ بِالنَّهْدِ

وقول شعبي كهذا ينمّر على شاعر لم ينس البحر صعبه. والحدودية هي سفينة من مرفأ الحنة الأكبر عدولس أو أدولس. لكن أهم الإشارات في هذا الشعر هي إشارته إلى سفن ابن ياسر. وتدل الإشارة على أن هذا البحار العربي الشهير كان يملك مجموعة سفن. وقول الشاعر: عدولية لو من سفن ابن ياسر، يوحي أنه يفتن السفينة أمي حنة أم حربة. وقد ذكر امرؤ القيس ابن ياسر هذا في إحدى قصائده. ولعمرو بن كلثوم أيضاً شعر في البحر ينمّر بنشاط بحري عربي سابق للإسلام، إذ يقول:

مَلَأْنَا الْبَحْرَ حَتَّى ضَلَقَ عَصَا وَطَهَّرَ الْبَحْرَ نَسْلَةَ سَفِينَا^(٢)

(١) خروج الذهب: أنظر المهرس بحر الرّيح وسفالة. وكذلك Madani, Suyoed Subhman Arab

Navigation, Islamic Culture, vol. 10, (1942), pp. 80, 81

(٢) الفصحى: أبحار الشعراء السفة الجاهليين، دار الأمل السبعة، بيروت، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٤١، ٤٢. وكذلك Ab. 311, 312. وفي مرفأ عربي القيس بن ياسر يذكر

فيهما ابن ياسر أنظر: مرفأ عربي القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف

بمصر، ١٩٥٨، ص ٥٧

أما أقوى الدلائل في المصادر العربية الإسلامية على خوض العرب غمار البحر بكثرة ومعرفتهم للملاحة قبل الإسلام، فهو لا شك في ذلك القرآن الكريم. فالقرآن أنزل في بيئة حجازية، وقد حفل بالعبارات عن الملاحة والبحر والسفن. ولولم يكن أهل مكة والمدينة ملتمين بكل هذه العبارات ومعانيها، لما كان مقبولاً منطقياً أن يخاطبهم القرآن الكريم بها. وقد أحصينا في قاموس الالفاظ والأعلام القرآنية الكلمات والعبارات التالية:

البحر: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ (البقرة: ٥٠)، ﴿وَنِعَلْتُمْ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٥٩)، ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِزَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ (الكهف: ١٠٩)، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ (فاطر: ١٢)، ﴿حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الكهف: ٦٠)، ﴿سَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩)، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير: ٦)، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ تَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ (لقمان: ٢٧).

ركب: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبْنَا فِي الْغَمِّ خَرَقَهَا﴾ (الكهف: ٧١)، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ﴾ (العنكبوت: ٦٥) ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ مِنَ الْفُلِّ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (الزخرف: ١٢)، ﴿وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ فِيهَا إِلَهٌُ مِّجْرَامًا وَمَرْسَاحًا﴾ (هود: ٤١).

السفينة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ (الكهف: ٧٩)، ﴿يَأْخُذْ كُلُّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩)، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ (العنكبوت: ١٥).

الفلك: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ (البقرة: ١٦٤)، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ (الأعراف: ٦٤)، ﴿وَوَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ (النحل: ١٤)، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلِّ تُحْمَلُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٢)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

اليَم: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ (الأعراف: ١٣٦)، ﴿أَنْ أَتَذْبِهُ فِي الثَّابُوتِ فَأَتَذْبِهُ فِي الْيَمِّ﴾ (طه: ٣٩)، ﴿فَتَلَيَّحِي الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ (طه: ٣٩)، ﴿فَتَغِيثُهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غِيثُهُمْ﴾ (طه: ٧٨)، ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه: ٩٧)، ﴿فَإِذَا

خَفِيتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ» (القصص: ٧)، «فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ» (القصص: ٤٠، الذَّارِيَات: ٤٠).

هذه الآيات ليست جميعاً دليلاً مباشراً على أن المخاطبين ملئون بالإبحار، وإن كانت وقرة الإشارة إلى البحر والسفن وما إليها تدلُّ على نحو غير مباشر على أن هذه الأمور كانت مألوفة لدى أبناء مكة والمدينة الذين بادأهم القرآن بمخاطبتهم أولاً. لكن قوله: «وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ فَالَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ»، ثم قوله: «وَقَالَ أَزْكِبُوا فِيهَا»، وقوله: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تُحْمَلُونَ»، فقوله: «وَسَخَّرْ لَكُمْ الْفَالِكِ لِنَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَعْيُنِهِ» تشير جميعاً إلى اغتساس مباحثٍ في مهنة البحر والملاحة^(١)، أو في السفر بحراً على الأقل.

ي- متى الإبحار إلى الهند؟

استخدم البحارة العرب الرياح الموسمية في دفع سفنهم الشراعية إلى الهند وميلان. والرياح الموسمية تقلب اتجاهها كل ستة أشهر تقريباً. فمن حزيران/ يونيو إلى تشرين الأول/ أكتوبر، تكون الرياح الموسمية جنوبية غربية، تهب من جانب الشواطئ الإفريقية صوب شبه القارة الهندية، ومن تشرين الثاني/ نوفمبر إلى آذار/ مارس تهب شمالية شرقية. ففي الربيع تأخذ الحرارة فوق سهول التبت في الارتفاع، فتتحول وجهة الرياح إلى شمال هذه السهول. وفي الخريف تبرّد هذه البلاد وينجم من هذا أن رياحاً جافة من الشمال الشرقي تأخذ في الهبوب نحو جنوبي آسية والمحيط الهندي^(٢). ويشير حوراني إلى أن

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: قاموس الالفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، ١٩٦١. بلا مصدر. انظر المواد: بحر، ركبه، سفر، فلك، يمم. وكذلك: هداية الرحمن...، طعة البنداق، المواد نفسها.

(٢) جاء ذكر لانقلاب اتجاه الرياح الموسمية في «الطواف حول البحر الارثري» Periplus: pp. 45.

46، انظر في هذا Hourani: op.cit., pp 26. 27 وكذلك: The New Encyclopaedia Britannica.

دارrell Haug Davis: The Earth and Man, (15th edition), Chicago, 1987, vol. 8: monsoon

The Citizen's Atlas of the World, and Man, MacMillan, New York, 1943, p. 141. وانظر أيضاً:

.World, 8th. ed. John Bartholomew and Son Ltd, Edinburgh and London, 1944, p. 5

وكذلك Salles, p. 94.

الرياح الموسمية الصيفية الجنوبية الغربية تُحدث في المحيط نوءاً عالياً، لا تحدثه الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية^(١).

ويتخيل المرء لأول وهلة أن العرب سافروا إلى الهند صيفاً ثم عادوا منها شتاءً، استناداً إلى اتجاه الرياح الموسمية. وهذا ما تخيله عددٌ من الباحثين في الواقع^(٢). غير أن إجماع المصادر العربية على أن القوافل المكية إلى اليمن كانت في الشتاء فقط، يوفر أول أسباب الشك في الإبحار الصيفي نحو الهند. ولتوضيح هذه المسألة سنفرض خطأً أن الرياح الصيفية كانت تأخذ السفن إلى الهند، والرياح الشتوية كانت تعود بها من هناك. وهذا هو الافتراض الذي يخطر بالبال إذا التزمنا وجهة الرياح وحدها في محاولة معرفة اتجاه الرحلات. وبناءً عليه، كان على قوافل مكة التي تصل إلى اليمن في الشتاء حين تكون الرياح مقبلة بالسفن من الهند، أن تستقبل عندئذ بضاعة الهند وسيلان. ولكن إذا كانت السفن تبحر إلى الهند مع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، فهذا يعني أن القوافل التي تأتي إلى اليمن بالبضاعة المعدة للتصدير إلى الهند، كان يجب أن تأتي إلى اليمن في الصيف. ولم يكن ثمة رحلة صيف إلى اليمن حينما تقول المصادر الإسلامية. فهل كان المكيون يستوردون فقط من الهند وسيلان ولا يصدرون؟ إن نفيس يؤكد أن التجار العرب كانوا يصدرون إلى سيلان الأدوات المعدنية، ومصدرها اليمن والشام على ما أسلفنا، والملابس من الادم والقطن والصوف، ومصدرها الجزيرة العربية والشام أيضاً والخمور من العراق^(٣). فمتى كانت القوافل تُحضر هذه البضاعة للتصدير؟ إن رحلة الشتاء إلى اليمن تعني أن السفن تكون حينئذٍ مقبلة من الهند، لا مدبرة. فهل كانت البضاعة المكية المعدة

(١) أنظر في هذا، Hourani: op.cit., pp. 24 - 27. وانظر كذلك Grand Larousse Encyclopédi-

que, Librairie Larousse, Paris, 1960 - 1964, vol. 6: mousson

حول البحر الأبيض، أن رياح الصيف الجنوبية الغربية أخطر لكنها أسرع دفعا للسفن إلى

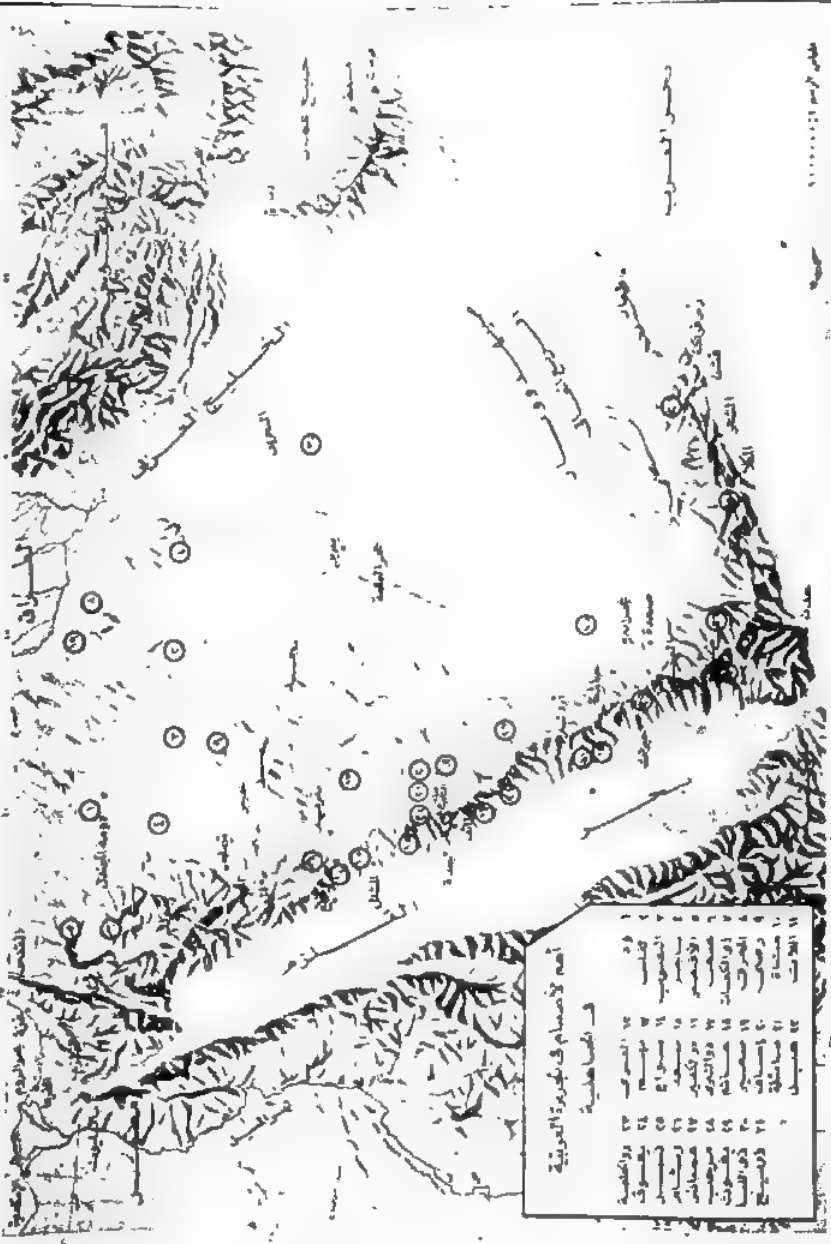
الهند. Periplus; p. 38.

(٢) منهم Subhi: op.cit., p. 147.

(٣) Nafis: op.cit., p. 240.

للتصدير تُخزن في اليمن في الشتاء، إلى أن يحين موعد تصديرها في الصيف؟ إن هذا احتمال ضعيف، لأن المصادر لم تأت إطلاقاً على ذكر أي شيء من هذا. أما الاحتمال الثاني الذي لا يبدو منطقياً للوهلة الأولى، فهو أن السفن لم تكن تُقبل من الهند فقط، بل كانت تُبحر إليها كذلك في الشتاء. وقد أكد فلييه هذا الأمر بقوله إن الافتراض أن السفن كانت تُقبل مع الرياح الشمالية الشرقية وتُدبر مع الرياح الجنوبية الغربية افتراض متسرّع، إذ إن الصيف موسم سيء جداً للإبحار في المحيط الهندي، وكان على البحارة والتجار أن يستخدموا موسم الشتاء للإبحار في الاتجاهين والعودة إلى مرفأ الأمان قبل بداية الصيف وأنوائه العاصفة. وكان هذا بالضبط ما يفعله البحارة العرب والفرس والهنود على الدوام. ولكن كيف للسفينة المسافرة من عدن أن تدفعها رياح شمالية شرقية إلى الهند؟ إن ساحل مالابار الغني بالتوابل على الشواطئ الغربية للهند يُدرك من عدن بالإبحار شرقاً مع ميل إلى الجنوب. وأما بلوخ شواطئ كاتش وكاتياوار الهندية فيُطلب الإبحار شرقاً مع ميل قليل إلى الشمال. وفي هذه الحالات جميعاً تهب الرياح في الشتاء من جانب السفينة الأمامي الأيسر، لا من خلفها. فهل يمكن لسفينة شراعية أن تبحر عكس الرياح؟ إن المركب الشراعي العربي المسمّى الذُفُو، وهو يُستخدم الشراع المثلث، يستطيع السفر تقريباً في عكس اتجاه الرياح، إذا تجنّب الاتجاه المعاكس للرياح تماماً وحاد عن هذا الاتجاه بضع درجات يميناً أو يسرة. وقد تفوّق هذا المركب في الأزمنة القديمة على كل المراكب الأخرى التي كانت تُستخدم الأشرعة المستطيلة، لأنه كان يستطيع السفر في أي وقت إلى أي اتجاه تقريباً دون أن يحتاج إلى انتظار ربح مؤاتية. ولذا كان التجار العرب يسافرون إلى الهند وسيلان في الشتاء في مواجهة الرياح الموسمية غير المؤاتية لتجنّب أنواء الصيف العاتية حين تكون الرياح الموسمية مؤاتية في اتجاهها. فإذا أفرغوا حمولة سفنهم في الأسواق الهندية والسيلانية واشتروا البضاعة التي يبتغون عادوا أدراجهم مسرعين وقد أخذت الرياح بأشرعتهم أي مأخذ^(١). وشرح حوراني بالوصف والرسم البياني كيف كانت سفن العرب

(١) Villiers. op cit., pp. 56, 57. وعثمان: تجارة المحيط الهندي... ص ١٢٦، ١٢٧. أما



أهم لأقسام في جمهورية الصومالية

في لسانجليزية

١	موسى	٢١	البحر
٢	البحر	٢٢	البحر
٣	البحر	٢٣	البحر
٤	البحر	٢٤	البحر
٥	البحر	٢٥	البحر
٦	البحر	٢٦	البحر
٧	البحر	٢٧	البحر
٨	البحر	٢٨	البحر
٩	البحر	٢٩	البحر
١٠	البحر	٣٠	البحر
١١	البحر	٣١	البحر
١٢	البحر	٣٢	البحر
١٣	البحر	٣٣	البحر
١٤	البحر	٣٤	البحر
١٥	البحر	٣٥	البحر
١٦	البحر	٣٦	البحر
١٧	البحر	٣٧	البحر
١٨	البحر	٣٨	البحر
١٩	البحر	٣٩	البحر
٢٠	البحر	٤٠	البحر

هذه تسافر إلى الهند مستخدمة قوة الريح المعاكسة والشرع المثلث وتغيير اتجاه السفينة^(١).

وقد أكد بريز أن البحارة في شرق إفريقية يسافرون شمالاً بفضل الرياح الشمالية الشرقية المعاكسة، إذ قال إن أغنية «الحرب بين سيو وآمو» التي تتحدث عن سيد سعيد الآتي من الجنوب، أي من زنجبار إلى شواطئ كينيا الحالية، تقول في أحد مقاطعها:

وهو بنفسه سيحضر

مع رياح الشمال الموسمية^(٢)

وردى بريز عن توالي الهدوء والمواصف مع توالي الرياح الموسمية الشتوية والصيفية، وقال إن مبدأ البحارة القديم مع الأمواج هو: مع سكون البحر ينشط البحارة، ومع نشاط البحر يسكن البحارة^(٣).

ورغم ذلك يقول غيرون إنه «كان يُبحر عند الانقلاب الصيفي في شهر حزيران/يونيو من كل عام أسطول [روماني] من مائة وعشرين سفينة من ميناء ميوس هرمز (Myos Hormus) في مصر عبر البحر الأحمر، ثم تدفعه الرياح الموسمية، فيقطع المحيط في أربعين يوماً، حتى يُلقَى مراسيه في ساحل مَلَبَار أو جزيرة سيلان. وفي هذه الأسواق كان يرقب وصوله التجار في أقصى أطراف آسيا، وكان من المقرر أن تعود السفن المصرية أدياجها في شهر كانون الأول/ديسمبر أو كانون الثاني/يناير^(٤). والواقع أن غيرون كان محقاً لأن الرومان

في حزن بضائع التجارة الشرقية فلم نثر إلا على نص في «الطواف حول البحر الإريتري» يشير إلى تخزين اللبان في حضرموت. Periplus: p 33.

(١) Hourani: op.cit., pp.109,110. وافق روجيه وسال على أن العرب سافروا إلى الهند بواسطة الرياح الموسمية الشتوية الشمالية الشرقية. فضل روجيه في أنواع السفن والاشربة التي استخدموها Rougé: pp. 73, 74 و Salles: p. 78.

(٢) Prius, A.H.J.: Sailing from Lamu, Asen, 1963, p. 70.

(٣) Prius: ibid., p. 19.

(٤) غيرون: المصدر السابق، ج ١، ص ١١٠، ١١١.

والبيزنطيين سافروا فعلاً إلى الهند في الصيف، لا الشتاء، مستخدمين الرياح الجنوبية الغربية. ويؤكد حوراني هذا الأمر، إذ يجعل تاريخ البحار اليوناني المكتشف هيبالوس سنة ٩٠ قبل الميلاد على أقدم تقدير، ويثبت استناداً إلى رواية الطواف حول البحر الإريتري، أن هيبالوس غادر مصر في تموز واستخدم الرياح الموسمية الخطرة. وصفة الريح الخطرة في الرياح الموسمية لا تنطبق إلا على الرياح الصيفية. ويقول حوراني إن رحلة هيبالوس التي وُصفت بأنها اكتشاف، لا يمكن أن تكون اكتشافاً إلا إذا استحدثت أسلوباً جديداً للإبحار إلى الهند. وهذا الأسلوب هو السفر صيفاً حين كان البحارة قبله، وحتى بعده، يبحرون إلى الهند شتاءً فقط^(١).

ولكن كيف ولماذا استطاع الرومان استخدام الرياح الموسمية الصيفية الخطرة، وأحجم غيرهم عن استخدامها؟ لقد كانت سفن الرومان واليونان قوية البناء، مجمعة بمسامير من حديد، أما سفن العرب فكانت تُجمع وتُشدّ بألياف الشجر. وكان الذهو ملائماً جداً للسفر في بحر هادئ وأمواج ساكنة. ولو استخدم في البحار العانية لتفكك. وليس محتملاً على الإطلاق أن يكون العرب قد أبحروا يوماً بسفنهم هذه في رياح جنوبية غربية، إلا إذا أتبعوا الشواطئ في الخليج وجنوب بلاد فارس وسواحل السند. وقد تساءل حوراني، لماذا إذن لم يعتمد العرب أسلوب اليونان في بناء السفن بعدما بين هيبالوس أن الإبحار فيها صيفاً إلى الهند ممكن. وقال إن البحارة في المعتاد محافظون. ولعلمهم افترضوا أيضاً إلى الحديد ونوع الأخشاب لصنع سفن مثل سفن الرومان والبيزنطيين. إن مكوث البحارة الرومان واليونان لم يدم طويلاً في مياه المحيط الهندي، ولعل البحارة العرب لم يروا في سفن الروم تحدياً خطيراً لهم حتى يبذلوا أساليب عملهم. ولا شك في أن إبحار الرومان واليونان في المحيط الهندي قلص تجارة العرب البحرية هذه بعض الوقت، ولكنه لم يوقفها. والراجح أن سفن العرب والروم عملت معاً في نقل تجارة الشرق لأن الرومان والبيزنطيين لم يمتلكوا يوماً في المحيط الهندي الأسطول الكافي لنقل كل تجارة الشرق إلى أسواق

(١) Periplus: p. 27. واطر Hourani: op.cit. pp. 24 - 26.

الغرب^(١)، فلجميع هذه الأسباب حافظ البحارة العرب على الذّهر المشدود بالآليات، وسافروا إلى الهند شتاء طوال الحقبة السابقة للإسلام على الأقل.

ك - سرعة الرحلة إلى الهند

ظل العرب بعد الإسلام يشتركون في الإجمال من الهند وسيلان البضاعة الشرقية التي كانوا يشترونها قبل الإسلام، بسبب عدم تبدل الحاجات تبدلاً كبيراً. ولم تتبدل وسائل انتقالهم إلى الهند بحرّاً. ولذا فإنهم قصدوا المتاجر نفسها على الأرجح، في أوقات تدعونا كل الأسباب إلى الاعتقاد إنها لم تزد على ما كانوا يستغرقونه في السفر قبل الإسلام، ولم تنقص عنه. وقد قصد التجار المسلمون، وأسلافهم ولا شك، مرفأ كشات القريب من الخليج، ثم موانئ بلوخيستان والسند وغوجرات وكاتياوار وشاطئ مالابار ومقاطعة مدراس في جنوب الهند وكلكتة، ثم وصلوا إلى تشيناغونغ وهي في بلاد البنغال اليوم، وكانوا يسمونها سَجم. ومن هناك كان تجار المسلمين يدخلون بحر الصين من سيام. ولكن مراكزهم المهمة كانت في غوجرات والسند، وهي مناطق أصبحت إسلامية. وكان الفلفل يباع على الخصوص في سواحل مالابار وهي الجانب الغربي من طرف الهند الجنوبي^(٢). ولا بد من الاعتقاد أن عوامل عديدة جعلت العرب بعد الإسلام يبحرون شرقاً أبعد مما كانوا يبحرون قبل الإسلام. ذلك أن فتوحاتهم في شبه القارة الهندية جعلت السفر إلى الصين ميوسراً جداً بسبب قرب المسافات. كذلك كان ظهور الإسلام في جزيرة العرب إيذاناً بحلول السلام بين قبائل العرب، فلم تعد قوافل التجارة تحتاج إلى الأمن الذي وفرته الأشهر الحُرُم ووقرة الإيلاف قبل الإسلام. ولذا أصبح التجار المسلمون غير مرتنين لمواعيد معينة في السنة، وأضحى وغولهم في متاجر الشرق وفقاً فقط على طموحهم في تجارتهم وحده، فيما كانوا قبل الإسلام مضطرين إلى العودة في مواعيد معينة

(١) أكد صاحب الطواف حول البحر الإريثري، أن العرب لم يستعملوا إلا الزوارق المشدودة بالآليات. Periplus. pp. 28, 36. وانظر Hourani: ibid. p. 28. وناقش عثمان هذه المسألة في

كتابه: تجارة المحيط الهندي... ص ١١٩ - ١٢٦.

(٢) Nadavi: op cit., p. 80. وكذلك Husein: op.cit., p. 116.

لملاقاة قوافل الشتاء المكيّة التي كانت تنتظر تجارة الشرق في اليمن لنقلها إلى أسواق ييزنطة. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن تجّار العرب قبل الإسلام كانوا يعتمدون على سيلان مخزناً لتجارة الصين أكثر مما اعتمد حفتهم المسلمون، للأسباب التي أنف ذكرها. ذلك أن سيلان كانت تكفيهم مؤونة السفر إلى الصين. وكان السفر إلى الصين بعيد المنال شديد المخاطر قبل الإسلام. وكان لا يؤخّر التجّار العرب عن إدراك موعد رحيل قافلة الشتاء المكيّة من اليمن إلى الشمال فقط، بل كان يؤخرهم أيضاً عن العودة قبل هبوب الرياح الموسمية الصيفيّة الخطرة.

لقد نُقل عن مسافر مسلم في القرن الهجري الثالث أن الرحلة من مسقط إلى سواحل الهند تستغرق شهراً^(١). وأثبت المسعودي في مروج الذهب أن السفر إلى الهند حتى بعد الإسلام، إنما كان في أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر وأوائل شهر كانون الأول/ ديسمبر. ولّما كانت السفن تبحر إلى الهند في حزيران/ يونيو. وكان السفر يستغرق من مسقط إلى كولام مالي في ساحل مالابار، جنوبي الهند، شهراً كاملاً حسبما جاء في كتاب أخبار الصين والهند. وقد احتسب حوراني الرحلة ذهاباً وإياباً، وأدرج الوصول إلى الصين ضمن الرحلة، مما جعلها تستغرق سنة ونصف سنة، على الرغم من أنه يرجّح في موضع آخر أن سفن الصين كانت تلاقي السفن الآنية من غرب المحيط الهندي في سيلان. وهو يقول حتى في موضع ثالث إن سيلان كانت مخزن التجارة البحرية بين الصين وغرب آسية. وكانت السفن من الصين وبلاد الشرق الأقصى تبحر حتى سيلان، وكان الفرس والأحباش يتسلّمون منها البضاعة للإبحار بها غرباً^(٢).

وقد أمكن احتساب سرعة الإبحار بالرياح الموسميّة في المحيط الهندي،

(١) Nadavi: op.cit., p. 79

(٢) مروج الذهب... ج ١، ص ١٧٤، ١٧٥. وانظر أيضاً، Hourani: op.cit., pp. 38, 40, 74.

75. ويتضمن كتاب حوراني هذا غرائط مهمة، إحداها في ص ٨٥ تبين طرق الملاحة إلى

الهند حسب رواية «أخبار الصين والهند»، وابن حرداذبة ويزرج.

بفضل الوصف الذي ورد على كتاب بريتر: «الإبحار من لامو»، إذ جاء فيه أن السفن تقطع المسافة بين لامو وموباسة، وهي مائتا ميل، في أربعة أيام. وهو يعني بالتأكيد أميلاً بحرية. فإذا افترضنا أن سرعة السفينة الشراعية على مقربة من سواحل إفريقيا الشرقية، وهي تندفع بالرياح الموسمية الشتوية الضاربة في شراعتها من الجانب الأيمن الأمامي، هي خمسون ميلاً بحرياً في اليوم، فإن حساب الرحلة من عدن إلى سيلان يصبح كما يلي:

المسافة من عدن إلى سيلان: ٣٩٠٠ كيلومتراً تقريباً أي نحو ٢١٠٥ أميال بحرية.
٢١٠٥ : ٤٣ = ٥٠ يوماً تقريباً.

ونلاحظ في صدد الرحلة من عدن إلى سيلان عدداً من العوامل تجعل القول إن شهراً يكفي للوصول إلى الهند وسيلان قولاً معتدلاً ومعقولاً. فالخط البحري بين عدن وسواحل الهند أقرب كثيراً من سواحل إفريقيا إلى مصدر الرياح الموسمية على مرتفعات القارة الآسيوية. وهذا يفترض أن الرياح إذن على هذا الخط أقوى منها عند سواحل إفريقيا. وقد لاحظ بريتر ذلك^(١)، حتى أكد أن معدل سرعة السفن بين موباسة وعدن، مع توقف في مقديشو، يبلغ مائة ميل لا خمسين^(٢). كذلك نلاحظ أن المسير من عدن إلى سيلان يميل عن الاتجاه الشرقي إلى الجنوب. وهذا يجعل زاوية الريح على محور السفن المتجهة إلى سيلان تزيد على خمس وأربعين درجة، وهي زاوية جيدة إذا ما قورنت بزاوية محور السفر من موباسة إلى عدن. وهذا عامل آخر يحفزنا على القول إن الشهر الذي قيل إن الرحلات إلى الهند كانت تستغرقه، لا يكفي للرحلات الذاهبة من مسقط فقط، بل وربما من عدن أيضاً.

ولمّا كان موسم الرياح الشمالية الشرقية يستمر نحواً من خمسة أشهر أو ستة أشهر، ففي إمكاننا أن نتصور قدرة السفن على الإبحار من عدن إلى الهند

(١) Prins: op.cit., p. 20

(٢) Prins: ibid., p. 14

أو ميلان، وتبادل البضاعة، والعودة إلى عدن، ضمن الموسم الشتوي ذاته، حتى لو لم نأخذ في حسابنا أن رحلة الإياب أسرع من رحلة الذهاب، لأن الرياح تدفع السفن من الخلف وهي مقبلة من الهند في الشتاء^(١). كذلك لا بد من أن نلاحظ أن السفن المبحرة إلى ميلان تستطيع أن تكون أسرع من تلك المبحرة إلى الهند، لأن زاوية مواجهتها للرياح الموسمية أكبر، لكن هذا التأخير النسبي تعوّضه السفن في إيابها من الهند، لأن اتجاه الرياح الضاربة في مؤخرة السفينة في رحلة العودة يكون أقرب إلى محور السفينة العائدة من الهند، منه إلى محور السفينة العائدة من ميلان^(٢).

ولكن، لا ننصوّرن أن السفن كانت تسافر إلى الهند ثم تعود، أو تسافر إلى ميلان مباشرة. فلعل طول الموسم الشتوي كان يسمح لها بالسفر إلى عدد من المحطات في رحلة واحدة، فتعود بعدئذ إلى عدن أو مسقط أو الخليج، محملة بالبضاعة المطلوبة، قبل أن تهب رياح الصيف الموسمية العاتية.

(١) Villiers: op.cit., p. 57

(٢) وضع حوراني ثبناً لبعض المسافات وما يستغرقه اجتيازها، وهو لا يباقي تقديرًا: 'Houreni', op.cit., p. 111

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u_{\text{eff}}$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

$$u = \frac{1}{2} \left(\frac{1}{\sqrt{2}} \right)$$

الفصل الخامس

الإيلاف ومؤسساته

أولاً: الوظائف المكيّة

أ. معنى المؤسّس

لم تكن مكيّة دولة عظيمة تمتلك جيوشاً أو أساطيل لحماية تجارتها حماية عسكرية. ولم تكن حتى دولة متوسطة مثل مملكة حمير أو مملكة الأنباط لتها بها القبائل وترسخ لحكمها. بل لم تكن في قوة مملكة الحيرة أو مملكة الفرس لتجنّد الأعراب في خدمتها. ولكنها كانت طامحة إلى مهمة تحتاج إلى نمط من أنماط القوة المذكورة، أو تحتاج إلى أسلوب آخر مبتكر، يُجلب السلام على طرق تجارتها ويحمي مقر هذه التجارة وقيادتها، من غير قوة عسكرية متفرّغة. وهذا الأسلوب الآخر الساعي إلى التجارة في ظل السلام غير المسلّح، يبدو ربما فكرة غير مضمونة. فالسلام الذي لم تحييه قوة عسكرية، لا بد وأنه كان سلاماً غير مستقر، والتجارة التي سارت في ظله تجارة غير مضمونة. لكن ما حدث في الواقع كان مخالفاً للمعهود. إذ إن القوة العسكرية التي امتلكتها الدولتان الكبيرتان آنذاك بيزنطة وبلاد فارس، بدت عاجزة تماماً عن تسيير التجارة الدولية وحماية خطوطها الكبرى، حين استطاعت قريش أن تحمي تجارتها، لا بالقوة العسكرية، وكانت تفتقر إليها، بل بالمؤسسات المختلفة التي أنشئت شيئاً فشيئاً حول هذه التجارة ومن أجلها.

ولا بد، قبل معالجة التفاصيل، من الإشارة بلا لبس ولا غموض، إلى أن بعض هذه المؤسسات سبق نشوء الإيلاف. وليس في مكنتنا إذن أن ندّعي أن

نظام النسيء أو نظام الأحلاف أو الأشهر الحُرُم مثلاً قد ظهرت في إثر الإيلاف لتكاملته وتنظيم مختلف جوانبه. لكن الإيلاف القرشي، على نحو ما سنبين فيما يلي، استطاع أن يتكيف مع المؤسسات الدينية والاجتماعية التي كانت قائمة في مكة، وأن يدرجها في منظومته، وأن يضيف إليها مؤسسات أخرى مثل الحماسة، لتنظم معاً في تشكيل ديني وسياسي واقتصادي واسع انصهرت فيه جهود القبائل العربية، من غير قسر أو قهر عسكري. فكان الانتظام الديني والسياسي والاقتصادي هذا أضمن للتجارة المكية وقوافلها من أية قوة عسكرية يمكن أن تمتلكها أية دولة. وقد كانت هذه المؤسسات مبعث إعجاب بعقريه القيادات القرشية وتنوع الأساليب التي اتبعتها بمرونة وحنكة وحكمة جعلت التجارة المكية تواصل عملها بسلام ومثابرة وثبات في وسط منطقة اصطفت أطرافها في حروب ضروس، عطلت التجارة الدولية على جميع الخطوط، إلا خط القوافل المكية^(١).

ومن المؤسسات التي اصطلحنا على تسميتها مؤسسات الإيلاف رغم نشوء بعضها قبل نشوء الإيلاف نفسه، تلك التي أحياها قصي بعد استيلائه على مكة. فعلى الرغم من أن البيت الحرام كان محتجاً تزوب إليها العرب منذ أيام خزاعة على الأقل، على ما تقوله جميع المصادر الإسلامية التاريخية، فإن هذه المصادر قلما تذكر شيئاً عن الرفادة أو السقاية أو الأشهر الحرم وما إليها قبل عهد قصي بن كلاب. فما قبله يلقه ضباب يصعب على المدقق اختراقه بمقدار ولو مقبول من الدقة التاريخية الجديرة ببعض الثقة. وحتى قصي نفسه لم يحظَ بقبول كل المؤرخين أنه شخص حقيقي. وقد استند هارتمان في مقالته عن قصي، إلى نص نبطي ورد عليه اسمه، ليقول إن قصياً كان شبه معبود عربي قديم، انتقلت عبادته من الأنباط إلى مكة مع دخول قريش في المدينة^(٢). وأضاف هارتمان أن قصياً شخص أسطوري مثل كنانة وقريش، وأن أسطورته دخلت مكة نحو سنة

(١) Simon: Hums II, p. 230. وبيضون: الحجار...، ص ٧٨. ويتحدث بيضون عن أمن

الإيلاف لا الأمن المفروض عسكرياً.

(٢) Hartman, Martin. Qusayr. Zeitschrift für Assyriologie, XXVII (1912), ss. 45, 46

٣٠٠م. تقريباً. لكن قصر سلسلة النسب التي تربط الرسول بقصي (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي)، بالمقارنة مع سلاسل النسب الطويلة التي حرص العرب على حفظها ومعرفتها ربما أكثر من حرص أي شعب آخر عليها، تدفعنا إلى الشك في نظرية هارتمان، خصوصاً وأن قصياً كان بموجب هذه السلسلة، والد جد عبد المطلب، جد الرسول الذي رباه بضع سنوات في كنفه. وليس من شك في أن بين شيوخ مكة الذين أدركوا الإسلام، من عاصر عبد المطلب وغيره، ممن رَوَوْا تواريخ أنسابهم القريبة. ولم يكن متعذراً أن تُحفظ ذكريات عمرها قرن ونصف قرن أو حتى قرنان حفظاً معقولاً، على رغم أن الذكريات بهتت وغمضت لأنها تُنقلت برواية كابر عن كابر، حتى تستنى لها من يكتبها بعد ظهور الإسلام.

لم يتفق كثرة الباحثين مع هارتمان في مقالته هذه، بل ارتأى عدد منهم أن قصي بن كلاب إنما كان شخصاً حقيقياً، فقال بيترز إنه استولى على مكة مع رجاله فيما بين سنتي ٤٠٠ و ٤٢٥م. تقريباً. وارتأى حَمَوْر أن قصياً وُلد سنة ٤٠٠م تقريباً، واستولى وهو في الأربعين على مكة^(١). واقترب تقديرهما من تقديرنا فيما سلف. ولكن أياً تكن حقيقة أمر قصي نظل قصته في المصادر العربية الإسلامية ذات دلالة تاريخية، لأنها في أية حال تعبر عن مفهوم القرشيين للاستيلاء على مكة وما يعنيه هذا الاستيلاء من وظائف ومهام يضطلع بها القوم لتنظيم الحياة السياسية وتنظيم القيام على الحرم وخدمته. ولقد سبقت الإشارة إلى قصة استيلاء قصي على البيت وإخراجه خزاعة. لكن التدقيق في نصوص الروايات العربية يبين لنا بوضوح ما كانت أغراض قصي من هذا الاستيلاء. فيقول ابن هشام في السيرة: «فراى قصي أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة». فالمسألة كانت إذن مسألة استيلاء على إدارة شؤون الكعبة. وهذا مؤكد في غير موضع من السيرة، إذ نازع قصي صوفة في أنها كانت أول من يرمي الجمار في مِنى «فأتاهم قصي بن كلاب بمن معه من قومه من قريش وبكتانة

(١) Peters: The Commerce of Mecca.... p. 11. وحمور: المرجع السابق، ص ٣٩، ٣٢. وكذلك يمشون: المعجاز... ص ٣٩، ٣٧.

وقُضاعة عند العقبة، فقال: لَنُحْنِ أَوَّلِي بِهَذَا مِنْكُمْ، ففَاتَلَوْهُ، فاقْتَتَلَ النَّاسُ قَتَالاً شَدِيداً ثُمَّ انْهَزَمَتْ صَوْفَةُ، وَغَلِبَهُمْ قَصِيٌّ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ. وَيُؤَالِي ابْنُ هِشَامٍ رَوَايَةَ الْوَاقِعَةِ إِذْ يَقُولُ: «وَانْحَاذَتْ عِنْدَ ذَلِكَ خَزَاعَةَ وَبَنُو بَكْرِ عَنْ قَصِيٍّ وَعَرَفُوا أَنَّهُ سَيَمْنَعُهُمْ كَمَا مَنَعَ صَوْفَةَ، وَأَنَّهُ سَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَمْرَ مَكَّةَ». وَبَعْدَ الْقِتَالِ وَالتَّحْكِيمِ قَضَى الْحَكَمُ: «بِأَن قُضِيَ أَوَّلِي بِالْكَعْبَةِ وَأَمْرَ مَكَّةَ مِنْ خَزَاعَةَ... وَأَن يُخْلَى بَيْنَ قَصِيٍّ وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ وَمَكَّةَ»^(١).

ثم يقول ابن هشام: «فَوَلِيَ قَصِيٌّ الْبَيْتَ وَأَمْرَ مَكَّةَ... إِلَّا أَنَّهُ قَدْ أَقْرَ لِلْعَرَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَرَاهُ دِيناً فِي نَفْسِهِ لَا يَبْغِي تَغْيِيرَهُ، فَأَقْرَأَ آلَ صَفْوَانَ وَعَدَوَانَ وَالنِّسَاءَ وَمَرَّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ... فَكَانَ قَصِيٌّ أَوَّلَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَصَابَ مُلْكاً أَطَاعَ لَهُ بِهِ قَوْمُهُ، فَكَانَتْ إِلَيْهِ الْحِجَابَةُ وَالسَّقَايَةُ وَالرَّفَادَةُ وَالنَّدْوَةُ وَاللَّوَاءُ فَحَازَ شَرَفَ مَكَّةَ كُلِّهَا»^(٢).

لقد كان واضحاً تماماً في الروايات الإسلامية (وهي إذا افترضنا أنها لم تعبر عن واقعات تاريخية فهي على الأقل تعبر عن مفهوم القرشيين للسلطة في مكة) أن ولاية البيت ومفتاح الكعبة والمؤسسات المواكبة لهذه الولاية هي التي كانت موضع الصراع^(٣). وإذا أخذنا قول ابن هشام: «فَأَقْرَأَ آلَ صَفْوَانَ وَعَدَوَانَ وَالنِّسَاءَ وَمَرَّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ» على أنه يثبت أن النسيء والإجازة من عرفات والمزدلفة كانت قائمة قبل قصي، فإن أمر المؤسسات الأخرى كالحجابة والسقاية والرفادة ليس واضحاً تماماً. وقد يكون بعضها سابقاً وقد لا يكون. إلا أن عصر قصي، وهو في رأينا أوائل القرن الميلادي الخامس، كان عصراً تأسيسياً مهماً للتنظيم الذي نشأ وتطور حول الحرم المكي في الجانبين التجاري

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦. وراجع كذلك قصة قصي في المتنق، ص ١٤ - ١٩، ٨٢ - ٨٤. عن صوفة أنظر الأزرقى: ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٦، ١٣٧. وقارن الأنديلي: نشوة الطرب، ٣٢٣ - ٣٢٥. والبلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق حميد الله، ص ٤٩ - ٥٣.

(٣) راجع في هذا المحيز، ص ١٦٤، ١٦٥. وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٣٥ وما بعد. والأنديلي: نشوة الطرب، ص ٢١٣ - ٢١٥. و Crone op cit, p. 188.

والديني معاً لأنه على الأقل طوّر وظائف القيام على خدمة الحرم المكي، وربما استحدث وظائف. ذلك معرفته وقف على معرفة ما كان قبله، وهو غير ميسور الآن.

ب- علاقة قصي بالتجارة

هل استولى قصي على خط التجارة المار عبر مكة، وهل كان ذا طموح تجاري ما؟ لقد أخطأ سيمون حين قال إن المصادر لا تذكر شيئاً عن نشاط قصي التجاري. صحيح أن معظم ما لدينا من مصادر إسلامية لا يحفل بكثير عن هذا النشاط، لكنّ ثمة نصاً مهماً في «منتقى» ابن حبيب يؤكد أن السيطرة على الخط التجاري عبر الجزيرة أو في الحجاز على الأقل، لم تكن فكرة غائبة عن ذهن قصي. فيقول ابن حبيب: «وكان أول مال أصابه قصي بن كلاب أنه كان رجل من عظماء الحبشة أقبل إلى مكة بتجارة فاعها ثم انصرف يريد أهله فنبهه قصي وقتله وأخذ ماله»^(١). فنواخذ قصي بظاهر النص لبداهة المدقّق وكأنه نوع من قطاع الطرق، فيغصب الناس مالهم وهم عزّل في البراري. لكن المشروع السياسي الذي بدأ قصي مصمّماً على تحقيقه في مكة ومن خلالها، لم يكن شأنه نفي التهمة فقط، عن هذا المؤسس، بل إضفاء أبعاد جديدة أيضاً على المهمة الموكلة إلى المؤسسات التي أنشأها في مكة. فهل أراد الرجل تأسيس تجارة مكّية مستقلة؟

يقول سيمون إن معظم المصادر الإسلامية تربط ظهور مكة بقيام التجارة عبرها، ربط السبب بالنتيجة، على أن التجارة هي النشاط الاقتصادي الأول في المدينة. ولذا حاول بعض الدارسين أن ينسبوا إلى قصي أنه نظّم هذه التجارة. واعتمد سيمون تاريخين محتملين لرمي قصي، وانتهى إلى أن مكة لم تكن تستطيع عندئذ أن تمتلك أي تجارة مستقلة، فلا في زمن بهرام الخامس ملك الفرس (٤٢٠ - ٤٤٠ م). ولا في عهد فيروز بن يزدجرد (٤٥٧ - ٤٨٣ م). كانت مكة في رأيه فادرة على تسيير تجارة مستقلة، لأن اليمن في ذلك الزمن كان

(١) المنتقى، ص ١٨.

يسيطر على طريق البخور ويسير عليها تجارته. وافترض سيمون أن استقلال اليمن يعني سيطرته على تجارة القوافل عبر جزيرة العرب، وأن ضياع هذا الاستقلال بالاحتلال الحبشي، أنهى سيطرة اليمن على تجارة القوافل^(١). ولا شك في أن بعض ما ارتآه سيمون صحيح، لكنه أخطأ فيما يلي:

- أن تأسيس تجارة مكّية مستقلة يعني تأسيس تجارة مكّية دولية، وهذا غير صحيح، لأن التجارة المكّية ظلت على الأرجح مستقلة ومحلية، وربما نقلت اللبّان من اليمن، حتى نشأ الإيلاف في أوائل القرن السادس، فأتسعت هذه التجارة عندئذ لتشمل البضاعة الآتية من أسواق الشرق إلى أسواق الغرب. وهذا يعني أن قصياً كان يستطيع أن يُنشئ لمكة تجارته المحلية أو شبه المحلية المستقلة دون أن يتعارض هذا مع سيطرة اليمن على تجارة الشرق الدولية.

- أن تجارة اليمن وتجارة مكة تعارضتا بالضرورة. والحق أن المصادر تحفل بالإشارات إلى أن المكّيين تعاونوا مع اليمنيين في حقب مختلفة آخرها الوفود القرشية التي جاءت إلى سيف بن ذي يزن لتهنئته على انتصاره. فاليمن في معظم حقب التاريخ، وباقي الدول المجاورة للمصحراء العربية، لم تستطع أن تفرض سلطانها بالقوة العسكرية على قبائل العرب، وكانت تُصاينهم وتُخضعهم لحلفاء وشركاء. وأغلب الظن أن تأسيس تجارة مكّية مستقلة في عصر قصي لم يكن غرضه ولا كان طموحه الاستيلاء على خط التجارة الدولية من اليمن حتى الشام، بل في أقصى الحدود، تنشيط التجارة المحلية وتحسين الحصّة المكّية، من الأسواق والمواسم السنوية، وتعزيز المهمة التي كانت تضطلع بها قريش على ما يبدو، في نقل اللبّان اليمنى إلى أسواق بيزنطة.

- إن سيمون لم يلاحظ أن ما كان يجري في اليمن في النصف الأول من القرن الخامس يعزّز الاعتقاد أن قصياً كان فعلاً مهتماً بإنشاء تجارة مكّية، وأنه نقل ريثما بعض ولائه إلى ملوك اليمن. ففي ذلك العصر كان أسعد أبو كرب قد طرد النفوذ الحبشي من اليمن وأقام حكم الحميريين اليهود، على ما سلف في:

Simon: Hums et DHI..., pp. 211, 212 (١)

«الصراع في جنوب الجزيرة العربية»، أعلاه. وفي المقابل كان قصي يستولي على مكة بمعونة قبصر، إذا صح قول ابن قتيبة الشهير. ولكن ما الذي يحدو قصياً، وهو حليف محتمل لقبصر، وقد نصرته قبائل عذرة المعروفة بميلها إلى الروم، على الإشاحة عن قبصر ومماشاة الحميريين؟ إن التاريخ حافل بمثل هذه الحوادث السياسية. فمن يسعى إلى السلطة يُفقد الوعود ويتوَسَّل العون حيثما تيسر. أما إذا استوى على عرشه فإن الحسنات تختلف. ويؤكد حدوث انقلاب قصي هذا أن «أول مال أصابه» كان من «رجل من عظماء الحبشة». والحبشة هم حلفاء بيزنطة، وهم الذين طردهم أسعد أبو كرب من اليمن. والتاجر الذي قتله قصي لم يكن حبشياً فقط، بل «من عظماء الحبشة». وقد يكون ذاك آخر عهد للحبشة بمكة في ذلك العصر، وقد تكون تلك هي إشارة الانقلاب السياسي الذي انقلبه قصي، بعدما ارتأى أن مصلحته التجارية تقضي أن يساير الحميريين اليهود، وإلا فقد سلته باللبان ومصادره^(١).

ومن ناحية أخرى أكدت المصادر أن مؤسسات تنظيم الحرم المكي التي يُنسب إنشاؤها لقصي إنما كانت على صلة مباشرة بالتجارة قدر اتصالها بالدين أيضاً. فتذكر الروايات أن مضافاً بن عمرو الجهمي، قال في إحدى خطبه لحثّ المؤمنين على حماية الغرباء في الحرم جلباً للتجار: «ولا تظلموا من دخله وجاءه معظماً لحرمته أو آخر جاء بايعاً لسلعته أو مرتغباً في جواركم»^(٢). ولم تكن دار الندوة التي أنشأها قصي بعيدة عن أمور التجارة. كانت المشاورة تُقضى فيها، وكانت ملاصقةً للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشامية من الكعبة. لكن القوافل أيضاً كانت ترحل منها للتجارة، وفي فنائنها كانت تحط حمولتها إذا رجعت^(٣). وكان في دار الندوة، في تقدير بعض الباحثين، نوع من

(١) ابن قتيبة: المعارف، ص ٦٤٠، ٦٤١. وكذلك Hamidullah: Al-Tijar, p. 296. وانظر منازل قبلى عذرة شمال وادي القرى بين الحجاز والشام في مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٧٨، ٧٩.

(٢) الأزرقي: ج ١، ص ٤٨. وانظر الشريف: المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٣) هاغوت: مادة مكة. وانظر الشريف: المرجع ذاته، ص ١١٥.

المحفوظات، لحفظ المعاهدات والمواثيق التجارية والمحالفات. وكان من مهام القائمين على دار الندوة، أن يعينوا التجار بالمشورة والدرس والنصح وتبادل الخبرة، وأن يشرفوا على جمع المكوس^(١).

ج - السياسة والحرب

لكن دار الندوة كانت في الأصل مؤسسة سياسية أنشأها قصي، على ما ترويه المصادر. وكانت تؤدي نوعاً من القيادة الجماعية. وقد قارن مونتغمري - وات الملاء المكّي في دار الندوة بمجالس أئمة الديمقراطية، فقال إن المساواة في نظام مكة السياسي لم يبلغ ما بلغته المساواة في أئمة. ومع أن أعضاء الملاء كانوا متساوين، إلا أن المكّيين اهتموا على ما يبدو إلى طريقة لاختيار ممثلهم في هذا المجلس. ولكن الملاء كان أعظم وأقدر على تحمّل التبعات من الإنكليزية الأئمة، وكانت قراراته تستند إلى صفات رجاله وسياستهم، أكثر مما كانت تستند إلى بلاغة قد يُبدّل الباطل حقاً والحق باطلاً. وفيما كانت المجالس الأئمية تقدّم الأخلاق والمثل على الصفات البشرية الأخرى، كان المكّيون مهتمين أكثر بالكفاءات العملية والجدوى في القيادة^(٢). وكانت دار الندوة تجتمع لبحث شؤون مكة، وكان يلتزم في الدار أيضاً مجلس العائلة أو نادي القوم لتداول الشؤون الخاصة بالبطون والأفخاذ، دون سائر العشائر. ولا شك في أن الثراء كان من المؤهلات للنفوذ السياسي في هذه المجالس. لكن السن وقوة العشرة والخبرة والحكمة كانت من القيم المكّية المرموقة. ولم يكن في قرارات دار الندوة ما يُستَم منه أي نوع من أنواع القسر، بل كان التزام الإجماع والتقليد والعرف يوحى للمكّيين سلوكاً جماعياً يبدو اختيارياً^(٣). وقال الشريف إن قرارات مجلس الملاء لم تكن ملزمة للقبائل إلا عند الإجماع، ولذا لم يكن لعشيرة سلطان على عشيرة، بل كانت العشائر حرة تماماً، لكن اشتراكها معاً في المصلحة

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٧، ١٤١. وكذلك: Haji Hassan: op.cit., pp. 75, 76.

(٢) Montgomery-Watt: Mohammad at Mecca..., pp. 9, 10 (٢).

(٣) Rabbath: L'Orient Chrétien..., p. 173 (٣).

كان يخفف من غلواء هذا الأمر^(١).

وإذ كانت العتائر خاضعة اختياراً لمجلس الملاء، كان المجلس مصدر السيادة المكيّة. ذلك أن مدينة مكة كانت مستقلة وتتمتع بالسيادة التي تمتعت بها كل الدول المستقلة، كلّ في نطاقه. وكانت تعقد الموائيق والمعهود مع الأجانب وتقيم العلاقات معهم، دونما رجوع إلى أي سلطان غير سلطان الملاء. وكانت العلاقات بالخارج ينظمها سفير مُنافر، أي مُحاجم، وظيفته يتوارثها الأبناء عن الآباء. وقد تحدث ابن عبد وبه في «عقده الفريده»، وكذا المقرئزي في «الخبر عن البشر»، عمّا يشبه وزير المخرحية في التظم السياسية الحديثة، فكان في دار الندوة مجلس من عشرة يمثلون مختلف البطون القرشيّة، فإذا نشبت حرب أرسل السفير المنافر بسلطات مطلقة. وكان عمر بن الخطّاب يشغل هذا المنصب قبل الإسلام. ومن مهام هذا المنصب أيضاً أن يُتَافَر السفيرُ القبائل التي تتحدى السلطة المكيّة^(٢).

ولم تكن المؤسسة السياسية المكيّة هذه مجردة من الأداة العسكرية، وإن كان معظم هذه الأداة من حلفاء قريش، لا المكيّين أنفسهم. ذلك أن سر القوة العسكرية التي مكّنت قريشاً من أن تسود القبائل هو أن الأحلاف جمعت للقرشين ما لا يُقْبَلُ لأية قبيلة أو حلف بين الأعراب به. لقد كانت مشكلة بيزنطة والفرس مع قبائل العرب، أن هذه القبائل كانت قادرة على الدوام على قطع خطوط التجارة الدولية. وقد ترددت الدولتان بين سياسة القمع العسكري التي أثبتت عقمها، وبين المصانعة والمخالفة. لكن للمصانعة أو المخالفة ثمناً كانت الإدارة البيزنطية أو الفارسية تدفعه لكفّ شرّ الأعراب، أو طلباً لحمايتهم. وكان موطن ضعف هذه السياسة أن القبائل الحليفة كثيراً ما كانت تطلب ثمناً مزيداً أو تطمح إلى حصة في التجارة أو في مكاسبها. وقد يبلغ بها الطموح ما يُلغى بتدمير من سمي إلى السيادة السياسية الكاملة. أما مكة، فإنها لم تصطنع من القبائل

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣.

(٢) ابن عبد وبه: المقد... ج ٣، ص ٣١٤. وكذلك Hamiddullah. Al Tisi..., pp. 296, 297.

حلفاء وخفراء لقوافلها أو مقاتلين مرتزقة^(١)، بل انها اشركت هذه القبائل بتجاريتها، فلم تعد من حاجة إلى حراسة أو خفارة. بل ان حروب القجار قد تكون دليلاً على أن تجارة القبائل والقوافل لم تعد بفضل المشروع المكي والإيلاف القرشي بحاجة إلى من يحميها من القبائل، بل إلى من يحميها من الدول أو الدويلات عند أطراف الجزيرة العربية. وهذا التبذل الحاسم في موقف القبائل العربية من تجارة القوافل على الأرجح، هو الذي جعل هذه التجارة آمنة مزدهرة.

لقد جمعت مكة القبائل من حولها على مصلحة مشتركة، فأصبحت قدرة دولة الأطراف على إغراء القبائل ضعيفة للغاية، وتحولت قريش إلى ما يشبه الزعامة الاقتصادية والسياسية. ولم يكن صعباً أن تتحول إلى زعامة عسكرية أيضاً طالما أن القبائل كانت ترى أن مصلحتها هي في نصرة قريش، وحماية تجارتها.

٥٥ - لغز الأحابيش

ويؤثر في المصادر الإسلامية إجمالاً أن بين حلفاء مكة الذين حاربوا إلى جانب قريش في حقب متوالية، ما يُسمى الأحابيش. وقد ارتأى لامنس أن هؤلاء الأحابيش إنما كانوا من الرقيق الحبشي الذي استقر في مكة وجوارها بعد هزيمة أبرهة، فتكاثروا وانتظموا، وصار حليفاً ونصيراً لمكة، ينفر معها إلى الحرب. وقد خالف مونتغمري - وات هذه المقالة وارتأى أن الأحابيش كانوا قبائل عربية أقحاحاً اجتمعوا عند جبل حُبَيْشِي في أسفل مكة وتعاهدوا على نصرة قريش وحماية الحرم، فسُموا بالأحابيش^(٢). ويبدو أن هذه المسألة لم تتجلى بعد عن رأي قاطع، ولا بد لها من بحث مزيد. إلا أن ما يهمنا في هذا المقام هو المكانة التي تبرأها الأحابيش في إطار القوة العسكرية المكيّة وما إذا كانت هذه المؤسسة

(١) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., pp. 10, 11. ويضون: الحجاز... ص ٥٥.

(٢) Lammens, Henri: Les Aḥābiṣ et l'organisation militaire de la Mecque, au siècle de l'hé-

Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., pp. 425 - 482. وكذلك: gire, Journal Asiatique, 1916, pp. 425 - 482

Mecca..., Excursus A, pp. 154 - 157

قد أنشئت مع الإيلاف في مطالع القرن السادس أو قبل ذلك الزمن، أو بعده.

وقد جاء في ذكر صلح الحديبية في «السيرة النبوية» أن بعض الرسل الذين أوفدتهم قريش لمفاوضة المسلمين لم يستيفوا سلوك القرشيين، ومنهم الحُلَيْس بن يزيد من عبد مناة بن كنانة، الذي قال لزعماء مكة: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم. ابصّد عن بيت الله مَنْ جاء معظماً له؟ والذي نفس الحُلَيْس بيده تَتَخَلَّنُ بين محمد وبين ما جاء له أو لَأَنْفَرَنَ بالأحابيش نفرة رجل واحد»^(١). وهذا الخبر يدلُّ على الأقل، على أن الأحابيش كانوا يشكلون قوة عسكرية حليفة لمكة في العهد النبوي. إلا أن هذه القوة كانت سابقة للإسلام ولا شك. إذ يُفرد محمد بن حبيب في «المنقّ» صفحات لأخبار الأحابيش في الجاهلية^(٢). فيقول في بعض ما يقول: «والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والقارة بنو الهون بن خزيمة وهم عَصَل والدِيش وبطونُها كلها وبنو المصطلق من خزاعة، وذلك لأنهم كانوا حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة فدخلوا معهم. فلما اتفقا بذات نكيّف وهو من ناحية يلملم، وقائدُ الناس يومئذ المطلب بن عبد مناف وهو في ألف من بني عبد مناف، والأحابيش، ومع بني عبد مناف حلفاؤها من قريش، وقائدُ الأحابيش حُطْمُط بن سعد أحد بني الحارث بن عبد مناة وأبو حارثة والحبيش بن عمرو وهم رؤساء بني الحارث بن عبد مناة... ثم اجتمعت قريش والأحابيش جميعاً فأخرجوا بني ليث من تهامة»^(٣). إن هذا الخبر إذا صحَّ بما فيه، فإنه يدل على أن الأحابيش كانوا حلفاء لمكة منذ أوائل القرن الميلادي السادس، إذ كان يقودهم ويقود قريشاً المطلب بن عبد مناف أخو هاشم المؤسس المفترض للإيلاف.

غير أن «المنقّ» نفسه يتضمّن إشارة غير مباشرة، قد تدل على أن هذه المؤسسة العسكرية التي كان يشكلها تحالف الأحابيش مع مكة كان سابقاً حتى

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٣٩٩.

(٢) المنقّ، ص ١٢٦ - ١٣٢، وكذلك ص ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٣٠، ٢٥٢.

(٣) المنقّ، ص ١٢٦، ١٢٧.

للإيلاف وزمن نشوئه. ففي موضع آخر من الكتاب، يروي محمد بن حبيب موقعة أخرى نصرت فيها الأحابيش قريشاً، ثم يضيف قوله: ولَمَّا غَلَبَ قَصِيٌّ عَلَى مَكَّةَ^(١). وبذلك يكون مؤسس دار الندوة، المجلس السياسي والتجاري في مكة، قد جمع حلفاً عسكرياً، ليكون هذا الحلف أداة عسكرية في يده. وإذا كان يتعدّر القول إن قصياً هو أول من جمع هذا الحلف من حول قريش، فإن خبر هذا الحلف يدعمه أن الحيا والمصطلق وهما من القبائل المذكورة ضمن الأحابيش، تنتمي إلى خزاعة، التي انضمت إلى حلفاء قريش بعد إخراجها من مكة، فيما ينتمي بنو مالك إلى كنانة، وهي من أحلاف قريش غير المنازحين.

ولا ندحّ هنا عن كرّ القول إن التنظيم السياسي والعسكري الذي ابتدعه القيادة القرشية قبل الإيلاف، لم يكن غرضه بالضرورة تسير التجارة الدولية، إذ يستطيع هذا التنظيم أن يسدّ حاجات أخرى أيضاً، منها القيام على نظام الحج والأسواق الموسمية المحلية وربما تنظيم تجارة اللبان اليمني لحساب الدولة الحميرية، أو من ورث الحكم في اليمن من بعدها. لكن الإيلاف، حين نشأ، استوعب فيما يبدو هذه المؤسسات وأدرجها في نظامه الواسع، بعدما اتسعت آفاق التجارة المكية. ولا شك في أن بقاء دار الندوة والحلف مع الأحابيش وغيرهما، قائمين حتى ظهور الإسلام، للدليل على استيعاب الإيلاف لهذه المؤسسات، وقدرته على تكيفها ضمن أطرها.

هـ- إطعام المحتاج والتجّار

من بين الوظائف الست التي قالت المصادر العربية الإسلامية إن قصياً أنشأها من أجل القيام على خدمة الحرم المكي، وهي الحجابة والبقاية والرفادة والندوة واللواء والرياسة، وظيفتان اختصتا بخدمة غير المكّين ممن يأتون مُحَرَّمين، وهما الرفادة والبقاية: «وكانت الرفادة حرجاً تُخرج قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيصنع به طعاماً للحنّاج، فيأكله من لم يكن له شعة ولا زاد، وذلك أن قصياً فرضه على قريش، فقال لهم حين أمرهم

(١) المتفق، ص ٢٧٦.

به: يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله [وأهله] وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يُخرجون لذلك كل عام من أموالهم خراجاً، فيدفعونه إليه، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام، ثم جرى في الإسلام إلى يومك هذا، فهو الطعام الذي يصنعه السلطان كل عام يبنى للناس حتى ينقضي الحج^(١). وقد سبقت الإشارة إلى الرفادة والسقاية، وحضر هاشم بن عبد مناف بشر زمزم والأقوال في ذلك. وتقديرنا وفقاً للمصادر، أن قصياً ربما أنشأ الرفادة والسقاية معاً، وإن كانت السقاية لا تعني بالضرورة أن بشر زمزم كانت هي مصدر السقاية منذ البداية، لأن مكة كانت تحتوي آنذاك عديدة، على نحو ما أسلفنا. فالرفادة والسقاية قائمتا منذ عهد قصي على الأقل، إن لم تسبقا عهده فأهملتهما جرهم ثم خزاعة على ما توحى به بعض النصوص^(٢). وأما حفر هاشم أو ابنه عبد المطلب لبشر زمزم فلملح كان تحسباً للخدمات وتنشيطاً للوظائف، بعد قيام الإيلاف وازدياد عدد الحجيج. وقد تداولت على هذه الخدمات والوظائف عهود أهملتها. فحقت البئر قبل رحيل جرهم ودُفن فيها الغزالان والسيف المذهبة^(٣)، ثم أحياها آخرون في عهود لاحقة، وفقاً لحمول حركة الحج والتجارة، أو ازدهارها.

وإذا كانت الرفادة والسقاية لا تنفردان وحدهما إقبال العرب على مكة للحج والتجارة، فإن إقبال العرب على مكة للحج والتجارة يستطیع أن يفسر نشوء الرفادة والسقاية. ولا بد من أن نلاحظ، أن الحج لم يكن في الأصل يفترق

(١) سورة ابن هشام: ج ١، ص ١٤١، ١٤٢. وانظر أيضاً المنق، ص ١٩. والأوائل، ص ١٦، ١٧.

(٢) الشريف، المرجع السابق، ص ١٠٧، ١١١، ١١٢.

(٣) Hawting, G.R.: The Disappearance and Rediscovery of Zamzam and the Well of the Kaba, B.S.O.A.S., vol. 43 (1980), pp. 44 - 54. وانظر الشريف: المرجع السابق، ص ١٣٧.

مباشرة بمكاسب أو رسوم أو أموال نجسها قریش أو تنفاسها، أما التجارة فكانت مورد كسب عظيم، بل كانت المورد الوحيد للرزق في هذه المدينة الصحراوية. ولذا يمكن أن نجزم بثقة واطمئنان، أن الرفاة والسفاة لم تقوموا إلا بفضل التجارة ومكاسبها. ولولا هذه التجارة لما استطاعت قریش أن تُخرج الخُرج كل عام لإطعام الحجيج. بل ثمة من يرون أن قریشاً مديناً يبقاها للتجارة. وقد نجد في هذه العلاقة سبب ارتباط المواسم والمج مع التجارة المكة. فالتجارة هي المورد الذي أنفقت منه قریش على إعداد الخدمات لزوار البيت، فاستطاعت أن تنشئ نظامي الرفاة والسفاة. وفي المقابل، حلت الرفاة على قریش كثيراً من الفوائد الأدبية والمادية. فالمواكلة تُعدّ عقد حوار وحلفاً عند العرب. وكان الإطعام والضيافة من أعظم المحامد. فلما كانت قریش تُطعم الحجيج من مختلف القبائل العربية فكانت كانت تُعقد حواراً مع هذه القبائل. ولم يكن غريباً أن يسهل هذا مرور قوافلها آمنة في ممالك العرب. وتُعزّز إحساس القبائل بالقيادة المكية، ويُقدّم قریش على سواها من العرب. لأن الحرم المكي كان أمناً أمناً شبه مطلق، فلا يؤخذ فيه بثارة، ولا يُهدى على أحد ضمن حدوده كائناً ما كان السبب. وقد كان ذلك حال الأس أيضاً في حريرة العرب في الأشهر الحرم نظرياً، لكن الحرم الشامي كان أمناً كل أشهر السنة. حتى للوحش والطير. وقد دانت العرب لمكة في ذلك لحاحتها إلى منطقة آمنة ينشونها لاداء شعائهم الدينية وتبادل تجارتهم^(١).

وتشير بعض المصادر إلى أن السفاة لم تكن ماة على الدوام، إذ أسقى بعضهم الحجاج نبذاً ولبناً. بل إن أبا أمية بن الميمونة المخزومي كان يسقي الحجاج العسل. وكان يسقى زباد الركب. لانه كان أيضاً يُطعم الغائمين على قوافل التجارة^(٢). ولم يكن الإطعام والإسقاء حكراً لأحد، إذ كان لكل أن يُخرج من ماله ما شاء لهذا الأمر. لكن قول المصادر إن الرفاة والسفاة كانتا لفلان من

(١) الشريف: المرجع ذاته. ص ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١.

(٢) المسنن، ص ١٧٦ وما بعد. وكذلك انظر حوار علي ح ٥، ص ٨٣، ٨٤.

الفرشين، إنما يعني أن مربعة خملت على الفرشين كل عام فكثرتا يؤثرونها
 لصاحب الرفادة أو السفاة، فكان هو يتولى الإحراق في القوس الذي كُفِّ الإحراق
 فيه. وما زاد على ذلك من كرم الفرشين هناك أمره ليس شاه. وقد جمع قصي
 كل المآثر في حياته، لكن ابن هشام يقول إنه حين ذكر قصي ووفى عطته وكان
 عبد الدار يكرمه، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه، ودفع كل منعه...
 قال قصي لعبد الدار: أما والله يا بني لألحقت بالقوم. وإن كانوا قد شرفوا
 عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت نفعها له [السداة أو
 الجحابة]، ولا ينفذ لفرش لواء لحرها إلا أنت بذلك [اللواء]، ولا يشرب أحد
 بمكة إلا من سفاتك [السفاة]، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من
 طعامك [الرفادة]، ولا تطلع فرش امرأة من أمورنا إلا في ذلك [المروة]، فأعطاه
 داره دار الندوة، التي لا تقص فرش امرأة من أمورنا إلا بها، وأعطاه الجحابة
 واللواء والسفاة والرفادة^(١). ولما اختلف أساء قصي على أبيهم الأكبر بعد
 ممات أبيهم، تولى عبد شمس الرفادة والسفاة، لكن أحد هاشمياً من عبد مناف
 ولي الرفادة والسفاة من بعده، لكثرة أمثاله. وقبل إنه سقي هاشمياً لهشمه الخبز
 وإطعمه الثريد للتحاح بمكة^(٢).

ثانياً: المفائد السياسية والدينية

١- الخمس وشربة مكة

أحاطت فرش إبلاها مجموعة من المفائد السياسية والدينية التي كان
 بعضها قائماً قبل الإهلاك، كالأشهر الحرم، وشأ بعضها الآخر بعد الإهلاك،
 كالحماسة على الأرحح، وحلف الأحابيش رسماً. وبسبب ابن هشام إلى ابن
 إسحاق في السيرة النبوية قوله: «وقد كانت فرش، لا لفرش أقل القليل أم
 بعده، ابتدعت رأي الخمس رأياً رأوه وأداروه، فضالوا حتى سوا إبراهيم وأهل

(١) سيرة ابن هشام ج ١، ص ١١١، وكذلك انظر القاموس لسب، حسين عبد الله، ص ٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١، ص ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، والقاموس لسب، نظيف عبد الله، ص ٥٩، ٦٠، والسير، ص ١٦١، ١٦٥.

الحرمة وولاية البيت وقطان مكة وسكانها. فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الجبل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن علمتم ذلك استخفت العرب بحرمكم، وقالوا: قد عظموا من الجبل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوفوف على حرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويعترفون أنها من المناظر والحدود ودين إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - ويرون لساكن العرب (غير الخمس) أن يقفوا عليها وأن يقبضوا منها. إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم فليس يسمي لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظم غيرها كما نعظمها. نحن الخمس والخمس أهل الحرم. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الجبل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم^(١). ويتبين إذن أن قريشاً ابتدعت نظام الحماية لتسيير أهل الحرم من بقية العرب. والخمس (الجمع من الأخصس) هم في حرمهم: فرئيس كلها وخزاعة لتزولها مكة ومجاورتها قريشاً، وكل من ولدت فرئيس من العرب (من كانت أمه قريشياً)، وكل من نزل مكة من قبائل العرب. صمن ولدت فرئيس: كلاب وكعب وعامر وكلب بنو ربيعة بن عامر بن صعصعة. وأمههم محمد بن تميم بن غالب بن فهر. والحارث بن عبد شاة ومذحج من مرة من عد صاة من كاة بنزولهم حول مكة. وعامر بن عبد صاة من كاة ومالك وملكان ابنا كاة وثقف وعدوان وعربيع بن حنظلة ومازن بن مالك بن عمرو بن نهم وأمهما حدلة بنت فهر بن مالك بن النضر. ويقال إن بني عامر كلهم خمس لخمس إخوانهم من بني ربيعة بن عامر وجلافة وهو ربان بن خلوان بن عمران بن الحاف من قضاة وحناب بن هبل بن عبد الله من كلب وأمه أمية بنت ربيعة بن عامر بن صعصعة وأمه محمد بنت تميم الأدم بن غالب بن فهر. كذلك أدخلوا في الخمس كاة كلها^(٢).

والأخصس هو ابن البلد وابن الحرم المقسم المنتمي إلى الكعبة والحرم. ويلاحظ مما سلف، أن قريشاً توسعت في استيعاب الناس من القبائل المحيطة

(١) سيرة ابن هشام ج ١، ص ٢١٦. وانظر في الخمس أيضاً السمر، ص ١١٣ - ١١٦. والشريف، المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٢) السمر، ص ١٧٨، ١٧٩. والشريف، المرجع ذاته، ص ١٥٩.

بها، ولدخلت في الحُسن أصهارها، ولما نَح زوجَ الفرشة فونها، فاعتد ذلك
 حرقاً له. ورأى سيمون أن الحِصاة، وإن كانت مؤنة مينة، إلا أنها أجيبت
 بقريش عدداً من القبائل التي كان استباحها مهماً حاداً للتحلوة القرشية. فقد
 أحاط الحِصاة بالحرم المكي إحاطة السوار بالمعصم وجعلوه منطقة سلام لا
 يخرقه إلا من ينتهك العقيدة الذهبية^(١). ورأى أن في قول الله: ﴿لَوْلَمْ يَرَوْا أَنَا
 جَعَلْنَا خِزْيًا أَبَياً وَيُنْخَطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾... الآية (المكوت: ٦٧)،
 إشارة إلى هذا السلام الذي كانت التحلوة منعقدة لولاءه. وقد كانت عقيدة
 الحِصاة عاملاً مهماً في إنشاء حالة احتشاعية من صرثي البدوة والاستقرار،
 خرقها ضمان الحرمة المكية لا في الأشهر الحرم وحسب، بل طوال أشهر السنة
 أيضاً. ولذا كانت الحِصاة جرماً مكملًا لعهود الإيلاف^(٢)، إذ أفلتت منطقة
 خرقاً لا يحل فيها القتال في أي وقت، فكان أعظم المخرع عند العرب أن ينتهك
 الحرم وحلوه بعدوان أو بني أو قتال^(٣). وقد أصر سيمون على أن الحِصاة ما
 كان لها من معنى لولا أن قريناً كانت قد أفلتت تحلوة منطقة لها. ولستح من
 هذا أن معرفة زمن نشوء الحِصاة مهم جداً، لأنها تعني معرفة زمن نشوء التحلوة
 المكية المستقلة^(٤)، إلا أن هذا الافتراض يعني أن قريناً أعدت لكل شيء
 سلفاً، فأقامت التحلوة ونظام الحِصاة وعقدت عهود الإيلاف، وكأنها تفتد
 مخططاً دقيقاً. وهذا غير مرجح، بل المرجح أن تحلوة مكة توسعت تدريجاً
 وطاقمتها مشكلات، فأحدثت شرح مكة فنكر الحلول فلتنا نسى لها، بهرونة
 وحس واقعي. وفي تقديرنا أن ما ارتآه ابن الأثير في «الكامل في التاريخ»، أن
 عقيدة الحِصاة نشأت بعد هزيمة أرمه، هو رأي مطول جداً^(٥). فبعد محاولة
 الأحباش غزو مكة، وهي محاولة فاشتها بعض القبائل العربية، أعطمت العرب

(١) Simon, *op. cit.* pp. 230, 231

(٢) Simon, *ibid.* pp. 216, 217

(٣) حَقْوَر: المرجع السابق، ص ٩١

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبع مصر، بيروت، ١٩٦٥، ج ١، ص ٤٥١ - ٤٥٢.

وص ٦٣٩.

قريشاً وأرادت حماية الحرم وتنظيم هذه الحماية، وصادفت هذه الرغبة قبولاً لدى قريش حتماً، وتعاضمت ثقة مكة ومهادتها بنفسها، وتعاضمت التضاف العرب حول الحرم وما يمثل في العقيدة الدينية وفي التجارة أيضاً. وهذه الحوافز جميعاً هي أنسب ما يمكن تخيُّله لعل هذا الحل. فالأغراض التي تؤديها عقيدة الحماية هي الأغراض التي يمكن أن نحس إليها عدية تجارية مثل مكة، بعد غزوة فاشلة مثل غزوة أبرهة. وقد أبد كسز هذا الرأي^(١). ولما لم يقطع ابن إسحاق في نشوء الحماية أبغذ حملة أبرهة أم قبلها، أكد الأزدي، مثل ابن الأثير، أن هذه العقيدة ظهرت في مكة ومن حولها بعد فشل الغزوة الحبشية^(٢). وإذا استعرض ظهور مؤسسات الإبلان في تسلسل الزمن، ففي إمكاننا أن نتخيل التطور المتطفي التالي: في مرحلة التجارة المحتلة كانت قريش مثل أصحاب أي حرم آخر، يقيمون سوقهم ويحضرون أسواق الآخرين، فكانت الأشهر الحرم أمناً لكل القبائل العربية على حد سواء في أشهر معلومة من السنة. فلما أرادت مكة أن تسيطر قائلتها بالتجارة الدولية، أنشأت الإبلان الذي أعطاهما وحدها، دون غيرها من القبائل أمان الطريق. وبذا ارتفعت مصلحة القبائل مصلحة مكة. لكن غزوة أبرهة أفضت قريشاً بأن حرما وتجارها في حاجة إلى حماية أفضل تمنعها من أي غزوة محتملة، فكانت الحماية وسيلتها إلى ذلك، وقد ظهرت بدورها في المقاومة القبلية لأبرهة. واثبت حرب المحار أن الحماية التي أعدها قريش لحرما وتجارها بفضل عقيدة الحماية، استطاعت أن تردع الحيرة عن غزوة لحساب الفرس شبيهة بغزوة أبرهة التي كانت سيطرة تنص ولا شك نجاحها. وجعلت الحماية من الحرم نواة لعدد كبير من القبائل انضمت خلف القيادة القرشية، فاجتمع التجار من حول مكة آمين، وتعززت العلاقة بين قريش والقبائل بالعقيدة، فقام بعضها للدود من الحرم المكي وطفره وتطرق للدفاع عنه، مثلما فعل بنو عمرو بن تميم الذين ترعهم صلصل بن أوس، أو مثلما فعل

وهذين جنب الكلي من حطم الحرم الذي أشاء غطفان بدلاً لها من الحرم
المكي^(١).

ب - أهل الجلة والظلم

كانت للعرب منزلة أخرى، هي منزلة أهل الجلة، وهم عرب ممن يحتقرون
البيت الحرام، لكنهم لم يكونوا خفياً. ويقول محمد بن حبيب إن «بنازل الجلة
من العرب: تميم بن مرّ كلها غير معروف، وسليمان وضئ وحسي وظاعة
والغوث بن مرّ وليس هؤلاء بأسرها ما حلا تلقاً، وعدوان وعامر بن صعصعة
ودبيعة بن نزار كلها وفصاعة كلها ما حلا علافاً وحاباً، والأعصر وعثم وبجيلة
ويكر بن عبد ملة بن كانة وهذيل بن عدوكة وأسد وطىء ويلق... وكانت الجلة
يحترمون الصيد في السك ولا يحرّمونه في غير الحرم ويتواصلون في النسك
ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه فضلاً [يطبخ] فزلاهم السن ويجترّون من
الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتفون به، ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها
ولا يلبسون في نسكهم الحد ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت، ولا
يؤويهم ظل ما داموا محرمين، وكانوا يذمون ويأكلون اللحم، وأنصب ما
يكونون أيام نسكهم. فإذا دخلوا مكة بعد فراعهم تصدّقوا بكل حذاو وكل ثوب
لهم، ثم استكروا من ثياب الحصى ثوباً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب
جدد. ولا يجعلون بهم وبين الكعبة حذاء يمشونها بأقداحهم. فإن لم يجدوا
ثياباً طافوا عراة. وكان لكل رجل من الجلة حرم من الحصى يأخذ ثيابه. فمن
لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وإنما كانت الجلة تستكرى الثياب للطواف في
وجوعهم إلى البيت لأنهم كانوا إذا خرجوا حفاصاً لم يستحلوا أن يشتروا شيئاً ولا
يبيعوه حتى يأتوا منازلهم إلا اللحم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
هياض بن حمار المعاشمي: كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله صلى

(١) الألفاظ: ح ١٩، ص ٦٥ وما بعد. وانظر أيضاً: المرجع السابق، ص ٥٣. وكذلك:

الله عليه^(١). وقد روى ابن هشام رواية شبيهة، وإن زاد بعض التفاصيل كقوله: «فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الجبل، ألقاها إذا فرغ من طوائه، ثم لم يتنفع بها ولم يمتها هو ولا أحد غيره أبداً. وكانت العرب تسمي تلك الثياب: اللقى، فحملوا على ذلك العرب، فدانث به. ووقفوا على عرفات وأماضوا منها وطافوا بالبيت هراة، أما الرجال فيطوفون هراة وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا ذراعاً مفرجاً عليها ثم تطوف فيه... ومن طاف منهم في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها فلم يتنفع بها هو ولا غيره^(٢)».

وقد اشتهر الشريف بأن نظم عقيدة الخمس والحلة ابتدعت لمصلحة قريش الأدبية والتجارية. وقال: «إن قريشاً نظمت الحج والقدوم إلى مكة حسب ما تنفعه مصلحتها الأدبية والمادية، وكانت تبتدع من الأمور ما يحقق لها الاحترام ولبلدتها القدسية عند العرب، وما يحقق لها الكسب المادي... وإن هذه السنن التي فرضوها على العرب جميعاً هي في الحقيقة متصلة بشاغلهم التجاري، فإن الناس يطرحون أزواد [أطعمة السفر] الحل قبل الدخول في الحرم، حتى يتأهوا أزوادهم من أهل مكة... وكذلك... عليهم أن يلبسوا المآزر الأحصية وذلك حتى يشتروا ما يلزمهم من ذلك من قريش، وبذلك كانت توجد سوق نشطة في مكة في موسم الحج لبيع الملابس، وتخصص بعض التجار في بيع الأطعمة^(٣)».

ولا شك في أن بعض هذا الرأي صحيح وإن كان غير واف. فعقيدة الحماسة وعقيدة الجلة، إذا ما دقق في مبرراتها ومحللاتها، نحتريان الكثير مما تحتويه المعتقدات الشعبية الشائعة، مثل الإيمان بالأرواح عند عبات البيوت أو

(١) السخري، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١ وحضور المرحع السابق، ص ١٢١، وشريف: المرجع السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.

(٢) صورة ابن هشام: ج ١، ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٣) الشريف: المرجع السابق، ص ١٩٠، ١٩١.

السحر المرتبط بالملايس، وغير ذلك، مثل التعفف عن أطيب الطعام. وبهذا أن
 قرهشاً، وهم أهل الحرم، كانوا أقدر من أي قبيلة عربية أخرى على تبديل عادات
 الحج والإضافة إليها والحدف منها، وهم مقبوضون وغيرهم قد لا يحضر في كل
 عام ليراقب ما ابتدع من طقوس وما خلقي منها. وتدلّ النصوص على أن قرهشاً
 هي التي كانت تقيم الشعائر، فتقول ما يجب منها وما لا يجب. وبلاخط أن
 النص في السيرة يقول صراحة: «وقد كانت قرهش... ابتدعت رأي الحرس»
 وفي موقع آخر: «... ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا: لا
 ينبغي للحرس... ثم رفعوا في ذلك فقالوا: لا ينبغي لأهل الجبل أن يأكلوا من
 طعام جاموا به معهم... ولا يطرفوا باليت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب
 الخشن» ثم يقول: «فحملوا على ذلك العرب فدادت به»^(١). ولذا فليس
 مستبعداً أن يكون القرشيون قد راعوا مصالحهم في ابتداعهم الشعائر. لكن
 المصادر العربية نادراً ما تدفع إلى الاعتقاد أن الطعام في مكة كان تجارة، فني
 المصادر أن الرقادة كانت خراجاً تحرره قرهش إلى نصي. ولو كان نصي يجمع
 الأموال من قرهش لتاجر بالطعام، لما احتاجت قرهش إلى من يستعنها بحوافز
 دينية لتدفع رأس مال هذه التجارة. وحدث الرقادة في كل المصادر، على عكس
 ذلك، يؤكد أن الرقادة كانت خراجاً تحرره قرهش من أموالها لصنع الطعام
 للحجيج حتى يصدروا عن مكة. ولا يصح على ما نعلم، يُلحق أو يفهم منه أن
 قرهشاً أو صاحب الإبلاب كان يتقاضى الناس ثمن هذا الطعام، سوى قول ابن
 الأثير: «ويشترون من طعام الحرم». أما الباب فإن في قول ابن حبيب: «ثم
 استكروا من ثياب الخشن»، وفي موضع آخر: «ولما كانت الجلة تستكري
 الثياب... لأنهم إذا خرجوا محتاجاً لم يستحلوا أن يشتروا ثياباً ولا يبيعوه حتى
 يأتوا منازلهم، إلا العلم»، يدل على أن اكتراء الثياب من الجرمين كان دواجباً
 بين الحجيج. إلا أن هذا لم يكن لازماً واجباً على كل حاج من الجلة، لأن ابن
 حبيب يقول أيضاً: «وكان لكل رجل من العلة جرمتي من الخشن يملك»

ثيابه...^(١) وهذا يعني أن قميشاً خيّر الجبل بين أن يحالف كل منهم قريشاً بطوف بالبيت في ثيابه، أو أن يستكري ثياباً أو بطوف عرباناً. ونحيل إلى الاعتقاد أن الترويج لتجارة الملابس لم يكن سبباً لهذه الشعائر بل نتيجة لها، لأن قميشاً ربما أودت للعرب من الجبل أن تتعاقد وتتعاقد وتحالف مع المكيين، لا أن تستغل حاجتهم إلى الثياب لأسباب مالية بصرى. كانت قميش ترويض من العرب أولاً حمايتهم لمكة وتجارتها الدولية. لهذه التجارة هي مورد الرزق الأعظم. أما مكاسب تجارة الطعام واللباس في موسم الحج، فهي مرتبة أدنى.

وتحدثت المصادر الإسلامية العربية عن منزلة بين الخمس والجبل، هي منزلة الطلّس. وهؤلاء هم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وحك وصبة ولهاذ بن نزار. وفي الأسان أن الطلّس هو الذئب الثياب. وكان الطلّس في قول ابن حبيب: يصنعون في إخراجهم ما يصنع الجبل، ويصنعون في ثيابهم ويغسلون البيت ما يصنع الخمس. وكانوا لا يتحرون حول الكعبة ولا يستمرون ثياباً، ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يتحرون بناتهم، وكانوا يلقون مع الجبل ويصنعون ما يصنعون^(٢). وقد إدراج المصادر الطلّس هؤلاء في منزلة بين الجبل والخمس على أن علاقة خاصة كانت قائمة بين أهل اليمن وحضرموت وقريش. ولهذه العلاقة الخاصة استتجلت مستحيلة بعيدة الأثر في سياق استنطاق المصادر حول الإبل. ذلك أنها قد تشير إلى تحالف تجاري يعني مكّي قديم لا يرد ذكره على المصادر إلا في مواضع نادرة وضمن صنيع غامضة. ولا شك في أن عقيدة الطلّس التي كانت قائمة بوضوح قبل الإسلام، تدل على أن اليمنيين الذين كانت لهم العرب طويلاً وتزعموا لحوائل التجارة أحقاباً من الزمن، احتلوا مكة بالزعامة الدينية والسياسية والتجارية في أواخر القرن الميلادي السادس على الأقل. وربما بدأ هذا الاعتراف ينشأ بعد سقوط مملكة الحميرتين في سنة ٥٢٥ م. وتعاطف لدى هزيمة أبرهة وزوال الحكم الحبشي هناك.

(١) المستخر، ص ١٨٩. وابن الأثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٢. والمستخر، ص ١٩٠.

والأزرق، ص ١٩٠، ١٧.

(٢) المستخر، ص ١٧٩، ١٨٩.

وبلغت هبة قريش وحرمها مسلماً، فجعلت العرب يرتدعون عن أي تمزج إلى البيت الحرام، حالما يُعلن نية الحج أو الأشعر في مكة. وكانت أساليب الإعلان بذلك مختلفة. يقول المرزوقي في كتاب الأزمات والأمكنة: «كان الرجل إذا خرج من بيته حائلاً وداخلاً (أي متأسراً في الأشهر الحرم) أهدى وأحرم ثم قلّد وأشعر، فيكون ذلك أمناً في الشحلاء». والإعده أي شوق الهدي الذي سيقدّمه قرباناً. والإحرام دخول الحرم، والتقليد تعليق قلادة من جلد في احتاق الهدي إشارة إلى أنها قربان للبيت الحرام، والإشعار القيام بشاعر الإحرام. ويقول المرزوقي أيضاً إن الحاج في الأشهر الحرم إما لم يكن يملك شيئاً أو انفرّد وغشي على نفسه ولم يكن معه هدي أو قربان للحرم، قلّد نفسه بقلادة من شعر أو وبر، فإذا فرغ من حجه وفعل ما تدلّ بقلادة من لحاء شجر الحرم أمناً له في الشحلاء^(١). وليس أبلغ من هذا دلالة على جدوى المؤسسات والمقائد التي أنشأها مكة من حول حرمها وتجارها لإكفالة الأمان وضمان كث الضحايا وأصحاب المزاوات من حلماتها ونفقاتها واحتاجها.

ج - الأشهر الحرم

قلّد الأشهر الحرم من المؤسسات المتعدية المهمة التي قرّنت على هذا النحو أو ذاك بالتجارة المكة. وليس من شك في أن إنشاء الأشهر الحرم سبق جهود الإبلال زمنياً طويلاً. ولذا يُمتد أن العلاقة الوثيقة بين هذه الأشهر وأسواق العرب ومواسمهم، إنما كانت تخص في الأصل بالتجارة المكة ومواسم الحج إلى الأصنام^(٢). وقد ذكر الجغرافيون العرب أنه كانت للعرب أسواق يقيمونها في شهور السنة ويتخللون من بعضها إلى بعض، ويحصرها سائر قبائل العرب عن قرّب منهم وينتد، وقالوا إنهم «يرتحلون إليها في الأشهر الحرم»^(٣). ولترتأى

(١) المرزوقي: الأزمات والأمكنة، مجلس عراة المعارف، جبريد القفر، ١٣٣٢ هـ، ص ٥٠، ج ٢.

(٢) ص ١٦٦. وحشود: المرجع السابق، ص ٩٠، ٩١.

(٣) لسان العرب، مادة حرم وعمر. وكذلك المرزوقي: تاريخ العرب، مادة حرم وعمر. ونظر أيضاً

جبريد علي: ج ٥، ص ٢٨٠.

(٤) حشود: المرجع السابق، ص ٩١.

بعض الباحثين أن هذا السلام النسي الموقت كان يمكن للقوافل من أن تسير بأمان دونما حاجة إلى خفارة مسلحة تحميها من الغزوات^(١). وهذا صحيح؛ لكنه لا يزدي معنى الأشهر الحرم كاملاً. ذلك أن الفارق بين المسير في الصحراء في الأشهر الحرم والمسير في غيرها، لم يقتصر على الاستغناء عن الخفارة المسلحة. فحُجِّلَ العرب لم يكن قادراً أصلاً على التحرك بخفارة، لمسلحة كانت أم غير مسلحة. لذا كانوا يلزمون منازلهم في معظم الحالات والأوقات، ولا يخرجون إلى الأسواق والمحجبات والمواسم إلا في الأشهر الحرم. وفي إمكاننا إذن أن نتصور الأثر النفسي والاجتماعي لهذه الأشهر، حين كان العربي يشعر بالسلام، ويخرج حاجباً أو داجباً إلى حيث شاء، وقد امتلأت نفسه أملاً بالكسب الروحي أو المادي، وطموحاً إلى لقاء أو سعياً إلى حضور مساجلة قهرية.

والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. والثلاثة الأولى سرّة أي متوالة إذ تحتل المكانة الحادية عشرة والثانية عشرة والأولى من أشهر السنة القمرية، ويحتل رجب المكانة السابعة منها. ويتوسط موسم الحج الأشهر الثلاثة الحرم، إذ يُطالَفُ بالبيت في التاسع من ذي الحجة. ويُفسَّرُ القولُ إن للحرب أسواقاً يحضرها سائر قبائل العرب ممن قُرب منهم ويُقَدِّمُ الحاجة إلى الأشهر الثلاثة. فكان الحجاج يصلون مكة من اليمن وحضرموت، على نحو ما جاء في العهد السابق في تفسير الطُّلُس، وكانوا يصلونها أيضاً من بلاد الشام ومملكة الحيرة، إذ يغفل دهرمس ودي برسفال عن بروكوبوس ذكره لهجوم بيزنطي على نصيبين سنة ٥٤١ م. انتهز في التوقيت له، انصرف العرب إلى حجتهم شهرين عند الانقلاب الصيفي^(٢). وكان الوصول إلى مكة لا يحتاج عادة

(١) Simon: *Islam et Islamisme*, p. 231 (٧).

Noblesse, Rev. Ben Louis: *Notes on the Arab Calendar*, وكذلك: Devosse: *op. cit.*, p. 286 (٧).

Bellevue Island, (Translation of Cassius de Porcia: *Almanach ou le Calendrier Arabe*

avant l'islamisme in: *Journal Asiatique*, Avril 1843), Islamic Culture, vol. 21 (1947).

p. 152

إلى أكثر من شهر على ما أسماها، وشهر للمودة، يهبط للناس أو الحاج شهر ثلاث بقضي
فيه تجارتهم أو ماسكه إذا شاء، أو يحضر مكره لغير حاجته إذا شاء^(١). أما شهر
رجب فإنه كان يسمى رجب مضر، وهو الذي تسميه مضر: الأصم. واسمه
مشتق من الترجيب أي النمطيم. ولد جاء في طفلة ابن سعد أن أهل مكة كانوا
يحضون بعيد ميني لهم في رجب، فلا يعد أن يكون هذا العيد في شهر رجب
حجداً خاصاً بقبائل مضر أو قبائل الحجاز أو بعضها، وإن يكون هذا أصل حرته.
فكان قريش من مكة يبيع لهم الذعاب إليها والمودة معها وأولاد الشعائر المطلوبة
في شهر لا غير^(٢). ولد يمي هذا أيضاً أن تأسس الأشهر الحرم كان صلماً متكاملاً
أو مضرباً على الأكثر، ثم انطقت في لروم القتل الأخرى فيما بعد. لكن
الحاجة إلى هدنة الأشهر الحرم كانت حاجة عامة، ولذا تقبلها العرب
واعتنقوها. كانت الصحراء حلواً من برز أي دولة ظريفاً، وكانت معظم القبائل
الجيعة من الأطراف لفاحاً. وكانت العراوات والعراوات مهمومة، والعصبة القليلة
شديدة والأئمة والحمية متاصلين، ولذا اعتد الأمن. أما الحاجة إلى هذا الأمن
فكانت مائة، فلا بد للتجارة من مشترين وبائعين آمنين على أموالهم وأموالهم.
وكان الزرع والضاع ينظرون إلى مفاضة غلاتهم وسلعهم. وكان الأعراب في
حاجة إلى تصريف ما يفيض من ماشيتهم ونتاجها وحلوقها وحليبها والأجبان وما
إلى ذلك، لشراء أنواع الفرس الأخرى والملابس اللطيفة والصوفية. ولذا أقبل
الحرب على هذه الأشهر الحرم إنهم على روع من الردع الذاتي، لأنهم لم يكونوا
همم فالتفتها. فاصطفت الهدنة بالنداسة ونحو ذلك إلى عطية من العقائد
الدينية. ولذا انتهكت الأشهر الحرم، اضطرت التجارة وانطقت الأوزاق.
وتلك كانت، فيما يظنون، دلائل لعمدة الأصنام العاصية لهذا الانتهاك. ويروي
محمد بن حبيب كيف حاول عمرو بن عبد العزيز أن يجمع قوريس بني لث
ليجبر بهم على جرف مكة في الشهر الحرم، فالتوا عليه وقالوا: موبكت، في

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٢) تفسير الطبري: حوزة الطوبى، الأ ٤٦٧، ج ١٠، ص ٨٨ وما بعد. وكذلك الشريف: المرجع

لقد، ص ١٩٢.

الشهر الحرام وفي الحرم وعظموا عليه^(١).

وكان صمالك العرب وغلماؤها [جمع خليع: من تبرأت قبيلته منه ومن أحماله] من أولئك المتمردين الخارجين على هذه القواعد، يتحللون الغزو والقتل في كل زمان ومكان، لأنهم خرجوا على التزامات قبيلتهم فأسقطت قبائلهم حق الحماية عنهم وتبرأت من دمهم وفعالهم في آن معاً. وكان هؤلاء أشد الجماعات خطراً على نظام الأمن الذي أنشأه الإيلاف والأشهر الحرم ونظام الحماية^(٢). ولعل هذا هو الذي حدا القيادات المكية على مصانعتهم وإيوائهم، إذ يروي الإخباريون أن مكة قبل الإسلام كانت مكاناً أوى إله ذؤبان العرب وغلماؤهم وصالحيتهم حتى كثر عددهم فيها، لما وجدوا من حماية ومعونة. فكان أحدهم إذا جاءه نادى قريشاً نداء النخوة لتجبره، فيجره أشرفها وسادتها ويستلقونه. وكان الفتاك يجوسون آمين في داخل الحرم المكي، فلا يجرؤ أحد على المنعز عليهم. ولا نستبعد أن مكة كانت تسمى إلى أن نكفي نفسها وتجاريتها شر هؤلاء الفتاك، لأنهم كانوا قادرين على غزو قوافل التجارة ونهبها^(٣).

٥- حروب الفجار

ولم تكف مكة من الصالحات بكف شرهم، بل كان في استطاعة التجار المكيين الذين استأجروا الجفارة لقوافلهم، أن يستعملوا صالحيتهم على هذه القوافل. ولم يكن ذلك غريباً، لأن الصالحات كانوا أساد الكر والفر في الصحراء، وكان صيتهم رادعاً في ذاتهم، يضاف إلى رادع انتصاليهم المستجذبة لقريش.

غير أن قريشاً استغللت الصالحات في شؤون سياستها العليا أيضاً. ذلك ما حدث في حروب الفجار حين بدا أن المكيين نجحوا في تحدي أبرهة حليف

(١) المنقذ، ص ١٣٦. والشريف: المرجع السابق، ص ١٩٣.

(٢) الشريف: المرجع نفسه، ص ٨٣.

(٣) الألفاقي، ج ١، ص ٢١٦. وانظر حواد علي: ص ٩٠، ص ٩١٨، ٩١٩.

بيزنطة، لواجبها على الفور تحدياً من الحسان ملك الحيرة، حليف الفرس. لقد كانت مكة في الصمد الساسي، تحتاج إلى إثبات حيلها واستقلالها، بعد ردها الأحياء عن الحجاز. فكان ذلك وحده قسماً أن يحثها تعقيدات سياسية تعرق تجارتها مع بيزنطة. فهي دلفت سلطان الممصر البيزنطي، لكنها رفضت أيضاً سيطرة الفرس عليها. وكانت تحتاج في الصمد النحوي إلى أن تثبت سيطرتها على خطوط القوافل حتى تُسك بكومة نخلة الشرق، ولا تضيق القرصة التاريخية التي تاحت لها، بعدما ألتفت العرب من حولها. وقد كانت حروب الفجار على ما قاله مونتغمري - وات من قبل نحري قرشي قرشي متعده بغافلة من الحيرة كانت تقصد اليمن من طريق الطائف، منخطة مكة^(١). إذ يبدو أن الفرس حاولوا، بعدما استولوا على اليمن لدى سقوط حكم الأحباش، أن يسيروا قوافل لحسابهم وحساب حلفائهم ملوك الحيرة، دون أن يسلكوا مسلك القوافل المكية^(٢). وقد لاحظ مونتغمري - وات بحساسية مغزى هذه المحاولة الفارسية، وربطها بتجارة اللبان الحظرمي واليمن، وربما أيضاً بتجارة الحشيشة، واستبعد احتمال أن تكون لتجارة الهند علاقة بالأمم، لأن الفرس اتصلوا بالهند بحراً، على نحو شبه مباشر^(٣). ولاحظ دواكة أيضاً أن حرب الفجار كانت صراعاً بين مكة والفرس، لكنه ربطها بتجارة سرير الصين وتوابل الهند^(٤)، وهذا مستبعد. وأكد شهيد أن مكة سهلت تسير النخلة من شرق الجزيرة العربية إلى غربها عبر وادي الرمة ووادي الدواسر، لكن حروب الفجار بينها وبين حلفاء الفرس، كانت تختص قطعاً باختيار أفضل الطرق لقوافل النخلة^(٥). وكانت الطرق المأثرة عبر مكة هي أفضلها من وجهة نظر قرشي ولا شك.

(١) المصير، ص ١٩٥ وما بعد، وانظر أيضاً p. ١٥، Montgomery-Watt, Mohammed at Mecca.

(٢) جواد علي: ج ١، ص ١١٥.

(٣) Montgomery-Watt, Mohammed at Mecca..., pp. 12, 13.

(٤) دواكة: المرجع السابق، ص ٦٠. ولاحظ أن دواكة لم يحدد إلى مصدر يصرح بأن طريق

مكة إلى الحيرة كانت طريقاً لسير الصين وتوابل الهند.

(٥) Shaded The Arabs in the Peace Treaty..., p. 191.

وقد اجمع الباحثون على أن قريناً وحلفاءها هم الذين بدأوا بالحرب، فقال معظمهم إن الشرارة الأولى لحروب الفجار كانت قتل البراء بن قيس الكناني، حليف مكة، حرّو الرّحال خضير قافلة النعمان ملك الحيرة^(١). فيما قال البعض إن ذريعتها المباشرة هي أن بني كنانة غفروا على عير وهزّز حاكم اليمن الفارسي بطريق الحجاز حين مرت بهم، وكانت جوار رجل من أشراف قيس عيلان حلفاء الحيرة، فكانت حروب الفجار بين قيس وكنانة^(٢). ووصف يهضون هذه الحروب بأنها نشبت حين حاولت مكة أن تعدو على مناطق نفوذ تابعة لعشائر أخرى، دفاعاً عن المصالح الاقتصادية^(٣). وقال الألفاسي إن الفجار كانت نزاعاً على النفوذ بين قرين وهاوذن. وأكد مونتغمري - وات أن البراء كان يعلم وهو يقتل حرّو الرّحال، أن فعلته تناسب المصلحة القرشية وأن قريناً ستسانده، وإن كان حافزه على القتل شخصياً^(٤).

وحروب الفجار فجاران: في الأول ثلاثة إمام نجم القتال فيها من ثلاثة حوادث، وفي الثاني خمسة إمام، نجم القتال فيها من حادثة البراء. فإذا استعرضنا جميع أسباب القتال لاحظنا بوضوح أن قريناً وحلفاءها كانوا البادئين المتحرّشين.

- نشب اليوم الأول من الفجار الأول حين تفاخر بدر بن معشر الكناني في عكاظ، متحدياً الأحمر بن مازن الهوازني، فضربه الأحمر على رجله بالسيف.
- ونشب اليوم الثاني حين كشف فتية من قرين أو كنانة عن ذُبر امرأة من هوازن.

- ونشب اليوم الثالث بين كنانة وهاوذن أيضاً، وكان سببه أن كنانياً قتل رجلاً من هوازن ماله شهر الهوازني بماطله.

(١) Rodinson: Muhammad, p. 40

(٢) جواد علي: ج ٣، ص ٥٢٧.

(٣) يهضون: المرجع السابق، ص ١٤.

(٤) Montgomery-Watt: Muhammad at Mecca..., p. 11 (٤). وكذلك الألفاسي: أسواق...

لأما الفجار الثاني، وهو خمسة أيام، فكان فيه أن الفرائض وكان جلاً
لحروب بن أمية القرشي، قتل حروة الرخاء الموزني. وكانت الأيام الخمسة هي:
يوم نخلة يوم شظية يوم الملاء يوم ثرب يوم الخزيرة. ولا بد من الإشارة
إلى أن هوازن تنتمي إلى قبس حيلان، وكانت سوق عكاظ تقام في أرض قبس
حيلان^(١).

وقدّر زمن وقوع حروب الفجار بما بين سنتي ٥٨٥ و ٥٩٠ م. فيما كان
التي بين الخامسة عشرة والعشرين من عمره، وقدّر الأقباطي حدوث أولى حروب
الفجار سنة ٥٨٥ م.^(٢) فيما وضع رودانسون عامش تقديره فجعله بين ٥٨٠
و ٥٩٠ م.^(٣) وترجع المصادر العربية الإسلامية التقدير الأول. إذ جاء في
أنساب البلاذري: «قال حكيم بن حزام: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم
حنتي خديجة وهي ابنة أربعين، ورسول الله ابن خمس وعشرين، وكانت أسن
سني بستين، وولدت أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة، وشهدت الفجار وأنا ابن
ثلاث وثلاثين سنة^(٤)، فإذا افترضنا أن النبي وُلد سنة ٥٧٠ م، فإن حساباً بسيطاً
يجعل عام الفجار حسب تقدير حكيم بن حزام، سنة ٥٩٠ م. ولكن ابن هشام
يقول في السيرة: «فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو
خمس عشرة سنة... هاجت حرب الفجار بين فريش ومن معها من كنانة، وبين
قبس حيلان^(٥)، ولا يتأخر قولاً البلاذري وابن هشام في الحقيقة، لأن حروب
الفجار كانت تحدث كل سنة في موسم عكاظ، وينتفح القتال وتتفطر السوق،
وتتواجد الفريقان للقتال في العام القابل. وقد استمر الحال على هذا نحواً من

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨ - ٢٠٢. وابن عبد ربه: العقد... ج ٥، ص ٢٥١ -

٢٥٢. الأقباطي: ج ٢٢، ص ٥٢ - ٥٥. وانظر أيضاً: حنوز: فريش السابق، ص ٧٦.

٧٧، ٧٨، ٨٢.

(٢) Singsary War Muhammad al Mecca... p. 33 (٢) والاسم: سوق... ص ١٤٧.

Rubson: Muhammad, p. 40 (٣)

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، لعلي بن عبد الله، ص ٩٨، ٩٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨.

خمس سنوات. ولذا يمكن أن نفترض أن ابن هشام احتسب عمر الرسول سنة
بداية حروب الفجار، فيما احتسب حكمهم بن حزام عمره سنة الفجار الأعظم
السمي بفجار البراءة.

لن يجدي أن نعاود رواية حروب الفجار التي نوسمت المصداق في
روايتها، ولكن نجلد ملاحظة بعض النصوص المهمة في الرواية.

يقول ابن هشام في السيرة: «وكان الذي حاجها [الحرب] أن حروء
الرجال... أجار لطيمة [قافلة تجارية] للنعمان بن المنلو، فقال له
البراءة...: أتجيرها على كنانة؟ وهذا السؤال يفسر سبب الحرب، إذا أحسن
التفكير في معناه. ذلك أن النعمان حين يكلف كناناً أو هوازناً أن يجير له
اللطيمة، فهذا يعني أن النعمان دفع أجرة لكنانة أو هوازن حتى تجير القافلة، أي
تجيز مرورها. وكانت إجالة اللطائم إذن فيه اعتراف سياسي بسيادة القبيلة في
نطاقي ما من الأرض. ويدعو هذا واضحاً من جواب حروء. فقد سأله البراءة:
«أتجيرها على كنانة؟ فأجابه منحنياً: «نعم، وعلى الخلق»^(١).

ويقول في السيرة أيضاً: «فأتى آت قرشاً فقال: إن البراءة قد قتل حروء
وهم في الشهر الحرام بمكاذ، فارتحلوا وهوازن لا تشعروا، ثم بلغهم الخبر
فأتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتلوا حتى جاء الليل ودخلوا
الحرم، فأسكت عنهم هوازن»^(٢). ويدل هذا على أن هوازن الذين لم يكن
منهم شمس على ما نعلم، سوى بني عامر بن صعصعة، تجنّبوا مع ذلك دخول
الحرم المكي مقاتلين، على رغم أنهم والقرشين قاتلوا في الشهر الحرام. وقد
يعني هذا أن حرمة مكة وجوارها كانت عند العرب أعلى مرتبة من حرمة الأشهر
الحرم. وهوازن من مضر مثل قرش»^(٣).

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٩٨، ١٩٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٠١.

(٣) راجع حروب البجار في المصنف، ص ١٦٩، ١٧١، ١٩٥، ١٩٦. والمصنف، ص ١٩٠.

٢١٧. والأندلسي: شجرة الطوبى، ص ٣٨٠ - ٣٨١. وجراد علي: ج ٤، ص ٨٣ - ٨٥.

وكذلك الأندلسي: أسواق... ص ٦٩، ١٥٢.

٢٠٠ - هـ - انتصار مكة على الحيرة

انتصرت مكة على الحيرة في حروب الفجار. وكان عليا يهني لمرأ من اثنين: فلما أن ينوقف تسير الفرائل عبر الطائف لحساب الحيرة، لو أن تصبح القريش عليها وصاية. وقد بلغت قريش هاهنا^(١). غير أن انتصار مكة لم يكن صريحاً بل اكتمل بالتدريج، ولم يبلغ مداه في تسعينات القرن الميلادي السادس، بل تبرز في مطلع القرن السابع عندما تزفت العلاقة بين الحيرة والقريش. وانهار سلطان الملوك اللخمين على القبائل فتحسنت مكانة مكة. ولم يكن انتصار مكة بأثر مباشر من حروب الملوك، بل تسهت في ذلك فيما بعد عوامل خارجية أيضاً أهمها ولا شك الحلف اللخمي الساساني. لكن قريشاً التي رالت الأوضاع بقطعة، وظلت تسبح القريش لتحسين مكانتها، لم تقوت أي مناسبة لسد كل فراغ سياسي ونحاري يدنو في الساحة المطحاة لها.

وقد حاولت الحيرة أن تستعيد هيبتها بين العرب، لكن ما حاولت إصلاحه تفادى به سرحه. وبطول ابن الأثير إن النعمان جهز حملة قادها أخوه لأمه ويرة بن رومانس، وحشد لها مقاتلين من معد وغيرهما. واستدعى من لحلفائه ضرل بن عمرو الضبي الذي جاء مع أهله النسخة، وكانوا جميعاً متوسمين في الذئب وقبادة القواريس. وانضم إليهم غني آخر هو حيش بن قلف. وأرسل النعمان لطيفة معهم إلى عكاظ، وأمرهم أن يجاسروا بني عامر بن صعصعة بعد انتهاء مجاورتهم. وبئر عامر بن صعصعة بن معاوية بن هوزن^(٢)، هم من قبيلة هوزن حليفة الحيرة، لكنهم كانوا من البطون المنتمية إلى الحُصُر. وتجهز النعمان حملة عليهم قد يبيع الأشباه في أنهم ساعدوا في غربة قبيلتهم هوزن ليصرفوا قريشاً في حروب الفجار. أكانت هذه الحملة ليل الفجار أم بعده. ويرى ابن الأثير أن سبب نكسة النعمان على بني عامر هو أنهم حاصروا إحدى لظائمه التي كان يرسلها كل سنة إلى عكاظ. إلا أن عد الله بين عدعان الثري القرشي أنلو بني

(١) Hameed-Wad Muhammad at Mecca... pp. 14, 15 (١)

(٢) ابن الأثير: الكامل... ج ١، ص ١٦٩ - ١٧١. وكذلك سيرة في عظم: ج ١، ص ١٩٤.

عامر فاستمدوا للحرب، وهزموا حملة الحمان في وقعة القرنين، التي يسميها ابن الأثير يوم السَّان، وأسروا أحده، فلم يتركوه إلا بغدية بلغت ألف بعير وثلثين وبعضاً من أمواله. وفي ذلك قال يزيد بن الضحى متحسراً:

تركنا أخا الحمان يرسف هانها وحدها أجناد الملوك الصنائع^(١)

ولم يتوقف تردّي هبة الحيرة منذئذ بين قائل العرب. وكانت علاقات الحيرة بهذه القبائل على ثلاثة صنف، على ما قاله أبو البقاء في المناقب المزيديّة: «وأما حدّ عزهم في الحرب الذين كانوا في التدبير رعايا لهم، ولهم اسمُ المَلِك عليهم، فقد تقدّم ذكر كورهم معهم على طغيات ثلاث: اللّفاح الذين كانوا يغازونهم، وأهل الهدنة الذين كانوا يعاهدونهم ويوافقونهم، وهذه مصاطلة ومساواة من أهل هاتين المنزلتين للملوك، هم ولهاهم على حد سواء. وأما الطبقة الثالثة فهم الذين كانوا يدهون لهم، فكانوا في أكثر زمانهم أيضاً يصانعون أهل هذه المنزلة استمالةً لهم وتقوياً بهم على من سواهم، حتى أن المَلِك كان يكون معهم كالمولّى عليه. وكان أقرب العرب منهم داراً ربيعة ونمير^(٢). وثبت من هذا النص أن الحيرة لم تكن ذات هبة عظيمة بين العرب، إذ كان بعضهم يقاتلونها مثلما يقاتلون القبائل الأخرى، والمحض الآخر يعادها، ولكن ندأ لنذكر أما الذين دانوا للحيرة فكانوا أقرها عليها، تحتاج إلى استمالتهم، وكان الملك هو تابعهم. وعلى رغم ذلك أمر أبي الفداء ربيعة وتيمناً ضمن رعايا الحيرة، فإن بطوناً من تميم كانت ترحى مواشها قرب الحيرة فدانت لملوكها ولم يكن ذلك حال البطون الأخرى. ومن اللّفاح ذكرت قتال أسدين خزيمة وخطافان، وكان بعضهم يزود الحيرة للتجارة. ومن أهل الهدنة ذكرت قتال سليم وهوازن: «وكانت سليم وهوازن ثقاتهم ولا تدب لهم، ويأخذون لهم التحاير فيجربونها ثم يمشكون وغيرها ليصيبون معهم الأرباح. وربما أتى الملك منهم الرجل والنفر فيشهدون معه مغازيه ويصحبون معه من المائم ويصرفون. ولم تكن لطائم

(١) ابن الأثير: الكامل... ونظر أيضاً 157، 158. Khamis Al-Jawab

(٢) 153، 154. Khamis Al-Jawab

الملوك وتجارتهم تدخل نعداً فما وراءه إلا بحر من القتلى. ويلاحظ إن أن أفضل علاقات الحمير بالقبائل كانت علاقة الذئب. فما كانت مكة محبة وقيادة تدبّر لها القبائل بالولاء. وقد لاحظ كسر صف الحمير هذه وتبذل حوقف القبائل بها في حادثة حميرة بن عامر من سلعة الفسيري من عامرين صحصعة، الذي هاجم مضريناً للعمان واحتطف زوجته المتحررة وغنم أمواله، فيما كان ابنه قُرّة بن حميرة مكلماً أو براصاً لطيفة للعمان: «هضرها على من ليس في دينه من العرب». وقد استولى قُرّة على اللطيفة لنفسه حين اضطرت النعمان إلى الهرب بعد خلافه مع كسرى في سنة ٦٠٤ م. واشته كسر في أن لعلاقة عامرين صحصعة بطريق أثراً ولا شك في أعمال حميرة وابنه قُرّة^(١). وأحصى من حلفاء الحمير: سنان بن مالك (وهو من لؤس ملة من نميرين قاسط). وكان حاكم عمان على الأكلة، والحلاف من قيس (وقد أرسله عمرو بن هند لإخضاع تغلب)، وخسر (وهو من قيلة بشكر)، وبكر بن وائل، وتميم (رضخوا إلا أسند)، وقيس بن صلبان (وكان منهم حيلة، وحصلوا على مراع). وأما جنود الحمير فكان منهم الدواسر والنهاة والوضائع والصفائح والرهائن^(٢).

وأحصى من القبائل التي عادت الحمير وخاصتها: عامرين صحصعة (وكانوا حُصاً)، وبي أسد (من عمرو بن نعيم، وقد قتلوا وائل بن صريم الشيكري جاني عمرو بن هند)، وقيلة فُكل (التي هزمت بكر بن وائل)، وأسد (التي ولغيت الرضوخ للحميرة)، وعصبة بن خالد بن مضر (أو عصبة بن سنان بن خالد بن مضر الذي أجاز رجلاً من عامر بن صحصعة وتحتق النعمان ولم يسلمه).

وتروي المأثورات العربية قصة دي فار مطولة^(٣). لكنها نادراً ما تشير إلى

(١) Koser Al Ifk ١٥٤، ١٥٥ .

(٢) فسر من الأثر الصفائح والوضائع في الكامل، ج ١، ص ٦٦٩. وقدر كسر صف الحمير في المرجع السابق، ص ١٦٥ وما بعد. كما أحصاه القبائل التي جعلت الحمير لوطتها، ص ١٥٩ وما بعد.

عن الأثر: الكامل، ج ١، ص ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١

علاقة ماء بين هذه الحرب والتجارة الشرقية، سوى إشارة ثمنية في منطق ابن حبيب. إذ يقول في وقعة ذي قار: «وكان أمرهم أن كسرى بعث بلطيمه إلى عكاظ فعرضت له بنو تميم وبنو شيبان فاقطعوهما، فبعث إليهم كسرى خيلاً واستعمل عليهم وهرز فخرجوا حتى لقينهم تميم وشيiban بلدي قار فقتلوا فارساً واقطعوهما...»^(١). فإذا أضيفت هذه الإشارة إلى ما ذكرته المصادر العربية عن اختيار كسرى أبرويز النعمان لتملكه على الحيرة، من بين إخوته أبناء المنذر بن المنذر، لتناقص نسبة التكهن وازدادت نسبة اليقين بأن للتجارة علاقة ما يقتل النعمان ووقعة ذي قار، وإن كانت هذه العلاقة لا تزال في حاجة إلى أدلة أوضح. فلما مات ملك الحيرة المنذر الرابع، تقول المرويات العربية إن كسرى أراد اختيار أحد أبنائه لحلافته على عرش الحيرة، ويقول ابن الأثير: «فكان يسألهم: أتكفونني العرب؟»^(٢). وفيما يستعد أن يكون كسرى في ذلك الزمن قد عبر عن تخوفه من خطر عربي ما على مملكته، فليس مستعداً أبداً أن يفقد من سؤاله أن يملك ذلك الذي يمتك من إحارة تجارتهم وقوافله بين قبائل العرب. وأخفق النعمان في هذا الشأن في حرب الضحار، وفي يوم السلان على الأقل. وإذا كان كسرى مهتماً بتسيير قوافله في حرية العرب، فلماذا لا يكون هذا الإخفاق ضمن أسباب حربه على النعمان؟

أين أخطأ كسرى إذن؟ لقد أخطأ في طئه أن القوة تكفي العرب وتحمي لطانته، فيما أدركت محنة أن استمالة الفاتل وإشراكها في التجارة والأسواق والمواسم والدين والمعتقدات، بصمان السلام في الصحراء، ورحمات قوافل

١٢٧. وراجع أيضاً محمد بن حبيب كتاب المتأخرين. نطق عبد السلام هارون، مكتبة الحاشي بمصر ومكتبة المتن بمكة. ١٩٥٥. وفي كتاب النعمان عدني من زعم الأمازيغي، ص ١١٠-١١١.

(١) المتفق، ص ٣٢٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٣٨٥. وفي تاريخ البكري لمحق كسرى على النعمان، يستدل أن تكون رضا كسرى في الزواج من بنت النعمان من البكر الحاشي، ولو أحضرت عليها المصادر العربية

التجارة. ولذا أحقر العماد في حروب الصليبيين، ولما أيضاً انقلت القاتل على كسرى في ذي قار، مما كانت التجارة المكية تنفق ثمنها بعده ولما.

و- الحلف الشخصي والقبلي

حل الإيلاف المشكلات التي لم نستطع أحلاف مكة القبلية أن تحلها على طريق تجارة قريش. وقد سلمت الإشارة إلى هذا الأمر في باب سابق. لكن الإيلاف ظلت بعد منتهى الإيلاف من المؤسسات العاطفة في الية الاجتماعية والسياسية التي تطورت فيها هذه التجارة. بل كانت للإحلاف علاقة مباشرة بالتجارة وحمايتها، على نحو ما سنذكر في معالجة حلف الفضول فيما يلي.

والحلف عند العرب نوعان: شخصي يُعقد بين فرد وفرد، أو بين فرد وجماعة، وقبلي وهو يُعقد بين قبيلة وقبيلة. والحلف رجل حر غير مُتَرَقٍّ التحق بقوم غير قومه، فضله مستلحقه ليكون معهم في سرقة الحر الصميم، فعليه حياله ما عليهم حيال أي فرد معهم، وعليه هو من الثمنات العامة تحله قبيلة الجديدة ما على الصرحاء منها. فإذا كان الحلف بين رجل ورجل صار الحلف مولى لحليفه، وأضحى مثل ذوي رحمه بالولاء. وكان الحلف يُعقد بالمواثيق والأيمان والعهود، فيقول واحدكم للآخر: في فمك وتلوي تارك وحربي حريك وسلمي سلمك، ترني وأرتك ونظك بي وأظك بك ونمقل عني وأعقل عنك. وكذلك كانت تقوم أحلاف بين القبائل أثناء المعاهدات السياسية بين الدول. فإذا أحست قبيلة بضعفها حيال القبائل القوية، التحفت بقبيلة أقوى منها لتحمي بها. وقد تنفسي أحوال أصبح للحليف اسم يسما معاً إلى حد مشترك. ويُعتقد أن الجرح إلى الاتحاد هذا كان حارماً على ظهور كثير من التجمعات القبلية الكبرى، فيقول الكبرى: ولما رأيت القبائل ما وقع بها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلا والناسهم المعاش في المتع وقبلة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستصعاف القوى الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف الضليل منهم الكثير. وشاعت فكرة التحالف هذه قبل الإسلام، ولم نعلم إلا مصر القبائل فتمت حمرات العرب. وقد جاء

الإسلام ومعظم العرب يتسبون إلى أصول ثلاثة هي: شجر وريضة واليمن^(١).

واسم الجلف من فعل خَلَف أي أَسَم، لأنهم كانوا يُسَمون على التحالف. وذكر أن قَسَم قريش والأحابيش عند الركن يوم تحالفوا وتعاقدوا حلفوا: بالله القاتل وحرمة البيت^(٢). ولهم الحلف بفنن عادة بطقوس دينية تحرص القبائل على أتباعها تعظيماً لهبة الموائيق والعهود، إذ كانوا يمشون أيديهم في الطيب أو الدم، أو ربما أوفدوا ناراً ودعوا الله أن يحرم من فوالدها الناكث بالعهود. ومن أيمانهم لدى عقد الأحلاف: الدم الدم والهدم الهدم، لا يزيد العهد طلوع الشمس إلا شذاً وطول الليل إلا مذاً، ما بل بحر صوفة، وأقام رضوى مكانه. ورضوى جبل، فإذا كانوا بقرب جبل آخر ذكروه^(٣). وقد وصف هيرودوتس الحلف والمواخاة عند العرب وقال إن الروائيق والعهود ترقى عندهم إلى مرتبة الحرمات المقدسة، لا تشاركهم في ذلك أمة من الأمم. وكانت قريش حين تمدد حلفاً تطوف مع الحليف بالأصنام في الكعبة لإشهادها، ثم يشهدون من بالكعبة على هذا الحلف أيها^(٤). ولاحظ الشريف أن الحلف هو جوار لازم دائم لا يوتن بزمن ولا يسهو الحليف أو رحيله، واقرب حاجي حسن من ملاحظة ذلك أيها^(٥).

وقد اضطرب موقف بعض الباحثين المسلمين من الأحلاف، بسبب علم يقينهم بما إذا كان الرسول قد أيد الحلف أو رذله. ففي السيرة: وقال رسول الله

(١) البكري: معجم ما استعجم، طبعه السقا، لغة النقيب والرحمة والبر، القاهرة، ١٩٤٥، ج ١، ص ٥٣. ونظر ابن الأثير: الكامل. الأحلاف في أيام العرب، ج ١، ص ٥٠٢-٦٨٧. وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٤ وما بعد. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٤٣-٤٩، ٦٥، ٦٦، ٧٤. وفي جمرات العرب أطراف ابن عبد ربه: الطه، ص ٥٠٠، ج ٢، ص ٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) جواد علي: ج ٤، ص ٣٨١. وكذلك L'encyclopédie du Islam، ص ١٤٦.

(٣) في شأن الأحلاف: نظر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٤٦، ١٤٧. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ٤٦.

(٤) جواد علي: ج ٤، ص ٣٧٩، ٣٨١.

(٥) الشريف: المرجع السابق، ص ٤٣. وكذلك Hosen op cit، ص ٦٦.

صلى الله عليه وسلم: لقد شهدت في دار عبد الله بن جهلان حلفاً ما أحب أن
 لي به خسر النعم، ولو أديت به في الإسلام لأجنته^(١). وقد بدأ من قول
 الرسول: وما كان من حلف في الجملة فإن الإسلام لم يزد إلا حلفاً وفرداً:
 ولا حلف في الإسلام^(٢). وكأنه أهد الحلف ولم يؤيده معاً. ولو نظر في
 طبيعة الحلف الاجتماعية لأمكن تفسير ذلك. إذ تصفّت العقود الاجتماعية التي
 كانت تنظم الحياة العامة في العصور القديمة صفتين أساسيتين: فكانت الوحدة
 الاجتماعية على أساس الانتماء إلى دين مشترك. وكانت الوحدة الاجتماعية في
 المجتمعات البدوية على أساس المصية القبلية المؤسسة أصلاً على فكرة
 الانتماء إلى نسل مشترك. وكان الحلف في الجملة خطوة نحو تخطي حدود
 المصية القائمة على نسل مشترك، ونحو توسيع المدد الاجتماعي. وكان منظوراً
 أن يرتحب الإسلام بهذا، وأن يهد الحلف تطوراً سلبياً واجتماعياً جديداً في
 الجملة. لكن الحلف في الإسلام لم يكن كذلك، لأن الإسلام سعى إلى إقامة
 عقد اجتماعي أوسع، لا يقوم فقط على الانتماء إلى نسل مشترك، ولا حتى إلى
 دين مشترك فقط، بل ينسج أيضاً لأهل الكتاب ضمن الأمة الموحدة^(٣). وكانت
 بيعة المصية حلفاً في ذاتها، وكان كتاب رسول الله الذي كتبه بين المهاجرين
 والأنصار حسبما قال ابن هشام، حلفاً أيضاً، لكنه حلف لم يؤده، اقتنع لكل من
 دخل فيه، ولم يلف عدد حد المصية القبلية لو عد حد التمسك القبلي.

٣- المظنون والأحلاف

من أهم الأحلاف التي أثرت في سائر الأحداث في الجملة حلف
 المظنين الذي كان أن يراجع ناز حرب بين طوق قريش، وانتهى إلى تقاسم هذه

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١١٥.

(٢) حديث الرسول: لا حلف في الإسلام، أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والبيهقي وابن حبان. وفي الأثر الأخرى أخرجه سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١١٥. وكذلك الشريفة: المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) فكتور صليب: وحدة المسيح في الإسلام وفي كتاب صربية القريش، دار العلوم للكتاب، بيروت، ١٩٨١، ص ١١١-١١٨، وكذلك سفا: القبا، في: L'Asie syrienne de l'islam.

البطون الوظائف المكيّة. وليس في الحوادث التي وافقت نشوء حلف المطّيين وحلف الأحلاف الصانع له، ما يختص مباشرة بتجارة قريش، لكن الحزبين اللذين نشأ من جراء هذه الحوادث بلغا فالتمس على التشكيل ذاته في أزمة حلف الفضول. وهي أزمة تشل مباشرة بالتجارة المكيّة وتنظيمها.

وعدي ابن هشام قصة حلف المطّيين، ويجعل عوانها: النزاع بين بني عبد الدار وبني أحمسهم، يقول: ... ثم إن بني عبد مناف بن قصي، عبد شمس وهاشمًا والمطلب ونولاً، أحجموا على أن يخالطوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي ما كان قصي جعل إلى عبد الدار، من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة^(١)، ودأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم، ففترقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بني عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بني عبد الدار لمكانهم في قومهم، وكانت طائفة مع بني عبد الدار، يرون أن لا يترزع منهم ما كان قصي جعل إليهم. وأحصى ابن هشام خمسة بطون في كل من القريتين. ففي الفريق المؤيد لعبد مناف: بنو عبد مناف، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو ثعلبة بن مرة بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر. وكان بنو الحارث بن فهر بن النضر الظواهر (غراس البلدة) الذين التحقوا بقريش الطاح (وسطها). أما أحلاف بني عبد الدار فهم: بنو عبد الدار، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو خديج بن كعب^(٢).

ويحكي ابن هشام في روايته يقول: ولقد كل قوم على أمرهم حلفاً موكداً على أن لا يتحالفوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، ما بل بحر صوفة، فأخرج

(١) ويضيف محمد بن حبيب القصة: المسطر، ص ٤٩-٥١، ٢٢٣، ٢٣٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٥٤، وكذلك البلاغي: الأسب، ... لطيف حيددالله،

ص ٥٥، ٥٦. ويحكي محمد بن حبيب في المسطر، ص ٤٣، الطون حياء بالقريب ذاته،

إلا أنه يورد سيرة ابن هشام من حلفاء بني عبد الدار وكانت وفاة ابن هشام سنة ٩١٣

للهجرة، وابن حبيب سنة ٩١٥ للهجرة، والمترشح أن ابن حبيب الخلق على سيرة ابن هشام.

بنو عبد مناف جنة مملوطة طيباً، فيزعمون أن بعض نساء بني عبد مناف أنزجتها
لهم، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غسل القوم أيديهم فيها
فتمسكوا بها وتعاقدوا هم وحلفائهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تركباً على
أنفسهم، فسُئِرَ المطَّيِّين. وتعاقد بنو عبد الدار وتعاقدوا هم وحلفائهم عند
الكعبة حلفاً مؤكداً على أن لا يخاصموا ولا يُسلم بعضهم بعضاً، فسموا
الأحلاف. وروى ابن هشام كيف اختار كل بطن من المختصين خصمه، إذ
يقول: وتقسيم القبائل في هذه الحرب: ثم سوند بين القبائل ولز بعضهم
ببعض، فسميت بنو عبد مناف لبني سهم، وسميت بنو أسد لبني عبد الدار، وسميت
زهرة لبني جمح، وسميت بنو نهم لبني صرهم، وسميت بنو الحارث بن فهر لبني
حدي بن كعب، ثم قالوا: لنُضَيَّ كل قبيلة من أسد إليهم. ومضى ابن هشام
يقول: ولما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تدافعوا إلى الصلح، على أن
يحطوا بنو عبد مناف السقاية والرفاعة وأن تكون الحجابة والولاء والندوة لبني
عبد الدار كما كانت، ففعلوا ورضي كل واحد من القرابين بذلك وتحابز الناس
عن الحرب^(١).

ونلاحظ من روايتي ابن هشام وابن حبيب أن زمن حدوث هذه الواقعة لا
يحد وأن يكون أواسط القرن السادس. إذ يقول ابن حبيب إن مفتاح الكعبة كان مع
أبي طلحة وهو عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار^(٢)، فيما كان على
بني عبد مناف وعبد شمس بن عبد مناف وذلك أنه كان أسيراً لبني عبد مناف
حسبما يقول ابن هشام. ولما صاحب امر بني عبد الدار فكان: وعاصرين
عاشم بن عبد مناف بن عبد الدار^(٣). فلذا افترضنا أن عبد مناف بن قصي وُلد
في نحو سنة ١٤٣٠ م. في رحلة والده قصي، فإن ابنه عبد شمس يمكن أن
يكون قد وُلد في نحو سنة ١٤٦٠ م. أو ١٤٧٠ م. فلذا كان قول ابن هشام إنه كان

(١) راجع الباقى السابق في الصفحة السابقة.

(٢) المستشرق، ص ١٢.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١١٣.

أمن بني عبد مناف يعني أنه كان في الثمانين، فهذا يعني أن واقعة حلف
 المطييين تكون قد حدثت في نحو سنة ٥٤٠ م. أو ٥٥٠ م. ويمكن أن يؤيد
 هذا إذا لاحظنا احتمالات من عامر بن هاشم، صاحب أمر بني عبد الدار، فهو
 يعود بالنسب إلى عبد الدار أكبر أبناء قصي. ولذلك يكون عبد الدار قد وُلد في
 نحو سنة ٤١٠ م. أو ٤٢٠ م. فإذا احتسبنا لكل جيل بين عبد الدار وعلمر ثلاثين
 سنة في المعدل، فإن عامراً هذا يكون قد وُلد في سنة ٥٠٠ م. أو ٥١٠ م. وكونه
 في الأربعين أو الخمسين من عمره على رأس بني عبد الدار سنة ٥٥٠ م. منطقي
 مقبول. وهذا تدبير يحتمل خطأ قد يصل إلى عشرين سنة. ولكن هامش الخطأ
 يتقلص كثيراً إذا أخذنا في الحسبان عمر عبد شمس. ولذا نميل إلى الاعتقاد
 أن حلف المطييين يحتمل أنه قام سنة ٥٥٠ م. أو قلها بسنوات، لكنه يصعب
 القول إنه قام بعدها، بسبب من عبد شمس.

أما الأمر الخطير الآخر الذي نلاحظه من تحليل نصوص روايتي ابن هشام
 وابن جبير، فهو أنهما يناقضان رواية أخرى لهما تتعلق أيضاً بانتقال الرقادة
 والسقاية من بني عبد الدار إلى بني عبد مناف. فقد سلفت الإشارة إلى قول ابن
 هشام إنه لما انقلب أبناء قصي على أعقابهم عبد الدار بعد موت والدهم، ولي
 عبد شمس الرقادة والسقاية. وهذا قول لا يتعارض مع خبر حلف المطييين بل
 يزيده. لكن ابن هشام يشكك أن هاشماً بن عبد مناف ولي الرقادة والسقاية من
 بعد عمه عبد شمس^(١). إلا أن وفاة هاشم في مطلع القرن السادس الميلادي
 على الأبعد، يجعل انتقال الرقادة إلى بني عبد مناف سابقاً جداً لحلف
 المطييين، أو يعني أن يكون عبد شمس ثم هاشم أو أي من بني عبد مناف قد
 وليها قبل حلف المطييين.

ولذا لا نستطيع أن نجزم بثقة مقبولة، إلا في أمرين: أولهما أن حلف
 المطييين وحلف الأحلاف انتصما في شأن التمام السلطة في مكة وحرهما،

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٢٦، ١٢٧. والمختار: ص ١٦٤، ١٦٥.

والثاني هو أن هذا الخصام سجل فريشاً حزينين ثابتين لا يبدل تشكيل أحلافهما. ويقول ابن هشام في هذا: «وثبت كل قوم مع من حلفوا فلم يزلوا على ذلك حتى جاء الله تعالى بالإسلام»^(١)، على ما سيلي في غير حلف الفضول.

وقد لاحظ يمشون بعض أن حلف المطّيين الذي ترصده عبد شمس جدّ الأُمويين لم يكن موجهاً ضد أصحابهم التقليديين بني حاشم، بل كان البطان حليفين في هذه الواقعة. ولم تكن الخصومة قد نشأت بعد. كذلك يشير تحليل النصوص إلى أن كلا الحليفين كان يضم بطوناً من القريش وقريش وأخرى لم يؤثر عنها الثراء والقوة. فمن أضياف الأحلاف بنو مخزوم، ومن أقرية المطّيين بنو عبد مناف. ومن لفراء المطّيين بنو الحارث بن فهر. ولذا لا يستقيم أن يُقال في تفسير النزاع تفسيراً اقتصادياً يضع بطوناً فقيراً في مواجهة بطون غنية، على الرغم من أن الحوافز الاقتصادية في هذا النزاع مؤكدة. وقد بدا أن يمشون ينجح إلى اعتقاد الأحلاف أقرب إلى الفهر، وأنهم إنما كانوا يولجون في حلف المطّيين بطوناً غنية تحاول السيطرة على مكة، إذ يقول ابن هشام تحالف المطّيين بدوامه الاقتصادية... لمصلحة بطون من أخرى في قريش... سيقود هذا التحالف إلى المجابهة الحتمية مع البطون الأخرى. لا سيما الأكل ثراء في مكة، وإن الأحلاف وكانوا من متوسطي الثروة بالقرية مع أعضاء التكتل السابق^(٢). وليس هذا ما نوجبه المصادر تلياً. لمخزوم، وكانوا من الأحلاف، هم أغنى أضياف الثمار القرشيين. ويقول ابن هشام إن قصياً جعل إلى عبد الدار المجابهة واللواء والسفاهة والرفادة إضافة إلى الدعوة. وإن سبب نكسة المطّيين هو «أنهم أولى بذلك سهم لشرهم عليهم وفضلهم لي قريشهم»^(٣)، إنما يوحى

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٤. وفي حلف المطّيين لغير الأعرابي: نقية... ص ٣٢٩.

(٢) يمشون: الإبل... ص ١٥. وكذلك يمشون. المحرر... ص ٩٠. وفيه...
JArabia... p. ٥٥

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٢.

على النقيض أن السلطة السياسية والاقتصادية كانت حكراً على قوم استطاع بنو
عمومتهم أن يفصلوهم اجتماعياً، وربما اقتصادياً، دون أن تتاح لهم حصتهم من
السلطة السياسية، فتمردوا وأخذوا منها حصة.

ج- حلف الفضول

على رغم أن هذا الحلف يبدو إحياء لحلف المطّيين، إلا أن علاقته
بتجارة مكة وتنظيمها أشد وضوحاً. وتقول المأثورات العربية الإسلامية إن سبب
عقده «أن رجلاً من بني زيد [البنين] جاء بتجارة له إلى مكة فاشتراها منه
العاصم بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم، فمظله بحقه. وأكثر الزبيدي
الاختلاف [إليه] فلم يعطه شيئاً فتمهل الزبيدي حتى إذا جلست قريش مجالسها
وقامت أسواقها، قام على [جبل] أبي قيس فادى بأعلى صوته:

يا أهل قهرٍ لمظلوم بضاعته بطن مكة نائي الأهل والنضر...

ثم نزل وأعظم قريش ما قال وما فعل، ثم خشوا العقوبة، وتكلمت في
ذلك المجالس. ثم إن بني هاشم وبني المطلب وبني زهرة وبني تميم اجتمعوا
في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً وتحالفوا بينهم [أن] لا يظلم بمكة
أحد، إلا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم، حتى نأخذ له مظلمته ممن ظلمه
شريك أو وضيع منا أو من غيرنا. ثم خرجوا»^(١).

وقد أضاف ابن هشام إلى الحلفاء بني أسد بن عبد المزى، وأضاف ابن حبيب
في المحبر بني الحارث بن فهر^(٢). وهذا يجعل حلف الفضول مطابقاً تماماً
لحلف المطّيين، لولا خروج بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن عبد
مناف، مختلفين من بني عمومتهم بني هاشم وبني المطلب وحدهم في الحلف
الجديد^(٣). إلا أنه لم ينشأ في مواجهة حلف الفضول حلف منافس. وتدلّ

(١) المنق، ص ٤٥، ٤٦. وأكّد الأمامي أن حلف الفضول «حلف تجاري بمقدماته ونتائجه»
الأمامي أسواق، ص ١٣٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٥. والمحبر، ص ١٦٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٥. راجع أيضاً في شأن حلف الفضول المنق، ص ٢١٧-
٢٢٢. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٤٤ وما بعد.

الحوادث التي نشأ منها هذا الحلف، والتي دُعي إلى القضاء في أمرها، على أن الخصومات التي قسمت قريشاً زمن حلف المطّيين لم تزل. فالعاص بن وائل الذي تَظَلَّ الزبيدي ماله، سهمي. وسهم كانت من الأحلاف خصوم المطّيين. ويقول ابن حبيب إنه بعد عقد حلف الفضول: «قدم رجل من ثمالة فباع سلعة له من أبي بن خلف [بن وهب] بن حذافة بن جُحَم فظلمه وفجر به وكان سَيء المخالطة ظلوماً. فأتى إلى أهل حلف الفضول فأخبرهم، فقالوا له: اذهب إليه فأخبره أنك قد أتيتنا، فإن أعطاك حقك والأ فارجع إلينا. فأتاه فقال له: إني قد أتيت حلف الفضول فأمروني أن أرجع إليك فأخبرك أنني قد أتيتهم، وقد رجعت إليك فما تقول؟ فأخرج له أبي حقه فأعطاه إياه». وجمع كانوا أيضاً من الأحلاف خصوم المطّيين. «وتقدم إلى مكة رجل تاجر من خثعم معه ابنة يقال لها القُتول، فملقها نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم، فلم يرح حتى نقلها إليه وغلب عليها أباهاء، فقبل لأبيها: عليك بحلف الفضول. فأتاهم فشكا ذلك إليهم، فأتوا نبيه بن الحجاج فقالوا: أخرج ابنة هذا الرجل... فأخرجها وأعطوها أباهاء^(١). ونبيه بن الحجاج أيضاً سهمي. لكن حلف الفضول استطاع في الحوادث الثلاثة أن يُمضي حكمه بلا اعتراض لبين محتملين، أولهما أن تجتمع بطون الأحلاف لم يعقد أي حلف معاد لحلف الفضول على ما يبدو من المصادر، والثاني أن جميع ما قضاه حلف الفضول فيما نعرفه من الحوادث، يحفظ لمكة سمعتها التجارية ويضمن لتجار العرب الأمن والسلام فيها. ولا بد أن الكثرة من تجار قريش من بطون حلف الأحلاف السابق، ومن بني أمية وبني نوفل الذي أحجموا عن التحالف مع الفضول، لم يجدوا حقاً في الحلف الجديد ومسلكه ما يُضَرُّ بمصالحهم التجارية، بل لعلهم وجدوا العكس، أو لم يتحمسوا للمواجهة على الأقل، لعدم إجماعهم على رأي في حلف الفضول وأحكامه، ومخالفته أو عدم مخالفته لمصالحهم^(٢).

(١) الضيق، ص ٤٧-٤٩.

(٢) ارتأى الأصفهاني أن حلف الفضول وحفظ سمعة قريش وصان ازدهار أسواق مكة. الأصفهاني: أسواق... ص ١٣٩.

ومع ذلك توحي بعض المصادر أن القبايات المكيّة الناعذة هي التي أوحى بالاعتداء على التحارّ اليمينيّ. إذ تقول المرويات إن حلف الفضول كان ومنصرف قريش من الفحار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة. قالوا: وكان الفحار في شتّال وكان الحلف في ذي القعدة. ويؤكد المسعودي هذا إذ يقول: «وكان حلف الفضول بعد مصرفهم من الفحارة»^(١). ولذا تساءل الباحثون: هل قضت قريش على تحارة الحيرة في الفحارة، فاصرفت على الفور للقضاء على تحارة اليمن؟ وهذا طعناً تسأّل منطقياً، لكن المارق بين مسمى الحيرة إلى أخذ أزقة قيادة تحارة القوايل من مكة، وبين متحارة أفراد من اليمن ضمن نظام تسبّله مكة من خطر مقاومة تُذكر، هو مارق كبير. وقد تكون حوادث الاعتداء على التحارّ اليمينيّ محاولات رعياء من أفراد لم يروا هذا الفارق. أما أن تكون حوادث متعمدة ضمن خطة رسمتها قيادة التحارة المكيّة، فذلك يتغيّر قبول هذه القيادة أعمال حلف الفضول بلا مقاومة تُذكر، على رغم قدرتها على المقاومة لحوادث في ذلك مصلحتها. وقد أوغل سمون في المأساة حين ارتأى في حلف الفضول بداية لإهلاك اليمن^(٢). لقد قدّر ابن حبيب زمن الحلف سنة ٥٩٠ م. والمسعودي سنة ٥٩٥ م. إذا اصطالحنا على أن مولد النبي سنة ٥٧٠ م.^(٣) ولكن تحارّ مكة كانوا يقصدون متحارّ اليمن مد عهد أربعة على ما سلف، أي قبل نشوء الحلف بعشرين سنة على الأقل. وتروي المصادر أن بني أمية، وهم من بني عبد مناف، وكانوا من المطّيين، وقفوا قبل الإسلام ضد حلف الفضول مع خصومهم السابقين. في حادثة سرقة مقيس بن عبد قيس السهمي خزال الكعبة المذنب^(٤). وقد أضافت هذه الحادثة الاعتقاد أن بني أمية أخذوا يشكّلون مع التحارّ الأثرباء الفرسيين من بطون الأحملاف تحمّلاً للأغنياء، لا يابه للحرمان والمعهود والمواثيق التي قام عليها الإهلاك وقامت عليها سمعة

(١) المنتقى، ص ٢١٨. وانظر أيضاً المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ٨

(٢) *Sahih Muslim on Faith*, pp. 222, 223

(٣) المنتقى، ص ٢١٨ والمسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٠

(٤) المنتقى، ص ٥٤، ٦٧

مكة - إلا أن هؤلاء النصار ما كانوا يجهلون مصطلحهم المالية والتجارية.

لم يكن حلف الفضول بداية للتجارة مع اليمن بل أساس عهد الإيلاف، بل كان حماية لها حتى تظل قائمة وحلف الظفر أو حركات الاعتداء على التجار اليمنيين كانت تغرر بها من وجهة نظر بعض النصار القريشيين في أسلوب خديعة التجارة المكية، لكنها وجهة نظر لم تخط تأييد كل النصار الأترياء أنفسهم، وإلا لكانوا أبدوا تأييداً أقوى لها ومعارضة أشد لحلف الفضول. وهذا يعني أن حلف الفضول لم يكن مبدءاً لإيلاف اليمن كما اعتقد مسنون، بل كان إضافة لأمور الإيلاف إلى بعضها، بعدما كانت حماية الاتصال على أصوار الحيرة في جروب الفجار أن تغد بعض القرشيين صوابهم وقد بدا مونتغمري - وات أكثر فهماً لحلف الفضول، إذ لاحظ أنه كان استمرراً لحلف المطيحين وليس مجرد ثورة على الظلم كما قال كاهاني وعبره^(١) ومع إتيانه أن الرقة في جبه المدون على بعض النصار المستعصمين كانت السبب المباشر لفهم الحلف، وأن الحلف كان اتحاداً لبعض بطون القرشية الأصمغ، إلا أنه لاحظ أن هذه البطون كانت تدافع عن تجارتها المحلية مع اليمن، لأنها رأت في الاعتداءات محاولة من بعض البطون الغنية للاستيلاء على هذه التجارة وقد تم مونتغمري - وات بين تجار حلف الفضول والنصار الآخرين بقوله، إن النصار المستعصمين إلى الفضول كانوا ممن لا يملكون وسائل تسير فواصل التجارة الموثقة. ولذا تعاملوا مع تجار اليمن في تسير تجارتهم المحلية، لا مغامرهم إلى رأس المال الضروري، أما الآخرون فكانوا يملكون الفواصل ورأس المال^(٢) وعلى وعاقة هذا الرأي فلا عفر من الحذر في أحده، لأن هذا الله من حدهات الذي رعى قيام حلف الفضول كان من أثرى أترياء مكة أما حديفة بنت حويشد روح الرسول، وهي من أسد، أحد بطون حلف الفضول، فكانت تسير فواصل تجارية لحسابها، حسبما تروي الشهرة النبوية. وهذا يصعب كثيراً رأي الفاتنين ماغشم القرشيين إلى حزين:

(١) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca ... p. 6

ص ٨٨. والشرح المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٧

(٢) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca ... pp. 19, 32, 33, 76

الفراء والافناء. والراجح أن الخلاف كان سمته طموحاً سياسياً، وصراع مصالح اقتصادية، وإن لم نحل الأمر من نابن في التروات.

ثالثاً: النسيء

١- النجوم القمري والشمسية

جاء في القرآن: ﴿لَا يَلْبِسْ قُرْشٌ﴾ إيمانهم وحلف الشتاء والصيف (قرش: ٢٠١). وتدل الأبحاث على أن قوائم مكة التجارية كانت ترتحل إلى اليمن والشم في الموسم ذاته كل سنة، وكانت إذن مرهونة بمصار السنة الشمسية لا القمرية. غير أن حرب الجزيرة كانوا يعتمدون تقوياً قمرياً. ويفترض هذا التقويم واحداً من أمرين: فإما أن ماضي القوائم كانوا يتوهمونها في الشتاء والصيف في مواسم شمس ثابتة غير أنهم للأشهر القمرية وتواليها، وهذا مستبعد لأن التجارة والمواسم كانت شديدة الارتباط بالحج والأشهر الحرم، وإما أن العرب اعتملت نظاماً لكبس السنة القمرية حتى توافق شهورها شهور السنة الشمسية تقريباً. وهذا ما سمي النسيء^(١). ولا شك أن العرب كبسوا السنة القمرية، يدل على ذلك أن أسماء بعض شهور هذه السنة مرهونة بالخطر أو الحر أو ما إلى ذلك. وقد درج معظم الباحثين على القول إن جمادى الأولى وجمادى الثانية هما شهر الشتاء، إذ تجدد فيهما المياه. لكن هذا أمر غير محتمل، لأن الشتاء في الجزيرة العربية لا يجتد أية مياه. ولا بد إذن لاسم جمادى من معنى آخر. إن المصدر جمد يفتقر معنى الحفاف والقط وانحبس المطر. والجماد هي الأرض التي لم تُنظَر، أو السنة التي انحبس فيها المطر. ويُقال جمادى للعين التي جفت مائها. ولذلك يحتمل أن يكون هذا الاسم قد أُطلق أصلاً على الشهرين اللذين ينحبس خلالهما المطر، بعد ربيع الأول وربع الثاني وهما شهر المطر. أما شهر رمضان فيحتل شهر الحر القاطط. وموقعه في السنة منطقي إذ أنه الشهر الخامس بعد جمادى الأولى، شهر انقطاع المطر^(٢). وبهذين

(١) Montgomery-Watt (Muhammad at Mecca...), p. 8 (١)

(٢) لسان العرب: مولد حمد ورفق ورجح. وكذلك في... p. 12. Nabholz, op cit.

وبيع الأول، بداية موسم المطر المعترضة، من أشهر. فلو اعتد العرب سنة
 قمرية صرفاً، لما كان لهذه الأسماء من علاقة بمواسم البحر والمطر. وفي هذا
 دليل أول على أنهم عدلوا إلى كس السنة القمرية لتتنق في طولها تقريباً مع
 السنة الشمسية. وقد يُسأل: لماذا لم يُعتمد السنة الشمسية أصلاً. لقد اتخلت
 جميع الشعوب القمر في الأساس مطلقاً للتقويم، لأن القمر ينجب كل شهر. أما
 السنة الشمسية فلم يكن لها من تنظيم ظاهر سوى توالي المواسم، وهو تنظيم غير
 سهل الملاحظة، وحدوده غير قاطعة، وهو ليس مقيماً إلى أشهر، سوى ما
 وضعه الحساب البشري منذ عصر بوليس قهرم، الذي أنشأ التقويم واعتدله.
 ولذا اتخذ البشر القمر أولاً لعد الأيام والأشهر وحساب السنوات، فلما لاحظوا
 أن الأشهر القمرية اثنتي عشر لا تطابق السنة الشمسية، أي أن أملاكهم
 ومواسمهم المرحونة بالتقويم القمري تنقل غير ثابتة، عدلوا إلى الكس. فالسنة
 القمرية أقصر من السنة الشمسية بحوالي أحد عشر يوماً. وكل ثلاث سنوات شمسية
 تزيد على الثلاث السنوات القمرية أكثر من شهر. ولذا فالشهر القمري الذي
 صادف الربيع مثلاً، يصادف الشتاء بعد تسع سنوات، ثم الخريف بعد تسع
 سنوات، أخرى، وهكذا. ويلاحظ في جميع المجتمعات الزراعية أن معتقدات
 الفلاحين ولديانهم وعاداتهم كانت مرتبطة بالدورة السنوية، مع أن التقويم
 الشمسي لم يُعتمد إلا قبل المسيح^(١). وهذا يفسر سبب نشوء عادة الكس عند
 الشعوب بابل وغيرها من الشعوب القديمة، ومنهم الرومان أنفسهم^(٢).

ولكن هل للمسيح، أي كس السنوات القمرية، علاقة بتجارة مكة
 وإيلانها؟ إن بضعة الأبواب التالية ستحلل الإجابة عن مسائل عديدة منها: مثلاً

(١) انظر مثلاً Calender في Great London Encyclopedia، وكذلك وضع في شأن علاقة
 الشمس بالأديان والمعتقدات القديمة مكرر ستيفن الطليد والمعتقدات والعلوم الشعبية في
 فلسطين قبل ١٩١٨، في الموسوعة الفلسطينية، وكذلك ستيفن: وحدة المجتمع في
 الإسلام، ص ١٠٧-١١٨.

(٢) انظر مثلاً Babyloniens في Great London Encyclopedia، وكذلك Babyloniens
 Propriété... p. 208.

النسيء، ومبتدأ اعتماده عند العرب ونظامه وأصوله، وسبب رذل الإسلام له، وعلاقته بالتجارة المكيّة والمواسم والإهلاف.

ب- منشأ النسيء عند العرب

عالج الكتاب المسلمون موضوع النسيء مآكراً، فورد ذكر نسيء الشهور في كتاب الألف لامبي مختصر البلخي الفلكي الذي توفي سنة ٢٧٢ للهجرة. وتوسع البيروني في بحث أمر النسيء وقال إن العرب نقلت عن اليهود. وربط البيروني بين لفظة «جبروء» التي كانت تعني عند المبريين السنة الكبس، وبين لفظة «مَجْبَرَات» التي تعني عندهم المرأة الحامل. ولاحظ أنهم شبهوا السنة التي تحمل شهراً إضافياً بالمرأة التي تحمل في حشاها طفلاً ليس جزءاً من جلدتها. وفي المقابل قال الطبري في النسيء إن النسوة هي المرأة الحامل، وإن قولهم: نُسِيت المرأة، يعني أنها حملت. ورأى مويرغ أن اتفاق البيروني والطبري ليس مصادفة، وأن هذا الاتفاق يؤيد قول البيروني إن العرب نقلت النسيء عن اليهود. وارتأى دي برسفال أن رئيس مجلس السندريس اليهودي كان يُلقب «ناسي»^(١). وكان هذا المجلس يتولى إنشاء الشهور عند قدامى اليهود. وتؤيد الحانورات الإسلامية أن كلمة نسيء كانت اسم رجل. وكان اليهود إذ يُسْتَوْ، يصبغون شهراً بين آخر شهور سنتهم وأول شهور السنة الجديدة، وهو ما كانت تعمله العرب، إذ يضيف النساء شهراً بين ذي الحجة والمحرم، على نحو ما سنهت لاحقاً^(٢).

والنساء كانوا خُصماً من كنانة، ونُسب إليهم أنهم هم الذين غضبوا لمحاولة صرف أبرهة حاج العرب عن مكة^(٣). وكان نوكانة يفتخرون بهذه المهمة التي كانت من أهم الوظائف المكيّة. وفي ذلك قال عمرو بن قيس، أحد بني لراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة:

(١) البيروني، عند الرحمن محمد بن أحمد: الآثار الباقية من الفنون الحليّة، طبعة انداره ساخنو، لايبزغ، ١٨٧٨، ص ١١، ١٢، ٩٢، ٣٧٥ والطبري: التصريح، ص ١٠، ص ٩٩. وانظر أيضاً مادة ناسي في New Wikipedia of Islam

(٢) انظر فيما سبق: فرائع حملة أبرهة على مكة وكذلك اسم الكلي في كتاب الأصنام، ص ٤٤،

لقد خيلت نفسي أن قومي كرام الناس أن لهم كراما
 هائي الناس فأتونا سونم ولي الناس لم نعلك لجاسا
 ألسنا الناس على ضد شهر الحقل نعلها حراما^(١)

وكانت مهمة إنشاء الشهور وراثية في بني عبد ظم الكاتين. وكان الناس يلقب الفلمس، تشبهاً له بالبحر المالح العميق العمور^(٢).

وقد اختلفت المصادر الإسلامية اختلافاً طفيفاً فيما كان أول نسلة الشهور. فنسبت تلك تارة إلى سرير من نسل الكاري حد نصي من كلاب لأمه^(٣)، ونسبت طوراً إلى حفيد أخيه حذيفة بن عدي من عامر من نسل الكاري. وحصي ابن هشام ستة قلائص توارثوا الرطوبة منذ حذيفة حتى ظهور الإسلام. وهم: وحذيفة بن عبد بن قيس بن عدي بن عامر من نسل من العارث من مالك من كنانة من خزاعة، ثم قام بعده على ذلك ابنه عاد من حذيفة، ثم قام بعد عاد قلع من عاد، ثم قام بعد قلع أمية بن قلع، ثم قام بعد أمية عوف من أمية، ثم قام بعد عوف أبو نعلمة حنيفة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام^(٤).

فإذا حاولنا نخمين ومن حذيفة أول النسلة حسب بعض الروايات، فإن العمدة من زمن ظهور الإسلام من أحواله. نرحمنا نرحاً من عاتق سنة، إذا احسبنا ثلاثة وثلاثين عاماً لكل قبل في المتوسط. وطناً يهبطنا إلى زمن قصي تقريباً، وهو أمر متوقع، لأن نصيباً هو حفيد سرير من نسل على ما أسلفنا، أما حذيفة فهو حفيد عامر بن نعلمة أخى سرير. وحفيداً آخرين لا بد أن زمنهما كان متقارباً. وقد يخرينا هذا الأمر بأن نعارض إلى الاستنتاج أن نصيباً هو الذي أنشأ النسب. فأوكل وظيفته إلى أحد بني أحواله الكاتين. حذيفة بن عدي، غير أن

(١) سورة ابن هشام: ج ١، ص ١٦

(٢) اللسان، مادة الفلمس، وانظر أيضاً p. 110. Nabesh ap. 110.

(٣) الأوائل، ج ١، ص ٦٨ والمصدر، ص ١٥٦، ١٥٧ والأول، ج ١، ص ١٢٥.

والشريف: المرجع السابق، ص ١٠٩ وكذلك p. 130. Nabesh ap. 130.

(٤) سورة ابن هشام: ج ١، ص ١٥

التدقيق في خبر استيلاء قصي على مكة يعني هذا الأمر أو يناقشه. إذ يقول ابن هشام: «فولي قصي البيت وأمر مكة... إلا أنه قد أفرّ للحرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يولد ميثاً في نفسه لا ينبغي تغييره. فأفرّ آل صفوان وغديان والنسبة وحرمة بن حوف على ما كانوا عليه»^(١). وهذا يعني أن النسب كان مؤسسة قائمة منذ أيام خزاعة، وأن الفاتك عليها كان أيضاً الكنانيون. وقد يبرز هذا الأمر أن عشيرة النسب ليس حديثة، بل أعرجه سرير بن نعلبة، إذا شئت أن نوافق المصادر في حصر الأمر بينهما وحدهما. وإذا اعتد سرير مؤسسة للنسب، فإن ظهور هذا التقليد عند العرب لن يرجع على الأرجح إلى العقد الثاني أو الثالث تقريباً من القرن الخامس الميلادي. زمن رجولة قصي وجده، بل إلى العقد السابع أو الثامن تقريباً من القرن الرابع الميلادي. زمن رجولة سرير، إذا قدرنا الجبل المتوسط بما قدرناه آنفاً، أو إلى زمن ما، بين الزمنين.

وليس لدينا دليل قاطع على أن النسب قام نحو مائتي سنة تقريباً قبل الإسلام، فذلك تخمينات منطقية وحسب. لكن إحياء قصي المؤسسات المكية يبرز الاعتقاد أن النسب كان من تلك المؤسسات التي أعملتها خزاعة، وأعيد العمل بها أيام قصي. ومع ذلك يقول البيروني إن عمر النسب لدى إلفاته في حجة الوداع كان نحواً من مائتي سنة. وقد جاء أن أسماء الأشهر القمرية العربية التي نعرفها أعطيت لهذه الأشهر مائتي سنة قبل الإسلام. والخلاصة واضحة بين تسمية الشهور والنسب، على ما سلف. ولد خصص محمد حميد الله ثلاث دراسات مستفيضة بمسألة النسب ومحاولة الكشف عن أسرارها^(٢). واحتسب زمن

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٣٦.

(٢) البيروني: الأثر... ص ١١٧، ١١٨. وانظر أيضاً Hamidullah, *Muhammed Internationalism in Islam*, vol. 17 (1943), pp. 327 - 330. And Hamidullah: *The Meccan, the Hijrah calendar and the need of Preparing a New Concordance for the Hijrah and Gregorian Eras*, *Journal of the Pakistan Historical Society*, 16 (1965), pp. 1 - 18. And Hamidullah *The Concordance of the Hijrah and Christian Eras for the Life-Time of the Prophet*, *Journal of the Pakistan Historical Society*, 16 (1965), pp. 212 - 219. وكذلك: pp. 146, 147. *Madani*, op. cit. pp. 146, 147.

إتشاء النبي على وجه الاحتمال استناداً إلى نص صريح صحيح الحديث سنة من الهجرة. إذ تقول المصادر الإسلامية أحياناً إن الحديث كانت في ذي القعدة وأحياناً في رمضان. وأكد حميد الله أن سب التناقض بين المسلمين لم يكونوا يثبتون الشهور، وأنخلوا ترويضاً مختلف من القطوع الذي مكنت عليه مكة. وفي إشارة أبي بكر الصبح سنة تسع للهجرة صلاص ذو الحجة المكي ذا القعدة المديني. واستنتج حميد الله بالحساب أن عمر النبي. إذن هو نحو مائتين وست عشرة سنة^(١). واقترب نويرون بحساب المظلة من هذا التقدير فحصله مائتين وتسع عشرة سنة^(٢). غير أن هذه المسألة توحى الحاجة إلى مزيد من التلخيص على الرغم من جلال الأبحاث التي عالمتها، وخاصة لأبحاث حميد الله.

ج - نظام النبي

إذا كانت المصادر الإسلامية لا تصحح موضوع من أسرار النبي منذ منقلبه لأنها تفسر في وصف في زمن ظهور الإسلام لو ما سبه بخليل. وفي لسان العرب: «قوله تعالى: ﴿يُحَلِّمُوهُ عَلماً وَيُخَرِّجُوهُ عَلماً﴾ غيره ثعلب فقال: هذا هو النبي، كانوا في الحامطة يسمون لهماً حتى يصير شهراً»^(٣).

وقد جاء في إنتاج الأسماح للمفريزي وصف لما كان يجري عند حلول موعد إنماء الشهور، إذ قال: «ونزل عمل ذلك للعرب إنشاء المروفون بالفلاس من بني كنانة واحدهم للنبي، وكان يقوم بعد انقضاء الحج فيخطب ونبي الشهور ونبي الشهر التالي له باسمه، فيقبل الجميع لقوله ويستمعون هذا الفضل النبي. لأنهم كانوا يسمون أول السنة في كل سنتين أو ثلاث شهوراً حسب ما يستطاع التقدم. ومعنى قوله: «نبي الشهر التالي له باسمه» أنه كان يسمي شهرين متوالين متتابعاً، وذلك ما يوضحه في قوله: «وكان النبي الأول للمحرم فسني صفر باسمه، وسني ربيع الأول باسم صفر ثم والزا بين

(١) Hamoudah, Introduction... p. 320 (١)

(٢) Hamoudah, op. cit., pp. 140 (٢)

(٣) لسان العرب، مادة حل.

أسماء الشهور. وأضاف المفريزي قوله: «فإن ظهر... لهم تفرُّم شهر عن فصل من الفصول الأربعة لما يجتمع من كسور سنة الشمس وبقيّة فصل ما بينها وبين سنة القمر الذي الحفوه به، كسوا كسباً جديداً»^(١). وهو يشير بقوله هذا إلى الكسور التي تبقى من إنساء شهر كل ثلاث سنوات، مما يجمع شهراً كاملاً كل ثلاثين سنة تقريباً، فاحتاحون بذلك إل كس شهر آخر غير الشهر الذي احتادوا أن يكسوه. وقد اختلفت الروايات في المصادر الإسلامية حول النظام المتبع لإنساء الشهور، فجاء في المحرّر: «نسنة الشهور من كنانة وهم الفلامسة... فكان القلّس من هؤلاء... يقوم إمام التّشريق في المحرّر فيُنهّهم، لا يُقال أحد عن شيء غيره، فيقوم وجل منهم عند باب الكعبة ويقوم وجل آخر في الحجر، فيقول كل واحد منهما: أنا الذي لا أحاب ولا أحاب ولا يُرد قضاء قضاء. فإن جاء قوم يريدون الغارة في المحرّم يسألوه أن يؤخر المحرّم، فيحسب لهم: ويقول: هذا العام صفر الأول... فيؤخر المحرّم ويقدّم صفر. فيجلّ المحرّم عاماً ويحرّمه عاماً. وليس من شك في أن ابن حبيب أصاب حين قال إنهم كانوا يؤخّرون محرّماً، لكن تقدّم صفر مسألة أخرى. فنقدّم شهر وتأخير آخر لا يزيد عدد شهور السنة. ولا يؤدي هذا الغرض سوى تأخير المحرّم، ثم تأخير أو إنساء كل الشهور بعده، حتى تبقى بالترتيب المعتاد. فيكون في السنة محرّمان لا واحد. والراجح أن ابن حبيب أراد أن يؤيد بذلك تفسير بعض الإخباريين للنسبة. فقد فسّر النسبة على أن غرضه كان احتصار مدّة الأشهر الحرم الثلاثة المتوالية ذي القعدة وفي الحجة والمحرّم. لأن العرب كما قال: «تعيش من سؤلها ورماحها» فيشقّ موالاة الأشهر الحرم الثلاثة طليهاً^(٢). فكان النسبة في رأيه يبدّل ترتيب الأشهر فقط، فيصبح: ذا القعدة وذا الحجة وصفر ثم المحرّم بدلاً من أن يسبق المحرّم صفرًا. وبذا تهدأ الغزوات شهرين وتُستأنف شهراً في

(١) استند حميد الك إلى مسطرحة، ولم يخر على النص في نسخة مطبوعة لاخراع الأسباع في مكتبة المطبعة الاميركية في بيروت. انظر: Hamidullah The Hadith. p. 3. وانظر في النسبة

أيضاً الخفندي، أبو علي الغفلي: الأمالي: ج ١، ص ١

(٢) المحرّر، ص ١٥٧. وانظر أيضاً: Hamidullah, op. cit. p. 170

صفر الملقم، وتعود إلى الهدنة في المحرم المسوء، بعدما يقتم الغزؤون ما يند حاجتهم. وستألف أسب السيرة وعلاقته بالنعارة والمواسم والغزو وقوافل قريش فيما بعد. لكنه لا يمر هنا من أن نطرحه لمن حبيب في افتراضه أن النسبة لا يزيد من شهر السنة، وهذا ينفيه القرآن في تحريم النسبة: «إِنَّ جُنَّةَ الشُّهُورِ جُنْدُ اللَّهِ إِنَّا خُفِرْ شَهْرًا» (النورة: ٣٧).

وقد اختلفت المصادر الإسلامية أيضاً في وتيرة إسماء الشهور، فقال معظمها إن شهراً كان يزداد كل ثلاث سنوات، وقال بعض آخر إن الشهر كان يضاف كل سنتين، بل حتى كل سنة. وجاء في مستق ابن حبيب: «كاتبوا ينسئون الشهور، فكانوا يحسبون في كل شهر عامين. يحسبون في المحرم عامين وفي صفر عامين وفي ربيع الأول عامين وفي شهر ربيع الآخر عامين وفي جمادى الأولى عامين وفي جمادى الآخرة عامين وفي شعبان عامين وفي رمضان عامين وفي شوال عامين ثم ذي القعدة عامين ثم ذي الحجة عامين»^(١). وقوله هذا يعني أن العرب كانوا ينسئون مرة كل سنتين، مرة يكسونها ويحسون سنة. وهو قول يؤكد أن الإناء يزيد شهور السنة.

وقد انتهى حميد الله إلى تفسير بسيط ومطع لاختلاف المصادر في قولها بالكبس كل ثلاث سنوات أو كل سنتين أو حتى كل سنة. فالكسور التي لا تشملها كبس شهر، وهي ثلاثة أيام كل ثلاث سنوات، كانت تجسج ثلاثين يوماً كل ثلاثين سنة. ولذا كانوا يحناحون إلى كبس شهر إضافي كل ثلاثين سنة. ولما كانت السنة تكبس في المعناد كل ثلاث سنوات، فإن هذا كان يترك للنساء سنتين عاديتين لاختار كبس إحداهما الكبس الإضافي. والسنة الكبس الإضافية هذه كان لا بد أن تفصلها سنة ثم ستان من السنة الكبس العادية التي تسبقها وتلك التي تليها. ويبدو أن هذا الأمر أوهم بعض العرب أن الكبس إنما كان يحدث كل سنتين أو كل سنة^(٢).

والواقع أن مسألة النسبة أعقد كثيراً مما قد تبدو للوهلة الأولى. وهذا سبب قول ابن حبيب إن النسبة كان إذا سألوه وإن يزعم المحرم، فيحسب لهم. فالسعودي وأبو الفدا يتطابقان في أن شهراً كان يُضاف كل ثلاث سنوات. أما حاجي خليفة فقال إن سبعة أشهر كانت تُضاف في مدى تسع عشرة سنة، فيما اتفق البيروني والمقريزي ومحمد جرکسي على أن تسعة أشهر كانت تُضاف كل أربع وعشرين سنة^(١). وفيما يلي بيان للحالات الثلاث بوضع أي الأساليب أشد تضييقاً للفاصل بين السنين القمرية والشمسية، إذا افترضنا أن الشهر المنسوب ثلاثون يوماً وأن طول السنة الشمسية ٣٦٥,٢٥ يوماً.

أسلوب الأعداد	عدد السنوات القمرية وأيامها	عدد السنوات الشمسية وأيامها	الفاصل
شهر كل ٣ سنوات قمرية	٣٥٤٣٣ يوماً	٣٠ يوماً	١٠٩٢ يوماً
٧ أشهر كل ١٩ سنة قمرية	٣٥٤١١٩ يوماً	٢٦٦ يوماً	٣٦٥,٢٥٠١٩ يوماً
٩ أشهر كل ٧٤ سنة قمرية	٣٥٤١٢٦١ يوماً	٢٧٠ يوماً	٣٦٥,٢٥٠٢٦١ يوماً

ويوضح هذا البيان أن الأسلوب الثالث، أي إضافة ما مجموعه تسعة أشهر كل أربع وعشرين سنة هو أدق الأساليب في تقريب السنة من مواطاة الطورم القمري على الطورم الشمسي. وهو أسلوب اُخْتُبِرت دقته على الفرائض أن الشهر المنسوب ثلاثون يوماً وأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً.

(١) البيروني: الآثار، ص ١١، ١٢، ١٣، ٣٢٥. وانظر أيضاً pp. ١٣٧، ١٣٨. وهو يستشهد بالمقريزي وجرکسي من غير ذكر المصدر.

وقد يحتمل في المتوسط. وكلا الأمرين تقريبا. ولم يكن القول إن النسيء كان
يضيف شهراً كل ثلاث سنوات بعداً جدياً عن الحقيقة. ولذا قال بذلك معظم
المصنفين الإسلامية العربية.

د - مطابقة الشهور

إن محاولة التوفيق في بعض النصوص قد تمكن الباحثين من معرفة
الشهور القمرية والشهور الشمسية التي كان النسيء يوافقها، أي يثبتها. لذلك
قد لا يوضع لفظ أسلوب النسيء في القرون التي سبقت الإسلام، بل ربما قبل
بعض النصوص في شأن أصل النسيء. وأخرى في شأنه.

لقد اتفق في سبيل استناداً إلى الفهرستيات والجوهري وبعض
المفسرين أن النسيء كان يبدل شهر حرام من شهر آخر، دون أي زيادة في
أشهر السنة. وقد أثبتنا أن هذه الفكرة التي قال بها محمد بن حبيب أيضاً غير
صحيحة، استناداً إلى نص لمرآة صريح، لكن في سبيل لم يستطع أن يتجمل
المسعودي والمفريزي وأما الفدا الذي أكدوا أن النسيء هو كسب سنة قمرية
بشهر ثالث عشر، فبال بوجوه تدل على الأكل عند العرب قبل الإسلام:
تقوم مكبرس (بسته نوبرون لمري - شمس اعتمد لكل شراب والعرب
الحديثة)، وتقوم قمرية خالص اعتمد أهل مكة والعرب للمقرون. وذلك لمريضة
تاريخ العرب قبل الإسلام تماماً، لأن الحج والرمضان والأشهر الحرم كانت
عمومية موحدة. ولا أثر في أي من المصادر لأي احتمال يوحى أن مطابقة في
سبيل قد تكون صحيحة. وقد أحضرت المصادر على مناقضة النسيء - بقولها إن
حقبة الشهور التي عشر شهراً لا غير، أي أن النسيء كان يبدل عدد الشهور،
وكانت الأسواق العربية تنقل في طول الحرية وعرضها، على نحو ما سبق
لاحقاً. ولو اعتمد ثورمان أحدهما بنسب الشهور، لمحت القوم هذه العواصم
والأسواق. لتحريم بعض العرب الغزو والقتال وتحليل بعض الأمور لها في
آن، ولذا لا اعتماد هذا الظاهر لو ذلك. وقد بين ثورمان أن في سبيل سبق

إلى هذا الاعتقاد بسبب خطأ في مخطوطة المقرئ التي استعملها^(١).

لقد اعتمد العرب تفويهاً موحداً منذ زمن أطول مما يُعتقد. ففي الحروب البيزنطية الفارسية التي آجت نازها طوال القرن السادس، روى بروكوبيوس، وهو مؤرخ مولود في سنة خمسمائة للميلاد تقريباً، أن بليزاريوس (Belisarius) القائد العسكري البيزنطي جمع سنة ٥٤١ م. صكره في دارة ليدرس خطة مهاجمة نصيبين التي كانت بأيدي الفرس. فاعترض قائدا الوحدات السورية والفينيقية، لأن مسيرهما مع الجيش البيزنطي في رايهما، يترك البلاد طعمة سهلة للفلو الثالث ملك الحيرة. وأثبت بليزاريوس للقائدين المذكورين أن خشيتهما ليست في محلها لأن الانقلاب الصيني كان يقترب. وفي هذه الحقبة من السنة يخصص العرب شهرين بحجهم، ويمتنعون عن أي قتال أو غزو. وليس من شك في أن العسكري البيزنطي كان يعني موسم الأشهر الحارم الثلاثة التي كان يستغرق السفر إليها إلى مكة والعودة منها إلى بادية الشام شهرين على الأقل. وأظهر غويرون في حسابه أن الحج في تلك السنة، وفق بيان سنوات النبي الذي أعدّه، صادف الثاني والعشرين من حزيران/يونيو، أي موعد الانقلاب الصيني^(٢). وقد أتاح هذا الأمر وضع تفويها السنة القمرية التي تلت ذلك الحج على النحو الآتي. على أساس تفويهي طبعاً، يفترض أن التاسع من ذي الحجة صادف الثاني والعشرين من حزيران/يونيو سنة ٥٤١ م.

(١) تفسير الجلالين: سورة النورة، الآية ٣٩. سورة اس هشام: ج ٤، ص ٢٧٥. الوائلي: المغازي، ص ١١١٢. أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، الطبعة الحسينية، ج ٤ ص ٩٩. الطبري: التاريخ، ج ٤، ص ١٥٠، ١٥١. وانظر أيضاً: Naberman: Ibid., pp. 141 - 143. والفرض جواد علي أيضاً أن يكون للحرب موسم الحج. انظر جواد علي: ج ٦، ص ٣٤٩.

(٢) Naberman: op.cit., p. 152 وكذلك Devroome: op.cit., p. 289.

الشهر القمري	بدأ	انتهى
المحرم •	١٣ تموز/يولي	١٠ آب/أغسطس ٢٠٤١ م.
صفر	١١ آب/أغسطس	٨ أيلول/سبتمبر
ربيع الأول	٩ أيلول/سبتمبر	٧ تشرين الأول/أكتوبر
ربيع الآخر	٨ تشرين الأول/أكتوبر	٦ تشرين الثاني/نوفمبر
جمادى الأولى	٧ تشرين الثاني/نوفمبر	٦ كانون الأول/ديسمبر
جمادى الآخرة	٧ كانون الأول/ديسمبر	٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٤٢ م.
رجب •	٥ كانون الثاني/يناير	٣ شباط/فبراير
شعبان	٤ شباط/فبراير	٤ آذار/مارس
رمضان	٥ آذار/مارس	٢ نيسان/أبريل
شوال	٣ نيسان/أبريل	٢ أيار/مايو
ذو القعدة •	٣ أيار/مايو	١ حزيران/يونيو
ذو الحجة •	٢ حزيران/يونيو	١ تموز/يولي

تقويم سنة ٢٠٤١ م. • الأشهر الحرم

إن قول بلخاريوس يثبت على نحو قاطع أن العرب كانوا يُسمّون الشهور منذ ذلك الزمن على الأقل، ولا بد أن بداية الإنشاء سقت تلك السنة حتى بات الحج في الانقلاب الصيني قرناً وتقليداً عربياً في بداية الشام يعرفه البيزنطيون. وقوله يثبت أيضاً أن غرض السري كان موازنة الشهور حتى يصادف موسم الحج الانقلاب الصيني. غير أن الساء على ما يبدو لم يُحسنوا دائماً الحساب لتثبيت موعد الحج على موعد الانقلاب أو تلاصوا به لغرض ما. فبها يلي تقويم السنة العاشرة للهجرة^(١)، وما يسألها في التقويم النسي سنة ٦٣٩ م. وسنة ٦٣٢ م.

الشهر القمري	بدا	انتهى
المحرم •	٩ نيسان/إبريل	٨ أيار/مايو ٦٣١ م.
صفر	٩ أيار/مايو	٦ حزيران/يونيو
ربيع الأول	٧ حزيران/يونيو	٦ تموز/يوليو
ربيع الثاني	٧ تموز/يوليو	٤ آب/أغسطس
جمادى الأولى	• آب/أغسطس	٣ أيلول/سبتمبر
جمادى الثانية	٤ أيلول/سبتمبر	٢ تشرين الأول/أكتوبر
رجب •	٣ تشرين الأول/أكتوبر	١ تشرين الثاني/نوفمبر
شعبان	٢ تشرين الثاني/نوفمبر	٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر
رمضان	١ كانون الأول/ديسمبر	٣٠ كانون الأول/ديسمبر
شوال	٣١ كانون الأول/ديسمبر	٢٨ كانون الثاني/يناير ٦٣٢ م.
ذو القعدة •	٢٩ كانون الثاني/يناير	٢٧ شباط/فبراير
ذو الحجة •	٢٨ شباط/فبراير	٢٨ آذار/مارس

تقويم سنة ١٠ هـ • الأشهر الحرم

ويظهر من مقارنة التقويمين أن السنة القمرية رغم النسيء، لم تثبت على مواعيد شمسية معينة. وفي نحو من تسعين سنة شعبة تحرك المحرم من تموز/يوليو إلى نيسان/إبريل. وينقل حواد علي عن أحد مؤرخي الروم أن ذا الحجة في زمت كان يصادف تشرين الثاني/نوفمبر^(١)، أي أن محرماً انتقل إلى كانون الأول/ديسمبر.

لقد دعا حميد الله في أبحاثه عن النسيء (وقد أسلفنا ذكرها في باب: منشأ النسيء عند العرب، أعلاه) إلى جهد مشترك تُسخر فيه الحاسبات لاستكمال حقيقة تاريخ النسيء. ولذا رُصدت التواريخ التي توحى الثقة في شأن

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٣٨٨، ٣٨٩.

حوالق الأشهر القمرية من السنوات الشمسية، لا يمكن ربما التوصل إلى الأخطأ التي ارتكبتها النساء، فأدت إلى تحرك الأشهر، ولا يمكن بالتالي اكتشاف النظام الذي اتبعه النساء العرب. وقد يحسم من هذا حلاّ كثير من غوامض التاريخ العربي قبل الإسلام.

أما الحال القائمة الآن، فإن وصفها بالمعرض لا يرقى إلى حرية المبالغة. إذ يجد بعض الباحثين أن ربيع الأول وربيع الآخر كانا في الشتاء^(١)، وأن لديه ما يثبت ذلك في المصادر. ويستدل البعض الآخر بالمصادر على أن ربيع الأول وربيع الآخر كانا في الصيف^(٢). وثمة من يعتقد أن السنة توقفت بعد الهجرة^(٣)، وثمة من يؤكد أن السنة ظل قائمة حتى حرّم الإسلام في السنة العاشرة للهجرة خلال حجة الوداع^(٤). وهذه حال لا يمكن أن تبطل إلا إذا بذل جهد استثنائي لا يمكن لولا أن تقدم الأبحاث في مثل هذا الموضوع المعقد.

ج - تحريم الإسلام النسوة

ذكر النسوة في القرآن الكريم تلميحاً وتصريحاً، ففي قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥)، قال مفسرون: وهذه السنين الثلاثمائة عند أهل الكهف شمسية وترد القمرة عليها عند العرب تسع سنين، وقد ذكرت في قوله: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، أي تسع سنين، ثلاثمائة شمسية ثلاثمائة وتسع لقمرة^(١). وجاء في سورة ياسين قوله: ﴿وَالنَّفْسُ نَجْرِي لِمَشْرِقٍ لَهَا فَلْيَكْ تَقْبِرُ الْقَبْرِ الْعَلِيمِ • وَالْفَرْقَةُ فَتُرْمَلُ فَتَزُولُ حَتَّى خَافَ كَالْفَرْجُونِ الْقَبِيرِ • لَا النَّفْسُ بِهِيَ مَا أَنْ تَفْرُكَ الْفَرْجَ وَلَا الْكُلُّ سَائِرُ الْفَرْجِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَنْبُتُونَ﴾ (ياسين: ٣٨ - ٤٠). وقد فسر الطبري والفرطبي والقرطبي هذه الآيات على أنها الإشارة الأولى إلى مخالفة النسوة لعقيدة الإسلام، خصوصاً

(١) Montgomery Watt: Muhammad at Mecca..., p. 1.

(٢) Krenkow, F.: The Annual Cycle of the Pagan Arabs, Islamic Culture, XXI (1947), p. 112.

(٣) Montgomery Watt, W.: Muhammad at Mecca (Oxford, Clarendon Press), pp. 339 ff.

(٤) Hamidullah: The Naif..., pp. 11, 12.

(٥) انظر تفسير سورة الكهف الآية ٢٥، في تفسير الخليلي.

في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾... الآية، إذ كان
غرض النسيء بالتخصيص أن تساوى الستان الشمسية والقمرية.

لكن القرآن الكريم ذكر النسيء صراحة في سورة التوبة وفي معرض
تحريمه إذ قال: ﴿إِنَّ جَنَّةَ الشُّعُورِ جَنَدَ اللَّهِ أَتَانَا خَشَرٌ شَهْرًا فِي حَيْثُ اللَّهُ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَغْلِبُوا بِهِنَ
أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ •
إِنَّمَا النَّسِيءُ زِينَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّوْنَ غَالِيًا وَيُحَرِّمُونَ غَالِيًا
يُؤْتُوا جَنَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾
(التوبة: ٣٧-٣٨).

وكلمة ليواطئوا في الآية تُفصح عن معنى النسيء. ففي اللسان مادة
وطأ: يُطَأُ واطئنا فلان على الأمر إذا وافقك عليه^(١). وقد أكدت خطبة الرواع
التي ورد فيها الرسول عبارات من سورة التوبة، معنى موافقة الظهور القمري
التقويم الشمسي، فقال النبي: «إن النسيء زينة في الكفر... يُجَلِّوْنَ
[المحرم] غالياً ويحرِّمونَه غالياً ليواطئوا جنة ما حرم الله، فيجلِّوا ما حرم الله
ويحرِّموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات
والأرض»^(٢). وتدل هذه العبارة الأخيرة بالطبع على أن الإسلام نظر إلى النسيء
نظرته إلى فعل لعب بنظام وضعه الله. وهذا سبب من أهم الأسباب التي يمكن
أن تفسر رفض الإسلام للنسيء. وقد فتح المسلمون مكة في سنة ثمان للهجرة^(٣)
ولكن النساء أنساوا شهراً في سنة تسع. وقال البيهقي في الآثار إن الرسول
«انتظره»^(٤). ولما تفسر سبب «انتظاره» ففي قوله: إن الزمان قد استدار كهيته يوم
خلق الله السموات والأرض. وهذا يعني أن الرسول شاء أن ينتظر حتى يبلغ هذه
الشهور المنسومة ضعفاً كاملاً من أصحاب اثني عشر. ليعود كل شهر قمري إلى

(١) لسان العرب، مادة وطأ.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٢٧٥. وانظر في هذا: Hamidullah: The Nafl... pp. 2, 4, 11.

12

(٣) البيهقي: الآثار... ص ٩٦. وانظر أيضاً 12 p. Hamidullah: Nafl...

موضع الذي كان له قبل بدء السيرة. فهل كان السيرة مطلقاً بحملات السيرة ومن
من كثافة قومه؟ إن هذا احتمال مطول.

لكن حصر أسباب تحريم الإسلام السيرة في هذا الجانب وحده قد لا
يوفي للباحث الثقة الكاملة.

وقد مر رومانسون سرياً على هذه المسألة فقال إن الإسلام عد إلى السيرة
القصيرة الصرفة لأن للسيرة صلة بعبادة الأوثان^(١). لكنه لم يفسر تماماً هذه
الصلة. وفسر مورغ تفسيراً أصح من قال إن السيرة كان يجعل للحج شهراً
ليس للحج، وبهذا يصرف الناس عن لقاء شعائرهم وفرصتهم في زيارتها^(٢). ولما
مونتغمري - وات فلزاي سبب الأول هو أن للسيرة صلة بعبادة الأوثان يبدو أننا
لا نفهمها الآن، والثاني هو أن الإسلام ليس ديناً زراعي الطابع^(٣). وقد فتح
بذلك الباب إلى تفسير صحت لهذه المسألة. لكنه لم يتبع عن ووجه. فالتفت
المحقق إلى الأدیان القديمة في وادي الرافدين وودي قبل تبن العلاقة الوثيقة
بين هذه الأدیان والطعام الزراعي القائم على الدورة السوية النسبية. فكانت
الأدیان المذكورة تثبت أعيادها على موسم الدورة السوية النسبية بواسطة
السيرة. وقد قام نظام السيرة منه في دول وادي الرافدين وودي النيل على
حقيقة دينية زراعية ترمز الحصاد والغرابين وترتبط الأعياد بالأفلاكيين الشمسين
والمواهب الأخرى الخاصة بالنسب والزراعة. فما كان التقويم أصلاً وليساً
تقويمياً سرياً. ولذا ارتأى الإسلام أن في السيرة عودة إلى هذه الأدیان، ولم
يكن معطلاً أن قبل هذه العودة، لو أي لربط التقويم النسبي قد يستلها^(٤).

و- السيرة والتجارة الدولية

لقد اختلف الباحثون في تفسير علاقة السيرة بالتجارة، وإن اختلفوا على
تأكيد هذه العلاقة. ولزاي الشريف أن بدء السيرة إنما ابتدئها العرب لتطويل

Rudman Muhammad, p. 233 (١)

Encyclopedia of Islam, Vol. 1, by Moberg, Axel (٢)

Montgomery Watt Muhammad at Mecca, p. 238 (٣)

(٤) سبيل: وحدة المصنف، ص ١٠٧ - ١١٥.

الهدنة بين القبائل في الجزيرة. وقال في تفسير ذلك إن بلاد العرب حارة يصعب فيها الانتقال والغزو في أشهر الصيف. فإذا كانت أشهر الصيف مائة للقتال من طبيعتها، وإذا كانت الأشهر الحرم تحرم الغزو والقتال كذلك، فإن هذه الأشهر مجتمعة يمكن أن تجعل الهدنة سبعة أشهر متوالية. وفي الأشهر الباقية متنفس لطلب الثارات وشن الغارات. واستدل الشريف على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ (النور: ٨١). وكذلك استدل بما قال ابن سعد في الطبقات الكبرى، عن غزوة تبوك وما لقي المسلمون فيها من شدة الحر وتخلّف بعضهم عن القتال وتردّد بعضهم الآخر. كذلك نسب النسيء إلى رغبته في جعل زمن الحج في فصل من فصول السنة حتى يتيسر لهم الحج في غير وقت الحر أو البرد الشديدين، وفي الفصل الذي تفرّ فيه الأصواف والأوبار والسنن والدّهن لتجبروا بها^(١). وقد لاحظ أن عقائده هذه تناقض المصادر العربية التي قالت إن النسيء كان لطلب الغزو لا لطلب الهدنة. وقال إن طلب الغزو ليس الأصل في إنشاء النسيء. غير أنه افترض أن النسيء ثبت أشهر السنة القمرية على مواقيت معينة في السنة الشمسية. والنسيء أصلاً هذا غرضه. لكننا أثبتنا فيما سلف أن النساء لم يؤقوا هذا الغرض لب من الأسباب، فكانت الأشهر الحرم ستة عشر وإحدى عشرة للهجرة في شباط وآذار ونيسان/فبراير ومارس وأبريل، فيما صادفت سنة ٥٤١ م. أشهر الصيف. وهذا ينفي أولاً لفكرة الباحث على اتّخاذ سنة من السنوات أساساً لتفسير النسيء وأغراضه، وينفي ثانياً أن النساء تلاعبوا بالأشهر لتطويل الهدنة.

وأبدى مويرغ حذراً في معالجه هذا الأمر، فقال إن ما نعرفه عن أسلوب النسيء عند العرب غير مؤكد في شيء ولا بد أنه كان على غير انتظام، وإن غرضه كان على الأرجح جعل موسم الحج والأسواق التي ترافقه في جوار مكة في موعد مناسب من السنة الشمسية. ولاحظ أن النسيء كان يتولاه بنو كنانة، وكانت الأسواق تُعقد في أرض الكنانين^(٢). وكذلك ربط جواد علي النسيء

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٩٩ - ١٩٨.

(٢) Encyclopaedia of Islam: op cit. Mubung: Naef

بالتجارة، لكنه لم يربطها بالتجارة المحلية فقط مثلما فعل مورخ، بل بالتجارة الدولية أيضاً، فقال إن حرب الحاملة وأهل مكة على الأحمر ابتكروا النسيء حتى لا تدور أشهر الحج والتجارة على فصول السنة فتأتي الحجة هذه السنة في الصيف، وتأتي بعد مدة في الشتاء، وإن النسيء استخدم على ما يبدو لجعل موضع شهور الحج والتجارة ثابتاً في السنة الشمسية، فلا يضطرون إلى قيام قافلة الشتاء في الشتاء وهم لا يستطيعون مرد الشمال، لو يضطرون إلى تسير تجارة اليمن في الصيف وهو على ما هو من حر^(١).

لما سيمون فأنشأ عسوماً إلى علاقة النسيء بالتجارة، دون أن يخوض في تفصيل الأمور، فقال إن المصادر العربية وغير العربية تتيح القول إن غرض الأشهر الحرم في نظر معظم الفاتل العربية، هو إقرار سلام نسيء، ففي هذه الأشهر كانت القوافل تسير من غير حمالة مسلحة تحميها من البدو الغزاة. وكان إنشاء النسيء مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأشهر الحرم، وكان يحصح عبر كنانة، لسلطان القرشين، فكان يتيح لهم أن يحاربوا للأشهر الحرم الزمن الذي يناسب تجارتهم^(٢). ولم يقل إذا كان النسيء يأسس التجارة العربية المحلية أم التجارة الدولية التي نظم الإبلان رحلتها.

لكن تويرون وحيد الله كانا أشد إصباحاً وأكدوا أن غرض النسيء كان مطابقة موسم الحج على موسم الطواف والتاج، حتى يتمكن العرب من تقديم الأضاحي والغرائب. ويربط هذا التفسير النسيء حكماً بالأسواق المحلية والمواسم القبلية. وقد نجل تويرون ما يحدث بالحج والمواسم من دون نسيء فقال: عندما يقع موسم الحج ليل صبح حصاد السنة وتطرحها، ويعد إشراف مؤونة السنة الفاتنة على العاد، ينظر على الراغبين في الحج أن يجمعوا ما يكفيهم مؤونة السفر والمكوث في مكة لو في الأسواق المحلولة التي كانت تُفقد فيها المواسم السنوية. وكان لا بد من معالجة هذه المسألة بثبت موعد الحج

في موعد تكون فيه العيوب والثمار والتاج من كل صنف وليرة، أي الخريف^(١). أما حميد الله فاستشهد ابن سعد «ومؤرخين إسلاميين آخرين» في ذكر نصوص معاهدات عقدتها النبي مع أهل البحرين لدى قبولهم الإسلام. فقال إن الزكاة فرضت على المتعبدين، وفسر ابن سعد في الطبقات ذلك بقوله: «ولهم أن لا يُحبسوا عن طريق الميرة، ولا يُمنعوا صوت الفطر ولا يُحرّموا صبرهم الثمار عند بلوغه، أي ألا يُحال بينهم وبين بيع نتائجهم ولا تُمنع قطعانهم من وهي المراعي التي مُطرت، ولا يُحرّم جني الثمار قبل وصول جامعي الزكاة^(٢)». إن هذه الملاحظة تزيد ارتباط النبي بهما سبب «الأديان الزراعية» وبالمواسم المحلية والأسواق القبلية والحج، لأنها تؤكد أن القبائل لم تكن قادرة في كل فصل من فصول السنة على دفع الزكاة في الإسلام. وليس يعقل أن هذه القبائل نفسها كانت قادرة قبل الإسلام على جمع الأضاحي والفرايين ومؤونة الأسفار والإقامة في المواسم، أي أن كان مواعدها. ولا مفر من الاعتقاد أن النبي كان مُعتدًا في الأصل لدفع موسم الحج والأسواق إلى ما بعد الحصاد والقطاف، على الرغم من أن النسأة على ما يبدو، لم يُحبسوا الحساب المطلوب، وفقًا لما صنف.

إن أسرع ما يخطر ببال الباحث في معالجة أمر النبي، هو احتمال أن يكون النبي قد ربط الأشهر الحرم بالانقلاب الصيفي لأسباب دينية أولاً، وربما لأسباب التجارة المحلية والمواسم، ثم تحكمت لرئيس بالنبي شيئاً فشيئاً من أجل توليت الأشهر الحرم الثلاثة المتتالية، على رحلة اليمن الشتالية، المرتبط مواعدها بالرياح الموسمية، أي بالدورة الشمسية، لا الأشهر القمرية. ويفترض هذا الاحتمال أن الفواصل الطاعة إلى اليمن لحمل تجارة الشام وتلقي تجارة المحيط الهندي، تحتاج إلى هدنة الأشهر الثلاثة حتى تطلق من مكة وتصل إلى اليمن وتفرغ حمولتها وتحمل البضاعة الشرقية وتعود بها إلى مكة. فرحلة

(١) Nabreen op cit. p. 137

(٢) ابن سعد: الطبقات ج ١، ص ٢٨٢. وأخر أيضاً ... Intercession

الذحباب شهر، ورحلة الإياب شهر، وتُسمى للفرغ والتحميل والاستراحة وقد
الضفقات شهر. ونحن لما مطالع نفهم السنة العاشرة للهجرة أن هذا تفسير
محقول. فكانت الرياح الموسمية المؤاتية لإبحار السفن إلى الهند وسيلان
والصومع منها، تهب من تشرين الثاني/نوفمبر حتى آذار/مارس، على نحو ما
أسلفنا في باب: متى الإبحار إلى الهند؟

فلذا شئنا أن نتجمل مسار الترتيب لرحلة الشتاء وفقاً لنفهم السنة العاشرة
للهجرة، على الفراض أيها كانت نموذجاً للسنوات المتتالية لتلك الشهور فيما
يتعلق بتجارة قريش الدولية، فإن ما كان يحدث هو الآتي:

- تخرج قافلة رحلة الشتاء من مكة في أول ذي القعدة (أول شهر
شباط/فبراير)، فتصل إلى اليمن وموانئها في آخر ذي القعدة.

- في هذه الأثناء تصل السفن من المحيط الهندي، لأن الرياح الموسمية
الشتوية الملازمة للإبحار موشكة على التبدل. وهذا لولم المسارعة إلى الاحتماء
من أنواء الرياح الموسمية الصعبة.

- ينصرف المكون في اليمن طوال شهر ذي الحجة (شهر آذار/مارس) في
بيع تجارتهم وسنودرات الشام، ويشترون نخالة الشرق الآتية مع السفن من
المحيط الهندي. وفي شهر آذار/مارس، منج لعودة السفن المتخلفة في
المحيط إلى موانئها العربية.

- في آخر ذي الحجة تتبدل الرياح الموسمية، فوقوف البحارة لملفوحهم،
فيما تظعن القافلة القرشية عائداً إلى مكة، مستلة بالتمويل والحرير واللبن وما
إلها، فتصل في أواخر المحرم.

ولكن مسألتين نعرضهن هذا الاحتمال الأولي هي: هل كانت البضائع
التي يأتي بها القرشيون إلى اليمن تُحزَن إلى حين الإبحار في السنة التالية؟ لقد
سبقت الإشارة إلى أن هذه البضائع كانت تتضمن الأموال المعدنية وملابس
الأدم والصوف والظن من النام والحمور من العراق. وكل هذه السلع يحتمل

الخزن، بل بعضها يستحسن خزنه. وليس من شك في أن تجارة التصدير إلى الهند وسيلان كانت تجارة قليلة إذا ما قورنت بتجارة الاستيراد منها، ولذا يبدو أن مسألة خزن هذه السلع لم تكن مشكلة ذات شأن يذكره حتى أن المصادر لم تأت على ذكرها. أما المسألة الثانية فهي: طالما أن موسم الرياح الشتوية المؤاتية للإبحار يبدأ في تشرين الثاني / نوفمبر، فلماذا كانت قریش (إذا افترضنا أنها تحكمت بإنشاء الشهور لهذا الغرض) تؤخر الأشهر الحرم، أي تؤخر رحلتها الشتوية إلى اليمن حتى أواخر موسم الرياح الشتوية؟ إن ذهب القافلة المكية إلى اليمن في تشرين الثاني / نوفمبر، يعني أنها ذاهبة لشراء بضاعة المحيط الهندي التي وصلت إلى موانئ اليمن في السنة الماضية، لأن الخريف كان موعد رحيل السفن إلى الهند، لا عودتها. وافترض هذا يعني افترض أن وسائل خزن ضخمة كانت موجودة في اليمن لحساب القرشيين من أجل استيعاب تجارة الشرق الكثيرة الواردة. وهذا أمر مستبعد، لم تأت على ذكره المصادر على الإطلاق. وإذا افترضنا أن قریشاً كانت تؤخر قافلتها شهراً لتصل إلى اليمن في كانون الأول / ديسمبر، فإن هذا يعني أن السفن الآتية ببضاعة المحيط الهندي أمضت موسم الصيف العاصف في الهند وسيلان، بدلاً من أن تمضي في موانئ الخليج وحضرموت واليمن. وهذا أيضاً مستبعد، لأن معظم البحارة كانوا عرباً في هذا القطاع من المحيط الهندي على نحو ما أسلفنا.

ويفترض إذن أن القرشيين كانوا ينتظرون عند بدء هبوب رياح الشتاء الموسمية، ثلاثة أشهر، من أول تشرين الثاني / نوفمبر إلى أتمر كانون الثاني / يناير، ليستروا قافلتهم التي تصل إلى اليمن في أول آذار / مارس. وبذلك تكون للسفن مهلة أربعة أشهر لتبحر إلى الهند وسيلان وتغني متاجرها ببعاً وشراً هناك، وتعود إلى موانئ حضرموت واليمن. وهذا وقت كافٍ على ما يبدو.

٣- مشكلة رحلة الصيف

وهذا الحل لمسألة النسيء يبدو مطبوعاً للرحلة الأولى. غير أن التدقيق فيه يقضي إلى الكشف عن عدد من المشكلات:

١٠ - ليست هذه المواعيد لرحلة الشتاء إلى اليمن تليها. فالنساء هو إضافة شهر كل ثلاث سنوات في الإحصاء. وهذا يعني أن بين النساء والنساء تتحرك الشهور القمرية أحد عشر يوماً في السنة واثنتين وعشرين يوماً في الستين، إلى أن تعود المواعيد إلى موضعها في السنة الثالثة مع الإحصاء. وسنفرس مع حميد الله أن آخر إنساء حدث سنة تسع للهجرة، وسنخصص بقية على ذلك موقع. الأشهر الحرم في السنوات الثلاث الثامنة والعاشرة والحادية عشرة للهجرة، إنزى جدوى هذا النظام في تنظيم الفرائض المكية حتى تلاقي السفن الآتية من المحيط الهندي. وسنفرس طبعاً أن هذا النظام ظل قائماً في السنوات الثلاث المذكورة، لأن الذين أسلموا شهراً في سنة ٩ هـ. افترضوا ذلك واحصوه:

٩ هـ.	١٠ هـ.	١١ هـ.	
٩ شباط - ١٠ آذار	٢٩ كانون الثاني - ٢٧ شباط	١٨ كانون الثاني - ١٦ شباط	ذو القعدة
٨ نيسان	٢٨ شباط - ٢٨ آذار	١٧ شباط - ١٧ آذار	ذو الحجة
٩ نيسان - ٨ أيار	٢٩ آذار - ٢٧ نيسان	١٨ آذار - ١٦ نيسان	المحرم

(١) اعتدنا في إعداد هذا البيان على تقويم السنة العاشرة للهجرة فيما سلفه وأضفنا أحد عشر يوماً لتسعين توارخ السنة ٩ هـ. وحسبنا أحد عشر يوماً لتسعين توارخ السنة ١١ هـ. وبلاحظ هنا أن المحرم يتسلي إلى سبع عشرة تلي السنة التي يتسلي إليها ذو القعدة وهو خمسة المذاهب بسلطانه بالطبع.)

وعين من هذا، إذا افترضنا أن اللطافة المكية كانت تسافر في ذي القعدة وتصل في أول ذي الحجة إلى العراق البصرة والحضرية، أن السنة الأخيرة من هجرة النساء الثلاثة هي أسب السنوات لأنها تسع للفرشين التي عشر يوماً

في شباط/ فبراير ونصف آذار/ مارس لقضاء تجارتهم، قبل أن يبدأوا رحلة العودة في أول المحرم. لما أصبح الشتاء مجالاً فهي سنة الإنشاء لأن مجال قضاء التجارة قبل وصول آخر السفن في أواخر آذار/ مارس وبداية رحلة العودة يتخلص إلى نحو عشرين يوماً من آذار. لكن هذا المجال يبقى مقبولاً.

المشكلة الثانية هي في أن الإبل كان قاتماً، وفي ما سلف، منذ مطلع القرن السادس الميلادي. والنسبة كان قائماً لدى العرب منذ أوائل القرن الخامس الميلادي على الأقل. وفي سنة ٥٤١ م. إذن كان يفترض أن تكون قريش قد سحرت النسبة لرحلة الشتاء كما جاء آنفاً. لكن ما ذكره بروكويوس في شأن حج العرب عند الانقلاب الصيفي (في باب مطابقة الشهور أعلاه)، وما يثبتته تقوم سنة ٥٤١ م. الموضوع على هذا الأساس على نحو تقريبي، يتبين علاقة النسبة بالتجارة المحلية، أي قيام الحج في الخريف، وعلاقة النسبة بالتجارة الدولية، أي مصادقة الأشهر الحرم لأشهر الشتاء. لكن في الإمكان القول إن قيادة مكة في السنة المذكورة، وكانت حديثة عهد بعد في قيادة الإبل، لم تكن قد سحرت جميع المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية لمشروعها، وقد يتبين فيما سلف كيف كانت هذه القيادة تعالج المشكلات حالما تعرض لها، وتعدّ الفراخ إثر الفراخ في منظومتها. وهذا قول بشيخ الراحة والرضى ولا شك، لكنه منطقي أيضاً. إذ ليس مستحيلاً أن يكون القرشيون قد سبّروا قوافل تجارتهم الدولية أولاً بما تيسر لهم من جهود وأحلاف، ثم أعطوا كلما اكتشفوا ثغرة أو ضعفاً في نظامهم، يدعون أمن قوافلهم بالخمس تارة، وبالأشهر الحرم طوراً، فلم يحىء الإسلام إلا وقد أحكموا نظامهم إحكاماً شبه تام.

يحل النسبة حسبما نتجلاه، مشكلة رحلة الشتاء إلى اليمن، لما حال رحلة الصيف إلى الشام؟ هل كان شهرها الحرام هو شهر رجب؟ إن المسافة بين مكة واليمن مثل المسافة بين مكة وغزة أو بصرى تقريباً. فلماذا تحتاج رحلة اليمن إلى ثلاثة أشهر حرام ولا تحتاج رحلة الشام لغير شهر؟ إن لهذه المسألة حلولاً محتملة. ذلك أن الرحلة إلى الشام كانت تحمل تحارة الشرق الثمينة

وكانت تعود بتجارة قليلة الثمن إما ما ترونت بالطوب والأفوية والحبر، ولما كانت قريش تحتاج ربما إلى حملة النهر الحرام في فعلها إلى الشام، فعود عنها ساعة تشاء غير عائية. وهذا احتمال. أما الاحتمال الثاني فهو أن خريطة الأحلاف المكية تبين وفق ما جده في بلد: أحلاف قريش القبيلة، أن مكة كانت تستطيع تسير قوافلها آمنة حتى مشارف بقعة الشام عبر وادي القرى ومنازل علوة وغيرها من القبائل. أما ما يلي من الطريق فهو خارج لسلطان الدولة البيزنطية. وكان يمكن لقريش أن ترحل بطائفة الشام قبل وحب بأسرع من لو أكثر لتكسب وقتاً بفضل حملاتها المستمرة على نصف الطريق. لكن وجباً في سنة عشر للهجرة لم يكن في الصيف بل في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وإذا كانت لمكة أحلاف على طريق الشام فقد كانت لها أحلاف على طريق اليمن أيضاً. وإذا قيل إن الإبل قام لتستفي قريش من الأحلاف وتسير قوافلها على مدار السنة، فذلك ينطبق أيضاً على رحلة الشتاء إلى اليمن.

وتعاده هذه التسللات طرح الاحتمال الذي سبق الإشارة إليه وهو أن النسب كانت له وظيفة ما في التجارة الدولية لقريش، وكان قبل ذلك ينظم المواسم والأسواق المحلية. ولا يحل هذا الاحتمال نفسه من مشكلات تظهر فور مطالعة سنة ٥٤١ م. و١٠ هـ. ولن يكون حل هذه المشكلات ممكناً إلا بحل مشكلة نظام النسب الذي كان معضلاً. إلا أن مجموع المؤشرات والدلائل توحي أن قريشاً استلكت عدداً كبيراً من المؤسسات والوسائل لعملية تجارتها وتسييرها بأمان، ولقد احتاجت إلى استخدام بعض هذه المؤسسات أحياناً، واستغنت عن استخدامها في أحيان أخرى. ولأ فكيف نقرر أن ولعة بدر الكبرى التي حدثت في السابع عشر من رمضان في سنة الثانية للهجرة، الخامس عشر من آذار/ مارس سنة ٦٦٤ م. (١١)، ربما كانت اللطيفة القرشية عائدة من الشام ودمشق ليس شهراً حراماً ولا آذار/ مارس من شهر الصيف؟



الفصل السادس

المواسم والأسواق

أولاً: ملحق الأصنام والقبائل

أ - ارتباط الحج بالأسواق

صُرف في هذا البحث جهدٌ للفترة بين التجارة المحلية التي كانت قائمة على الدوام في جزيرة العرب، والتجارة الدولية التي لم تنشط إلا ضمن ظروف سبقت دراستها. وأشار غير مرة إلى أن عهد الإلهاف التي طفتها القبلات المحيطة مع ملوك الأطراف الأربعة ومع القبائل العربية على طرق القوافل، إنما كان عرضها لتسيير تجارة الشرق الدولية، ولو أن التجارة المحلية لم تنفد من هذه اليهود والموتى، ولعلها على العكس نشطت بفضلها واتسعت. ولا شك في أن التجارة المحلية لم تكن حاضرة على عهد عهد الإلهاف لأنها لم تكن تحتاج إلى هذه اليهود. فالتجارة المحلية في جزيرة العرب قامت بفضل الأحلاف والأشهر الحرم وغيرها من المؤسسات السائدة للإلهاف. وكان يمكن أن تستمر إلى ما شاء الله، من غير الإلهاف. ولذلك قد يبدو أن إنحلال المواسم والأسواق في دراسة الإلهاف، حصل في غير محله.

غير أننا إذا استعينا القول إن الأسواق والمواسم لم تسبب ظهور الإلهاف، فإننا لا نستطيع في المقابل أن نزع أن الإلهاف لم يؤثر في هذه المواسم والأسواق. لقد نشأ الإلهاف بمنزلة من التجارة المحلية. ولكن تطوره وتعاظم القوافل القرشية وحسنها في التجارة الدولية، والشراف القبائل العربية في جني أرباح هذه التجارة حسن الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية، وذاك القدرة

الشرائية لدى القبائل، وأشاع حالة مقبولة من الأمن، وبرزت هبة القيادة المكيّة وسمعتها، فنشطت الأسواق، وارتحل العرب بعضهم إلى البضر، وأقبل الناس بكثرة على المواسم التجارية والأدبية، واشتد الإقبال على الحج، وتفاوتت مكة على كل المدن الأخرى في اجتذاب غفول العرب وقلوبهم ومتعبدتهم وتجارهم. فكان الإيلاف بلذة فاقت نبتها كل تصوّر. وعلى رغم أن العرب تعبّدت لأصنامها منذ أزمنة غابرة، وأن كثيراً من هذه الأصنام جُمعت في الكعبة منذ عهد عمرو بن لُحَيّ على الأقل، كما تقول الماثورات الإسلامية، إلا أن المسار الذي أخذ يوحّد القبائل في عقيدتها وفي مصادر رزقها وفي لهجاتها وتنظيمها الاجتماعي والسياسي، لم تُدرّ عجالاته بهمة وقوة، إلا بدافع الإيلاف.

ولم يكن غريباً أن يحفز الإيلاف، وهو عهد تجاري، تطور وحدة العقيدة الدينية لدى القبائل. وقد لاحظ الأزرقى أن تحارة المفاضة بين هذه القبائل كانت تقوم في مواسم الحج. وموافقت الأسواق وموافقت الحج كانت تجمعها تسمية واحدة هي: المواسم^(١).

وقد عبّر القرآن الكريم في غير آية عن قبول مفهوم العلاقة الوثيقة بين مواسم الاتجار والحج. فسورة قريش لا تذكر المشركين بأن رب البيت رزقهم من التجارة فقط، بل تدعوهم إلى صلاته لشكره على فضله هذا. وكثرة الإشارات إلى التجارة في القرآن دليل على أنه خاطب مجتمعاً تجارياً مسلماً بالمفاهيم والعبارات التجارية. وعلى أن فكرة علاقة الدين بالتجارة لم تكن غريبة على المجتمع المكي إطلاقاً. فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِذَنبِكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كُنَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّخِذِ اللَّهُ رِزْقَهُ وَلَا تَتَّخِذْ مِنْهُ شُرَكَاءَ... الآية (البقرة: ٢٨٧). وقال في تحليل التحارة في المواسم الدينية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ... الآية (البقرة: ١٩٨) وقال أيضاً في التحارة الحلال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا

وَسَقَمَا... الآية (الأنعام: ١٥٢). وفي ذلك دلل أيضاً: ﴿فَاتَّوَفَّاكَ الْكَفِيلَ وَالْجِزَانِ وَلَا تَجْهَلُوا النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا تَمْسُوا فِي الْأَرْضِ بِقَدْرِ إِحْسَانِهَا فَبِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾... الآية (الأعراف: ٨٥). وقد أيضاً: ﴿أَلَا تَنْظُرُوا هِيَ الْجِزَانِ • وَالْجِزَانِ الْوَزْنُ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْجِزَانِ﴾ (الرحمن: ٧-٨).

وَأَتَتْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَاخِرَ أَنْ الْمَعْنَى الَّتِي كَانَتْ تَصْرِفُ بِهِمْ
عَنِ الصَّلَاةِ فِي التَّجَارَةِ، إِذْ قَالَ: «وَرِغَالٌ لَا تَلْبَهُمْ بَخْلَؤُهُ وَلَا يَتَّحِقُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَقِيَامِ الصَّلَاةِ وَلِهَذَا الزَّكَاةُ وَنَحْوُهَا يَرْمَى تَغْلِبُ بِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (النور).

(٣٧). وحسن حث على عدم نسيان الله، حمل التحلة والاقطوب أكثر ما يليق
الإنسان عن واجبه الديني إذ قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْتَخِنُ الَّذِينَ لَا حِفْظَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾^١
﴿وَأَرْوَاجَكُمْ فِى الْأَرْضِ طَرْدَتْكُمْ وَأَنْتُم مَّنْ يُنْفَكُونَ عَنْهُ قِلَّةٌ مِّنْ ذُرِّيَّتِكُمْ أَكْبَرُ﴾^٢
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقَاسِقُوا إِلَى صَبَابِهِ﴾^٣
﴿النَّارُ الْآتِيَةُ﴾ (٢٨). وحسن لما قل من الصلاة والأعمال الأخرى، ذكر من الأعمال

الاعترى التجارة دون غيرها إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نُوبِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ
يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ فَلَكُمْ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُفْقَهُونَ •
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَاعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ • وَإِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا فَاتُّخِذَتْ أَوْدَانًا لَهَا وَتُزْجَرُ الْأَعْيُنُ
أَلْفًا وَخَيْرٌ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّهُ خَيْرَ الرَّازِقِينَ﴾ (الحجعة: ٩-١١). بل إن
القرآن الكريم أثبت بما لا ينحل شكاً أن حج البيت والعمرة كانا يقضيان بماء،
فذلك في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَاعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ
حُرُمَاتِ اللَّهِ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ... الآية (الحر: ١٩٨).

وقد سبقت الإشارة في باب: تحلوه وتذنبن، إلى هذه العلاقة الوثيقة التي كانت قائمة قبل الإسلام بين الحج والمواسم والأسواق. وسنعالج الأبواب التالية التطور الذي أحدثه تخليع القبائل حول مكة، خصوصاً بغضل الإبلان، نحو توسيع المدينة والحياة الاقتصادية من سفن الجزيرة العربية.

ب۔ عمرو بن لُحَيٍّ

نعود بلورد نجميع القاتل العربى حول مكة في مصادر التاريخ الإسلامية

إلى ما قبل الإيلاف، وقبل قريش وخزاعة. إذ كانت الكعبة منذ عهد واخله في القدم مثابة للأعراب وأمناء لهم، فلا يمنع أحد من التعبد فيها والطواف حولها لأنها بيت الله^(١). وقد ذكرها بطليموس في كتاب الجغرافيا الساس، وسماها مَكْرَبَة. أما فيليب حتي فقال إن هذا الاسم اشتق من كلمة سبئية تعني المعبود. وارتأى حميد الله أن اللفظة السبئية هذه ذات صلة لغوية ولا شك بالكلمة العربية: مقرب، أي موضع القرى أو القرى، حيث يقدمون الأضحية الدينية. وقد تكون التسمية جاءت من اليمن مع جرهم سكان مكة قبل خزاعة^(٢).

ولكن المأثورات الإسلامية عن أصول مكة هي أول رواية لها شيء من التفصيل والوضوح، وإن كان الغموض غالباً. وقد اعتمد المؤرخون المسلمون لعصر جرهم، أي لما قبل سنة ٤٠٠ م. حسب تقديرنا، لأن الرسول تكلم على عمرو بن لحي مؤسس التنظيم المكي في ذلك العصر. وقد جاء في سورة ابن هشام: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا أكنم بين الجون الخزاعي: يا أكنم، رأيت عمرو بن لحي بن قسفة بن جندب بنجر قسبة [أي أمعاء] في النار... إنه كان أول من غير دين اسماعيل، فصب الأوثان وبخر البعرة ونسب السابكة ووصل الوصلة وحسن الحامي»^(٣). وتجمع المصادر الإسلامية على أن ابن لحي جلب الأصنام من الشام، ويقول ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مأب من أرض البلقاء، وبها يومئذ الصالح... رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستطرحها فنمطرنها، ونستنصرها فنصنرها، فقال لهم: أملا تعطوني منها صنأ فاستبر به إلى أرض العرب فيعبونه؟ فأعطوه صنأ فقال له قبل، فقدم به إلى

(١) الأزدلي: ج ١، ص ٤٤ - ٤٦. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٢٣ - ١٢٥. وكذلك الشريف: المرجع السابق، ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) حتي: فيليب: تاريخ العرب، الطبعة الخامسة، دار شعور، القاهرة، لبنان، ١٩٧٤. ص ١٥١. وكذلك... p. 205 Hamadoun Al-Farisi.

(٣) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٨٦.

حكمة فنصبه وأمر الناس بصادته ونعطيته... وصلوا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، ولهم على ذلك بلاء من عهد إبراهيم يتسكون بها: من تعظيم البيت والطواف به والصح والعمرة والوقوف على عرفة والزمزومة، وقدي البذل والإحلال بالصح والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه^(١). ويقول ابن الكلبي في رواية أخرى لفظة عمرو بن لحي ونصبه الأصنام في مكة، إن نسل إسماعيل بن إبراهيم لنا نكاثو بمكة حتى ضللت بهم. وقتت بينهم الحروب والمعادوات، فأخرج بعضهم بعضاً، فاضحوا في البلاد قتلاً للعش. وكان كلما ظعن من مكة ظاعن حبل منه حراً من حطارة الحرم، تعظيماً للحرم وصيانةً بمكة. فحينما حلوا وضعدوا وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها وصيانة بالحرم وخيالاً. وهم بعد يظنون الكعبة ومكة يحشون ويحشرون على إرث إبراهيم وإسماعيل. ويضيف ابن الكلبي قوله: هم سلخ ذلك يوم إلى أن خيلوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه... فعدوا الأوثان وصلوا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، وانتخبوا [أحراراً] ما كان بعد قوم نوح منها على إرث ما بقي لهم من ذكراها، ولهم على ذلك بلاء من عهد إبراهيم وإسماعيل يتسكون بها: من تعظيم البيت والطواف به والصح والعمرة والوقوف على عرفة وزمزومة وإهداء البذل والإحلال بالصح والعمرة، مع إدخالهم ما ليس منه^(٢).

ونشبه من تنزع الروايات أن الإسرائيليين جمعوا ما تركه على لغة الناس في محاولة لاستكمال لفظة عمرو بن لحي، من غير أن يستدوا على ما يولد، إلى سند تاريخي طبع. لكن بعض التفاصيل نطل مع ذلك جذوة بالملاحظة، وأولها أن الروايات مجمعة على أن مكة كانت مسخرة وطمناً قبل عزامة وعصر عمرو بن لحي، وكان الناس لها يحشون على عهد إبراهيم. والثاني هو أن عمرو بن لحي أحضر صمغ قبل من الشام. وهذه الرواية سند تاريخي قوي لأن قبل كان يحمى في بلاد الشام. وقد جاء ذكره في الكتابات السطية التي عثر عليها في

(١) سورة ابن عباس: ج ١، ص ٨٦

(٢) ابن الكلبي: كتاب الأصنام، ص ٦. وكذلك حرق علي: ج ١، ص ٧٦، ٧٧.

الحجر^(١). ولكن ما الذي جاء عمرو بن لحي بفعله في الشام. وما هي بعض أموره التي قال ابن هشام إنه جاء إلى الشام من أجلها؟ لقد عولجت فيما مضى علاقة رجلين متكئين ببلاد الشام، وهما قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف. وكلاهما وضع نظاماً لمكة يتعلق بالتجارة وإدارتها. وليس مستغرباً أن يكون عمرو بن لحي هو الآخر اهتم لأمر التجارة ووسيلة تنظيمها. والمستغرب في الواقع هو ألا يكون اهتم لذلك. إذ أن عمرو بن لحي لم يكتف بجلب مُبل، بل جلب أصنام القبائل ووضعها في البيت الحرام لإغراء العرب على الحج إلى مكة. ولا شك في أن مكة كانت مركزاً مهماً لتجارة العرب، ولولا ذلك لما وضعت القبائل أن تضع أصنامها فيها. ولولا أن التجارة مزهونة بالمواسم الدينية لما كان عمرو بن لحي قد استطاع أن يجلب الأصنام والقبائل إليه. واجتذبت مكة التي كانت ممرّاً قديماً لفواضل اللُبان القبائل القوية التي طمحت في احتلال هذا المركز التجاري والديني الكبير. فتوالى على المدينة قبيلة جرهم، ثم خزاعة بقودها عمرو بن لحي، ثم قريش بقودها قصي بن كلاب، وقد ارتأى كل منها في المدينة مكنى قوة ومصدر ثراء وسلطان. وإذا يروي الإخباريون أن ابن لحي كان يُطعم الحاج ويُقيم موالد الطعام في المواسم، قالوا إنه ربما ذبح إهلام الحج عشرة آلاف بدينه وكس عشرة آلاف حلة في كل سنة، يُطعم العرب ويحس لهم الحبس [طعام من لبن وتمر وسمن] ويكت لهم السوق [عجين حنطة وشعير]^(٢). وعلى رغم أن المبالغة في هذا لا يمكن أن تؤخذ على محمل الجد، إلا أن ما يبقى من الروايات هو أن عمرو بن لحي كان يُنفق على الحجاج. والقول إن الحجاج كانوا يمولون هذا الإنفاق بقرايينهم، هو أمر غير مقبول، لأن هذا لا بد من أن يجعل عمرو بن لحي جاسماً للقرايين والأصاحبي، وهو على النقيض كان مُنفقاً في الحج، وإلا لتعدّ جشمه قبائل العرب. ولولا التجارة لتعدّ إنفاقه على الحج. ويقول ابن هشام في روايته لدخول عمرو بن

(١) الشريف: المرجع السابق، ص ١٦٠. واستند في ذلك إلى هيرودوتس وطروش ذكرهما جواه علي.

(٢) ابن كثير: البداية... ج ٢، ص ١٨٧. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١١٩، ١١٦.

لحم مكة وإخراجه جرمها منها: ثم إن جرمها نفوا بمكة واستحلوا خلاها من
الحرمة، فظلموا من دخلها من غير أهلها وأكلوا من الكعبة الذي يهدى لها^(١)
ومحترقها على القول على الاعتقاد أن من يتوم على خدمة الحرم كان مستكرماً
أن يفتق لا أن يرتق من الحرم. ولا بد أن التحلة في المورد الذي كان يفتق
منه.

وإذا فُتق في الموضع التي حلفها لنا الإحصيون في شأن النظم التي
استحلها عمرو بن لحي فأتخذها العرب من بعده شريعة^(٢)، فقد يفتق إلى طرف
خط يربط بين الثفة في قول ذلك. فعمروس لحي اندع ولا شك قواعد ذات
صفة دينية خالصة على ما يبدو، مثل الفرقة والعنزة. والفرقة قول تاج الإبل
والقنم، كانوا يذهبون لأصابعهم، والعنزة فتابع الضم عامة، وكثروا يلجونها في
المطبخ فيسمونه العنزة، فهي المسلمون من ذلك. وفي الحديث: لا فرع ولا
عنزة^(٣). لكن كثيراً من يدع ابن لحي يدعو إلى الاشتباه في اعتداله بالتجارة.
فيقول ابن هشام في شأن الحيرة والسائبة والوصيلة والحلي: «فلما البحيرة فهي
بنت السائبة، والسائبة السالة إذا تامت [ولدت على التوالي] بين عشر إناث ليس
بينهن ذكر، شئت فلم يركب ظهرها، ولم يخر وبرها، ولم يشرب لبنها إلا
ضيق، لما شئت بعد ذلك من أنش شئت لنتها ثم غلبي سلبها مع لبنها، فلم
يتركب ظهرها ولم يخر وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيق كما فعل بلها، فهي
البحيرة بنت السائبة. والوصيلة السالة إذا أنثت [وضعت توأم] عشر إناث
متابعات في خمسة أبطن ليس بهن ذكر شملت وصيلة. قالوا: قد وصلت،
فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم، ألا أن يموت منها شيء
فيستركوا في أكله، ذكروهم وإناثهم. قال ابن هشام [إضافة إلى ما قاله ابن
إسحاق]: فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور بينهم دون إناثهم. قال ابن سحاق:

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٦٥. وأطروحات الملك. الأحملي: مشوه... ص ٢٠٩-٢١٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٨١، ٨٢.

(٣) لسان العرب: فرع وهو. وليس الكلبي. الأصم، ص ٣٩، ٤٠. والحديث المذكور لعمرو:

البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والحاقي وابن ماجة والبخاري وابن حبان.

والحامي الفحل إذا تُنَجَّ له عشر إناث متتابعات ليس بينهما ذكره خمس ظهوره فلم يُركب ظهوره، ولم يُجَزَّ وبره، وعُظِي في إبله بضرب فيها، لا يُتَنَجَّ منه غير ذلك. وخالف ابن هشام ذلك إذ قال: «والبحيرة حنهم الناقة تُشَقُّ أذنها فلا يُركب ظهورها ولا يُجَزَّ وبرها ولا يُشرب لبنها إلا ضيف أو يُتَصَقَّ به، وتُهْتَلُ لألهمهم. والساقية: التي يَنْكُرُ الرجل أن يُبَيِّها إن برى من مرضه أو إن أصاب أمراً يطلبه. فإذا كان أسب ناقة من إبله أو جملاً لبعض ألهمهم ضابت فرحت، لا يُتَنَجَّ بها. والوصيلة: التي تلد أمها اثنين في كل بطن، فيجعل صاحبها لآلهت الإناث منها ولغسه الذكور، فخلعها أمها ومعهما ذكر في بطن، فيقولون: وَصَلَتْ أَسَاحَا، فَيُسَبِّبُ أَسَاحَا معها، فلا يُتَنَجَّ به» (١).

وعلى رغم مخالفة ابن هشام ابن اسحاق، فإنهما يتفقان في أن العرف الذي ابتدعه عمرو بن لحي للعرب يرمي إلى حماية النوق والجمال التي تُكْثَرُ من إنسال الإناث، لاحتسابهم ولا شك بأنساء لطمانهم. وطمعان الإبل كانت رأس مال التاجر في القوافل. والآنثى مفضلة على الذكر في هذا لأن ذكراً واحداً يستطيع إخصاب عدد من الإناث، فكانوا يلبسون الذكور ويحفظون بالإناث لعلها وتنجها. وقد حرم الإسلام هذه الأعراف لصلتها المباشرة ببيع القرابين للأصنام، ذلك في قوله: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَعِيرٍ وَلَا سَابِغٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا خَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (المائدة: ١٠٣).

ج- أصنام وتلبيات

تعبدت قبائل العرب لعدد كبير من الأصنام أقامت بعضها في الكعبة وبعضها الآخر في مواضع قريبة وأحياناً بعيدة عن مضارب أصحاب الوزن. وقد استعن كتاب الأصنام لابن الكلبي والمحرر لابن حبيب وأطلس تاريخ الإسلام على الخصوص، لوضع ثبوت الأصنام التالي:

(١) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٩٥-٩٧. وانظر أيضاً الأسدي: نشوء... ص ٧٩٥. والبلادي: الأصنام... تطهير حديدته، ص ٣٤.

اسم الصنم	لبال تميّنت له	مصدره	موضعه
صالح المنطق نائلة	قريش السلف وحك والأنحرين قريش والأحابش	سودي الكلاع	في الكعبة السن على العروة في مكة وليل عند وحرم فعدان
أسر نهم قبل ودة	جشور عزينة بكر وكنانة ونطمة قريش بنو وبرة من قضاعة		شرق بثر في حوف الكعبة دومة الضحل حوب دومة الضحل في أرحب على ليلتين من صنعاء سمران وشرش
الصبوب يثوق يثوث	جذيلة طيء عدنان وحولان ملحج وأنعم من طيء	سوا الفرافصة من الأحوص من كلب سوا من الحارث بن كعب	

ولا شك في أن هذه أهم الأصنام وليست جميعها لأن المصادر أغفلت كثيراً من الأصنام الثانوية التي كانت تتخذ في البيوت، فلا يتعمّد لها سوى قلة من القوم^(١). وقد أغفل مؤنّس ذكر صنم قريش الغنّيب، وذكر صنماً اسمه جعب، جعله بين ألهة ودومة الجندل. وعبدت العرب، مع الأصنام الأجرام السماوية أيضاً. لكن تفرّق الأصنام أصبح شيئاً قليلاً لقليل الأثر في إحداث تبادل بين العرب، إذ إن اجتماع القبائل حول الكعبة في موسم الحج جعل عبادة العرب الأصنام تتوحد مع مرّ السنوات. وكان أعظم عوامل توحد هذه العبادة أن الشعائر والفرائض كانت واحدة عند الجميع، من الإفاضة إلى الطواف والسعي والتلبية. وكان تشابه التلبّيات، وعلى الخصوص عدم ذكر الصنم في معظم الحالات سبباً أكيداً لجعل الحجاج يشعرون مع مرّ السنوات وكأنهم يتعبّدون لصنم واحد. وكانت تلك ربما بداية نهاية تعلق القبائل بأصنامها.

(١) ابن الكلبي: كتاب الأصنام، ص ١٠ - ١٢، ٦١ وما بعده، ٣٤ - ٤٤، ٥٩، ٦٣. والمختبر، ص ٣١٥. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٨٣ - ٩٤. ومؤنّس: أطلس لتاريخ الإسلام، خريطة: أهم الأصنام في الجزيرة العربية في الحاضنة، الخريطة ٣٧، ص ٦١.

كانت فرس وكانة، ونسكهم لإسك. إذا أهلوا قالوا: **هَلِكُ اللَّهُمَّ**
هَلِكُ، **هَلِكُ** لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وفي ذلك
 جاء في التنزيل العزيز: **«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِآيَاتِهِ إِلَّا وَقَدْ شَرُّوا»** (يوسف: ١٠٦).
وَمَنْ نَسَكَ لِلنَّارِ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ** وسعديك، ما أحبنا
إِلَيْكَ. **وَمَنْ نَسَكَ لِلنَّارِ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** كفى بيتنا بنية، ليس
 بمهجور ولا ياتية، لك من نعمة وكرمة، لربابه من صالح البرية. **وَمَنْ نَسَكَ**
لِلْجَهَنَّمَ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ** اجعل قنوساً حلو، واجعلنا لأوضح النوار،
 ومعتنا وطننا بهجاره. **وَمَنْ نَسَكَ لِسَوَاعٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** أبنا إليك،
 إن سواع طَلَبُكَ إِلَيْكَ. **وَمَنْ نَسَكَ لَتَمْسِي قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** ما
 نهلنا نجره، لإدلاجه وحره وفره. لا نظري شيئاً ولا نصوره. **حَمْدُ** لرب مستقيم
 بره. **وَمَنْ نَسَكَ لِمَرْقٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** حَمْدُ حَمْدٍ، **تَبْدَأُ** ورفاهه.
وَمَنْ نَسَكَ لَوَدٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ** مطرة إليك. **وَمَنْ نَسَكَ لِلْيَدِي**
الْخَلَصَةِ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ** ما عرأب إليك. **وَمَنْ نَسَكَ لِنَطِيقٍ**
قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ**. **وَمَنْ نَسَكَ لِنَةِ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**،
هَلِكُ لولا أن يكرأ دونك، يركأ الناس وبهمروك، ما زال حج عنج ياتوك، إذا
 حلى عدوالمهم من دونك. **وَمَنْ نَسَكَ لِنَهْدَةٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ**
هَلِكُ، لم تأتكم للسباحة، ولا طناً للرفاحة، ولكن حشك للصاحفة. **وَمَنْ نَسَكَ**
لِيَحْوَقٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ** مَعْنَى إِلَيْكَ الشَّرْءُ وَحَبُّ إِلَيْكَ الْخَيْرُ، ولا
 تبطرنا فاشره، ولا تغدحنا بشاره. **وَمَنْ نَسَكَ لِيَحْوَتٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**،
هَلِكُ أحبنا بما لديك، فحين عادك لد صرنا إليك. **وَمَنْ نَسَكَ لِنَسْرِ قَالَ:**
هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ، **هَلِكُ** إنا عبيد، وكلنا مبررة عبيد، وأنت ربنا الحميد، لرد
 إلينا ملكنا والصيد. **وَمَنْ نَسَكَ لِلْيَا قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** وب
 قاصرفن عنا مضر، وسلمن لنا هذا السفر، إن عا فهم ليزجر، واكفنا اللهم
 أرباب هجره. **وَمَنْ نَسَكَ لِرَحَبٍ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** إنا لعلك،
هَلِكُ حبنا إليك. **وَمَنْ نَسَكَ لِلرَّبِيعِ قَالَ: هَلِكُ اللَّهُمَّ هَلِكُ**، **هَلِكُ** كلنا كنوده.

وكلنا لنعمه جعود، فاكفنا كل حية وصوده. ومن نك الذي الكفن قال: «ليك اللهم ليك، ليك إن جرحاً عبادك، الناس طرف وهم عبادك، ونحن أولى منهم بولاك». ومن نك قيل قال: «ليك اللهم ليك، إنا لقاح، حرمتا على أمة الرماح، يحسدنا الناس على السجاء»^(١).

ويلاحظ في هذه التلييات نسق موحّد يبدأ بالحيلة نفسها. وكذلك يلاحظ أن القبائل قلماً كانت تذكر بالاسم صنمها الذي تنسكت له. وذكر الصنم مرتين. في التلية لجهاز وسواح، فظهر من التلية أن المخاطب ربما كان معبوداً أسس من الصنم المذكور. وقد ذكر في التلية لذي اللبأ، دعاه بني عبد قيس الذي يملئ تخوفاً من مضر وأرباب حجر. وجاء في تلية كساة فغافر واضح بقولهم: تحسدنا الناس على السجاء. فذلك تنبيه بحراوات بين القبائل. لكن هذه العناصر جميعاً إذا ما قوبلت بالعوامل الأخرى التي قاربت ما بين السجاء، لم يكن شأنها حرقلة هذا التطور البطيء الذي أزال كثيراً من التخوم الحادة بين قبائل العرب. وكان أعظم العوامل ولا شك وحدة الشعائر وتشابه التلييات وأغفال ذكر اسم الصنم في معظمها، وفروق كل هذا الاختلاط البشري من فوق العصبية القبلية. لقد كانت نار الرجل البشري هذا تصهر المعادن، وتمذ الميدان لسبكة جديدة قابلة لمفهوم أمة الإسلام بدلاً من مفهوم العصبية القبلية. ولا شك في أن تهافت الولاء للصنم وتراخي المشاعر القبلية العصبية الحادة كانا تطورين ناجمين من أسباب، ضمنها تلك الشعائر المشتركة.

إن الحكمة في استنطاق الماضي لتهم ملجرياته تقضي ألا تتسرع في الاشياء بأن وحدة العرب الكاملة قامت بين القبائل بعد بضع سنين من الحج إلى مكة. لكن لهم كيمياء التطور الذي حدث يفترض ألا تنتج نتائج اللقاء البشري السوي الحاشد الذي كان يجمع قبائل العرب عند قبلتهم ومهوى اقتلتهم وموطن قياتهم.

(١) راجع العنصر في الصفحة السابقة.

٥٥ - مكة والتوحيد الديني

وفي جنوب جزيرة العرب كان الوثنيون يحدون ثلثاً ثلثاً القمر والشمس والزهرة. وقد عُدَّ القمر هو الأب في هذا الثلاث، وصار هو الإله المقدم فيهم. وصارت له منزلة خاصة في دين العرب الجنوبيين، ولذا سُمِّيَ بعض المستترئين دينهم دين القمر. ودُعوا إلى أن المسلمين الشماليين لم يُعرفوا للقمر هذه العزبة العالية. وقد نولت العروق بين معتقدات العرب الشماليين والعرب الجنوبيين في بعض الأبحاث^(١). وبينما في هذا أن العرب الذين حثوا مكة وأحضرها أوثانهم إليها استوعوا هذه المفاهيم وأدخلوها في شعائر الحج والطواف. وقد لاحظ شابرلي أن اللات، التي ذكرها هيرودوتس باسم كبرات، هي إلهة الشمس، أما الرزى فهي تحند كوكب الزهرة. واعتقد شابرلي المعبود الثالث المذكور^(٢). ويعتقد حواد علي أن كل صم من الأصنام يبدأ اسمه بلفظة ذئب أو ذئبة في كتابات السدسية، فهو يمثل الشمس، وكل صم يبدأ اسمه بلفظة ذئب فهو يمثل القمر أو الإبن في هذا الثلاث. وقال إن هذا الثلاث يمثل حقيقة الجاهليين والساميين عموماً في الدين، قبل ظهور التوحيد^(٣).

ولم تترك معتقدات صحيح مكة بمعتقدات الوثنيين الآخرين وحدها، أو بالمسيحيين واليهوديين دون غيرهم. فقد وصف بعض المؤرخين معبداً للإلهة اللات في مدينة البغداد، فذكر أنه معبد للآم العنود. وكانت اللات تُعبد في المنطقة بين القدس وحرما. ويبدو أن عبادة اللات انتقلت من البط إلى العرب الشماليين والحماز^(٤). وقد لوسط أن الصربية تعلّبت مع الوثنية في بعض القبائل، ولم تخلتها مثلما ظننت مع اليهودية. فكان الصربي مثلاً في عكاظ يلتقون مع عبدة الأوثان من عوزان عد صم لهم اسمه تيجل تصبه أيضاً

(١) لاحظت سولومونسون ونوردسكيد هيرودوتس من عبادة عربية إلى الفريجة. لذلك تعلّبت من

عبادة المعبود العربية وأيد بالآل من لا مذهب. - *Shahrastani: Dyanism* (Vol. 100) 332.

وكذلك 37. *Shahrastani* ونظر أيضاً حواد علي: ٥٩، ٥٩.

(٢) *Shahrastani: The History*, p. 177. وكذلك 37. *Shahrastani* up to 37.

(٣) حواد علي: ٥٩، ٥٩.

(٤) حواد علي: ٥٩، ٥٩.

محارب، وكان سذنت من آل عوف الصريين^(١). وكان بعض تميم على النصرانية وبعضها على المجوسية وبعضها يتعبد للشمس، ولها بيت سذنت من آل أوس بن مخاشن، وبعضها الآخر يعبد الديوان وهو من النجوم^(٢). وحتى نجران قصة النصرانية في جنوب الجزيرة العربية كان فيها كمة لإلهة اسمها الرية، وكانت تعبد لها ملحق، ويعظمها بنو الحارث بن كعب، الذين كانوا نصارى واضطهدهم ذو نواس. وحتى غسان كانت تحج البيت الحرام وكانت تلبثها: لبيك رب غسان، واجلبها والفرسان. ونفل من عائشة أم المؤمنين قولها: إن الأنصار وغسان كانوا قبل أن يسلطوا يسلطون لمنة^(٣).

ويبدو أن جميع أصنام العرب وقبول جميع أديانهم والسماح بالصلاة لها جميعاً في الكعبة لم يكن سياسة أتبعها عمرو بن لحي فقط، بل نهجاً متعمداً اتخذته قريش حتى زمن قريش من الإسلام أيضاً. إذ جاء في المحبر أن قريشاً كانت تعبد صاحب كانة وبنو كانة يمدون صاحب قريش^(٤). وقريش من بطون كنانة، واحتمال أن يكون هذا سبب عبادة بعضهم أصنام بعض يصفه أن لكل منهم صنماً خاصاً. ولهما كان لكل قبيلة صنم، أو لكل بطن من قبيلة صنم في بعض الحالات، فإن قريشاً مجتمعة كانت لها أصنام عديدة، على نحو ما أسلفنا في الباب السابق. ولهما كانت قريش تحلب الأصنام إليها كان بناء بيوت خارج مكة لأصنام أو لأديان أخرى لمرأ غير مقبول. وقد تبين ذلك طبعاً في حادثة قلبيس أبرهة. وعروي ابن الكلبي أن ظالم بن سعد ولما رأى قريشاً يظفرون بالكعبة ويسمون بين الصفا والمروة، فذرع البيت... وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة فرجع إلى قومه وقال: يا معشر غطفان، لقريش بيت يظفرون حوله والصفا

(١) المحبر، ص ٣١٥. وكذلك جرد علي: ج ٤، ص ٥١٧. وانظر Lammam: l'Arabie... p. 41.

(٢) جرد علي: ج ٤، ص ٥٢٨.

(٣) السالك، ملحق ريب، والامام مسلم الساموري الملحق الصحيح، دار الأمل الحديث، بيروت ج ٤، ص ٧٠. وانظر أيضاً جرد علي ج ٩، ص ٢٥، ٣٧٧، ٣٨٢.

(٤) المحبر، ص ٣١٨. وانظر Lammam: l'Arabie... p. 45.

والحررة، وليس لكم شيء، فبني بيئاً على قدر البيت ووضع الحجرين فقال:
هذان الصفا والحررة فاجتروا به من الحج. فأغار زهير بن جنب بن هبل بن
عبد الله بن كنانة الكلبي، فقتل طالماً وعدم بناسه.

وجاء في رواية أخرى أن بني صداء قالوا: أما والله لتتخذن حرمًا مثل حرم
مكة، لا يقتل صيده، ولا يعضد شجره، ولا يهاج عائلته، فوليت ذلك بنو مرة بن
هوف. ثم كان القائم على أمر الحرم وبناء حائطه وبيع بن ظالم ففعلوا ذلك،
وهم على ما يقال له يس. فلما بلغ فعلهم هذا وما أجسموا عليه زهير بن
جنب، قال: والله لا يكون ذلك وأنا حي ولا أعلي غطفان تنخذ حرمًا أبدًا. ثم
سار في قومه حتى غزا غطفان وتغنن بها واستولى على الحرم وقطع رية أسير
من غطفان به، وعطل الحرم وهدمه. وكان زهير من الخُصس^(١). ويُستدل من
هذا السلوك الذي سلكته فريش وأنصارها من الحمص، أنها لم تكن ثابة لكثرة
الاصنام طالما أن هذه الاصنام كانت تُمد في البيت الحرم. لما إنشاء بيوت
جديدة تجتذب إليها بعض العرب من الحجاج، فذلك أمر لم تسمح به.

إن شأن تجميع هذه الاصنام في الكعبة، وتشابه الشعائر والمناسك
والفرائض، مفروقة ربما بفكرة خائفة مما احتفظوا به من دين التوحيد
الإبراهيمي الأول، وهي فكرة إله فوق الجميع، يفوق الجميع جبروتاً وقوة،
تلقب الكثير من الفروق بين معتقدات القبائل. ولعل تشابه التليجات وانغفاء
اسم الصنم عن كثير منها، أشاع الإحساس والانطباع بين الحجاج بأنهم إنما
يتبعون لإله واحد لا إله إلا هو. وكان هذا تطوراً فريداً في نوعه ربما. فعبادة
الاصنام شائعة لدى كثير من الشعوب. لكن تجميع هذه الاصنام القليلة في بيت
واحد، واتخاذ شعائر ومناسك موحدة لعبادتها جميعاً في موسم موحد، والطواف
والسعي والإفاضة وما إليها من فرائض مشتركة كان يقضيها الحجاج سبباً،
والتليجات المتشابهة، كانت فريدة في عبادة الاصنام، ولا بد وأنها فعلت فعل

(١) الزبيدي: لاج العروس، مادة يس، والأغاني، ج ٢١، ص ٢٠٩-٢١٠. وابن الكلبي: الاصنام،
ص ١٧، ١٨. ولطيف جداً جولد علي: ج ٦، ص ٢٤١، ٢٦٥.

السحر في إذكاء الشعور بوحدة في العقيدة الدينية، وجعلت فكرة التبعّد لأصنام مختلفة متعلّقة تبدو شيئاً فنيّاً فكرة غير منطقية ولا مقبولة. وقد يكون هذا خير تمهيد لنهايات عقيدة الأوثان ووهنها، ووهمة فكرة دين التوحيد الإبراهيمي إلى الازدهار، حتى أخذت التربة تستعد، لا لقبول بلورة الإسلام من حيث هي الإيمان بأن لا إله إلا الله فقط، بل لقبول فكرة الوحدة الاجتماعية والسياسة أيضاً. فالدين الوثني القبلي هو تعبير عفائدي عن الواقع الاجتماعي والسياسي والعسكري للقبيلة، لأن القبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع القبلي. والفرد في القبيلة محدود الكيان محصور التبعات. والصلاة إلى الصنم القبلي غرضه الأول أن تحفظ القبيلة ويضمن بقاها. وبقاء القبيلة ليس مرهوناً ببقاء أي من أفرادها، طالما أنها تتناسل وتحفظ بوحدتها وتحمي نفسها وتطعم أبناءها. ولذا لم يكن هذا الدين القبلي يهتم للفرد ومصيره في الآخرة. وكان اجتماع القبائل في مكة للصلاة لأصنام مختلفة أخذت تفسح الحدود بينها مع الوقت، مناسبة تاريخية لبده تبدل نفسي أخذ يملئ حدة العصبية القبيلة ويشلب حدودها، لتعزز سلوك التعامل المباشر بين الأفراد، على حساب العلاقات بين قبيلة وقبيلة. وكان شأن هذا التبدل النفسي والاجتماعي، أن التبعات القبيلة، التي يؤخذ فيها القوم بجريرة أي من أبنائهم، أخذت تنهت وضاعاً لتحل محلها المسؤولية الشخصية التي عبر عنها الإسلام بأفضل تعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾... الآية (الأنعام: ١٦٤). ومثل هذا الوضع القانوني هو النقيض الاجتماعي والشرعي لأساس العصبية القبيلة. فالمسؤولية الشخصية الفردية هي المستند الأول لقيام العلاقة المباشرة بين الفرد والدولة على الصمد السياسي والاجتماعي. وهي المفهوم الأساسي في العلاقة بين المؤمن والإله الأوحده، على الصمد الديني، لأن عليها يقوم مفهوم الثواب والعقاب. وكانت إحدى بلود التمهيد لهذه العلاقة الجديدة بين الفرد وبقية القوم من سائر القبائل العربية، المواسم الدينية المشتركة.

ولم تكن التجارة ولم يكن إيلاف قرينين من هذه البلود، ذلك أن التجارة مؤلت المواسم والوظائف المكنة التي نظمت المواسم. ولولا التجارة

ولم يلاف قريش الحق لما ان نسأل: هل كان يمكن للعرب أن يجمعوا على قبول القيادة المكية. أفلم يسهل ارتباط مصالحهم بخلوة قريش ارتباطهم العقائدي والسياسي والاجتماعي، بهذه القصة التي أخلت تستظهم أكثر فأكثر؟^(١).

هـ - التوحيد قبل الإسلام

يُحَدِّثُنا القرآن الكريم بأوضح الأدلة على أن العرب قبل الإسلام كانوا يؤمنون بالتوحيد، إذ يقول: ﴿وَلَيْسَ سَالَتُهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَشَرِ الشَّيْءِ وَالْقَضَىٰ لِقَوْلِ اللَّهِ فَاتَىٰ يَوْمُكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَالَتُهُمْ مِنْ نَزْلِ مِنَ السَّمَاءِ نَاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِقَوْلِ اللَّهِ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٣). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَالَتُهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِقَوْلِ اللَّهِ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَالَتُهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِقَوْلِ اللَّهِ قُلِ أَفَرَأَيْتُمْ مَنْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ... الآية (الزمر: ٢٨). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَالَتُهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِقَوْلِ اللَّهِ فَاتَىٰ يَوْمُكُونَ﴾ (الزخرف: ٩). ويقول: ﴿وَلَيْسَ سَالَتُهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِقَوْلِ اللَّهِ فَاتَىٰ يَوْمُكُونَ﴾ (الزخرف: ٨٧). واستعادة التنزيل العزيز هذه الحجة ست مرّات في مفارقة المشركين تدلّ على أن المجادلة مع المسلمين كانت كثيراً ما تعالج هذا الأمر فيعترف المشركون بوجود الله. بل إن القرآن الكريم يؤكد أنهم كانوا يقسمون بالله، إذ يقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ جَنْدُ اللَّهِ... الآية (الأنعام: ١٠٩). ويقول: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَمُدُّهُمُ اللَّهُ مِنْ يَمِينِهِمْ... الآية (النحل: ٢٨). ويظهر القرآن الكريم صراحة اعتراف المشركين بوجود الله إذ يقول: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ... الآية (الأنعام: ١٠٠). ويقول: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ بَشًا فَرًّا مِنْ الْخُرْبِ وَالْأَنْعَامِ نَبِيًّا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُ بَرَزِيهِمْ وَهَذَا إِشْرَاكِائُنَا... الآية (الأنعام: ١٣٦). ويقول: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا... الآية (الأنعام: ١٤٨).

وليس من شك في أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق على رغم أنهم تعبّوا لاصنامهم. والإسلام يؤكد أن التوحيد كان هو أصل الدين في منتهى، إلا أن عبدة الأوثان ابتدعوا دين الأصنام وتعدد الآلهة. وذهب رينان إلى أن العرب موحدون بطبعهم وأن ديانتهم في جوهرها هي ديانة توحيد. واستند رينان إلى انتشار كلمة إله في اللهجات السامية، وإلى أن هذا الإله كان يمثل الإله الواحد. بل إن جمعاً من المؤرخين يؤمن بوجود توحيد سامي غامض الملامح. وثمة من يخالف هذا الرأي^(١). لكن التوحيد في جزيرة العرب لا يلبث أن يظهره لا بالتحليل والتكهن العلمي، بل بالدليل الأثري. ففي الآثار التمودية ذكر لله. ولا يُعرف إذا كان التموديون عرفوا وحدانية الله من اللحيانيين أم أن هذه المعرفة جاءتهم من بلاد الشام. ويعتقد ويت أن وصفهم الله بالأبتره أي الذي لا ولد له يدل على أنهم لم يستمدوا أو يخلوا عبادته من اللحيانيين. ويرى أن الأبناط عندما دخلوا بلاد عمود ولحيان على الحجاب الغربي من شمالي الجزيرة العربية، أتخلوا عبادته عن التموديين. ولبثت ذكريات قوية من عبادته بين الأعراب. ولأخذ ويت أن القرآن الكريم يؤيد هذه المعلومات الأثرية في أن عبادة الله عُرِفَت باكراً في مخططي الفلا ومدائن صالح، حين بُعث النبي صالح إلى قومه عمود بشرهم بالله الأحد^(٢). وقد رأى جواد علي أن إطلاق التموديين على الله صفة الأبتره قد يكون نقضاً للنظرية المسيحية القائلة إن لله أبناء، وبالتالي نقضاً لأي نوع من تعدد الآلهة. واعتمد التدميريون أسلوباً آخر في الإعراب عن إيمانهم بالوحدانية على الرغم من أن عبادة الأصنام كانت شائعة في

(١) Ernest Renan: *Manuel d'histoire et de géographie des Langues Sémitiques*, Paris, (١)

Monography, vol. 1, pp. 1, 17. ونظر جواد علي: ج ٦، ص ٩٣، ١٠٢ وما بعد. كذلك

Watt: *Muhammad at Mecca*, p. 81

(٢) سورة الأعراف: ٧٣، ٧٥، ٧٧، ١٨٩، ١٩٠، وحمود: ٦١، ٦٢، والصل: ٤٥. ونظر أيضاً

Winnat, F.V.: *Allah Before Islam*, The Modern World Review, vol. XXVII (1938).

Kress Reprint Co., New York (1966), p. 240

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ١٧٨.

المدينة. إذ يقول ستاركي إن النذيرين بدلوا في القرن الميلادي الثالث بشعوب
 هياكل ولعن تبارك اسمه إلى الأبد. ولاحظ أن الغرض التدمرية لم تذكر اسم
 الإله المعبود. وغني عن القول إن عبدة الأوثان لا يستطيعون أن يعبدوا آلهة
 عديدة من غير تسميتها. وإذا لم يُسمَّ المعبود فلأنه فريد وحيد. وقد يعني هذا
 أنهم يؤمنون بإله واحد أو إله أكبر. لكن ستاركي لاحظ أن العصر في بلاد
 الشام كان يتجه نحو الإيمان بالوحدانية^(١).

واتبع السبتيون هذا الأسلوب أيضاً في تجريد فكرة الله، والتجريد خطوة
 جديدة نحو التوحيد، فسَمُّوا معبودهم «ذسموي» أي إله السماء. فهو إذن لا
 يحمل اسماً خاصاً به، بل هو الإله الأسس والأعلى، من غير تسمية. ولا
 تستطيع الأبحاث في المرحلة الراحعة على ما يبدو أن تبت فيما إذا كان «ذ
 سموي» إلهاً لوحده عند السبتيين أم كبير الآلهة. ولا إذا كان السبتيون قد اعتنقوا
 عقيدته متأثرين باليهودية أو المسيحية، لكن التزوع إلى اعتناقه تقدماً لفكرة
 وحدانية الله هو نزوع قوي بين الباحثين في تاريخ اليمن. وقد تعمَّز هذا الاعتقاد
 لأن النصوص المتأخرة التي ذكرت «ذسموي» لم تلت على ذكر أسماء الأصنام
 الأخرى^(٢).

وظهرت عبادة توحيد أخرى في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وإن كانت
 خامضة المعالم مشوشة الملامح، هي عبادة الرحمن. وقد ظهرت التسمية هذه
 في نقش الملك الحميري شرحبيل يصف لتاريخ بناء سد مأرب على جدار السد
 في أواسط القرن الخامس الميلادي. وبعد ثماني سنوات نقش الملك عبد
 كلال بن مشوب كتابة على جدار السد يُذكر فيها اسم الرحمن. ويجدير بالذكر أن
 الملك الأول كان يهودياً وكان الثاني مسيحياً. وقد استخدم اليهود التسمية،
 واستخدمها أبرهة في نقوشه أيضاً. وقد قيل في ذلك إن عبادة الرحمن كانت
 يهودية، ولعل كانت مسيحية. لكن استخدم المسيحيين واليهود معاً هذه التسمية

(١) Saady, Jean: *Palmyre*. POrient ancien 1953, p. 47

(٢) جواد علي: ج ٢، ص ٢١٢، وج ٦، ص ٣٦، ٣٧.

التي لم تخرج كثيراً خارج جزيرة العرب، قد يعني أن اليهود والمسيحيين استعملوا تسمية أو صفة لله كانت شائعة بين العرب. وقد ذكر شعرٌ للشنفرى قال فيه:

ألا ضربت تلك الفتاة محبتها ألا قصف الرحمن ربي بمحبها
وفي شعر لسلامة بن جندل الطهري:

عجلتم علينا عجلتنا عليكم وما بنا الرحمن بمقد ويطلق
ونسب إلى حاتم الطائي أيضاً شعر يقول فيه:

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا وإن على الرحمن رزقكم قدلاً^(١)

لكن جميع هذه الإشارات غامضة ولا يركز إلى تمام الركون، على الرغم من أن أثر انتشار فكرة التوحيد لم يكن موضع شك في مكة قبل الإسلام. ولا يسع المرء وهو يلاحظ هذه «المواصلات» الدينية والمقائدية في الجزيرة، إلا أن يربطها بحركة التجارة والقوافل، الحركة الوحيدة (مع البشر) القادرة على نقل الأفكار والآداب والمواطنة على ذلك حدوداً وقروناً من الزمن حتى تؤتي أثرها. حتى التبشير كان يتبع التجار ويرافقهم حينما يذهبون ويصل حينما يصلون. بل إن رهن التبشير بالأغراض السياسية والتجارية هو فكرة مقبولة لدى الباحثين، خصوصاً في تاريخ بيزنطة ووجودها في حوض جزيرة العرب.

-و- الحنفاء

كانت حركة الحنفاء من أهم ما نتج على الصعيد الفكري، من حركة «المواصلات» الدينية التي حركتها التجارة. ويبدو أن الحنفاء الأربعة المشهورين في مكة ووقفة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبدالله بن حشاش وزيد بن عمرو بن نفل، بدأوا غروهم على عادة الأصنام بعد رحلة إلى الشام، إذ يروي هشام بن سعيد بن زيد بن عمرو، حفيد رابعهم أن جدّه الذي مات سنة

(١) الطهري: الصبر، ج ١، ص ١٤٤، و ج ١٥، ص ١٢١. والبريدي: الناح، مادة رحم. وانظر

أبداً جواد علي: ج ١، ص ٥٠، ج ٢، ص ٣٧-٤١

بناء الكعبة، قبل المبعث بخمس سنوات، خرج مع ورقة بن نوفل يلتصقان الدين
 حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، فسأله زيد عن الدين فلم يقتنع بالنصرانية، أما
 ورقة فاقننح بها ونصّر. وفي رواية أخرى أن زيد بن عمرو خرج إلى الشام ومعه
 ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش. ويذكر الرواة أن زيدا
 كان نديماً لورقة، فعلى ورقة وخرج زيد إلى الشام. ويذكر الإخباريون أن
 حرص عمرو على الحنيفية وسعيه إليها حمله على السفر والترحال بحثاً عن
 مبادئ دين إبراهيم الخالية من كل شائبة. فزاد الموصل والجزيرة وبلاد الشام
 حتى وصل إلى راهب في أرض البلقاء لواءه، فسأله صفاً قدم من أجله وعلم أن
 ما يفيقه لا يجده في النصرانية، والتقى ألباراً من اليهود فلم يجد عندهم ما
 يطمئن نفسه، فلم يدخل في أي من الديانتين، لأنه كان يسعى إلى التوحيد
 الخالص في دين إبراهيم. ولاحظ اللغويون أن لفظة الحنفاء التي سُمّي بها
 هؤلاء الموحدون، ولفظة الصابئة والصابية التي سُمّي بها المشركون النسي وأوائل
 المسلمين في مكة، مشتقتان من حنف وصبا، وكلاهما يعني خرج على دين
 قومه، وهو أمر يصحّ قوله في إبراهيم والرسول معاً لرفضهما التعبد للأصنام التي
 تعبد لها قومهما^(١). وكانت اللفظتان في الأصل للذم، فصارتا مدحاً بعد ترك
 عبادة الأصنام. وارتأى بعض المستشرقين أن الحنفاء شعبة من الشيع النصرانية
 التي انتشرت في جزيرة العرب. وعدّوهم نصارى عرباً زهدوا بالحياة وعبادة
 الأوثان، وغلطوا بالنصرانية بعض التعاليم من دين إبراهيم. واستندوا في قول
 ذلك إلى تنصّر بعضهم، كورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث. وقد أدخل
 المؤرخون المسلمون في الحنفاء عدداً من النصارى فعلاً، لكنهم صرحوا بأن
 معظمهم لم يكونوا نصارى ولا يهوداً، بل مؤمنين بالتوحيد الإبراهيمي، باحثين
 عن سنة لتنظيم الدين والدنيا، تخرجهم من عبادة الأصنام ومن الفساد الذي
 ذلّوه. وقد كان بين الذين عُذّوا حنفاء، بعض النصارى، وكان منهم من كان

(١) اللسان، مادتا صبا وحنف. وقد أرب شهد في محادثة خاصة عن حزمه على الأعداد لدراسة
 حول لفظة الأصناف. وهو يرى أن لفظة المسلمين قد حلت محلها ونسختها في الإسلام.

حنيفاً ثم نصارى^(١).

وقد ذكر القرآن الكريم صراحة أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وإنما كانوا موشعين على ملة إبراهيم حنيفاً، في سورة البقرة (الآية ١٣٥) وفي سورة آل عمران (الآية ٦٧) وغيرها. ويلاحظ في هذا الإصرار على تقي نصرانيتهم أو يهوديتهم، نوع من الإطراء بهم، بما يدعو إلى الاشتباه في أن الانتماء إلى النصارى أو اليهود لم يكن أفضل انتماء ممكن في نظر المكثن. لقد رفض المكثون سلطان أبرهة، ثم رفضوا تملك عثمان بن الحويرث. وليس مستبعداً أن تكون النصرانية في نظرهم قد تحولت إلى نوع من الانحياز السياسي إلى المعسكر البيزنطي. كذلك يفترض أن حرب الفجار ورفض المكثن الانضمام تحت جناح الفرس ومملكة الحيرة، لم يكن شأنهما إحلال اليهود محللاً ممتازاً في مكة، بدل النصارى. ولا شك في أن الحنفاء، لو كانوا تعبيراً عقائدياً عن موقف سياسي، لكانوا تعبيراً عن بحث مكة عن عقيدة لموقفها السياسي المستقل ومشروعها الاقتصادي الخاص، عقيدة لا تكون إعلان انحياز لا لهذا المعسكر ولا لذلك. وقد أدرك الحنفاء مرتبة من العلم توأهم لهم لمطرح مثل هذا، فقرأوا الكتب الأرامية وناقشوا الأخبار وكانوا من أهل العلم، ثم كان موقفهم مستقلاً. ولأخذ غابريلي هذه الصفات في الاعتبار (إذا استثنى ابن الحويرث البيزنطي الهوى) ووافق على أنهم كانوا مستقلين على حد سواء عن المقيدين النصرانية واليهودية، فيما تمسكوا بالمبادئ الأساسية لفكرة التوحيد^(٢)، فكانوا البشر الذي عبر بعض عن حاجات مجتمعهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وهي الحاجات التي كُتب للإسلام أن يرضاها جميعاً. فكان شريعة بن أبي الصلت من الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار أبلى بيان للمعاناة التي عاينها

(١) سورة ابن هشام: ج ١ ص ٢٤٢-٢٤٧. السمرقاني: المروج: ج ١ ص ٧٨-٨٣.

ابن خلدون: كتاب العبر: دار الكتاب العلمي. بيروت، ١٩٧٧، ج ٣ ص ٧٠٧-٧٠٩.

ابن كثير: البداية... ج ٢ ص ٢٢٠-٢٤٢. وأيضاً ج ١ ص ٢٤٩-٢٥١.

٧٠٩، ٧٠١، ٧٠٢.

(٢) Chabouh, op. cit., pp. 25, 26.

المختلفة حتى جاء الإسلام. وكان ملك عمان بن مضمون والنبيلين من
الصارورة ووكيع بن سلمة الإبدي وغيرهم^١، إعلناً لهذا التزوع إلى الدين
الجديد الذي بذت الحرية العربية كأنها تحسّ بوشوك ظهوره، فون أن تعرف
تسليماً على وكيف سيقهر.

٢ - اسم الجلالة: الله

لقد سبقت الإشارة في باب مكة والتوحيد الديني، إلى العلاقة العميقة بين
التوحيد وعدم تسمية الإله، وتبين أن الاستعاضة عن التسمية بذلك على أن الإله غير
المسمى هو في الواقع إله توحيد، لو في أصف حال إله أكبر متقدم على ما
سواء. وليس من شك في أن التليبات المتشابهة في مكة، وهي تليبات غلا
مستطعها من اسم الصم لو الإله، وتما كانت على الأقل مرحلة مهمة تزيلت فيها
حقيقة نفسية خطيرة بين معتقدات القبائل. نحو الإيمان بأنها جميعاً كانت تعبد
للمعبود واحد. ولا شك في أن القبائل كانت تعلم أن لكل منها صنماً مختلفاً،
وإن التلية لنفسه هو لا غيره. لكن احتلاط المصح في طواف واحد، وإخفا
لشعاع الأصنام، أدبها حتماً إلى نهات كثير من الحدود النفسية والمفاتيحة بين
القبائل، حتى أضحت ممكناً في خطوة خطيرة أخرى إيمان مفهوم المعبود، بما
يمجد لمعبدة التوحيد.

ولقد كان ظهور اسم الجلالة: الله، مرحلة مهمة في الصراع الطويل بين
عقيدة التوحيد وعبادة الأصنام. ولول ما ظهر اسم الله في آثار منقوشة، في
النقوش الليبية على الصخور. ويحول وثق أن اللقطة ظهرت مرتين فقط في
الكتابات العربية الجنوبية، إحداهما في كتابة ممببة عثر عليها شمال الغلا (التي
كان اسمها لحيان)، أما الثانية فهي النقوش الليبية، ولذا يمكن القول بثقة إن
الاسم انتقل من لحيان إلى جنوب الجزيرة العربية، مع انتقال عبادة الله إلى
البحرين: أما في الصلوات فلم يترع ضمن النقوش العربية الجنوبية على ذكر لاسم

١٩٦٩ المستخرجة من ١٣٦، ابن سعد: الطبقات، ج ٢، ص ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤. وعثر أيضاً حرك على:

ج ٢، ص ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥

الله. وقد عثر في النقوش اللحيانية والثمودية على صلوات باسم الله، تجعل
 وقت تأريخها القرن الخامس قبل الميلاد. ولم يُعثر على مثل هذا في نقوش
 ديدان التي سبق عصرها عصر اللحيانيين في شمالي غربي جزيرة العرب. وعُرف
 الإخباريون اللحيانيين بأنهم من سلالة هذيل بن مُدركة بن الياس بن مُضرة، أي
 أنهم عرب حذنانية. لكن وُنت تسامح مع ذلك عن أصل تسمية الله، وما إذا
 كانت عربية. ففي الأرامية السريانية وربما في اللهجة النبطية واللهجة النعمرية،
 تبدأ لفظة إله بهمزة مفتوحة لا مكسورة. والهمزة المفتوحة على الألف في بداية
 اسم الجلالة الله، حُوت الياحثين بعض الشيء، إذ افترضوا أن محلها في
 العربية لهَمْزة مكسورة. لكنهم حلّوا المسألة بقولهم إن أصل اللفظة الإله، أي
 كلمة إله معرفة بأداة التعريف، فدخلت اللامان بعد حذف الهمزة لاستئصال
 لفظها. وقد حالج الرازي هذا الأمر في تفسيره الكبير، إذ قال: «قال بعضهم علم
 اللفظة ليست عربية بل عبرانية أو سريانية، فإنهم يقولون: إلهنا رحماناً ورحيماً،
 فلما حُرِبَ جُمِل: الله الرحمن الرحيم، وهذا بعيد، ولا يُلزَمُ من المشابهة
 الحاصلة بين اللفظين الطعن في كون هذه اللفظة عربية أصيلة... أما الأكثرون
 فقد سلموا كونها لفظة عربية. أما الفائلون بأن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى فقد
 تحلّصوا عن هذه المباحث، وأما المنكرون لذلك فلمهم قولان: قال الكوفيون
 أصل هذه اللفظة إله، فدخلت الألف واللام عليها لتنظيم الإلهاء، فدخلت
 الهمزة استقلالاً لكثرة جريانها على الألسنة فاجتمع لامان فأدبعت الأولى فصار:
 الله. وقال البصريون أصله: لاه، فأدخلوا بها الألف واللام فصار: الله»^(١).

ويقول وُنت إن اللفظة في اللحيانية كتبت كذا: حال هـ، وفي الثمودية
 كذا: حال هـ، ويضيف أن اسم الإله الذي كان يُعبد عندئذ لا بد أن يكون
 يكون إله فادخل اللحيانيون هاء التعريف على هذا الاسم وكان اسم جنسه
 فعزّلوه إلى اسم علم، وكذلك العرب. فدخلت أداة التعريف الألف واللام على

(١) الرازي، الامام فخر: التفسير الكبير، المطبعة العلمية المصرية بميدان الأزهر بمصر، ج ١١،

ص ١٦٣. وكذلك جولد علي: ج ٩، ص ٢٣، ٢٤.

كلمة إله، التي هي اسم جس يدل على كل ما كان بعده، فنحو الاسم في مرحلة أولى إلى اسم إله فخره، ثم إلى اسم علم لإله الذي لا إله إلا هو. ولم يخلد وقت بعض الاعتراضات على هذا الاستنتاج^(١). ولا شك في أن قول هيروجوتس إن اسم اللات فيما مضى كان كليات، إما يبرز هذا القول، لأن لفظة كليات قريبة جداً من لفظة الإله. وحذف الهمزة وإدغام اللامين مطابق تماماً لما قال به الإخباريون المسلمون وما اعتنقه وقت^(٢).

وقد خرجت في الكتابات والطرش صفت أخلفت على الإله، مثل: برك اسمه، أو رب العالم، أو الله المحسر، أو رب الملقين، وما شابه. لكن وقت قال بعد استعراضه عدداً من الطرش التسمية والعلية، إن صفة الأبر (أي الذي لا ولد له) لم تطلق على غير الله، فيما اشترك الآلهة الآخرون بالصفات الأخرى. ولاحظ أن هذا يبرز أن اللهايات كانوا يؤمنون بمكانة خاصة لله لا يؤمنون بمثالها لغيره. وقال إن هذا قد يكون أصل الإيمان بالله الواحد في الجزيرة العربية^(٣). وهذا صحيح على الخصوص إذا كان المقصود من نعت الأبر نفي نظرية التثليث المسيحية في قوله: **وَقُلْ خُذُوا أَنفُسَكُمْ وَاللَّهُ الضُّمُّ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (الإحلاس: ١-١).

إن هذا التطور المعرفي في لفظة اسم العلة كان تسمية ولا شك من تطور في مفهوم اللفظة وفكرة الإله عند النحاسين والتمومين. لكن اللفظة نفسها صاحبت هي أيضاً في تطور المصنوع بدورها. لأن غياب اسم العلم عن المصنوع، ثم تحول اسم الجس المعرف إلى اسم علم، طور في ذهن العرب شيئاً فشيئاً فكرة الإله الواحد الذي لا يشركه أحد في مكانته. وقد ظلت هذه الفكرة ترسخ في الأذهان، حتى أخذت مكانة الأصنام في عقيدة القبائل تتقلص. وبعض زمن طربل والغرب، كما يؤكد ذلك الفرق الكريم، يؤمنون بالله ويشركون به في أن. وذلك كانت مرحلة. وقد ذكر الله في كثير من أشعار

(١) Waddell op cit. pp 242 - 247

(٢) Waddell op cit. p. 246

(٣) Waddell op cit. pp 242, 246

الجمالين، وذهب مستشرقون إلى أن رواية الشعر الجمالي المسلمون حذفوا أسماء الأصنام حينما استطاعوا وجعلوا اسم الله محلها^(١). غير أن ليهلوا وزن ارتأى أن سبب ذلك ليس تبديل الرواة الشعر، بل أدب الجمالين ومروجهم على عدم الإسراف في ذكر أسماء الآلهة الخاصة على سبيل النادب حيال الأرباب والأصنام، فاستعاضوا عن ذكر صنمهم بذكر الله، دون أن يعنوا إلهاً معيناً^(٢). وفي رأينا أن هذا تفسير غير مقبول، لأن القرآن الكريم يؤكد أن العرب كانوا يعظمون الله فوق كل أصنامهم، رغم شركهم. ولا يدل معنى الشرك على إنكار الله، بل على عبادة آلهة أخرى معه، رغم الإقرار بأنه الخالق (القمان: ٢٥، وغيرها) ولا يستقيم أن يقرؤوا اسم الصنم فلا يذكره، ويذكروا بدلاً منه اسم الله وهو عندهم فوق الأصنام. أما أن رواية الشعر أدخلوا اسم الله في الشعر الجمالي بعد الإسلام، فذلك قول يضعفه القرآن الكريم أيضاً حين ثبت بما لا يقبل شكاً أن الله كان في رأي المشركين أنفسهم خالق السماء والأرض، على نحو ما سلف.

ثانياً: أسواق العرب

١- تجارة محلية وعمراني.

يختص ابن حبيب في المحبر فصلاً مهماً بأسواق العرب^(٣). وقد سلفت التفرقة والتعيز بين هذه الأسواق التي سبقت الإيلاف بسبب طبيعتها المحلية والحاجة الدائمة إليها، وبين التجارة الدولية التي كان يمكن أن تمر بضاعتها عبر جزيرة العرب من الكرام دون أن يكون للقاتل فيها بيع أو شراء. إلا أن طبيعة جهود الإيلاف وإشراك مكة القاتل في التجارة الدولية ومكاسبها على هذا النحو أو ذاك، مثلما يتنا في الأبواب السالفة، ونعاطف حصنة قريش في التجارة الدولية

(١) لاحظ لامنس أن رب البيت كان أعلى مرتبة من جل والمرى عد قريش. انظر: Lamons.

Archaeol., p. 42. وجواد علي: ج ٦، ص ١٧.

(٢) Wettersen, John Reus Arabischen Heidentum. (1897), ss. 217, 218 (٢) وانظر أيضاً جواد

علي: ج ٦، ص ١١٥.

(٣) المحتر، ص ٢٦٣ - ٢٦٨.

في أواخر القرن السادس للميلاد، بعد اشتداد الحرب بين البيزنطيين والساسانيين واضطراب خطوط التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر وعبر الفرات وبادية الشام، جعلت تجارة مكة الشرقية تزدهر، ومكاسب القبائل التي كانت تشاركها في التجارة أو تمر قوافل قريش في منازلها تزداد ازدياداً، حسن عيشها وعزز قدرتها الشرائية. وكان من علامتهم ارتباطهم أن دوجت في كثير من أسواقهم تجارة رقيق وابهة، فكان الأسرى والعبيد يُجلبون إلى بلاد العرب من الحبشة أو من الأسرى العرب الذين استرقوا في الغزوات. وكانت هذه التجارة رائجة في أسواق مكة وفي سوق حاشية على الطريق إلى نحران. وكان ثمة من يقبل على شراء الرقيق لأن أشراف العرب حرصوا في ثرائهم المحدد هذا، على ألا تخلو منازلهم من العبيد^(١). ولا مفر من التكهن بأن تحسن القدرة الشرائية وازدياد ثروة القبائل وأسيادها وتعاطف رأس المال بين أيدي التجارة، نقط حركة البيع والشراء ذات الصفة الاستهلاكية المحلية التي كانت معظم الأسواق تقوم عليها، لأن معظم التجارة الشرقية كان تجلوه عبور في بلاد العرب.

ولذا كان ثمة علاقة مباشرة بين الإبلان ورواج تجارته الشرقية وبين ازدهار أسواق العرب، على الرغم من صفة الأسواق المحلية. لكن هذه الأسواق الدورية التي كانت تنقل فيها القبائل العربية وسلادتها وتجارها من مكان إلى مكان على توالي شهور السنة في كل أرجاء جزيرة العرب، أثرت بدورها أيما تأثير بحركة الإبلان العامة، فانشأت سوقاً مشتركة بمعنى الكلمة الحديث. وكانت زعامة القرشيين في كل هذا المسار المتصاعده، تتحزز، من جرّاء مركز مكة الدهني ولا شك، ولكن من جرّاء تلك الأسواق أيضاً، وخصوصاً أسواق فزوة المواسم: فكاظ وفي الفجاز ومبجة التي كانت تنتهي في يوم التروية، الثامن من ذي القعدة ليبدأ الحج في التاسع من. هناك في الأسواق وفي الحرم، كانت الثارات والعداوات تنهات، ويلتقي الحضرمي بالشامي والعماني بالحدري

(١) في شأن حاشية الرقيق وتجارة العبيد انظر المحرر، ص ٢٦٤. واللسان، المواد عبد وقن وأما.

وماثوت: معجم البلدان، حلة. وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٦٥، ٢٦٦. وكذلك

حنوز: المرجع السابق، ص ٧٠.

ليقتضوا تجارتهم ويحصوا أرباحهم، ثم ينصرفون إلى شكر أصنامهم معاً في طواف واحد أخذت تذيب فيه مشاعر المصيبة القلبية الحادة^(١).

وقد استطاعت المؤسسات والأعراف والنظم المتبعة ومنها الأشهر الحرم وعهود الإلهاف والأحلاف أن تحلّ أسواق العرب حتى تقوم على مدار السنة تقريباً. وقد صُنّف أمن الارتحال إلى الأسواق صنفين:

١- فمن الأسواق ما كان يقع في حكم مملكة تفرض الأمن وتلاحق الغزاة وتمنع التعدي وترد الحق إلى صاحبه. وفيها لم يكن التجار يحتاجون إلى خفارة ترافقهم أو تضع العدوان عنهم. وكانت الحكومات تضرب ضلواً ومكوساً على التجار لقاء السماح لهم بالأنجار.

٢- ومن الأسواق ما كان يقع في مناطق البادية حيث لا حكومة ولا سلطان، ولذا كان التجار في معظم الحالات يتاجرون الخفراء لحمايتهم وحماية تجارتهم لقاء جمل يدفعونه. ولاحظ المرزوقي أن في هذه الأسواق أيضاً فئتين، إذ قال: «كانت هذه الأسواق منها ما يقوم في الأشهر الحرم ولا يقوم في غيرها، ومنها ما لا يقوم في الأشهر الحرم ويقوم في غيرها. لكنه لا يصل إليها أحد إلا بخفير ولا يرجع إلا بخفير^(٢)».

وكانت بضاعة الأسواق المحلية الدورية، من نتاج جزيرة العرب في كثير من الحالات، كالتمر والزيت والمواشي والرقيق العربي والسلاح والادم وحتى اللبان والمطور البهنية والفضة. لكن ازدهار تجارة الشرق وإثراء بعض القبائل والمشار أمر مكنت لعرب الجزيرة من أن تبيع وتشترى في المواسم التي كانت تأتي بالبضاعة

(١) Germanus, A K. *Jubus Legacy of Ancient Arabia, Islamic Culture*, vol 37 (1963), (1)

269 - 261 pp. والألماني: أسواق...، ص ١٧٧، ١٧٨

(٢) أنظر المشور ومن كان يفرضها ولحساب من في أسواقها والتمر والسكر والتمفر ودمرة الحنظل في المسحر، ص ٢٦٦ - ٢٦٧. وفي الأنجار في الأشهر الحرم وغيرها أنظر المرزوقي: الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢ هـ، ص ٢٤٠، ص ١٦١ - ١٦٦. وكذلك حنور: المرجع السابق، ص ٥٧، ٥٨، ٦٤.

من المحيط الهندي، أو تذهب عبره ببضاعة الشام ومصر.

وقد أحصى الندوي^(١) مرافق التجارة التي أثرت مباشرة بالتجارة العربية على النحو التالي:

- **صُحار:** كانت مرفأً لقبضة عُمان. وقال فيها البشاري إنها أكبر المدن على بحر الصين [أي الذي يُبحرون فيه إلى الصين]. وهي آهلة وجميلة وتزخر فيها الأرزاق والائتمار، وفيها أسواق على طول الشاطئ. ووصفها ياقوت بأنها دهليز الصين وخزانة الشرق ومنجر اليمن.

- **الشحر:** كانت غنية بالأسماك فتصدّرها إلى عُمان وعدن والعراق.

- **قيس، أو قَيْش:** جزيرة في بحر عُمان قرب البحرين. كانت محطة للسفن المبحرة إلى الهند.

- **البحرين:** سكنها البحارة على الدوام وكانت تحشد إليها السفن والراكب.

- **هُرمُز:** جزيرة كانت مركز التجارة البحرية في الخليج وكانت تنافس قيس، وترفاً إليها سفن الهند والصين واليمن.

- **جُفّة:** كانت مرفأً مكة [الشعبة كانت مرفأً ما قبل الإسلام]. وكانت ترفاً إليها السفن الآتية إلى الحجاز من الحبشة. وعرفت جُفّة كميناء قبل الإسلام، لكنها لم تزدهر إلا بعده.

- **الجار:** ميناء المدينة وقد أخلفه أبو جعفر المنصور في بداية العصر العبّاسي فاندثر.

- **الْقَلْزَم:** ميناء على شاطئ مصر من البحر الأحمر [السويس اليوم]. وكان التجار يصدّرون منه اللّوة إلى الحجاز واليمن^(٢).

ب - مواعيد الأسواق ومواقعها

خلا شهرا شَوال وصفر وحدهما دون سائر الأشهر القمرية من الأسواق الدورية الموسمية في جزيرة العرب. أما الأشهر الأخرى فكانت الأسواق فيها لا تتوقف، فتدور من موقع إلى موقع نافلة معها البضاعة والتجار وطلاب الشهرة من الشعراء والرواة. ولا شك في أنه لا ندعة لمبالغة، مهما قبل عن أثر هذه المواسم السنوية في إنشاء عيش اقتصادي واجتماعي ولغوي مشترك بين القبائل.

- دومة الجندل: هي أول سوق تقام في العام بعد انقضاء موسم الأشهر

الحرم، فتقوم في أول ربيع الأول وتنصرم في منتصفه. والسوق لكثافة من كلب، جيرانها كلب وجديلة طيء. وكان كلب حلفاء بني تميم، وطيء حلفاء بني أسد، ولذا كانت قوافل قريش فيها آمنة بلا غفارة، فإذا دخلوا طريق العراق تخفروا ببعض بني قيس بن ثعلبة فتحيز ذلك لهم ربيعة كلها. وكانت دومة الجندل عقدة مواصلات بين الخليج والشام وبين مكة والعراق. وكان يباع فيها اللبان والمر واللاذن والعقيق اليمني والمطور والذهب والعاج وخشب الأبنوس والرقيق الحبشي والقمح المصري في أحيان. وكان يتناوب على ملكها أكيدر الكنسي وقناة الكلبي. فكان الملكان يتحاجبان، فأبما ملك حلب صاحبه بأحبيته كانت له السوق فصنع فيها ما يشاء فلم ينح أحد فيها إلا بإذنه، وكانت له العشور. وكانت مباحة العرب في دومة الجندل إلقاء الحجارة. وذلك أنه ربما اجتمع على السلطة نفر يسامون بها صاحبها، فأبهم رضي الله حجرة^(١).

- قَجَر: يتقل إليها الناس بعد فراغهم من سوق دومة الجندل. وقَجَر في البحرين عند ساحل البحر، وكانت تقام في مطلع ربيع الثاني. وكانت ضرابها لملوك البحرين من تميم الذين كانوا يدينون للفرس. وقَجَر تعودها طائفة. وكان يباع فيها العنبر الجعاني^(٢).

(١) الطبري يذكرها في طبعة الأسواق الطبري. التاريخ، ج ١، ص ٢٧٠. وكذلك المزدلفي: الأئمة... ج ٢، ص ١٦١. وانظر المحرر، ص ٢٦٣، ٢٦٤. وانظر أيضا حقود: المرجع السابق، ص ٥٢، ١٦٦ وما بعد. ودراسة المرجع السابق، ص ٦٢.

(٢) المحرر، ص ٢٦٥. وكذلك الأصمعي: أسواق... ص ٢٠٨، ٢١٥. وحقود: المرجع نفسه، ص ٥٢، ١٦٠ وما بعد.

١٠ - عُمان: كانت تُقام سوقها بعد هجر وتنتشر حتى آخر جُمادى الأولى. وكانوا يتبادلون فيها نتاج اليمن والحجاز والشام والحبشة والهند وفارس. وكان أمرؤها يذهبون للفرس يبيعونهم لجباة العشور والمكوس، مثل هَجَر.

- المَشَقَر: قال ابن حبيب «يقوم سوقها أول يوم من جُمادى الآخرة إلى آخر الشهر، فتوافي بها فارس يقطعون البحر إليها يبيعانهم. ثم تنشع عنها إلى مثلها من قابل. وكانت عبد القيس وتميم حيرانها، وكان ملوكها من بني تميم، من بني عبد الله بن زهد وعضد المنذر بن سُلَوى. كانت ملوك فارس تستعملهم عليها، بني نصر على الحيرة وبني المستنكير على عُمان. وكانوا يصنعون فيها ويسرون فيها بسيرة الملوك بدومة الجندل. وكانوا يعشرونهم. وكان مَنْ يؤمّها من التجار يتخفّرون بقریش لأنها لا تؤتى إلا في بلاد مضر. وكان يجمع فيها الملامسة والهمجة. أما الملامسة الإماء، يوسى بعضهم إلى بعض فيبایعون ولا يتكلمون حتى يتراضوا لإماء. وأما الهمجة فكبلاً يحلف أحدهم على كلب إن زعم المشتري أنه قد بدا له^(١). ويدعو أن هذه السوق كانت من كبرى الأسواق لقيامها شهراً. إلا أن ناصر الدين الأسد تشكك في كونها سوقاً، إذ قال إنه لم يجد غبراً واضحاً على ذلك، فاستشهد قول بانوت: «المَشَقَر حصن بالبحرين عظيم لجد القيس يلي حصناً لهم آخر يقال له الصفا قِبَل مدينة هجر... وبين الصفا والمَشَقَر نهر يجري يقال له العين... وفيه خَبس كبرى بني تميم». ثم استشهد قول البكري: «المَشَقَر قصر بالبحرين وقيل: هي مدينة هجر»، وأضاف أن الذي ذكره أن المَشَقَر سوق الطائف وهو غير هذا، وذكروا أن سوق الطائف تسمى أيضاً المَشَقَر^(٢). إن إغفال بعض المؤرخين والجغرافيين العرب ذكر السوق في

(١) المَحْضَر، ص ٢٦٥. و Hamoudah: Les Voyages... p. 227. والأصْفَر: أسواق... ص ٢٠٣ - ٢٠٧، ٢١٦ - ٢٢١.

(٢) بانوت: معجم البلدان، ملحق المَشَقَر والمَشَقَر. وتطر أيضاً الأسد، ناصر الدين: مقدمة لدراسة القبائل العربية في الخليج قبل الإسلام: هجراتها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى بالجزيرة العربية، في: دراسات عربية وإسلامية موهبة إلى إحسان عيسى، تحرير وداد القاضي، الجامعة الأميركية في بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص ٤٦.

المشقر سبه على الأرجح أن الأسواق المرسومة تقام في معظم الحالات في أرض خلاء حتى اليوم. والجغرافيون قلما يذكرون الأرض انخلاء إذا لم تكن فيها موقعة ما لو ذكرى خطيرة الشأن. والخبر الواضح الذي ذكره ابن حبيب عن سوق المشقر والذي خلا من احتمالات اللباس وغلط السوق بسوق أخرى، مستند معقول للقول بلباس سوق في المشقر قبل الإسلام. وكان سكان المشقر من الأزد الذين يرحلوا في الملاحة.

- حُباشة: كانت تقام في ديار بلوق بنهلة في ديار الأزد من شأن، وهي على ست ليال من مكة بين الحجاز واليمن. وبدأ في الخامس من رجب وتستمر ثلاثة أيام. والراجح أنها كانت مستقلة عن جولة الأسواق السنوية، لأن المجيء إليها من المشقر في خمس ليال غير ممكن. وقد أولدت خديجة أم المؤمنين الرسول إلى هذه السوق للتجارة قبل المبعث^(١).

- ضحار: كانوا يرتحلون إليها من المشقر، وهي قصة عمان على البحر، على ما أسلفنا. وكانوا يفاوضون المشقر في أول رجب ويلتفون ضحار في العشرين منه، لتقام السوق فيها خمسة أيام. وهي لميلوك عُمان من الأزد وكانت حمايتها من حرمة شهر رجب، ويحترمونها فيها الجُلندي بن المستكبر وكيل الفرس. وشيئت ودعيلز الصين وخزاة الشرق.

- دُبا: (وتكتب أيضاً بصورة الباء: دى) تُعقد فيها السوق في آخر يوم من رجب فتتعد حتى العاشر من شعبان، وهي عند صخر مضيق قُرْمُز على ساحل عُمان، وسماها ابن حبيب إحدى قُرُضي العرب، لمكانتها بين الموانئ. وكان يأتيها التجار من الهند والصين وأهل المشرق والمغرب، وكان يحجم لها المساومة. وكان الجُلندي بن المستكبر يحترمها فيها، ويفعل في ذلك فعل الملوك بغيرها. وكانت سوق مشهورة في دُبا المجاورة تُذكر معها^(٢).

(١) قالوت: معجم البلدان، حاشية. وانظر أيضاً الأسماعلي: أسواق... ص ٢٢٢ - ٢٢٤. وحسن: المرجع السابق، ص ٤٩، ٥٧، ٥٨، ١٦٠ وما بعد.

(٢) المشقر، ص ٢٦٥، ٢٦٦. وكذلك: Hamouda, Les Voyages... p 227. والأرد: المرجع السابق، ص ٤٦. وحسن: المرجع السابق، ص ٥٧، ٥٨، ١٦٠ وما بعد. والأسماعلي: أسواق... ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

- الشَّحْر: في نَهْرة بين شَمْلُو وحَضْرَمُوت، وقال فيها محمد بن حبيب:
«تقوم السوق تحت ظل الجبل الذي عليه قبر هود عليه السَّلام. ولم تكن بها
حشود، لأنها ليست بأرض مملكة وكانت النَّجْلُ تتخَفَّر فيها بيني محاربين
هرب من مهرة. وكان قيامها للنصف من شعبان. وكان يجمع بها إلقاء
الحجارة». أما نجارتها فأماها الإبل والعنبر والمُلبَّان^(١).

- عدن ويقول فيها ابن حبيب: «وكانت تقوم أول يوم من شهر رمضان إلى
عشر يمحضين منه. وكانوا لا يتخفرون هناك بأحد لأنها أرض مملكة وأمر محكم.
وكانت الأبناء تعثرهم بها ولا تشتري في أسواقهم ولا تباع. والأبناء هم أبناء
الفرس الذين فتحوا اليمن مع وهز وقاتلوا الحبشة^(٢). وكان يباع فيها ويشتري
على الخصوص البن والطيب الفاخر^(٣)».

- صنعاء، قال ابن حبيب: «كانت تقوم في النصف من شهر رمضان إلى
آخره. وكانت الأبناء تعثرهم. وكان بها الجس جس الأبيدي أي أنهم يوجبون
البيع بالجس^(٤). وكانت السوق في وادي صنعاء وأفضل بياعتهم الأدم والبرود
والزعفران والأصبغ، وفيها يشترون البز والمحرير والخز^(٥)».

- الرابية: سوق حضرموت، «لم يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة لأنها لم
تكن أرض مملكة، وكان من عزَّ فيها يزُّ صاحبه، فكانت قريش تتخَفَّر فيها بيني
أكل الثَّمر، وسائر الناس يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كتلة، وكانت مكرمة
لآل البيت جميعاً. وساد بنو أكل الثَّمر بفضل قريش على سائر الناس، فكان
يأخذ إليها بعض الناس، وبعض إلى عكاظ^(٦)، لأن عكاظ كانت تقوم في
الموعد نفسه من مطلع ذي القعدة إلى العشرين منه، ولذا كانت سوقاً محدودة،

(١) المحبر: ص ٢٦٦. حنظل: المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٤ - ١٦٠ وما بعد.

(٢) المحبر: ص ٢٦٦. والأصاني: أسواق... ص ٢٣٢ - ٢٣٤.

(٣) حنظل: المرجع السابق، ص ١٦٠ وما بعد. والأصاني: أسواق... ص ٢٣٣.

(٤) المحبر: ص ٢٦٦. والأصاني: أسواق... ص ٢٣٥ - ٢٣٨.

(٥) حنظل: المرجع السابق، ص ١٦٠ وما بعد.

(٦) المحبر: ص ٢٦٧. والأصاني: أسواق... ص ٢٣٩ - ٢٤١.

تباع فيها على الخصوص الذرة والخبث والقمح والسمسم والظن^(١).

- عكاظ: قال ابن حبيب إنها كانت من أعظم أسواق العرب. وكانت قريش تنزلها وهوازن وطوائف من أقباء العرب: غطفان وأسلم والأحباش... وكانت تقوم للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر. ولم يكن فيها عشور ولا خفارة. وكان يجمع السراة إذا وجب البيع وعند التاجر فيها ألف ممن يريد الشراء ولا يريده، أشركه في البيع. وقوله: ولم يكن فيها عشور ولا خفارة، فلان السوق لم تكن في أرض أي مملكة، وكانت تقوم في شهر حرام. وسفره باباً فيما يلي لسوق عكاظ. وقد جعل ابن حبيب موعداً في المنطق من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، فإن مضت العشرون انصرفوا إلى مكة^(٢).

- حجة: وهي على أميال من مكة، وتقام آخر عشرة أيام من ذي القعدة، مضربهم من عكاظ. وهي أقرب إلى مكة من عكاظ، ولذا فهي شبه استمرار لسوق عكاظ واقترب من مكة، مع اقتراب موعد الحج^(٣). وحتى تقوم سوق في حجة بين عكاظ وفي المجازة لا يمر من المراض أن عكاظ كانت تنصرف في العشرين من ذي القعدة، لا في آخره.

- ذي المجاز: وهي بناحية عرفة قرب جبل ثعلبة في ديار حذيل. وكانت السوق تقام حين يهل ذو الحجة، وتنفض في الثامن منه يوم التروية، لأن عرفة والمزدلفة لا ماء فيها. وكانت السوق تجمع جموعاً عظيمة لفتت على الخصوص للحج، فيصرفون في التاسع من ذي الحجة إلى شعائهم^(٤).

- نطاة خير: بعد مضربهم من الحج كانت السوق تقام في العاشر من المحرم إلى العشرين منه. وموقعها شمال خير.

(١) حنوف: المرجع السابق، ص ١٦٠ وما بعد.

(٢) المحبر، ص ٢٦٧. وكذلك السابق، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) حنوف: المرجع السابق، ص ١٦٠، ١٥١، ١٦٠ وما بعد. والأمازي: أسواق... ص ٢٩٩-٢٩٨.

(٤) المحبر، ص ٢٦٧، والسبق، ص ٢٧٤، ٢٧٥. وكذلك حنوف: المرجع ذاته، ص ١٦٠ وما بعد. والأمازي: أسواق... ص ٢٩٩-٣٠٥.

.. - خيبر اليمامة: كانت تقام لمن ينصرفون من الحج إلى عمان والبحرين. فيقتضون فيها تجارتهم من العائش من المحرم، حتى آخره. وهي لبني حنيفة من بكر بن وائل، أشبه بمكاظ. ولم تكن فيها خفارة لوقوعها في شهر حرام^(١).

وقد ذكرت في المصادر والمراجع أسواق أخرى، منها سوق دير أيوب، في قرية الشيخ سعد بحوران، وسوق بصرى الشام، وسوق أذرعات في جردا اليوم، على خلاف في موعد قيام هذه الأسواق الشهرية. كذلك كانت تقام سوق في جزيرة الحيرة. لكن هذه الأسواق لا تبدو جميعاً منتظمة في سياق المواسم في جزيرة العرب ضمن نظامها الزمني. ولا مفر من اعتدادها أسواقاً للتجارة الدولية أيضاً:

- دير أيوب: كانت تقوم بعد انقضاء الحج وتقصدتها قريش بقوافلها. وكانت تحت حكم بيزنطة، فتعرض فيها العشور، ولا تحتاج إلى خفارة.

- بصرى: تقوم بعد سوق دير أيوب وتستمر خمسة وعشرين يوماً، ويقوم عليها الغساسنة بجيوش الفرية للروم. وكانت تأتيها بضاعة الهند والحبشة وغيرها. وكانت سوقاً عظيمة واشتهرت بالسيف المشرفة المنسوبة إليها، وكذلك بالخمور.

أذرعات: كانت تقوم بعد انقضاء سوق بصرى بسبعين ليلة، وتستمر طويلاً خلال الصيف، وربما الصيف كله.

- الحيرة: جاء في الأغاني أنها سوق يجتمع الناس إليها كل سنة، فتعرض فيها الأدم والمطور والبرود والجواهر والخيول والإبل والثياب. وكانت عشورها لملوك الحيرة. ولم يعرف موعد لقيامها^(٢).

- ج - سوق عكاظ

لسوق عكاظ مكانة ممتازة بين أسواق العرب في نظر الباحثين، لأسباب

(١) المحبر، ص ٢٦٨، وحقنور: المرجع السابق، ص ٥٢ - ٥٤، ١٦٠ وما بعد. والألفاني: أسواق... ص ٣٠٦ - ٣١١.

(٢) بالرت: معجم البلدان، أذرعات ودير أيوب. وانظر أيضاً: حقنور: المرجع ذاته، ص ٥٠، ٥٢ - ٥٤، ١٦٠ وما بعد. والألفاني: أسواق... ص ٣١٢ - ٣٣١.

ثلاثة على الأقل: الأول هو أن المصادر العربية الإسلامية تزخر بأخبار هذه السوق كما لم تزخر بأخبار أي سوق غيرها. والثاني هو أن سوق عكاظ فيما يخص بهذا البحث كانت مكان اختبار لأداء مكة السياسي والعسكري في إدارتها للإيلاف، خلال حروب الفجار. والثالث هو أن وفرة الحوادث والمرويات عن هذه السوق تتيح أفضل فرصة لدراسة أسواق العرب وأثرها في تطوّر الحياة المشتركة فيما بين القبائل، ولملاحظة العوامل التي جعلت هذه الأسواق مراجل تنصهر فيها القبائل سنة بعد سنة، على نار المواسم الحامية.

لقد لاحظ درادكة أن مكة سيطرت على أسواق عكاظ ومحنة وذوي المجاز التي كانت تقام قربها، وأضاف قوله إنه كانت لها أيضاً مراكز في بصرى وأذرع^(١). إلا أن مكة لم تسيطر على عكاظ لقربها. فقد كانت عكاظ أولاً لقبيلة هوازن القوية المرهوبة الجانب. وكانت قريش تهيمن على أسواق بعيدة جداً عنها أيضاً. إذ كانت قوافل مكة آمنة في دومة الجندل بفضل الأحلاف. وأما سوق المشقر في منطقة الخليج، وكانت سوقاً عظيمة تستمر شهراً، فكان الناس فيها يتخفرون بقريش. وفي سوق حضرموت في الرابية قالت المصادر إن بني أكل الرمار سادوا على سائر الناس بفضل قريش، على رغم أن قريشاً هي التي كانت مخفورة هناك، على ما جاء فيما سلف. ولذا قد يوحى القول إن قريشاً سيطرت على عكاظ القرية، أن سبب السيطرة الوحيد هو قربها. وهذا غير صحيح، إذ يلاحظ أن دومة الجندل هي عقدة المواصلات بين مكة والحيرة وبين الخليج وبصرى. والمشقر هي من أعظم أسواق الخليج. والرابية هي سوق حضرموت أحد أهم مصادر اللبان. فإذا أضيفت إلى هذه، عهود الإيلاف التي آمنت تجارة مكة وقوافلها في الشام والحيرة واليمن والحشة لتبين أن هذه الشبكة المكملة من العلاقات المكيّة تغطي كل متطلبات قيادة مكة للتجارة الدولية عبر جزيرة العرب. وقد ظلت سوق عكاظ تقوم لهوازن قرب مكة بلا اعتراض، حتى حاولت الحيرة أن تتجنب تسيير قوافلها عبر مكة، وأن تسيّر

(١) درادكة: المرجع السابق، ص ٦٩.

عبر الطائف إلى اليمن مباشرة. عندئذ فقط حدثت حروب الفجار وسيطرت مكة على عكاظ. وافترض أن مكة كان يُمكن أن تدع هوازن وعكاظ على حالهما لو انتظمت هوازن في سلك الإيلاف ليس افتراضاً بعيد الاحتمال.

وقد خصص كل من الأفغاني وحمّور فصلاً جيداً من كتابه، بسوق عكاظ^(١). واستعرضا معاني الكلمة المحتملة. فعكظه أي حبه وعركه وذلكه وقهره ورد عليه فخره وصرفه ومطله. وعكظ به، افتخر. وتعكّظ القوم اجتمعوا وازدحموا. وتعاكظ القوم تفاخروا وتعاركوا وتجادلوا. وقيلت أقوال في سبب تسمية السوق، وهي أقوال تستند إلى هذه المعاني، وعلى الخصوص طبعاً: تفاخروا واجتمعوا وازدحموا. ولم يُجمع على رأي في هذا، وبقي الأمر مسألة تأويل وتكهّن واختلاف على ما بين ياقوت. وقد كان موضع السوق أيضاً مسألة اختلف فيها الرأي، إذ يُعتقد أن أرض السوق لم تكن ثابتة، ولم تكن لها حدود واضحة، فتتسع عاماً وتضيق عاماً آخر. ونقل ياقوت عن الأصمعي والواقدي أن موقع عكاظ كان بين الطائف ونخلة وذئ المجاز خلف عرفة ومجنّة من بلاد الحجاز جنوب شرق مكة، في موقع اسمه الأثداء يبعد عن مكة ثلاثة أيام، وبينه وبين الطائف يوم. ووصف المكان بأن فيه نخيلاً. وفي هذا الموضع يُقال أيضاً إن حروب الفجار وقعت. ولا شك في أن عظمة السوق واتساعها لجمهور حاشد من الزوّار والقاصدين الحجّ، كان يقتضي اختيار منفتح كبير لها. وقد اتسع الموقع لقيام حروب الفجار. وهذا الاتساع يفسّر عقد السوق في مكان غير ثابت من هذا المنفتح. وكان الموضع في أرض هوازن، وكانت السوق لها. وهي قبيلة من قيس عيلان، من أكبر قبائل العرب. وكانت قریش تخشاها وتحاذر مخاصمتها. ولذا اشتهر حمّور بأن حروب الفجار وقعت رغماً عن إرادة قریش. وقد بيّنا أن جميع أيام الفجارين نتجت من تحرش أحلاف مكة بهوازن. ولذا فالراجع أن مكة وقد ارتأت في تسيير قافلة الحيرة تخفّرها هوازن، عبر الطائف مباشرة إلى اليمن خطراً على تجارتها، كانت ترغب في منع ذلك، لكنها خشيت

(١) حمّور: المرجع السابق، ص ٩٧ - ١٢٠. والأفغاني: أسواق...، ص ٢٤٢ - ٢٩٥.

بأس هوازن ولا شك. فتنحّشت بها على نحو غير مباشر، ولما رأت نفسها تميل إلى الانتصار سارع قرشي إلى اقتراح التفادي والهدنة. ولم تكن الحروب رغماً عن إرادة مكة. وإذا أنكر المكيون مبادئهم إلى القتال فليسبب وجيه، إذ إن حروب الفجار كانت انتهاكاً خطيراً للأشهر الحرم، ولم يكن يستقيم لمكة أن تنتهك صراحة أحد أهم أسس نظامها الديني والاقتصادي.

وكانت عكاظ حقاً أعظم أسواق العرب، إذ يحضرها سائر قبائل العرب وعرب الشام والعراق والخليج واليمن والبلاد المجاورة. فكانت تزدهم بالناس وتضيق على سمعتها بهم، فيكسب التجار في الموسم ما لا يكسبون مثله في أي موسم آخر. وفي رواية المرزوقي أنه لما دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل حضر السوق من نزار واليمن ما لم يُعرف أنه حضر مثله في سائر السنين، فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية^(١). وكانت لكل قوم من نزلاء السوق منازل خاصة بهم ينصبون فيها الخيام وترفع عليها راياتهم، فيدير شؤون كل وفد قبلي شيخ القبيلة أو رؤساؤها، فإذا غادر الناس مضاربهم إلى المعارض والأندية في رحاب السوق اختلط الناس والتقى اليماني بالشامي والحجازي بالعماني، وامتزجت القبائل في بحث شتى الأمور، من البيع والشراء إلى التباري في الشعر، فتبادل الروايات والتحديات فيما جرى منذ الموسم الفائت.

وأما موعد قيام السوق فقد تضاربت روايتان لابن حبيب فيه، إذ قال في المحجّر إنها: «كانت تقوم للنصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر»، وقال في المنقّ ما يدلّ على أن عكاظ كانت تُقام في أول ذي الحجة وتنصرم في العشرين منه^(٢). وسبب هذا التنافر في الروايتين على الأرجح، أن ابن حبيب

(١) المرزوقي: الأزمنة والامكنة، مجلس دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢هـ. ج ٢، ص ١٦٨.

(٢) المحجّر، ص ٢٦٧. والمنقّ، ص ٢٧٤، ٢٧٥. والواقع أن ابن حبيب قال: «فإن كان الحج في المحرم قام سوق عكاظ صبيحة ذي الحجة فتقوم عشرين يوماً بمكّظ، فإذا مضت المشرون انصرفوا إلى مجنّة». وكان ذاك في السوات المكبوسة. وبذلك يعني أن موعد عكاظ هو أول ذي القعدة.

أغفل في المحبر ذكر سوق المجنة التي كانت تستغرق عشرة أيام بين عكاظ وذئ المجاز قبل بداية الحج. وإغفال هذه السوق، وقيام عكاظ عشرين يوماً جعله يستتج أن عكاظ كانت تقوم في العاشر من ذي القعدة بدلاً من أوله. وحين ذكر ابن حبيب سوق مجنة في المتن استقام حسابه، فجعل بداية عكاظ في أول ذي القعدة. وهذا هو الصحيح على ما نعتقد، وإلا لما ظل متسع لسوق مجنة بين عكاظ وذئ المجاز، ولما كان لدينا تفسير مقبول لتناقض الأقوال. ولم يهتد حَمُور إلى هذا التفسير، ولذا قال: «أما الموسم فالإجماع يكاد يكون منعقدًا على أنها تقوم مع هلال ذي القعدة من كل عام»^(١).

واختلفت الأقوال أيضاً في سنة بدء قيام السوق. وكثير من المصادر يذكر أنها اتخذت سوقاً بعد عام القيل يخمس عشرة سنة، أي سنة ٥٨٥ م. وقد عارض حَمُور هذا الرأي محققاً، لأن خبر الفجار الثاني يجعل بدءها في السنة ذاتها على الأرجح. فمتى وقع الفجار الأول إذن؟ وأيد سعيد الأفغاني القول إن عكاظ قامت منذ سنة ٥٠٠ م. تقريباً. وفي تقديرنا أن عكاظ كان يمكن أن تقوم قبل ذلك، لأنها سوق لا تغلب عليها الصفة الدولية، بل الصفة العربية. ولذا فهي غير مرهونة بقيام قوافل التجارة الشرقية وازدهارها. والتجارة المحلية حاجة كانت قائمة على الدوام. أما أن تكون السوق قد قامت في هذا المكان وتحت هذا الاسم، فذلك ما لا يسع امراً أن يقول فيه قول اليقين.

أما بضاعة عكاظ فكانت تضم البرود اليمنية المخططة والموشاة والمسيرة بخطوط حرير، والزعفران والأصبغة والبلك والخضاب والبخور والعقيق، والمر والتوابل والطيب. تلك تجارات اليمنية. أما العمانيون فتجد عندهم اللؤلؤ من البحرين وتمور هجر وجوارها. وكان الشاميون يُحضرون الزيوت والزبيب والدقيق والقمح والأواني الزجاجية وأرجوان صيدا وصور وزيت السمسم والمصوغات الذهبية والفضية من البتراء والجناء من عسقلان. وكان الأعراب يبيعون الصوف والشعر والدهون والسمن والوبر والأنعام من إبل وغنم والجلود المدبوغة والأحذية

والأوكية. ولم تكن السوق تخلو من عطارين يعملون عطارتهم والأدوية والأعشاب والسك والطيب والعطور، وبيطرة يعالجون الدواب، ونجارين وحُدادين وبزازين يبيعون الثياب والسلاح. وقد اشتهرت في السوق الرماح الخطية المصنوعة في بلدة الخط على ساحل البحرين، والرماح الردينية، وكانت تصنعها امرأة من البحرين اسمها ردينة. أما أشهر الخمر في السوق فكانت تلك الآتية من بصرى وغزة والأندرين التي ذكرها عمرو بن كلثوم في معلقته. وفي السنوات الأخيرة التي سبقت الإسلام ازدهرت تجارة الرقيق الحبشي والقيين الشامية.

وكانت عكاظ سوقاً حرة بالمعنى الحديث، فبضاعتها معفاة من المشور والمكوس. وكانت فيها شبه محكمة تجارية، خصوصاً بعد حلف الفضول وتعاظم نفوذ مكة والحمص، إثر حروب الفجار. وكان القضاء فيها لهوازن قبل الفجار وصار لكثانة بعدها. وقد أشاعت عدالة هذه المحكمة وأمن الشهر الحرام، الاطمئنان التام بين قُصَاد السوق، وكان ازدهارها هذا الازدهار العظيم منطقياً ومقتضياً.

وتروي المصادر ما قد يوحى أن في السوق كُتَاباً عُدولاً كانوا يتولّون كتابة العقود والمعاملات، إذ حضر عكاظ في أحد المواسم عمرو بن الشريد السلمي أبو الخنساء الشاعرة ومعه ابنه معاوية وصخر، فلَمَّا رآه مَعْمَر بن الحارث العذري أسرع مرحباً به وأمر أولاده بالقيام على خدمته وإكرامه. فلَمَّا انقضت السوق دعا عمرو بن الشريد ابنه وقال لهما: إِنْ مَعْمَرٌ قَدْ طَوَّقَنِي مَا لَمْ يَطَوَّقَنِي أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِمِثْلِهِ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَكْفِيَهُ فَقَالَا لَهُ: إِفْعَلْ مَا بَدَأَ لَكَ. فدعا «بكايب وصحيفة» وكتب: هذا ما منح عمرو بن الشريد السلمي مَعْمَر بن الحارث العذري... منحه قطعة أرض بين مكة ويشرب بما فيها وما عليها... وكتب لخمس وثلاثين عاماً خلت من عام الفيل. بل إن عكاظ كانت فيها وسائل الإعلان للشهيرة بمتهكمي المعهود أو بمرتكبي أعمال الفس أو التدليس، فقال المرزوقي: «كانوا إذا غَدَرَ الرجل أو جنى جنابة عظيمة انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدٍ بعكاظ، فيقف في القوم خطيباً ويعلن قائلاً: «ألا إن فلاناً بن فلان

قد غدر فاعرفوا وجهه ولا تصاهره ولا تجالسوه ولا تسموا منه. وقد حدث ابن عباس أن ضباعة بنت عامر وهي من بني عامر بن صعصعة كانت متزوجة من هودة بن علي الحنفي، فلما مات أصابت منه مالا كثيراً ورجعت إلى أهلها. فخطبها عبد الله بن جدعان إلى أبيها، فزوجها إياها. فقام ابن عم لها وطلبها لنفسه، فقال أبوها: قد زوجتها ابن جدعان، فحلف ابن عمها ألا يدع ابن جدعان يصل إليها أبداً وليقتلنها دونه. فخاف الأب وكتب إلى ابن جدعان في الأمر، فقال له ابن جدعان: والله لئن فعلت هذا لأرفعن لك راية غدري بسوق عكاظ. فقال أبوها لابن عمها: قد جاء من الأمر ما ترى فلا بد من الوفاء لهذا الرجل. ثم جهزها وحملها إلى ابن جدعان^(١). ويدل هذا على أن عكاظ تحولت إلى مرقق مشترك لكل العرب في الجزيرة، يقصده كل من يرغب في نشر خبر. وفي ذلك نموذج لتحول الأسواق إلى مواقع عيش مشترك لم تلتق فيها القبائل على الصعد الاقتصادية أو الدينية أو اللغوية فقط، بل توحدت فيها قيمها ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية كذلك.

٥- الأسواق وتوحيد اللهجات

وضع فون غرونبوم دراسة تناول فيه الوحدة العربية قبل الإسلام، وأفرد جزءاً وافياً من دراسته هذه لأثر الأسواق في توحيد لغة القبائل العربية وتقريب لهجاتها. ولاحظ أن خريطة اللهجات العربية كانت شديدة التلون منذ زمن طويل، وأن اللغويين المسلمين فيما بعد، وهم يبحثون عن أنقى اللغة وجدوا أن الفروق بين لهجات القبائل حتى ذلك الزمن لم تكن مما يستهان به. فالتفاهم بين أصحاب اللهجات العربية المختلفة لم يكن مطلقاً. وكانت ثمة فروق بين لهجات البدو والحضر. وكانت تلك أيضاً نوعاً من العقبات دون التفاهم. وكانت لهجة كلب في مناطق حكم بيزنطة تبيّن عن لهجة البادية أكثر من لهجة ربيعة على ضفة الفرات مثلاً، إذا أخذت لهجة الداخل في عمق الجزيرة معياراً ومقياساً. بل ذهب بعضهم في تمييز اللهجات إلى أن الحي داخل القبيلة

(١) المرزوقي: الأرملة... ج ٢، ص ١٦٨، ١٦٩ والاندلسي: أسواق... ص ٢٧٨ - ٢٨١. وحقوق: المرجع ذاته، ص ١٩١ - ١٩٢.

الواحدة كان أحياناً يقترب في لهجته من لهجة حي من قبلة أخرى، ولذا لم تكن القبيلة دائماً وحدة لغوية. وغالباً ما كانت حدود اللهجات تقسم قبيلة وتجمع اقواماً من قبيلتين وفقاً لتعاطبهما حيناً مشتركاً^(١). إن نوعاً من هذا العيش المشترك وفره الإبلان حين نشط الأسواق والمواسم وحسن فرص ازدهارها. وأوضح ما لدى الباحثين من مظاهر نزوع اللهجات إلى التقارب من جراء الاحتكاك، ما كان يجري في عكاظ من مساجلات شعرية. إلا أن هذه المساجلات كانت تجري على صعيد لغوي راق هو صعيد لغة الفصاحة عند العرب، وهي حتماً غير لغة التخاطب اليومي التي كانوا يتداولونها. ولاحظ فون غرونباوم هذا التباين من صعيد إلى صعيد، لكنه قال إن ظهور لغتين متوازيتين بين العرب الشماليين، واحدة هي لغة الفصاحة والأخرى هي لغة التعامل اليومي، ضمن على ما يبدو الاتصال والتجانس بين العرب. وقد اثنى أن لغة التخاطب اليومي استخدمت في التجارة في المراكز الحجازية، فيما كانت لغة الفصاحة لغة الأسلوب المحدود للمصطلح البدوي في وسط الشمال، لغة الشعر. وقال فون غرونباوم إن تخصص مفردات الشعر العاملي تظهر ربما ست مدارس لغوية تكاد تكتسحها تقاليد لغوية عربية عامة، أخذت مفرداتها تتكون من جراء امتزاج هذه المدارس الست. وهذا النزوع نحو تطوير لغة أدبية من خلال الاستيعاب والتراكم، أسهم في جعل هذه اللغة مقبولة سلفاً. ولا بد من ذلك من أن نلاحظ مساراً انتقائياً كان يفعل فعله دون أن يكون إدراك الحافظ عليه سهلاً^(٢). وعلى رغم وجاعة ملاحظات فون غرونباوم هذه، فإنه أخطأ في قوله إن الإصرار على وضوح التشردم اللغوي الحاد، يعني الإصرار على حصر هذا التشردم عن تدمير الحس الاجتماعي الذي جمع العرب الشماليين كوحدة ثقافية. ذلك أن هذا القول يوحي أن التشردم اللغوي، أي تمتد اللهجات في هذه الحالة، هو وضع قائم جامد. وهو ليس كذلك لأنه كان في هذه المرحلة على الخصوص من التاريخ العربي، مرحلة الانتقال من الكيان البدوي المستقل إلى العيش

(١) Von Grönbom: The Nature of the Arab Unity... pp. 13, 14 (١)

(٢) Von Grönbom: Ibid., p. 14 (٢)

المشترك، وضماً متحرّكاً، يتنزل من حال إلى حال. فمما سَمَّاهُ فون غرونيوم امتزاج المدارس الست ونشوء لغة أدبية بالاستيعاب والتراكم، ضَمُّ هوامش التشرفم هذا، وقارب بين اللهجات. فلم يكن التضام بين أصحاب اللهجات المختلفة مطلقاً، هذا صحيح. لكن عدم التضام لم يحد مطلقاً. ولولا ذلك لما أمكن لأسواق العرب ومواسمهم أن تزدهر هذا الازدهار. كانت عكاظ ملقى العرب للنشاط الاقتصادي والاجتماعي وهما نشاطان قد يكتفيان باستخدام لغة التعاطي اليومي، لكن هذه السوق كانت أيضاً ملقى العرب لتبادل الأفكار والأشعار وتنقية اللغة وتصفيها وتوحيدها. فكان يؤم السوق الشعراء والخطباء والحكماء يعرضون شعرهم أو يخطبون في الناس من مختلف القبائل ويتساجلون. وكان منهم ولا شك أن يفهمهم الجميع. وكان بعض المبشرين يفتشون هذه السوق وغيرها لأديانهم، فكانت منتدى علماء اعتملت فيه عوامل التوحيد الثقافي واللغوي احتمالاً أكيداً^(١).

وكان الشعراء في عكاظ يخضعون لمعيار واحد لا غيره قبل إنه معيار قریش في الفصاحة واللغة. إذ جاء في المفضلات أن حماداً الراوية قال: كانت العرب تعرض أشعارها على قریش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما وقوه منها كان مردوداً. فقدم عليهم علقمة بن قَبَّة النخعي فأنشدهم قصيدته التي قال فيها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم جليها إذ فأتتك اليوم مصروم
لم أدر بالبين حتى أزمعوا غمناً كل الجمال قبل الصبح مزوم
فقال قریش: هذا يسمك الدهر. ثم عاد علقمة إلى قریش في قابل، فأنشدهم قصيدته قال فيها:

طحا بك قلب في الحان طروب بعهد الشباب عصر حان تشيب
يكلفني ليلي وقد شط عهدنا وعاصت عوايد بيننا وخطوب
إذا غاب عنها البمل لم تقش سرة وترضي أهباب البحر حين يزوب

(١) الألفاني: أسواق... ص ١٠، ١٧٧، ٢٩١. والشريف: المرجع السابق، ص ٨٩، ٨٧.

فإن تالوني بالنساء فإني بصير بادواء النساء طبيب
إذا شاب راس المرء أو قل ملك ليس له من وقصص نصيب

فأجازت قرش قصيدته هذه على أنها سقط الشعر أيضاً. ولما نكح
عمرو بن كلثوم بعروين عند ملك الحيرة أحب أن تسمى مملته الشهيرة:
الاهتي بصحنك فاصبحنا ولا تبقني غمرز الأندينا

في الناس، فسمى إلى سوق عكاظ، حيث كتب لها الخلود، وفشت في
القبائل كلها. ولولا أن هذه لغة فصاحة مشتركة، أو قريبة إلى أفهام جميع قبائل
العرب التي كانت تلام عكاظ، لما كان الأمر مقبولاً ولا مفهوماً. بل إن لدينا من
الشعر العربي نفسه ما ينصح صراحة من مكانة عكاظ المغربية والأدبية، وأثر هذه
المكانة في تقريب اللهجات. ففي إحدى القصائد مما لمة بن خلف الخزاعي
حسان بن ثابت، وأبدى رغبته في نشرها في الناس بعكاظ إذ قال:

الآن تَبْلُغُ حَسَانَ عَنِي مَخْلُطَةً تَدْبُ إِلَى عَكَاظٍ

فالجواب حسان بقصيدة أعرب فيها عن رغبة مماثلة:

سَأَنْشُرُ إِنْ بَلَغَتْ لَكُمْ كَلَاماً تَنْشُرُ فِي الْمَجَنَّةِ مَعَ عَكَاظٍ^(١)

وقول حسان هذا يجزم بأن القصائد لم تكن تُلقى في عكاظ فقط، بل
كانت تنتشر منها إلى الأسواق.

ومن السذاجة بمكان أن نظن أن المعلقات السبع والقصائد والخطب
وحدها كانت تفعل فعلها التوحيدي، فنشئ لغة الفصاحة عند العرب. ذلك أن
أحداث التجارة والمجتمع والحرب والسلام والسياسة والعصبة والأحلاف
والخلع وما إلى ذلك من شؤون الحياة اليومية، كانت تشكل مساحة تلمس أكبر
بلا تلمس من مساحة التلمس التي كونتها القصائد والخطب. ويحتمل أن يكون
التقارب على صعيد لغة التعاطي اليومي قبل الإسلام أكبر من التقارب الذي

(١) الألفاني، ج ٢١، ص ١٩٩ - ٢٠٤. وكذلك ج ١١، ص ٥٠ - ٩٠. وثاق الحروس: ملحة
عكاظ. وحسن: المرجع السابق، ص ١٤٨ - ١٥٧.

أحدثه الأسواق على صعيد لغة الفصحاة، وهو أمر لا بد أنه انقلب إلى الضد بعد الإسلام بسبب انتشار القرآن الكريم. لكنه يبدو أن لهجة قریش كانت العامل المؤثر في المرحلتين، على رغم قول بعض الباحثين إن لهجة نجد ارتقت إلى مرتبة الفصحاة عندما ساد ملوك كتلة على بقية القبائل. ولا شك في أن لغة الشعر الجاهلي ومفرداته انحلت مع الوقت تقترب كثيراً من لغة القرآن الكريم الذي اصطّح على أنه أنزل بلسان قرشي. وقد تكون لغة قریش هي التي اقتربت من اللغة الفصحى بفعل التماس في الأسواق. وكانت هذه اللغة قد سادت في العصر النبوي في كل أنحاء جزيرة العرب تقريباً. وكانت الوفود إلى النبي في المدينة تتكلمها بطلاقة، فيما كانت وفود النبي إلى العرب، مثل معاذ بن جبل، لا تلقى صحوه في مهمتها. ومع أن اللغة العربية الفصحى انتصرت انتصارها التام بالقرآن وظهور الإسلام، إلا أن الطريق كان سهلاً تمهيداً جيداً بفضل فعل الأسواق في تقريب اللهجات^(١).

ولاحظ كل من جواد علي وحَمَوَر أن اللهجة القرشبة حين قاربت لهجات العرب وقُلصت الفوارق بينها، إنما كانت في الوقت نفسه تقضي على اللغة الحميرية. فهل كانت لانحلال حول اليمن وللغزو الحبشي ساعمة في تغليب لهجة قریش العربية الشمالية، مثلاً كانت هذه العوامل ساعمة في تسليم قيادة التجارة من اليمنين إلى القرشيين؟ إن الدخول في البحث اللغوي ليس من مهام هذا المبحث التاريخي. لكنه لا يبع الباحث إلا أن يلاحظ توازي المصارين. ففي نقوش المسند التي نُقِشت في اليهود القرية من ظهور الإسلام مثلاً انحلت أوزان الأسماء الحميرية القديمة المركبة التي كانت سائدة قبل الميلاد وبمعد. وأحلت الأسماء تُسم بِسماط أقرب إلى الأوزان العربية. لما في داخل الجزيرة العربية، فأحلت تنحصر فترات كثيرة في لهجات القبائل، مثل عنزة تميم وكثكنة ربيعة وتَضَمُّع قيس وتلثة بهراء وصيرفة غبة وضعفة لقصاعة، وتفسرها في دلسان العرب. ولقد كانت أسواق العرب، وحكايا على الخصوص، المصفاة التي نَقَت اللهجات من الشوائب، والمجمع الذي اجتمعت

(١) German: op. cit., pp. 267, 268

عنده المفردات، والخُكم الذي أخذ يتخبط ويتلوى أرقى اللفظ والتعبير، حتى قال قتادة بن دعامة السدوسي: كانت قریش تجني أفضل لغات العرب حتى خلدت لغتها أفضل اللغات واللهجات فترز القرآن بها. ولو أتبع كل شاعر أو خطيب لهجة قومه ولغة قبيلة وحدها لم يجد من يستحسنها غيرهم وولفت عن الشهرة ولم تروها القبائل العربية الأخرى، فبقوته بذلك الافتخار بها^(١).

هـ - آثار الإهلال الاجتماعية

ومثلما تحتاج آثار الإهلال اللغوية إلى دراسات لغوية خاصة لا يمكن أن يُبنى عنها باب في محبث يحتفل بأمر أهم، كذلك آثار الإهلال الاجتماعية. لكن إغفال هذه الآثار تماماً قد يورعهم بغفلة الباحث عنها، وليست تلك هي الحال. وحسب المبحث أن يذكر هذه الآثار ويشير إليها ببعض التحليل، ولفت النظر إلى ضرورة انصراف الباحثين في التاريخ الاجتماعي إلى التعمق فيها، حتى يتعمق فهم العرب لعاضيتهم الاجتماعي، ضمن محاولات فهم عاضيتهم على كل صعيد.

إن أوضح آثار الإهلال الاجتماعية قد تكون العلاقات التي استحدثها نظام الحُمس بين قریش وبعض القبائل. وهي آثار تبدو أشبه بما يترتب على الحلف القبلي التقليدي. ففي خبر البلاذري في أنسابه عن حروب الفجار، رواية قتل البراء حرة الرحال، ثم قول البلاذري: «ولقي [البراء] بشر بن أبي حازم الأسدي الشاعر... وحلوه أن يسبق الخبر إلى قومه [قوم الرحال] فيكتموه ويقتلوا به رجلاً من قریش عظيماً، لأنهم لا يرضون أن يقتلوا به غليظاً من بني ضمرة»^(٢). ويلاحظ في هذا الخبر أن بني كنانة الحُمس، والبراء وبني ضمرة كانوا منهم، متضامنون في التارات مع قریش من جرّاء نظام الحماسة الذي يُقتل فيه قرشي بدلاً من كناني سواء بسواء. وإذا كان الخبر يعني في ظاهره أن

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد: الإكمال، تحقيق محمد علي الحرالي، ج ١، ص ١٣ وما بعد. وانظر أيضاً اللسان، مراد كس وكش وصرح ونلل. وكذلك جواد علي: ج ١، ص ٩٢. وحقوق: المرحع السابق، ص ١١٤ - ١١٩.

(٢) البلاذري: الأنساب...، تحقيق عبدالله، ص ١٠٠، ١٠١.

بين الكنانين والقرشين حلفاً تقليدياً كالذي بين أي حلين قبلين، فالتسابق فيه يظهر أن هذين الحلين لم يكونا متساويين تماماً في المكانة ضمن التحالف. ذلك أن البراض أراد أن تُنذر قريش، حتى لا يُقتل رجل من عظمائها، بدلاً من قتله هو الصعلوك الخليع من بني ضمرة. وإذا بدا هذا ضرباً من ضروب الكتاب المسلمين في معظمهم لقريش إكراماً للنبي، فثمة ما يبين أن قريشاً كانت فعلاً تحتل مكانة الشرف بين القبائل العربية قبل الإسلام. ففي السيرة يقول ابن هشام: «قال كعب بن الأشرف وكان رجلاً من طيء... حين بلغه الخبر [عن موقعة بدر]: أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء... هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس»^(١). إن قول كاتب سيرة النبي هذا القول في قريش وهم على شريكهم وفي موقعة كان خصمهم فيها النبي، يعني أي شك في صحة القول إن شرف قريش على باقي العرب كان سابقاً للإسلام. وقد ذكر الجاحظ أن الإسلام لما ظهر، «لم تكن هناك أمة امرأة قرشية كانت مسيئة عند غير قريش، ولم تكن هناك أمة امرأة مسيئة في أيدي القبائل وأما من قريش»^(٢).

وقد توسع مفهوم التقدم على باقي العرب فشمّل مع قريش سائر الحمير. فصار أي زواج بين قرشية ورجل من سائر القبائل ينجب حُماً جديداً. ونسل هؤلاء الحمير الجدد كانوا يُعتلون حُماً أيضاً^(٣). ولما تعاضت نفوذ قريش وتطور نظام العمارة أصبح الكنانيون أنفسهم يستغلّون أن تُسى منهم امرأة. ففي «نشوة الطرب» أن عروة بن الورد العبي وأصاب امرأة من بني كنانة بكراً يُقال لها سليبي وتكنى أم وهب فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له الأولاد وهو لا يشك أنها من لُحُب الناس فيه، وهي تقول: لو حبيبت فأُتِر على أهلي فأراهم. فخرج بها واتى مكة، ثم أتى المدينة، فأتت سليبي قومها، وقالت إنه خارج قبل أن تخرج الأشهر الحرم فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة بالنسب صحيحة الحسب سبيّة

(١) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٤٢٦.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ٣٦٥. عن كسّار عن مخطوطة الجاحظ غير منشورة.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٣٧٧.

واختلوني منه، فإنه يظن أنني لا أفكره ولا اختار عليه أحداً... إلى آخر القصة، حتى اقتدما قووماً وهزمت على مفارقة زوجها. ويقول الأندلسي: «ثم فارقته، فتزوجها ابن عم لها، فظال لها يوماً: يا سَلَمُ، أنني عليّ كما أُنْتُت على عروة لطالت: لا تكلفني ذلك، فإني إن قُلْتُ الحق غضبت، ولا - لا واللآت والغزى - أكلمب عليك!»^(١). فإذا استطقنا هذا الخبر، فإن كرامة أن تُسَى امرأة من القبيلة هي كرامة عامة لدى جميع القبائل ولا شك. وليس من قبيلة تستحسن أن تُسَى نسلها. أما في هذا الخبر فإن المرأة السبية كانت أرغب الناس في زوجها، على نحو ما تبين، وهذا يفرّج الشك في أن كنانة، فوق كرامة السبي، كانت ترى نفسها في مرتبة أشرف من أن تقبل بالسبي. وكانت هذه المرتبة هي مرتبة الحمى.

على أن ثقة قرش وأحلافها وأحسانها بتقديمهم في الشرف، لم تُغفّر بالقهادات المكنة إلى سلوك المرأة الاجتماعية. وكانت مصلحة قرش المالية والتجارية تقتضي تشيخ علاقاتها بالقبائل. وقد قال لامس إن أفضل وأدق اليهود مع القبائل ما كانت تستطيع أن تحمي القوافل المكنة من الغارات. وكان المكنون يستمرون قسماً كبيراً من رأس مالهم بفائدة في الطائف أو يهرب أو عند زعماء القبائل البدوية. وكان الباقي مستخراً في النجوة أو المناجم. وكانت مناجم الذهب والفضة آنذاك لا تزال غنية جداً، ودخلها عظيماً على رغم الوسائل البدائية المستخدمة في استغلالها. وكانت المناجم في مهاب القبائل، فكان على الفرشين أن يتظاهروا مع زعمائها. ولذا أصبحت العائلات المكنة المقنطرة في القبائل أو صابرتها، فكانت هذه المصاعبات المتبادلة لسبباً لا تتطرح، شلت القبائل إلى الدوران في أفلاك مكة وتعاونتها ومعالجتها^(٢). وكان الفرشون بشرطون على من يصور لهم أن يتسبب إليهم، من طريق نظام الحملة، ويرون ألا يجوز زواج من قرشية حتى يدين زوجها إليهم ويتبع مبادئهم. ولم يكن أبناء

(١) الأندلسي: نفوس... ص ٥٢٦، ٥٢٧.

(٢) Lamour: Les Grandes Fortunes... p 24 (٧)

القبائل الأخرى يمتنون أفضل من ذلك لتعاطف صيت قرش في العرب^(١).
وتدخل أمانتي الأصفهاني بحولت تروي الكثير عن العلاقات بين المكيين وسائر
العرب. وهي علاقات لم تنحصر في المصالح أو جوار مكة، بل كانت تمتد حتى
الحيرة على الأقل. ولم تكن نادرة. فيقول الأصفهاني مثلاً في سطر ابن أبي
عمروين أمية، إن له شعراً ليس بالكثير، «والآيات التي فيها الفناء يقولها في
هند بنت حبة وكان يهواها. فخطبها إلى أبيها بعد فراقها الفاكه بن المغيرة، فلم
ترض ثروته وماله. فوفد على النعمان يستعنه على امره ثم علقه. ويقول في
رواية أخرى: «وفخرج حتى أتى الحيرة، فأتى عمروين عند فكان يتلوه. وأقبل
أبو صفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها»^(٢).

ونعلم الكثير من وفود النابتة المياني على النعمان وعلى بني جيلة
الفساسة، ثم اعتداده شعراً للنعمان، ونعلم الكثير عن اختلاف امرئ القيس
إلى شمال الجزيرة العربية وجنوبها، وعن عمرو بن كلثوم ووفوده على الحيرة
ولقته مع عمرو بن هند. وتلك إن هي إلا ما بقي لنا بفضل الشعر. وليس فيها
ما يتعلق مباشرة بعلاقات مكة الاجتماعية بالعرب كافة. لكن هذا النشاط
الاجتماعي العربي العام في الجزيرة وعبرها، نموذج لما كانت عليه العلاقات
الاجتماعية التي لم يَسْرُ لها أن يتخللها شعرة بسبب طبيعتها التجارية أو المالية
أو السياسية^(٣). وكان محورها إيلاف قرش وتوافلها، ورحلة الشتاء والصيف وما
كان من أمر المواسم. وقد تعاطفت هذه العلاقات الاجتماعية بفضل المواصلات
التجارية والمصالح المشتركة، حتى أصبحت للعرب قيم غلظة واجتماعية
متشابهة، وأضحى المنح واللم في الشعر على مرأى من جميع العرب. ولدى
الإحساس بالوقوف على مسرح مشترك أمام جمهور مشترك إلى تحت معايير
ومفاهيم موحدة في السلوك الاجتماعي^(٤).

(١) الأزرلي: ج ١، ص ١٢٣. وانظر أيضاً الشريف: المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٢) الأغاني، ج ٩، ص ٥٠.

(٣) الأغاني، ج ١١، ص ٤، ١٩، ٥٣.

(٤) Van Grunbeem: op. cit., p. 19.

وتناول مونتغمري - وات آثار الإبلان الاجتماعية من زاوية مختلفة، تتعلق بسلوك الفرد حيال الجماعة، بعد تراكم الثروات التجارية. فبالإنعاش في الصحراء في المعتاد شديد القوة، إذ إن الطعام والماء نادران، والقبيلة التي لا تُعطر أرضها تضمحل. وبدأ النفرة يحتم الصراع على الموارد المتوفرة، فصبح الغزو والقتال سلوكاً يومياً ضرورياً. ولا يعود البقاء ممكناً إلا إذا تمتعت زعامات القبيلة بصفات الامتياز البشري في الحرب والقيادة وسياسة الرجال وجهه الصليب. ولكن في مقابل الحرص الشديد على أبناء القبيلة، في نظام المصيبة والثأر لضمان نوع من الدفاع المشترك، كان أبناء القبائل الأخرى بمثابة أسياء في أحسن حال، وأغصام في معظم الأحوال. ولذا كانت مصيبة القبيلة، أي تضامن القوم على أساس النسب، هو مبدأ الضمان الاجتماعي والأمن العام.

وقد تبدل هذا مع تعاظم مساحة التجارة في المجتمع البدوي. فالتجارة أحتلت ولرة في الثروات الشخصية، وحفزت الأفراد على امتلاك الأرض والبهوت والكروم. وفي مثل هذه الظروف يحنح الناس إلى السلوك الفردي، وتتهاوت مشاعر التضامن الجماعي والمصيبة القبلية، في بحث كل من مصلحة الخاصة. وكانت لزعامات القبائل امتيازات، منها ربح الختام في الغزوات والحروب. لكن على الزعامات في المقابل تبعت كان منها أداء عدد من المهام نيابة عن القبيلة، والقيام على واجب الضيافة وإعانة لقراء القوم على عيشهم. ومع أن زعماء البطون القرشية أقاموا ثروتهم في المبدأ، على زعامتهم للبطون، بانقسامهم الوظائف المكثبة وتنظيمهم القوافل والمواسم والحج، إلا أنهم انحسروا فيما بعد يُعرضون عن التقليد البدوي والملكية الجماعية، ويهيمون لأنفسهم وورثتهم المباشرين من بعدهم. وإذا اضطرب مبدأ الوراثة، كان كثيراً ما يستولي الأقرباء من زعماء القبيلة أو البطن على الميراث، فيحرمون الورثة والمحتاجين من القبيلة على حد سواء. وقد شهد على حدة النزوع الفردي هذا، القرآن الكريم فيما لا يحصى من آيات تحث على الإحسان إلى الأرحام والناس وعلى منع استيلاء الأقرباء على الموارث وتنظيم التضامن بين الورثة الشرعيين. وقد جاءت هذه النظم مع إقرار القرآن الكريم الملكية الفردية. فالإسلام في نظامه

الاجتماعي اعتمد المسؤولية الفردية، التي يحاسب فيها كل امرئ على فعالة، ولا يأخذ بجزيرة قريب أو نسب. ونظام المسؤولية الفردية هذا يناقض، مثلاً أسلفنا في باب: مكة والتوحيد الديني، نظم المصيبة القبلية الذي كانت تحاسب فيه القبيلة كوحدة اجتماعية مسؤولة عن فعالة أفرادها. وقد لمس مونتغمري - وات هذا التطور بين حسن الانتماء إلى المصيبة القبلية وحسن الانفراد والملكية الخاصة والمسؤولية الشخصية، وقال إن نظم القبيلة كان لا يزال قريباً في بعض المظاهر، لكن البدوي في مظاهر أخرى صار لا يتردد في الإعراض عن مقتضيات صلة القرابة والنسب. وكان هذا التطور الاجتماعي في المبدأ نتيجة للحياة التجارية وتعاطف مكانة المصالح العالية التي أدخلت تملي على البدوي من يشارك ومن يصاهر^(١). ولاحظ فون غرونيوم هذا التنظي في أساس الانتماء القبلي، لكن هذا التنظي لم يفت مجتمع الجزيرة العربية على ما يمكن توقعه، بل على نقيض ذلك، مهد لوحدة اجتماعية متعاظمة، قامت في رأيه على نظرية مشتركة وضمت جميع العرب (والمزدوجات من عند فون غرونيوم) ضمن العالم الاجتماعي ذاته. وكان الاشتراك في الخاط المثل البشرية العليا، والموقف الموحد حيال مهمة الفرد ضمن المجتمع، والقلق المشترك في صدد أحوال الناس، روابط وحدثهم على أسس جديدة^(٢).

- و- آثار الإلحاق السياسية

ارتأى فون غرونيوم أن حسن الانتماء السياسي إلى العرب كان أصلاً متركزاً في القبائل العربية. ولم تستطع أحلافها القصيرة العهد وتقاتلها الأزلي، أن تزيل حسن الانتماء هذا. وإذا كانت الوحدة تفترض الثقافة الواحدة مقرونة بالبيئة الاجتماعية والسياسة الموحدة، فإن مفهوم الوحدة الثقافية التي تسبق الوحدة

(١) Montgomery-Watt: Economic..., pp. 91 - 92 وكذلك: Mohammed at Mecca...

pp. 16 ff, 72. وأنظر: Rodinson: op.cit., p. 36 ff. وتحدث يهون كذلك عن ظهور الشعور

الفردى بسبب التجارة. يهون: الحجاز... ص ٨٩، ٩٠. وقد نتج بلاتول إلى هذا الشأن

وعالجه معالجة جيدة Planhol, p. 28

(٢) Von Grönebaum: op.cit., pp. 16, 17

السياسة، كان في العموم قائماً إلى حد كبير بين قبائل العرب قبل الإسلام^(١). وقد لاحظ فون غرونبوم أن وحدة الثقافة والمجتمع كانت في الحقيقة أشد وأقوى مما توحيه المصادر. والفضل في نشوء هذه الوحدة لكان مدن الحجاز اللذين وحدوا نسباً شمال غرب الجزيرة في منطقة التصادية، فساهمت هذه بدورها في تجميع القبائل ضمن إطار ثقافي موحد. وكانت القوافل التي وصلت أقصى جنوب الجزيرة بالشام ومصر، والبحر الأحمر بالعراق، تحتاج إلى مستقرات في المدن والواحات، تستخدمها محطات، إن لم تكن هذه المستقرات هي نفسها مراكز هذه القوافل، لا محطاتها فقط. وكانت مكة مخزناً ومحطة أخيرة لتجارة القوافل هذه. ولهما كان الاتصال والاجتماع في عكاظ وغيرها من المواسم، عوامل خطيرة في تطوير حس الوحدة، فإن تشابه النمط الاقتصادي أدى فعلة أيضاً في ذلك. ولم يكن للفروق بين رعاة الإبل ورعاة الغنم وغيرها، أن تنشئ فروقاً أساسية في حس الانتماء هذا. فعلى رغم بعض الأنماط المعزولة، مثل تربية النحل في هُذيل، كان النشاط الاقتصادي عند القبائل ووثيرة عيشها متشابهين في الأساس^(٢). وقال فون غرونبوم إنه لم تكن لدى العرب قبل الإسلام «فلسفة سياسية واحدة تستقطب ضمائرهم وأعمالهم حول غرض ورمز». لكن مفهوم لفظة «العرب» ومضمونها كانا أشبه بالضمير الجماعي الذي يصعب تعريفه على الرغم من أنه كان كائناً لإنماء الحس القومي المشترك. ذلك ما يستتج من قولهم في امرأة مثلاً: «إنها والله عربية اللسان وقلوبها أعرب منها». وقد أحصى وجوه استخدام كلمة العرب، قبل الإسلام على النحو التالي:

- في تصنيف جماعة من القبائل، مثل قولهم: «نميم أغلظ العرب وأجفاهاء، أو في وصف جماعة بصفة يمتازون بها مثل قولهم: «دعاة العرب» و«حملى العرب»، وما إلى ذلك.

(١) يشير فون غرونبوم إلى فكرة مايبكه الذي يرى أن وحدة الثقافة أو ما يسميه «والة الثقافة» (Kulturzone)، تسبق وحدة الدولة، أو ما يسميه «والة الدولة الواحدة» (Staatszone).

(2) فون غرونبوم: op cit., pp 6, 7.

(٢) فون غرونبوم: op cit., pp. 6, 7, 17.

- في ذكر عادة من العادات التي أجمعت عليها القبائل، مثل قولهم: «إن العرب كانت تترجع في قضاياها المشككة إلى حكمها عامر بن الظرب»، أو مثل قولهم: «والعرب نسبي الأمة فرقتي».

- في الحكم على شاعر أو رجل من رجالاتها أو حكم من حكمائها، مثل قولهم: «كان الأفره الأودي واحداً من حكماء العرب»، أو مثل قولهم: «كان الشاعر المخضرم سويد بن أبي كاهل من أفضل شعراء العرب». وفي شيوخ شعر أو حكماء بين سائر القبائل بفضل قصة مشهورة، مثل قولهم: «ودعيت مثلاً عند العرب».

- في اتخاذهم لإجماع القبائل على أمر ما، نوعاً من الضمير الجماعي أو المحكمة الخلقية أو المعيار في قياس الخير والشر والفضة والشرف، وما شابه ذلك من فهم ومثل، وذلك في مثل قولهم: «واعظمت العرب قريشاً» أو قولهم: «والعرب لا تفعل هذا» وتستجبه. ومضى فون غرونباوم إلى القول: «وبذلك بدأ العرب مجموعة واسعة من الناس غامضة التعريف لها ذكريات تاريخية وسياسية مشتركة، وقد تحولت على الخصوص إلى جمهور يتعين على الفرد وعلى القبيلة أن يؤدوا أمامه أداء جيداً، وكأنهما أمام محكمة دائمة»^(١).

وإذا لاحظ أن لفظة العرب قلما ظهرت في الشعر العربي الجاهلي، مر مرور الكرام بما قال إنه استثناء في النفاضة، حيث استخدمت لفظة العرب للتمييز بين العرب والفرس في وقعة ذي قار^(٢). إن أدب العرب الجاهلي فريد بين آداب الأمم في أنه في معظمه أدب تخاطب ومساجلة. وذلك هو الحال على الأقل في المدح والذم والتفاخر. وقلما نجد أمماً يحتل التخاطب بين القبائل أو الوحدات

(١) التوحيد في البصائر والذخائر، استشهد فون غرونباوم: Von Gräbebaum: op.cit., pp. 20 - 23.

لهذه الوجهة في استخدام لفظة عرب ولجج ابن منظور: اللسان، مادة عرب.

والأندلسي: نشوة... ص ٧٩، ٥٩١، ٦٩٣، ٧١٤. والأخشي: ج ٥، ص ١١٨. وكذلك

الأزرقي: ج ١، ص ١٢٢، ١٢٤.

(٢) Von Gräbebaum: ibid., p. 20.

الاجتماعية هذا النصب من لديها. والتخاطب في داخل أسرة واحدة لا يمكن أن يستلزم اسم الأسرة. فلا يعود هذا الاسم ضرورياً إلا حين التخاطب أو التعاطي خارج الأسرة. وإذا كانت لفظة العرب قد ندرت في مواضع وظهرت في مواضع، فلأنها ندرت في التعاطي بين قائل العرب والتخاطب فيما بينها، وهو معظم آداب عرب الجاهلية، ثم ظهرت حين دخل الفرس في إطار الموضوع. وقد كانت للعرب نظفة فلسفة سياسية واحدة استقطبت ضمائرهم وأعمالهم حول غرض ورمزه، وهي النظفة التي نشأت حول مكة فقاتلت القبائل أربعة ملاماً عنها. وظهرت هذه النظفة كذلك في التأيد الذي أبداه النبي حين وقعة ذي قار. لكن هذه النظفة التي بدأت تتكون حين أخذت مكة تهي دورها النوحيني في العرب، لم تولد ولادة شرعية كاملة إلا بظهور الإسلام. فجاء الإسلام: ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (النحل: ٧٧) أي ليست حاجة البشر إلى عطفة دينية وسياسية واجتماعية تستقطب ضمائرهم وأعمالهم حول غرض ورمزه. فتخرج نزوعهم إلى رفض غزو أبرهة وسيطرة كسرى، وإلى بناء وحدتهم على دستور جديد، وتخرج توليهم إلى الهوى بمشروعهم المستقل المعبر عن حاجاتهم وغير مجتمعهم. ولم يكن قبولهم للإسلام، إلا دليلاً على هذا النزوع، الذي ظل عقوداً طويلة يعتمل بأحاسيس وتاملات غامضين، وتنتظر ظهور قيادة المشروع المستقل في مكان ما من أمة العرب.

الخاتمة

أ - النبي والقوافل قریش

حاولت هذه الدراسة أن تبين كيف ولد الإيلاف، وكيف نما وزدهر ونشأت من حوله المؤسسات، وتعاظمت آثاره الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فكيف مات الإيلاف ولماذا؟

لقد مات الإيلاف على مرحلتين، فالمرحلة الأولى كانت مرحلة غزوات المسلمين للقوافل قریش في السنوات الأولى للهجرة. إذ ارتأى النبي بعد تنظيمه جيش المسلمين في المدينة، واستمرار مكة على الشرك وعدائها للمسلمين، أن أعظم نقاط ضعف قریش هي تجارتهم، وهي حتماً أشد المواقف إلحاحاً لهم، إذا ضريت. فنظم المسلمون غزوات حول مكة وعلى طرق تجارتها، ترقى إلى مستوى الحصار الفارزي. وبث النبي شبكة من العيون تنسقب له أخبار القوافل وحركة المشركين. وأخذ المسلمون يتعرضون كل قافلة ويسرون التجار والأدلاء والخفراء ويغزون القبائل التي اشتبه في تعاطفها مع قریش. وما لبث المكيون أن توقفوا مكرهم عن الاتجار في الشام وأغلوا يحنون عن مخارج لازمتهم دفاعاً عن مصالحهم الهائلة، وما لبث أحوالهم أن شارفت على الإفلاس، فاشتكى بعضهم من أنهم أغلوا يأكلون أموالهم، أي ينفقون من رأس المال^(١).

(١) خصص دوتر ملاحظتين لذلك أن النبي اعتمد على المنصوص بغرب طرق التجارة القرشية.

Donner, Fred. M.: *Mohammed's Political Consolidation in Arabia up to the Conquest of*

Donner, Fred. M., *Muslim World*, vol. LXX, No. 6 (1977), pp. 229 - 247

McGraw: *Memo's Food Supplies and Mohammed's Boycott*, JESERO, vol. XX, part III,

Leaman: *op.cit.*, pp. 249 - 266. انظر كذلك الوائلي: *المحاذي*، ص ١٩٧. ونظر أيضاً

pp. 25, 28, 29

إن إحصاء الغزوات الأولى يندّ بوضوح على أن الغرض الأول لهجمات المسلمين كان محاصرة التجارة المكيّة وضرب خطوطها. وهو عمل سياسي على أعلى مستوى، ولا يصح الانتباه لي أنه لا يخرج عن كونه عمل ارتزاق، على نحو ما قد يوحي بعض المستشرقين.

- غزوة ودان هي أول غزوات الرسول. قال ابن اسحاق: «حتى بلغ ودان وهي غزوة الأبواء يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فوادعته فيها بنو ضمرة»^(١). وبنو ضمرة كان منهم البراء بن الأحصس الكناني الذي كان يقود القوافل، ولذا ربما أراد النبي نفس تحالفهم مع قريش. أما الأبواء فهي في الخريطة ٣٦ والخريطة ٤٥ من الأطلس تاريخ الإسلام، على نحو ٢٠٠ كيلومتر جنوب غرب يثرب.

- وقال ابن هشام: «ويعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه ذلك بالمدينة عبيد بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين وليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز أسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش فلم يكن بينهم قتال». وموقع ثنية المرة في الخريطة ٣٩ من الأطلس المذكور، على نحو ١٥ كيلومتراً شرق يثرب، على خط القوافل إلى الشام.

- سيرة حمزة إلى سيف البحر. قال ابن هشام: «ويعت في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر من ناحية الميصر، في ثلاثين راكباً من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة... فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال». والميصر في الخريطة ٣٢ من الأطلس، على نحو ١٢٠ كيلومتراً جنوب غرب المدينة على شاطئ البحر. والغزوتان المذكورتان قوافل طابع تجاري واضح، وكثرة الفرشين جعلت المسلمين يتجنبون القتال.

(١) فيما يلي من غزوات ومواقع. راجع سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٢٣ - ٢٤٠. ومؤنس: الأطلس تاريخ الإسلام.

- غزوة بواط: هزم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً... حتى بلغ بواط من ناحية رضى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. والموقع شرق المدينة على طريق وادي الحوض، وفق الخريطة ١٥ و ٥٣ في أطلس تاريخ الإسلام.

- غزوة المشيرة: هزم غزا قريشاً... فسلك على نقي بني ديار... حتى نزل المشيرة من بطن بئع. فقام بها... ووافع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً. والموقع المذكور على نحو ١٥٠ كيلومتراً شرق المدينة قرب شاطئ البحر. في الخريطة ٤٠.

- سرية سعد بن أبي وقاص: قال ابن هشام بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم... غزوة سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً. وادي الخرار موضعه على ٢٥٠ كيلومتراً على الطريق إلى مكة. في الخريطة ٣٢.

- سرية عبدالله بن جحش: «وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمقدن فوق الفرج يقال له بهران، أضل سعد بن أبي وقاص وعنه بن غزوان بعيراً لهما، كانا يعتقبانه فتخلفا عليه في طلبه. ومضى عبدالله بن جحش وبقي أصحابه حتى نزل بنخلة [بين مكة والطائف] فمرت به عير لقريش تحمل زيباً ولهما وتجارة من تجارة قريش... وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعمير والأسرى حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة».

إن جميع هذه الغزوات تُفصح عن غرضها أو تُضمره، لأنها جميعاً قصدت قريشاً أو أهلانها أو طرق تجارتها. ولو أراد المسلمون استزاقاً لاستطاعوا أن يغزوا قبائل أقل سلطاناً وسطوة من قريش. ولم تُسجل في سيرة النبي أي غزوة حتى فتح مكة، إلا أتمت بسمة محاصرة تجارة مكة وقطع طرق قوافلها.

وكانت غزوة بدر الكبرى نموذجاً لهذه السياسة التي اعتمدها النبي في المدينة لضرب إلهاف قريش، ومحاصرة تجارة المشركين. فيقول ابن هشام في ذلك: «هزم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مُقبلاً

من الشام في غير قريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتها ولها ثلاثون رجلاً من قريش ثور لربعون، منهم مخزومة بن نوفل بن أمية بن عبد مناف بن زهرة، وعمر بن العاص بن وائل بن هشام... لما صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان قبلاً من الشام فندب المسلمين إليهم وقال هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها، فانتدب الناس لخصم بعضهم وقتل بعضهم... وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استفر أصحابه لك ولعمرك، فحلبو عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعث إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لنا في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريماً إلى مكة^(١)، إلى آخر خبر بدر.

ثم حاولت قريش أن تسلك إلى الشام من طريق العراق، تجنباً لاجتراس المسلمين قوافلها، فسلك أبو سفيان بقود القافلة، شرقاً إلى نجد. وقد جاء في السيرة في هذا: «وسرّة زيد بن حارثة التي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، حين أصاب غير قريش، وفيها أبو سفيان بن حرب، على القردة، ما من مياه نجد، وكان من حديثها أن قريشاً عاثوا طريقهم الذي كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار لهم أبو سفيان بن حرب ومعه لفة كثيرة وهي عظم تجارتهم، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل، يقال له فرات بن حبان يذلهم في ذلك الطريق»^(٢).

ب- من أهلة إلى الحبشة

لقد كان النبي يحرق إبلان قريش معرفة ممتازة، لا في أخراضة الطامة وصراميه الإجمالية، بل في اتفاق تفاصيله. وفي إمكاننا أن نستدل على ذلك استنتاجاً من عمل الرسول في القوافل المكية ونسبها قبل المبعث حين

(١) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٢، ص ٢٢٩.

وأكلت خديجة إليه أمر تجارتها. لكن الاستئاج يضيء بفتحاً بقرينة، حين نطالع ذلك الصمد المدهش الذي أودجه ابن هشام في السورة ضمن خبر غزوة تبوك، سنة تسع للهجرة. يقول ابن هشام: «ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، أنه يُخَنِّ بن ربيعة صاحب أيلة، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأنه أهل جرباء واخترج فاعطوه الجزية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فهو عندهم. فكتب لُحَيَّة بن ربيعة:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذه أُنْتَه من الله ومحمد النبي رسول الله لُحَيَّة بن ربيعة وأهل أيلة، سفنهم وسيلوتهم في البر والبحر: لهم فعة الله وفعة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يُسَمُوا ماء يردونه، ولا طريقاً يردونه من يراو بحر^(١).

إن هذا النص يدل دلالة قاطعة لا شك فيها، على أن الرسول بعدما أُنْتُحت مكة، كان يسعى إلى مد سلطان المسلمين إلى جميع عناصر إيلاف قريش، وكانت أعظم تجارتها ما كانت تسيره من اليمن إلى الشام عبر مكة وأيلة، على نحو ما يتبين في حقه. وكان الرسول يعرف جوهر أدوات الإيلاف وطرقه، وإلا لما معنى ذكر أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر والسفن والقوافل معاً، في معاهدة عُقدت مع سكان مدينة في جنوبي فلسطين. بل ممة ما يدعو إلى الاعتقاد أن الرسول حاول إنشاء تجارة مع بيزنطة، إذ يقول ابن هشام في موضع آخر، في معرض خبر غزوة زيد بن حارثة إلى جُذَام: «لم يلبث أن قدم دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر صاحب الروم، حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ومعه تجارة له^(٢)». ومن السذاجة بمكان أن نظن أن الرسول أوفد مبعوثاً إلى

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ١٨٠، ١٨١. وانظر الطبري: إنتاج الأساطير، ج ١، ص ٥٦٨. وكذلك: محمد الله، محمد: مجبورة التوافق السياسية للمهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٢٨٥.

فبصر بتجارة من أجل كسب تحاري. وقد ارتأى يعضون أن النبي حاول أن يفتك ارتباط حرب الشام ببيزنطة. ولا مفر كذلك من الاشتباه في أن المسمى كان يرمي إلى إبدال عهد رومي مع المسلمين من عهد الإيلاف الذي كان معهوداً مع قريش. ولا تنفي غزوة تبوك التي كانت بأيدي الروم آنذاك^(١) هذا الاحتمال، لسببين: أولهما أن الحرب بين المسلمين والروم في شمالي الجزيرة وجنوبي فلسطين لا تنفي التفاوض السياسي، بل قد ترخّج حدوثه. والثاني أن النبي كان يعرف بحسّه السياسي ولا شك، أن حاجة بيزنطة إليه في هذه المنطقة الحساسة على طرق التجارة، أشد من حاجته إليها، خصوصاً وأن ذكرى تدفق جيوش الفرس على الشام قبل سنوات، لم تكن بعد قد تلاشى أثرها وطعمها المرّ في البلاط البيزنطي.

ولم يكتفِ النبي على ما يبدو بمحاولة السيطرة على إيلاف قريش من الشمال، بل قد تكون إحدى نتائج الودة بين المسلمين الأوائل والأجاش، أن الرسول فكّر في قطع طرق التجارة الحثيّة مع مكة قبل فتحها. وقد بدأت مظاهر هذا الودة قبل الهجرة. يقول ابن هشام: «ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بسجّة، عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك، من النصارى حين بلغهم خبره، من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أئذيتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عتّا أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن غاضت أمهم من الدمع، ثم استجابوا لله وأمنوا به وصدّقوه وعرّفوا به ما كان يُوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقال لهم: غيبيكم الله من وكن! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بشبر الرجل. فلم تطعن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصنّفتموه بما

(١) سورة ابن هشام: ج ٤، ص ١٨٠. والروم هنا هم الروم الأسفرو. ويعضون: الأصغر والرسول، ص ٩٧، ٩٠.

قاله^(١)، وأبر جهل هو من هو في المشركين، ولكنه أيضاً من واصله قوافل قریش وكبار تجارها من مخزوم. وقد لا يخلو حقه على الأحباش الذين صدقوا النبي، من الجزع على احتمال تضرر التجارة القرشية من ميل الأحباش إلى المسلمين. وقد ظهر هذا الجزع بوضوح حين أوفدت قریش إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة والد الشاعر عمر، وعمرو بن العاص ليكلموه في أمر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. وقصة محاولة عبد الله وعمرو، وكان لا يزال مشركاً، نال لب النجاشي على المسلمين معروفة في المصادر^(٢). ولا يمكن فهمها إلا إذا افترضنا أن المسلمين حاولوا وقف التجارة الحبشية مع مكة. إذ كانت لدى النجاشي كل الأسباب السياسية المقبولة للنظر بعطف في محاولة المسلمين. فالحبشة لم تنس بعد فشلها في اليمن وخروجها صفر اليمين من جزيرة العرب. فإذا قام في مكة حكم على صلة جيدة مع مملكة الأحباش، فقد يرى النجاشي في ذلك تعزية وتميضاً، خصوصاً إذا كان أصحاب العقيدة الجديدة يحملون السبب المسيح وأمه مريم، على ما تبين. لقد تبين موتشمري - وات لهذا الاحتمال وبالغ في تعظيم احتمالاته حتى افترض إمكان طلب النبي عوناً عسكرياً من الحبشة. كانت بيزنطة قبل الهجرة إلى يثرب، زمن الهجرة الأولى إلى الحبشة، في وضع عسكري سيء. بعدما استولى الفرس على القدس واجتاحوا الشام وفلسطين ومصر في العقد الثاني من القرن السابع. ولا شك في أن بيزنطة كانت تتحى أن ترى جيشاً حليفاً هو جيش النجاشي في مكة، لفتح جبهة جديدة للجيش الفارسي. لكن هذا الاحتمال يتجاهل موقف النبي من هذا الأمر. فالنبي في تلك المرحلة المبكرة من الدعوة كان يسعى إلى مضايقه المتكئين ومحاصرة تجارهم على الأرجح من الجنوب، مثلما فعل فيما بعد من الشمال، بعد استقراره في يثرب. لكن شيئاً لا يبيح لنا استنتاج ما استنتجه موتشمري - وات، أن الرسول، الذي ابتهج ولانصاف العرب من الفرس في

(١) ابن هشام: سيرة النبي، طبعه طه عبد الرؤوف سعد، ج ٢، ص ٢٨، ٢٩. ولم نعرف على هذا النص في طبعه محمد محي الدين عبد الحميد.

(٢) سيرة ابن هشام: ج ١، ص ٣٥٦ - ٣٦١.

في قاره، وبعت البعوث لتحرير نيوك وغيرها من أيدي البيزنطيين، كان يمكن أن يطلب من الأبحاش أن يرسلوا جيوشهم إلى الجزيرة العربية لمساعدوه على المشركين^(١).

لقد وصف القرآن الكريم إرسال جيش حشبي إلى مكة بأنه «كبد» ضلله الله، وذلك في قوله: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ • أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ» (الفيل: ١-٢). وسورة الفيل من السور المكية المبكرة. فكيف يستنى الحال هذه قبول مقالة مونتغمري - وات؟ وكيف يمكن أن تتخيل موقف المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وعينهم على سورة الفيل، والعين الأخرى على أمر من الرسول أن يطلبوا غزواً حشياً آخر لمكة؟

ج - الإيلاف والإسلام والوحدة

مات الإيلاف على مرحلتين. مات أولاً بفعل سياسي وعسكري نظم الرسول من يثرب. لا لأن الإسلام كره الإيلاف. فالقرآن الكريم دعا المشركين إلى عبادة رب البيت، لشكره على الإيلاف الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. ذلك في قوله: «إِيَّاكَ نَعْتَصِلُ • وَإِلَهُنَّ خَلَقْنَا وَالشَّعَاءُ وَالصَّيْبُ • فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ» (قرش: ١-٣). وقد بينا فيما مضى جانباً من آثار الإيلاف في تكوين نطفة أخلت نموها العوامل الاقتصادية والدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي حثت لمرص توحيد القبائل العربية في مشرك، كانت تقصه العقيدة الدينية والفائدة الدستورية والسياسية. وليس من شك في أن جوهر الفكر الحديد الذي جاء به الإسلام أهد هذا الاتجاه إلى الوحدة الدينية والاجتماعية والسياسية، أولاً بتعطيه الأصنام القبلية ودعوته إلى عبادة الله الذي لا إله إلا هو، ثم بإنشائه عقداً اجتماعياً جديداً يتجاوز حدود العصبة القبلية، ليحمل الأمة الإسلامية جسماً واحداً لا تدخله حدود كيانات قبلية صغيرة ذات صفة دستورية، فانتقلت حريرة العرب من كونها مجموعة

(١) Montgomery-Watt: Mohammed at Mecca ... pp 114, 115 واستند دوتر أن يكون لمرسل

القبائل العربية في ذي قار عفرى سياسياً عبقلي. انظر 28. Dinner: The Role of W.T.G.

وحدات قبلية مستقلة، إلى دولة فوق هذه الوحدات. وهذا التطور الذي جاء به الإسلام لم يناقش قطعاً البلور التوحيدية التي نشأت من حول الإيلاف. لكن دولة المسلمين الناشئة في المدينة، في حربها على المشركين في مكة أضارت إلى ضرب السلطة المكيّة في أنطر شريانات دهما: الإيلاف. وكان متظراً أن تعاود الدولة الإسلامية بعد فتح مكة تنظيم هذا الإيلاف وإحياءه، فلم يحدث ذلك، لأن الإيلاف كان محكوماً عليه بالموت في مرحلة ثانية، من جراء انتفاء الحاجة إليه^(١).

لإيلاف على نحو ما تبين في هذا المبحث هو، في أساسه وفرضه الأولين، عقود مع ملوك الأطراف للسماح للمكيين بتسيير تجارة الشرق في أسواقهم. وبعهود مع زعماء القبائل على طرق القوافل المكية لإشراكهم في التجارة في هذا الشكل لو ذلك، حماية لهذه القوافل. فلما جاء الإسلام وفتحت بلاد الشام وبلاد السواد وأسلم البسنيون، لم يعد للمعهود مع زعماء القبائل العربية من معنى، لأن قوافل المسلمين شتتت من بعد في ديار مسلمين، فأنتت بحماية قانون الدولة الإسلامية، لا بموجب عهود هنا وهناك. أما ملوك الأطراف فأنتهى أمر الحاجة إلى عقودهم واحداً بعد الآخر فانهلوت دولة الساسانيين ودخل الإسلام بلاد فارس، وانقضت دولة الأبناء المؤيدة للفرس في اليمن، وأضيفت عمان والبحرين وكل شواطئ الجزيرة العربية إلى الفتوح الإسلامية. ثم أجلى البيزنطيون عن بلاد الشام وعن مصر. ومكثت بيزنطة ترقب البندل المذهل وقد أسقط في يدها، ولم يعد من ندسة أملها سوى القبول بشروط العرب في تجارة الشرق، حتى اكتشف الغرب رأس الرجاء الصالح.

لقد كانت الحركة إلى الوحدة هي الحركة السياسية التي حققها الإسلام وتوحيها بعقيدته. وقد بُعث النبي برسالة والناس في شوق إلى هذه الوحدة التي بشرهم بها، بعدما كانت يلدورها ثببت في كل ميادين الحياة العربية المشتركة من حول الإيلاف، دون أن تتمكن غريش من تجاوز النظام القبلي للوصول بالتبذل

(١) Montgomery-Watt: Mohammed at Medina..., pp 297, 298

المستوي إلى مرحلة الأمة الواحدة. إن الإسلام هو الذي أنشأ للعرب والمسلمين دولة وحدتهم. وكانت بشارت التمهيد لذلك قد بدأت تظهر هنا وهناك. ففي رواية المصادر لوقعة ذي طار التي انتصر فيها بنو بكر بن وائل على الفرس، وانحاز بنو إيلاد حلفاء الفرس التقليديون فيها إلى العرب، لا يشعر المرء أنه يقرأ عن حرب تحرير «قومية»، لكن العرب جميعاً أحست في هذه الوقعة أن سلطان الفرس أخذ يهين^(١). ولعل الإسلام وحده كان يستطيع أن يوفق البنية السياسية الفائرة على تحقيق النوازع التي كانت تعتمل في النفوس، وأما البنية القبلية (في كونها وحدة سياسية مستقلة) فكان ينبغي أن تندثر بفعل مبدأ تنظيمي واسع ينشئ سلطة أعلى. «وحشما أخفق الملك نوح الرسول وخلفاءه»^(٢).

إن ما جرى في سنة ٦٢٧ م. على الصعيد السياسي، هو تخلي أسوار القبيلة دون تحطيمها، نحر صيغة اجتماعية أعلى، تمكن من إنشاء كيان سياسي واحد تعيش في إطاره القبائل دونما إحساس بالغبين أو الضغط^(٣). وهذا الكيان السياسي الواحد، فيما نعلم، كان أول دولة ظهرت من عنق جزيرة العرب، فوق حدود القبائل التي ظلت حتى ظهور الإسلام كيانات مستقلة تخضع أحياناً لسلطان ملوك الأطراف، وتسرده أحياناً أخرى.

وإذا كان الإيلاف قد نثر هنا وهناك وهناك بلدوراً لهذه الوحدة التي انتصرت بالإسلام، فإن هذه الوحدة نفسها هي التي أختت العرب عن الإيلاف فالتت إلى موته، تماماً مثلما نخرج الفرائشة إلى الحياة، وتموت الشرفة.

(١) الأندلسي: نقلاً... ص ٦٦٥.

(٢) Von Graebner: op. cit., p. 10.

(٣) السيد: رضوان: جدليات العقل والفعل والتجربة التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، الفكر العربي، العدد ١٥، آذار وأبريل / مايو ويونيو، بيروت، ١٩٨٠، ص ٧٥.

خلاصة واستنتاج

وبعد، لا بد في ختام كل بحث من أن نسأل: هل أتى بجديد، أم اكتفى، مثل كثير مما يكتب، بترداد معلومات معروفة في صياغة جديدة لا تزيدنا معرفة؟

إن كثيراً من مضمون هذه الأطروحة يوحى وكأن ما فيها لا يزيد على تجميع تفاصيل يعرفها الباحثون في التاريخ العربي قبل الإسلام. وهذا صحيح في ظاهره فقط؛ ذلك أن الأطروحة هذه لم تكشف سرّاً كان مكتوناً، ولا اعتدت إلى واقعات تاريخية لم يسبقها إليها أحد من قبل. غير أن تفسير هذه الوقعات هو الجديد، فكانما هي حبات من هنا وهناك، شوهدت من قبل، لكنها لم تجمع في سلكٍ لتشكل مقداً، ولا تجتمع في إطار نظرة كيهل من قبل لتعطىها معنى جديداً، وتفسرها تفسيراً خاصاً ضمن سياق تاريخ مشرقنا العربي الكبير.

لقد كان الإيلاف معروفاً، وقوافل قريش وتجارة التوابل كذلك. وتناول الباحثون حروب بيزنطة والفرس فيما لا يخص من مباحث. وقيل الكثير في صراع الدول على بادية الشام والبحر الأحمر، وكذلك في منحة ومواسم حجبها وأسواقها. لكن أحداً من قبل لم يجمع هذه المسائل جميعاً لتنظّمها في خيط معاً، لاستكشاف حقيقة الموقع الجغرافي - السياسي الذي تحتله جزيرة العرب، في صراع الدول على النفوذ والاقتصاد، وفي المشروع العربي المستقل حيال هذا الوضع الجغرافي - السياسي.

لقد أعاد البحث النظر في تاريخ المنطقة على امتداد زمني كبير، وخصّص المائة سنة التي سبقت الإسلام ببحث مستفيض، ليجيب عن سؤال هو: هل إن المسألة الكبرى في الصراع الدولي على جزيرة العرب، هي محاولة السيطرة

على طرق التجارة بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط؟ ثم كيف تصرف العرب لينظموا بأنفسهم تسيير التجارة الدولية على هذه الطرق، وكيف كان أدلاهم في هذا الشأن حيال الدول الأجنبية وحيال العرب أنفسهم؟

أفليست الإجابة عن هذه التساؤلات ضرورية في لغتنا لتاريخنا والآداء الذي أبداه العرب في مرحلة خطيرة من تاريخهم؟

أفليست الإجابة عن هذه التساؤلات حاجة ماسة في زمن، مثل زمن الإيلاف، يشتد فيه القتال على المطقة، من أجل السيطرة على تجارة الموانئ الاستراتيجية، الآتية من حوض المحيط الهندي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط؟

أوليس مفيداً أن نعرف كيف استطاعت القبائل العربية، في خضم الصراع الدولي على الجزيرة العربية، أن تجمع كلمتها، وتلزم الحياء وتتفق على اقتسام فوائد استثمار الخطوط التجارية التي جعلت الدول الكبرى تنافس فيما بينها؟
أوليس ضرورياً أن ندقق في الأساليب التي اعتمدتها قرش والقبائل العربية لتحسين تحالفها وتعزيز التلاقي حول مشروعها الاقتصادي المشترك، بالعقيدة والمناسك الدينية الموحدة، والمواسم التجارية المتعادلة، والعلاقات الاجتماعية المتعاضدة؟

أفهل يعني هذا أن التاريخ يعاود سيرته الأولى، على ما يقال؟
لا ليس هذا ما يسعى إليه هذا المبحث، ولا هذا ما يدعوه. لكن مبادئ الجغرافيا السياسية لا تزال ثابتة في الجزيرة العربية وجوارها. وما دامت الجغرافيا السياسية على حالها، ورغم ابتعاد الشقة بين زمننا هذا وزمن الإيلاف، يظل احتمال الاستفادة الدرس والمبرة قائماً.

وقد حاولت الأطروحة أن تُلغ هذا الغرض، وعسى أن نكون قد أصابت بتوفيق من الله.

الملحق

هل سَيرت مكة قوافل تجارة دولية؟

قد يبدو هذا العنوان غريباً، في ذيل دراسة غرضها تفصيل معرفة مختلف نواحي التجارة الدولية التي نظمتها قريش عبر قوافلها بموجب عهود الإبلان. إن مسرّع هذا العنوان هو أن الباحثين غير متفقين على أن بعض تجارة قريش كانت دولية. وينفي كتاب باتريسيا كرون: تجارة مكة وظهور الإسلام^(١)، أن تكون قريش قد تعاطت التجارة الدولية أصلاً، بل ينفي أن يكون العرب قد حجّوا إلى مكة قبل الإسلام. وقد أحدث كتاب كرون ضجيجاً في مجتمع الباحثين في تاريخ العرب قبل الإسلام، فكتب في نقده مقالات عديدة، منها مقالة لريتشارد بوليت^(٢). ولو نفت كرون في كتابها مبحث الرسول أو ظهور الإسلام، لضمنت ولا شك إحداث ضجيج أقوى. لكن مشكلة كتاب كرون هو أنه يضمن، بمقالته المتطرفة، ألا يتخذ مرجعاً جدياً في الدراسات الحديثة، على رغم أنه كتاب صادر عن مؤسسة عربية هي جامعة برنستون، وأن كاتبه تطرح فيه أسئلة لا تخلو من الذكاء، وتوجب عنها بأجوبة لا تخلو من المظهر العلمي المضلل. ولذا يتحتم التنبيه إلى الكتاب للتطهير من أخطائه الفادحة.

ما الذي قاله كرون في كتابها؟ إن ما قاله كثير وخطير، ولا سبيل إلا مناقشته تفصيلاً، وترك الإجمال إلى خاتمة المناقشة.

(١) Crowe, Patricia: Meccan Trade and the Rise of Islam

Bullet, W. Richard: Book Review, International Journal of Islamic and Arabic Studies, (٧)

فكما قالت كرون أن قريشاً ولم تتاجر بالبحر والافاقية أو أية بضاعة أجنبية فاخرة أخرى^(١). ويدلنا قولها «أو أية بضاعة أجنبية فاخرة أخرى» على أنها أرادت أن توحي أن البخور أو اللبان كان بضاعة وأجنبية» مع أن مصدره الأول كان حضرموت، وهو مصدر لا يمكن وصفه بالأجنبي. ذلك أن كرون في مسعاها إلى إثبات القول بأن تجارة قريش كانت محلية لا تتعدى حدود الجزيرة العربية ولا تتطأ البضاعة المطلوبة خارج الجزيرة، ربما أرادت أن اللبان، الذي كان مطلوباً خارج جزيرة العرب على الخصوص، وكانت أسعاره قادرة على إضافة صفة الخطورة على تجارة قريش، قد يخرب دعوها. لما هي بضاعة التجارة المكيّة في نظرها؟ إنها جميعاً منتجات من الجزيرة العربية، ولكن تلك المنتجات التي يمكن أن تفسر ازدهار تجارة مكة هي الذهب والفضة والعمود. ولذا أغفلت ذكر اللبان، وهو نتاج الجزيرة الأخطر تأثيراً في تجارة مكة حسبما بينا، وأعلنت في جملة متبورة: «إننا لا نستطيع القول إن المكّين صدّروا الذهب والفضة إطلاقاً. وإذا ينظر القاري إسناداً أو تفسيراً لإعلانها هذا، ينتل الحديث إلى تجارة الجلود، فلا إسناد ولا تفسير^(٢)». لقد كانت تجارة مكة قبل الإيلاف محلية قطعاً، وإلا لما كان للإيلاف من معنى. ولكن إذا قلنا أن القرشيين خرجوا بتجارته من الجزيرة بفضل الإيلاف، وأن هذه التجارة لم تتطأ بضاعة تجارة الشرق من حرير وتوابل وبخور وفضة، فإن كرون لا نفدنا عن الطريق أو السرب الذي سلّكه تجارة الشرق هذه عندما أقضت الحرب البيزنطية الساسانية طريق القرات ولم تنشط بدلاً منها طريق البحر الأحمر.

ولقد اقتربت كرون مرات من الاعتراف بتجارة مكة الدولية، لكنها أحجمت في كل مرة بجميل غامضة، دون تفسير لهذا الإحجام. إذ تقول في بعض كتابها: «إن ثمة أدلة مقنعة على أن المكّين تاجروا بالعمود. وكان مركز صناعة العمود العربية عدن، ويقول المرزوقي إن اليهود أيضاً كانوا يصنعون عمودهم هناك، فيحيطون على ما يبدو المواد الأولية، ويمودون بالطيب

(١) Crowe: op. cit., p. 83

(٢) Crowe: Ibid., p. 87

المعمول». ونضيف: «في الوقت نفسه كان تجار آخرون ينقلون العطر اليمني برأى إلى فارس وبمزنطة فلا تقول من هؤلاء التجار «الأخرون». وإمعاناً في إبعاد «الشبهة» عن المكين تسارع إلى القول: «وعندما غزت الفرس اليمن صارت صناعة المطر إلى سيطرة الفرس»^(١). وهذا صحيح، لكن موضوع البحث هو التجارة المكنة، لا الصناعة اليمنية. ولا مفر من الاعتراف بأن أسلوب التفضيل ذكي.

وحتى تؤكد كرون أن مكة لم تقم فيها تجارة على الإطلاق، تشير إلى أنه «لم تقم تجارة في عرفة ولا في بني، والآخرى أنه لم تقم تجارة في مكة نفسها»^(٢). وهذا صحيح مرة أخرى، لأن مكة لم تقم أسواقاً في حرمها، وكانت أسواقها في عكاظ ومجنة وفي المجاز. ولكن هذا لا يعني أن مكة لم تتاجر. بل إن هذا قد يعزز الاعتقاد أن مكة، إذا كان لها من تجارة، فهي تجارة عبور دولية، ولم تكن تتوقف عند الأسواق المحلية. وتبقى كرون أي صفة تجارية لحروب الفجار، فتقول إن هذه الحروب حدثت في عكاظ ولأن الناس كانت تجتمع هناك، ولم تقل لماذا كانت الناس تجتمع هناك. وإذا تستعرض أسباب هذه الحروب تذكر تحرش جبية بلعلاء، وتذكر قتل رجل رجلًا ماله، وتذكر قتل البراض عروة الرخال، وتغفل التدقيق في قبيلة المتحرشين والمتحرش بهم. وقد أثبتنا أن قريشاً وخمسها كانوا في جميع هذه الحالات يتحرشون بهوازن، وقبيلة الحيرة في تجارة قوافلها^(٣)، حينما كانت الحيرة تحاول تسير خط قوافل تجارية إلى اليمن، لا يمر عبر مكة. ولا مفر من الاشتباه بأن الأسباب في هذه الحروب كانت تجارية، ولا وصفاً أنفسنا إما بالفضلة لويبة تحوير الحقائق التاريخية. وقد أثبتت كرون أن الاحتمال الأول لا ينطبق عليها.

وقد نفت أن تكون قريش قد تاجرت بالزيت والخمر والأطعمة والملابس، على أساس أن الشام لا تحتاج إلى الزيت والخمر وأن الملابس الشامية أفضل

(١) Crowe: Ibid., p. 93 (١)

(٢) Crowe: Ibid., p. 171 (٢)

(٣) انظر باب حروب الفجار فيما مضى.

نسيجاً. لكنها لم تقل شيئاً عن احتمال أن تجار قریش بالزيت الشامي في اليمن والحشة، أو بالتصوير والزبد ومتجات الإبل في بلاد الشام، وبالخمر في بلاد العرب، وبالملايس في غير الشام^(١). ولم تقل شيئاً في الفروق المحتملة بين أنواع الملايس أو الأطعمة المختلفة التي يمكن أن تنتجها الجزيرة والشام، والمبالغة بينهما. ولم تقل شيئاً في احتمال نقص ما في سوق الشام، تسدّه جزيرة العرب بما لديها من الفائض من التاج ذاته. وبذلك مضت كرون في نفي تجارة مكة، حتى أدركت مرحلة لا تُصَلِّق، نفت فيها وجود حرم في مكة قبل الإسلام، فقالت: «إذا كان الحرم المكي لا يجتلب حجاجاً، ولا يحبس سكانه، ولا يؤثر في النشاط الاقتصادي، فبأي شكل كان هذا الحرم موجوداً أصلاً... إن المصادر تثبت الانطباع أن قسمة مكة منشؤها إسلامي، لا سابقاً للإسلام»^(٢). أما المصادر التي تثبت ذلك، فلا تدلُّنا كرون عليها بهامش أو كلمة. وفيما تدور كل مقائنها حول محاولة إثبات أن مكة لم تُقم لها تجارة خارجية، إذا بها تقول: «إن المكيّين أوقفوا تجارتهم خارج مكة في وقت ما قبل ظهور الإسلام»^(٣)، فلا تعرف أية تجارة أوقفوا. طالما أن قریشاً لم تتاجر خارج مكة، لم لا تعرف ماذا يعني قول كرون «في وقت ما»، هل تلتصق إلى وقعة بدر وما أنت إليه من وقف الفواغل المكيّة. وإذا كانت تلتصق إلى ذلك فلماذا لا تصرّح؟ هل تخشى بتصريحها أن تصل إلى الاستنتاج المطلق، وهو أن وقعة بدر إذا أوقفت تجارة قریش مع الشام، فلأن قریشاً كانت لها تجارة مع الشام؟ وإذا لم تكن لقریش تجارة مع الشام ومع الحيرة، فعلام دارت الحرب بين المدينة ومكة بعد الهجرة؟ ومن أدلة كرون على أن مكة لم تكن تتاجر إلى الخارج أن «المكيّين لم يكن لديهم خشب ولا سفن»^(٤)، ونستدل على ذلك بأن بناء الكعبة استُخدم فيه خشب سفينة رومية هزلت في ميناء الشعيبة. وكذلك برحيل المهاجرين

(١) Crow: op. cit., pp. 101 - 108 (١)

(٢) Crow: Ibid., p. 183 (٧)

(٣) Crow: Ibid., p. 113 (٧)

(٤) Crow: Ibid., p. 5 (٤)

المسلمين إلى الحبشة في سفن قالت إن من الواضح أنها لتجار أجنبية ولم تقل كيف استنتجت ذلك. ولكن من قال إن قرشاً كانت تمتلك لتجارها مع الحبشة أسطولاً خاصاً؟ لقد كان لأزد عمان الذين اهتموا الملاحة بأنون ببضاعة الهند وسيلان إلى موانئ الخليج واليمن لحساب تجار مكة، فلماذا لا تستأجر مكة أيضاً سفناً لتجارها مع الحبشة، من لديهم خشب وسفن؟

وتوسع كرون بذكر منطقها مستندة إلى هذا الدليل الفاسد، فتقول متهمكة عن المحققين: «إنهم قدم حججهم إذ كانوا يبحرون إلى إفريقيا والهند، ولكنهم ما إن يصلوا إلى شواطئهم حتى يتقلوا بضاعتهم بالقوافل، فسفهم وهم ملامتها للأسفار الطويلة، كانت بدائية فلا تحتل الإبحار في البحر الأحمر، وكذلك على ما يبدو في الخليج»^(١). وهذا تهكم يبدو ذكياً، لولا أننا لم نشر في أي مرجع أو مصدر على من أقام يوماً أن قرشاً كانت تبحر في سفنها إلى الهند أو إفريقيا. فإذا كان الفرسيون مثلاً يستأجرون سفناً يقومها بتجارة الأزد الذين احترقوا الملاحة ولم يحترفوا قيادة قوافل الصحراء، فلن يعود من سبب لنتهم، لأن إحصار التجارة البضاعة إلى حيث يتسلمها تجاراً احترقوا تسير القوافل ولم يخوضوا البحر، يصبح أمراً منطقياً جداً.

وتبلغ كرون غاية تجاهلها واحترارها للمصادر العربية الإسلامية حين تقول وليس ثمة دليل على وجود تجار قرشين في عدن، أو على تنظيم قرش قوافل من هناك إلى الشام^(٢). ويتابعها في ذلك يترؤ الذي اطلع على كتابها فكتب مقالة ينفي هو الآخر فيها تجارة مكة. ويحضي يترؤ المصادر البيزنطية ثقته الكاملة، ويتخذ علو تاريخ بروكوبيوس الحمادي للمغرب من أي إشارة إلى تجارة قرش، على أنه دليل على عدم قيام هذه التجارة أصلاً. ولا يكتفي بذلك بل يحضي إلى القول: «من وجهة نظر الاستخبارات البيزنطية العسكرية والتجارية، لم تكن مكة موجودة سنة ٥٦٠ م». وبدلاً من أن يحد يترؤ ذلك نقصاً في تاريخ

(١) Cramer: Ibid., p. 9

(٢) Cramer: Ibid., p. 93

بروكوبوس، وهو نقص بلام المؤرخ البيزنطي فيه كثيراً في الواقع، تراه يكاد يفتخر بهذا النقص إذ يقول إنه يبدو مطلقاً إطلافاً مدعياً على المسائل العربية في منتصف القرن [الميلادي] السادس^(١).

ونبدي كرون اغتباطاً بنفي فلهاوزن قيام حج إلى مكة، على أساس أن الحج كله تقريباً، حتى في الإسلام، يحدث في خارج المدينة. وتقول في هذه الحجة إنها مسألة يصعب رفضها^(٢). وهذا أمر مفهوم. وليس من دافع إلى رفضها، ولا حتى مناقشتها، طالما أنها تؤيد مقالة كرون برأي من باحث ذي صيت ومكانة. ولكن كرون تسمى مع ذلك إلى تعزيز حجتها لنفي أي دور لمكة. فتصف شعائر الحج ولا تغفل منها إلا الطواف بالبيت والثنية، أي الأساس والتمهي. ثم تضيف أن «الزيارات» إلى مكة ربما أضيفت إلى هذه الشعائر بعد الإسلام^(٣). وهذا نموذج لما يستطيع أن يذهب إليه التوضيب المنطقي والتوليف الموثق في إثبات عكس ما هو ثابت، حين يصير الباحث سلفاً على فكرة يبحث لها عن أدلة تصاغ في سياق منطقي يبدو مقنعاً. إن نفي كرون للطواف والثنيات حول الكعبة قبل الإسلام لا يجعل لها جفأً يرق طالما أن القارئ العادي قد لا يكون مطلعاً على كتاب الأصنام لابن الكلبي. وهذا الكتاب على أية حال هو من المصادر الإسلامية التي لا ترى لها كرون أي قيمة، فلا تأتي على ذكرها إلا إذا تناقضت رواياتها، فتكون تلك فرصة لا تُعوّض للقفز عليها من أجل إثبات كل تناقضاتها ورفضها جميعاً. ففي تفسيرها لسورة قريش تصيب عضوين بحجر: الأول هو إثبات تناقض المصادر الإسلامية وتأكيد عدم جدارتها جميعاً بثقة الباحث، والثاني هو رفض التفسير القائل إن رحلة الشتاء والصيف هي تجارة قرشية دولية طالما أن كل التفسيرات في المصادر الإسلامية غير موثوق بها. ولذا تجمع كرون في أسطر مضبوطة جميع التفسيرات المختلفة التي عثرت عليها في المصادر الإسلامية لسورة قريش. فهي تعني مرة رحلة

(١) Peters: The Commerce... pp. 9, 10

(٢) Cross: op. cit. pp. 173

(٣) Cross: ibid., pp. 174, 185

التجارة القرشية إلى الشام، ومرة إلى الشام واليمن، ومرة إلى الشام والحبيشة، ومرة جميع هذه الرحلات معاً، ومرة إلى المرقأ أيضاً. وتعني سورة قريش في مواضع أخرى مصيف المتكئين في الطائف، أو تعني «الزهارات» الشعائرية إلى مكة. والسورة في تفسيره هي إشاعة بدء قريش تجارتها، وفي تفسير آخر هي إشاعة بتتابعها هذه التجارة. وهي لدى البعض تشير إلى حاجة قريش للغذاء المستورد ولدى البعض الآخر تلمح إلى المجاعة في مكة، أو ربما إلى عادة المتكئين الانتحار جوعاً قبل الإبلاف. والسورة قد تشير إلى عقود قريش مع بعض القبائل، أو قد تشير إلى حرمة القرشين، أو إلى حرمة مكة نفسها، أو إلى حاجتها إلى الدفاع، أو إلى أسنها بعد هزيمة الأحباش، أو إلى نجاة قريش من داء البرص، أو إلى احتكار قريش الخلافة... وتضيف كرون بعد كل هذا وأن المفسرين لم يملكوا تفسيراً للسورة أفضل مما نملك اليوم^(١). إن هذا الضغط النفسي على القاري، بحشر جميع الروايات المتناقضة معاً في بضعة أسطر كفيل أن يلقى في قلب القاري غير المطلع بالأس من المصادر الإسلامية حبال وفوضى، التفسيرات هذه. لكن القاري المدقق يعلم أن كرون يحملها هذا تتجنب متعمدة نقد المصادر، حتى لا تضطر إلى القول إن بعضها جيد وبعضها الآخر فاسد، وبذا يباح لها القول إنها جميعاً فاسدة.

وتمضي كرون خطوة أخرى في تفسيرها الخاص للتاريخ العربي، فتقول إن الجنود العرب في الفداسة قبل لهم: «إذا بُيِّمَ في القتال... فستكون لكم أموالهم ونسائهم وأولادهم وبلادهم». وتتهم مرة أخرى، لأن التهمك أسلوب إقناع في بحثها التاريخي، بأن «الله قلماً كان أوضح نطقاً» إذ قال للعرب إنه يحق لهم أن يمتزحوا نساء الآخرين وأولادهم وأرضهم، بل إنه واجبهم أن يفعلوا ذلك... وبذا رفع إله محمد روح القتال والجشع القبلي إلى مرتبة الفضائل الدينية العليا^(٢). ولا شك في أن هذا القول غير لطيف في حق المسلمين. لكن عيب الأكبر أنه قول غير صحيح علمياً أيضاً، إذ إن كرون بذلك تفترض أن

(١) Crane: *Ibid.*, pp. 209, 210

(٢) Crane: *Ibid.*, p. 245

القبائل العربية قبل الإسلام لم تكن تغزو وتسي، وأنها انتظرت الإسلام ليحتها على ذلك. وهذا الافتراض لا يستحق مناقشة. لقد كان الغزو والسي أسلوب عيش القبائل قبل الإسلام، فما الذي تبدّل حتى خرجت هذه القبائل حاملة عقيدتها إلى العالم. إن هذا التبدّل هو العامل الجديد الذي ترفض كرون رؤيته. وهي إذ تقول إن ما فعله الرسول في القرن السابع كان يمكن أن يفعله في أي قرن، على أساس أنه كان يكفيه تحليل الغزو وجعله سنّة دينية، إنّما تتجاهل اتصال التاريخ العربي بما يحيط به من حوادث، تتجاهل لا يلق بأي باحث تاريخي محترم. ولا مفر من الاشتباه في أنها كانت تحفن مشاعر بنفشاء أخذت تنفس عنها مداراة أحياناً ومراجعة أحياناً أخرى. فقالت في حديثها على غزو الرسول لقافلة قرشية تحمل فقة إلى الشام: «سرق السي لخصمهم»^(١). وفي موضع آخر وصفت المسلمين بأنهم: «وكرر لصوص»^(٢). وهذان الوصفان مفيدان لأنهما يساعدان كرون على التفسير عن مشاعرها حيال الإسلام، ويظهران قوة تأثير عواطفها الشخصية في إفساد تحليلها التاريخي إفساداً تاماً ينزع عنه أية قيمة مرجعية.

إن إحصاء الأخطاء أو التحليلات المضلّة في كتاب كرون أمر صعب، لكثرتها وولفتها، ولقيام بعضها على بعض في كثير من الأحيان. ففي موضع مثلاً تسوق القاري إلى مسألة تبدو فيها محاولة استنفاله واضحة وضوحاً تاماً، إذ تنفي أن مكّة قد صدرت الذهب المستخرج من المناجم المكيّة وغيرها في الجزيرة العربية، وتؤكد أن هذا الذهب لم يكن للتصدير، بل بديلاً من المال^(٣). واحتمدت كرون على خفلة القاري لتبرير هذه الحقّة. فالتفد الذهبي أنفع للتجارة الدولية من السلع الذهبية، لأن التجارة الدولية تحتاج إلى رأس ماله قال بيزن إن مكّة كانت تفتقر إليه^(٤).

(١) Crowe: *ibid.*, p. 91

(٢) Crowe: *ibid.*, p. 165

(٣) Crowe: *ibid.*, pp. 93, 94

(٤) Peters: *op cit.*, p. 8

... أما يبرز فإنه يستخدم الأسلوب نفسه وإن كانت النية الميئة عنده أقل وضوحاً منها عند كرون. فيقول في بعض كتابه: «إن سياسة بيزنطة حيال التجارة الدولية كانت تقضي طبعاً إلغاء الوسيط تماماً، لا لإلغاء المكوس فقط بل للسيطرة على التجارة أيضاً. ففي الماضي كانت السلطات الرومانية مشغولة بالمجز في ميزان تجارتها؛ إذ كان مقدار كبير من الذهب يخرج من الإمبراطورية لقاء البضاعة الفاخرة. وليس ثمة أسباب كافية للاعتقاد بأن الحال كان مختلفاً في القرن السادس. وكانت الإمبراطورية البيزنطية مستعدة لكل اتصال من وسطاء آسيا الوسطى، الصغد والترك وغيرهم، ممن بعثوا وفوداً إلى القسطنطينية سنة ٥٦٨ م. للتفاوض في شأن تجارة الحرير، على حسب الساسانيين بالطبع» (١). وقد غفل يبرز عن ملاحظة أن الصغد والترك كانوا هم أيضاً وسطاء في هذه التجارة. ولذا لم يكن سعي بيزنطة إلى التعامل معهم سعيّاً إلى إلغاء الوساطة، بل إلى انتزاعها وانتزاع فوائدها المالية من أيدي هذه بيزنطة الأولى: الفرس. وهذا يعني أن بيزنطة التي كانت تفضل إلغاء الوسطاء قطعاً، فلم يتيسر لها ذلك، كانت مستعدة لقبول الوساطة التجارية المكثفة، طالما أن هذه الوساطة ليست في قبضة الفرس. وقد سبقت الإشارة في باب حروب الفجار إلى حاجة مكة إلى إثبات حيادها واستقلال تجارتها عن حكم الفرس، مما يسهل مهمتها التجارية في أسواق بيزنطة الشامية.

ولكن إذا كانت تحليلات كرون ومناقشاتها مضللة، فإن الاسترسال في تعداد مواضع الخطأ والتضليل في كتاب كرون، قد لا يساعد القارئ في الخروج بصورة واضحة تجنبه مزالق الغموض. فإذا أجملنا لأمكن حصر أخطاء كرون في ثلاثة هي الكبرى:

أولاً: وقعت كرون في الخطأ الذي اتهمت به الآخرين معكوساً؛ فاتهمت لامنس ومونتغمري وات وغيرهما، بأنهم وثقوا بالمصادر الإسلامية العربية وأغفلوها على حلاتها، بعد استبعاد العناصر العجائية منها. ففهما أظهرت بشغف

(١) Peter, ibid., pp. 7, 8

علوم وتلّف واضح تناقض الروايات الإسلامية في عدد من المسائل، ومنها الإيلاف ورحلة الشتاء والصف ومضى قوله: «أَطْمَنَهُمْ مَنْ جُورَ وَأَمَنَهُمْ مَنْ خُوبَ» (قريش: ٤)، فإنها غطت الخطوة الأولى في نقد النص ونقد المصادر وأصبحت متعمدة من أن تخطر الخطوة التالية. فإذا قلنا إن روايات المصادر متناقضة، فليس حتماً أن جميع الروايات خاطئة، ولا يرقى بها جملة. فكان عليها في الخطوة التالية أن تحلّ مختلف الروايات والصيغ لتحاول القول إن هذا النص غير مقبول، وإن هذا بعيد الاحتمال، وإن ذلك مقبول، وإن هذا مرجح، وإن هذا موثوق به مضمون الصحة. فإذا كان تناقض أي روايتين حجة عليهما معاً، فإن في إمكان أي مؤرخ فاسد الرواية أن يلقي أعظم التوريع، ولهما يمكن للبعض أن يخطئه حين يحض المصادر ثقة بلا تدقيق، فإن كرون أنطانت متعمدة في الإحجام عن قبول أي نص، حتى يتسنى لها فيما بعد إصدار أي رأي أو نفي أي قول، دون كثير عناء. وقد أبقت كرون دأباً على التدقيق، لكنها صرفت كله في التشكيك في المصادر، ولم توفر شيئاً من الخروج بالروايات الصحيحة. ولذا نستطيع الادعاء أنها بهتت نية، ولم تخطئه في ذلك خطأ عفوياً.

ثانياً: أكدت كرون من أول كتابها إلى آخره أن أسباب النهوض المكي في مرحلة الإيلاف قبل الإسلام، قد فسرت تفسيرات خاطئة. فمرة نسب نهوض مكة إلى ازدهار تجارتها الدولية، ونسب مرة أخرى إلى مكانة مكة الدينية والسياسة بين العرب، وألصقت كرون للفارسي أن هذه الأسباب ليست هي الأسباب الحقيقية، لمضى الفارسي صفحة إلى صفحة ينتظر الساعة التي يظهر فيها التفسير الصحيح، في رأي كرون، لنهوض مكة. لكن جميع التفسيرات تهاوت مثل قصود الورق، ووصل الفارسي إلى خاتمة الكتاب، فلم يجد التفسير. ليس من تجارة في مكة، وليس من حرم يمتدح إليه العرب في مكة، بل إن مكة ليست في الحجاز، بل كانت قبل الإسلام لربة من خليج العقبة. فما هو تفسير نهوض مكة إذن، وكيف أمكن لهذه المدينة الصحراوية أن تصل إلى المكانة التي أدركتها قبل ظهور الإسلام في ميزان السياسة الدولية. إن كرون لا تحب بشيء.

وتكفي بإلغاء كل الضميرت واحداً واحداً، فتحدث بملك شجرة مضاعفة في أنها غير رغبة في الضمير، بل رغبة في إلغاء كل الضميرت، على نحو مررب.

ثالثاً: اضطلت كرون خطأ منطقياً يتعلق بفلسفة التاريخ، فعملت بعض الحقب لتثبت أن مكة لم تكن لها تجارة دولية، وهذا صحيح في بعض الحقب وغير صحيح في بعضها الآخر. فإذا كانت القوافل في زمن ما تمرّ بسلام عبر بادية الشام فتنتقل بضاعة الفرات الآتية بالسفن من الهند، إلى مدينة تدمر، لتسلمها بيروتات التجارة الرومانية، فإنه يتعذر فهم الحاجة إلى تجارة قوافل مكة. وإذا كانت قوافل أخرى تستطيع نقل الحرير في الطرق الآسيوية، غير بر الأناضول إلى القسطنطينية، فلماذا يتعين علينا أن نصق أن التجار فضلوا اتخاذ طريق أطول نحو الجنوب بحراً ليسروا في مكة؟ وإذا كانت سفن رومة أو بيزنطة تستطيع أن تبحر بسلام عبر البحر الأحمر لتنتقل التجارة الآتية من سيلان في المحيط الهندي، لأي منطق يقضي حوضاً عن ذلك استخدام القوافل الصحراوية؟ إن هذا منطق سليم طبعاً. لكنه لم يكن ممكناً في جميع الحقب. وتعميم القول بعدم الحاجة إلى التجارة المكية في كل عصر وزمان ينم عن تجاهل للظروف المتبدلة. هذه الظروف المتبدلة جعلت مكانة تدمر تنقص بسبب ثورتها على رومة وزوال الحكم القوي الذي كان يقود تجارتها الدولية وينظمها. وطريق الفرات عبر بادية الشام إلى المتوسط اندثرت شيئاً فشيئاً واستعوض عنها بطريق أخرى حين كانت تلم بها الحروب البيزنطية الساسانية، أو القتال الداخلي الفسائي. وكانت طرق القوافل الآسيوية تُفقر لأسباب شبيهة. أما البحر الأحمر فكانت حصص من التجارة الدولية تزدهر وتنقص حسب الظروف السياسية والعسكرية على سطحه، لكن الملاحة فيه قلماً كانت مأمونة المواقب في أي حال، حسبما يقول حوداني وغيره بسبب الرياح والقرعة^(١)، وبسبب كثرة الموحان في شماله^(٢)، ولم يكن كل أباطرة رومة راغبين أو قادرين مثل

(١) Hourani: op. cit., pp. 20, 21

(٢) Hourani: ibid., p. 5

ترايانوس، على إنشاء أسطول في البحر الأحمر لمعاقبة القراصنة^(١). فإذا تعمّدت سلوك كل الطرق البديلة، وظهرت في مكة قيادة طورت رأس مالها وتنظيمها شيئاً فشيئاً لسد الفراغ، فإن الإصرار على تجاهل هذا التبديل لا يعود من قبيل الحرص العلمي، بل من قبيل الرغبة المتمممة في التحوير.

لقد استطاعت التجارة الدولية عبر تدمر، أن ترفع هذه المدينة العربية إلى مصاف الدول الكبرى، فهزمت الفرس، وكادت أن تصرع رومة. ولا شك في أن مكة التي ورثت من تدمر، ولو بعد حين، شريان التجارة الشرقية، قد طوّرت قدرتها، حتى نهضت هذا النهوض الخطير. وتلك حقيقة تاريخية، لا يستطيع أن يلغوها كتاب مشبوه كاد أن يتمنطق بلباس الوقار العلمي.

ثبت المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (ت: ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)

- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٦٥.

ابن خالويه، أبو عبدالله الحسين بن أحمد (ت: ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م)

- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، دار الكتب، مصر، ١٣٦٠ هـ.

١٩٤١ م

ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله (ت: ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م. على الأكثر)

- المسالك والممالك، مطبعة بريل، لندن، ١٣٠٦ هـ.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت:

٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر،

بيروت، ١٩٧٨.

ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي (ت: ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)

- تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، بلا محقق ولا تاريخ.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت: ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)

- المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى،

١٩٦٠، أو الطبعة الثانية، ١٩٦٩.

ابن كثير، عماد الدين اسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م)

- تفسير القرآن، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٦.

ابن الكلبي، هشام بن محمد بن السائب أبو المنذر (ت: ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م.
على الأكثر)

- كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، المكتبة العربية (مصورة عن نسخة
دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤).

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري
(ت: ٧١١ هـ / ١٣١١ - ١٣١٢ م.)
- لسان العرب، طبعة صادر، بيروت.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت: ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م. على الأكثر)
- سيرة النبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة
والنشر (مصورة عن الطبعة المصرية، ١٩٣٧).

الأزرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت: ٢٢٢ هـ / ٨٣٧ م.)
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ف. فستفلد، غوتنغن، ١٨٥٨،
أعادت طبعه مكتبة خياط، بيروت.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي (ت:
٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م.)
- الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.

الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت: ٤٥٦ هـ /
١٠٦٤ م.)

- كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة المثنى، بغداد، بلا
تاريخ.

الأندلسي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد (ت: ٦٨٥ هـ /
١٢٨٦ - ١٢٨٧ م.)

- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصرت عبد الرحمن،
مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢.

البغدادي، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي (ت: ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م. ٨٦٠ م.)

- المعجب، تحقيق أيلزه ليختن شتير، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٤٣ (مصورة عن طبعة حيدر آباد، ١٩٤٢).
- المنق، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

البغدادي، أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي (ت: ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م.)
- الأمالي، دار الأفاق الجديدة، مصورة عن دار الكتب المصرية، بلا تاريخ.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت: ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م.)
- معجم ما استعجم، طبعة السقاء، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جعفر بن داود (ت: ٣٠٢ هـ / ٨٩٢ م. على الأرجح).
- أنساب الأشراف، الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني الفقيمي البصري (ت: ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ - ٨٦٩ م.)
- كتاب البلدان، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٧٠، مستقلة من مجلة كلية الآداب.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت: ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م.)
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

الرازي، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري فخر الدين (ت: ٦٠٦ هـ / ١٢١٠ م.).

- التفسير الكبير، الجزء الأول، المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر بمصر، بلا تاريخ.

الزبيري، المصعب بن عبدالله (ت: ٢٣٥ هـ / ٨٥١ م. على الأكثر)
- نسب قريش، تحقيق إ. ليفي بروفسال، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣.

السهيلي، عبد الرحمن بن الخطيب أبو القاسم (ت: ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م.)
- الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، بلا تاريخ.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت: ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م.)
- الملل والنحل، مكتبة المشى، بغداد، بلا تاريخ.

الطبرسي، الفضل بن الحسن بن الفضل (ت: ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م.)
- مجمع البيان في تفسير القرآن، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م.)
- تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، بلا تاريخ.
- جامع البيان في تفسير القرآن، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت بعد: ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م.)
- الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب.

غيون، إدوارد (ت: ١٧٩٤ م.)
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تعريب محمد علي أبو ريدة وآخرين، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. وهو تعريب
لكتاب: The Decline and Fall of the Roman Empire

المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني (ت: ٤٢١ هـ).

(١٠٣٠ م.)

- الأزمة والأمكنة، حيدر آباد الدكن، ١٣٣٢ هـ.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٦ هـ / ٩٥٧

٩٥٨ م.)

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شاول بلا، منشورات الجامعة

الليمانية، بيروت، ١٩٦٦.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م.)

- إمتاع الأسماع، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١.

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت: ٧١٠ هـ /

١٣١٠ م.)

- تفسير النسفي أو مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء الكتب

العربية بمصر، بلا محقق ولا تاريخ.

النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي (ت: بعد

٨٥٠ هـ / بعد ١٤٤٦ م.)

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بولاق، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

الهمداني، أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد (ت: ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م.)

- كتاب الإكليل، الجزء الأول، تحقيق محمد بن علي الحوالي، مطبعة

السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٣ م. الجزء الثامن، حرره نبيه أمين

فارس، برنستون، ١٩٤٠. الكتاب العاشر، تحقيق محب الدين الخطيب،

المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.

- كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٢ هـ.

٢- المراجع العربية والمعربة

- الأسد، ناصر الدين: مقدمة لدراسة القبائل العربية في الخليج قبل

الإسلام: هجراتها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى بالجزيرة العربية، دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى إحسان عباس، تحرير وداد القاضي، الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٨١.

- أمين أحمد: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، الطبعة العاشرة، بيروت، ١٩٦٩.

- الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٧.

- أوليري، ديلاسي: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، تعريب وهيب كامل، مكتبة الهفة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢.

- أوليري، ديلاسي: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، تعريب تمام حنان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١.

- بيضون، إبراهيم: الأنصار والرسول، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٩.

بيضون، إبراهيم: الإيلاف والسلطة في مكة قبل الإسلام، دراسات، السنة الثانية عشرة، العدد ١٨، كلية التربية، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٥.
بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.

- حمّور، عرفان محمد: أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، ١٩٧٩.

- حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.

- الذّبيس، يوسف: من تاريخ سورية الدنيوي والديني، بلا ناشر ولا مصدر ولا تاريخ، مصوّرة عن طبعة بيروت الأصلية.

- درادكة، صالح: إيلاف قريش، ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام، دراسات تاريخية، المجلد ١٧ و ١٨، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، آب - تشرين الثاني / أغسطس - نوفمبر، ١٩٨٤.
- الدوري، عبد العزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٢.
- رستم، أسد: عصر أوغوستوس قيصر وخلفائه، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٥.
- السيد، رضوان: جدليات العقل والنقل والتجربة التاريخية للأمة في الفكر السياسي العربي الإسلامي، مجلة الفكر العربي، المجلد ١٥، أيار وحزيران / مايو ويونيو، ١٩٨٥.
- الشريف، أحمد إبراهيم: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٥.
- شيخو، لويس: شعراء النصرانية في الجاهلية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٢. مصورة عن الطبعة الأولى لمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٦.
- الصلوي، إبراهيم محمد: قصة أصحاب الأخلدود، أطروحة غير منشورة، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٩.
- ضو، بطرس: تاريخ الموارثة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧.
- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت - دار النهضة، بغداد، ١٩٧٦.
- العلي، صالح أحمد: محاضرات في تاريخ العرب، مكتبة المشق، بغداد، ١٩٦٨.
- فازيليف، أ.أ.: العرب والروم، تعريب محمد عبد الهادي شعيرة،

وزارة المعارف العمومية، القاهرة، بلا تاريخ.

- قرانكفورت، هـ: (وآخرون): ما قبل الفلسفة، تعريب جبرا إبراهيم

جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠.

- فيلهاوزن، يوليوس: تاريخ الدول العربية، تعريب محمد عبد الهادي أبو

ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.

- مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام، دار الزهراء للإعلام العربي،

القاهرة، ١٩٨٧.

- ولفستون، إسرائيل: تاريخ اللغات السامية، مطبعة الاعتماد، القاهرة،

١٩٢٩.

٣ - المصادر والمراجع الأجنبية:

- ABERCROMBIE, Thomas J.: *Arabia's Fankleresse Trail*, National Geographic, vol. 168, Nr.4, Oct. 1985, pp. 474 - 513.

- AHMAD, Nafis: *The Arabs' Knowledge of Ceylon*, Islamic Culture, vol. 19 (1945), pp. 223 - 241.

- ALI, Abdul: *The Arabs as Seafarers*, Islamic Culture, vol. 54 (1980), Nr. 4, pp. 211 - 222.

- AMIT, M.: *Athens and the Sea, a Study in Athenian Sea Power*, Latomus, Bruxelles, 1965.

- ANANI, Ahmad: *Gulf Relations with the West: an Historical Survey (Part I)*, Islamic Culture, vol.60 (1986), Oct., pp. 53 - 82.

- BOWERSOCK, G.W.: *A Report on Arabic Provinces*, Journal of Roman Studies, 61 (1971), pp. 219 - 242.

----- *Syria under Vespasian*, Journal of Roman Studies, 63 (1973), pp. 133 - 140.

- BRADFORD, Ernie: *The Year of Thermopylae*, Mac Millan London Limited, 1980.

- BURN, A.R.: *Perin and the Greeks*, Stanford University Press, Stanford, California, 1984.

- Cambridge Ancient History, Cambridge University Press, 1951.
- CASSON, Lionel: *Ships and Seemannships in the Ancient World*, Princeton University Press, Princeton, 1971.
- CHARLESWORTH, M.P.: *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, Cambridge University Press, 1924.
- CLOWES, G.S. Laird: *Sailing Ships, their History and Development*, Ministry of Education, London, 5th.ed., 1932, reprinted 1959.
- CONRAD, Lawrence I.: *Abraha and Muhammad: Some Observations Apropos of Chronology and Literary TO POI in the Early Arabic Historical Tradition*, B.S.O.A.S., vol.50 (1987), pp. 225 - 240.
- CRONE, Patricia: *Meccan Trade and the Rise of Islam*, Princeton University Press, 1987.
- CULVER, Henry B.: *The Book of Old Ships*, Garden City Publishing Company, New York, 1935.
- DARREL, Haug Davis: *The Earth and Man*, Mac Millan New York, 1943.
- DE PLANHOL, Xavier: *Les Fondements Géographiques de l'Histoire de l'Islam*, Flammarion, Paris, 1968.
- DEVREESE, Robert: *Arabes-Perces et Arabes-Romains, Lakhmides et Ghassanides*, Revue Biblique, II (1942), pp. 263 - 307.
- DIODORUS SICULUS: Translated by C.H. Oldfather, the Loeb Classical Library. London and Cambridge, 1935.
- DONNER, Fred McGraw: *The Bakr b. Wa'il Tribes and Politics in North-eastern Arabia on the Eve of Islam*, Studia Islamica, Ex fasciculo LI, (1980), G.P. Maisonneuve-Larose, Paris.
- _____ *The Formation of the Islamic State*, Journal of the American Oriental Society, 106.2 (1986), pp. 283 - 296.
- _____ *Mecca's Food Supplies and Muhammad's Boycott*, Journal of the Economic and Social History of the Orient, vol.xx, part III, pp. 249 - 266.
- _____ *Muhammad's Political Consolidation in Arabia up to the Conquest of Mecca*, The Muslim World, vol. LXIX, No 4 (1979), pp. 229 - 247.
- DOSTAL, Walter: *The Evolution of Bedouin Life*, Studi Semitici, II (1959), pp. 11 - 34.

- *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle Edition, Brill, Leiden-Maisonneuve et Larose, Paris, 1986:

- Abrahā, BEESTON, A.F.L. (Ṭabarī; Ibn Hishām, Aghānī, ... Procope: De bello persico...).
- Hishām b. 'Abd Manīf, MONTGOMERY-WATT, W. (Ibn Hishām; F. Wüstenfeld, Chroniken der Stadt Mekka, Leipzig 1858 - 61).
- Huma, MONTGOMERY-WATT, W. (Ibn Hishām; Ya'qūbī; Azraqī; Ibn Ḥatīb; Muḥabbar; J. Wellhausen: Reste Arabischen Heidentums...).
- Ḥimf, REDACTION (Ibn Ḥatīb; Muḥabbar; Ibn Hishām: Strī; Ya'qūbī; Ibn Sūd; Ṭabarī; Mas'ūdī...).
- Ḥimh, MACDONALD, D.B. (al-Rūd; Ma'fūq al-ghayb; al-Bayḍawī; al-Zamakhsharī...).

- FAHD, Toufic: *Le Panthéon de l'Arabie Centrale à la veille de l'Hégire*, Librairie Orientale Paul Geuthner, Paris, 1968.

- FIEY, Jean Maurice: *Diocèses syriens orientaux du Golfe Persique*, *Mémoires Mgr Gabriel Khouri-Sarkis*, Louvain, 1969, pp. 177 - 219.

——— *Book Review of Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*, by J. Spencer Trimingham, *Theological Review, The Near East School of Theology*, II/2, Beirut, 1979, pp. 43 - 49.

——— *Book Review of L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam*, by Edmond Rabbath, *Theological Review*, III/2, Beirut, 1980.

——— *The Last Byzantine Campaign into Persia and its Influence on the Attitude of the Local Populations towards the Muslim Conquerors* 7 -

الفتح الإسلامي الرابع - 16 H/ 628 - 636 A.D. - ص 17 - 17 / أيار
1980

- GABRIELI, Francesco: *A Short History of the Arabs*, Robert Hale, London, 1965.

- GAWLIKOWSKI, Michel: *Le Commerce de Palmyre sur terre et sur eau*, *L'Arabie et ses mers bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, OS-Maison de L'Orient,yon 1988, pp. 163 - 172.

- GERMANUS, A.K. Julius: *Legacy of Ancient Arabia*, *Islamic Culture*, vol. 37 (1963), pp. 261 - 269.

- GIBB, Hamilton A.R.: *Pre-Islamic Monotheism in Arabia*, *Harvard Theological Review*, vol.55 (1962), pp. 269 - 280.

- GRAF, David F.: *The Saracens and the Defense of the Arabian Frontier*, Bulletin of American Schools of Oriental Studies, 229 (1978), pp. 1 - 26.
- GRUNDY, G.B.: *The Great Fardas War and its Preliminaries*, A.M.S. Press, New York, 1969.
- HAJI HASSAN, Abdullah Alwi: *The Arabian Commercial Background in pre-Islamic Times*, Islamic Culture, vol. 61 (1987), Nr.2, pp. 70 - 83.
- HAMIDULLAH, Muhammad: *Interrelation in the Qur'an and the Hadith*, Islamic Culture, vol. 17 (1943), pp. 327 - 330.
- Al-Baf, on les rapports économique-diplomatique de la Mècque pré-islamique, Mélanges Louis Massignon II, (1957), pp. 293 - 311.
- The Naaf, the Hijrah Calendar and the Need of Preparing a New Concordance for the Hijrah and Gregorian Eras, Journal of the Pakistan Historical Society, 16 (1968), pp. 1 - 18.
- The Concordance of the Hijrah and Christian Eras for the Life-Time of the Prophet, Journal of the Pakistan Historical Society, 16 (1968), pp. 213 - 219.
- Les voyages de Prophète avant l'islam, B.E.O., XXIX, (1979), pp. 221 - 230.
- HARTMAN, Martin: *Qumj*, Zeitschrift für Assyriologie, XXVII (1912), m. 43 - 49.
- HAWTING, G.R.: *The Disappearance and Rediscovery of Zanzibar and the Wall of the Ka'ba*, B.S.O.A.S., vol. 43 (1980), pp. 44 - 54.
- HENNINGER, Joseph: *La société bedouine arabe*, Studi Semitici, II (1959), pp. 69 - 93.
- HERODOTUS: *The Histories*, translated by Aubrey de Séincourt, The Penguin Classics, Edinburgh, 1963.
- HÖFNER, Maria: *Die Beduinen in der Vorislamischen Arabischen Inschriften*, Studi Semitici, II (1959), m. 53 - 68.
- HOURANI, George Fadio: *Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times*, Princeton University Press, 1951.
- HUSEIN, Raef T.A.: *The Early Arabian Trade and Marketing*, Islamic Quarterly, vol.30 (1986), pp. 109 - 117.

- JONES, A.H.M.: *The Cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford University Press, 1971.

- KENYON, Kathleen M.: *Some Aspects of the Impact of Rome on Palestine*, *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, 1970 (2), pp. 181 - 191.

- KIRKBRIDE, Diana: *Le temple nabatéen de Ramat, son évolution architecturale*, *Revue Biblique*, 67 (1970), pp. 65 - 92.

- KISTER, M.J.: *The Campaign of Hadraba, a New Light on the Expedition of Abrahah*, *Le Muséon*, 78 (1965), pp. 425 - 436.

——— *Al-Hira, Some notes on its relations with Arabia*, *Arabica*, XV (1968), pp. 143 - 169.

——— *Maqam Ibrahim, a Stone with an Inscription*, *Le Muséon* 84 (1971), pp. 477 - 491.

——— *"Rajab is the Month of God..." A Study in the Persistence of an Early Tradition*, *Israel Oriental Studies*, I (1971), pp. 191 - 223.

——— *Some Reports Concerning Mecca from Jahiliyya to Islam*, *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, XV (1972), pp. 61 - 93.

- KREHL, Ludolf: *Über die Religion der Vorislamischen Araber*, Oriental Press, Amsterdam, 1972 (Neudruck der Ausgabe Leipzig 1863).

- KRENKOW, F.: *The Annual Fairs of the Pagan Arabs*, *Islamic Culture*, XXI (1947), pp. 111 - 113.

- LAMMENS, Henri: *Les Grandes Fortunes à la Mecque au Siècle de l'Hégire*, *Egypte Contemporaine*, VIII (1917), pp. 17 - 30.

——— *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1928.

- LANDSTRÖM, Björn: *Sailing Ships*, George Allen and Unwin, London, 1969.

- LEWIS, Bernard: *The Middle East and the West*, Harper and Row, New York, 1966.

- LEOWE, Michael: *Spices and Silks: Aspects of World Trade in the First Seven Centuries of the Christian Era*, *Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland*, 1971(2), pp. 166 - 179.

- MAC ADAM, Henry Innes: *Cicero's Reference to Beasts*, reprinted from *Classical Philology*, vol. 78, No 2, April 1983, pp. 131 - 136.
- MILLAR, Fergus: *Paul of Samosata, Zosimus and Aurelian: The Church, Local Culture and Political Allegiance, in Third Century Syria*, *Journal of Roman Studies*, 61 (1971), pp. 1 - 17.
- MILLER, J. Innes: *The Spice Trade of the Roman Empire*, Oxford University Press, 1969.
- MONTGOMERY-WATT, W.: *Muhammad at Mecca*, Oxford University Press, 1953.
- *Economic and Social Aspects of the Origin of Islam*, *Islamic Quarterly*, 1 (1954), pp. 90 - 103.
- *Muhammad at Medina*, Oxford Clarendon Press, 1956.
- MUBARAC, Y.: *Les Noms, Titres et Attributs de Dieu dans le Coran et leurs Correspondants en Epigraphie Sud-Sémitique*, *Le Muséon*, 68 (1955), pp. 93 - 135, 325 - 368.
- NADAVI, Sayyid Sulaiman: *Arab Navigation*, *Islamic Culture*, vol. 16 (1942), pp. 72 - 86.
- NOBIRON, Rev. Bro. Louis: *Notes on the Arab Calendar Before Islam* (Translation of Caussin de Perceval: «Memoire sur le Calendrier Arabe avant l'Islamisme», in: *Journal Asiatique*, Avril 1843), *Islamic Culture*, vol. 21 (1947), pp. 135 - 153.
- PARR, F.J.: *Exploration archéologique du Hedjaz et de Médine*, *Revue Biblique*, 76 (1969), pp. 390 - 393.
- *PERIPLUS OF THE ERYTHRAEAN SEA*, translated by Wilfred H. Schoff, Longmans, Green and Co., New York, 1912.
- PETERS, F.E.: *The Commerce of Mecca Before Islam*, in: *A Way Prepared, Essays on Islamic Culture in Honor of Richard Bayly Winder*, Edited by Farhad Kazemi and R.D. McChesney, New York University Press, New York and London, 1988.
- PFLEUM, H.G.: *La Fortification de la ville d'Adraha d'Arabie (259 - 266 à 274 - 275) d'après des inscriptions récemment découvertes*, *Syria* 29 (1952), pp. 307 - 330.

- **PLINY**: *Natural History*, translated by H. Rackham, London and Cambridge, 1969.

- **POTTS**, Daniel T.: *Trans-Arabian Routes of the Pre-Islamic Period*, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS-Maison de l'Orient, Lyon, 1988, pp. 127 - 162.

- **PRINS**, A.H.J.: *Sailing from Lams, Assen*, 1965.

- **PROCOPIUS**: *History of the Wars*, translated by H.B. Dewing, Cambridge and London, 1979.

RABBATH, Edmond: *L'Orient Chrétien à la veille de l'Islam*, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1980.

——— *Mahomet, Prophète arabe et fondateur d'État*, Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1981.

- **RODINSON**, Maxime: *Mohammed*, Penguin Books, Suffolk, Great Britain, 1977.

- **RONCAGLIA**, Martiniano: *Histoire de l'Eglise Copte*, Dar Al-Kalima, Liban, 1971.

- **ROUGE** Jean: *La Navigation en Mer Erythrée dans l'Antiquité*, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS-Maison de l'Orient, Lyon, 1983, pp. 59 - 74.

- **ROWTON**, M.: *Enclosed Nomadism*, *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, vol. XVII (1974), part 1, pp. 1 - 30.

- **RYCKMANS**, G.: *Un fragment de jarre avec caractères minéens à Tell el-Kheirfeh*, *Revue Biblique*, 48 (1939), pp. 247 - 249.

——— *Graffites Thémoudiens de la région de Cadès*, *Revue Biblique*, 48 (1939), pp. 242 - 247.

- **RYCKMANS**, Jacques: *Inscription de Muralghas (RY 586)*, *La Mésopotamie*, 66 (1953), pp. 330 - 342.

- **SALIBI**, Kamel S.: *Hadramut: A Name with a Story*, *Studia Arabica et Islamica*, Festschrift für Ihsan Abbas, edited by Wadad al Qadi, American University of Beirut, 1981, pp. 393 - 397.

- **SALLES**, Jean-François: *La Circumnavigation de l'Arabie dans l'Antiquité Classique*, dans *L'Arabie et ses Mers Bordières*, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; pp. 75 - 102.

- SANLAVILLE, Paul: Des Mers au Milieu du Désert, Mer Rouge et Golfe Arabe-Persique, dans L'Arabie-et ses Mers. Bordures, I, sous la direction de Jean-François Salles, GS Maison de l'Orient, Lyon, 1988; pp. 9 - 26.
- SERJEANT, R.B.: Harun and Marwan, the Sacred Endow in Arabia, Mélanges Tahar Hussein, 1962, pp. 41 - 58.
- SEYRIG, Henry: Les Inscriptions de Bactra, Syria, 22 (1941 a), pp. 44 - 111.
- _____ Inscriptions grecques de l'Agave de Palmyre, Syria 22 (1941 b), pp. 223 - 270.
- _____ Antiquités Syriennes - Pontes romaines sur la route du Méditerranée, Syria 22 (1941 c), pp. 216 - 223.
- _____ Sur trois inscriptions de Hadjran, Syria 34 (1957), pp. 259 - 261.
- SHAHID, Irfan: The Arabs in the Peace Treaty of 661, Arabica III (1956), pp. 181 - 213.
- _____ Ghassan and Byzantium: A New inscription at qasr, Der Islam, XXXIII (1958), pp. 232 - 253.
- _____ The Last Days of Hisham, Arabica, V (mai, 1958, 2), pp. 145 - 158.
- _____ Byzantine-Arabica: The Conference of Ramla, A.D. 824, Journal of Near Eastern Studies, XXXIII (1964), pp. 115 - 131.
- _____ The Martyrs of Najran, New Documents, Société des Bollandistes, Bruxelles, 1971.
- _____ Byzantium in South Arabia, Dumbarton Oaks Papers XXXIII, 1979, Dumbarton Oaks Center for Byzantine Studies, Washington.
- _____ Philological Observations on the Nabataean Inscription, Journal of Semitic Studies, vol. 24, No1, 1979, pp. 33 - 42.
- _____ Two Qur'anic Suras Al F8 and Qurays, Studia Arabica et Islamica, Festschrift for Hasan Abbas, edited by Wafiq al Qadl, American University of Beirut, 1981, pp. 429 - 436.
- _____ Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, Washington, 1984.
- _____ Byzantium and the Arabs in the Fifth Century, Dumbarton Oaks, Washington, 1989.

- SIMON, R.: L'inscription RY 506 et la préhistoire de la Mécque, *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae*, XX (1967), pp. 325 - 337.
- Hums et Duf, ou Commerce sans Guerre (Sur la Genèse et le Caractère de Commerce de la Mécque), *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae*, XXIII (2) (1970), pp. 205 - 232.
- Sur l'institution de la *Me'qibla*: Entre le tribalisme et l'Umman, *Acta Orientalia Academiae Scientiarum Hungaricae*, XXVII (3), (1973), pp. 333 - 343.
- SMITH, Sidney: Events in Arabia in the 6th Century A.D., *B.S.O.A.S.*, XVI (1954), pp. 425 - 468.
- SOMOGYI, Joseph: The Part of Islam in Oriental Trade, *Islamic Culture*, vol. 30 (1956), pp. 179 - 189.
- STRABO: The Geography, translated by Horace Leonard Jones, the Loeb Classical Library, London and New York, 1930.
- SUBHI, J. Lahib: Die islamische Expansion und das Pflanzenwesen im Indischen Ozean, *Der Islam*, Band 58, Heft I, ss. 147 - 167.
- TRIMINGHAM, John Spencer: *Islam in Ethiopia*, Frank Cass, London, 1976.
- Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times, Longman, London and New York, Librairie du Liban, 1979.
- VAN DEN BRANDEN, Albert: *Histoire de Thamoud*, Publications de l'Université Libanaise, 2e éd., Beyrouth, 1966.
- VILLIERS, Alan: *Monsoon Seas, the Story of the Indian Ocean*, McGraw-Hill, New York, 1952.
- VON GRÜNEBAUM, G.E.: The Nature of the Arab Unity before Islam, *Arabica* X (1963), pp. 5 - 25.
- VON WISSMANN, Hermann: *Himyar Ancient History, Le Muséon*, (1964) (3 - 4), pp. 429 - 499.
- WILL, Ernst: *Marchands et chefs de caravanes à Palmyre, Syria*, 34 (1957), pp. 262 - 277.
- WINNETT, F.V.: *Allah before Islam, The Moslem World*, XXVIII (1938), Kraus Reprint Co., New York, 1968.

الفهرس

الموضوع

الصفحة

المقدمة	٣
الجزء الأول	
الفصل الأول: سورة قريش	١٩
أ - المعنى اللغوي	١٩
ب - المعنى التاريخي	٢١
ج - الغيل وقريش	٢٤
د - فائدة وحدة السورتين	٢٦
هـ - سورة الغيل	٢٩
الفصل الثاني: الغرب وتجارة الشرق	٣٣
أولاً: العرب بين الشرق والغرب	٣٣
أ - الصراع المستمر	٣٣
ب - لواء البدو وعطرم	٣٦
ج - ضرورة التجارة الشرقية	٣٩
د - طرق التجارة البرية	٤٢
ثانياً: رومة وتجارة الشرق	٤٦
أ - الثمن الاقتصادي والسياسي	٤٦
ب - الإسكلندرو والمياه الدافئة	٤٨
ج - سياسة رومة قبل الميلاد	٥١
د - سياسة رومة في القرن الأول	٥٥

- ٥٧ هـ - الحدود الشرقية أمام السلم
- ٦٠ و - نموذجان: تدمير والأنباط
- ٦٣ ز - تراهانوس يضم مملكة الأنباط
- ٦٥ ح - ما بعد تراهانوس
- ٦٨ ثالثاً: عصر تدمير
- ٦٨ أ - الصعود إلى القوة
- ٧١ ب - تنظيم القوافل التجارية
- ٧٣ ج - العقيدة الدينية «المسئلة»
- ٧٧ د - السلوك السياسي الاستقلالي
- ٨٢ رابعاً: ما بعد تدمير
- ٨٢ أ - البحث عن سياسة حدود
- ٨٥ ب - سياسة القرن الرابع
- ٨٧ ج - القرن الرابع على جانبي الفرات
- ٩١ د - القرن الرابع في اليمن
- ٩٣ هـ - القرن الخامس في اليمن
- ٩٥ و - القرن الخامس في فلسطين
- ٩٩ الفصل الثالث: الأحوال الدولية في القرن السادس
- ٩٩ أولاً: الحرب في صحراء الشام وجوارها
- ٩٩ أ - سياسة الحدود في القرن السادس
- ١٠٢ ب - ظهور بني غسان
- ١٠٥ ج - حروب الوكلاء العرب
- ١٠٧ د - عصر المنذر بن النعمان
- ١٠٩ هـ - معاهدة السلام «الأبدية»
- ١١٢ و - أزمة الوكلاء العرب
- ١١٥ ز - حروب نهاية القرن

لأثبات: الصراع في جنوب الجزيرة العربية ١١٨

أ- الحبشة واليمن في التاريخ ١١٨

ب- مسيحو بيزنطة ويهود فارس ١٢١

ج- دخول النصرانية اليمن ١٢٣

د- بداية الصراع في القرن السادس ١٢٧

هـ- الغزو الحبشي الأول لليمن ١٣٠

و- عزل ذي نواس ١٣٣

ز- الغزو الحبشي الثاني لليمن ١٣٥

ح- استيلاء أبرهة على الحكم ١٣٨

ط- ولاء أبرهة لبيزنطة ١٤١

ي- ثورة سيف بن ذي يزن ١٤٤

ك- حكم الفرس لليمن ١٤٧

لأثبات: الصراع داخل الجزيرة العربية ١٥٠

أ- النصرانية في الجزيرة العربية ١٥٠

ب- اليهود على طريق القوافل ١٥٣

ج- نفوذ الفرس في جزيرة العرب ١٥٨

د- ذرائع حملة أبرهة على مكة ١٦٠

هـ- أسباب الحملة الحليفة ١٦٤

و- هام الفيل ١٦٧

ز- من قاتل أبرهة ومن ناصره؟ ١٧٢

ح- مكة وبيزنطة ١٧٦

ط- عثمان بن الحويرث ١٧٩

الجزء الثاني

مقدمة الجزء الثاني ١٨٥

الفصل الرابع: تحارة الإبل وطرقه وتنظيمه ١٨٧

١٨٧	أولاً: عوامل ظهور مكة
١٨٧	أ - وإد غير ذي زرع
١٩٠	ب - مكة والتجارة
١٩٣	ج - أسباب التحول إلى غرب الجزيرة
١٩٦	د - انهيار التجارة اليمنية
١٩٨	هـ - أسباب تفوق مكة
٢٠١	ثانياً: إيلاف قريش
٢٠١	أ - من التجارة المحلّة
٢٠٥	ب - الرواية الإسلامية والشكوك
٢٠٧	ج - إلى التجارة الدولية
٢١٠	د - متى قام الإيلاف؟
٢١٤	هـ - أطراف الإيلاف الأربعة
٢١٩	و - أحلاف قريش القبليّة
٢٢٣	ز - إيلاف القبائل العربية
٢٢٦	ح - الرقادة والسقاية
٢٢٨	ط - تجارة وتدئين
٢٣١	ثالثاً: التجارة والطرق
٢٣١	أ - البضائع ومصادرها
٢٣٧	ب - الحرير والذهب والفضة
٢٤٠	ج - اللبان والفرصة التاريخية
٢٤٣	د - الطيوب والتوابل
٢٤٦	هـ - رحلة الشتاء والصيف
٢٤٩	و - مكة تتاجر
٢٥٤	ز - المال والصيرفة
٢٥٧	ح - الإبل وطرق الصحراء
٢٦٠	خريطة المشرق العربي الساسية قبل الإسلام

٢٦٦	خريطة القبائل العربية في الجزيرة العربية قبل الإسلام
٢٦٨	خريطة الأحلاف القبلية في الجزيرة العربية قبل الإسلام
٢٦٦	ط - هل سافر العرب بحراً؟
٢٦٨	خريطة طرق التجارة في الجزيرة العربية قبل الإسلام
٢٧٣	ي - متى الإبحار إلى الهند؟
٢٧٦	خريطة الأصنام في الجزيرة العربية قبل الإسلام
٢٧٩	ك - سرعة الرحلة إلى الهند
٢٨١	خريطة الطرق البحرية إلى الهند قبل الإسلام

٢٨٥	الفصل الخامس: الإيلاف ومؤسسته
٢٨٥	أولاً: الوظائف المكيّة
٢٨٥	أ - نصيّ المؤسس
٢٨٩	ب - علاقة نصيّ بالتجارة
٢٩٢	ج - السياسة والحرب
٢٩٤	د - لغز الأحابيش
٢٩٦	هـ - إعدام الحجاج والنجار

٢٩٩	ثانياً: العقائد السياسية والدينية
٢٩٩	أ - الحُسن وحرمة مكة
٣٠٣	ب - أهل الجبل والطنس
٣٠٧	ج - الأشهر الحرم
٣١٠	د - حروب الفجار
٣١٥	هـ - انتصار مكة على الحرة
٣١٩	و - الحلف الشخصي والقبلي
٣٢١	ز - المطبوعون والأحلاف
٣٢٦	ح - حلف الفضول
٣٣٠	ثالثاً: النسيء